أوربا العصور الوسطى

الجزء الثانى

النهضات والحضارة والنظم *

تأليف

دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور
أستاذ كرسى تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب — جامعة القاهرة

الطبعة العاشرة
١٩٨٦

الناشر
مكتبة الأنجلو المصرية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

يعتبر تاريخ القرون الوسطى من أشد عصور التاريخ تعقيداً وتنوعاً وأهمية فدراسة هذه الحقبة من التاريخ التى أمتدت ألف عام تتناول تشكيلة ضخمة من الشعوب والنظم والحضارات ، وهى تشكيلة تعبر عن جانب هام من جوانب تطور التاريخ البشرى ، فضلا عما تحويه من كثير من أصول الحضارة الحديثة . ذلك أن القرون الوسطى تمثل العصر الذى بدت فيه بوضوح مظاهر الاختلاف بين الشرق والغرب ، وبين بلاد الشمال وبلاد حوض البحر المتوسط ، وبين القديم والجديد ، وبين التيارات الدينية والدنيوية ، وبين الأفكار المثالية والحقائق الواقعية . هذا إلى أن توسط مركز القرون الوسطى من الناحية الزمنية ، وارتباطها الشديد بالعصور القديمة من ناحية وبالعصور الحديثة من ناحية أخرى ، جعل لها مكانا بارزاً فى تطور التاريخ البشرى الذى امتاز دائما بالاستمرار واتصال حلقاته .

على أن كثيراً ممن يفتقرون إلى حسن الإدراك وعمق المعرفة ، ينظرون إلى العصور الوسطى فى أوربا نظرة تختلف كثيراعن نظرتنا هذه ، فيرمونها بالجمود والمحافظة ، بل بالظلمة الموحشة والجهل المطبق . فهم لايرون فى العصور الوسطى إلا بربرية القوط وهمجية الوندال وأشباههم من شعوب الجرمان، ولايريدون أن يربطوها إلا بتزمت الكنيسة وفوضى الحروب والاغارات ، واستبداد الحكام والأمراء .. ومن الواضح أن هذه النظرة تتجاهل ظاهرة التفاوت الحضارى بين مختلف أنحاء أوربا ، والتغيرات الاقتصادية الهامة التى ألمت بالمجتمع الأوربى فى العصور الوسطى ، وأثر تدفق التيارات الجديدة التى تحمل العلم والمعرفة من الشرق . هذا فضلا عما فى هذه النظرة من تنكر صريح لما حدث فى العصور الوسطى من حركات استهدفت إحياء الحضارة القديمة وابتكار عناصر حضارية جديدة ميزت تلك العصور وأعطتها طابعاً حضارياً خاصاً بها .

ومن المعروف أن الحضارة الأوربية بلغت ذروتها فى الأزمنة القديمة على عصر الأمبراطورية الرومانية . وإذا كانت هذه الإمبراطورية أدركت أقصى اتساعها على عهد الأمبراطور تراجان (٩٨ - ١١٧) ؛ إلا أن مظاهر الإعياء والضعف أخذت تبدو عليها منذ القرن الثالث نتيجة لعوامل متباينة داخلية وخارجية حتى انتهى الأمر بتقسيمها إلى قسمين شرقى وغربى سنة ٣٩٥ ، ثم بسقوط الإمبراطورية الغربية على أيدى الجرمان سنة ٤٧٦ . ويعتبر انحلال الامبراطورية الغربية ثم سقوطها مظهراً أساسياً للمحنة الكبرى التى مرت بها الحضارة الأوربية فى الغرب منذ أواخر القرن الخامس ؛ عندما اشتد ضغط أعداء الامبراطورية على أراضيها . ولاشك فى أن هذه الكارثة التى حلت بالغرب الأوربى على أيدى الجرمان تركت أثراً عميقا فى مستقبل التاريخ الأوربى ؛ كما أنه من الممكن اتخاذ الظروف التى أمست فيها أوربا غداة سقوط الامبراطورية الرومانية فى الغرب نقطة إرتكاز تبدأ منها دراسة تطور الحضارة الأوربية فى العصور الوسطى[1] .

ولو أن هؤلاء الجرمان الذين أغاروا على الامبراطورية الرومانية فى الغرب وأسقطوها ، اندمجوا مباشرة فى محيط أهالى البلاد الأصليين من الرومان ، لخف هول المصاب الذى نزل بالحضارة الأوربية . ولكن الذى حدث بالضبط هو أن الجرمان الذين دخلوا الامبراطورية الرومانية وأقاموا ممالك جديد داخل حدودها استمروا — فى معظم الحالات — يعيشون فى ظل قوانينهم ونظمهم القبلية التى ألفوها من قبل ، محتفظين بكيانهم الجرمانى وسط المجتمع الرومانى المنحل . والأمر الذى جد فقط هو أن الجرمان أصبحوا مسيطرين على أراضى الامبراطورية ومواردها ، فى حين أمسى أهالى البلاد الأصليين - حتى فى إيطاليا نفسها — طبقة من المحكومين الخاضعين لسادة البلاد الجدد من الجرمان . وهكذا ظل الجرمان أمداً طويلا تفصلهم عن الرومان فوارق خطيرة فى الجنس والعقيدة واللغة والحضارة ، الامر الذى جعل الممالك الجرمانية الناشئة لاتقوم على أسس ثابتة تكفل لها الاستقرار والبقاء ، وبالتالى تيسر للحضارة الاوربية الصحوة وتكفل لها الانتعاش . ولم يكن للناس من عزاء وسط هذه الظروف

---

(1) Eyro: European Civilisation, vol. 3, P. 5.

القاسية سوى النظر إلى الماضى ، إلى مجد الامبراطورية وعظمتها ، تلك الامبراطورية التى كونت وحدة حضارية ضخمة قوّى من روابطها انتصار المسيحية وازدياد نفوذ الكنيسة ازديادا جعل منها القوة الوحيدة التى تستطيع المحافظة على تراث الحضارة الرومانية ، فى وقت أوشك ذلك التراث أن يندثر ويضيع فى غرب أوربا وجنوبها . وبعبارة أخرى فإن انهيار صرح البناء السياسى للامبراطورية الرومانية فى الغرب لم يصحبه انهيار الحضارة الرومانية ؛ لأن الكنيسة احتضنت هذه الحضارة وضمنت لها البقاء والاستمرار[1] .

على أن تفكير المعاصرين فى مجد الامبراطورية الرومانية لم يقتصر فى العصور الوسطى على الجانب السياسى فحسب ، وإنما تناول الجانب الحضارى أيضاً . فعظمة الإمبراطورية الرومانية بنظامها ومدنها وطرقها وتجارتها وعلمها وأدبها وفنها، ظلت ماثلة فى العقول حتى أصبحت آمال الطموحين فى تلك العصور لا تقف عند إحياء نظام الإمبراطورية السياسى وهيبتها وشخص إمبراطورها فحسب ، بل أيضاً إحياء مجدها الحضارى وتراثها العلمى والأدبى والفنى . ولعل هذا الشعور هو الذى جعل فترة الظلام الذى اكتنفت أوروبا منذ أواخر القرن الخامس لاتستمر طويلا ، وإنما تخللتها صحوات ووثبات حضارية قد يطول مداها أو يقصر ، وقد يشتد بريقها ويتسع نفوذها أو يضعف ويضيق ، حسب الظروف التى أحاطت بكل منها .

وفى هذا الكتاب الذى يمثل الجزء الثانى من مؤلفى «أوربا العصور الوسطى» رأيت أن أعطى المشتغلين بتاريخ تلك العصور صورة عامة للأوضاع الحضارية لغرب أوربا ومايرتبط بها من نظم وتيارات فكرية . وقد رأيت أن أقسم الكتاب إلى ثلاثة أقسام : القسم الأول خصصته لدراسة النهضات الأوربية فى العصور الوسطى مع مقدمة شاملة عن مركز الحضارة الاوربية فى الغرب فى تلك العصور . والقسم الثانى تناولت فيه النظم الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية فضلا عن التيارات المرتبطة بالآداب والعلوم والفنون . على أنه من الملاحظ على حضارة الغرب الأوربى فى العصور الوسطى أنها لم تصل إلى

---

(1) Iden, p. 12

درجة النضج فى أواخر تلك العصور إلا بعد أن اتصلت بالحضارة العربية الإسلامية ، وأفادت منها فائدة ضخمة اعترف بها جمهرة المؤرخين الغربيين . ولذا أفردت القسم الثالث من هذا الكتاب لدراسة فضل العرب على الحضارة الاوربية وأعطاء الباحث فكرة سريعة عن أثر العرب فى نهضة العصور الوسطى التى هى أساس النهضة الأوربية الحديثة فى مختلف الميادين.

* * *

وإذ أقدم اليوم هذا الكتاب فى ثوبه الجديد ، لايسعنى سوى أن أدعو الله أن يفيد منه المشتغلون فى حقل الدراسات التاريخية المرتبطة بالعصور الوسطى ، وأن يجد فيه المعلمون والمتعلمون فى الجامعات العربية المادة العلمية الواضحة التى تمكنهم من فهم روح تلك العصور فهما واعيا .

والله ولى التوفيق؟

ضاحية المعادى بالقاهرة فى :

ذى الحجة ١٣٩٤

يناير ١٩٧٥

دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور
استاذ كرسى تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب — جامعة القاهرة

القسم الأول

النهضات الأوربية

ومراكزها في العصور الوسطى



الباب الأول

مراكز الحضارة والمعرفه

من الصحوات الحضارية التى قدر لها أن تبدد الظلام الذى اكتنف الغرب الأوربى منذ القرن الخامس ثلاث : الحركة الكارولنجية التى ظهرت فى أواخر القرن الثامن وامتدت إلى القرن التاسع ؛ والحركة الوسيطة التى ظهرت فى القرن الثانى عشر وامتدت إلى ما بعد ذلك حتى مهدت للحركة الثالثة ، وهى النهضة الأوربية الكبرى التى ظهرت فى القرن الخامس عشر والتى انطوت بقيامها آخر صفحات العصور الوسطى واستهلت أولى صفحات العصور الحديثة .

ويرى بعض المؤرخين — مثل بيرين — أن حركتى القرن التاسع والثانى عشر تستحقان لقب « نهضة » ، وأنه لا داعى لأن تستأثر حركة القرن الخامس عشر وحدها بهذا التشريف ، لأن الحركات الثلاث تشترك جميعاً فى بعث الدراسات الكلاسيكية وإحيائها[1] . ويتفق باركر مع بيرين فى هذا الرأى ، مادام المقصود بلفظ « نهضة » ظهور نشاط فكرى وثقافى وإزدياد الرغبة فى التعرف على علوم القدماء ومعارفهم . ولكن باركر يحتاط ، فيقول إن إطلاق لقب « نهضة » على حركتى العصور الوسطى فى القرنين التاسع والثانى عشر لا ينبغى أن يعنى حدوث أى تغيير فى عقلية الناس وتفكيرهم ونظرتهم العامة إلى الحياة ومشاكلها الأساسية . فهذا التغيير من حق النهضة الحديثة فى القرن الخامس عشر أن تستأثر به وحدها[2] .

ومهما كان الأمر ، فإن هذه النهضات الثلاث هى المحور الأساسى الذى دارت حوله حضارة غرب أوربا فى العصور الوسطى وبداية الحديثه . وليس معنى ذلك أن ركب الحضارة الأوربية كان يتوقف فى الفترات الواقعة بين كل نهضة وأخرى من النهضات السابقة ، فقد أجمع الباحثون على صحة النظرية القائلة

---

1) Pirenne : La Civilisation Occidentale ; p. 220.
2) Barker : The European Inheritance ; vol. 1 ; p. 389.

باستمرار الحضارة الأوربية فى العصور الوسطى[1] . وكل ما هنالك هو أن النشاط الفكرى فى تلك الفترات ظل ضعيفاً بسبب ما تعرضت له بلاد الغرب الأوربى عندئذ من أزمات ، فضلا عن ضعف وسائل الإتصال ونقل الأفكار. هذا بالإضافة إلى أن الفئة التى تعرف القراءة والكتابة فى غرب أوربا ظلت صغيرة ومحدودة ، وهذه الفئة كان معظمها من رجال الدين الذين انحصر تفكيرهم داخل دائرة ضيقة يكاد لايتجاوزها إلا فى حالات نادرة . وهكذا عاش المتعلمون فى أوربا العصور الوسطى على هيئة أفراد متباعدين أو جماعات صغيرة منعزلة، تفصل بعضها عن بعض مساحات واسعة يعمها الجهل والتأخر . وساعد على هذه العزلة وقوى من أثرها ضعف وسائل السفر والانتقال التى ظلت بدائية طوال العصور الوسطى . ولكن على الرغم من ذلك ، فإنه يبدو أن العزلة لم تكن تامة بين مراكز المعرفة فى أوربا العصور الوسطى ، لأن ظروف الحياة فى تلك العصور — لاسيما الحياة الدينية — أستلزمت نوعا من الاتصال . وهنا نلاحظ أن هذا الاتصال — إن وجد — كان بين المراكز التى من نوع واحد وإن بعدت بعضها عن بعض أكثر منه بين المراكز المختلفة فى نوعها وإن تقاربت فى المكان . فالإتصال الفكرى بين الاديرة البندكتية المتباعدة والمتناثرة فى أنحاء الغرب الاوربى كان أقوى منه بين أحد هذه الاديرة ومدينة مجاورة لاتفصله عنها سوى مسافة قصيرة[2] .

مراكز الحضارة والمعرفة :

ونستطيع أن نقسم مراكز الحضارة والمعرفة فى العصور الوسطى إلى أربعة أقسام ، هى المراكز الدينية — أى الكنيسة وما يرتبط بها من مؤسسات دينية كالأديرة والكتدرائيات — ، وبلاط الملوك والامراء ، والمدن ، والجامعات . والمعروف أن هذه المراكز أسهمت فى المحافظة على تراث الحضارة الاوربية وتنمية ذلك التراث ، ولكنها لم تكن على درجة واحدة من الاهمية طوال العصور الوسطى ، فى حين أن البعض الآخر — مثل الاديرة — أخذت تفقد أهميتها فى الميدان الثقافى والتعليمى فى أواخر تلك العصور . ولا أقل من الكلام على كل مركز من هذه المراكز على حده لإيضاح أهميته فى الميدان

---

1) Eyre : op. cit. ; p. 334.
2) Haskins : The Renaissance of the twelfth Century, p. 82

ضارى بوجه عام والثقافى بوجه خاص .

الـكنيسة :

أما الـكنيسة فـكان أثرها فى حفظ التراث الرومانى وأحيائه أعمق وأكثر استمراراً من غيرها من المراكز . فمنذ القرن الرابع والترابط شديد بين الـكنيسة والامبراطورية . ولم يكن ذلك الترابط بين الطرفين بالأمر الغريب حيث أنهما يتفقان فى أداء رسالة واحدة ، فيعمل كل منهما من زاويته على قيادة الشعب الاوربى وتوجيهه ، وإن تعددت أجناسه . ويهمنا من أمر هذه الشركة هو أنه عندما قضى أحد الشريكين نحبه ، وجد الشريك الآخر نفسه مسئولا عن رعاية أعمال الشركة ، وبعبارة أخرى عندما سقطت الامبراطورية الرومانية فى غرب أوربا فى أواخر القرن الخامس ، وجدت الـكنيسة نفسها مسئولة عن رعاية ركاب الحضارة فى غرب أوربا . وساعد الـكنيسة على القيام بمهمتها الحضارية طوال العصور الوسطى أن المدينة — وهى وحدة التنظيم الإدارى فى العالم الرومانى — كانت أيضاً الوحدة الأساسية فى التنظيم الـكنسى ، كما أن الـكنيسة الغربية أتبعت فى تنظيمها الأسقفى قواعد التنظيم الإدارى الرومانى[1] .

وهـكذا ورثت الـكنيسة الغربية تراث الحضارة الرومانية ، حتى أصبحت أعظم أداة حضارية فى غرب أوربا بفضل إشراف البابوية التى أخذت تـكتسب طابعاً عالميا واضحاً منذ عهد البابا جريجورى العظيم (٥٩٠ — ٦٠٤) وبفضل مساعدة الميروفنجيين والـكارولنجيين من بعدهم . هذا عدا جهود ذلك الجيش الضخم من رهبان الأديرة ورجال البعثات الدينية التبشيرية ، الذين كافحوا فى سبيل نشر المسيحية الـكاثوليكية وما يرتبط بها من مظاهر الحضارة الرومانية بين القوط الغربيين والبرجنديين والـكلت فى أيرلند وويلز ، والفرنجه البحريين والأنجلو سكسون والألمان ، وغيرهم من الشعوب التى وجدت فى أوربا فى أوائل العصور الوسطى . وقد استغرقت هذه العملية أربعه قرون ، نجحت بعدها الـكنيسة فى إقامة إمبراطورية مسيحية ، وإكساب غرب أوربا ذلك الطابع الخاص الذى ميزه فى العصور الوسطى .

---

1) Eyre : op. cit. ; p. 11.

على أن أثر الكنيسة لم يقتصر على نشر المسيحية والحضارة الرومانية حتى نهر الإلب وسكتلند فحسب ، ولكنها أسهمت أيضا بجهودها الفعالة فى تنظيم الحياتين الاقتصادية والاجتماعية فى غرب أوربا ، وإليها يرجع الفضل فى إقرار السلام والأمن ، والقضاء على كثير من مظاهر الفوضى التى أصبحت فيها أوربا غداة سقوط الإمبراطورية الغربية فى القرن الخامس . من ذلك أن الكنيسة حاربت مبدأ الأخذ بالثأر ، وعملت على إنشاء المستشفيات والملاجىء ، كما عملت على رفع شأن المرأة واحترامها والمحافظة على حقوقها الحيوية . كل ذلك بالإضافة إلى نشر الحضارة والتعليم بين المجتمعات المختلفة فى غرب أوربا ، وذلك عن طريق المؤسسات الدينية العديدة كالأديرة والكتدرائيات [1] والحق أن كل نوع من هذه المؤسسات الدينية - الأديرة والكتدرائيات - قام بدور خطير بوصفها مراكز للحضارة والمعرفة فى غرب أوربا فى العصور الوسطى ، الأمر الذى يتطلب منا الكلام عن كل منها على حدة : -

الأديرة :

كانت الأديرة أعظم المراكز الثقافية والحضارية فى الشطر الأول من العصور الوسطى ، حتى شبهها البعض بأنها كانت عندئذ بمثابة جزر مضيئة يشع منها بريق المعرفة وسط بحر واسع الظلمات يعمه الجهل والفوضى . وبذلك أنقذت الأديرة تراث أوربا الفكرى من الضياع فى وقت لم توجد قوة أخرى تعمل على تحقيق هذه الغاية . حقيقة إن الأديرة تأثرت بالنزعة المحلية التى سادت تلك العصور ، ولكن ذلك لم يمنع وجود نوع من الاتصال فيما بينها وبين بعض وذلك بفضل نفوذ البابوية فى روما والرحلات التى قام بها الرهبان - وبخاصة الرهبان الأيرلنديون - ، وبفضل جهود شارلمان نحو المركزية وحرصه على الإشراف على المؤسسات الدينية . هذا كله بالإضافة إلى أثر الإصلاحات

1) Boissonnade: Life and Work in Medieval Europe: p. 46.

الـكلونية فى القرنين العاشر والحادى عشر[١] ،وهى الاصلاحات التى استهدفت تهذيب الحياة الديرية عن طريق الربط بين الأديرة وإخضاعها لإشراف مركزى دقيق مما جعل الأفـكار والـكتب تنتقل من دير إلى آخر فى سرعة تثير دهشة الباحث الحديث[٢] .

على أنه ينبغى أن نذكر أن الأديرة لم تـكن دائماً أبداً منارا للعلم والمعرفة فى أوربا العصور الوسطى ، وأن كل ما قامت به الأديرة البندكـتية وغير البندكـتية من جهود فى خدمة الحضارة إنما جاءت على هامش الهدف الأساسى من قيام الدير ، وهو الانقطاع للعبادة وخدمة الدين . حقيقة أنه من الممكن أن يصير الدير مأوى للمسافرين وعابرى السبيل ، ومركزا للنشاط الاقتصادى فى الإقليم أو المنطقة التى يقوم فيها ، ومجمعا لتبادل الأفـكار ونقلها ، ومحورا للنشاط الفنى سواء فى العمارة والبناء أو فى الموسيقى والإنشاد ، ومدرسة للآداب والعلوم .. ولـكن جميع هذه الصفات التى يمكن أن يتصف بها الدير والخدمات التى يمكن ان يؤديها للحضارة إنما أتت عن طريق عارض ، فلم يكن من الضرورىَ أن يقوم كل دير بهذه الوظائف لأنها ليست الهدف الرئيسى من إنشائه . فالنظام البندكتى الذى انتشر فى جميع أنحاء الغرب الأوربى خصص ما يقرب من أربع ساعات ونصف من حياة الراهب اليومية للعبادة والصلوات الجماعية ، ثم لم تلبث أن اتسعت هذه الفترة حتى قاربت السبع ساعات ، وبذلك لم يتبق من النهار سوى ثلاث أو خمس ساعات — حسب اختلاف الفصول — يستطيع أن يقتطع الراهب جزءاً منها للقراءة . وحتى هذه الساعات المخصصة للقراءة كان على الراهب أن يقضيها فى قراءة الانجيل أو كتابات آباء الـكنيسة

---

(١) نسبة إلى كلونى Cluny — وهى مدينة فى فرنسا — حيث أسس وليم الأول التقى دوق أكوتين ديراً سنة ٩١٠ . ومن هذا الدير انبعثت حركة الإصلاح المشار إليها .
(أنظر كتاب أوربا العصور الوسطى — الجزء الأول ، ص ٣٠٧ — تأليف الدكتور سعيد عاشور) .

2) Haskins: op. cit. p. 33.

فى اللاهوت . وكان على كل راهب أن يتسلم من مكتبة الدير أحد الكتب الدينية فى بداية الصوم الكبير ، فإذا أتم قراءته تبادله مع غيره ، بحيث ينتهى جميع رهبان الدير من قراءة الكتب التى استعاروها قبل أن ينتهى العام وليس صحيحاً ما يظنه كثيرون من أن النظام البندكتى نص على ضرو اشتغال الرهبان بنسخ الكتب ، وكل ما هنالك هو أنه وجدت بالأدير البندكتية غرفة مخصصة للنسخ يعكف فيها بعض الرهبان على نسخ مايحتاج الدير من كتب الصلوات والترانيم ، دون أن يتخذ هذا العمل صفة الإلز أو الاستمرار . كذلك لم يشر النظام البندكتى إلى المدارس الديرية ، وفى ذلك يقول أحد الكتاب المحدثين « إن المدرسة بمعناها الحديث الذى نقصد مؤسسة بها طائفة معينة من الاساتذة يقومون بتعليم فئة محددة من التلاميذ أوقات معلومة ، يلقنونهم فيها فروعا خاصة من المعرفة ، هذا النوع من المدارس لم يكن القاعدة المألوفة فى أديرة العصور الوسطى ، وإنما كان وجوده بعضها بمثابة استثناء[١] » . لذلك يبدو من الصعب الحكم بوجود غرف مخصصة للدراسة فى الدير البندكتى ، فى حين كان التعليم فى هذا النوع من الأديرة دينيا يتناول الصلوات والطقوس والانجيل وكتابات آباء الكنيسة . أما الفنون السبعة الحرة فلم يكن لها المقام الأول فى الدراسة ، بل لم تجتمع هذه الفنون جميعها فى دير واحد .

على أنه من الإنصاف أن نوضح أهمية الدور الذى قامت به الأديرة الحياة الفكرية فى أوربا العصور الوسطى فإذا كان قيام الدير غير مشروط بوجود مدرسة فيه ، فإن كل دير كانت به مكتبة ضمت — على الأقل — عدة نسخ من الإنجيل وبعض المؤلفات فى اللاهوت . ولما كانت الأديرة تتمتع فى العصور الوسطى بممتلكات وأراضى واسعة . فإنه صار من الضرورى وجود سجلات وأرشيف فى كل دير لضبط حساباته وقيد إيراداته ومصروفاته . كذلك حرص الأديرة على الاحتفاظ بقوائم بأسماء أعضائها - الأحياء منهم والأموات - . فضلا عن أسماء بعض الصالحين من نزلاء الأديرة المجاورة لإقامة الصلوات على أرواحهم ثم إن إحياء الأعياد والشعائر الدينية بالدير تطلب وجود تقويم يتضمن مواعيد

ذكرى القديسين . فضلا عن مواعيد الأعياد التى تحرص الكنيسة على الاحتفال بها . كذلك حرص كثير من الأديرة على أن يكون فيها حولية لتدوين أهم الأحداث الجارية لا داخل الدير فحسب ، بل فى المنطقة أو الإقليم الذى يقوم الدير وسطه ، مما جعل هذه الحوليات الديرية المصادر الوحيدة - فى كثير من الأحيان - لتاريخ بعض البلدان الأوربية فى العصور الوسطى .

وهكذا أصبح وجود الدير مرتبطا بمكتبة وأرشيف وحولية . فإذا أضفنا إلى هذه المقومات المدرسة التى وجدت فى كثير من الأديرة لتعليم الأعضاء الجدد من أهل الدير ، استطعنا أن نحدد النواة الأساسية للحياة الثقافية فى أوربا العصور الوسطى . وإذا كنا قد اخترنا أن نطلق على العناصر السابقة اسم «نواة» فذلك لأنها لم تكن فى حقيقة أمرها أكثر من بذور قد تنبت وقد لا تنبت ، وقد تثمر حينا وتذبل أحيانا حقيقة أن الأديرة كانت كثيرة وعديدة فى أوربا العصور الوسطى ، ولكن نسبة من أصبحت منها مراكز للثقافة والمعرفة استمرت قليلة نسبيا ، وحتى هذا القسم من الأديرة التى خلدت أسماءها فى تاريخ أوربا الثقافى فى العصور الوسطى . تعرضت لكثير من التطورات بين ذبول وانتعاش . ولعله من المبادىء المسلم بها فى تاريخ الحركة الديرية أن ما أصابته بعض المنظمات الديرية من نفوذ وثروة أدى إلى اضمحلالها وذبولها ، مما مهد الطريق لقيام منظمات أو هيئات ديرية أخرى تحاول أن تستدرك عوامل الانحلال والضعف الديرية ، ولكن لا تلبث هى الأخرى أن يجرفها تيار الترف والرغبة فى التنعم بملاذ الدنيا فتقع بعد أمد فى الهوة نفسها التى تردت فيها المنظمات السابقة ، وهكذا .

ومهما كان الأمر فإن الفضل يرجع إلى المدارس الديرية فى العصور المظلمة فى الاحتفاظ بقسط من النشاط العلمى . حقيقة أن الهدف الأساسى من التعليم الديرى ظل إعداد رجال الدين لمباشرة مهامهم فى الوعظ والارشاد والتبشير ، ولكن هذا الهدف كان لا يمكن أن يتحقق دون أن يحصل رجل الدين على قسط من الثقافة اللاتينية ، حيث أن اللاتينية كانت لغة الكنيسة الغربية ، بل اللغة العالمية التى كان من الممكن أن يتفاهم بها أهالى البلدان المختلفة فى غرب أوروبا فى العصور الوسطى [1] . هذ إلى القيام بالوعظ والتبشير كان

1) Taylor. : The Med. Mind; vol. 1, p.p.198-200.

يتطلب من رجل الدين دراية بمبادىء المنطق وأساليب الجدل حتى ينجح فى تحقيق رسالته .

وإذا كان شارلمان قد اهتم بالتعليم فى أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع ، فإن هذا الاهتمام دفعه - كما سنرى بالتفصيل فى الباب الآتى - إلى العناية بالمدارس الديرية ، وتدعيمها وإصلاحها وتوسيع دائرة نشاطها ، حتى غدت بعض هذه المدارس — مثل تور وفولدا — مراكز لنشاط فكرى ضخم فى الامبراطورية الكارولنجية [١] . وقد قدر للكثير من هذه المدارس الديرية البقاء والاستمرار فى تأدية رسالتها عقب سقوط تلك الامبراطورية ، مثل مدارس ريمس وليون وفريير وكورفى وفولدا وباڤيا وغيرها [٢] .

على أن القرن الثانى عشر بالذات شهد اضمحلال الأديرة البندكتية ، بحيث لم يتبق من هذه الأديرة سوى قلة احتفظت بأهميتها كمراكز للحياة الفكرية فى أوائل ذلك القرن . ومن هذه الأديرة دير مونت كاسينو ودير بك ؛ فكان الأول به مكتبة ضخمة ضمت مؤلفات جريجورى التورى وبولس الشماس فضلا عن بعض الآثار الفكرية القديمة لشيشيرون وأوفيد وفرجيل وهوراس وسينكا ودوناتوس وغيرهم . أما ديربك Bec الذى أسس سنة ١٠٣٤ فيدين بشهرته العلمية إلى لانفرانك ثم أنسلم ، حتى أحرزت مدرسته شهرة واسعة فى الدراسات اللاهوتية والفلسفية والنحوية . واشتهر هذا الدير كذلك بمكتبته التى ضمت قرابة ثلثمائة مجلد فى مختلف فروع المعرفة .

أما بالنسبة للأديرة الكلونية فكان القرن الثانى عشر عصر ذبول لها أيضاً . والمعروف أن النظام الكلونى امتاز بالمركزية الشديدة وخضوع الأديرة الكلونية جميعها لإشراف دقيق من مقدم الدير الأم فى كلونى ، وهو الذى خضع بدوره لإشراف البابوية [٣] . ولا شك فى أن هذه المركزية كان لها أثر فعال فى تقوية

---

(١) أنظر كتاب أوربا العصور الوسطى - الجزء الثانى - ص ١٢٨ - ١٢٩ ؛ تأليف الدكتور سعيد عاشور .

2) Eyre : op. cit., p. 811.

(٣) أنظر كتاب (أوربا العصور الوسطى) - الجزء الثانى - ص ٣١-٣٢ ؛ تأليف الدكتور سعيد عاشور .

الإتصال بين المؤسسات الكلونية . وبالتالى زيادة الرحلات والأسفار فى غرب أوربا ، الأمر الذى أدى إلى سرعة انتقال الأفكار والكتب وتبادلها . وقد شجع النظام الكلونى فكرة نسخ الكتب داخل الأديرة ، ولكنه لم ينظر بعين الرضى إلى الكتب الكلاسيكية ، على الرغم من أن دير كلونى نفسه ضم مكتبة ضخمة بها كثير من المؤلفات الكلاسيكية ، زيادة على الكتب الدينية . لذلك يلحظ الباحث افتقار النظام الكلونى إلى مدارس شهيرة ملحقة بأديرته ، إذ وجه رهبان الأديرة الكلونية اهتمامهم نحو الدراسات اللاهوتية واهملوا ماعداها ، مثل التاريخ والنحو وغيرها من الفنون .

أما منظمات الأخوان الرهبان (الفرير) التى ظهرت فى أواخر العصور الوسطى — مثل الفرانسسكان والدومينكان — فإن هدفها كان روحيا تبشيريا أكثر منه ثقافيا ؛ وإن كانت هذه الهيئات استطاعت أن تنهض بدور كبير فى النشاط الفكرى المرتبط بنشأة الجامعات[١] .

الكتدرائيات:

وفى الوقت الذى أخذ النشاط الثقافى للأديرة يضمحل ، إذا بالكتدرائيات تبرز لتصبح أهم المراكز الثقافية فى أوربا العصور الوسطى. على أن الكتدرائيات لم تصل إلى ماوصلت إليه من أهمية فى القرن الثانى عشر إلا بعد أن تعرضت فى القرن التاسع لحركة إصلاحية شاملة أصبح بمقتضاها رجال الكنيسة فى كل أسقفية مرتبطين بالأسقف والكتدرائية ارتباطا مباشرا ، كما صار لهم حق المشاركة فى انتخاب الأسقف والحصول منه على نسبة معلومة من دخل الأسقفية. ولا شك فى أن هذا التنظيم الأسقفى هيأ للأسقفية كثيرا من أسباب الثروة والقوة ، لاسيما أن الكتدرائية كانت تقوم دائما وسط مدينة هامة تحيط بها مظاهر المدنية والعمران، لا فى منطقة عزلة نائية قرب الجبال ووسط الأحراش كما كان الحال مع معظم الأديرة . وهكذا لم تلبث الكتدرائيات أن أخذت تتحول

(١) أنظر كتاب (الجامعات الأوربية فى العصور الوسطى ص ١٩٥-٢٠٠) تأليف دكتور سعيد عاشور .

إلى مراكز ثقافية هامة ، بفضل مالها من مكتبات ومدارس وسجلات وموظفين يساعدون الأسقف فى الإشراف على نواحى النشاط المختلفة داخل حدود أسقفيته ، ومنها النشاط التعليمى . وساعد على ذلك أن الكتدرائيات فتحت أبوابها أمام الطلاب العلمانيين فى الوقت الذى أغلقت الأديرة أبوابها فى وجوههم . الأمر الذى جعل المدارس الكتدرائية تمتاز باتساع الأفق وتنوع الدراسات فيها [1] .

وكانت أهم الكتدرائيات نشاطا فى الميدان الثقافى فى القرن الثانى عشر هى تلك الواقعة فى شمال فرنسا ، إذ ظهرت عندئذ أهمية شارتر وأورليان فى حركة إحياء الدراسات الكلاسيكية ، وأهمية ريمس ولاؤون فى الدراسات المدرسية ، وأهمية باريس التى انبعث منها أول شعاع للحركة الجامعية فى شمال أوربا . وثمة أهمية أخرى للمدارس الكتدرائية فى شمال فرنسا ، وهى أن هذه المدارس جذبت إليها طلاب العلم من ألمانيا وانجلترا بل إيطاليا . وليس أدل على ما أسهمت به الكتدرائيات ومدارسها من قسط وافر فى الحياة الثقافية فى القرن الثانى عشر من أن أعظم الكتاب فى ذلك العصر بالذات كانوا من الأساقفة ، مثل هلدبرت أسقف لمان (وتور) ، وجلبرت أسقف بواتيه ، وبطرس لمبارد وحنا سالسبورى وغيرهم . هذا فضلا عن عدد آخر من موظفى الكتدرائيات وأمنائها اشتهروا بنشاطهم الفكرى ، مثل أنسلم اللاؤونى ، وبرنارد سكرتير كتدرائية شارتر وبطرس كومستور (Peter Comestor) . وهكذا ارتبطت الأسماء اللامعة فى ميادين الشعر واللاهوت والتعليم بالكتدرائيات الغربية فى القرن الثانى عشر .

وتحتل كتدرائية كانتربورى مكانة كبيرة فى النشاط الثقافى فى انجلترا فى ذلك العصر ؛ فقام رئيس أساقفتها ثيوبالد (١١٣٨ — ١١٦١) الذى تلقى تعليمه بمدرسة ديربك بفرنسا — بجمع عدد كبير من المفكرين حوله ، كما اتخذ حنا سالسبورى سكرتيرا له ، وماستر فكاريوس مستشاراً قانونياً . وهكذا ارتبط بكتدرائية كانتربورى عدد بارز من الشعراء والأدباء ورجال القانون وغيرهم من المفكرين ؛ كما اشتهرت هذه الكتدرائية بمكتبتها العظيمة الضخمة .

---

1) Rashdall : Med. Universities ; vol. 1 ; pp. 43—44.

أما اسبانيا فكانت أهم مدارسها الكتدرائية مدرسة طليطلة، وإن كان لا يمكن إغفال شأن مكتبة برشلونة، والجهود الثقافية التي قام بها ميخائيل أسقف طركونة. ولم تلبث أن أصبحت طليطلة — بعد أن استولى عليها المسيحيون سنة ١٠٨٥ — المركز الطبيعي للاستفادة من تراث الحضارة الإسلامية ، ونقل هذا التراث إلى العالم الغربي . فني تلك المدينة عثر الأوربيون على مكتبة عربية ضخمة وعدد كبير من المستعربين الذين يعرفون العربية واللاتينية جميعا، وعن طريق هؤلاء ومساعدة بعض اليهود تمت ترجمة كثير من المؤلفات العربية الثمينة إلى اللاتينية ، في الآداب والعلوم والفنون ، مما روى ظمأ الغرب الأوربي وتعطشه إلى المعرفة في ذلك العصر . وفي تلك الحركة الضخمة قام ريموند رئيس أساقفة طليطلة (١١٢٥ — ١١٥١) بدور فعال في الإشراف على حركة الترجمة عن العربية في الفلسفة والطب والرياضيات والمنطق والفلك وغيرها . واشتهر من أعلام المترجمين عندئذ جيرارد الكريموناوى ، الذى يستفاد من اسمه أنه غير أسبانى ، وأنه - مثل بقية المترجمين المعاصرين - وفد إلى طليطلة من بلاد بعيدة للبحث عن العلم والمعرفة فى المراجع العربية .

أما كتدرائيات ألمانيا وإيطاليا ، فلم تقم فى القرن الثانى عشر بمثل هذا النشاط العلمى الواسع الذى قامت به كتدرائيات فرنسا وأسبانيا . ذلك أن النزاع بين البابوية والإمبراطورية كان له أثره السيء فى أحوال ألمانيا وإيطاليا جميعاً ؛ مما جعل القرن الثانى عشر يشهد تدهوراً علمياً ، وبخاصة فى ألمانيا . وهكذا لم تكن العلوم الجديدة والترجمة هى الشغل الشاغل لأساقفة إيطاليا وألمانيا، وإنما شغل هؤلاء الأساقفة بالمسائل السياسية ومناصرة البابوية أو الإمبراطورية. ومع ذلك فإننا نسمع عن بعض الأساقفة الذين أسهموا فى النشاط العلمى بقسط ملحوظ ، مثل رومولد الثانى أسقف سالرنو (١١٥٣— ١١٨١) الذى اشتهر بكتاباته التاريخية وفى مقدمتها حولية شهيرة أرخ فيها لمملكة صقلية ؛ ومثل خريسولانوس Chrysolaaus رئيس أساقفة ميلان الذى اشتهر بأبحاثه اللاهوتية ومناقشاته مع رجال الكنيسة الشرقية فى أوائل القرن الثانى عشر .

بلاط الملوك والأمراء :

وصف أحد شعراء سمرقند فى القرن الثانى عشر الميلادى ـــ واسمه نظامى عروضى ـ بلاط الملوك ، فقال إن تظيم البلاط تظيماً صحيحاً يتطلب وجود أربعة فئات من المثقفين هم : رجال الإدارة والسياسة، والشعراء، والفلكيون، والأطباء.فرجال الإدارة والسياسة يساعدون الملوك فى تصريف شئون الدولة ، والشعراء يمجدون مآثرهم ويخلدون انتصاراتهم،ورجال الفلك يحددون للملوك الأوقات المناسبة لتنفيذ مشاريعهم ، والأطبـاء يسهرون على سلامتهم ورعاية صحتهم .

ويبدو أن هذه الحكمة لم يأخذ بها ملوك الشرق وحدهم فى العصور الوسطى، وإنما طبقها أيضاً أمراء الغرب وملوكه . وإن كان تطبيق هذا المبدأ فى الغرب جاء فى صورة أصغر بكثير مما كانت عليه فى الشرق . ومهما كان الأمر فإن استعانة الملوك بهذه الفئات من المثقفين،وحرصهم على تقريبهم منهم والاحتفاظ ببعضهم فى بلاطهم ، يؤدى بدون شك إلى إكساب البلاط طابعاً حضارياً خاصا .

والواقع أن الملوك الجرمان الذين أقاموا دولهم داخل حدود الامبراطورية الرومانيةاعتبروا أنفسهم ورثة روما واتباع الكنيسة المسيحية ، ومن ثم أخذوا يدرسون ما تبقى أمامهم من تراث الامبراطورية الرومانية تمهيداً لعملية الخلط الكبرى بين الجرمان والرومان ، وهى العملية التى نتج عنها بناء المجتمع الأوربى الجديد فى العصور الوسطى . وكانت عملية الخلط هذه شاقة وطويلة ، ولكنها نجحت ـ فيما بين القرنين السابع والتاسع ـ فى إيجاد نوع من التنظيم الجزئى فى غرب أوروبا [1] . وقد جاهد فى سبيل إتمام هذه العمليـة أعظم ملوك الجرمان ذكرا ، مثل إيورك **Euric** ملك القوط الغربيين فى أكوتين فى القرن الخامس ، وكلوفس ملك الفرنجة فى القرن السادس ، وثيودريك ملك القوط الشرقيين فى أوائل القرن السادس أيضا ، كما شارك فى هذه العملية الملوك اللمبـارديون فى

---

1) **Boissonnade : op. cit ; p. 62.**

القرنين السابع والثامن . وهكذا حتى قامت الدولة الكارولنجية ، فتزعم شارلمان حركة إحياء التراث الرومانى ووضع قواعد نهضة عظيمة ستكون موضوع بحثنا فى الباب الآتى ، حتى كان تتويجه امبراطورا سنة ٨٠٠ إحياءاً سياسياً للامبراطورية فى غرب أوربا .

ويهمنا من هذا العرض أن شعور بعض ملوك الجرمان بأنهم ورثة روما جعلهم يعملون على نشر الحضارة والثقافة ، فضلا عن نشر المسيحية بين الشعوب الوثنية المجاورة لهم . هذا إلى أنهم لم يدخروا وسعا فى العناية باقتصاديات بلادهم ـ كما فعل الكارولنجيون والأنجلوسكسون ـ عن طريق تشجيع الناس على العمل بالزراعة والرقى بها ، والمحافظة على الغابات وعدم العبث بأشجارها ، كما شجعوا الصناعة وتعهدوها بالرعاية والعناية . وفوق هذا وذاك اهتمو بالتجارة بعد أن وجدوا فيها خير وسيلة تؤدى إلى ازدياد الثروة القومية .وفى سبيل ذلك أصلحوا الطرق وأمنوها ونظموا الأسواق ووسائل النقل المختلفة[1] أما فى ميدان النشاط الثقافى والفكرى فى العصور الوسطى ، فكان نصيب الأمراء والملوك أهم وأعظم ، حتى أصبح بلاط الملك أو الأمير — فى كثير من الحالات — مركزاً لنشاط علمى غزير، بل إن بعض النهضات العظيمة التى شهدتها العصور الوسطى ـ كالنهضة الكارولنجية والنهضة الأوتية ـ كان محورها البلاط.

وقد بدأ بلاط الأمير الاقطاعى فى العصور الوسطى بسيطا فى تنظيمه . فمن الناحية الثقافية كثيراً ما كان الأمير نفسه يجهل القراءة والكتابة ، ولذا احتفظ فى بلاطه بقسيس على الأقل ليقوم على شئون الدين ويحرر المكاتبات الضرورية. على أن زيادة الأعمال فى بلاط الأمير وكثرة المكاتبات والحسابات ، تطلبت بمضى الوقت وجود أرشيف وسكرتير . ولم يكن من المألوف حتى القرن الثانى عشر أن يوجد بالبلاط الاقطاعى مثقف أو مربى للعناية بعقول صغار الأمراء، لأن الحرص على تعليم الأمراء كان أمرا نادرا فى تلك العصور .ومن جهة أخرى لم يخل البلاط من بعض الشعراء والمهرجين والممثلين الهزليين الذين ترددوا على بلاط الأمراء بين حين وآخر للترفيه عنهم وعن أهل الضيعة ، مما جعل البلاط

1) Idem ; p. 63.

مركزا للأدب الشعبي . وكان الشعراء والممثلون والمهرجون يتكاثرون بوجه خاص فى المناسبات السعيدة التى يحرص الملوك والأمراء على المبالغة فى أحيائها مثل حفلات التتويج أو الزواج أو تدشين أحد الأمراء فارسا . وكثيرا ما كان الشعراء والممثلون يرددون فى تلك الحفلات نماذج من قصص البطولة القديمة عن طروادة وطيبة والاسكندر الأكبر وشارلمان وغيرها .

ومن الواضح أن رعاية الأمراء والملوك للحياة الثقافية غدت أمراً ضرورياً فى وقد صعب تداول الكتب إلا فى دائرة محدودة. وقد ظهر من الأمراء - مثل وليم التاسع دوق أكوتين - من قام برعاية الشعر ، بل إنه نظمه وتغنى به ، حتى اعتبر هذا الأمير أحد أعلام شعراء التروبادور . ومثل ذلك يقال عن أمراء شامبنى الذين امتاز أحدهم — وهو ثيبوت Thibaut — بجودة شعره ، والذين وجدت فى بلاطهم نسخة من كتاب المؤرخ الرومانى فالريوس ماكسيموس ، نسخت حوالى سنة ١١٦٧ . بل إن بعض صغار الأمراء — مثل أمراء جوين Guines على المانش — حرصوا على تدوين الأحداث المحلية فى إمارتهم ؛ وبذلك أدوا إلى التاريخ خدمة كبيرة . أما سكسونيا فنسمع عن بعض أمرائها — مثل هنرى الأسد (١١٢٩ — ١١٩٥) — أنه قام بدور راعى الحضارة والثقافة فى إمارته . كذلك دأب الأمراء فى انجلترا - وبخاصة فى الشطر الأخير من العصور الوسطى - على تشجيع الأدب والادباء ، وانتشرت هذه الظاهرة بينهم حتى غدا كل بارون يحتفظ بهيئة كاملة من الأدباء والكتاب[1] .

وإذا كان هذا هو شأن الأمراء فى أوربا العصور الوسطى ، فلابد وأن نصيب الملوك فى رعاية الثقافة والعلوم والآداب كان أوفر بكثير لما بأيديهم من إمكانيات ضخمة فاقت إمكانيات الامراء . وقد سبق أن أشرنا إلى أن نهضات بأكملها جاءت ربيبة بلاط بعض ملوك أوربا وأباطرتها فى العصور الوسطى . وهناك أمثلة أخرى عديدة لملوك أوربيين فى تلك العصور عرفوا بحماستهم للعلم والثقافة حتى جعلوا من بلاطهم مراكز ثقافية ممتازة ، يقصدها كل راغب فى الاستزادة . ومن هؤلاء هنرى الثانى ملك انجلترا (١١٥٤ — ١١٨٩) الذى

1) Haskins : op. cit. ; p. 57.

حكم امبراطورية امتدت من حدود سكتلند حتى البرانس ، والذى أحب العلم وأحاط بكثير من اللغات ، فضلا عن علاقاته الدولية الواسعة بالممالك الاوروبية الأخرى .

والحق إن الملك هنرى الثانى كان أكبر راع للآداب والثقافة فى عصره فأحب التاريخ وشجع المؤرخين مما أدى إلى ظهور كثير من الكتابات التاريخية ، كما اهتم بالقانون والدراسات القانونية . وتتضح رعاية هنرى الثانى للثقافة والعلم فى ترحيبه بالوافدين إلى بلاطه من العلماء ورجال الدين الأجانب . وهناك فى السجلات الملكية المعاصرة ما يشير إلى أنه منح أحد رجال الدين الوافدين إلى بلاطه سنة ١١٦٤ هبة مالية كبيرة ، كما أن وافداً نرويجيا آخر نزل فى ضيافة الملك أكثر من أربعة أشهر سنة ١١٨٢[1] . وأبرز شخصية ظهرت فى انجلترا فى ذلك العصر كانت بلاشك شخصية حنا سالسبورى الذى درس الجدل والنحو والمنطق وغيرها من العلوم ، ثم عاد إلى انجلترا سنة ١١٥٠ ليتمتع بعطف هنرى الثانى فى الوقت الذى كان ماستر فكاريوس يدرس القانون وثيو بولد يرعى تدريس الآداب فى كتدرائية كانتربورى . وقد أشار بكت — رئيس أساقفة كانتربورى — على سيده هنرى الثانى باستدعاء العلماء وطلاب العلم الانجليز الذين يدرسون بالخارج ، فلما عاد هؤلاء حاولوا إيجاد نوع من التعليم العالى فى انجلترا يشبه ما شاهدوه فى الجامعات الناشئة بالقارة . وبخاصة فى فرنسا وإيطاليا، وهكذا شهد عهد هنرى الثانى تقدماً كبيرا فى تطور نظم التعليم بانجلترا ، ترتب عليه قيام جامعة أكسفورد : أولى الجامعات الإنجليزية[2] .

أما بلاط ملوك صقلية منذ القرن الحادى عشر . فكان يغلب عليه الطابع الشرقى — البيزنطى والعربى — كما كان هو الآخر مركزاً لنشاط علمى كبير ، فاكتظ بالفلكيين والشعراء والأطباء وغيرهم من العلماء ذوى اللهجات المتباينة . ويلاحظ على سجلات هذه المملكة أنها خليط من اللغات اللاتينية واليونانية والعربية ، الأمر الذى أدى إليه موقع الجزيرة الجغرافى والتقاء الثقافات الثلاث

1) **Stubbs : Seventeen Lectures ; p.p. 137—143.**

2) **Idem ; p.p. 161—163.**

بها . وكان أن اهتم ملوك صقلية النورمان بتشجيع العلماء واستدعائهم إلى بلاطهم حتى أصبح ذلك البلاط قبلة الادباء والشعراء والباحثين . ويحكى عن روجر الثانى أنه استدعى الجغرافى العربى الإدريسى إلى بلاطه حيث عهد إليه بعمل نموذج بجسم كبير للكرة الأرضية. كذلك يعرف عن خليفة ذلك الملك وهو وليم الأول أنه عهد إلى كبار العلماء والمترجمين المعاصرين مثل أرستيوس Aristippus وأيوجين Eugene بالإشراف على الإدارة الملكية فى بالرمو. وهكذا ظل الحال حتى عهد الإمبراطور فردريك الثانى (١١٩٨ — ١٢٥٠) الذى يعتبر ـ من الناحية الحضارية ـ امتداداً لعصر ملوك النورمان بصقلية وجنوب إيطاليا . ذلك أن فردريك الثانى لم يكتف بتنظيم كلية الطب فى سالرنو [١] ، وإنما أنشأت جامعة فى نابلى سنة ١٢٢٤ . واستدعى إليها الأساتذة فى مختلف العلوم والفنون من جميع الأنحاء ، ومنحها كثيراً من الامتيازات والمساعدات المادية والمعنوية [٢] . وهكذا حرص فردريك الثانى على تشجيع الحياة الثقافية فى مملكته [٣] ، ولا عجب فقد حكى المقريزى عن ذلك الإمبراطور أنه كان « عالما متبحرا فى علم الهندسة والحساب والرياضيات . . . » . كما حكى عنه أنه عندما حضر إلى الشرق سنة ١٢٢٧ فى حملته الصليبية ، كان يصاحبه « معلمه من صقلية يقرأ عليه المنطق . . » وقد أجمعت المراجع المعاصرة على أن فردريك الثانى تعلم اللغة العربية على يد معلم عربى فى صقلية ، وبذلك أصبح بلاطه مركزا لحركة علمية واسعة واجتمع فيه عدد كبير من العلماء الغربيين واليونانيين فضلا عن اليهود الذين اشتغلوا ـ تحت رعاية فردريك الثانى ـ بترجمة كتب الفلسفة العربية .

المدن :

أما المدن فيلاحظ أنها لم تظهر على مسرح الحياة الأوربية كعنصر فعال فى بناء حضارة العصور الوسطى إلا فى القرن الحادى عشر . ذلك أن المدينة الرومانية القديمة التى ازدهرت فى عصر الرومان والتى كان لها شأن كبير فى الإمبراطورية

---

1) Rashdall : op. cit. ; vol. 1 ; p.p. 82—84.

2) Idem : vol. II ; p.p. 22—266.

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٢٣٢ .

الرومانية بوصفها مراكز إدارية وحضارية واقتصادية ، هذه المدن لم تلبث أن ذبلت نتيجة لاضمحلال الامبراطورية الرومانية ثم سقوطها ، وما أعقب ذلك فى القرون التالية من انتشار النظام الاقطاعى الذى حلت فيه الضياع الكبيرة محل المدن ، حتى هجر الملوك المدن وأقاموا فى ضياعهم [١] . وليس هناك شك فى أن مجتمعاً يعتمد على الإنتاج الزراعى ويرتبط أهله بالأرض لا يمكن أن ينتظر منه إسهاما فعلياً فى بناء الحضارة وتطورها . ولما كانت التجارة تتطلب قيـــام مراكز تعتمد عليها فى إتمام عمليات التبادل التجارى [٢] ، فإنه كان من المستحيل أن يستمر النشاط التجارى الذى أخذ يظهر فى أوربا منذ القرن الحادى عشر دون أن يصحبه نمو المدن الاوربية التى غدت المراكز الأساسية للحركة التجارية الجديدة [٣] . وهكذا ظهرت المدن مرة أخرى كقوة فعالة على مسرح الحضارة الاوربية ، وساعدها على الظهور والنمو عوامل كثيرة اقتصادية واجتماعية وجغرافية وسياسية [٤] . ولما كان من المتعذر على المدن أن تمارس نشاطها الحضارى والاقتصادى فى ظل قيود النظام الاقطاعى ، فإنها سرعان ما أخذت تتحرر من سيطرة الأمراء الاقطاعيين لتصل إلى كل ما تصبو إليه من نفوذ واستقلال فى ظل مايعرف باسم الوطنية المدنية "Patriotisme Municipal"(5) وازدادت هذه الظاهرة وضوحاً بصفة خاصة فى إيطاليا وألمانيا ، حيث لم توجد قوة سياسة فعالة تقف فى وجه المدن الناشئة. وهكذا وجد أمراء الإقطاع أنفسهم أمام قوة جديدة عمادها طبقة متوسطة نشطة اتخذت من النشاط التجارى والصناعى دعامة لها ، مما هيأ لأفرادها من الموارد المادية ما حقق لهم النمو المستمر والتحرر من سيطرة الأمراء الاقطاعيين [٦] . وقد أطلق على تلك المدن التى استطاعت أن تحقق لنفسها كيانا سياسيا واقتصاديا مستقلا اسم القومونات (Communes) ، التى أصبح لكل منها قوانينها ونظمها ودستورها الخاص الذى

---

1) Pirenne : A History of Europe ; p.p. 94—95.
2) Idem : p. 215.
3) Idem : p.p. 201—204.
4) Cam. Med. Hist., vol. 5 ; p. 222 & vol. 6, p.p. 518—531.
5) Julien Luchaire : Les Democraties Italiennes, p. 35.
6) Pirenne : Med.cities; p.p. 190 — 200.

كان فى معظم الحالات مقتبسا عن دستور مدينة أخرى لا يشترط أن تكون مجاورة[1]. وتطلب النشاط التجارى الذى قام به أهالى تلك المدن القيام بسفريات كثيرة قد يطول مداها أو يقصر . وفى هذه السفريات يلتقون بأهالى المدن الاخرى ويمرون بعدد كبير من الأسواق والأديرة والكنائس وأضرحة القديسين حيث تكثر جموع الوافدين من مختلف أنحاء أوربا، فيأخذون عنهم الأفكار والمعارف الجديدة . ويعودون بها إلى مدنهم ، مما ساعد على انتشار الحضارة وارتقاء الحياة الفكرية .

والواقع أن هذا التقدم الذى أصابته المدن الأوربية فى الجزء الأخير من العصور الوسطى أصبح له أكبر الأثر فى تطور الحضارة الأوربية عامة فى تلك الحقبة . فالقومونات كانت من أقوى العوامل التى ساعدت على تحطيم النظام الاقطاعى فى أوربا ؛ وبالتالى أدى ذلك فيما بعد إلى استبدال نظام الدولة المركزية بالنظام الاقطاعى الذى فكك أوصال أوربا سياسيا مدة طويلة. هذا إلى أن عماد المدن ـ كما سبق أن أشرنا ـ كانت الطبقة البورجوازية ،أى الطبقة الثالثة من التجار والصناع من غير رجال الدين والنبلاء ؛ وهى الطبقة التى أدى ازدياد نفوذها إلى إحداث ثورة اجتماعية واقتصادية خطيرة فى أوربا . ويكفى أن هذه الطبقة غيرت وجه الحياة فى أوربا باتجاهها إلى التجارة والصناعة بدلا من الحرب والزراعة[2]. وقد ترتب على هذا الاتجاه اتساع الموانى وإنشاء الأساطيل الحربية والتجارية وكثرة الانتاج وقيام البنوك والمصارف واتساع نطاق أعمالها . هذا إلى أن الحياة التجارية والصناعية تطلبت ـ كما سبق أن أشرنا ـ كثيرا من المغامرات والتجارب ، وهذه أمور نتج عنها تغيير نظرة الناس إلى الحياة وزعزعة أسس العالم القديم وتقاليده . وهكذا أخذ الناس يخرجون من المألوف ويحكمون عقولهم فيما يشاهدونه ويصادفونه ،دون أن يقنعوا بالاستسلام لآراء الكنيسة التى ظلت طوال العصور الوسطى تتحكم فى تفكير الناس وتحدد نطاق ذلك التفكير وفق ما تمليه مصالحها . ولا شك فى أن العالم الحديث يدين

---

(١) عن موضوع المدن ونشأة القومونات أنظر كتاب «أوربا العصور الوسطى» الجزء الثانى ص ٩٢ — ١٠٦ ؛ تأليف الدكتور سعيد عاشور .

2) Gras : The Legacy of the Middle Ages ; pp. 435—464.

للمدن فى تلك الفترة بكثير من التنظيمات السياسية والادارية والإقتصادية .ومن ذلك بعض التنظيمات المتعلقة بالنقابات والجمعيات المنتخبة و النظام البلدى والنظام المصرفى [1] .

أما فى الناحية الثقافية ، فقد أسهمت المدن منذ القرن الثانى عشر بنصيب وافر . فإذا كان العامل الأساسى فى قيام تلك المدن وازدهارها هو نشاطها التجارى ، فإن هذا النشاط يستلزم قدراً من الثقافة وأساساً من الالمام بالقراءة والكتابة ومبادىء الحساب . وهكذا لم تعد هناك مدينة فى أوربا منذ القرن الثانى عشر إلا وبها مدرسة[2] . كذلك أصبح لكل واحدة من تلك المدن أرشيفها وسجلاتها ، مما أدى بالتدريج إلى انتقال مراكز التعليم من المدارس الكنسية والديرية إلى مدارس المدن .وقد بدت هذه الظاهرة أكثر وضوحا فى مدن جنوب أوربا ، لا سيما إيطاليا ، الأمر الذى ساعد عليه عدم اندثار معالم التعليم العلمانى من إيطاليا فى العصور المظلمة . فاذا أضفنا إلى ذلك أن غالبية المدن الإيطالية كانت لها علاقات تجارية وثيقة مع الشرق ، أدركنا فى سهولة أهمية الدور الذى قامت به تلك المدن فى الحياة الفكرية والثقافية . فالبندقية وبيزا كان لكل منهما حى تجارى فى القسطنطينية وغيرها من مدن الشرق الهامة فى الإمارات الصليبية بالشام مما أدى إلى تردد المبعوثين والتجار الإيطاليين على المدن التجارية فى الشرق ؛ بل إنه وجد من الإيطاليين من تولوا مناصب إدارية فى بلاط القسطنطينية وهكذا نسمع عن جيمس البندقى فى القسطنطينية سنة ١١٣٦ ، وهو الذى ترجم المنطق الجديد لأرسطو ؛ كما نسمع عن موسى البرجامى الذى امتلك مكتبة ضخمة من المخطوطات اليونانية والذى كتب فى القسطنطينية أشعاراً باللاتينية يتغنى فيها بمدينة برجامو مسقط رأسه . أما برجنديو البيزى فقد قضى حياته الطويلة متنقلا بين الشرق والغرب ، واستغل درايته باللاتينية واليونانية فى ترجمة كثير من الكتب اليونانية فى اللاهوت والطب إلى اللاتينية .

هذا عن أثر الاتصال بين أهالى المدن الإيطالية بالشرق اليونانى والدولة

---

1) Cam. Med. Hist., vol. 5 ; p. 239.
2) Pirenne : A Hist. of Europe ; p. 238.

البيزنطية . أما إتصال الإيطاليين بالشرق العربى ، فقد ظهر أثره أيضاً فى تلك الحقبة فى الأشعار التى نظمها أحد مواطنى مدينة بيزا ليتغنى بالانتصار الذى أحرزته هذه المدينة على مسلمى جزيرة ميورقة . كذلك قام ستفن البيزى — فى مدينة أنطاكية — بترجمة بعض كتابات العرب فى الطب إلى اللاتينية .

حقيقة إن الاتصال بين المـــدن الإيطالية وبلاد الشرق — البيزنطى والإسلامى — قام فى جوهره على أسس تجارية ، ولكننا يجب أن نتذكر حقيقة هامة لم تتغير منذ أيام الفينيقيين واليونانيين ، وهى أنه من الصعب الفصل بين التبادل التجارى والتبادل الفكرى والثقافى [1] . وإذا كان تبادل المتاجر فى تلك العصور لم يترك سوى آثاراً محدودة مؤقتة فى معظم الأحيان ، فإن تبادل الآراء والأفكار كان أقوى أثرا وأخطر شأنا .

الجامعات :

أما الجامعات فقد ظهرت فى أواخر العصور الوسطى لتصبح مركزا عظيما من مراكز الثقافة والمعرفة والحضارة ، وتسهم بدور فعال فى تطور الحضارة الاوربية ، الأمر الذى يجعلنا نقرر أن الجامعات كانت الإنتاج الكبير المميز لحضارة العصور الوسطى ، بالإضافة إلى المؤسسات الكنسية والبرلمانات [2]

وسوف نرجىء الكلام عن كل ما يتعلق بنشأة الجامعات الاوربيـــة ونظمها إلى الباب الثالث الخاص بالنهضة الأوربية فى القرن الثانى عشر ، لأن نشأة الجامعات كانت من أبرز الخصائص التى ميزت تلك النهضة . ولكن يكفى أن نشير الآن إلى أن أهم الجامعات التى ظهرت فى القرن الثانى عشر كانتا جامعة بولونيا فى إيطاليا وجامعة باريس فى فرنسا ، وقد تفرعت عنهما بقية الجامعات الاوربية فى العصور الوسطى حتى أصبح عددها فى نهاية تلك العصور نحو ثمانين جامعة على الأقل [3] .

---

1) Haskins : op. cit. ; p. 64.

2) Haskins : The Rise of Universities ; p. 3.

3) Rashdall : op. cit. ; vol. 1 ; p. XXIV.

ولكى ندرك أثر الجامعات فى تقدم الحضارة الأوربية فى العصور الوسطى، يكفى أن نعرف أنها فى ذلك الدور المبكر من تاريخها كانت تقبل الطلاب الوافدين إليها من مختلف البلاد والأنحاء دون اعتبار للجنس. كذلك اشتهرت كل جامعة منها بفرع من فروع الدراسات العليا، فجامعة بولونيا اشتهرت بالقانون، وجامعة باريس تفوقت فى الفلسفة واللاهوت، وجامعة سالرنو تخصصت فى الطب ... وكان يقوم بتدريس هذه المواد أساتذة متخصصون لهم شهرتهم التى جذبت الطلاب من أماكن بعيدة للدرس عليهم. وقد أدت النظم الجامعية فى العصور الوسطى إلى تقوية الصلات الحيوية والاجتماعية والثقافية بين الأستاذ وزميله، وبين الطالب وأستاذه. وبين الطلبة بعضهم وبعض ولم تقم نظرية الجامعة فى تلك العصور على مجرد فكرة حشو العقول بالمعارف وإعدادها للامتحان فى برامج معينة، وإنما كان هدف الجامعة إمداد المجتمع الأوربى بأفراد متعلمين لديهم رغبة صادقة فى استخدام علمهم لمنفعة المجتمع الذى يعيشون فيه. ومن هنا لم يقتصر أثر الجامعات على الناحية الثقافية فحسب. بل امتد إلى الناحية الحضارية بمعناها الواسع الشامل. ولذلك شبه بعض الكتاب جامعات العصور الوسطى بأنها كانت المرآة التى انعكست فيها حضارة أوربا فى تلك العصور[1].

ذلك أن الجامعـــات ساعدت على حفظ الشىء الكثير من تراث العصور الوسطى. هذا إلى أنها — بوصفها هيئات لها علاقة بالكنيسة من جهة والدولة من جهة أخرى — أصبح لها أثر كبير فى السياسة المحلية والسياسة الدولية. من ذلك الدور الذى قام به أساتذة الجامعات فى توجيه الحياة العامة فى الجمهوريات الناشئة فى إيطاليا. وفى باريس أصبحت الجامعة عاملا هاما فى توجيه الرأى العام، وذلك فى عصر قلت العوامل الموجهة لهذا الرأى. هذا إلى أثر الجامعات فى الحركات الفكرية ذات الصبغة الدينية التى ظهرت فى أوربا أواخر العصور الوسطى[2]. ثم إن هناك أثر آخر غير مباشر للجامعات يبدو فى تأثير العلوم

---

1) Eyre : op. cit. ; p.p. 333—334.

(٢) عن أثر الجامعات فى الحياة الأوربية فى العصور الوسطى أنظر كتاب (الجامعات الأوربية فى العصور الوسطى — تأليف الدكتور سعيد عاشور) ص ١٩٣ — ٢١٣ .

والمعارف التي احتضنتها وقامت على تدريسها ولا يستطيع أحد أن ينكر ما ترتب على التوسع فى دراسة القانون أو اللاهوت أو الفلسفة من أثر فى الحياة العامة بأوربا من النواحي السياسية والاجتماعية والثقافية والدينية . ويكفى أنه لم يكن فى استطاعة فرد فقير أو ضعيف المقدرة أن يصل إلى شيء من النفوذ والقوة فى العصور الوسطى إلا عن طريق الجامعات[1] .

* * *

وبعد ، فإن هذه كانت المراكز الرئيسية للحضارة والمعرفة فى أوربا العصور الوسطى . أما ما كان هناك من اتصالات وتيارات فكرية داخل نطاق كل منها ، وفيما بينها وبين بعض ؛ فلا نعرف عنها سوى القليل . وكل ما هنالك هو أن الطرق القديمة المألوفة التي لم يعرف الأوربيون غيرها منذ أيام الرومان — سواء كانت برية أو نهرية أو بحرية — ظلت تمثل الروابط الأساسية التي ربطت بين المراكز السابقة ، لأنها كانت تصل بين المدن الرومانية القديمة . وهي المدن التي أصبحت فى العصور الوسطى مراكز لكتدرائيات هامة ومراكز أسقفية شهيرة وأديرة معروفة . على أنه يبدو أن الإتصال الفكرى بين مراكز الحضارة والمعرفة فى العصور الوسطى ظل ضعيفاً . وذلك لمشقة السفر والإنتقال من ناحية ، وافتقار الطرق إلى الأمن والحماية من ناحية أخرى .

* * *

الحضارة الغربية فى العصور الوسطى حتى شارلمان

نستطيع أن نخرج من هذا العرض السابق بفكرة واضحة عن مراكز الثقافة والمعرفة فى الغرب الأوربى فى العصور الوسطى . ولكن ما هذه الثقافة التي نقصدها والتي سبق أن أشرنا إلى أن بقاءها يعتبر خير دليل على استمرار الحضارة الأوربية فى تلك العصور ؟

---

1) Cam. Med. Hist., vol. 6 ; p.p. 597—601.

الواقع أننا نقصد بهذه الثقافة التراث اللاتيني الذى بقى حيا طوال العصور الوسطى ، والذى يعتبر خير مقياس للوقوف على مدى ما أصابته الحضارة الأوربية فى تلك العصور من ارتفاع أو هبوط . والصلة بين المسيحية واللاتينية قديمة ترجع إلى أيام الرومان ، لأن الأدب اللاتيني لم يكن سوى ركنا من أركان المحيط الوثني الواسع الذى ولدت المسيحية وسطه والذى دخلت معه فى صراع رهيب. ولم يكن فى استطاعة الأوربيين فى العصور الوسطى أن يتخلوا عن التراث الرومانى فى اللغة والأدب والعلوم ، لأنهم تقبلوا هـذا التراث على أنه جزء من تراثهم الرومانى . هذا إلى أن اللغة اللاتينية ظلت لغة الكنيسة الغربية فى العصور الوسطى ، فدونت بها كتبها الدينية وقوانينها ونظمها وتعاليمها ، وأقيمت بها طقوسها وصلواتها . وما دامت هذه الصفة ملازمة للغة اللاتينيـة ، فإن كتب الأدب الرومانى استمرت مفتوحة يقرؤها كل من حصل على قسط من الثقافة الدينية ، كما استمرت معرفة اللغة اللاتينية بمثابة مؤهل لا بد منه لرجال الدين فى الغرب .

ولكن معظم الكتب والدراسات اللاتينية القديمة كانت وثنية الطابع بحكم أن مؤلفيها وثنيون ، ومن ثم امتازت بالإقبال على الدنيا والرغبة فى لذاتها ومباهجها مما جعل التناقض بينها وبين تعاليم المسيحية يبدو ظاهرا . لذلك انقسم رجال الكنيسة الغربيـة فى العصور الوسطى حول مدى التعمق فى الدراسات اللاتينية فهناك فريق من المتزمتين رأى أن تضيق دائرة الدراسات اللاتينية إلى الحد الذى لا يتعدى الإلمام بقواعد اللغة ونحوها بحيث يكفى الفرد أن يفهم الأسلوب اللاتيني ، واعتبروا أية دراسة أعمق من ذلك لتراث القدماء الوثنيين إنما هى مضيعة للوقت ومفسدة للنفس ومجلبة لتدنيس الروح . ويتضح هـذا الاتجاه فيما قرره مجمع قرطاجه الدينى سنة ٣٩٨ من تحريم قراءة كتب غير المسيحيين ، كما يتضح فيما ذكره منـــدوب بابوى فى القرن العاشر من أن « أتباع القديس بطرس ومريديه لا يصح أن يتخذوا الشاعر الرومانى ترنس Terence (١٩٥ ق . م .) قدوة لهم » بل إن البابا جريجورى الأول أو العظيم (٥٩٠ — ٦٠٤) عارض مبدأ التزود بقسط ضئيل من الدراسة اللغوية ، إذا كانت هذه الدراسة مستمدة من كتب الوثنيين . ولعل هذا الاتجاه هو

الذى دفع بعض النحاة فى القرن التاسع إلى عمل كتاب فى أصول اللغة اللاتينية ، مستمدين أمثلتهم من الترجمة اللاتينية للانجيل ، على الرغم من عدم دقة هذه الترجمة .

على أن التراث اللاتينى ظل مع ذلك يمثل أكبر قوة فعالة فى الدراسات الأدبية طوال العصور الوسطى . فبعدسقوط الامبراطورية الرومانية فى الغرب، استمرت إيطاليا المركز الأول للدرسات اللاتينية ،حيث ظهر على عهد ثيودريك ملك القوط الشرقيين (٤٥٤ — ٥٢٦) الفيلسوف اللاتينى بوثيوس Boethius (٤٧٠ — ٥٢٥) ، والأديب اللاتينى كاسيدورس Cassiodorus (٤٦٠ — ٥٨٣) الذى يعتبر أكبر كتاب القرن السادس [١] . وعقب وفاة ثيودريك هذا انتقل مركز الثقافة اللاتينية من إيطاليا إلى شمال إفريقية . حيث ظهر بعض الكتاب مثل الأسقف فركندوس Verecundus (ت ٥٥٢) ، الذى يشير فى كتاباته إلى كثير من قدماء الكتاب مثل بلينى Pliny (ت ٧٩) وسولينوس Solinus وغيرهما . على أن نهاية مملكة الوندال بأفريقية كانت بداية لانتقال النشاط الأدبى إلى أسبانيا التى هرب إليها كثير من رجال العلم والدين بشمال أفريقية فارين من وجه العرب ، حاملين معهم كتبهم وعلومهم [٢] . لذلك ظهر فى أسبانيا فى أواخر القرن السادس وفى القرن السابع بعض الأدباء الذين حملوا لواء اللاتينية فى ذلك العصر مثل إيسيدور الاشبيلى Isidore of Seville (٥٧٠ — ٦٣٦) الذى يعتبر رائد الحركة العلمية فى عصره ، والذى ألف عشرين كتابا صارت بمثابة دائرة معارف ضخمة طوال العصور الوسطى [٣] . ومثل جوليان الطليطلى Julian of Toledo (ت ٦٩٠) الذى كتب فى التاريخ واللاهوت والنحو [٤] .

وبينما الأدب اللاتينى لايزال مزدهرا فى أسبانيا ، ظهر فى غاليا بعض أعلام

---

1) Eyre : op. cit. ; p. 264.
2) Cam. Med. Hist. ; vol. 3 ; p.p. 488—489.
3) Idem : p.p. 491—492 & Eyre : op. cit., p. 265.
4) Cam. Med. Hist., vol. 3 ; p. 493.

اللاتينية مثل الشاعر فورتناتوس Venantius Fortunatus (٥٣٠ - ٦٠٩) والكاتب الشهير جريجورى التورى Gre y of Tours (٥٣٨ — ٥٩٤) الذى تعتبر كتاباته أول مصدر لتاريخ غاليا فى العصور الوسطى [١] . ولكن لم يلبث أن اعترى الدراسات اللاتينية فتور فى صلب القارة الأوربية فى أواخر القرن السابع وأوائل القرن الثامن، وفى ذلك الوقت ظهرت أيرلند لتخلف إيطاليا وشمال إفريقية وأسبانيا وغاليا فى ميدان تلك الدراسات . ولاداعى للخوض فى أصول النهضة الأيرلندية العظيمة [٢]، وإنما تكفى الإشارة إلى أن هذه النهضة أخذت تظهر فى القرن السابع وتزعمتها الكنيسة الأيرلندية ، التى تم بفضلها ظهور إنتاج ضخم متنوع فى اللاهوت والفلسفة والأدب وغيرها من العلوم . والواقع أننا لانكون مبالغين إذا قررنا أن أيرلند هى التى حملت شعلة المعرفة لتنير الطريق أمام بلاد غرب أوربا ، فى ذلك العصر المظلم الذى انتشرت فيه الفوضى والإغارات والحروب فى بلاد القارة [٣]. ولم تقتصر الدراسات فى أيرلند على اللاتينية وتراثها وإنما امتدت إلى اليونانية التى يرجح أنها درست هناك فى القرن السابع [٤] وقد استمرت هذه النهضة الأيرلندية مزدهرة حتى القرن التاسع ، عندما حمل لواءها يوحنا سكوتس Joannes Scottus (٨٣٣ - ٨٨٠) أبرز أساتذة القرن التاسع وأول فيلسوف مدرسى [٥]

ولم يقتصر بريق النهضة الأيرلندية على أيرلندا، وإنما امتد إلى البلاد المجاورة. وساعد على ذلك حب الأيرلنديين للهجرة بسبب فقرهم ، وكذلك الرحلات العديدة التى قام بها رجال الدين والعلم الايرلنديون إلى مختلف بلاد غرب أوربا حاملين

---

1) Idem : p.p. 495—496 & Eyre : op. cit. ; p. 265.

2) Cam. Med. Hist. : vol. 3 ; p.p. 501—506.

3) Lane-Poole : Illustrations of the Hist. of Med. Thought; p.8

4) Cam. Med. Hist. : vol. 3 ; p.p. 502—504.

(٥) يوحنا سكوتس هذا إيرلندى لاسكتلندى كما يبدو لأول وهلة من اسمه . ذلك أن إيرلند كانت تسمى Scottia فى العصور القديمة . ولم يطلق هذا الإسم الأخير على الجزء المعروف الآن باسم سكتلند الا فى القرن الثانى عشر عندما هاجر إليه الايرلنديون .
(أنظر. Cam. Med. Hist. vol. 3, p. 424)

معهم علومهم وثقافتهم أينما ذهبوا [١] . وقد أسس الأيرلنديون أديرة عديدة في صلب القارة، قدر لها أن تستمر مراكز للثقافة والحضارة عدة قرون في العصور الوسطى . وكان أن ظهر أول صدى لهذا النشاط في إنجلترا ، حيث تضافرت جهود البعثات الكلتية والرومانية على نشر المسيحية . ولم تلبث هذه البعثات أن واصلت جهودها العلمية والأدبية [٢] ، حتى بلغت هذه الحركة ذروتها في القرن الثامن على عصر بدى (٦٧٥ — ٧٣٥) ؛ وهو العالم والأديب المؤرخ الخالد الذكر ، الذى يعتبر نشاطه الأدبى بداية عهد جديد اتخذ فيه الأدب اللاتينى شكله الذى ميزه بقية العصور الوسطى [٣] وبعد وفاة بدى بقليل ولد ألكوين Alcuin (٧٣٥ — ٨٠٤) الذى يعتبر حلقة الوصل بين النشاط الفكرى في بريطانيا وغاليا . والذى استعان به شارلمان في النهضة العظيمة التى عرفت بالنهضة الكارولنجية .

* * *

وهكذا يتضح لنا من هذا العرض السريع أن ركاب الحضارة الأوربية لم يتوقف في العصور الوسطى، وأن شعلة المعرفة لم تنطفىء عقب سقوط الامبراطورية الغربية في أواخر القرن الخامس ، وإنما ظلت متوهجة تنتقل من بلد إلى آخر ، حتى اشتد بريقها في أواخر القرن الثامن في غاليا على عصر شارلمان ، كما سنرى بالتفصيل في الباب الآتى .

---

1) Lane-Poole : op. cit. ; p. 8.

2) Cam. Med. Hist. : vol. 3 ; p. 508.

3) Idem : p. 511 & Eyre : op. cit. ; vol. 3 ; p. 368.

الباب الثاني

النهضة الكارولنجية

مقدمة تاريخية :

من المبادىء المسلم بها في تاريخ العصور الوسطى أن الخلاف الشديد في العقيدة والمذهب بين الجرمان الأريوسيين ورعاياهم من الرومان الأثناسيوثيين[1] هو السبب الرئيسي في سرعة تفكك معظم الممالك الجرمانية التي قامت في غرب أوربا عند نهاية القرن الخامس . ولكن هذا القول لا ينطبق في الواقع على واحدة من تلك الممالك هي مملكة الفرنجة التي استطاعت البقاء والاستمرار والتي لسبب واضح ، هو أن ملكها كلوفس اعتنق المسيحية الاثناسيوسية سنة ٤٩٦ وبذلك تحاشى الاصطدام بالصخرة التي تحطمت عليها بقية الممالك الجرمانية كما بدا في نظر الرومان وفي نظر الكنيسة القوة الوحيدة التي تستطيع أن تحمى العالم الروماني والكنيسة الغربية من خطر بقية الجرمان الأريوسيين .

وهذه الدولة الجديدة التي وضع أساسها كلوفس ، والتي عرفت باسم الدولة الميروفنجية ، لم تظل جرمانية بحتة ولم تصبح رومانية صِرفة ، وإنما غدت بين هذه وتلك : فاحتفظت ببعض الخصائص والأصول الجرمانية وأخذت كثيرا من عناصر الحضارة الرومانية ؛ ثم عملت على صهر هذه الأصول الجرمانية والرومانية جميعاً في بوتقة المسيحية الغربية ، مما جعل دولة الفرنجة في النهاية أقدر من غيرها على إحياء تراث الإمبراطورية الرومانية[2]. وإن نظرة عاجلة يلقيها الباحث على أحوال غاليا في العصر الميروفنجي لتوضح أن ملوك البيت الميروفنجي أدركوا أن مملكتهم أصبحت جزءا هاما من العالم المسيحي ، فأخذوا على عاتقهم

---

(١) عن المذهبين الأريوسي والاثناسيوسي أنظر كتاب (أوربا العصور الوسطى ، الجزء الأول ص ٣٣ — ٣٤) تأليف الدكتور سعيد عاشور .

(2) Lavisse: Hist de France, Tome 11, Livre 1, pp. 171—172.

حماية الشعب ، كما قاموا بغزو جزء كبير من البلاد التي يطلق عليها اليوم اسم فرنسا ، ثم تحضير هذه البلاد وتوفير الأمن فيها والاستقرار لها . وهكذا نرى الفلاح فى غاليا فى العصر الميروفنجى يباشر عمله فى حقله ، بالضبط كما كان يفعل تحت حكم أباطرة الرومان . كذلك نسمع فى ذلك العصر عن ظهور بعض الشخصيات الهامة التى ميزت الحياة الحضارية والفكرية، مثل الشاعر فورتناتوس Venantius Fortunatus (٥٣٠ — ٦٠٩) الذى شغل منصب أسقف بواتيه، والمؤرخ جريجورى التورى (٥٣٨ — ٦٩٤) الذى شغل منصب أسقف تور وكتب مؤلفاً شهيرا فى تاريخ الفرنجة . وعلى الرغم من اضمحلال مستوى اللغة اللاتينية فى ذلك العصر إلا أنها استمرت وانتشرت وانتقل استعمالها من أهالى البلاد الأصليين الرومان إلى حكامهم الفرنجة ، حتى أننا نستطيع القول بأن المجتمع الذى قام فى غاليا فى القرن السادس إنما كان مجتمعاً رومانياً عمل على تهذيب الفرنجة ، ورفع مستواهم عن طريق الكنيسة ومؤسساتها [1] .

على أن المملكة الميروفنجية سرعان ما اعتراها الضعف والوهن، وظهر هذا الضعف جليا فى أوائل القرن السابع ، وعندئذ لم يقتصر على الجانب السياسى وإنما صحبه فساد فى الحياة الفكرية وانحلال فى الحياة الاجتماعية ، حتى أننا إذا نظرنا إلى التطور الحضارى والفكرى فى غرب أوربا منذ القرن الخامس حتى العصور الحديثة ، فإننا نلاحظ أن مستوى الحضارة الأوربية بلغ أحط درجاته فى القرن السابع [2] . وليس هذا مجال الخوض فى أسباب ذلك التدهور ومظاهره، وإنما الذى يهمنا هو أن ضعف ملوك البيت الميروفنجى ترتب عليه ازدياد نفوذ رؤساء البلاط Mayors of the Palace ، حتى جاء وقت تركزت السلطة فى أيديهم وأصبح الملوك لاحول لهم ولا قوة . وازدادت مكانة رؤساء البلاط عندما استطاع أحدهم ، وهو شارل مارتل ، أن يحرز نصرا على المسلمين الذين زحفوا من الأندلس على جنوب غاليا بقيادة عبد الرحمن الغافقى ،واستمروا فى تقدمهم حتى هزمهم شارل مارتل فى موقعة تور أو بواتيه سنة ٧٣٢ وأجبرهم على الانسحاب إلى ايبريا . ويهمنا من هذا النصر هو أنه أكسب شارل وأسرته هيبة عظيمة ، إذ أخذ الناس ينظرون إلى تلك الأسرة على أنها حامية المسيحية ،

---

1) Eyre: op. cit. vol. III, p. 54.
2) Guizot: Hist de la civilisation en France, Tome II; p. 178.

وأن مصير الكنيسة الغربية أضحى مرتبطا بشارل مارتل وأسرته[١] . وأخيرا استطاع رئيس البلاط ببين القصير أن يواجه الموقف فى شجاعة ، فأعلن نفسه ملكا على الفرنجة سنة ٧٥٢ ، وبذلك انتهت الأسرة الميروفنجية وحلت محلها فى الحكم أسرة جديدة من سلالة رؤساء البلاط عرفت بالأسرة الكارولنجية[٢] .

والواقع أن أهم ماميز تاريخ دولة الفرنجة بوجه عام والأسرة الكارولنجية بوجه خاص ، هو ذلك التحالف الوثيق الذى ربط الدولة بالكنيسة . ذلك أن البابوية — فى ذلك الدور من تاريخها — كانت فى حاجة ماسة إلى مساعدة الفرنجة ضد اللمبارديين الذين أخذوا يتوسعون فى إيطاليا فى الوقت الذى كان مسلك الدولة البيزنطية العدائى تجاه الكنيسة الغربية لا يشجع البابوية على الاستنجاد بها ضد اللمبارديين . لذلك حدث عندما أرسل ببين القصير رئيس البلاط إلى البابا زكريا (٧٤١ — ٧٥٢) يسأله عما إذا كان من الأصلح أن يكون التاج للشخص الذى بيده السلطة الفعلية فى الدولة — وهو رئيس البلاط — جاءه رد البابا فورا بالموافقة . ولم يلبث أن عبر البابا ستفن الثانى جبال الألب ليتوج ببين وولديه سنة ٧٥٤ . وهكذا بدأ ببين القصير سياسة التحالف بين دولة الفرنجة من ناحية والكنيسة والبابوية من ناحية أخرى ، وهى السياسة التى ازدادت وضوحا فى عصر ابنه وخليفته شارلمان . ولم يكتف البابا ستفن الثانى بتتويج ببين القصير بنفسه ، بل اختار أن يزيده تشريفا بمنحه لقب البطريقية[٣] وكأن البابا أراد بهذا التشريف الذى خلعه على أول ملوك الأسرة الكارولنجية أن يزيد من قدره ومقدرته ، حتى يصبح قوة فعالة فى مساندة البابوية ضد أعدائها[٤]

---

1) Pirenne: A Hist. of Europe. p.p. 74-75 & Eyre: op. cit, p .66

(٢) نسبة إلى شارل أو كارل العظيم (شارلمان) : أشهر حكام تلك الأسرة .

(٣) كان لقب البطريقية Patricius هذا خاصا بالمواطنين الرومان القدماء ، عندما كان شعب روما ينقسم إلى طبقتين : البطارقة والعامة ؛ والطبقة الأولى هى الممتازة والتى تمتعت وحدها بكافة الإمتيازات والحقوق السياسية . وفى عهد الامبراطور قنسطنطين تطور معنى لفظ البطريقية وأصبح لقبا من ألقاب التشريف ، يمنح لكبار الشخصيات مقابل مايؤدونه من خدمات ومساعدات . وكانت أول مرة تقويم فيها البابوية بمنح هذا اللقب على عهد البابا ستفن الثانى وببين القصير ملك الفرنجة ؛ وعندئذ يبدو أن لقب البطريقية اتخذ معنى « حامى الكنيسة patronus of the Church » .

4) Davis: Charlmagne; p. 51.

وسرعان ماأثبت بيبين القصير أنه عند حسن ظن البابوية ، فشن حربا سريعة على اللبارديين واسترد منهم عدة مناطق ومدن منحها للبابوية ، متجاهلا كل ماللامبراطورية البيزنطية من حقوق شرعية فى إيطاليا . كذلك قام بيبين بعدة غزوات فى ألمانيا فأخضع عنصر الألمان ، وضم جزءا من بافاريا إلى مملكته ، فضلا عن قيامه بغزو سكسونيا أكثر من مرة .

ولم تلبث هذه السياسة التى اتبعها بيبين القصير أن سار عليها ابنه شارل العظيم أو شارلمان عندما آل إليه الحكم بالاشتراك مع أخيه كارلومان سنة ٧٦٨ ثم توسع فيها عندما انفرد بالحكم سنة ٧٧١ . وليس هذا مجال دراسة حروب شارلمان الطويلة ، وإنما تكفى الإشارة إلى أنه نجح فى إخضاع السكسون وفى إخضاع بافاريا كما استجاب لنداء البابوية فهب لنصرتها ضد اللبارديين سنة ٧٧٣ ، واستولى على كثير من مدنهم الهامة مثل فيرونا وبافيا حتى استحق لقب ملك اللمبارديين سنة ٧٧٤ .

ويهمنا من أمر هذه الحروب التى قام بها شارلمان أنها وحدت غاليا وحمت أطرافها ومكنت من قيام حكومة قوية مستقرة فيها ، وبالتالى مكنتها من المساهمة بدور هام فى التطور الحضارى لأوربا . هذا إلى أن الحروب الشارلمانية اتخذت طابعا صليبيا إلى حد ما ، لأن حروب شارلمان ضد الألمان والسكسون وغيرها من عناصر الجرمان إنما تعنى انتشار المسيحية بين تلك العناصر الوثنية . فجيوش شارلمان صحبتها فى زحفها من مكان إلى آخر بعثات الكنيسة التبشيرية مما أظهر الدولة الكارولنجية فى صورة القوة الحريصة على نشر المسيحية وحماية الكنيسة الغربية [1] .

وقد حدث أثناء حصار شارلمان لمدينة بافيا سنة ٧٧٤ أن اغتنم الفرصة لزيارة البابا أدريان الأول (٧٧٢ - ٧٩٥) فى روما ، فأحتفل به أهالى روما احتفالا عظيما ورحب به البابا ترحيبا يسترعى الانتباه ، حتى صنعت ميدالية

1) Eyre: op. cit., p. 86.

تذكارية تخليداً لتلك المقابلة الهامة بين شارلمان والبابا ، ورسم عليها الزعيمان وقد تصافحت أيديهما فوق الإنجيل.

وإذا كانت هذه هي المرة الأولى التي يزور فيها شارل العظيم روما ، فلاشك في أن عظمة وروعة مافيها من آثار وبقايا امبراطورية ،قد بهرت عينيه وأثارت في نفسه خواطر كثيرة نحو الطموح وإحياء عظمة الماضي. ويبدو أن أهم الخواطر التي أثارتها زيارة شارل لعاصمة أباطرة الرومان كان الرغبة في الوصول إلى مكانتهم وعظمتهم ، ومن ثم حرص ذلك الحاكم البعيد النظر على مواصلة تلك السياسة الداخلية والخارجية التي جعلت منه في أعين المعاصرين خليفة قيصر والتي أدت إلى تتويجه امبراطورا بيد البابا سنة ٨٠٠ .

وهنا نكرر ما سبق أن أشرنا إليه من أن الناس في العصور الوسطى نظروا دائماً نحو الماضي ، نحو روما وعظمتها ومجدها . وإذا كان المعاصرون في الغرب الأوربي قد اعتبروا سقوط الامبراطورية الرومانية سنة ٤٧٦ نذيراً بنهاية العالم ، إلا أنهم اعتقدوا كذلك في أنه إذا بقي هناك ثمة أمل في خير يصيبه العالم الغربي ، فإن هذا الأمل لن يتحقق إلا بإحياء الإمبراطورية الرومانية في الغرب . حقيقة إن هناك امبراطورية أخرى ظلت قائمة في القسطنطينية ، ولكن غرب أوربا اعتبر تلك الامبراطورية غريبة وغير رومانية لأنها شرقية الطابع يونانية اللغة والحضارة أرثوذكسية المذهب . وإذا كان الغرب الاوربي ظل دائماً يرنو نحو إحياء الامبراطورية التي سقطت سنة ٤٧٦ ، فإنه لم تظهر — منذ ذلك الوقت حتى القرن الثامن — شخصية مثل شارلمان استحقت أن تنفرد بشرف إحياء الامبراطورية . ويكفي أنه الرجل الذي قاد الفرنجة من نصر إلى آخر ، والذي حارب أعداء المسيحية وعمل على نشرها بين ربوع الوثنية المظلمة ، كما رفع شأن الكنيسة ورجالها وحمى زعيمها من الوقوع فريسة في أيدي أعدائه . هذا فضلا عن النهضة الحضارية الشاملة التي تزعمها شارل العظيم والتي جعلت منه خليقاً بأن يرث أباطرة الرومان القدامى في عظمتهم وعلو كلمتهم . وإذا كان التاريخ قد أثبت في حالات كثيرة أنه ليس من الضروري أن يرتبط التطور الحضاري والقومي بجهود فرد معين ، إلا أنه ثبت في بعض الحالات — وعلى رأسها حالة

شارلمان — أنه من الممكن أن يغير فرد صفحة التاريخ . فلولا شارلمان لتأخر نمو الحضارة الاوربية وتطورها ، ولأعوز تلك الحضارة بعض العناصر التى تميزها اليوم . والحق أن الكنيسة الكاثوليكية لم تبالغ عندما سجلت اسم شارلمان ضمن أولئك الذين أسسوا مدينة الله على الأرض ، ولم تخطىء الأقاصيص الشعبية عندما صورت شارلمان فى صورة الصليبى الأول الذى رسم سياسة الحروب الدينية فى العصور الوسطى ، وجعل من البلاد المسيحية معسكراً مسلحاً يدافع عن الكنيسة وكيانها وأهدافها . كذلك لم تبتعد المراجع التاريخية عن الواقع عندما نسبت إلى عصر شارلمان الخيوط الأولى لنشأة النظام الاقطاعى فى غرب أوربا .

ومهما كان الأمر ، فإن أهم ما يعنينا فى هذا العرض ، هو أن شارلمان — على الرغم من ضعف مستواه الثقافى — استطاع أن يتزعم نهضة فكرية عظيمة شملت الاتجاهات الثقافية والاقتصادية والفنية ، وتركزت فى فرنسا لتمتد إلى أنحاء مختلفة من ألمانيا وإيطاليا وأسبانيا[1] . ولا أقل قبل الكلام على أوجه هذه النهضة من الإشارة أولا إلى خصائصها العامة .

خصائص النهضة الكارولنجية :

لعل أول ما نلاحظه على النهضة الكارولنجية أنها مصطنعة ، حدثت بفعل فاعل ، وبعبارة أخرى قامت هذه النهضة ، لان شارلمان أراد لها أن تقوم ، وأراد أن تكون هناك نهضة . فهى ليست نهضة تلقائية شاملة ، منبعثة من عوامل ومؤثرات حضارية كامنة ، وإنما ولدت فى بلاط الملك ، ونمت وترعرعت فيه ، وظلت ربيبة شارلمان وخلفائه المباشرين إلى أن ماتت وخمدت جذوتها بالسرعة التى ظهرت بها . ولعل هذا هو السبب فى أن النهضة الكارولنجية إذا قورنت بغيرها من الحركات الحضارية فى العصور الوسطى ومستهل الحديثة ، فإنها تبدو ضيقة الأفق قصيرة العمر ، لانها ارتبطت فى مولدها ونشأتها برجل واحد يتعهدها

1) Foligno: Latin Thought During the Middle Ages, p. 68.

وبرعاها ، فظلت منتعشة ماعاش صاحبها ، حتى إذا مات ماتت معه أو بعده بقليل .

كذلك لم يكن شارلمان فى اهتمامه بنشر العلم والثقافة مهتما بخدمة العلم لذاته ، وإنما كانت له أهداف دينية وسياسية سنوضحها فيما بعد . وإذا كانت هذه الحركة الحضارية قد تخطت أهدافها ، فإن هذا الأمر جاء نتيجة المصادفات ولم يكن أمراً مقصوداً .

كذلك نلاحظ على النهضة الكارولنجية أنها كانت حركة إحياء Revival أكثر منها حركة ابتكار وتجديد . ونقصد بالإحياء هنا إحياء الدراسات اللاتينية ورفع مستوى اللغة اللاتينية بعد أن انحط انحطاطاً بالغاً فى العصور المظلمة التى أعقبت سقوط الإمبراطورية فى الغرب ، وبعبارة أخرى فإن الدور الأساسى لهذه النهضة انحصر فى المحافظة على التراث اللاتينى القديم .

أعلام النهضة الكارولنجية :

لم يدخر شارلمان وسعاً فى حشد الكفايات التى يمكن أن تفيده فى تحقيق سياسته وتعينه على النهوض بأغراضه، فاجتذب هذه الكفايات من جميع الأنحاء والبلاد ، لا سيما أيرلند وانجلترا ، حتى قيل إن الإيرلنديين والأنجلوسكسون كانوا الزعماء الحقيقيين للنهضة الكارولنجية[١] . وأغرى هؤلاء العلماء على قصد بلاط شارلمان ، ماقدمه لهم من عطايا جزيلة ، فضلا عما أمدهم به من عطف ورعاية وحماية[٢] . وقد ساعد كل ذلك على قيام نهضة علمية شاملة كان مركزها بلاط شارلمان ، ومرت بثلاث مراحل أساسية : المرحلة الأولى ، وتشمل الفترة من سنة ٧٧٣ حتى سنة ٧٨٦ وفيها كان النفوذ الأكبر للأدباء ورجال المعرفة الإيطاليين : والمرحلة الثانية : وتشمل الفترة من سنة ٧٨٦ حتى سنة ٨٠٠ ويمكن تسميتها عصر ألكوين ، وفيها بلغت النهضة الكارولنجية ذروتها ، والمرحلة

1) Foligno: Latin Thought; p. 68.
2) Taylor, Med. Mind, Vol. 1; p. 214.

الثالثة من سنة ٨٠٠ حتى وفاة شارلمان سنة ٨١٤ وكانت فترة تدهور بطيء تدريجى ، وأهم من برز فيها ثيودلف وانجلبرت واجنهارد (اينهارد) .

أما المرحلة الأولى فأبرز أعلامها بطرس البيزى وبولينوس وبولس الشماس . وجميعهم وفدوا من إيطاليا حيث ظلت بعض آثار الحياة الثقافية حية قائمة ، وإن أمست فى حالة ركود . وكان بطرس البيزى قد تلقى علومه فى مدرسة بافيا ثم انتقل إلى غاليا حيث حظى بشرف تعليم شارلمان[١] . أما بولينوس فكان أسقف أكويليا[٢] ، ومرب لأبناء ديدير آخر ملوك اللمبارديين الذى أسقطه شارلمان سنة ٧٧٤ ، ومن ثم انتقل بولينوس مع شارلمان إلى غاليا حيث استغل نشاطه فى النواحى التعليمية والدينية[٣] . وأما بولس الشماس فقد وضع كتابا عن تاريخ اللمبارديين كما وضع مختصراً لمعجم بومبى فستوس pompeius Fhstus ، وكلا من هذين العملين على جانب كبير من الأهمية . فكتابه عن تاريخ اللمبارديين أكسبه لقب « أبو التاريخ الإيطالى » ، فى حين أن معجم بومبى فستوس كان مختصراً لمعجم فريوس فلاكوس Verrius Flaccus الكبير الذى لم تتبق منه سوى نسخة فى نابلى تآكل نصفها . ولولا ما حفظه لنا بولس الشماس من موجز للجزء المفقود لتناقصت إلى حد بعيد معرفتنا باللغة اللاتينية القديمة . ويلاحظ أن بولس الشماس قام بهذين العملين بناءاً على تكليف من شارلمان ، الذى رأى أن يستخدم بولس فى أغراض تعليمية وفى جمع التراتيل والنصوص الدينية لاستخدامها فى الكنيسة[٤] . ومن المعروف كذلك أن شارلمان كان يقدر بولس الشماس وبطرس البيزى لكفايتهما فى النحو اللاتينى وقدرتهما على تدريسه . وقد ترك كلاهما بعض كتابات فى موضوع النحو ، وهو موضوع تعرض له معظم علماء ذلك العصر عندما بذلت جهود جبارة أيام النهضة الكارولنجية لرفع مستوى التعليم ومستوى اللغة اللاتينية ، مما تتطلب كثرة التصنيف فى النحو اللاتينى . حقيقة إن هؤلاء المصنفين لم يضيفوا من عندهم شيئاً جديداً ، اللهم إلا من ناحية

---

1) Idem, p. 215.

(٢) الإقليم المحيط بفريستان .

3) Lavisse: op. cit., p. 343.

4) Cam. Med. Hist.; Vol. 3; pp. 514—515.

تنظيم المادة وحسن عرضها ، ولكنهم مع ذلك يستحقون التقدير نظراً لأنهم سدوا حاجة عدة أجيال تالية من طالبى العلم والمعرفة[١] .

وقبل أن نترك بولس الشماس يصح أن نشير إلى أنه كان يجهل اليونانية ، وليس هذا بالشىء العجيب إذا عرفنا أن أثر الثقافة اليونانية لم يظهر فى إنتاج أعلام النهضة الكارولنجية بوجه عام نظراً لقلة الكتب اليونانية بين أيديهم . ولكن ليس معنى ذلك أن علماء ذلك العصر جميعاً كانوا يجهلون اليونانية ، إذ من الثابت أن كثيراً منهم تعلموها وأحاطوا بقواعدها . ولكن الحاصل هو أنهم بعد تعلم اللغة اليونانية وإجادتها كانوا لا يجدون أمامهم المؤلفات والمراجع اليونانية التى يمكن أن يستفيدوا منها . وهذا هو السبب فى عدم الإقبال على دراسة اللغة اليونانية فى ذلك العصر لأن تعلمها كان يتطلب جهداً كبيراً ، دون أن يحصل متعلمها فى نهاية الأمر على فائدة تتناسب مع ذلك الجهد[٢] .

ألكوين :

أما الرجل الذى بذ جميع أقرانه من أعلام النهضة الكارولنجية فى ثقافته ونشاطه التعليمى فهو ألكوين ، الذى يعتبر مرآة صادقة لتلك النهضة[٣] . ولم يكن ألكوين هذا إيطاليا أو من أبناء غاليا ، وإنما كان إنجليزيا ولد فى يورك حوالى سنة ٧٣٥ ، أى فى وقت كانت النهضة الفكرية التى رأيناها تمتد من أيرلند إلى إنجلترا لاتزال ساطعة . وقد ساعد على استمرار هذه النهضة فى إنجلترا عدم تعرضها لغزوات مخربة من جانب البرابرة عقب وصول البعثات التبشيرية التى أرسلتها روما لنشر المسيحية بين أهلها فى أواخر القرن السادس . وهكذا استطاعت الأديرة والمدارس الانجليزية أن تباشر جهودها الحضارية والثقافية فى جو من الاستقرار لم تعكر صفوه إلا غزوات الفيكنج فى القرن التاسع .

---

1) Ibid.
2) Cam. Med. Hist., Vol. 3; p. 517.
3) Guizot, Tome II, p.p. 178—179.

وفى ذلك الجو الهادىء نشأ ألبينوس (ألكوين) ، ودرس بمدرسة يورك التى امتلأت بمختلف المؤلفات القديمة ذات الشهرة البالغة . وقد ذكر ألكوين نفسه أسماء المواد التى كانت تدرس عندئذ بمدرسة ديريورك ، ومنها النحو والبلاغة والقانون والفلك والرياضيات ، هذا عدا العلوم التى تتعلق بطبيعة الإنسان وطبيعة الأرض والبحار والحيوانات وغيرها . ولاشك فى أن هذه العلوم فاقت كل ما عداها من ضروب المعرفة التى عرفت فى غاليا وأسبانيا فى ذلك العصر[1] .
على أن الوضع أخذ يتبدل منذ أواخر القرن الثامن نتيجة لإغارات الدانيين على انجلترا ، الأمر الذى دفع كثيرا من رجال العلم الايرلنديين والانجلوسكسون إلى الهجرة إلى بلاد شارلمان حيث وجدوا ما يحتاجون إليه من أمن واستقرار[2] .

ومن المرجح أن ألكوين قام برحلتين إلى القارة قبل سنة ٧٦٦ ، ولكنه قام برحلة أخرى عندما بلغ سن الخمسين إلى روما سنة ٧٨٠ ، حيث قابل شارلمان فى بارما سنة ٧٨١ ، وعندئذ ألح عليه شارلمان فى مصاحبته إلى غاليا عقب الانتهاء من مهمته[3] . وهنا نجد ألكوين يلبى الدعوة ، فيحتل منذ سنة ٧٨٢ مركزا بارزاً فى بلاط شارلمان كمستشار أول له فى معظم شئونه بالإضافة إلى إشرافه التام على شئون الثقافة والتعليم فى مملكته . وفيما عدا فترة صغيرة زار فيها ألكوين انجلترا ، نجد أنه قضى بقية حياته بالقارة حتى توفى سنة ٨٠٤[4] .

وهنا يصح أن نشير إلى أن ألكوين لم يكن كاتباً عظيما . ومهما كان لكتاباته وأشعاره من أهمية خاصة ، إلا أنها لاترقى إلى مستوى الأدب الرفيع . أما شهرة ألكوين الحقيقية فترجع إلى شخصيته الجذابة ، وقوة تأثيره على سيده شارلمان ، وجهوده فى نشر الثقافة والنهوض بالتعليم . وبعبارة أخرى فإن شهرته ترجع إلى سعة اطلاعه وسمو تفكيره أكثر منها إلى تجديده وابتكاره[5] . ومهما كان الأمر ، فإنه يكفى ألكوين فخرا أنه أسهم بالقسط الأوفر نقل أمم

---

1) Ibid.
2) Cam. Med. Hist. Vol.3, p. 514.
8) Taylor: op. cit., Vol. 1, p. 214.
4) Idem, p. 215.
5) Lane-Pocle: op. cit., p. 18.

مظاهر النهضة الايرلندية إلى غاليا، حيث تعهدها بجهوده وعنايته[١] .

ويحسن بنا عند الكلام عن مكانة ألكوين العلمية أن نقسم كلامنا إلى قسمين، القسم الأول يتناول نشاطه العلمي وجهوده فى خدمة العلم والتعليم، والقسم الثانى يتناول الأثر المباشر لذلك النشاط وتلك الجهود. أما من ناحية نشاط ألكوين العلمي فإننا نجد أنه بدأ أولا بتصحيح المخطوطات القديمة. ثم أعقب ذلك باصلاح المدارس الدينية ونشر التعليم، هذا فضلا عما قام به ألكوين نفسه من جهود فى تعليم الغير. وكانت نسبة كبيرة من المخطوطات والمؤلفات الكلاسيكية قد تعرضت فيما بين القرنين السادس والثامن لكثير من التحريف والأخطار، وذلك نتيجة للجهل الذى عم تلك الفترة. وقد ترتب على ذلك اختلاط صفحات بعض هذه المخطوطات وضياع ترتيبها بين أيدى مالكيها، بل ضاعت بعض تلك الصفحات نهائيا فى حين ظهرت البقية الباقية، وقد خلت من أبسط قواعد الكتابة واللغة وكثرت فيها الأخطاء نتيجة لجهل النساخ. وهنا تبدو أهمية ألكوين فى تصحيح تلك المخطوطات — لاسيما الدينية منها — فكرس جزءاً كبيراً من حياته فى تنقيحها. كما أخذ يوصى تلاميذه بالعناية بالكتب الكلاسيكية وتصحيحها. وساعد شارلمان أستاذه — ألكوين — فى تحقيق ذلك الهدف، فأصدر الأوامر إلى الأساقفة والرهبان، ومن ذلك المنشور الذى وجهه شارلمان إلى رجال الدين سنة ٧٨٨ يوصيهم فيه بتصحيح الكتب «التى أفسدها جهل الناسخين[٢]». وبينما ألكوين يبذل هذه الجهود فى مراجعة الكتب التى تدرس فى المدارس الدينية وتصحيحها، إذا به يقوم بعمل آخر جليل هو مراجعة شاملة للترجمة اللاتينية للكتاب المقدس، حتى انتهى من تلك المراجعة فى دير سانت مارتن بمدينة تور سنة ٨٠١، ثم أهدى الانجيل مصححا إلى شارلمان. ويرجح البعض أن ألكوين قام بهذا العمل بتكليف من الامبراطور نفسه[٣] الذى أعجبته الفكرة واستعان ببعض العلماء فى تصحيح أناجيل متى ومرقس ولوقا ويوحنا، وتم هذا العمل أيضاً قبل وفاة شارلمان بسنة واحدة.

---

1) De Wulf: Hist. de la Pnilosophie Medievale. Tome I. p. 87.
2) Guizot: op. cit., p. 185.
3) Cam. Med. Hist., p. 516.

وكان ألكوين إذا أتم ـ هو أو أحد مساعديه ـ تصحيح كتاب ، أمر بنسخ عدة صور منه ليرسلها إلى الكنائس والأديرة الرئيسية . وفى تلك الكنائس والأديرة تنسخ نسخ أخرى جديدة فى ضوء النسخ المصححة ، لاستعمالها وتوزيعها . هذا فى الوقت الذى دأب ألكوين ـ وسيده شارلمان ـ على تشجيع الأديرة التى تنتج أجود النسخ خطا وأصحها لغة ، وفى الدير الواحد كان يشجع أدق الرهبان فى النسخ وحسن الخط . ومن الأديرة التى برزت فى هذا الميدان دير فونتنيل Fontenelle ودير ريمس Reims ودير كوربى Corbie

أما عن جهود ألكوين فى نشر التعليم والإكثار من المدارس الدينية ورفع مستواها ، فكانت هى الأخرى عظيمة وبالغة الأثر . ومن الواضح أن الفساد الذى عم الحياة العامة والحياة الدينية فى ذلك العصر إنما جاء نتيجة لانتشار الجهل والخرافات ، فيكفى أن يرى الناس خسوفا للشمس أو نجما مذنباً فى السماء ليتطيروا أو يحاولوا حماية أنفسهم بالتمائم والتعاويذ . هذا عدا العادات القبيحة التى سادت الحياة اليومية والحياة العائلية الخاصة . وإذا كانت الكنيسة قد وقفت موقفاً سلبياً أمام تلك الاوضاع ، فما سبب ذلك إلا جهل رجالها ، مما جعل مهمة إصلاح المجتمع أكثر صعوبة . ويشهد على جهل رجال الدين فى ذلك العصر نسخ الانجيل المتداولة ، وهى مليئة بالاخطاء والتحريف حتى أصبح من الصعب العثور على نسختين متطابقتين من الانجيل قبيل النهضة الكارولنجية .

لذلك اختار شارلمان ومعاونه ألكوين أن يسلكا الطريق الطبيعى للإصلاح ، وهو البدء بتعليم رجال الدين من القساوسة والرهبان تعليما يحقق لهم الوصول إلى درجة كافية من الثقافة التى تمكنهم من اصلاح أنفسهم أولا ثم إصلاح المجتمع العلمانى الذى يعيشون وسطه بعد ذلك[1] . وتبدو لنا هذه السياسة واضحة فى الرسالة التى أرسلها شارلمان إلى بوجلف Bauguif مقدم دير فولدا سنة ٧٨٧ والتى يقول فيها : « ... لاحظنا أن كثيراً من الرسائل التى يبعث بها إلينا رهبان الأديرة تتسم بضعف الاسلوب وكثرة الأخطاء ، رغم ماتفيض به هذه

---

1) Lavisse: op. cit., p. 342.

الرسائل من إخلاص وولاء نحونا . ويرجع السبب فى ذلك إلى نقص التعليم وضعف المستوى الثقافى لرجال الدين ... لذلك ننصح بأن تهتم جميع الأديرة والاسقفيات فى بلادنا بالعلوم والآداب فضلا عن عنايتها بشئون الدين ... فالفرد بدون علم لايستطيع أن يعمل عملا طيباً ، لذلك يجب علينا أن نعلم قبل أن نعمل ... كذلك ننصح بالعمل على تبسيط الكتابات والمخطوطات الدينية وإزالة ما يحيط بها من غموض ... ولايفوتك أن ترسل صوراً من هذا الخطاب إلى جميع زملائك وبقية الاديرة .إذا كنت تريد أن تظل متمتعا بعطفنا[1]

ولدينا من الأدلة ما يثبت أن المنشور الدورى السابق لم يكن مجرد رغبة أو توصية ، بل كان أكثر من ذلك . وقد نتج عن هذه السياسة تنظيم التعليم وتقويمه فى الأسقفيات والأديرة . وإلى ذلك العصر يرجع تاريخ معظم المدارس الديرية الكبرى مثل فولدا وفونتنيل وفرير Ferriers وغيرها من المدارس التى أحرزت شهرة واسعة فيما بعد . والتى تخرج فيها كثير من الرجال المبرزين فى القرن التاسع[2] . وهكذا أصبحت الاديرة بوجه خاص - أكثر مما كانت فى أى وقت مضى — مركزا للنشاط العلمى والثقافى فى أوربا . وقد أدت هذه الحركة — وذلك أيضاً بالإضافة إلى جهود ألكوين فى العناية بالكتب — إلى انتعاش مكتبات الأديرة وتكاثر الكتب بها ، مما ظهر أثره واضحاً فى الفترة المظلمة التى حلت بأوربا بين سنتى ٨٥٠ ، ١٠٠٠ عندما ظلت الاديرة بمثابة المراكز الوحيدة التى يشع منها نور المعرفة فى غرب أوربا . حقيقة إن معظم المخطوطات التى زخرت بها مكتبات الاديرة فى ذلك العصر تناولت موضوعات دينية بحتة ، ولكن هذا لايمنع أن بعضها اختص بالأدب الدنيوى .

أما عن جهود الكوين كمعلم . فيلاحظ أنه قضى الفترة الواقعة بين سنتى ٧٨٢ ، ٧٩٦ مقيما فى بلاط شارلمان حيث تولى رآسة مدرسة القصر وتنظيمها (Académie Palatine) . وكانت هذه المدرسة قائمة منذ أمد بعيد يقصدها

1) Select Documents of Mediaeval History, p. 752.
2) Guizot: op. cit., p. 187.

الطامعون من الأسر الكبيرة فى العصر الميروفنجى ليتعلموا فى بلاط الملوك ما يجب أن يتعلمه الإداريون والحكام. وقد شجع الملوك هذه الفكرة لأن مصالحهم تطلبت أن يكون أعوانهم وموظفوهم على درجة من المعرفة تسهل ضبط شئون الدولة وتصريف أمورها . ولكن مدرسة القصر هذه ظلت حتى أيام ألكوين ينقصها النظام والتبلور والعلم الحقيق مما ترتب عليه بقاء الارستقراطية الفرنجية على جهلها بأبسط مبادىء الثقافة[1] . وهكذا حتى استطاع ألكوين أن يجعل من هذه المدرسة عاملا فعالا فى حياة الدولة بعد أن نظمها على أسس سليمة .

وكان من تلاميذ ألكوين فى مدرسة القصر شارلمانه نفسه وأبناؤه الثلاثة فضلا عن أخته وكريمته[2] وبعض مستشاريه ومعاونيه مثل أدلهارد Adlhard وانجلبرت Angilbert واجنهارد Eginhard ، وبعض كبار الاساقفة مثل ركولف Riculf رئيس أساقفة ماينس Mayence ، ورجبورد Rigbord رئيس أساقفة تريف Trèves ، هذا عدا جمع من أبناء الاشراف وغير أبناء الاشراف من ذوى المواهب الذين أراد شارلمان أن يعدهم لمعاونته وتولى المناصب الكبيرة فى الدولة .

وعندما قام ألكوين بالتدريس فى هذه المدرسة أرسل يطلب لها الكتب من البلاد البعيدة ؛ وإن كان من المرجح أن المكتبة التى جمعها لمدرسة القصر صغيرة ومحدودة . كذلك كتب ألكوين بعض مبادىء المواد التى يدرسها لتلاميذه فى اللغة والنحو والبلاغة والمنطق وغيرها .[3] ويبدو أن المعلومات التى كانت تدرس فى مدرسة القصر لم تعد أن تكون سطحية وبسيطة . ذلك أن ألكوين نفسه لم يعرف من العلوم أكثر مما حصله من مؤلفات كاسيدورس وإيسيدور الأشبيلى وأمثالهما . ومن الثابت أيضاً أنه لم يعرف شيئاً فى علم الفلك ، وأن معلوماته فى الحساب والهندسة ظلت محدودة رغم قيامه بترجمة بعض كتابات نيقوماخوس

---

1) Davis: op. cit.; p. 168.
2) Eginhard: Life of Charlemagne, p. 41.
3) Cam. Med. Hist, Vol. 5, p. 773.

Nicomachus وإقليدس Euclid وبطليموس فى العلوم السابقة ، هذا إلى أن معرفته باليونانية والعبرية ظلت بسيطة وسطحية[1] .

وإذا كان من الصعب تحديد موضوعات المحاضرات التى ألقاها ألكوين فى مدرسة القصر ، إلا أنه من المرجح أنه حاضر فى موضوعات متفرقة بحيث استمرت مدرسة القصر مجالا لكثير من المناقشات والمحاورات التى تحوى قسطاً وافراً من المعلومات العامة . ومن أمثلة ذلك الحوار التالى الذى دار بين ألكوين وببين الابن الثانى لشارلمان ، وهو فتى فى الخامسة عشرة من عمره[2] :

ببين : ما الكتابة ؟

ألكوين : هى الحارس الذى يحافظ على التاريخ .

ببين : وما الكلام ؟

ألكوين : هو الأداة التى تعبر عما يجول بالنفس من خواطر .

ببين : وماوسيلة الكلام ؟

ألكوين : اللغة .

ببين : وما اللغة ؟

ألكوين : مقرعة الهواء .

ببين : وما الهواء ؟

ألكوين : أكسير الحياة .

ببين : وما الحياة ؟

ألكوين : الحياة لذة السعداء ، وألم البؤساء ، وانتظار الموت .

---

1) Davis: op. cit, p. 169.
2) Guizot: op. cit, pp. 190—194.

بيبين : وما الموت ؟

ألكوين : الموت أمر لامفر منه ، ورحلة لا تعرف لها نهاية ، يترتب عليه بكاء الأحياء وتنفيذ وصايا الأموات ، وفقد الأفراد .

بيبين : وماهو الفرد ؟

ألكوين : الفرد عبد للموت ، وعابر سبيل فى هذه الحياة ، وضيف فى داره ومنزله .

بيبين : وما مركز الفرد فى هذه الحياة ؟

ألكوين : مركزه كشمعة فى مهب الريح ... الخ .

وقد بقى لدينا من هذا النوع عدة محاورات أخرى دارت بين ألكوين وتلاميذه فى مدرسة القصر ، ومعظمها يتناول مظاهر الطبيعة مثل السماء والأرض والبحار والنجوم وأعضاء جسم الإنسان وغير ذلك .

ويتضح لنا من تتبع هذه المناقشات أن الدافع إليها كان حب الاستطلاع والرغبة فى المعرفة ؛ وهى الروح التى أثارها ألكوين وتعهدها بالتشجيع. ولكن ينبغى أن نذكر دائما أن الدراسات الدينية ظلت المحور الأساسى الذى دار حوله النشاط العلمى داخل مدرسة القصر وخارجها . وكان الاهتمام باللاهوت والدراسات الدينية فى ذلك العصر عظيما لسبب واضح هو اعتقاد العلماء وطلاب العلم أنها الهدف النهائى الذى ترمى اليه بقية الدراسات . وتبدو لنا هذه الروح فى الرسائل التى أرسلتها أخت شارلمان وابنته إلى ألكوين — بعد أن اعتكف فى أخريات أيامه فى تور — تسألانه الإيضاح فى تفسير بعض ماغمض عليهما من نصوص فى الانجيل ، وتذكران أنهما منذ درستا عليه ازدادتا رغبة فى التعمق فى العلم والدراسة . كذلك يبدو تأثير هذه الدراسات فى لويس التقى ابن شارلمان الذى جعلته الثقافة الدينية أقرب إلى الرهبان فى حياته الخاصة والعامة ، وفى تفكيره وسلوكه حتى أصبح مثار تهكم فرسان الفرنجة فى حياة أبيه[1]

1) Davis: op. cit, p. 171.

ويجدر بالذكر أن مدرسة القصر كانت تصحب شارلمان فى حله وترحاله ؛ وأن كل فرد من أسرة المدرسة اتخذ لنفسه اسما من أعلام رجال الحكمة أو العلم أو الدين ، فشارلمان داود ، وألكوين فلاكوس Flaccus[1] وانجلبرت هومر وجسلا ابنة شارلمان لوسى Lucie[2] . . . وهكذا .

وعندما إزداد العبء على كاهل ألكوين وبلغه الكبر ، فكر فى اعتزال بلاط شارلمان . حقيقة أن العمل فى بلاط حاكم عظيم مثل شارلمان أمر مغرى يتمناه كثيرون . ولكن عندما يكون الفرد متحليا بأخلاق العلماء زاهداً فى الدنيا فإنه لا يعبأ كثيراً بذلك العرض الزائل . والحق أن شارلمان ظل دائما يضفى على ألكوين كل مظاهر التكريم والتقدير ويظهر له آيات الحب والإخلاص ، ولكن جاء وقت أحس ألكوين فيه أنه يجب أن يعتزل خدمة البلاط ، فطلب من سيده إعفاءه من منصبه والسماح له بأخذ أوراقه ليتبذ بها مكانا قصيا عن جلبة العاصمة وضوضائها . وعبثا حاول شارلمان منع مستشاره وصديقه من مفارقته حتى سمح له أخيراً سنة ٧٩٦ بالرحيل إلى ديرسانت مارتن فى تور حيث قضى بقية أيامه[3] . وقد حل محله فى الإشراف على مدرسة القصر أحد الايرلنديين واسمه كلنت ، ولكن يبدو أنه لم يستطع أن يضفى على تلك المدرسة الروح التى أضفاها عليها ألكوين[4] .

على أن ألكوين لم يرتض لنفسه حياة الدعة والسكون فى مقره الجديد ، فأخذ يواصل جهوده فى تنظيم دير سانت مارتن وتغذية مكتبته بكثير من المخطوطات . وفى سبيل هذا الغرض الأخير أرسل بعض شباب الرهبان إلى يورك بانجلترا لنسخ المخطوطات الهامة . وسرعان ماذاع صيت مدرسة سانت مارتن بفضل جهود ألكوين ونشاطه ، حتى أصبحت نموذجا للمدارس الاقليمية الديرية والكنسية[5] ، وإن كان من الملاحظ أن التعليم فيها أيضاً ظل دينى

---

(١) فالريوس فلاكوس شاعر لاتينى عاش فى القرن الأول الميلادى .

(٢) قديسة استشهدت سنة ٣٠٤ فى سيراكيوز على عهد الامبراطور دقلديانوس .

3) The Monk of St Gall: The Life of Charlemagne, p. 61.

4) Foligne, Latin Thought, p. 82.

5) Guizot, op. cit, pp. 199—201.

الروح والطابع . ذلك أن الدراسة كانت على مرحلتين : المرحلة الأولى تشمل تعليم القراءة والكتابة والحساب والنحو والترانيم الدينية ، ولم يسمح للأفراد العلمانيين عادة بتخطى هذه المرحلة . أما المرحلة الثانية فكان رجال الدين يدرسون فيها الانجيل واللاهوت وكتابات القديسين ، فضلا عن القوانين الكنسية ومن يتم هذه المرحلة الأخيرة من الدراسة كان يعين غالباً مقدما لأحد الأديرة فى ألمانيا أو غاليا[1] . وقد تتلمذ على ألكوين فى ذلك الدور الأخير من حياته كثيرون ممن أصبحوا من أعلام القرن التاسع مثل ربان مور Raban Maur وأماليو Amalaire وغيرهما .

وأرسل شارلمان أكثر من مرة إلى ألكوين محاولا إغراءه على العودة إلى البلاط ، وتمنى أن يصحبه ألكوين فى رحلته إلى روما سنة ٨٠٠ — وهى الرحلة التى تم فيها تتويج شارلمان إمبراطوراً — ولكن ألكوين لم يعدل عن رأيه حتى وفاته فى مايو سنة ٨٠٤ . وقدحزن شارلمان حزنا بالغاً على صديقه وأستاذه، لأن العلاقة بين الرجلين لم تكن مجرد علاقة مصلحة متبادلة لتحقيق أغراض شخصية وإنما كانت علاقة روحية عميقة ، تستهدف تحقيق مصالح عليا سامية تعود بالخير على العالم المسيحى أجمع . وخير ما يدل على قوة هذه العلاقة بين شارلمان وألكوين الرسائل المتبادلة بينهما والتى بقى منها نحو ثلاثين رسالة أرسلها ألكوين إلى شارلمان . ومن هذه الرسائل رسالة كتبها ألكوين سنة ٧٩٦ يهنىء فيها شارلمان بانتصاره على الآفار ويشير عليه بالطرق التى يتبعها لتحويلهم إلى المسيحية عن طريق ايفاد البعثات التبشيرية إليهم وجمع العشور منهم . وهناك رسالة أخرى وجهها ألكوين إلى شارلمان فى السنة نفسها ، يخبره فيها بالجهود التى يبذلها النهوض بمدرسة سانت تور وإحياء الدراسات القديمة بها ، ويقول ألكوين فى هذه الرسالة « لقد قمت فى ربيع حياتى ببذر بذور المعرفة فى بريطانيا ، والآن بعد أن أصبحت فى خريف الحياة أقوم ببذرها فى غاليا . . . » أما بقية الرسائل فيجيب فيها ألكوين على أسئلة وجهها إليه شارلمان ليشرح له ما غمض عليه من مسائل دينية وعلمية[2] والحق أن ألكوين صدق

1) Davis, op. cit, pp. 175—176.
2) Guizot, op. cit, p. 195—199.

فى العبارة التى نقشت على قبره والتى وصف فيها نفسه بأنه لم يكن سوى « سائحا على وجه الأرض » وأنه كان دائماً « محبا للعقل والحكمة »[1] .

والآن بعد أن تكلمنا عن حياة ألكوين بوصفها مرآة للنهضة الثقافية والفكرية على عهد شارلمان ، بقى أن نشير إلى انتاجه الفكرى . ونستطيع عند دراستنا لهذا الإنتاج أن نقسمه إلى أربع نواحى أو أبواب : الجانب الدينى ، والجانب الفلسفى والأدبى ، والجانب التاريخى ، وجانب الشعر . أما إنتاج ألكوين الدينى فيتعلق بعضه بالشروحات التى ينصب أهمها على الكتاب المقدس ، فى حين يشمل البعض الآخر عدة مقالات حول المعتقدات الدينية . وكان الغرض من معظم هذه المقالات تفنيد هرطقة التبنى ودحضها ، وهى الهرطقة التى نهضت بدور هام فى ذلك العصر والتى كان ألكوين أبرز شخصية معاصرة فى مناقشتها والرد عليها لدحضها[2] . على أن الشطر الأكبر من إنتاج ألكوين الدينى جاء فى كتاباته عن نظم الكنيسة ومؤسساتها والطقوس الدينية ، وهى الكتابات التى جعلت من ألكوين أحد أعلام اللاهوت المبرزين فى عصره[3] .

وبالإضافة إلى هذه الآثار الدينية ، كان لألكوين نشاط ملحوظ فى الدراسات الدنيوية . وهنا يصح أن نؤكد خطأ القول بأن ألكوين كره الأدب الدنيوى وحرم دراسته على المتعلمين ، فهذه الدعوى باطلة لا أساس لها من الصحة ، ولا تستند إلا على عبارة عارضة ذكرها أحد الكتاب غير المعاصرين ليثبت تدين ألكوين وبعده عن كل ما ليس له علاقة بالدين[4] . من ذلك ما هو ثابت لدينا من أن ألكوين نفسه راجع روايات الشاعر اللاتينى ترنس Terence[5] ونسخ تلك الروايات . كذلك ترك ألكوين فى ميدان الفلسفة والأدب عدة مقالات ، منها مقال تحدث فيه عن الأخلاق العملية كالحكمة والوفاء والإحسان والرحمة والحقد والتكبر ، ومقال آخر تكلم فيه عن طبيعة النفس ، ومقال ثالث

1) Davis, op. cit, p. 167.

(٢) أنظر العرينى : شارلمان ، ص ١٤٣ .

3) Cam. Med. Hist. 3, p. 516.

4) Lane-Poole, op. cit, p. 21.

(٥) شاعر لاتينى كوميدى ولد فى قرطاجة وألف عدة روايات شهيرة (١٩٤ — ١٥٩ ق . م) .

فى النحو ، ومقال رابع فى الخط والكتابة ، ومقال خامس فى البلاغة ، ومقال سادس فى علم المنطق . وقد اتخذ المقالان الأخيران شكل حوار بين شارلمان وألكوين الغرض منه تعليم شارلمان وفق أساليب الجدل التى كانت معروفة عند قدماء اليونان .

أما إنتاج ألكوين فى الجانب التاريخى فقليل الأهمية ، إذ تكلم فيه عن سير أربعة من القديسين . ويقال إن ألكوين كتب تاريخاً عن شارلمان ، لاسيما ما يختص بحروبه ضد السكسون ، ولكن لا يقوم أى دليل لإثبات صحة هذا القول ، ولم يصلنا شىء كتبه ألكوين فى هذا الموضوع .

وأخيراً يأتى إنتاج ألكوين فى الشعر ، وهو إنتاج وفير ، إذ ترك ألكوين مئتين وأربعا وثمانين قطعة شعرية فى مختلف الموضوعات والأغراض ، ومعظمها يتناول الأحداث والأوضاع المعاصرة . وأهمها جميعاً القطعة التى تعرض فيها ألكوين لأساقفة يورك وكنائسها ، لأنها تلقى ضوءاً على الحياة الثقافية فى أوربا فى ذلك العصر . ولكن الملاحظ أنه إذا كانت بعض أشعار ألكوين ذات أهمية خاصة ، إلا أنها — كما سبق أن ذكرنا — لا ترقى إلى مستوى الأدب الرفيع ، هذا وإن كان يفهم منها دراية ألكوين ببعض الأعلام القدامى مثل فرجيل Virgil وستاتيوس Statius ، ولوكان Lucan ، وكذلك ببعض شعراء المسيحية مثل جوفنكس Juvencus وبرودنتيوس Prudentius وآرتور Artor وغيرهم[1] .

والخلاصة أن ألكوين كان بحكم نشأته ونشاطه وعمله من رجال الدين ، الأمر الذى جعل شخصيته تتأثر بالطابع الدينى الذى ظهر واضحاً فى نشاطه وإنتاجه . وإذا كان ألكوين قد خرج أحياناً فى نشاطه عن نطاق العلوم الدينية ، إلا أن الغرض الأساسى من ذلك النشاط كان يستهدف فى نهاية الأمر خدمة الدين والكنيسة . ومهما كان الأمر فإنه يكفى ألكوين فخراً أنه صاحب الفضل

1) Cam. Med. Hist.; Vol. 3, pp. 515—516.

فى الربط بين علوم الكنيسة والأدب الدينى من جهة والعلوم الدنيوية والأدب الكلاسيكى من جهة أخرى[1] .

* * *

ولكن إذا كان ألكوين الشخصية الكبرى فى بلاط شارلمان وفى مدرسة القصر ، فإن ذلك لا يقلل من أهمية الشخصيات الأخرى التى برزت فى ذلك البلاط والتى أسهمت بنصيبها فى النهضة الثقافية لذلك العصر . وأبرز هؤلاء ثلاثة هم إجنهارد وثيودلف وانجلبرت .

اجنهارد

أما اجنهارد فترجع شهرته إلى أنه وضع كتابا تاريخياً عن حياة شارلمان يعتبر خير إنتاج أدبى للنهضة الكارولنجية[2] . وكان اجنهارد هذا قد دخل خدمة شارلمان فى صباه ، حتى سمح له بالإنضمام إلى مدرسة القصر . وعندما بلغ سن الرجولة جعله شارلمان ناظراً على الأشغال العامة فى دولته ، أى مشرفا على كل ما يتعلق بالطرق والقنوات والمبانى والجسور . . . فضلا عن قيامه بوظيفة السكرتير الخاص لشارلمان . ولم يلبث أن أضفى عليه شارلمان شرفاً جديداً بالموافقة على زواجه من ابنته الأميرة إما Emma ، وبذلك تمكن اجنهارد — بفضل هذه الصلة الوثيقة التى ربطته بشارلمان وبلاطه — من أن يحيط علماً بما لم يحط به غيره ، لاسيما فيما يتعلق بشخصية الإمبراطور وحياته الخاصة[3] .

ومن الواضح أن اجنهارد اتبع فى تاريخه لحياة شارلمان Vita Karoli منهج المؤرخ الرومانى سيتونيوس Suetonius (٦٩ — ١٤١) فى تاريخه

---

1) Guizot, op. cit; tome 2, pp. 203—208.
2) Lavisse, op. cit; p. 347.
3) Guizot, op. cit. tome II, pp. 224—230.

لقياصرة الرومان ، لاسيما فيما كتبه عن أوغسطس[1] . وكانت توجد نسخة من كتاب سيتونيوس هذا فى مكتبة دير فولدا ، حيث تلقى إجنهارد دراسته الأولى قبل أن يصل إلى بلاط شارلمان بين سنتى ٧٩١ ، ٧٩٦[2] . ويبدو أن أجنهارد درس هذه النسخة بدقة وتمعن ، وأخذ عنها طريقته التى ترجم بها لحياة شارلمان . وهكذا اجتمعت عدة عوامل لتجعل من كتابه كتاباً شيقاً يمتاز بالإيجاز مع الوضوح والتركيز وبراعة التصوير ، حتى يمكن القول بأنه الكتاب الوحيد فى ذلك العصر الذى يصح أن نعتبره مؤلفاً تاريخيا بمعنى الكلمة . وقد بدأ إجنهارد كتابه بعرض عام لأحوال غاليا فى أواخر عصر الميروفنجيين ، مع العناية بتصوير مظاهر الضعف والانحلال التى اتصف بها ملوك البيت الميروفنجى فى أواخر أيامهم ، وتطرق من ذلك إلى أن انتقال الملك إلى الكارولنجيين جاء أمراً طبيعياً[3] . وبعد أن تكلم بإيجاز عن حكم بيبين القصير وعن المرحلة الأولى من حكم شارلمان — التى حكم فيها مع أخيه — انتقل إلى وصف شارلمان وعهده بالتفصيل . وقد خصص الجزء الأول من هذه الدراسة التفصيلية للكلام عن حروب شارلمان وغزواته لاسيما ضد السكسون ، ثم انتقل إلى الجزء الثانى الذى يرتبط بحكومة شارلمان الداخلية ونظام الإدارة فى مملكته . وأخيراً يتكلم اجنهارد عن حياة شارلمان الشخصية والعائلية وأخلاقه ، فكشف عن كثير من جوانب حياته الخاصة . من ذلك مايذكره إجنهارد من أن سيده اعتاد أن يصغى إلى الموسيقى أو القراءات التاريخية أثناء تناول الطعام ، ومن أنه عرف القراءة ولكنه لم يتعلم الكتابة ولم يتقدم فيها بدرجة محسوسة لأنه بدأ يتعلمها فى وقت متأخر . هذا على الرغم من حرص شارلمان على أن يضع كراسات الكتابة والألواح تحت وسادته حتى يدرب نفسه فيها عند راحته . وفى خلال كل ذلك لا يغفل اجنهارد الإشارة إلى تقدم الآداب والعلوم على عهد شارلمان ، كما يشير إلى كثير من الأحداث المعاصرة[4] .

ويبدو لنا من هذا العرض الموجز لكتاب إجنهارد عن حياة شارلمان أن

---

1) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 517.
2) Lavisse, op. cit; p. 347.
3) Eginhard, Life of Charlemagne, p. 8—12.
4) Eginhard, op. cit; p. 41.

هذا الكتاب لم يكن مجرد سرد حوادث عارضة ، وإنما جاء كتابا منظما يتبع خطة موضوعة محكمة . ولم يقتصر على معالجة جانب دون آخر من عصر شارلمان وشخصيته — مثل غيره من الحوليات وكتب السير القديمة — ، وإنما كان عرضاً طريفا جامعاً لشتى المعلومات عن النظم الإدارية والحكومية والأحوال الإجتماعية وملابسات أهم الحروب المعاصرة[1] .

وقد كتب اجنهارد كذلك بعض الأشعار ، كما كتب كتاباً عن السكسون ، ولكنه فقد ولم يصلنا منه شيء[2] . وتدل البقية الباقية من كتابات إجنهارد على أن شخصيته كانت جذابة ، كما تدل على معرفته ببعض أعلام الأدب القدامى مثل فتروفيوس Vitruvius وبليني Pliny وتاكيتوس Tacitus . وبعد وفاة شارلمان حظى اجنهارد بعطف ابنه وخليفته لويس التقي ولكن يبدو أن العلاقات ساءت بعد ذلك بين الطرفين ، مما دفع اجنهارد إلى اعتزال خدمة البلاط ، وآثر هو وزوجته الأميرة إما حياة الرهبانية حتى توفيت سنة ٨٣٦ ولحق زوجها بها سنة ٨٣٩ .

ثيودلف :

أما ثيودلف فكان قوطى الأصل، أسبانى[3] أو إيطالى[4] المولد. ولا ندرى على وجه التحقيق متى استدعاه شارلمان إلى بلاطه ، ولكننا نراه فى غاليا سنة ٧٨١ ، كما نراه يشغل منصب أسقف أورليان فى الفترة الواقعة بين سنتى ٧٨٦ ، ٧٩٤ ، وعندئذ وجه عناية خاصة نحو تنظيم التعليم فى أسقفيته[5] .

ويعتبر ثيودلف أبرز شعراء عصره ، لا سيما فى شعر المراثى[6] . وقد أرسله شارلمان سنة ٧٩٨ فى بعثة تفتيشة إلى إقليم ناربونيس Narboniees ، وعند

---

1) Guizot, tome 2, pp. 232—234.
2) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 518.
3) Ibid.
4) Guizot, op. cit; tome 2, p. 215.
5) Idem, pp. 215—216 & Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 775.
6) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 218.

عودته من تلك المهمة نظم قصيدة من تسعمائة وستة وخمسين بيتا عنوانها «نصيحة إلى القضاة Paranesis ad Judices» تعتبر من أروع ما نظمه من الشعر. واستهل ثيودلف هذه القصيدة بمقدمة، وصف بعدها الطرق والمدن التي مر بها، ثم وصف المفاسد الاجتماعية والإدارية التي شاهدها والتي تعطينا فكرة واضحة عن الأوضاع السائدة في ذلك العصر. من ذلك وصفه لحاكم الاقليم (الكونت) وهو سكران، وقد وفد إليه المتقاضون يحملون الرشاوى، كما وصف التيارات الخفية والدسائس في المحاكم الإقليمية[1].

أما بقية أشعار ثيودلف فتبلغ حوالى ستين قطعة شعرية، وهي أقل أهمية. ولكن وردت فيها بعض أسماء الأماكن والأنهار في الشرق والغرب، ومنها الموصل وبغداد، كما يبدو فيها أنه تأثر ببعض الأدباء القدامى مثل أوفيد Ovid وبرودنتيوس وغيرهما[2]. وبعد وفاة شارلمان استعان لويس التقى بثيودلف في عدة بعثات، ولكنه غضب عليه هو الآخر وعزله من أسقفيته سنة ٨١٧، حتى مات بعد ذلك بأربع سنوات[3].

أنجلبرت:

أما انجلبرت فكان — مثل اجنهارد — من رجال السياسة لا من رجال الدين والكنيسة. كذلك حظى هو الآخر بمركز ممتاز في القصر وتزوج من الأميرة برتا Bertha ابنة شارلمان. ويرجع الفضل في وصول انجلبرت إلى ذلك المركز الممتاز إلى مكانته الأدبية التي جعلت المعاصرين يطلقون عليه لقب «هومر»[4] ولم يبق لنا من تراثه غير بعض أشعار ووثائق تتعلق بدير سانت ركويير Requier، حيث اعتكف في أخريات أيامه وأظهر رغبة وحماسة منقطعة النظير في جمع الكتب، حتى جمع لمكتبة الدير أكثر من مائتى

---

1) Davis, od. cit; p. 178.
2) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 418.
3) Guizot, op. cit. tome 2, p 217.
4) Davis, op. cit. p. 181.

كتاب . أما ما بقى من أشعاره فتحوى أوصافا ذات قيمة عن حياة شارلمان وأسرته[1] .

• • •

هؤلاء هم أعوان شارلمان الذين أسهموا بقسط كبير فى النشاط العلمى والفكرى . وهو أبرز مظاهر النهضة الكارولنجية . وإذا كان لهؤلاء الأعلام فضل على هذه النهضة ، فإنه ينبغى ألا ننسى أثر شارلمان نفسه وجهوده فى تشجيع أعوانه من جهة ، وفى نشر العلم والثقافة من جهة أخرى[2] . وقد أدى شغف شارلمان بالعلم وتقدمه بالدراسات اللاهوتية والأدبية إلى مفاجئته البابا وأعوانه بأسئلة معقدة بين حين وآخر . كذلك ضرب شارلمان مثلا طيبا لمعاصريه فى استغلال أوقات فراغه استغلالا نافعا ، وفى تشجيعه لرجال العلم وتكريمهم ، حتى سمح لهم بمخاطبته مخاطبة الند للند[3] . وفى مدرسة القصر حرص على أن يجلس كغيره من طلاب المعرفة يستمع للتكوين ويخوض مع الحاضرين فى مناقشة المسائل العلمية . هذا عدا استعداده دائماً لتسخير جهوده وفكره فى الدفاع عن المسيحية وأصولها ، كما يبدو فى موقفه من المشاكل الهرطقية المعاصرة . ويقال إن شارلمان تعلم اليونانية وألم بها إلماما مكنه من فهم أحاديث مبعوثى الامبراطور البيزنطى . كذلك تعلم قواعد النحو اللاتينى على بطرس البيزى . وبلغ من شغفه بالفلك أن وجدت بين تحفه كرة تمثل الكون مصنوعة من المعادن الثمينة وموضح عليها مدارات الإجرام السماوية . كذلك اهتم شارلمان بجمع المعلومات من الأجانب والرحالة عن البلاد النائية وعادات أهلها . ويقال إن ولعه بالتاريخ جعله يتسلى بالاستماع إلى السير وقت تناول الطعام ، كما جعله يهتم بجمع الأساطير التى تتعلق بتاريخ شعب الفرنجة وأصلهم[4] .

---

1) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 519.
2) Pirenne, A Hist. of Europe, p. 89.
3) Davis, op. cit. p. 182.
4) taylor, Med. Mind. Vol. 1, p. 213.

التعليم والمدارس والمكتبات :

وإذا كانت هذه هى روح شارلمان ، فلا عجب إذا امتاز عهده بنهضة تعليمية كبرى لم يقتصر مظهرها ونشاطها على مدرسة القصر وحدها ، بل امتدت حتى شملت جميع أنحاء الإمبراطورية . ويبدو لنا حرص شارلمان على نشر التعليم فى الرسائل العديدة التى بعث بها إلى الأساقفة ومقدمى الأديرة يستحثهم فيها على فتح المدارس فى مناطق نفوذهم والعناية بتعليم الصغار والكبار . من ذلك أنه بعث سنة ٧٨٧ رسالة إلى بوجلف مقدم دير فولدا[1] يؤكد فيها ضرورة العناية بتعليم الرهبان ورجال الدين والعمل على رفع مستواهم الفكرى « لأنك بكلامك تتبرر وبكلامك تدان »[2] . وفى سنة ٧٨٩ أمر شارلمان بتعميم المدارس فى جميع الأديرة والكتدرائيات داخل دولته، حتى يتعلم الأطفال فى تلك المدارس الترانيم والموسيقى الدينية ، فضلا عن القراءة والكتابة والحساب والنحو ، مع تزويدهم بنسخ مصححة من الكتب الدينية[3] . وسرعان ما أثمرت الجهود التى بذلها شارلمان فى هذا السبيل ، إذ كتب أسقف ليون يقول أن عنده مدارس المنشدين ومدارس للقراء على جانب كبير من التقدم ، كما كتب ثيودلف أسقف أورليان يقول إن فى أسقفيته عدة مدارس يقوم القساوسة فيها بتعليم الأطفال . وقد جاء فى منشور أصدره ثيودلف لقساوسة أسقفيته ورهبانها أن تعليم الأطفال فى المدارس الدينية يجب أن يكون مجانياً ، ولا يؤخذ منهم أى أجر سوى ما يتبرع به الخيرون من أهالى الأطفال القادرين[4] . وأهمية هذا المنشور ترجع إلى أنه الوثيقة الوحيدة من ذلك العصر التى تشير إلى وجود تعليم لغير رجال الدين . فجميع ما لدينا من قرارات أو مراسيم سواء كانت صادرة من ألكوين أو شارلمان تشير إلى أن هدف التعليم لم يتعد تثقيف رجال الدين . ولكننا فى منشور ثيودلف نجده يوصى بتعليم الأهالى بصفة عامة سواء كانوا من سكان المدن أو الريف[5] .

---

1) Select Documents of Medivaeal History, p. 257.

(٢) انجيل متى ١٢ : ٣٧ .

3) the Monk of St Cell: the Life of Charlemagne, p. 61-62.

4) Cam. Med. Hist. Vol. 5, pp. 774—775.

5) Guizot, tome 2, pp. 212—216.

كذلك حث ثيودلف — وغيره من الأساقفة المعاصرين — الأهالى على إرسال أبنائهم إلى المدارس ، وعدم السماح لهم بالإنقطاع عنها إلا بعد أن يتموا تعليمهم ، مما يشير إلى أن التعليم عندئذ اتخذ صفة شبه إلزامية [١] . وإلى جانب هذا النوع من المدارس الأولية ، وجدت مدارس عليا لأولئك الذين يرغبون فى إتمام تعليمهم . وقد برزت من المدارس الديرية الشهيرة فى ذلك العصر مدرسة تور Tours وفولدا Fulda ، وريشنو Reichenau وسانت جال St. Gall ولورخ Lorsch وفليرى Fleury ، وسانت ركوبير St. Requier ، وكوربى . أما مدارس الكتدرائيات فن أشهرها ميتز Metz ، وكامبرى Camprai ، وريمس ، وشارتر ، وأوكسر Auxerre [٢] .

على أن رعاية شارلمان التعليم كانت فى حقيقة أمرها تخفى وراءها سياسة مرسومة ، هى العمل على رفع مستوى رجال الدين من ناحية ، والاستفادة من المتعلمين فى إدارة جهاز الحكم من ناحية أخرى . وبعبارة أخرى نستطيع أن نقرر أن هدف شارلمان من رعاية التعليم كان دينياً وسياسياً ، لا أكثر [٣] . فشارلمان كان — بوصفه راعيا الكنيسة الفرنجية — فى حاجة إلى من يعينه فى الإشراف على تلك الكنيسة وحل مشاكلها ، فضلا عن المشاكل الدينية الأخرى المعاصرة داخل دولته وخارجها ، وبوصفه رئيسا للدولة كان فى حاجة أيضا إلى من يساعده فى النهوض بمطالبها السياسية والإدارية [٤] . ولعل هذا هو السبب فى أن المدارس التى وجدت على عصر شارلمان كانت دينية قبل كل شىء ، فلم يوجد هناك نظام تعليمى مستقل عن الدين والمؤسسات الدينية [٥] ، حتى قال المعاصرون إن الأصابع الثلاثة التى تمسك بالقلم إنما تشير إلى الثالوث المقدس (٦) .

---

1) Lavisse, op. cit, p. 345
2) Haskins: the Renaissance, p. 18.
3) Foligno, Latin thought, p. 82.
4) Davis: op cit. p. 183.
5) Eyre, op. cit; Vol. 3, p. 326.
6) Pirenne: A History of Europe, p. 90.

ولكن على الرغم من ضيق أفق المدارس فى ذلك العصر ، إلا أن أثرها أضحى عظيما بالنسبة للأجيال التالية . فهى من ناحية أدت إلى إحياء اللغة اللاتينية بوصفها لغة الأدب والعلم ، وبذلك استطاعت أن تقاوم ذلك السيل المنهمر من الألفاظ الجرمانية الدخيلة ، كما قاومت ما طرأ عليها من تحريف فى طريقة صياغة الأساليب وتركيب الجمل . ومن ناحية أخرى كان تلاميذ هذه المدارس وخريجوها هم الذين نهضوا فيما بعد بنسخ ونشر ما عثروا عليه من تراث العصور السابقة . ومن الكتب التى نسخوها — فضلا عن الكتابات الدينية وكتب اللاهوت — كتب كاسيدورس Cassiodorus (٤٩٠ — ٥٨٥) وبوثيوس Boethius (٤٨٠ — ٥٢٥) وبدى Bede (٦٧٥ — ٧٣٥) وغيرهم . وقد أنار ألكوين الطريق أمام هؤلاء الناسخين والناشرين من خريجى المدارس الكارولنجية عندما قام بتحقيق ترجمة الإنجيل عن طريق جمع عدة نسخ ومقارنتها وتصحيح الأخطاء الشائعة . وإستجابة لرأى ألكوين وتحقيقا لرغبة شارلمان زودت أديرة تور وفولدا وغيرهما من الأديرة الرئيسية بجماعة من الكتبة المهرة ، حتى جاءت مخطوطات ذلك العصر آية لانظير لها فى الدقة والإبداع والاتقان . هذا إلى أن كثرة المنسوخات فى ذلك العصر أدت إلى وفرة الكتب وتعددها والإكثار من تداولها ، وبالتالى أدى كل ذلك إلى قلة الأخطاء فى النسخ التى نسخت فيما بعد[1] .

والواقع إن العناية بالكتب والمكتبات تمثل مظهراً هاما من مظاهر النهضة الكارولنجية . وقد امتلك شارلمان نفسه عدداً ضخما من الكتب أوصى ببيعها عند وفاته والإحسان بثمنها على الفقراء والمساكين . وامتازت الأديرة المعاصرة بمكتباتها الغنية ، حتى أن مكتبة دير سانت ركويير St. Riquier ضمت أكثر من مائتين وخمسين كتابا مخطوطاً . وليس من الضرورى أن يكون كل ذلك العدد نسخه رهبان الدير بأيديهم ، إذ أن جزءاً كبيراً من الكتب التى وجدت بأديرة ذلك العصر آلت إليها عن طريق الهبات والهدايا . وقد ضمت هذه

---

1) Davis, op cit; p, 177—178.

وأنظر أيضا ترجمة الدكتور العرينى لهذا الكتاب ، ص ١٠٩ .

المكتبات كتباً فى مختلف ألوان العلوم والدراسات مثل كتابات المؤرخ اليهودى فلافيوس يوسف Flavius Josephe (٣٧ — ٩٥) ، وأيوزيب مؤلف تاريخ الكنيسة (٢٦٥ — ٣٤٠) ، والمؤرخ اليونانى سوزومين Sozomène (٤٠٠ - ٤٤٣)، وأشعار فرجل Virgil (٧١ - ١٩ ق.م.)، فضلا عن كتابات رجال الكنيسة الأوائل مثل القديس أوغسطين (٣٥٤ - ٤٣٠) ، والقديس هلير Hilaire (٣٠٣ - ٣٦٧) ، وجريجورى العظيم (٥٤٠ - ٦٠٤) وغيرهم. وكانت لكتابات القديس أوغسطين بصفة خاصة الصدارة بين الكتب التى تكاد لاتخلو منها مكتبة دير أو كتدرائية فى ذلك العصر[1] .

النهضة الأدبية :

ومن الطبيعى أن تؤدى هذه العناية بالتعليم والمدارس من جهة وبالكتب والمكتبات من جهة أخرى إلى نهضة أدبية كبرى ، هى فى الواقع المظهر الرئيسى للنهضة الكارولنجية ، وقد رأينا أن شارلمان لم يحاول محاكاة أباطرة روما القدامى فى عظمتهم السياسية والحربية فحسب ، بل عمل أيضاً على أن يتشبه بهم فى المجال الحضارى ، فجمع حوله جماعة من الأدباء والمؤرخين والشعراء مما هيأ للنهضة الكارولنجية عاملا أساسياً من عوامل الإزدهار . وهنا نلاحظ أن النهضة الكارولنجية لم ترتبط بعلم معين برزت فيه وأكسبها طابعه ، فلا نستطيع القول بأنها نهضة فلسفية أو تاريخية أو أدبية . . . وإنما كانت نهضة عامة شاملة عالجت مختلف ألوان المعرفة التى عرفت فى ذلك العصر ، وإن ظهر هناك فارق نسبى بين علم وآخر[2] . وكل ما هناك هو أنها اكتسبت طابعاً دينياً نظراً للعلاقة التى ربطت شارلمان بالكنيسة الغربية ، والتى أملت عليه سياسته واتجاهاته . لذلك كانت الصدارة فى الجانب الأدبى للأدب الدينى ، كما سبق أن رأينا . ثم جاء التاريخ ليحتل المكانة الثانية فى آداب النهضة الكارولنجية ، فامتازت الكتابات التاريخية فى ذلك العصر برقيها وحسن صياغتها مع التعمق فى الأسلوب اللاتينى

---

1) Lavisse, op. cit; p. 345.

1) De Wulf, Hist. de la Philosophie Medievale, tome 1, p. 86.

والعناية بتنميقه . وفيما عدا سير القديسين اهتم كتاب العصر الكارولنجى بكتابة الحوليات Annales ولم يقفوا عند حد تدوين الحوليات القصيرة أو الصغيرة Annales brève ou Petites Annales، وإنما دونت حوليات طويلة تحت إشراف رجال البلاط. وهذه الحوليات الأخيرة التى سميت باسم الحوليات الملكية Annales Royales ظلت تسرد تاريخ الكارولنجيين منذ أن قسم شارل مارتل سلطانه بين أبنائه حتى سنة ٨٢٩ . أما ما كتبه اجنهارد عن حياة شارلمان فقد سبق أن أوضحنا أهميته، وإن كانت تنبغى الإشارة هنا إلى أن ترجمة اجنهارد لحياة شارلمان أصبحت مثلا يحتذى فى الكتابات التاريخية ، حتى أن ثلاثة كتاب قاموا بترجمة حياة لويس التقى ، ابن شارلمان وخليفته[١] .

وإذا كان الشعر قد فاق النثر فى العصر الكارولنجى ، فإن هذا التفوق كان فى الكم لا فى النوع ، بمعنى أنه لم يكن فى جودة الصناعة وإنما فى الانتشار وكثرة الاستعمال لأن الاتجاه السائد عندئذ غلب استخدام الشعر فى كل شئون الدين والدنيا ، وفى مختلف أنواع الكتابات الدينية والتاريخية والمراسلات والقصص وغير ذلك . وهكذا صار من المألوف نظم مقطوعات من الشعر لتزيين أبواب الكنائس ومنازل الأثرياء وأغلفة الكتب وشواهد المقابر ... وبالإضافة إلى أشعار بولس الشماس والكوين وأنجلبرت وثيودلف ، بقى لدينا من ذلك العصر نحو سبعين أو ثمانين قطعة شعرية من أغانى المآثر Chansons de Geste يتناول بعضها أعمال شارلمان أو أحداث أخرى تمت فى عهده[٢] .

ولكن يؤخذ على شعر العصر الكارولنجى بعده عن الحياة العامة . حقيقة أن مجموعة الشعر اللاتينى فى العصر الكارولنجى Poetae Latini Aevi Carolini تقع فى أربعة مجلدات ضخمة وتدل على رقى الأسلوب اللاتينى ، كما أنها عالجت موضوعات متنوعة على الأوزان القديمة والوسيطة ، ولكن ذلك

---

1) Lavisse, op. cit; p. 347.

2) Cam. Med. Hist. Vol. 6, pp. 816—824.

الشعر يبدو دائماً ضعيف الصلة بالحياة الشعبية العامة ، كما تعلوه مسحة أكاديمية تجعله أكثر أهمية فى تاريخ الحضارة بمعناها الواسع منه فى تاريخ الأدب بمعناه الخاص[1] . وهنا أيضا نجد الطابع الدينى غالباً على الشعر الكارولنجى ، لأن معظم ناظميه كانوا من رجال الكنيسة ، فضلا عن أن شعراء العصر الكارولنجى استمدوا الإلهام من شعراء المسيحية فى القرون السابقة مثل برودنتيوس Prudentius (٣٤٨ - ٤١٠) وفورتناتوس (٥٣٠ - ٦٠٩) وغيرهما .

وقد ظلت اللغة اللاتينية هى اللغة الرسمية المستخدمة فى الأدب الراقى وفى الإدارة الحكومية فى العصر الكارولنجى . على أن شارلمان لم يتخل عن الجرمانية لغة أجداده الأوائل من الفرنجة ، لذلك أمر بوضع قواعد للغة الفرنجية ، وأطلق أسماء فرنجية على أشهر السنة ، كما أمر بجمع الأشعار الفرنجية القديمة التى تتناول تاريخ الفرنجة فى عصر البطولة[2] .

ولما كان من الصعب أن يستعمل جميع أفراد الشعب اللغة اللاتينية الفصحى فى حياتهم العامة والخاصة ، فقد شاع فى ذلك العصر استخدام اللاتينية فى قالبها العامى ، حتى أصبحت هذه اللاتينية الدارجة أو الشعبية Latin Rustique هى اللغة الشائعة فى معظم أنحاء غاليا فى العصر الكارولنجى . وقد أطلق عليها فيما بعد اللغة الرومانية تمييزاً لها من اللاتينية الصحيحة . وفى سنة ٨١٣ قرر الأساقفة الذين حضروا مجمع تور الدينى ضرورة وضع التعاليم والمواعظ الدينية فى الصيغة الرومانية حتى يفهمها عامة الشعب ، وبذلك ازداد استعمال اللغة الرومانية فى الحياة العامة والدينية . ولكن ذلك لا يعنى بأى حال تدهور مستوى اللغة اللاتينية ، لأن هذه اللغة لم تهو مطلقا منذ النهضة الكارولنجية إلى مثل المستوى الذى انحدرت إليه فى العصر الميروفنجى ، وبصفة خاصة فى القرن السابع[3] .

---

1) Haskins, the Renaissance, p. 153.
2) Eginhard, op. cit. p. 45.
3) Haskins : The Renaissance ., p. 17.

وأخيراً نلاحظ أنه إذا كان الناس قد اعتادوا دائماً أن يسجلوا مآثر أسلافهم وبطولتهم فى أدبهم الشعبى ، فإن شارلمان سرعان ما أصبح بعد وفاته محوراً ومادة لكثير من الكتابات الشعبية التى صورته فى صورة البطل العظيم الذى حارب الوثنيين ودافع عن البابوية والكنيسة ، وهكذا غذى شارلمان الأدب فى حياته وبعد مماته[1] .

القانون والتشريع والإدارة :

أما الشئون التشريعية والتنظيمات الإدارية ، فكان لها هى الأخرى نصيب كبير من العناية فى النهضة الكارولنجية . وهنا كذلك نلاحظ أثر الكنيسة فى تشريعات شارلمان[2] ، إذ أن الطابع الدينى لم يقتصر على المعاهدات التى عقدها شارلمان فى أوائل حكمه ، وإنما استمر واضحا فى تشريعاته التى سنها لتنظيم دولته . وسواء جاء هذا الأثر الدينى عن طريق مباشر أو غير مباشر ، فالواضح أمامنا أن شارلمان حرص دائما فى تعليماته وأوامره ومراسيمه على أن ينصح رعاياه بالتمسك بمبادىء الأخلاق وتعاليم الكنيسة وعدم الخروج عنها ، هذا إلى أن مراسيمه الخاصة بالتجارة والتعليم والقضاء والإدارة . . تأثرت جميعها بعلاقته بروما وكنيستها . ويبدو أن كل زيارة قام بها شارلمان لمدينة روما كان يصحبها أو يتبعها تغيير هام أو إصلاح أساسى يعالج به الكنيسة والإدارة ، وفى معظم الأحيان اعتاد شارلمان أن يعود من روما وفى ركابه عدد ضخم من الفنانين والأدباء والمعلمين ورجال الدين . هذا إلى أن البابوات — وبصفة خاصة أدريان الأول ـ عملوا دائما على تقوية روح الشعور بالمسئولية عند شارلمان بوصفه قيما على المجتمع المسيحى الغربى .

وتشريعات ذلك العصر ليست كثيرة أو عديدة ، وكل ما لدينا منها اثنان متعلقان بسكسونيا . وثمانية تتعلق بإيطاليا ، وخمسة بجميع أنحاء المملكة . هذا عدا عدد كبير من التعليمات الموجهة إلى المبعوثين Missi ، وهى التى تعطينا

(1) Lavisse : op. cit. ; p. p. 347—348

(2) Pirenne, A History of Europe. ; p. 92.

فكرة واضحة عن نظام الإدارة فى ذلك العصر . والواقع إن أهم تغيير تشريعى وإدارى شهده العصر الكارولنجى كان ازدياد أهمية المبعوثين الملكيين واستخدامهم استخداما منظما . ولم تكن هذه الوظيفة جديدة على دولة الفرنجة ، إذ عرفت فى العصر الميروفنجى عندما كان أى رسول موفد من القصر الملكى فى مهمة خاصة يحمل لقب مبعوث (Missus) . ولكن حدث فى عصر شارلمان - أو على وجه التحديد منذ سنة ٧٨٩ عندما بلغت الدولة الكارولنجية أقصى اتساعها بعد غزو بافاريا - أن أصبح لهؤلاء المبعوثين أهمية كبرى ، بوصفهم مندوبى شارل العظيم الذين يحملون تعليماته ومراسيمه إلى الأقاليم والحكام ، ويجمعون أخبار تلك الأقاليم وهؤلاء الحكام لعرضها على الملك فى العاصمة . وفى سنتى ٧٨٩ ، ٧٩٢ كلف المبعوثون الملكيون بالحصول على يمين الولاء للملك من جميع رجال المملكة . وبعد ذلك طلب منهم أن يتأكدوا من أن الكونتات وحكام الأقاليم يحكمون بين الناس وفقا للقوانين[1] . ويبدو أن كثرة الشكاوى من مختلف أنحاء الامبراطورية دفعت شارلمان بعد تتويجه امبراطوراً سنة ٨٠٠ إلى العمل على تقوية نظام المبعوثين ليصبح أداة فعالة فى الوقوف على أسباب الشكوى. لذلك قسم شارلمان الامبراطورية سنة ٨٠٢ إلى دوائر بعث إلى كل دائرة اثنين من المبعوثين أحدهما من رجال الدين والثانى من رجال الادارة ، ليضمن رعاية مصالح الكنيسة والدولة جميعا . ولجأ الامبراطور إلى عدم تثبيت هؤلاء المبعوثين فى دوائرهم ، بل نقلهم كل عام قبل أن ينشئوا علاقات وتصبح لهم مصالح مع أهالى الدائرة . وبهذه الطريقة ضمن شارلمان قيام المبعوثين بواجبهم فى التفتيش على الكونتات والأساقفة تفتيشا دقيقا[2] .

ومن هذا يبدو أن المهمة الأولى للمبعوثين كانت سماع شكاوى أهالى الأقاليم ضد الكونتات ، وإلزام الكونت بتوخى العدالة فى إقليمه . وفى حالة عدم امتثاله يحتل المبعوث مبنى الإدارة الذى يباشر فيه الكونت سلطته ، ولا يغادره إلا إذا امتثل الكونت لأوامر المبعوث . أما المهمة الثانية للمبعوثين

(1) The Monk of. St. Gall. The Lite of Charlemagne, p. 77.
(2) Select Documents of Med. History, p. 13.

فكانت مصاحبة الأساقفة فى زيارات دورية مفاجئة للتفتيش على رجال الدين ، ومؤاخذة المهملين منهم . وبعد ذلك تأتى المهمة الثالثة للمبعوثين وهى التفتيش على الضياع التى وقفها الملك على الأغراض الخيرية للتأكد من سلامة أوضاعها واستخدامها فى الأغراض المخصصة لها . وأخيراً كان على المبعوثين أن يتأكدوا من سلامة إجراءات الخدمة العسكرية ومدى حرص الكونتات على تنفيذ أوامر الملك بخصوصها [1].

ولم يكن إصلاح نظام المبعوثين هو كل ماقام به شارلمان فى الناحيتين الإدارية والتشريعية خلال الفترة التى عاشها بعد تتويجه امبراطور : إذ استحدث أيضاً بعض تشريعات تسمى « التنظيمات Capitula » وليست هذه التنظيمات مجموعة مترابطة من القوانين المكملة لبعضها البعض ، وإنما هى فى الواقع مجموعة من الأوامر والمراسيم المتباينة ، هدفها اقرار النظام والعدالة فى الدولة ، وطابعها العام التسرع وعدم الدقة ، كما يؤخذ عليها أنها على الرغم من سلامة هدفها لم تحاول أن تتعرض لجذور الفساد الحقيقية فى الدولة . وقد تناولت هذه التشريعات إصلاح نظم المحاكم عن طريق تقوية العنصر الشعبى فى دور القضاء ، بعد أن صارت المحاكم فى أيدى قضاة غير مسئولين ، يجهلون القانون ويخشون بأس الكونت أو حاكم الإقليم ويعملون لحسابه . لذلك استبدل شارلمان هؤلاء القضاة بهيئات أخرى يختار أعضاؤها بدقة وعناية ، ويشترط فيهم حسن السمعة والدراية بالقانون . وكان من الممكن أن ينجح هذا النوع الجديد من المحاكم لو أن المجتمع الفرنجى ظل على بساطته الأولى ، أما وقد اتسعت الإمبراطورية الفرنجية وتعقدت العلاقات بين الأفراد بعضهم وبعض ، وبينهم وبين الحكام ، فكان لابد من نظام قضائى أشمل وأقوى .

وثمة عمل تشريعى آخر قام به شارلمان ، هو أنه أمر سنة ٨٠١ بتدوين التراث

(1) Davis : op. cit. ,p. p. 155—157.

التشريعى القومى لمختلف شعوب الإمبراطورية [١] . حقيقة إن بعض هذه التشريعات كانت دونت من قبل ، ولكن لوحظ أن بها كثير من الأخطاء والنقص مما جعل شارلمان يطلب من القضاء عدم اتباع أحكام قانونية غير الأحكام التى أمر هو بجمعها وترجمتها . هذا وإن كان من المشكوك فيه أن رجال القضاء بروا بقسمهم السابق [٢] .

وأخيراً نلاحظ أنه على الرغم من جهود شارلمان السابقة فى تحسين النظم القضائية وتدوين القوانين وتحقيق العدالة عن طريق التمسك بشهادة الشهود ، إلا أن الرشوة ظلت سائدة ، والعدالة استمرت مهضومة حتى يئس أصحاب الحقوق وفوضوا أمرهم لله . ويبدو أن شارلمان — على الرغم من حماسته وجلده على العمل — كانت تنقصه مواهب المشرع الناجح ، فلم تمس تشريعاته جوهر الحقائق ولم ينفذ من قوانينه إلا نسبة ضئيلة تكاد لا تبلغ العشر [٣] .

شارلمان والكنيسة :

إذا كان الفرنجة قد أسهموا فى بناء الحضارة الأوربية ، فإن دورهم فى هذا المضمار كان روحيا ومعنويا أكثر منه ماديا فالفرنجة لم يشيدوا مدنا ضخمة ولم يخلفوا آثار مادية وفكرية عظيمة كاليونان أو الرومان ، وإذا كانوا قد أسهموا فى هذه النواحى فبقسط محدود . أما أثر دولة الفرنجة العظيم فى التاريخ فقد جاء عن طريق نجاحها فى حل إشكال عسر ، هو تحقيق الوفاق بين السلطتين الدينية والدنيوية وإقامة أمبراطورية عظيمة فى غرب أوربا يسيطر عليها رجل واحد يجمع فى قبضته بين هاتين السلطتين . وعن هذا الطريق استطاع شارلمان أن ينجح فى تحقيق عملية المزج الكبرى بين شعوب أمبراطوريته ، على أساس أنهم جميعاً تابعون لكنيسة واحدة وخاضعون لحاكم واحد يسيطر على هذه الكنيسة [٤] .

---

(1) Eginhard : op. cit. ; p. 45.
(2) Davis : op. cit. ; p. 45
(3) Barkér : The European Inheritance, 1, p. 327.
(4) Davis : op. cit. 15.

وقد دفع الكنيسة إلى التلهف على محالفة دولة الفرنجة حالة الفوضى والضعف وسوء التنظيم التى أمست فيها بين القرنين الخامس والثامن . هذا إلى ما سبق أن أشرنا إليه من ازدياد خطر اللمبارديين فى إيطاليا فى عصر خلفاء ملكهم ليتوبراند ، مما دفع البابوية إلى الإرتماء بين أحضان الكارولنجيين طالبة حمايتهم . واتخذ التحالف بين البابوية والكارولنجيين صورته الجديدة فى الملابسات التى صحبت تتويج بيبين القصير . ولعل الأمر الذى يسترعى الإنتباه فى ذلك التتويج هو أن البت فى موضوع نقل تاج الفرنجة من البيت الميروفنجى إلى البيت الكارولنجى ترك للبابا فى روما ، لا للشعب الفرنجة [1] . ثم كان تتويج شارلمان امبراطوراً بيد البابا سنة ٨٠٠ ، وهى العملية التى لها مغزاها السياسى والدينى . فالنظرية الأساسية التى قامت عليها الإمبراطورية الكارولنجية تعتبر الإمبراطورية وحدة دينية قبل أى أعتبار آخر ، وظل شارلمان يعمل لتأكيد هذه الحقيقة بقية حكمه [2] . هذا وإن كانت الكنيسه سرعان ماخاب أملها لأنها عندما شجعت فكرة قيام تلك القوة العظمى فى غرب أوربا كانت تأمل أن تستفيد فائدة أعظم وأضخم ، ولكن عدم تحديد العلاقة بين السلطتين الدينية والزمنية لم يساعد الكنيسة على تحقيق آمالها وأطماعها . وهكذا أخذ شارلمان يعمل دائما لجعل الكنيسة فى غرب أوربا تحت سيطرته ونجح فى ذلك إلى حد بعيد، وساعده على تحقيق ذلك النجاح اعتراف الكنيسة به حامى حمى المسيحية فى الغرب . وعلى هذا الأساس أنشأ شارلمان يتدخل باطمئنان تام فى المشاكل الدينية ومختلف الشئون المتعلقة بالتنظيم الكنسى . فهو الذى يعين الأساقفة ، ويدعو إلى عقد المجاميع الدينية ويشرع القوانين اللازمة للكنيسة [3] .

وتتضح سيطرة شارلمان على الكنيسة وعنايته بتنظيم شئونها فى كثير من الإجراءات والتنظيمات الكنسية التى استحدثها فى امبراطوريته . من ذلك أنه أعاد إلى كبار الأساقفة سلطانهم وحدد مناطق نفوذهم ، كما أكد حقوق

(1) Eyre : op. cit, . p. p. 88—89
(2) Idem , p. 120·
(3) Pirenne : A Htstory of Enrope. p. 80.

الأساقفة على القساوسة الخاضعين لإشرافهم ، وحقوق مقدمي الأديرة على رهبانهم وجعل من العشور ضريبة قانونية واجبة على كافة العلمانيين ، كما جعل لقرار الحرمان الصادر من الكنيسة Excommunication قوة قانونية . وفى الوقت نفسه حدد شارلمان الحصانة التى يتمتع بها رجال الدين ، وحتم الفصل فى القضايا المشتركة بين رجال الدين والعلمانيين بواسطة هيئة مشتركة من الأسقف وكونت الإقليم .

ومن ناحية أخرى حرص شارلمان على تحريم زواج رجال الكنيسة ، كما حرم عليهم دخول الحانات وأماكن اللهو ، وحمل السلاح وممارسة الصيد . هذا فى الوقت الذى عنى بتوجيه الأساقفة ورجال الدين وإفهامهم طبيعة أعمالهم وواجباتهم . كذلك حرم شارلمان على رعاياه العمل فى أيام الآحاد — وهى أيام العطلة الدينية — إلا فى ثلاث حالات ، هى تحركات الجند ، ونقل المواد الغذائية وبيعها ، ودفن الموتى . حتى الترانيم والموسيقى الكنسية عدلها شارلمان وقرر كتابا جديدا فى الخطب الدينية ؛ كما أكثر من إحياء الأعياد وإقامة الصلوات فى مختلف المناسبات [1] .

وفى جميع هذه التنظيمات الدينية قل أن استشار شارلمان البابا ، بل إن الأخير كان يفكر أحياناً فى الإصلاح ولكنه لا يقوى على تنفيذه حتى فى لمبارديا [2] . ولكن على الرغم من ذلك فإن رأى البابا فى المسائل التى تمس العقيدة وأحكام الدين كان أمر له حسابه . فالبابا هو المرجع الأول والرئيسى فى كافة المسائل التى تتعلق بأحكام الكنيسة الغربية . وقد صدر كتاب تحت إشراف شارلمان نفسه لا يقر شرعية الكتب والأحكام الدينية التى لا توافق عليها البابوية . ويتضح حذر شارلمان واعتماده على رأى البابا فى كل ما يتعلق بالعقيدة، فى موقفه من بعض المشاكل الدينية المعاصرة، وأهمها مشكلة التبنى adoptianism ومشكلة عبادة الأيقونات Iconolatry [3].

---

(1) The Monk of St. Gall : The Life of Charlemagne p. 72.
(2) Davis : op. cit. : p. 160.
(3 Cam. Med Hist. : Vol. 3 ; p. p. 532—533.

أما عن مشكلة التبنى ، فإن المذهب الذى يقول بأن المسيح بطبيعته البشرية ليس إلا إبنا تبناه الله - عز وجل - لم يكن جديدا . وفى هذه الحالة يجب أن يكون الابن دون الاله الأب فى المستوى والقدرة . وقد وجدت هذه العقيدة - التى ترتبط بالمذهب النسطورى [1] - أرضا خصبة فى أسبانيا المسيحية ، فى الوقت الذى اعتبرتها البابوية والكنيسة الغربية ضربا من الهرطقة تجب محاربتها والقضاء عليها . وقد أصبح تدخل شارلمان فى هذه المسألة أمرا لا بد منه نظراً لانتشار هرطقة التبنى فى الجهات الشمالية الشرقية من أسبانيا ، وهى الجهات ذات العلاقة الوثيقة بدولة شارلمان . وعندما عرض شارلمان الأمر على البابا ، وحصل منه على قرار بابوى ببطلان ذلك المذهب ، عقد عدة مجامع دينية فى رجنسبرج Regensburg سنة ٧٩٢ ، وفى فرانكفورت سنة ٧٩٤ ، وفى آخن Aachen سنة ٧٩٩ ، كما عقد البابا مجمعا فى روما سنة ٧٩٩ أيضاً . وفى تلك المجامع كلها عمل شارلمان وأعوانه على دحض عقيدة التبنى واثبات فسادها .

أما المشكلة الدينية الثانية التى تدخل فيها شارلمان فتتعلق بعبادة الأيقونات . ذلك أن الإمبراطورة إيرين Irene امبراطورة الدولة البيزنطية (٧٨٠-٧٩٠ ، ٧٩٢ - ٨٠٢) عقدت بالاتفاق مع طرسيوس Tarasius بطرق القسطنطينية مجمع نيقية الثانى سنة ٧٨٧ الذى أقر مبدأ عبادة الايقونات . وقد حضر ذلك المجمع مندوبون عن البابا أدريان الاول ، لأن الكنيسة الغربية كانت تستعين دائما بالصور والايقونات فى استثارة الشعور الدينى عند المسيحيين . لذلك لم يكن غريبا أن يوافق البابا أدريان الأول على إعطاء الصور الدينية حقها من التبجيل والاحترام ، مع التفرقة بين عبادة الأيقونات وتبجيلها ولكن هذه التفرقة فى نظر شارلمان ومساعده ألكوين كانت مستحيلة ولا يمكن تحقيقها ، لأن تبجيل الشىء اصطلاح مطاط ، من الممكن أن يصل إلى درجة العبادة . لذلك أرسل شارلمان إلى البابا رسالته الشهيرة المعروفة باسم « الكتاب الكارولنجى Libri Carolini » ليثبت له فيها تعارض عبادة الأيقونات مع تعاليم المسيحية

(١) نسبة إلى نسطوريوس Nestorius بطرق القسطنطينية الذى عقد مجمعاً دينياً فى أفسوس سنة ٤٣١ قرر الفصل بين طبيعتى المسيح البشرية والإلهية . لذلك عرف هذا المذهب باسم المذهب النسطورى أو مذهب الطبيعتين .

ومبادىء آباء الكنيسة الغربية : وبفضل نفوذ شارلمان قرر مجمع فرانكفورت الدينى سنة ٧٩٤ بطلان قرار مجمع نيقية الخاص بإباحة عبادة الأيقونات والصور المقدسة، مما أنذر بإيجاد انقسام فى الكنيسة الغربية وإثارة وحشة بين شارلمان والبابا أدريان الأول، لولا خضوع الأخير لرأى الأول .

وقد حاول بعض الكتاب تعليل موقف شارلمان من مسألة الأيقونات تعليلا سياسياً، على أساس أنه كان يتطلع عندئذ إلى اليوم الذى يتوج فيه إمبراطوراً . لذلك صار هدف شارلمان الأساسى من معارضة الأيقونية هو إظهار أباطرة القسطنطينية فى صورة الهراطقة غير المحافظين على روح المسيحية وتعاليمها الصحيحة، مما يقلل من شأنهم فى نظر العالم المسيحى من جهة، ويظهر شارلمان فى ثوب الحريص على أصول المسيحية وروحها وتعاليمها من جهة أخرى، وكل ذلك يساعده بدون شك فى تحقيق أمانيه والوصول إلى منصب الإمبراطورية . ويؤيد هذا الرأى أن شارلمان فى كتابه الكارولنجى إلى البابا انتقد الإمبراطورة إيرين شخصياً واستنكر جلوس إمرأة فى مجمع كنسى لمناقشة مسألة دينية .

ومهما كان الأمر، فإن اختلاف وجهات النظر بين شارلمان والبابا لم يعد أن يكون أمراً سطحياً، ولم يؤثر مطلقا فى الخيوط الرئيسية للسياسة التى رسمتها دولة الفرنجة تجاه الكنيسة والبابوية[1] .

النهضة الاقتصادية :

وإذا كانت هذه هى المظاهر الفكرية والروحية للنهضة الكارولنجية، فإن هناك مظاهر اقتصادية هامة لتلك النهضة تتجلى فى رقى الزراعة والصناعة والتجارة . أما عن الزراعة فيلاحظ أن الضيعات الصغيرة أخذت تختفى فى العصر الكارولنجى لتؤلف ضياعا كبيرة تحل محل المدن كوحدات للتنظيم الإدارى . فالمدن لم تعد مراكز النشاط الاقتصادى فى العصر الكارولنجى، لأن الحياة تركزت عندئذ فى الضياع والأرياف . والواقع إن تناقص أهمية المدن فى ذلك العصر يمثل

(1) Davis : op cit. : p. p. 160—164.

ظاهرة اجتماعية واقتصادية وإدارية غربية . ذلك أنه حدث منذ أن أخذ النفوذ الإسلامي يغلب على حوض البحر المتوسط أن بدأت المدن في غرب أوربا تفقد أهميتها ، حتى ذبلت مظاهر الحياة الحضرية فيها وهجرها الملوك والأمراء إلى ضياعهم . وهكذا لم تعد المدن مراكز التنظيم الإدارى — كما كانت قديماً في العصر الرومانى — وإن ظلت مراكز التنظيم الكنسى ، كما أن الضيعات الكبيرة التي حلت محل المدن أصبحت محور للنشاط الاقتصادى فى العصر الكارولنجى ، مما جعل ذلك النشاط مرتبطاً بالزراعة وإنتاج الأرض إلى حد كبير[1] . وامتازت هذه الضيعات الكبيرة الواسعة بأنها كانت تكفى نفسها بنفسها (Self-Supporting) فبدلا من أن تحاول انتاج فائض تبيعه فى الأسواق الخارجية ؛ عملت بسياسة الاكتفاء الذاتى ؛ أى اكتفت بانتاج مايلزم صاحب الضيعة واتباعه من القاطنين على أرضها . وقد أضعفت هذه السياسة من ارتباط الضيعة بالعالم الخارجى ؛ وجعلت أهلها يربطون مصيرهم بالأرض التى يعيشون عليها . وسرعان ما ترتب على ذلك أن أصبح الفلاحون أقنانا مرتبطين بالأرض ؛ وصارت القنية أمراً عادياً ؛ مما جعل الباحثين يرجعون الخيوط الأولى لنظام الإقطاعى إلى ذلك العصر[2] . كذلك يلاحظ أن نسبة كبيرة من تلك الضياع الواسعة صارت ملكا للأديرة التى تنازل صغار الملاك عن أراضيهم رغبة فى التخلص من الخدمة العسكرية والضرائب من ناحية ، وطمعاً فى المثوبة والمغفرة من ناحية أخرى . أما شارلمان فكان أعظم ملاك الأراضى فى امبراطوريته ؛ فعنى بضياعه عناية كبيرة حتى أصبحت مزارع نموذجية تفيض بالخيرات من لحوم وحبوب ونبيذ وخضروات وجبن ومسلى وغير ذلك[3] . كذلك شجع شارلمان كبار الملاك فى امبراطوريته على العناية بشئون الزراعة ومعاونة الحكومة فى تقوية جسور الأنهار وغيرها من المشاريع الزراعية النافعة[4] .

---

(1) Pirenae : A Hist of Europe ; p. p. 94—99
(2) Cam. Med. Hist. ; Vol. 6 ; p.p. 506—508.
(3) Lavisse : op. cit. p. p. 331—335.
(4) Boissonnade : op.4cit. ; p. 71.

الصناعة :

أما عن الصناعة فى العصر الكارولنجى فقد انتعشت فى الأديرة بصفة خاصة . من ذلك ما نسمعه أن دير كوربى مثلا خصصت به عدة حجرات للصناعات المختلفة ، منها حجرة بها ثلاثة من صانعى الأحذية واثنان من السروجية ، وحجرة أخرى بها ستة من الحدادين واثنان من الصائغين وصانع أسلحة وآخر يعد الرقائق الجلدية لإستخدامها فى الكتابة ، وقاعة ثالثة بها بعض النجارين . . . وهكذا قامت هذه « الورش » داخل الدير لتسد حاجاته ومطالب رهبانه من المنتجات الصناعية المختلفة .

على أن الديريين لم يلبثوا ان أدركوا عظم المكاسب التى يمكن أن تعود عليهم بالتوسع فى الصناعة وبيع كنائس من الإنتاج لعامة الأهالى خارج الدير . ويبدو أول مثل لدينا لهذا الاتجاه فى سياسة دير سانت ركوبير St. Riquier الذى أحرز فى نهاية القرن الثانى عشر، وأسعة فى الصناعات الحديدية ولم تكد تحل سنة ٨٣١ إلا وكان بذلك الدير إحدى عشرة وحدة صناعية ، كل منها به مجموعة من الرهبان المتخصصين فى صناعة حرفة معينة . على أن الصناعة فى العصر الكارولنجى لم تظل وقفاً على الأديرة والديريين ، وإنما انتشرت فى الضياع والقرى . ويرجح أن ذلك العصر عرف البذور الأولى لنظام النقابات ، فأخذ أفراد الحرفة الواحدة يتقاربون لتأليف نقابة تحميهم وتنظم شئونهم وتقدم لهم المعونة فى حالة العجز عن العمل[1] .

التجارة :

على أن نشاط الصناعة ووفرة الانتاج الصناعى أثارت اتجاها نحو تصدير الفائض منه إلى مختلف الجهات ، مما أدى بدوره إلى نشاط تجارى فى العصر الكارولنجى . وقد قام شارلمان بعدة إجراءات سهلت الحياة الاقتصادية بوجه

---

(1) Lavisse : op, cit. p. 336.

عام وأدت إلى نشاط التجارة بوجه خاص . من ذلك أنه نظم الموازين والمقاييس ، حتى حظيت دولة الفرنجة لأول مرة فى التاريخ بنظام موحد للوزن والقياس . كذلك نظمت النقود والعملة المتداولة ، وبعد أن كان يوجد قبل سنة ٧٧٤ أكثر من ستين دارا لضرب النقود ، انكمش هذا العدد وأصبحت الدور المرخص لها بسك العملة محدودة ، كما أصبح رفض التعامل بالعملة الملكية جريمة كبرى لا يغتفرها الملك . وفى الوقت نفسه صار لأى شخص الحق فى أن يرفض التعامل بالنقود غير المستوفاه للشروط الرسمية ، كما حرم فى إيطاليا استخدام النقود المباردية منذ أغسطس سنة ٧٨١ . كذلك أصدر شارلمان أوامر بتحريم الربا وتحديد أثمان الغلال ، مما يثبت أنه تأثر فى آرائه الاقتصادية بالكنيسة وتعاليمها[1] .

وليس هناك من شك فى أن نشاط التجارة يتطلب العناية بالطرق التجارية والاكثار منها والمحافظة على سلامتها وتوفير الأمن لسالكيها . وهذه كلها أمور اهتم بها شارلمان ولم تصرفه مشاغله الكثيرة عنها ؛ فاهتم بالطرق البرية وزاد منها . هذا وإن فضل تجار ذلك العصر استخدام الطرق النهرية ، حتى أصبحت أنهار الراين والدانوب والسين والرون وفروعها تكون شبكة ضخمة من طرق التجارة ، تربط بين شمال إمبراطورية شارلمان وجنوبها ، وبين شرقها وغربها . ولا يستطيع مؤرخ أن يلوم شارلمان على الإجراءات المشددة التى اتخذها ضد الذين يهاجمون المسافرين ويعتدون على التجار أو يفرضون مكوساغير شرعية على عبور الطرقات والجسور : الأمر الذى أدى إلى استقرار الأمن والنظام ، وبالتالى إلى تشجيع التجارة والأسفار .

وقد قامت الأسواق العامة Mercata Publica بجوار المدن والأديرة والضياع ، كما قامت قرب المزارات العامة وأضرحة القديسين ، حيث كان النشاط التجارى يلازم الاحتفالات الدينية فى صورة تشبه ما يحدث فى الموالد بالبلاد الإسلامية . وأشهر سوق من هذا النوع كانت سوق سانت دنيس الذى اعترف به بيبين القصير سنة ٧٥٩ . ومنذ ذلك الوقت وهذا السوق فى نمو مستمر بفضل

(1) Davis : op. cit. ; 158.

قربه من باريس حتى أصبح يعرف بسوق الشعب . وصار يقصده التجار من أسبانيا ولمبارديا وغيرهما من البلاد البعيدة[1] .

أما ألمانيا فقد أقيمت فيها الفنادق والخانات على إمتداد الطرق التجارية بقصد إيواء التجار ودوابهم وبضائعهم . ولم يسمح شارلمان للتجار بعبور نهر الإلب حيث كانت جموع البرابرة من العناصر السلافية وغيرها ترابط على الضفة الشرقية للنهر . لذلك أقام شارلمان على طول الحدود بين مملكته وتلك الشعوب الغريبة تسعة مراكز بها موظفون وحاميات من الجند لحماية تجار الفرنجة من ناحية ومنعهم من بيع الأسلحة لتلك الشعوب المادية من ناحية أخرى .

وقد اختار شارلمان مينز Mainz لتكون مركزاً رئيسياً للتجارة بين غاليا وألمانيا ، وفى سبيل تيسير هذا الغرض درس شارلمان مشروعين نظر إليهما المعاصرون نظرة إعجاب بالغ . أما المشروع الأول فكان يستهدف شق قناة تربط المين « أحد فروع الراين » بالدانوب ؛ فى حين كان المشروع الثانى يرمى إلى إقامة جسر خشبى على الراين عند مينز نفسها طوله خمسمائة قدم . وقد بدأ شارلمان بتنفيذ المشروع الأول ، ولكنه سرعان ما عدل عنه للصعوبات التى اعترضته ، وأهمها طبيعة الأرض وصعوبتها . أما جسر مينز فاستغرقت إقامته عشر سنوات ، وبعد أن تم عمله أتت عليه النيران والتهمته أول عن آخر سنة ٨١٣ .

هذا عن التجارة مع ألمانيا ، أما عن العلاقات التجارية بين دولة الفرنجة من ناحية وبريطانيا وأيرلنده من ناحية أخرى ، فقد ساعد على نموها العلاقات الطيبة بين شارلمان وحكام تلك البلاد . لذلك كثرت أعداد الحجاج الأنجلو سكسون الذين أخذوا يعبرون فرنسا تحت حماية شارلمان ، وفى ظل الاستقرار الذى امتاز به حكمه . واشتغل هؤلاء الحجاج بالتجارة فى الوقت نفسه ، فكانوا يأتون إلى غاليا محملين بالبضائع ويغادرونها مثقلين بالمتاجر . لذلك أقام شارلمان مكاتب جمركية فى مختلف الموانى والمدن البحرية التى اعتاد

---

(1) Lavisse : op. cit. ; p. 337.

أن يمر بها هؤلاء الحجاج ، وجعل تلك المكاتب تحت إشراف جرفولد Gervold
أحد كبار أعوانه .

أما التجارة البحرية فانتعشت هي الأخرى في عهد شارلمان عن طريق نانت
من ناحية ، وموانئ البحر المتوسط في بروفانس وسبتمانيا من ناحية أخرى .
والمعروف أن الغزوات الإسلامية في القسم الغربي من حوض البحر المتوسط لم
تؤثر كثيراً في التبادل التجاري مع الشرق . ومصداق ذلك ما نلمسه من انتعاش
العلاقات التجارية بين دولة الفرنجة وبلاد الشرق بفضل الصلات الطيبة بين
شارلمان من جهة والخليفة هارون الرشيد والجاليات المسيحية في مصر والشام
وغيرهما من بلاد الشرق من جهة أخرى . وكانت أهم صادرات الشرق إلى دولة
شارلمان المنسوجات والأقمشة المزركشة والملونة والملابس الحريرية والمصنوعات
الجلدية والروائح العطرية والأعشاب الطبية والتوابل والحيوانات والطيور
الغريبة ، عدا مجوهرات الهند وأوراق البردى المستوردة من مصر . وفي مقابل
هذه البضائع صدر الغرب إلى الشرق الحبوب والخمور والزيوت وكلاب الصيد
والجوخ الثمين الذي اشتهر به إقليم فريزيا . ولم يلبث أن ظهر أثر هذا النشاط
التجاري بين الشرق والغرب على عصر شارلمان في مدن سبتمانيا وفي مدن بروفانس،
وأهم تلك المدن نيم Nimes وماجلون Maguelonne في حين أصبحت مدينة
آرل Arles المركز الرئيسي لتجارة الواردات التي اعتادت السفن أن تفرغها
في مرسيليا أو ناربون Narbonne .

ويلاحظ أنه مما ساعد على تقدم التجارة في ذلك العصر نشاط اليهود الذين
لم يتعرضوا في ظل حكومة شارلمان للضغط والقيود التي تعرضوا لها في أواخر
العصور الوسطى . وكل ما هنالك هو أنه حرم عليهم امتلاك الأراضي فاتجهوا
نحو الاشتغال بالتجارة والأعمال المصرفية وجنوا من وراء ذلك أرباحاً طائلة(1).

وأخيراً نختم كلامنا عن النهضة الاقتصادية في عصر شارلمان بالإشارة
إلى أن بعض الكتاب يميل إلى التحفظ وعدم المبالغة في تقدير أهمية التقدم

(1) Lavisse : op. cit. ; p. p. 338—340.

الاقتصادى فى ذلك العصر ، بحجة أن النشاط الاقتصادى حدث منه حروب شارلمان الطويلة وسيطرة الآفار على طريق الدانوب الذى كان عندئذ الشريان الرئيسى للتجارة بين الشرق والغرب[1] . ولكن لاشك فى أن هذه الاعتراضات إن صحت ، فهى ليست بالموانع التى تحجب أهمية النشاط الاقتصادى فى النهضة الكارولنجية .

الفنون :

أما فى ميدان الفن ، فيلاحظ أن النهضة الحضارية التى تعهدها شارلمان جذبت إليها وتمثلت فيها جميع العناصر التى ترتبط بتقاليد المسيحية فى الجانب الفنى ، وبذلك تمخضت جهودشارلمان فى إحياء الامبراطورية الرومانية عن أثر آخر هام هو تدعيم الحياة الفنية فى العصور الوسطى[2] . وهنا نلاحظ أن الفنون فى العصر الكارولنجى تأثرت بالعامل الدينى نفسه الذى رأينا أثره واضحاً فى بقية نواحى النشاط التى ظهرت فى النهضة الكارولنجية . وقد ظهر هذا الأثر واضحاً سواء فى البواعث التى ألهمت الفن الكارولنجى أو فى الطابع العام الذى ميز ذلك الفن .

فالموسيقى التى عرفت فى ذلك العصر كانت موسيقى دينية . وكان الغرب الأوربى يعرف منذ القرن السادس طريقتين للترانيم الدينية : الطريقة الرومانية التى نظمها البابا جريجورى الأول أو العظيم ، والطريقة الغالية . ولم تلبث أن امتدت الطريقة الأولى إلى غاليا حيث عمل بيبين القصير على تعميمها فى جميع أنحاء مملكته ، ثم تبعه شارلمان فى تلك السياسة التى شجعه عليها البابا أدريان الأول (٧٧٢ — ٧٩٥) ، فأمده باثنين من المتخصصين ليعلموا أهالى غاليا طريقة الترانيم الرومانية الصحيحة . وقد أقام أحد هؤلاء الموسيقيين فى ميتز والثانى فى سانت جال St. Gall ، وازدهرت المدرسة الأخيرة بصفة خاصة فى أواخر القرن التاسع وأوائل العاشر ، فظهر من رجالها بعض المبرزين مثل نوتكر Notker وهارتمان Hartmann ورادبرت Radbert ، وعلى رأس

(1) Lethaby : The Legacy of the Mibdle Ages ; p. 63.

هؤلاء جميعاً توتيلون Tutilon الذى وصفته المراجع بأنه كان « خطيباً مصقعاً وفنانا بارعاً وموسيقياً وشاعراً[١] » .

وكذلك يتضح تأثير العامل الدينى على الفن الكارولنجى فى الصناعات العاجية والذهبية الدقيقة ؛ وقد بقيت منها نماذج فريدة معظمها يحاكى الصور المسيحية القديمة فى إيطاليا والدولة البيزنطية . وكانت كل كنيسة وكل دير فى ذلك العصر له كنوزه وتحفه الثمينة التى تعبر عن رقى المستوى الفنى فى العصر الكارولنجى . ويلاحظ أن غرب أوربا فى ذلك العصر — مثله مثل العالم العربى الإسلامى — ساده شعور الرغبة عن صنع التماثيل للانسان والحيوان ، مما جعل فن النقش والزخرفة يتجه وجهة أخرى ، فيظهر واضحاً فى العناية بتحسين الخطوط وزخرفة الكتب . وتضم خزائن الكنائس والأديرة عدداً من الكتب التى نسخت فى العصر الكارولنجى والتى تعتبر آية فنية رائعة : إذ أنها مدونة بأحرف ذهبية على رقائق حمراء داكنة ، ومحلاة ببعض الزخارف مما جعلها مثار الإعجاب لوضوح وجمال منظرها .

والمعروف عن عصر شارلمان أنه يمثل إنقلابا هاماًفى تاريخ الخط والكتابة فى غرب أوربا ، لأن النهضة العلمية التى أثارها شارلمان صحبها تطور هام فى فن الكتابة . وظهرت عناية شارلمان بالكتابة فى مرسوم سنة ٧٨٩ الخاص بمراجعة الكتب الدينية والعناية بكتبها وخطها . ولاشك فى أن هذه المراجعة أثارت نشاطاً كبيراً فى مدارس الخط بأديرة فرنسا الرئيسية ، لا سيما دير تور حيث اعتكف ألكوين منذ سنة ٧٩٦ حتى وفاته سنة ٨٠٤[٢] .

ويقال إن التطور الذى اعترى الخط فى العصر الكارولنجى إنما جاء نتيجة المؤثرات الأيرلندية والسكسونية[٣] ، فاستبدلت الأحرف الميروفنجية المعقدة ذات المظهر الجاف والتى تطلبت قراءتها جهداً وعناءاً كبيرين ، بأحرف أخرى أجمل شكلا وأكثر وضوحاً وأسهل فى القراءة ، ومن ثم نشأ ذلك النوع من الخط المعروف باسم minuscule أى الحروف الصغيرة المحدودة[٤] . ويرى

(1) Lavisse ; op. cit. ; p. 355.
(2) Thompson . Greek and Latin Palaeography ; p. 367.
(3) Lowe ; The Legacy of the Middle Ages ; p. p.; 205-206.
(4) Idem ; p. 217.

الباحثون أنه من المبالغة أن ننسب الفضل فى ظهور هذه الطريقة فى الكتابة فى غاليا إلى فرد معين مثل ألكوين ، لأن ألكوين نفسه لم يصل غاليا إلا بعد ظهور هذا النوع من الخط[1] . ولكن من الاعتراف بالجميل أن نشير إلى أن ألكوين أسهم بقسط وافر فى تدعيم مدرسة تور والرقى بمستوى الكتابة فيها ، فوضع أمام كتبتها وناسخيها عبارة يوصيهم فيها بالعناية بعملهم وتحسين خطوطهم[2]

وقد وجدت فى غاليا سبع مدارس أخرى عنيت فى ذلك العصر بتحسين الخط ، هى مدرسة القصر ومدرسة ميتز ومدرسة ريمس ومدرسة كوربى ومدرسة فولدا ومدرسة سانت دنيس ومدرسة سانت جال . وهنا نلاحظ أن الغالبية العظمى من هذه المدارس كانت ديرية أو كنسية ، لذلك وجهت العناية فيها نحو نسخ الكتب الدينية كالإنجيل ، ومن هذه الكتب كتاب نسخ لشارلمان حوالى سنة ٧٨١ ومحفوظ فى المكتبة الأهلية بباريس ، وهو مدون بأحرف ذهبية وفضية على قماش ثمين .

أما فن العمارة فقد فعل شارلمان كثيراً للنهوض به ، فأمر رجال الدين بالعناية ببناء الكنائس وإصلاحها وصيانتها ، كما جلب عدداً من الفنانين والمهندسين المعماريين من إيطاليا بوجه عام ورافنا بوجه خاص . وينسب كثير من الأعمال الهندسية الضخمة التى تمت فى ذلك العصر إلى المهندس اجنهارد وزميله أنسجيس Ansègise . ومن هذه الأعمال إقامة جسرماينس Mayence وقصر وكنيسة اكس لاشابل ، وقصر انجلهايم Engelheim ، وإن لم توجد أدلة كافية فى الواقع تثبت قيام اجنهارد بكل هذه المنشآت .

وعلى الرغم من انتشار المبانى الكارولنجية فى مساحة واسعة من أوربا شملت ألمانيا وغاليا ولمبارديا ، إلا أنه لم يتبق من منشآت ذلك العصر سوى القليل . ذلك أن معظم هذه المنشآت كانت من الخشب لاسيما فى الشمال حيث لم يقتصر استعمال الخشب على الكنائس الصغيرة فى الضياع والقرى ، بل شمل أيضاً الكنائس الكبيرة ، مما أدى إلى سرعة اندثارها . أما المبانى الحجرية التى تنسب

1) Ibid.
2) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p.517.

إلى عصر شارلمان فبعضها غير معروف تاريخه بالضبط ، والبعض الآخر أعيد تجديده تجديداً شاملا ترتب عليه ضياع معالمها القديمة ، مما يحول دون اتخاذ هذه المبانى عنوانا صادقا للعصر الكارولنجى . وكل ما هنالك هو أننا نستطيع أن نخرج منها بفكرة عامة عن الفن فى ذلك العصر بعد مقارنته بما كتبه بعض الكتاب المعاصرين . وخلاصة هذه الفكرة هى أن جنوب فرنسا — وبخاصة تولوز — أصبح مركزاً لطراز رومانسكى أكثر تأثراً بالطابع الشرقى . ويبدو أن هذه المؤثرات الشرقية أتت من ناحية الجنوب ، أى من أسبانيا حيث استقر العرب منذ أوائل القرن الثامن . ومصداق ذلك أن كنيسة بوى Puy فى أعالى اللوار لا تزال أبوابها الخشبية محلاه بزخارف كوفية رائعة[1] . هذا إلى ما قيل من أن شارلمان استعان ببعض المهندسين والمعماريين العرب فى إتمام منشآته ومبانيه ، حتى الدينية منها .

ومن المعروف أن طراز العمارة الرومانسكى وصل ذروة عظمته على عصر شارلمان . وهذا الطراز يحتل مكانا وسطاً فى مميزاته وخصائصه بين الطرازين الرومانى القديم والقوطى الذى سنتكلم عنه فى الباب الآتى[2] . هذا مع عدم إغفال التأثيرات الجديدة التى انتقلت من الشرق أو جاءت على أيدى عناصر الجرمان المختلفة . وقد عرف بعض الباحثين العمارة الرومانسكية بأنها عمارة رومانية ذات صبغة دينية مسيحية . وهكذا نجد كثيراً من خصائص الفن الرومانسكى فى العصر الكارولنجى مقتبسة من الآثار الرومانية القديمة . ويبدو أن شارلمان ورجاله وجدوا أن إحياء الفن الرومانى يجب أن يكون مظهراً من مظاهر إحياء الامبراطورية الرومانية ، وهى الغاية التى عملوا من أجلها[3] .

وإذا كان الفن الرومانسكى قام على أنقاض الفن الرومانى القديم ، فإنه أخذ عنه استخدام العقود المستديرة ، ولكنه اختلف عنه فى نسب الخلايا والأعمدة والأقواس والزخارف وغيرها من التفاصيل المعمارية[4] . وامتاز الفن الرومانسكى

(1) Lethaby : The Legacy of the Middle Ages, p. p. 63-64.

(2) Lethaby : Med. Art ; p. 60.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 556.

(4) Idem ; p. 556.

فى غاليا بظهور الأبراج فى الكنائس ، وزخرفة المبانى عن طريق الحفر والتلبيس والزجاج المؤلف بالرصاص ، وكذلك الأعمدة المحلاه بتيجان على شكل أوراق الأكنث Acanthe وفق النمط الكورنثى الرومانى[1] .

وكانت اكس لاشابل (آخن) — وهى عاصمة امبراطورية شارلمان — مركزاً لنهضة فنية كبيرة ، حتى بلغ الفن الرومانسكى أسمى درجاته فى مبانى تلك المدينة ، لاسيما كتدرائية اكس لاشابل الشهيرة . وقد حمل الرخام اللازم لتلك الكتدرائية من روما ورافنا ، وقام بالعمل فيها نخبة من مهرة المهندسين والصناع الذين استحضرهم شارلمان من مختلف البلاد . وظل العمل مستمراً فيها ما يقرب من عشرين سنة ، حتى افتتحها البابا ليو الثالث سنة ٨٠٥ . ووصف إجنهارد هذه الكتدرائية بأنها « رائعة وفائقة فى الحسن »[2] ، كما وصفها غيره من المعاصرين فأثنوا على جمالها وعظمة مبانيها وروعة سقفها المزخرف ومصابيحها الذهبية والفضية وأبوابها البرونزية ، وغير ذلك من المحاسن . وقد شيد كثير من الكنائس على ذلك النمط مثل كنيسة سانت مايكل St Micel فى فولدا . وبقى فى فرنسا نموذج لهذا الطراز من الكنائس الكارولنجية ممثلا فى كنيسة جرمان ليبريه التى قام ثيودلف ببنائها على بعد عدة كيلو مترات من دير فليرى Fleury على اللوار . وعلى الرغم من أن هذه الكنيسة تعرضت لعدة تغييرات وإصلاحات إلا أن بعض أجزائها بقيت كما هى تعبر عن الاتجاهات الفنية المعاصرة فى تصميمها وبنائها ، لاسيما فيما يتعلق بالمؤثرات البيزنطية[3] .

ويلاحظ أن الكنائس فى العصر الكارولنجى لم تكن مكاناً للعبادة فحسب ، بل كانت أيضا ملاذاً لمن يحتمى بها وسوقاً للتجارة رغم القانون الذى حرم استغلالها فى البيع والشراء . ولم يختلف تصميم الكنيسة الكارولنجية كثيراً عما كان عليه فى العصر الميروفنجى ، اللهم سوى فى بعض التحسينات والإضافات . فالكنيسة كانت على شكل صليب بداخلها ثلاثة صحون ، فى حين كانت أبراجها اسطوانية أو مربعة ، وفى أعلاها توضع الأجراس لإعلان مواقيت العبادة[4] .

---

(1) Ibid.

(2) Eginhard, op. cit; p. 42.

(3) Lavisse, op. cit; p. 351.

(4) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. p. 560-562.

أما الأديرة فساعد على عظمة بنائها وحسن هندستها ما تمتعت به المؤسسات الديرية من ثروات طائلة حتى أن بعض الأديرة مثل فولدا وراتجار Ratgar ضيقت على رهبانها وجعلتهم يحيون حياة أقرب إلى الضيق والعسر بسبب توفير المال للمبانى الفخمة . وأهم ظاهرة تلاحظ على تصميم أديرة العصر الكارولنجى هى ظاهرة الاستجابة لحاجيات أهل الدير والعمل على توفير أسباب الراحة لهم فى حياتهم الخاصة والعامة . ومن أعظم أديرة غاليا فى ذلك العصر دير سانت واندريل St. Wandrille ، وتمتاز كنيسته ببرجها العظيم الذى ينتهى على شكل هرمى مربع القاعدة يبلغ ارتفاعه خمسا وثلاثين قدما ومكسو بالنحاس المزخرف . كذلك ازدانت قاعة الطعام وقاعة النوم فى ذلك الدير بالنوافذ الزجاجية الكبيرة التى يبلغ طول الواحدة منها مائتين وثمان أقدام وعرضها سبعا وعشرين قدما . أما دير سانت ركويير St. Riquier فقد تم بناؤه بين سنتى ٧٩٣ ، ٧٩٨ تحت إشراف انجلبرت . ولما لاحظ شارلمان تعثر المشروع بسبب حاجته إلى الأموال ، أمده بالمال اللازم وكذلك بالمهندسين والفنيين وأرسل يطلب له الرخام والأعمدة من روما . وألحق بهذا الدير ثلاث كنائس تقع كبراها جهة الشمال وتعلوها أبراج أخرى صغيرة كما هو الحال فى كنيسة أكس لا شابل : أما الكنيستان الأخرتان فتقع إحداهما جهة الجنوب والأخرى جهة الشرق ، بحيث يتخذ السور الخارجى الذى يضم الكنائس الثلاث والدير شكل مثلث ، تيمنا بالثالوث المقدس . وروعى فى ذلك السور أن يكون من المناعة والقوة بحيث يستطيع رهبان الدير مباشرة حياتهم الديرية وهم فى أمن تام وطمأنينة كافية[1] .

هذا عن هندسة المبانى الدينية فى فن العمارة العلمانى فى العصر الكارولنجى فالأمثلة الوحيدة التى لدينا عنه تتعلق بالقصور فقط . ذلك أنه من المعروف عن أباطرة الرومان القدماء شغفهم بامتلاك القصور الفاخرة ، ومن ثم أصبح لزاما على من يريد أن يتشبه بهم أن يحاكيهم فى مظاهر عظمتهم . لذلك أكثر شارلمان من بناء القصور الرائعة وتفنن فى زخرفتها وزينتها حتى جاءت آية فى

(1) Lavisse, op. cit; p. 352.

الإبداع الفنى . ومعظم هذه القصور الشارلمانية شيدت على ضفاف الراين فى نميج Nimégue وانجلهايم Inglheim واكس لاشابل . ولعل أبدعها جميعاً القصر الأخير الذى شيد حوالى سنة ٧٩٨ على طراز قصر رافنا بإيطاليا[١] .وقد امتاز هذا القصر باتساع مساحته ، فأقيم فى الوسط جناح الإمبراطور وأسرته وقاعة الإستقبال والحمامات : ويتصل بهذا الجناح جناح آخر — يصل بين القصر والكنيسة — وبه مدرسة القصر والمكتبة والأرشيف . وجدير بالذكر أن قصور ذلك العصر يبدو فيها الأثر البيزنطى واضحاً ، لاسيما فى زخرفتها بالأعمدة ذات الأكتاف المزركشة والأفاريز[٢] .

أما فن الزخرفة فقد بلغ فى العصر الكارولنجى درجة فائقة فى الروعة والجمال ، سواء زخرفة الكنائس والأديرة أم القصور والمبانى الرسمية وكانت الزخارف المجسمة البارزة على الحيطان تصنع عادة من الجبس (الفرسكو) ، كما أخذ استعمال الفسيفساء عن البيزنطيين واستخدمت فى الزخرفة وفى تغطية العيوب التى قد تظهر فى الأشكال الزخرفية . وإذا كان شارلمان قد حارب عبادة الصور والأيقونات — كما سبق أن ذكرنا — إلا أنه أوصى فى تعليماته إلى رجال الكنيسة بزخرفة الأسقف والحيطان ، كما سمح بزخرفة الكتب ، لاسيما الكتاب المقدس . وحسبنا ما نجده من نقوش ورسومات رائعة زينت بها جدران الأديرة والكنائس والقصور فى ذلك العصر ، وبخاصة قاعة الطعام فى دير سانت واندريل St, Wandrille . وكانت معظم الرسومات التى زينت بها كنائس ذلك العصر مستمدة من موضوعات دينية تمثل حياة المسيح وخلق الدنيا ، فضلا عن صور القديسين والشهداء . وقد جرت العادة أن يزين صدر الكنيسة بالفسيفساء ، فى حين يزين صحنها بمواد عادية . أما قاعة الصلاة والترتيل Choeur فكانت تحلى بالرخام النادر الملون . وقد كسيت قبة كنيسة إكس لاشابل بالفسيفساء من الداخل ، وجعلت على هيئة مناظر تمثل السيد المسيح وهو يصلى وأمام قدميه اثنى عشر شيخاً ويحرسه اثنان من الملائكة . أما كنيسة جرمنى ليبريه Cermigny les,Pres ففيها منظر من الفسيفساء يمثل تا وت العهد يحمله أربعة من الملائكة وقد نشروا أجنحتهم .

(١) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ج٢ ص ٢٦٢ .

(2) The Monk of St. Gall : The Life of Charlemagne ; p. 90.

وإذا كانت هذه هى الطريقة التى استخدمت فى زخرفة المبانى الدينية ، فإن القصور الإمبراطورية زينت بمناظر تاريخية مثل الحروب ضد العرب والسكسون، وأعمال أباطرة الرومان فى العصور القديمة . وكان يخشى ألا يستطيع كثيرون فهم معانى تلك الصور ، لذلك قام الأدباء والشعراء بمساعدة الفنانين فى مهامهم ، وكتبوا أسماء الشخصيات المختلفة تحت صورها .

أثر النهضة الكارولنجية :

وبعد ، فإننا نستطيع الآن أن نحكم على هذه النهضة الكبيرة التى تبناها شارلمان وتعهدها برعايته وتشجيعه ، بعد أن درسنا مظاهرها المختلفة . ويميل بعض الباحثين إلى عدم المبالغة فى أهمية النهضة الكارولنجية وأثرها ، نظراً لأنها اعتمدت على عنصر الإحياء والمحاكاة أكثر من اعتمادها على عنصر التجديد والإبتكار[1] . ويضيف آخرون أن أفق الحياة العلمية فى النهضة الكارولنجية ارتبط بالكنيسة ورجالها وتقاليدها ، مما جعل هدف رجال العلم وطلابه لا يتعدى تنظيم تراث الكنيسة وتفسير علومها . أما من اقترب من العلوم العقلية فانتهى أمره غالباً إلى الاضطهاد والتعذيب ؛ مثل أسقف فيلكس Felix الذى توسع فى تفكيره حتى مس الجانب العقلى من العقيدة الدينيه ، ومثل دونجال Dungal العالم الأيرلندى الذى حل ببلاط شارلمان بعد ألكوين والذى أثار غضب معاصريه بعلمه الواسع وتفكيره العقلى .

ولكن هذه الانتقادات وأشباهها لا يمكن أن تصرفنا عن تقدير مزايا النهضة الكارولنجية وآثارها . ويمكن الوقوف على الأثر الذى تركته هذه النهضة بمقارنة وثيقة من العصر السابق مثل فريدجير Frsdegaire[2] ، بمستوى كتابة أجنهارد فى تاريخه لحياة شارلمان ؛ أو بمقارنة أسلوب ماركولف Marculfe[3] بأسلوب ألكوين فى كتاباته اللاتينية ، أو بمقارنة النشاط العلمى فى القرن

---

(1) Lavisse, op cit; p. 365.

(٢) نسبة إلى فريد يجاريوس Fredegarius Scholasticus وهو مؤرخ فرنجى فى القرن السابع وأحد أعلام ثلاثة عملوا تاريخ الفرنجية حتى سنة ٦٤٢ .(Historia Francorum)

(٣) راهب فرنجى عاش فى القرن السابع ودون مجموعة القوانين السائدة فى ذلك العصر .

التاسع — سواء فى وفرة الإنتاج والكتابات أو فى كثرة المساجلات والمناقشات العلمية - بالركود الذى ساد العصر السابق للنهضة الكارولنجية أو اللاحق بها[1] . لهذه الأسباب لا نستطيع أن نقلل من أثر النهضة الكارولنجية ، وكل ما هنالك هو أن هذه النهضة لم تنبعث عن شعور شعبى عام ، ولم تكن هناك وحدة فكرية تربط بين الجهود التى بذلها أعلامها ، وإنما كانت كلها جهوداً فردية مشتتة ، كل يشتغل فى ميدانه ويعتمد على مقدرته . حقيقة أن الجهود التى بذلها رائدو النهضة الكارولنجية كانت جهوداً جبارة ضخمة ، ولكن نتائج تلك النهضة وآثارها لم تتناسب مع ضخامة هذه الجهود وعظمتها[2] .

أوربا بعد شارلمان :

وسرعان ما اعترى الفتور النهضة الكارولنجية منذ ٨٠٠ . ولم يلبث ذلك الفتور أن تحول إلى تدهور تدريجى بعد وفاة شارلمان سنة ٨١٤ ، بحيث لم يكد ينتصف القرن التاسع إلا وكانت أوربا قد دخلت فى دور جديد مظلم امتد قرنا ونصف قرن ، أى حتى نهاية القرن العاشر تقريبا . وفى هذا الدور تعرض غرب أوربا لمحنة أخرى قاسية . ولا يمكن تفسير هذه المحنة فى ضوء الانحلال السريع الذى أصاب امبراطورية شارلمان بعد وفاته فحسب، وإنما ربما كان من الأصوب تفسيرها فى ضوء التطور الاجتماعى والاقتصادى والسياسى نحو الحياة الإقطاعية من جهة ، وفى تجدد الهجمات العدائية على غرب أوربا من جهة أخرى . وقد تمثلت هذه الهجمات فى إغارات الفيكنج اللذين دمروا المزارع والضياع وأحرقوا الكنائس والأديرة، ونهبوا القرى والمدن ، فتعطلت الحياة العامة وتوقف النشاط الاقتصادى ، واشتد نفوذ أمراء الإقطاع ليدافع كل منهم عن إقطاعه ضد هجمات المغيرين .

على أنه من المغالاة أن نقول إن الحياة الفكرية فى غرب أوربا تعطلت تماما فيما بين منتصف القرن التاسع ونهاية القرن العاشر . فبعض الأديرة — أكثر منها فى أى وقت مضى - استمرت المراكز الأساسية للنشاط الثقافى فى أوربا . وكان

(1) Davis, op. cit, pp. 36 – 37.

(2) Guizot, op. cit; tome 2, p. 178.

من المحتمل أن تستمر جميع مدارس الأديرة والكتدرائيات التي رعاها شارلمان في إداء رسالتها العلمية لو توافر لها الأمن والنظام. ولكن لم يتوافر للأسف شيء من ذلك في القرن التاسع، مما جعل الحياة مهددة في معظم الأديرة. وزاد البلاء وقعا أن الأديرة والكتدرائيات بالذات اشتهرت بأنها مخبأ الثروات الضخمة والكنوز الخفية، ومن ثم أصبحت مقصد المغيرين. ففي سنة ٨٤٣ قتل الفيكنج أسقف نانت Nantes أمام مذبح كتدرائيته، وفي سنة ٨٥٤ أحرقوا كنيسة سانت مارتن في تور، وفي سنة ٨٦٦ لم تسلم باريس من أيديهم إلا بمشقة وبعد دفع دية كبيرة من المال. وهكذا دمرت أقاليم واسعة بأكملها مثل فلاندرز ووديان المز والسين واللوار والإقليم الذي عرف فيما بعد باسم نورمنديا[1]. وإذا كان هذا هو مافعله الفيكنج بغرب أوربا، فإن الهنغاريين لم يكونوا أقل منهم ضرراً بوسط أوربا — وبخاصة أديرة بافاريا[2] — كما تعرض وسط إيطاليا لبعض إغارات إسلامية، أهمها إغارة العرب على روما سنة ٨٤٦.

ولكن على الرغم من كل ذلك، استمر عدد كبير من الأديرة في أداء رسالتها الثقافية، مثل دير فولدا Fulda وفليري Fleury وسانت جال St.Call ولورخ Lorsch وبوبيو Bobbio ومونت كاسينو[3]. وقد أنجبت بعض هذه الأديرة كتابا معروفين مثل رابانوس مورس Rabanus Maurus (٧٨٢ — ٨٥٦) وهروتسفيتا Hroswitha (٩٣٥ — ١٠٠٢ تقريبا)[4]. ونلاحظ من أسماء الأديرة السابقة التي استمرت تؤدي رسالتها العلمية في القرن العاشر، أن معظمها يقع في ألمانيا. والواقع أننا إذا بحثنا عن مكان ظل فيه التراث الكارولنجي حيا في القرن العاشر، فلن نجد سوى ألمانيا حيث انتعشت الحضارة في عصر ملكها المعروف باسم أوتو الأول. وقد دفع ذلك المؤرخين الألمان إلى إطلاق اسم « النهضة الأوتية Ottonian Renaissance » على تلك الحركة الفكرية

---

(١) سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطى ج١ ص٢٩٤ — ٢٠٠

(٢) المرجع السابق ج ١ ٢٦٣ — ٢٦٨.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 6, p. 521.

(٤) مؤرخة وكاتبة ألمانية، قضت حياتها منذ سنة ٩٥٩ في أحد أديرة ألمانيا وتركت كثيراً من الكتابات والأشعار.

التى شهدتها ألمانيا فى القرن العاشر . وهكذا نجد أنه فى الوقت الذى تدهورت أحوال فرنسا وإيطاليا نتيجة العوامل السابق بيانها ، أخذت البلاد الألمانية — لاسيما سكسونيا — تسير فى طريق النهضة والتقدم . وساعد على ذلك التقدم أن الامبراطور أوتو الأول أو العظيم (٩٣٦ — ٩٧٣) اقتفى أثر شارلمان ، لا فى إحياء الامبراطورية فحسب ، بل أيضاً فى استمالة العلماء إلى بلاده لتغذية الحركة الثقافية التى تعهدها الامبراطور نفسه وأخوه برونو Bruno رئيس أساقفة كولونيا . ومن أمثلة العلماء البارزين فى النهضة الأوتية ستفن Stephon النحوى وأصله من بافيا ، وراثريوس Ratherius اللاهوتى الذى كان أسقف ليبج وفيرونا ، والشاعر ليو الفركلى Leo of Vercellé وليتوبراند الكريموناوى Liutprand of Cremona وغيرهم .

على أن هذه النهضة الأوتية أو الألمانية سرعان ما اعتراها الوهن والضعف فى القرن الحادى عشر . حقيقة إن بعض الأباطرة الألمان الذين خلفوا أوتو العظيم — مثل هنرى الثانى وهنرى الثالث وهنرى الرابع — كانوا على قسط كاف من التعليم ، واشتهر بعضهم بميوله الثقافية ؛ كما أن الأدب اللاتينى فى أوائل القرن الحادى عشر يستطيع أن يفخر بما كتبه برخارد أسقف وورمز (ت ١٠٢٥) وأوطلوه Otloh الراهب بدير رجنزبورج ، ونوتكار الراهب بدير سانت جال (ت ١٠١٢) وغيرهم ، ولكن هذا النشاط الفكرى لم يجد سنداً قوياً فى بلاط الملوك والأمراء ، فى الوقت الذى تعرضت الحيـــاة الديرية لدور من أدوار الأفول والتدهور التدريجى . وهكذا نلاحظ على النهضة الأوتية أنها لم تنبعث من داخل ألمانيا ذاتها ، وإنما يرجع الفضل الأول فى ازدهارها إلى الإتصال بين ألمانيا وإيطاليا ، بعد أن ارتبط البلدان برباط قوى فى ظل الإمبراطورية الرومانية المقدسة . أما أثر فرنسا فى قيام النهضة الأوتية ، فيرجع إلى تردد رجال الدين الألمان على المدارس الديرية فى شمال فرنسا ، ثم إلى جهود الديريين — الكلونيين والسسترشيان — الذين انتشروا فى ألمانيا للقيـــام برسالتهم فى إصلاح الحياة الديرية .

ومهما كان الأمر ، فإنه فى الوقت الذى أخذت النهضة الأوتية تتعرض للذبول

السريع ، أخذت تظهر فى الأفق بوادر تشير إلى أن أوربا على أبواب تغيير شامل ، أو نهضة جديدة عظيمة فاقت كل ماسبقها من نهضات فى العصور الوسطى. وفى هذه المرة لم يكن مركز النهضة الجديدة فى ألمانيا بقدر ما كان فى إيطاليا وفرنسا . وتعرف هذه النهضة الجديدة — التى خصصنا لها الباب الآتى — باسم النهضة الوسيطة أو نهضة القرن الثانى عشر .

وكل ما نريد أن نؤكده الآن هو أن ركاب الحضارة الأوربية لم يتوقف تماما فى الفترة الواقعة بين نهضتى القرن التاسع والقرن الثانى عشر[1] ؛ وأن الحضارة الفرنسية فى القرن الحادى عشر تمتد جذورها حتى ترتبط بذيول الحضارة الكارولنجية[2] . حقيقة أننا إذا قارنا بين القرنين العاشر والثانى عشر، لوجدنا البون شاسعا بين مستوى أوربا الحضارى فى الحالتين ؛ ولكننا نعود فنؤكد أنه لولا اتصال سلسلة الحضارة والمعرفة فى الفترة المظلمة التى امتدت من سنة ٨٥٠ حتى سنة ١٠٠٠ ، لتعذر قيام النهضة الأوربية التى شهدها القرن الثانى عشر ؛ تلك النهضة التى لانستطيع أن ننكر قيامها على أسس التراث الذى خلفته العصور السابقة سواء فى الدراسات الكلاسيكية الأدبية أو اللاهوتية أو الفلسفية[3] .

وإذا كان للقرن الثانى عشر ميزة أو فضل ، فإن ذلك يرجع إلى التوسع فى دراسة تلك المخلفات الكلاسيكية ونشرها والسير بها قدما نحو الأمام ؛ مع شىء من التجديد والابتكار فى بعض الميادين ؛ كما سنرى فى الصفحات الآتية .

---

(1) Foligno: Latin Thought; p. 92.
(2) Haskins: The Renaissance, p. 24.
(3) Eyre, op. cit: Vol. 3, p. 270.

الباب الثالث

النهضة الأوربية فى القرن الثانى عشر

نقصد بنهضة القرن الثانى عشر التغيرات الحضارية والتطورات الفكرية التى تعرضت لها أوربا فيما بين أواخر القرن الحادى عشر وأوائل القرن الثالث عشر. ونحن لا نستطيع فى الواقع إختيار سنة معينة لتحديد بداية أو نهاية لحركة فكرية وحضارية عظيمة مثل النهضة الوسيطة . فإذا كانت سنة ١٠٩٦ ذات دلالة بالغة فى التاريخ لأنها السنة التى توجهت فيها أولى الحملات الصليبية إلى الشرق ، إلا أننا نخطىء إذا اتخذناها بداية لنهضة القرن الثانى عشر لأن بشائر هذه النهضة ظهرت قبل ذلك بخمسين سنة تقريبا . وإذا اخترنا سنة ١٢٠٤ — وهى السنة التى استولى فيها رجال الحملة الصليبية الرابعة على القسطنطينية — نهاية لتلك النهضة فإننا نكون بذلك قد بترناها وأهملنا جزءاً أساسيا من ذيولها التى ازدهرت فى القرن الثالث عشر . ويبدو أن مهمة تحديد نهاية لنهضة القرن الثانى عشر أخطر وأكثر صعوبة من تحديد بداية لها ، لأن القرن الرابع عشر نما من القرن الثالث عشر ، وهذا الأخير استمد نشاطه الحضارى من القرن الثانى عشر . وعلى ذلك فإننا لا نستطيع بسهولة أن نحدد فاصلا بين نهضتى القرن الثانى عشر ، والقرن الخامس عشر ، وبالتالى لا يمكن أن نحدد نهاية لنهضة القرن الثانى عشر . وكل ما نستطيع أن نقوله هو أن دارس التاريخ يلحظ تيارات حضارية جديدة فى النصف الأخير من القرن الحادى عشر فى النواحى الثقافية والسياسية والاقتصادية والدينية، وأن هذه التيارات أخذت تتبلور حتى ظهرت فى شكل نهضة عامة كبرى فى القرن الثانى عشر ، وهذه النهضة لم يخب لها نور بعد ذلك .

فالقرن الثانى عشر بصفة خاصة يحتل مكانة بارزة فى تاريخ التطور الحضارى لأوربا ، لأنه القرن الذى بدأ بازدهار المدارس الكتدرائية واختتم بظهور أولى الجامعات الأوربية ، التى ظهرت فعلا فى سالرنو وبولونيا وباريس ومونتبليه وأكسفورد . وفى ميدان المعرفة بدأ ذلك القرن بالفنون السبعة الحرة — التى لم

تعرف أوربا غيرها حتى ذلك الوقت — وانتهى بازدهار القانون الرومانى والقانون الكنسى ، واكتشاف جانب جديد من فلسفة أرسطو وعلوم إقليدس وبطليموس السكندرى ، فضلا عن الدراسات والمعارف الإسلامية المتنوعة ، مما أدى إلى مولد آفاق فكرية جديدة فى غرب أوربا . هذا زيادة عما تم فى القرن الثانى عشر من إحياء الأدب اللاتينى الكلاسيكى نثرا وشعراً ، والتقدم بالكتابات التاريخية على اختلاف صورها ، والعناية بالمكتبات وتزويدها بالمراجع المتنوعة . فأية مكتبة فى غرب أوربا — سواء من مكتبات الأديرة أو غيرها — كانت لا تضم سنة ١١٠٠ أكثر من الإنجيل وكتابات آباء الكنيسة وكتب الصلوات وبعض شروح أعلام العصر الكارولنجى ، فضلا عن القليل من المؤلفات العلمية التى كتبها بؤثيوس وغيره . أما سنة ١٢٠٠ فإن المكتبات المعاصرة أضحت تضم مجموعتى القانون الكنسى والمدنى ، فضلا عن كتابات أنسلم وبطرس لمبارد فى اللاهوت وكثير من الكتابات الأدبية والتاريخية والفلسفة العلمية .

ويحسن قبل أن نعالج نواحى النشاط الحضارى المختلفة التى امتدت إليها نهضة القرن الثانى عشر ، أن نبدأ بعرض تاريخى موجز لأحوال غرب أوربا فى ذلك العصر ، لنستطيع أن نخرج من ذلك العرض بفكرة عامة عن مقومات هذه النهضة وبواعثها .

مقدمة تاريخية :

ظل النظام الإقطاعى غالبا على فرنسا فى القرون العاشر والحادى عشر والثانى عشر . وإذا كان الكارلنجيون قد تمكنوا من الاحتفاظ بعرشهم وسط الفوضى التى عمت غرب أوربا عندئذ والثبات فى وجه أطماع كبار الأمراء الإقطاعيين ؛ فإن ذلك يرجع إلى اعتماد الكارولنجيين على مجد أجدادهم وبطولة أسلافهم . وحسب الكارولنجيين فى القرن التاسع أن ينادوا بأنهم سلالة شارلمان ليحصلوا على شىء من التقدير والاحترام . على أن شرف انتساب الكارولنجيين الأواخر إلى شارلمان لم يكف وحده لتمكينهم من الصمود فى وجه خصومهم من كبار

الأمراء ، لاسيا حكام باريس من أسرة كابيه الذين ازدادت مكانتهم بعد أن تمكنوا من صد النورمان عن باريس . مما أدى تتويج أودو كونت باريس سنة ٨٨٨ ملكا بعد خلع شارل السمين آخر الملوك الكارولنجيين فى فرنسا ، وبذلك قامت أسرة كابيه فى الحكم(١) . وربما بدا فى أول الأمر أن انتصار آل كابيه جاء انتصارا للأمراء الإقطاعيين على الملكية الفرنسية ، ولكن إذا دققنا النظر لوجدنا أن نفوذ الأمراء الإقطاعيين بلغ عندئذ درجة من القوة جعلتهم خطراً على آل كابيه أنفسهم ، مما جعل ملوك فرنسا الجدد يعملون جاهدين لتقليم أظافر كبار الأمراء . وهكذا استمرت فرنسا فى القرن الثانى عشر مقسمة إلى إقطاعات واسعة كل منها فى قبضة أسرة معروفة أو بيت شهير ؛ ولكل إقطاع منها قوانينه وعاداته ؛ بل إن أكثر من خمسين من كبار الأمراء سكوا النقود الخاصة بهم ؛ فى حين بلغت اللغات واللهجات الرئيسية المستعملة فى فرنسا عشر . أما رجال الدين فقد جرفهم أيضاً التيار الإقطاعى فاتخذوا كثيراً من المظاهر والنظم والأساليب العلمانية ، وتخلوا عن بعض المبادىء الأساسية المتعلقة بوظائفهم الدينية .

وبالإضافة إلى التهديد الداخلى الذى تعرضت له الملكية الفرنسية من جانب الأمراء الإقطاعيين ، فإن هناك خطر خارجى أحاط بها وهددها فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر . وقد أتى هذا الخطر الجديد من جانب الملكية الإنجليزية التى جمعت بين دوقية نورمنديا وعرش انجلترا عندما نجح وليم الفاتح دوق نورمنديا فى غزو انجلترا سنة ١٠٦٦ ، وبذلك بدأت صفحة جديدة فى تاريخ العلاقات بين انجلترا وفرنسا فى العصور الوسطى . ذلك أن ملوك انجلترا النورمان لم يدخروا وسعاً فى تقوية نفوذهم على جانبى المانش عن طريق الربط بين ملكهم فى انجلترا وأملاكهم فى فرنسا ، مما أقلق مضاجع آل كابيه . ونخص بالذكر هنرى الأول ملك انجلترا (١١٠٠ — ١١٣٥) الذى عنى بتنظيم ممتلكات التاج الإنجليزى فى القارة الاوربية ، وكون تحالفاً قوياً ضد لويس السادس ملك فرنسا . ولم يلبث أن ازداد نفوذ ملوك انجلترا واتسع سلطانهم فى القارة عن طريق الوراثة حينا وعن طريق التوسع والاغتصاب أحياناً ؛

(١) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ج١ ص ٢٢٠ .

وبخاصة على عهد هنرى الثانى الذى اعتلى عرش انجلترا سنة ١١٥٤ . ولعل ذلك الخطر هو الذى دفع فيلب أوغسطس ملك فرنسا إلى عقد تحالف سنة ١١٧٧ مع فردريك بربروسا امبراطور ألمانيا ، حتى يتمكن من التغلب على أعدائه ومنهم ملك انجلترا . وهكذا انتهى القرن الثانى عشر وملوك فرنسا فى شغل شاغل بالعمل على إضعاف الملكية الإنجليزية وحرمانها من أملاكها فى القارة[1] .

أما ألمانيا فقد ظل البيت الكارولنجى يحكم جزءاً كبيراً منها منذ تقسيم فردون سنة ٨٥٣ حتى سنة ٩١١ . وعندما توفى لويس الصغير فى هذه السنة الأخيرة كان لكل قسم من أقسام ألمانيا ، وهى فرانكونيا وسوابيا وسكسونيا وبافاريا ، دوق شبه مستقل له الحق فى المشاركة فى انتخاب ملك ألمانيا . ومن أظهر ملوك ألمانيا فى القرن العاشر أوتو العظيم (٩٣٦ — ٩٧٣) الذى عمل على استرداد نفوذ الملكية الألمانية وسلطانها بالضغط على الدوقات الإقطاعيين والحد من نفوذهم ، كما هزم المنغاريين الذين أغاروا على ألمانيا وأمن حدوده الجنوبية والغربية . ولم تلبث أن أتيحت له الفرصة للتدخل فى شئون إيطاليا عندما استنجد به البابا حنا الثانى عشر ضد منافسيه ، فأسرع أوتو لنجدة البابا الذى رد له الجميل بتتويجه امبراطوراً فى روما سنة ٩٦٢ : وبذلك قامت الإمبراطورية الرومانية المقدسة تحت قيادة أباطرة ألمانيا[2] .

على أن قيام هذه الإمبراطورية سرعان ما تسبب فى مشاكل كثيرة للبابوات والأباطرة جميعاً . ذلك أن النزاع سرعان مادب بين الطرفين حول مبدأ السيادة والسمو ، ولم يلبث هذا النزاع أن تفاقم واشتد وتحول إلى حروب سافرة استمرت إلى ما بعد منتصف القرن الثالث عشر . ولا يهمنا فى هذا المقام من أمر ذلك النزاع الطويل سوى أنه عاد بأوخم العواقب على الامبراطورية ونفوذ الأباطرة فى ألمانيا . فعناد البابوات وتمسكهم بحقوقهم جعل الأباطرة يستنفدون جهودهم وإمكانيات دولتهم فى كفاح البابوية . هذا إلى أن اتحاد إيطاليا مع ألمانيا فى

---

(١) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ج ١ ص ٢٧٣ .

(٢) المرجع السابق ج ١ ص ٢٧٣ .

ظل الامبراطورية المقدسة اعتمد على القوة وحدها ، فكان لواما على أباطرة ألمانيا أن يبذلوا جهوداً جبارة للاحتفاظ بسلطانهم فى إيطاليا ؛ فى الوقت الذى هم أحوج ما يكونون إلى بذل تلك الجهود لتدعيم نفوذهم وسلطانهم فى ألمانيا[١] .

أما إيطاليا فكانت تعانى الشىء الكثير من الفوضى فى القرن العاشر . فالبيزنطيون احتفظوا بنفوذهم فى الجزء الجنوبى من شبه الجزيرة ، فى حين تفتت دوقية بنفنتو Benevento إلى أقسام صغيرة . أما روما فكان يحكمها شخص يدعى ألبرك Alberic على رأس ارستقراطية إقطاعية ، وعندما توفى ذلك الرجل سنة ٩٥٤ ترك الحكم لإبنه اكتافيان الذى جمع بين سلطته السياسية والوظيفة البابوية متخذاً اسم البابا حنا الثانى عشر . وقد رأينا كيف أن سياسة هذا البابا أدت إلى مد نفوذ حكام ألمانيا فى إيطاليا ، كما تسببت فى قيام الامبراطورية الرومانية المقدسة . أما شمال إيطاليا فقد بدأت تظهر فيه منذ القرن الحادى عشر قوة جديدة هى قوة المدن اللمباردية التى أخذت تعمل على التحرر من وطأة الأمراء الإقطاعيين حتى استطاعت بفضل نشاطها الاقتصادى أن تحصل على ثروة طائلة مكنتها من الاستقلال بإدارة شئونها . ولم يلبث التنافس التجارى بين المدن اللمباردية المستقلة - وهى التى عرفت باسم القومونات Communes - أن أدى إلى تكتلها فى حلقين متضادين أحدهما بزعامة ميلان والثانى بزعامة بافيا . على أن المهم فى هذه الحركة القومونية هو أنها أخذت تتسع حتى امتدت إلى روما نفسها ، فقام أهلها بثورة سنة ١١٤٢ ضد البابا انوسنت الثانى يطلبون تحويل روما هى الأخرى إلى قومون - أى وحدة مستقلة يقوم أهلها بحكمها - ، حتى انتهى الأمر بعد ذلك بعامين بطرد البابا من روما[٢] . وعبثا حاول البابوات الاستنجاد بحكام ألمانيا حتى إذا ما كانت سنة ١١٥٤ هب فردريك بربروسا ملك ألمانيا لمساعدة البابا أدريان الرابع (١١٥٤ — ١١٥٩) ، واستطاع فردريك إخضاع القومونات اللمباردية وأعاد البابا إلى روما حيث تم تتويج فردريك امبراطوراً سنة ١١٥٥ [٣] . ولم ترض القومونات بذلك الوضع الجديد ،

---

(١) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ج ١ ص ٣٣٦ .

(2) Cam. Med. Hist. Vol. ; 371.

(٤) Ibem ; p. 421.

ولم تغفر لإمبراطور ألمانيا فعلته ، فانتهزت فرصة تجدد النزاع بين البابوية والإمبراطورية ، وانضمت إلى الجانب الأول وكونت فيما بينها حلفاعرف باسم الحلف اللمباردى (سنة ١١٦٧) [١] .. وهكذا اضطر الامبراطور بعد صراع مرير مع المدن اللمباردية إلى عقد صلح نهائى معها سنة ١١٨٣ ، ترك لها بمقتضاه الحرية التامة فى تصريف جميع شئونها على أن تعترف للامبراطور بسيادة اسمية. وبذلك اطمأنت المدن الإيطالية على مصيرها وسيادتها وأخذت توجه جهودها نحو الإنشاء الحضارى والنشاط الإقتصادى [٢] .

أما عن صقلية فقد ظلت فيما بين القرنين التاسع والحادى عشر ميدانا للنزاع والتنافس بين عدة قوى أوربية وافريقية وأسيوية وعلى الرغم من أن إغارات العرب على صقلية بدأت فى القرن السابع ، إلا أن الغزو الإسلامى للجزيرة لم يتخذ صفة شاملة إلا فى القرن التاسع عندما اندفع المسلمون نحو صقلية على هيئة موجات كبيرة وافدة من شمال إفريقية ومن الأندلس . وهناك فى جزيرة صقلية استقر المسلمون نحو قرنين ونصف (٨٢٧ — ١٠٩٠) ، استمرت طوالها الإمبراطورية البيزنطية تعمل لإسترداد الجزيرة ، مما جعل مدنها كالكرة تتلاقفها أيدى البيزنطيين والعرب حتى بدأ غزو النورمان للجزيرة سنة ١٠٦١ . ولم ينته القرن الحادى عشر إلا وكان النورمان قد استولوا على صقلية كلها ؛ وبذلك وجدت الحضارة الإسلامية فى صقلية راعياً جديدا لها فى أشخاص الملوك النورمان الذين شجعوا الدراسات العربية ، من علوم وآداب .

ولم يكتف النورمان بالسيطرة على صقلية ، وإنما أخذوا يتوسعون فى جنوب إيطاليا مما أفزع البابوية ، فهبت تدافع عن نفسها أمام ذلك الخطر الجديد . وتطور الأمر إلى حرب سافرة بين البابا هنريوس الثانى (١١٢٤ — ١١٣٠) وروجر الثانى ملك صقلية. وأخيراً اضطر البابا إلى الإذعان للأمر الواقع والتسليم بسيطرة ملوك صقلية النورمان على جنوب إيطاليا ، ومن ثم اكتسبت مملكة النورمان فى صقلية وجنوب إيطاليا اسم مملكة الصقليين .

---

(1) Idem ; p. 438.

(٢) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ج ١ ص ٢٥٢ .

أما أسبانيا التى فتحها العرب فى أوائل القرن الثامن الميلادى (سنة ٧١١) وأقاموا فيها دولة إسلامية كبيرة ، فقد أصبحت وطنا جديدا للثقافة العربية وازدهرت فيها مختلف العلوم والدراسات التى عرفها العرب سواء فى الأدب والفلسفة أو فى الكيمياء والطب والفلك والرياضيات والموسيقى وغيرها . لذلك أخذ طلاب العلم يفدون إلى الأندلس من مختلف البلاد الأوربية ، وبخاصة إيطاليا وفرنسا — لينهلوا من ذلك المنهل العلمى الصافى ، مما ساعد على ازدهار النهضه الأوربية فى القرن الثانى عشر . ولم يقلل من ذلك النشاط العلمى جهود مسيحى أسبانيا فى استرداد أراضيهم من المسلمين ، وهى تلك الجهود التى بدأت بقيام بعض الممالك المسيحية فى شمال أيبريا — مثل أرغونة وقشتاله ونافارى (نواره) وليون — والتى انتهت فى أواخر القرن الخامس عشر بطرد البقايا العربية نهائياً من شبه الجزيرة [1] .

وأخيراً نختتم هذا العرض التاريخى بالإشارة إلى الحروب الصليبية ، تلك الحروب التى تقع مرحلتها الحاسمة بين سنتى ١٠٩٦ ، ١٢٩١ — أى بين نهاية القرن الحادى عشر ونهاية القرن الثالث عشر ، وبالتالى فقد شهد القرن الثانى عشر مرحلة حاسمة نشطة من مراحلها . وليس هذا مجال الكلام عن أسباب الحروب الصليبية وأدوارها ، وإنما نكتفى فى دراستنا للحضارة الأوربية بالإشارة السريعة إلى آثار تلك الحروب فى الحياة الأوربية بوجه عام . فمن الناحية السياسية نتج عنها ازدياد نفوذ البابوية [2] ، كما نتج عنها إضعاف النظام الإقطاعى — وبصفة خاصة فى فرنسا وإيطاليا — الأمر الذى ترتب عليه تحرر المدن وظهورها عاملا فعالا فى التطور الحضارى لأوربا من جهة ، كما ترتب عليه من جهة أخرى ازدياد نفوذ الملكيات الأوربية لاسيما الملكية الفرنسية. ذلك أن الأمراء الإقطاعيين باعوا كثيراً من أراضيهم لينفقوا على ما أعدوه من حملات صليبية . ولما اشتدت حاجتهم إلى مزيد من الأموال ، باعوا المدن ما كانت ترغب فيه من حريه واستقلال وامتيازات ، فصارت تلك المدن بمثابة دويلات مستقلة داخل الدولة الإقطاعية [3] . هذا بالإضافة إلى أن الحروب الصليبية أظهرت

---

(١) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ج ١ ص ٥٣٠—٥٣١ .

(2) Cam. Med. Hist. ; Vol. V ; p. 322.

(3) Cam. Med. Hist. ; Vol. V ; p. 328.

فوارق وروح التنافس بين مختلف الشعوب الأوربية كالفرنسيين والإنجليز والألمان . ومن الناحية الإقتصادية ترتب على الحروب الصليبية تشجيع التجارة بين الشرق والغرب . وقد استفادت من ذلك المدن الإيطالية بوجه خاص ، وهى المدن التى احتكرت التجارة مع الشرق وصار لكل منها أحياء وفنادق خاصة فى مدن الشرق الهامة ، تمارس فيها نشاطها التجارى . وترتب على ذلك تدفق الأموال على الغرب مما ساعد على إنعاش الحضارة ونشاط الأعمال المصرفية[1] . هذا عدا الآثار الاجتماعية والثقافية التى ترتبت على الحروب الصليبية والتى أدت إلى تغيير أفق الحياة الأوربية[2] .

أسباب نهضة القرن الثانى عشر وعواملها :

من هذا العرض التاريخى الموجز نستطيع أن نتلمس العوامل الرئيسية التى أدت إلى قيام نهضة أوربية شاملة فى القرن الثانى عشر . فمن هذه العوامل ما لاحظناه منذ أواخر القرن الحادى عشر من تقدم ونشاط تجارى . لاسيما فى شمال إيطاليا ـ وماصحب ذلك النشاط من نمو المدن وتقدم الحضارة والحياة الفكرية ، فليس هناك من شك فى أن الانتعاش الاقتصادى والتقدم الاجتماعى الذى أصابته تلك المدن أدى إلى شعورها بالحاجة إلى تنظيم قوانينها لتحديد نظمها الإدارية من ناحية ، وتحديد علاقاتها مع غيرها من الوحدات السياسية من ناحية أخرى : الأمر الذى ساعد فى إحياء الدراسات القانونية التى ظهرت فى إيطاليا فى القرن الثانى عشر والتى تعتبر من أهم مظاهر النهضة الأوربية فى ذلك القرن[3] . وكذلك أدى النشاط الاقتصادى لهذه المدن إلى ظهور رؤوس الأموال واتساع نطاق الأعمال المصرفية بشكل لم تعهده أوربا من قبل[4] .

---

(1) Idem ; p 327.

(٢) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ج ١ ص ٤٢٧ — ٤٢٩ .

(3) Cam. Med. Hist. Vol. V; p. 234.

(4) Barker : The European Inheritance ; Vol. 1 5p. p. 384—388 & أوربا العصور الوسطى ج ٢ ص ١٢ — ١٢٢

ولكننا مع ذلك لا نميل إلى المبالغة فى أثر النشاط الاقتصادى للمدن الإيطالية بالنسبة للنهضة الوسيطة فى القرن الثانى عشر . فإذا كان الكتاب المتأخرون يربطون دائماً بين قيام النهضة الإيطالية فى القرن الخامس عشر ونشاط المدن الإيطالية فى الميدان الاقتصادى ؛ إلا أننا لا نستطيع الربط بين الحقيقتين فيما يتعلق بالنهضة الوسيطة . فالمعروف أن هذه النهضة الأخيرة لم تكن إيطالية بحته . ولم يرتبط مولدها بإيطاليا وحدها . فإذا صح المبدأ السابق على إيطاليا فى القرن الثانى عشر وقلنا إن النهضة فيها ارتبطت بنمو القومونات الايطالية ونشاطها ، فإن هذا الحكم لا يصح على غيرها من البلاد الأوربية فيما وراء جبال الألب — مثل فرنسا — حيث بدت مظاهر النهضة فى القرن الثاني عشر غير مصحوبة بنشاط تجارى أو اقتصادى غير عادى . هذا مع ملاحظة ان الطبقة الوسطى التى قامت على أكتافها القومونات وجهت نشاطها نحو الميادين الاقتصادية والسياسية ، ولم تسهم بقدر بارز فعال فى النشاط الفكري والعلمي ولم يكن ذلك إلا فى القرن الرابع عشر عندما أخذ أبناء تلك الطبقة يوجهون نشاطهم نحو الميدان الثقافى والفكرى [١] .

وثمة عامل آخر ساعد على قيام النهضة الأوربية فى القرن الثانى عشر هو روح الاستقرار التى تمتعت بها بلاد غرب أوربا فى القرن الحادى عشر بعد أن انتهت أخطار الفيكنج والمغاربيين من جهة وأخذت الأوضاع الاجتماعية والسياسية والدينية تستقر من جهة أخرى . وقد أدى هذا الاستقرار والسلام إلى نشاط الاتصال الحضارى والتجارى بين الدول الأوربية بعضها وبعض ، كما أدى إلى التفرغ للنواحى الثقافية والحضارية [٢] . وهكذا أخذ بعض ملوك أوربا — مثل الملوك النورمان بصقلية وهنرى الثانى بانجلترا — يتجهون نحو تشجيع النشاط الفكرى فى بلادهم . ويصح أن نشير بالذات إلى أن الغزو النورمانى لصقلية وجنوب إيطاليا أدى إلى ازدهار حركة الترجمة عن اليونانية ، كما ساعد على ازدهار هذه الحركة نمو العلاقات الاقتصادية بين القسطنطينية من جهة

---

(1) Pirenne : Medieval Cities ; p. 239.

(2) Rashdall : The Universities of Europe in the Middle Ages ; Vol. 1 ; p.p. 32 - 33.

والقوميات الإيطالية من جهة أخرى . هذا فى الوقت الذى أعطى الملوك النورمان بصقلية الثقافية العربية حقها كاملا من الرعاية والتشجيع .

أما الكنيسة فقد أسهمت فى قيام النهضة الأوربية فى القرن الثانى عشر عن طريق الإنفاق على الرحلات التى يقوم بها رجال الدين . وعن طريق العناية بالكتب ونسخها . هذا إلى أن ازدياد نفوذ البابوية وسلطانها نتيجة للحروب الصليبية وموقفها الصلب من الإمبراطورية ، جعلها قبلة المعاصرين — وخاصة من رجال الدين — فأصبحت الطرق فى غرب أوربا تمج بالحجاج القاصدين روما أو غيرها من الأماكن المقدسة مثل كومبوستيلا Compostela[1] . ونتج عن ذلك ازدياد الروابط الثقافية والفكرية بين مختلف أنحاء أوربا وظهور كثير من ملاحم الحجاج وأغانى المآثر (Chansons de Gestes)

وأخيراً يلاحظ أن توسع المسيحيين فى أسبانيا أدى إلى ازدهار النهضة الأوربية فى القرن الثانى عشر . ذلك أن ضغط القوى المسيحية على المسلمين واستيلائهم على طليطلة سنة ١٠٨٥ وسرقسطه ١١١٨ جعلهم يعثرون على مئات المراجع العربية فى مختلف العلوم والفنون . وكلما ازداد توسع المسيحيين فى أسبانيا اكتشفوا كنوزاً جديدة من الكتب العربية . فهرع علماء الغرب وطلابه إلى أسبانيا ليترجموا علوم العرب وكتبهم ويرووا ظمأهم من ذلك المنهل الصافى . وإلى هذه العلوم العربية التى ترجمت إلى اللاتينية يرجع الفضل الأكبر فى ازدهار كثير من الدراسات الجديدة فى غرب أوربا منذ القرن الثانى عشر .

مميزات نهضة القرن الثانى عشر :

ساعدت هذه العوامل وغيرها على قيام نهضة أوربية عظيمة فى القرن الثانى عشر ، لاتقل أهمية فى بناء صرح الحضارة الأوربية عن نهضة القرن الخامس

---

(١) كومبوستيلا أو سنتياجو Santiago مركز لكتدرائية شهيرة فى غاليسيا فى الركن الشمالى الغربى لشبه جزيرة ايبريا واعتاد كثير من حجاج المسيحية زيارة ذلك المكان للتبرك بضريح القديس يعقوب .

عشر أو عن الثورة الفرنسية الكبرى[1] . ولكن هل كانت هذه النهضة من نوع النهضة الكارولنجية التي تكلمنا عنها في الباب السابق . أم من نوع النهضة الإيطالية في القرن الخامس عشر والتي أفردنا لها الباب الآتي ؟ الواقع أن نهضة القرن الثاني عشر ربما شابهت نهضة القرن التاسع السابقة لها ونهضة القرن الخامس عشر اللاحقة بها في المداول العام لإصطلاح « النهضة » ، أعني أن كلا من هذه النهضات الثلاث عبرت عن نشاط فكري وحضاري عظيم . ولكن إذا دققنا النظر في التفاصيل ، وجدنا اختلافاً كبيراً يميز نهضة القرن الثاني عشر عن نهضتي القرن التاسع والقرن الخامس عشر . فالنهضة الكارولنجية — كما رأينا — جاءت نهضة مصطنعة ، اصطنعها شارلمان وتعهدها بالرعاية والتشجيع حتى أصبح مركزها الأساسي بلاط شارلمان وخلفائه المباشرين . وارتباط هذه النهضة ببلاط ملك أو أسرة معينة جعلها قصيرة العمر ، سريعة الزوال ، لأن مصيرها غدا مرتبطاً بمصير البيت الكارولنجي . فلما انقسمت امبراطورية الفرنجة في القرن التاسع انطفأت شعلة النهضة الكارولنجية . أما نهضة القرن الثاني عشر ، فلم تكن ربيبة بلاط ملك معين أو أسرة بعينها ، ولم تنشأ لأن أحد الملوك أراد لها أن تنشأ ، وإنما جاءت حركة طبيعية تضافرت عوامل عدة لازدهارها وانتعاشها لذلك جاءت هذه النهضة أطول عمراً وأكثر استمراراً وأوسع أفقاً وأشد أثراً من النهضة الكارولنجية .

وثمة فارق آخر هام بين نهضتي القرن التاسع والثاني عشر ، هو أن الغرض الأساسي من الأولى كان رفع رجال الدين من الفرنجة إلى مستوى ثقافي لائق . وإذا كانت النهضة الكارولنجية قد تخطت هذه الغاية فيما بعد نحو تشجيع العلم بين العلمانيين ، فإن ذلك جاء عن غير قصد . ولعل اتجاه النهضة الكارولنجية نحو تحقيق هذا الغرض الأساسي ، هو الذي جعلها حركة إحياء Revival أكثر منها حركة ابتكار وتجديد ، وبعبارة أخرى فإن النهضة الكارولنجية حافظت على التراث القديم أكثر مما جددت فيه وأضافت إليه . أما نهضة القرن الثاني عشر فلم تكن مصطنعة — كما سبق أن ذكرنا — ولذلك لم يكن لها هدف

---

(1) Eyre : op. cit. . Vol. 3 ; p. p. 269—270.

معين سوى إشباع غريزة الاطلاع والرغبة الملحة فى التعلم وتثقيف الفكر لذلك لم تقف جهود أبناء القرن الثانى عشر فى غرب أوربا عند حدود إحياء الدراسات القديمة وإنما تعدتها نحو الإنشاء والابتكار والتجديد فى مختلف ميادين النشاط الفكرى . ففى الأدب ظهرت فى القرن الثانى عشر ألوان جديدة من النثر والشعر ، وفى الفن ظهر طراز جديد هو الطراز القوطى ، وفى نظم التعليم ظهر نوع جديد من التعليم العالى ممثلا فى الجامعات ، وفى الفلسفة ظهرت آفاق جديدة واسعة ، فى حين أحرزت العلوم كالهندسة والطب والفلك تقدما كبيرا لم يعهده الغرب من قبل .

فإذا تركنا النهضة الكارولنجية لنقـــارن بين نهضتى القرن الثانى عشر والقرن الخامس عشر ، فإننا نجد أن الأخيرة ارتبط مولدها ببلد واحد هو إيطاليا . ومن إيطاليا انتشرت وانتقلت تدريجيا إلى بقية بلاد غرب أوربا . أما نهضة القرن الثانى عشر فلم يرتبط مولدها ببلد معين ، فإذا كانت إيطاليا قد أسهمت فى هذه النهضة عن طريق رعاية الدراسات القانونية وعن طريق الترجمة عن اليونانية ، فإن فرنسا هى الأخرى قامت بدور رئيسى فى الدراسات الفلسفية واللاهوتية . وحسب فرنسا أن نشأت بها جامعة باريس أم الجامعات الشمالية فى أوربا ، كما ازدهر بها الفن القوطى . هذا فى الوقت الذى قامت أسبانيا بدور المعبر الرئيسى فى نقل التراث العربى إلى غرب أوربا . أما انجلترا وألمانيا فقد أسهمتا أيضاً فى نهضة القرن الثانى عشر ، ولو بنصيب محدود .

كذلك نلاحظ أن كلا من نهضتى القرن الثانى عشر والقرن الخامس عشر استمدت أصولها من منابع شرقية ، علاوة على الأصل اللاتينى الغربى . ولكن الفارق بين النهضتين هو أن النهضة الإيطالية فى القرن الخامس عشر اعتمدت فى منبعها الشرقى على التراث اليونانى فقط ووجهت جهودها نحو إحياء هذا التراث والاستفادة منه . أما نهضة القرن الثانى عشر فاعتمدت فى منبعها الشرقى على التراث العربى الإسلامى كما اعتمدت على التراث اليونانى .

على أننا نلاحظ أن نهضة القرن الثانى عشر لم يقترن مولدها بالبذخ والثراء وتعدد الكفايات الفردية النادرة ، وهى الظواهر التى صحبت نهضة القرن الخامس

عشر عند نشأتها . هذا إلى أن الميول والاتجاهات الفنية الرفيعة لم تكن قد نضجت بعد فى القرن الثانى عشر . حقيقة أن هذه النهضة الوسيطة شهدت ازدهار الفن ، ولكنه فن مرتبط بالطراز والنمط لا بالأفراد والفنانين والعبقريات الفردية الخالدة التى امتازت بها النهضة الإيطالية فى القرن الخامس عشر .

الكتب والمكتبات :

وقبل أن نبدأ دراسة النشاط الفكرى فى غرب أوربا فى القرن الثانى عشر، لابد من أن نلقى نظرة على أحوال الكتب والمكتبات فى ذلك العصر . لأنه من المعروف أن دراسة الحياة الفكرية لعصر من العصور تتطلب الوقوف على نوع الكتب التى تناولتها الأيدى فى ذلك العصر . والظروف التى أحاطت بها من حيث تداولها واستعمالها وكيفية نسخها فنحن إذا اطلعنا على قائمة بأسماء الكتب التى وجدت بمكتبة أحد الأديرة فى القرن الثانى عشر . نستطيع فى سهولة أن نكون فكرة عامة عن المستوى الثقافى لأهل ذلك الدير بدراسة مادة الكتب التى اتخذوها غذاءا عقلياً لهم .

ويحسن من أول الأمر أن نشير إلى أن أهالى الغرب فى العصور الوسطى لم يعرفوا المكتبات المنظمة التى نعرفها اليوم . فعندما يذكرون لفظ مكتبة فى تلك العصور كانوا لا يقصدون بهذا اللفظ بناء مستقلا أو حتى غرفة قائمة بذاتها مخصصة لحفظ الكتب ، لأن اللفظ الشائع الذى استخدم عندئذ للتعبير عن المكتبة كان لفظ Armorium ومعناه خزانة الملابس أو غرفة نسخ الكتب . هذا إلى أن الكتب الخاصة بالدير أو الكنيسة لم تتجاوز مجموعة صغيرة توضع على أرفف الحائط ويقدر عددها ببضع عشرات ، وإن وصلت أحياناً إلى عدة مئات فى مكتبات بعض الأديرة الشهيرة مثل دير كوربى Corbie . ولكن ليس معنى هذا التقليل من أهمية تلك المكتبة فى حياة الدير ، إذ روعى فيها دائماً أن تحوى من الكتب ما يكفى حاجة كل راهب فى الدير من القراءة طيلة العام . وقد بلغ من

أهمية المكتبة فى حياة الدير أن قال المعاصرون : « دير بدون كتب كحصن بدون ذخيرة»[1] .

على أن هذه المجموعات الصغيرة من الكتب التى حوتها مكتبات الأديرة سرعان ما أخذت تنمو عن ثلاثة طرق ، هى : الشراء ، والهدايا ، والنسخ . ويلاحظ أن عادة شراء الكتب لم تكن شائعة فى العصور الوسطى لعدم وجود نساخ محترفين يرتزقون من وراء هذه الحرفة ، وعدم وجود أسواق عامة لشراء الكتب وبيعها فى أوربا . وإذا وجدت هذه الأسواق فى القرن الثانى عشر ، فإنها كانت قليلة فى البيئات العلمية مثل بولونيا وباريس حيث ظهرت أولى الجامعات الأوربية فى العصور الوسطى. ولهذه الأسباب ظلت المخطوطات نادرة الاستعمال ، لا سيما كتب الترتيل الكبيرة التى تحوى الترانيم الدينية ، حتى أننا نسمع عن شراء إنجيل كبير فى ذلك العصر بمبلغ ١٠ تالنت ، أى مايقرب من ألفين ومائة وخمسين جنيهاً[2] . كذلك نسمع أن كتاباً دينياً آخر يحوى مجموعة من الصلوات والطقوس بيع مقابل مزرعة كروم. وفى سنة ١٠٤٣ اشترى أسقف برشلونة مجلدين من يهودى مقابل منزل وقطعة أرض .

أما الكتب المهداة إلى الأديرة والكتدرائيات فكانت تسجل عادة الظروف المحيطة بإهدائها فى سجلات الدير . وانحصرت هذه الظروف غالبا فى دخول أحد الرهبان الجدد الدير وإهدائه مكتبته إليه ، أو أن يقدم أحد المسافرين أو عابرى السبيل بعض الكتب إلى الدير مقابل مايلقاه من أهله من حسن استقبال وكرم وضيافة . على أن الحالة الغالبة هى أن كثيرين من الخيرين اعتادوا أن يوصوا بإهداء كتبهم عند وفاتهم إلى دير معين أو كنيسة معروفة . وهكذا وضعت كتدرائية روان Rouen عند مصب السين قائمة طويلة بأسماء الكتب التى أهداها إليها فى القرن الثانى عشر رئيس الأساقفة روترو Rotrou (١١٦٥ — ١١٨٣) . وفى سنة ١١٦٤ أوصى فيليب أسقف بايو Boyeux بمائة وأربعين مجلدا لدير بك Bec .

---

(1) Haskins : The Renaissance ; p. 71.

(٢) التالنت Taleut مثقال استخدمه اليونانيون القدامى فى الوزن ويبلغ ٢٦ كيلو جرام تقريبا . وقد أطلق الإسم أيضا على العملة التى يبلغ وزنها تالنت من الذهب أو الفضة . ومعنى هذا أن قيمة عملة التالنت تراوحت بين ٢١٣ ، ٢٣٥ جنيها .

ومهما كان أمر تلك الهدايا ، فإن الطريق الرئيسي الذي غذى مكتبات الأديرة بما يلزمها من كتب في العصور الوسطى ، كان نسخ الكتب في الأديرة ذاتها . حيث توافرت الأيدي اللازمة لهذه العملية فيعمل الرهبان في الكتابة والنسخ دون أي أجر او مقابل لأن هذا العمل اعتبر جزءا من عملهم اليومي داخل الدير . وفي الوقت نفسه أمكن للدير الحصول على أدوات الكتابة ومستلزماتها من مزرعته أو ضيعته . وقد أعفى النظام البكلوني النساخ من بعض الواجبات الدينية داخل الدير ليتفرغوا لعملهم ، كذلك نادى بعض أقطاب ذلك النظام بأن العمل في نسخ الكتب داخل الدير مقدم على العمل في مزارع الدير . أما نظام السسترشيان Cistercian فقد أعفى النساخ من العمل في الحقل ، اللهم إلا في وقت الحصاد . وكذلك نظام الكارثوسيان Carthusian الذي جعل النسخ واجبا مفروضا على أعضائه . وهكذا نجد الأنظمة الديرية الشهيرة على اختلاف أنواعها في القرنين الحادي عشر والثاني عشر ، تجمع كلها على ضرورة العناية بنسخ الكتب . وتحاول شحذ همم ناسخيها عن طريق إغرائهم بأن كل حرف وكل كلمة ينسخها أحدهم تمحو ذنبا من ذنوبه . ولكن يبدو أن حمل الرهبان على الاستمرار في عملية النسخ - وهي عملية شاقة - كان أمر متعذرا ، ولذلك أخذت الحاجة تزداد شيئا فشيئا إلى النساخ المأجورين .

والواقع إن عملية نسخ الكتب كانت حقا مهمة صعبة في تلك العصور ، حتى أن كثيرا من الكتاب الصبورين اضطروا إلى الكف عن النسخ بعد أن تورمت أصابع أيديهم من كثرة الكتابة وشدة البرد . وحسبنا أن نتذكر أن عملية الكتابة في تلك العصور كانت أشبه بعملية نحت في جلود الحيوانات المجففة يقضي الكاتب أمامها الساعات الطوال وهو يمسك بقلم هو إلى العصا أقرب . مما يستنفد منه جهدا دونه أي جهد آخر . لذلك لم يكن عجبا أن يرسل الكاتب آيات الحمد والشكر لله عند الفراغ من مهمته الشاقة ، فنجد معظم الكتب المعاصرة تختم بالعبارة التقليدية « تم الكتاب شكرا لله Explicit, Deo Gratias » وفي بعض الأحيان يتبع الكاتب ذلك الحمد بدعاء . كأن يطلب جنس المثوبة

من الله أو أن يرجو الإنعام عليه بأكلة شهية أو أوزة سمينة وما تيسر من الخمور[1].

ومعظم ما وصل إلينا من كتب غربية ترجع إلى القرن الثانى عشر منسوخة على رقائق من جلود الحيوانات (Parchment) لأن البردي بطل استعماله فى الكتابة منذ أوائل العصور الوسطى . فى حين أن ورق الكتابة الحالى الذى عرفه الأوربيون من العرب لم يكن استعماله قد انتشر بعد فى الغرب الأوربى . وتفاوتت هذه الجلود فى نوعها وقيمتها حسب أعمار الأغنام ، فكلما صغر عمرها صارت جلودها أرق وأصلح للكتابة . وبعد تجفيف هذه الجلود وإعدادها كانت تقسم إلى ملازم وتسطر ، وبذلك تصبح مهيأة للكتابة[2] . وقد تباينت مخطوطات ذلك العصر تبايناً واضحاً فى الحجم ، فبينما بعض نسخ الإنجيل والكتب الدينية ضخمة الحجم ومدونة بخط عريض ، إذا بالبعض الآخر يمتاز بصغر الحجم وبساطة الخط مع وضوحه ، حتى ليصبح من السهل أن يضع الفرد كتاباً من هذا النوع فى جيب ردائه .

وكان الشطر الأول من القرن الثانى عشر عصراً ذهبياً بالنسبة للكتابة وفن الخط فى العصور الوسطى ، لأن الكتابة ظلت عندئذ محتفظة بطابع الوضوح والبساطة الذى لازمها منذ العصر الكارولنجى ، بعكس ما حدث بعد ذلك من دخول تحويرات كثيرة فى الخط ، فضلا عن الاختزالات التى شاع استعمالها فى القرن الثالث عشر عندما ظهرت الحروف المتشابكة التى زادت الكتابة تعقيداً . كذلك كان القرن الثانى عشر عصر تجديد وإحياء فى فن الكتابة من حيث العناية بتصوير الكتب وتزيينها ، كما ظهر فى الاهتمام بالأحرف الأولى (Initials) فى الجملة من حيث تنميقها وزخرفتها وتلوينها بألوان زاهية ، وهى الطريقة التى ظهرت أكثر وضوحاً فى العصور التالية . أما تغليف الكتب فاستعملت فيه الجلود المتينة ذات المنظر الجميل .

---

(1) Haskins ; The Renaissance ; 74.

(2) Thompson ; Greek and Latin Palaeography; p.p.

فإذا نظرنا إلى ما كانت تحويه هذه المنسوخات من ضروب المعرفة ، فإننا نجد مكتبات القرن الثانى عشر لا تضم مؤلفات جديدة فحسب ، وإنما ضمت أيضاً كثيراً من المؤلفات القديمة والوقوف على هذه الحقيقة يكفى الرجوع إلى الفهارس المعاصرة لتلك المكتبات ، وإن كان كثير من هذه الفهارس لا يتعدى بعض عبارات مقتضبة على الغلاف الداخلى للكتاب . مما لا يفيدنا كثيراً فى معرفة محتويات الكتاب أو تاريخه الزمنى . هذا مع ملاحظة أنه لم يراع فى تلك الفهارس الترتيب الأبجدى ، لأن العصور الوسطى لم تول ترتيب الحروف الأبجدية العناية الكافية . وكل ماروعى فى ترتيب تلك المكتبات هو الترتيب الموضوعى إلى حد ما ، فتبدأ أولا بنسخ الكتاب المقدس ثم بكتب العبادة والصلوات ثم بكتب الآباء والقديسين[1] .

وإذ حوت كل مكتبة من مكتبات ذلك العصر هذه الأنواع الثلاثة من الكتب ، فإن هذا راجع إلى طبيعة التعليم الدينى الذى استهدف إعداد رجال الكنيسة لفهم أحكام الدين والكتاب المقدس وكتابات آباء الكنيسة . وكان أقصى ما يمكن أن يصل إليه التعليم غير الدينى فى ذلك العصر ، هو تلقين الفنون السبعة الحرة Seven Arts التى انقسمت إلى مجموعتين : المجموعة الثلاثية (Trivium) وتشمل النحو والبلاغة والجدل ، والمجموعة الرباعية (Quadrivium) وتشمل الموسيقى والحساب والهندسة والفلك[2] . لذلك كانت مكتبات ذلك العصر تحوى بعض الكتب غير الدينية مثل مؤلفات مارتيانوس كابلا Martianus capella التى قيل عنها أنها كانت أكثر الكتب إنتشاراً فى العصور الوسطى بعد الكتاب المقدس ، ومؤلفات النحوى اللاتينى بريسكيان Priscian الذى ظلت كتاباته منذ القرن السادس موضع اهتمام قراء اللاتينية وكتابها ؛ وبوثيوس Boethius أول فلاسفة العصور الوسطى الذى كتب فى الفلسفة والمنطق والبلاغة والموسيقى ، وإيسيدور Isidore الذى صار كتابه فى فقه اللغة بمثابة أعظم دائرة معارف عرفها الغرب الأوربى فى العصور الوسطى ، وبدى Bede الذى ظلت كتاباته أمداً طويلا مرجعاً هاماً فى التاريخ والفلك .

---

(1) Haskin ; The Renaissacce ; p. 79.
(2) Rashdall ; op. cit. ; Vol. 1 ; p. p. 34—35.

كذلك وجد فى مكتبات القرن الثانى عشر بعض المراجع القانونية لا سيما القانون الكنسى والقانون الرومانى ، فى حين قل الإقبال على تدوين القوانين الجرمانية فى ذلك العصر . ولم تخل مكتبة أو كنيسة من مجموعات الرسائل والتعليمات البابوية وقرارات المجامع الدينية ، فضلا عن مجموعة جراشيان الجديدة فى القانون الكنسى التى سنتكلم عنها فيما بعد . أما الشعر فإن وجد كان يبدو فى القالب الدينى المسيحى ، مثل أشعار الشاعر الإيطالى برودنتيوس Prudentius (٣٤٨ — ٤١٠) ، وشعر القديس فورتناتوس Fortunatus (٥٣٠ — ٦٠٩) فضلا عن بعض أشعار العصر الكارولنجى .

هذه الألوان السابقة من الكتابات ظلت تؤلف الجوهر الذى تكونت منه مكتبات القرن الثانى عشر . وربما اجتمعت حول هذا الجوهر ألوان أخرى من المؤلفات الأدبية نسب غير متعادلة ، بعضها يرجع إلى العصور القديمة ، والبعض الآخر إلى العصر الكارولنجى مثل كتابات ألكوين (٧٣٥ — ٨٠٤) وهنكار Hincmar (٨٠٦ — ٨٨٢) ورابانوس موروس Rabanus Maurus (٧٧٦ — ٨٥٦) وغيرهم . أما تراجم القديسين وسيرهم فقد وجدت دائماً مجموعة كبيرة منها فى مكتبات الأديرة والكنائس . ولم تخل هذه المكتبات أيضاً من المصنفات التاريخية مثل الحوليات سواء ما كان منها عاماً أو خاصاً بتاريخ الإقليم أو الدير . ومن الواضح أن مكتبة الدير أو الكتدرائية كانت تضم كثيراً مما يتعلق بالدير نفسه أو الكتدرائية نفسها ، سواء على هيئة رسائل أو تراجم لأهل الدير السابقين والحاليين .

وبتقدم نهضة القرن الثانى عشر واتساع دائرة النشاط العلمى ؛ وجدت المؤلفات التى كتبها علماء ذلك القرن سبيلها إلى مكتبات الأديرة مثل كتابات أنسلم Anselm (١٠٣٣ — ١١٠٩) والقديس إيفو أسقف شارتر St. Ivo of Chartres (١٠٤٠ — ١١١٦) وبطرس لمبارد Peter Lombard (١١٠٠ — ١١٦٤) .

وإذا كنا فى عرضنا هذا للمكتبات الغربية فى القرن الثانى عشر قد قصرنا كلامنا على مكتبات الأديرة والكتدرائيات ، فسبب ذلك هو أن هذين النوعين

كانا أهم أنواع المكتبات فى ذلك العصر . ومن المهم أن نلاحظ أن العصور الوسطى لم تعرف نظام المكتبات العامة الذى نعهده اليوم . كذلك لم تعرف المكتبات عندئذ نظام إعارة الكتب مثلما فعلت الجامعات بعد ذلك ؛ وإذا وجدت بعض حالات تعار فيها الكتب لنسخها ثم ردها فإن هذه الحالات ظلت قليلة . وبتقدم الوقت قسمت الكتب إلى قسمين : قسم يوضع فى خزائن أو صناديق مغلقة بالمفاتيح . وقسم آخر يعرض للاطلاع مع الاحتياط بربط الكتب بسلاسل فى المناضد لضمان سلامتها وعدم ضياعها[1] .

والآن بعد هذه العجالة عن أحوال الكتب والمكتبات فى القرن الثانى عشر . نستطيع أن نبحث النهضة الفكرية التى شهدتها أوربا فى ذلك القرن . فى ضوء ماحوته تلك الكتب من دراسات .

إحياء الدراسات اللاتينية القديمة :

سبق أن ذكرنا أن نهضة القرن الثانى عشر تمثل فيها جانبان من النشاط الفكرى . هما الإحياء والتجديد . أما الإحياء فنقصد به إحياء الدراسات اللاتينية القديمة . وهى الدراسات التى ظلت أصدق مقياس للنشاط الفكرى فى غرب أوربا منذ سقوط الإمبراطورية الرومانية حتى بداية العصور الحديثة . وهنا نكرر أن التراث الفكرى اللاتينى لم يندثر تماما فى وقت من الأوقات ، وإنما ازدادت العناية به أو قلت وفقاً للمستوى الثقافى لكل عصر من عصور التاريخ الأوربى . كذلك اوضحنا فى الباب السابق مدى معارضة بعض رجال الدين فى العصور الوسطى لمبدأ التعمق فى الدراسات اللاتينية . وقد استمرت هذه المشكلة قائمة بدون حل حتى القرن الثانى عشر عندما تساءل أحد أساقفة كتدرائية أوتون Autun « كيف يمكن تنقية الروح وتهذيب النفس عن طريق قراءة حروب طروادة وجدل أفلاطون وأشعار فرجيل . وغيرهم ممن يصلون الآن نار جهنم ؟ » . كذلك حدث عندما شرع جراشيان فى تنظيم القانون الكنسى سنة ١١٤٠ أن كانت أول مشكلة واجهته هى هل ينبغى لرجال الدين أن يتعلموا

---

(1) Haskin ; The Renaissance ; p. p. 84—85.

الدراسات الدنيوية أم لا ؟ وإذا كان بعض البابوات ورجال الدين قد اعترفوا بأن معرفة العلوم الدنيوية ضرورية لفهم الكتاب المقدس ، إلا أن هذه المشكلة بقيت في الواقع بدون حل طوال العصور الوسطى ، لأنها كانت أصعب من أن تحل في سهولة[1] .

على أن الحقيقة الهامة بالنسبة لموضوعنا هي أن الخطر الجاثم على نهضة الأدب اللاتيني في القرن الثاني عشر لم يأت من ناحية الدين ورجال الدين بقدر ما أتى من ناحية الاهتمام بالمنطق والاتجاه العملي الجديد في الحياة . ذلك أن استيعاب المنطق الجديد ، لأرسطو حوالى منتصف ذلك القرن رجح كفة الجدل والمنطق والفلسفة ، ومن ثم لم يعد هناك متسع من الوقت والجهد للدراسات الأدبية الأخرى . وهكذا نجد الجيل الجديد من المعلمين والمتعلمين في القرن الثاني عشر يفخر بأنه يعرف كثيراً من الجدل والمنطق والفلسفة دون أن يضيع وقته في الأدبيات وكتابات شيشيرون .

ويتضح هذا الاتجاه الجديد في أواخر القرن الثاني عشر وفي القرن الثالث عشر ، عندما أهملت المدارس والجامعات الناشئة الأدب الكلاسيكي في برامجها ووجهت جل عنايتها نحو الدراسات الفلسفية والقانونية والطبية . على أنه في الحقبة التي حظيت الآداب والدراسات القديمة بالعناية في القرن الثاني عشر ، اتجهت هذه الحركة نحو دراسة المؤلفات اللاتينية لاسيما الشعر وشرحه : ودراسة قواعد اللغة ونحوها . وإنتاج قدر كبير من الأدب اللاتيني شعراً ونثراً . ومن أعلام هذه الحركة حنا سالسبورى (١١١٧ — ١١٨٠) الذى كان من رجال الدين والسياسة والأدب والفلسفة جميعاً ، حتى قيل إنه لم يوجد كاتب في العصور الوسطى ضارعه في سعة أفقه ، وعمق إطلاعه وتفهمه للأدب الكلاسيكي . ويبدو أنه تأثر إلى حد كبير في أسلوبه بكتابات شيشيرون الذى كان في نظر حنا سالسبورى أعظم كتاب اللاتينية . وقد رأى حنا سالسبورى أنه لا تنافر بين المسيحية والتراث الروماني القديم ، لأن العنصرين تداخلا وانصهرا معاً ليتكون منها العالم المسيحي الروماني . والحق أن حنا سالسبورى يعتبر أنضج ثمرة انتجتها

---

(1) Haskin : The Renaissance 96—98.

مدرسة شارتر Chartres حيث درس فى شبابه وحيث مات وهو أسقف[1] .

وكان أهم مركزين للدراسات الكلاسيكية فى القرن الثانى عشر هما مدرستا شارتر وأورليان . أما مدرسة شارتر فامتازت بأنها أعظم المدارس الكتدرائية ظهوراً فى أوائل ذلك القرن ، وهى الشهرة التى حصلت عليها نتيجة لا هتمامها بالدراسات الأدبية . وبرز من أساتذة المدرسة فئة من الأعلام مثل برنارد Bernard وتيرى Thierry . وهما أخوان من اقليم بريتانى بغرب فرنسا ، ومثل وليم الكونشى William of Conches وهو نورمانى الأصل . أما مدرسة أورليان فتأتى فى المرتبة الثانية بعد شارتر من حيث شهرتها فى ميدان الدراسات الأدبية فى القرن الثانى عشر . ذلك أنها لا تستطيع أن تفخر بأستاذ مثل برنارد أو بتلميذ تخرج فيها مثل حنا سالسبورى . وقد عرف عن مدرسة أورليان عنايتها بدراسة تراث العصر الوثنى ، لاسيما أشعار فرجيل Virgil وأفيد Ovid ولو كان Lucan وغيرهم . ومهما كان الأمر ، فإن مدرسة أخرى فى القرن الثانى عشر لم تستطع أن تصل إلى ما وصلت إليه مدرستا شارتر وأورليان من شهرة فى ميدان الدراسات الأدبية الكلاسيكية .

ويلاحظ أن المؤلفات اللاتينية الكلاسيكية التى كانت فى متناول الأيدى فى القرن الثانى عشر ، هى نفسها المؤلفات التى وصلت إلينا تقريباً دون أن يفقد منها شىء ذو أهمية . على أن وجود هذه المؤلفات فى مكتبات القرن الثانى عشر لايعنى أنها جميعاً كانت موضع دراسة وتفهم المعاصرين فى ذلك القرن ، لأن هناك فرق بين أن يقتنى فرد كتاباً معيناً وبين أن يدرس هذا الكتاب . وهكذا وجد كثير من الكتابات اللاتينية فى مكتبات القرن الثانى عشر ، ولكنها ظلت فى طى النسيان ولم تدرس ، مثل أشعار كاتولس Catullus (٨٤ — ٥٤ ق.م.) وتاريخ ليفى Livy (٥٩ ق.م — ١٧ م) ، وغيرها .

ومن أعظم كتاب اللاتينية القدماء شهرة فى العصور الوسطى الشاعر اللاتينى فرجيل (٧١ — ١٩ ق.م.) الذى ظل انتاجه محوراً لكثير من الدراسات

---

(1) Haskin ; The Renaissance ; p. 101.

التي تناولت الفكر الروماني والأدب اللاتيني[1] . ويبدو من كتابات القرن الثاني عشر أن فرجيل ظل موضع إعجاب المعاصرين ينقلون عنه ويقتبسون منه ويحاكونه في كتاباته وطريقته . وحسبنا أن أهمية فرجيل استمرت حتى استلهم منه دانتي فيما بعد (١٢٦٥ — ١٣٢١) عبقريته وأفكاره . ويلي فرجيل في الأهمية صديقه الشاعر اللاتيني أوفيد (٤٣ ق.م — ١٦ م) الذي أحرز هو الآخر مكانة شعبية عظيمة في العصور الوسطى بفضل أشعاره التي ظلت ترددها الألسن حتى عصر النهضة الإيطالية لاسيما قصيدة «فن الحب» وقصيدة «دواء الحب» . وقد انتشرت أشعار أوفيد في القرن الثاني عشر انتشاراً واسعاً يجعلنا نتخذ من ذلك الانتشار دليلا على النهضة بإحياء الأدب الكلاسيكي في ذلك القرن . وبلغ من انتشار اشعاره أنها صارت تدون حتى في الأديرة الكلونية التي عرف رجالها بالتزمت . كالمولع كثير من الكتاب والأدباء بمحاكاته . وهنا نلاحظ أن اشعاراوفيد لم يقتصر أثرها على كتاب اللاتينية وأدبائها في القرن الثاني عشر فحسب ، بل امتد أيضا إلى أدباء اللغات القومية الجديدة Vernacular . فترجموها إلى لغاتهم .

هذا عن الشعر الكلاسيكي . أما النثر فليس هناك شك في أن شيشيرون « ١٠٦ — ٤٣ ق م » كانت له الصدارة في العصور الوسطى بين كتاب اللاتينية ، حتى لقب ملك الفصاحة واعتبر عمدة البلاغة بين الكتاب الرومان . والواقع إن تراث شيشيرون الأدبي لا يمكن إحصاؤه في سهولة ، وإن أبدى أحد المعجبين به في القرن الثاني عشر أمنيته في جمع ذلك التراث كله في مجلد واحد . ويتمثل الجزء الأكبر من آثار ذلك الكاتب العظيم في رسائله في البلاغة والفلسفة . ثم تأتي بعد ذلك خطبه الشهيرة ، ثم مقالاته في الأدب . ولاشك في أن المكتبات الكبيرة في القرن الثاني عشر ضمت كل هذه الألوان من آثار شيشيرون . وقد جاء في فهرس مكتبة دير كلوني في ذلك القرن ذكر ثلاث مخطوطات من رسائل شيشيرون الأدبية وأربع من خطبه وخمس من مقالاته في البلاغة وسبع من انتاجه الفلسفي . كذلك ظهر ولع أدباء القرن الثاني عشر بشيشيرون في محاولتهم التشبه به في أسلوبه وطريقته .

(1) Taylor: op. cit. vol. 2; p p. 134 - 135.

وفيما عدا شيشيرون هناك مجموعة أخرى من أعلام النثر والبلاغة الرومان ظلت ذكراهم باقية وكتاباتهم متداولة فى القرن الثانى عشر ، ومن هؤلاء كوتتليان Quintilian (٣٥–٩٥) وهو من أعلام البلاغة والبيان فى القرن الثانى عشر ، كذلك رجع أدباء ذلك القرن إلى كتابات الفيلسوف سينكا Seneca (ت ٦٥) ، وبخاصة كتابه (مشاكل الطبيعة) ، فضلا عن كتاباته الأخرى فى الآداب والأخلاق . وربما زاد من أهميته أن بعض الكتابات المسيحية نسبت إليه مما أثار الظن بأنه اعتنق المسيحية ولم يمت وثنيا .ومن كتاب الرومان الذين عرفت كتاباتهم فى القرن الثانى عشر أيضاً بلينى الكبير أو القديم Pline l'Ancien [1] (٩٧ ق م) ولو أن كتابه « التاريخ الطبيعى Histoire Naturelle كان أضخم من أن يتم نقله وتداوله فى سهولة .

وهكذا يبدو أن الاهتمام بهؤلاء الكتاب الرومان كان أهم مظاهر حركة إحياء الدراسات الكلاسيكية فى القرن الثانى عشر . وظهر هذا الاهتمام واضحا فى عدة نواحى: أولها الاقتباس عن هؤلاء الكتاب والمفكرين ، حتى أننا لنجد كثيرا من الكتابات التى ترجع إلى القرن الثانى عشر مليئة بالعبارات والأساليب والافكار المأخوذة عن كتاب اللاتينية القدامى . وثانيها كثرة الشروح والتعليقات على الدراسات اللاتينية القديمة ، حتى صار من الأمور المفضلة فى مدارس القرن الثانى عشر أن يصحب تدريس الأدب عمل تبويب وتقسيم وشروح للمؤلفات القديمة . أما المظهر الثالث من مظاهر الاهتمام بالكتابات الكلاسيكيه فى القرن الثانى عشر ، فهو أثر هذه الكتابات فى الشعر القومى الناشىء . فالألوان الجديدة من الشعر البروفنسالى وغيره من الآداب القومية الناشئة فى القرن الثانى عشر تأثرت إلى حد بعيد بالاتجاهات الكلاسيكية ، فأنشأ الشعراء المحدثون يتخذون من الأشعار اللاتينيه القديمة نماذج يحاكونها ، ليس فقط فى الطريقة بل أيضا فى الموضوعات التى يعالجونها.وهكذا نلحظ ظهور أشعار جديدة فى القرن الثانى عشر تناولت أخبار طروادة وطيبة والاسكندر الأكبر ، وغير ذلك من القصص والموضوعات المأخوذة عن أوفيد وأمثاله من شعراء العصر الكلاسيكى [2] .

---

(١) تمييزاً له من ابن أخيه الأديب الرومانى بلينى الصغير ظهر بعده .
(Pline le jeune.)

(2) Haskins : The Renaissance : p. 115

اللغة اللاتينية :

وإذا كان هذا هو نصيب الأدب اللاتيني الكلاسيكي من العناية في القرن الثاني عشر ، فلاشك في أن اللغة اللاتينية ـ وهي أداة تلك الدراسات الأدبية ـ قد أدركت — نثرها وشعرها ـ حظا كبيرا من الرقي والتقدم في ذلك القرن . والمعروف أن اللغة اللاتينية ظلت اللغة العالمية السائدة في غرب أوربا حتى أواخر القرن الثاني عشر ، عندما أخذت تنافسها اللغات القومية vernaculaire أو العامية Vulgaire ؛ مما جعل بيرين يشبه الأدب الأوربي في تلك الحقبة من العصور الوسطى بجانوس Janus ملك لاتيوم المزدوج الشخصية ؛ فقال إن ذلك الأدب أصبح له مظهران أحدهما يبدو في اللغة اللاتينية والآخر في اللغات القومية والعامية الناشئة [١] . ومهما كان الأمر فإن هذه اللغات الأخيرة لم ينتشر استعمالها في القرن الثاني عشر بالذات بالدرجة التي تجعلها خطرا حقيقيا على اللغة اللاتينية . فإذا استخدمت الفرنسية أحيانا في الحديث في بعض البلاد الأوربيه ؛ فإن هذا لم يحدث إلا على مقياس ضيق في القرن الثاني عشر ، بحيث لم يعم استعمالها كلغة أوربية شائعة إلا في القرن التالي [٢] .

وإذا نحن عبرنا عن اللغة اللاتينية في القرن الثاني عشر بأنها لغة دولية لما كفى هذا التعبير [٣] . فاللاتينية عندئذ لم تكن لغة الاتصال والتفاهم بين الدول بعضها وبعض فحسب ، وإنما استخدمت أيضا داخل مختلف بلاد غرب أوربا في المناسبات والأغراض العامة والخاصة . ويكفي أنها ظلت في ذلك العصر لغة الكنيسة ورجال الدين في غرب أوربا حيث استخدمت في التفاهم والاتصال بين رجال الدين في مختلف البلاد ، كما استعملها الناس في الصلاة والترتيل . كذلك كانت اللغة اللاتينية لغة العلم والتعليم في ذلك العصر ؛ فالطلاب يلقنون اللغة اللاتينية في المدارس ويتلقون بها جميع علومهم ، كما أن كتبهم المدرسية دونت بها مما جعل اللغة اللاتينية لغة الطبقة المتعلمه المثقفه في المجتمع الأوربي . أما في القضاء

(1) Pirenne : Histoire du Moyen Age, Tome VIII ; p. 205.
(2) Haskins : The Renaissance ; 127.
(2) Pirenne : Historie du Moyen Age, Tome VIII, p. 204.

والقانون والمحاكم فقد استخدمت اللغة اللاتينية وحدها ، كما دونت بها القوانين الرومانية والكنسية ، بل القوانين المستحدثة التى وضعها النورمان واللمبارديون وهنرى الثانى ملك انجلترا وروجر الثانى ملك صقلية . كذلك تشهد الوثائق واللوائح والأوامر الحكومية الباقية من القرن الثانى عشر على أن اللغة اللاتينية ظلت الأداة المستخدمة فى شئون الحكم والإدارة . والخلاصة أن رجال الدين والعلم والأعمال والقضاء والإدارة كانوا جميعا فى حاجة إلى معرفة اللغة اللاتينية واستعمالها [١] .

على أنه لا يمكن بقاء لغة من اللغات فى قالب واحد وعلى صورة واحدة مع استخدامها مثل ذلك المحيط الواسع من البلاد المتباعدة ، وفى مثل تلك الأغراض المتنوعة المتباينة . لذلك نجد اللغة اللاتينية فى العصور الوسطى تختلف اختلافا بينا تبعاً لإختلاف الزمان والمكان والغرض الذي استخدمت فيه [٢] . ومن مظاهر اختلاف اللغة اللاتينية من بلد إلى آخر فى القرن الثاني عشر ذلك التباين الشديد فى محصول الألفاظ ، حتى أننا نجد أنفسنا بحاجة إلى قاموس لاتينى مستقل لكل بلد أو كل إقليم من أنحاء أوربا . ولا شك فى أن القدرة العظيمة التى امتازت بها اللاتينية فى تشرب العناصر اللغوية الاهلية ، هى التى ساعدت على بقائها حية طوال العصور الوسطى حتى استسلمت فى النهاية أمام ضغط اللغات القومية الذى اشتد عليها فى القرن الخامس عشر .

وقد شهد القرن الثانى عشر انتعاش اللغة اللاتينية ورقى مستواها وجودة أسلوبها [٣] . هذا فضلا عن وفرة المحصول اللغوى فى الألفاظ والمفردات ، حتى أننا نصادف فى كتابات ذلك العصر ألفاظا لم تستعمل إلا نادراً فى العصور الكلاسيكية ذاتها . وكأن كتاب القرن الثانى عشر تباهوا بمعرفة تلك الألفاظ وتكرارها فى كتاباتهم . ولكن حتى فى هذه الحالات لا نجد أثراً للتكلف . لأن تلك الكتابات انما كتبها أناس يفكرون بالعقلية اللاتينية ويتباحثون فى شئونهم العلمية والأدبية باللاتينية [٤] . فاللغة اللاتينية لم تكن ميته فى القرن الثانى عشر ،

---

(1) Pirenne : Histoire du Moyen Age : Tome VIII ; p. 204
(2) Haskins : The Renaissance ; p. 128.
(3) Reshdll : op. cit. ; Vol. 1 ; p. 69.
(4) Stubbs : Seventeen Lectures ; p. 175.

وإنما ظلت حيه، منتعشة، محتفظة بنضرتها وقوتها رغم أنها قاربت سن الشيخوخة فى ذلك العصر. وقد دفع ذلك بعض الباحثين إلى اتخاذ القرن الثانى عشر عصراً ذهبياً للغة اللاتينية فى العصور الوسطى [١].

على أن وصول اللغة اللاتينية إلى هذا المستوى الرفيع فى القرن الثانى عشر، لا بد وأن تطلب إحاطة شاملة وتدريباً كافياً على القواعد النحوية لتلك اللغة. وهنا نستطيع أن نقرر أيضاً أن دراسة النحو اللاتينى بلغت الذروة فى ذلك القرن. أما المرجع الرئيسى فى دراسة قواعد النحو اللاتينى عندئذ فكان كتاب « القواعد النحوية Institiones Grammaticae » الذى ألفه برسكيان Priscian فى أوائل القرن السادس. ويتألف هذا الكتاب من ثمانية عشر جزءاً وانتشر فى العصور الوسطى انتشاراً واسعاً تدل عليه مئات النسخ الخطية الباقية منه حتى اليوم [٢]. ويمتاز هذا الكتاب بالمادة الغزيرة المحكمة والامثلة القوية المستقاة من مؤلفات كبار الكتاب والشعراء الرومان أمثال شيشيرون وفرجيل وسالوست Sallust وغيرهم؛ مما يجعله ليس كتاب قواعد ونحو فحسب، وإنما أيضاً مرجع من مراجع الأدب والبلاغة والبيان فى اللغة اللاتينية. لذلك يعتبر انتشار كتاب برسكيان فى أية فترة من العصور الوسطى خير دليل على انتعاش الدراسات الكلاسيكية بوجه عام واللغة اللاتينية بوجه خاص. على أن كتاب برسكيان وأشباهه من الكتب مثل كتاب مارتيانوس كابلا Martianus Capella [٣] تعتبر من الكتب الضخمة التى يقع الواحد منها فى عدة مجلدات؛ لذلك فضل طلاب دراسة اللغة اللاتينية فى ذلك العصر الرجوع إلى الكتب المبسطة مثل الكتاب الذى ألفه دوناتوس Donatus فى القرن الرابع عن « أجزاء الخطبة الثمانية De Octo Partibus Orationis » [٤].

---

(1) Taylor : The Medieval Mind ; Vol. 2, p. 196.

(2) Idem ; Vol. 2; p. p. 150—151.

(٣) كاتب لاتينى عاش فى القرن الخامس الميلاد، ودون دائرة معارف فى تسعة أجزاء عالج فيها النحو والمنطق والميتافيزيقا. وكان لكتاباته شأن كبير فى العصور الوسطى.

(4) Pirenne : La Civilisation Occidental au Moyen Age

كذلك شهد القرن الثانى عشر إنتاج كثير من المعاجم والقواميس اللاتينية ، وذلك إذا أضفنا إليها المعجم الذى وضعه بابياس Papias حوالى منتصف القرن الحادى عشر . وهذا المعجم الأخير عبارة عن قاموس ودائرة معارف معاً ، ومادته مستقاه من المؤلفات القديمة ولكنه يحوى كثيراً من الأمثلة المعاصرة ، كما أنه مرتبط بالمناهج والمواد التى كانت تدرس فى مدارس ذلك العصر . أما ترتيب مفرداته فأتبعت فيه القاعدة نفسها التى سادت العصور الوسطى بأجمعها ، وهى مراعاة الحروف الأولى فقط من الكلمات دون بقية حروف الكلمة . وفى الوقت نفسه لم يراع الهجاء الأصولى للفظ ، وإنما كتبت الألفاظ فى صياغتها الشائعة فى ذلك العصر . على أن معجم بابياس لم يف تماماً بحاجات الأجيال التالية فى وقت كثر المعلمون والمتعلمون . لذلك لجأ أوسبرن Osbern الإنجليزى إلى وضع معجمه الكبير الجامع (Panormia) فى أوائل القرن الثانى عشر . وبعد ذلك — أى عند بداية القرن الثالث عشر — وضع أحد أساتذة جامعة بولونيا - واسمه هوجوتيو Hugutio معجماً هو فى الواقع خلاصة معجمى بابياس وأوسبرن ، بعد أن جمع مادة المعجمين السابقين ورتبهما ، مما أكسبه شهرة وأهمية عظيمة . ويلاحظ على المؤلفين الثلاثة السابقين أنهم اهتموا اهتماماً بالغاً فى معاجمهم بأصول الكلمات واشتقاقاتها ، لا سيما بالأصل اليونانى للألفاظ اللاتينية ، مع أنهم جميعا كانوا يجهلون اللغة اليونانية الصحيحة مما أوقعهم فى كثير من الأخطاء .

هناك نوع آخر من المعاجم الوصفية ظهر فى ذلك العصر ، يعمد إلى أصل الكلمة ويضع الأصل فى جملة أو عدة جمل مرتبطة تشرح معنى اللفظ وتوضحه . فإذا أراد المؤلف أن يشرح فعل « كتب » مثلا ، تعرض للكتابة ، وذكر عبارة طويلة من عدة جمل عن الكاتب وطريقته فى الكتابة . . . وغير ذلك من المعلومات المسهبة ، مما جعل هذا النوع من المعاجم الوصفية عبارة عن دوائر معارف تعبر عن الحياة المعاصرة بجميع نواحيها . وقد وضعت عدة معاجم من هذا النوع فى القرن الثانى عشر ، أشهرها المعجم الذى وضعه نكام Neckam (١١٥٧ — ١٢١٧) بعد أن درس الآداب والفنون والعلوم والقانون وألم

بها إلماماً كافياً[١] .

هذا عن اللغة اللاتينية فى القرن الثانى عشر ، ويلاحظ أن التقدم الكبير الذى أحرزته هذه اللغة فى ذلك القرن لم يستمر طويلا ، إذ أخذ مستوى اللغة اللاتينية ينخفض تدريجياً فى القرن الثالث عشر ؛ بل منذ أواخر القرن الثانى عشر . ويعلل بعض الباحثين هذه الظاهرة بأن العلوم والمعارف الجديدة التى أخذت بها أوربا إبان نهضتها فى القرن الثانى عشر ، شغلت طلاب العلم عن الاهتمام بأصول اللغة وقواعدها ، فاكتفى الطالب بمعرفة قسط محدود من هذه الأصول والقواعد لينصرف مباشرة إلى تراجم أرسطو وغيرها من المعارف الجديدة[٢] .

النثر :

وإذا كانت اللغة اللاتينية بلغت درجة كبيرة من الرقى فى القرن الثانى عشر ، فإن ذلك ظهر بوضوح فى شطرى الأدب من نثر وشعر . وهنا نلاحظ أن علم البلاغة — وهو التوأم الشقيق لعلم النحو — صار له فى العصور الوسطى تاريخ يختلف عما كان عليه فى العصور القديمة ، لأن الأساليب الرومانية القديمة أمست لا تطابق مقتضيات الحياة فى العصور الوسطى . فالبلاغة فى العصور القديمة ارتبطت بالخطابة ، بينما هى فى العصور الوسطى أشد ما تكون ارتباطاً بالرسائل ويتضح الطابع الخطابى فى البلاغة الرومانية بوجود لفظ « الخطابة Oratore » فى عناوين معظم المقالات والموضوعات الأدبية الباقية من العصر الرومانى . والسبب فى عناية الرومان بالخطابة واضح نستطيع الوقوف عليه باسترجاع معلوماتنا عن النظم السياسية والقضائية عند الرومان ، وكيف ارتبطت هذه النظم بمجالس الحكم ودور القضاء العامة ، حيث اجتهد كل خطيب فى تحقيق هدفه وكسب الرأى العام عن طريق بلاغته وسحر بيانه . ولكن هذه الأهمية التى كانت للخطابة عند الرومان لم تلبث أن تلاشت باندثار نظمهم السياسية والقضائية ، فضلا عن ظهور المسيحية . وهكذا لم تعد الخطب البليغة منذ أواخر عصر

(1) Haskins : The Renaissanee ; p, 134.
(2) Rashdall : op. cit. : ·Vol. 1 : p. p. 70-71.

الامبراطورية الرومانية تؤدى وظيفتها فى دور القضاء نظراً لعدم انسجامها مع روح المسيحية وتعاليمها ، وبالتالى أصبح تدريس البلاغة على أيدى أساتذة محترفين أمرا شكلياً فى العصور الوسطى . هذا إلى عدم وجود مراجع سهلة وافية للبلاغة ، تستطيع أن تنهض بهذا العلم كما نهضت مؤلفات برسكيان ودوناتوس بالنحو . لذلك لم يجد أساتذة القرن الثانى عشر أمامهم سوى كتب الخطابة (De Oratore) لشيشيرون ، وقواعد الخطابة Institiones Oratoriae لكونتليان Quintilian فوضعوا ما فيها من خطب أمام تلاميذهم كنماذج لفن البلاغة ، لا كمراجع تشرح أصول البلاغة وفنها[1] .

ولهذه الأسباب اتجه الأدباء فى عصر النهضة الوسيطة نحو إنشاء الرسائل Epistolary Composition ، ولم تلبث أن أصبحت هذه الرسائل محور البلاغة وميدان البيان . ولم تكن كتابة الرسائل بالفن الجديد الذى يرجع الفضل فى إبتكاره إلى القرن الثانى عشر ، إذ من المعروف أن الوثائق الحكومية والإدارية فى العصور الوسطى أخذت الطابع العام للرسائل عن العصر الرومانى ، واستمر تدوين الوثائق الحكومية على تلك الصورة التى لم تبطل طول الشطر الاول من العصور الوسطى بفضل تمسك الكتاب العموميين وكتاب المحاكم بها . ولكن هذا الفن ظل جامداً غير عملى ، يلقن عن طريق محاكاة نماذج ذات طابع معين ومستوى لا يحيد عنه دون أن يكون للكاتب حرية الابتكار والتجديد فيه . واستمر الأمر على ذلك حتى أواخر القرن الحادى عشر عندما بدأت روح التجديد التى سادت النهضة الوسيطة . وقد بدأ التجديد فى كتابة الرسائل بإعداد مراجع مختصرة ، تلائم الاوضاع وظروف الحياة الجديدة ، تصحبها أمثلة ونماذج لتكون بمثابة وسائل إيضاح للتعلمين . ومن المرجح ألا يكون ألبريك — وهو أحد رجال مونت كاسينو فى النصف الأخير من القرن الحادى عشر — أول من وضع مراجع من هذا النوع فى فن كتابة الرسائل ، ولكن إنتاجه على أى حال كان أول ما وصلنا فى هذا الموضوع فى أواخر القرن الحادى عشر[2] .

وكانت الخطوة الرئيسية التالية فى فن كتابة الرسائل مرتبطة ببولونيا فى أوائل

---

(1) Pirenne : La Civilsation Occidentale : p. 200.
(2) Haskins : The Renaissance ; p. 141.

القرن الثانى عشر . ذلك أنه لما كانت كتابة الرسائل فى العصور الوسطى مرتبطة إلى حد كبير بالأعمال الحكومية والقانونية ، فإن هـذا الفن بقى وثيق الصلة بتدريس القانون بعد أن أصبح القانون علماً مستقلا ، وبالتالى ازدهرت كتابة الرسائل فى بولونيا ، أعظم مدارس القانون فى أوروبا العصور الوسطى . ففى تلك السعة الصالحة ظهر الجانب العملى لذلك الفن ، حتى إذا ما حل القرن الثالث عشر أصبحت كتابة الرسائل فناً مستقلا قائما بذاته ، له معهد خاص ودراسة محددة وأساتذة متفرغون لهذه الدراسة . ثم انتقل فن كتابة الرسائل إلى فرنسا ،حيث وجد بيئة صالحة فى مدرسة أورليان ، وأخذ يتقدم جنباً إلى جنب مع الدراسات الكلاسيكية التى أمتازت بها تلك المدرسة . والحق إن الرسائل التى كتبت فى ذلك العصر فى تور وأورليان تمثل نوعاً راقيا من النثر اللاتينى البليغ . وترجع مجموعات كثيرة من تلك الرسائل إلى عهد فيلب أوغسطس (١١٨٠—١٢٢٣) ، ونخص بالذكر ذلك النوع من الرسائل الخيالية المتبادلة بين باريس وهيلين[١] ، وبين الشتاء والربيع ، وبين الروح والجسد ، وبين الحياة والموت ، وان الإنسان والشيطان . . . ويهمنا من أمر هـذه الرسائل أن كثيراً منها وصل الى مستوى رفيع من البلاغة ، كما أنها تلقى ضوءاً ساطعا على الأوضاع العامة فى العصر الذى دونت فيه .

وأنقسمت الرسالة فى ذلك العصر عادة إلى خمسة أجزاء من الوجهة النظرية ، أولها التحية التى أختصت بعناية شديدة فى العصور الوسطى إذ أن لكل مقام مقال ، ثم مقدمة الخطاب والغرض منها إعداد القارىء ذهنياً لموضوع الخطاب وكانت غالبا تحوى بعض الأمثال والحكم أو النصوص المقتبسة من أقوال الغير ، ثم العرض الذى يشمل موضوع الخطاب ، ثم الطلب لأن تلك الرسائل لم تخل غالبا من طلب أو رجاء ، وأخيراً خاتمة الخطاب .

ويلاحظ أنه لم يقدر لمجموعة من مجاميع الرسائل فى ذلك العصر أن تظل مستعملة مدة طويلة ، لأن ذوق الكتابة يرتقى ويتغير بتقدم الزمن وتغير الظروف والأحوال . هذا إلى أن الألقاب وما يرتبط بها من تحيات لم تظل ثابتة على وضع

---

(١) هيلين Helen أميرة يونانية فاتنة ، وباريس Paris أمير هام بها حباً .

معين . ومع هذا ، فقد اعتاد كل كاتب أن يبنى على تراث أسلافه ، مع استحداث أو تغيير ما يقتضيه اختلاف الزمان والمكان والظروف .

وهناك ضرب آخر من ضروب النثر لا نستطيع أن نتخذه مقياسا للبلاغة فى ذلك العصر . ونقصد بهذا النوع الخطب والمواعظ الدينية التى خلف لنا القرن الثانى عشر بضعة مئات منها . على أن هذه الخطب تتصف دائما بطابع المحافظة فى مناهجها وطريقتها ، بمعنى أنها تتبع دائما طريقة العصور السابقة ومنهاج السلف ، دون أن تضيف شيئا جديدا يفيدنا فى دراسة الحياة الفكرية لذلك العصر .

أما القصة الصغيرة التى كان لها شأن فى الأدب فى جميع العصور ، فلا نجد منها مجموعة كبيرة متنوعة ترجع إلى ذلك العصر . وتمدنا هذه القصص بقسط كبير من المعلومات عن الأوهام والخرافات والمعتقدات الباطلة والعادات والأوضاع الاجتماعية السائدة عندئذ . وقد جمعت من هذه القصص عدة مجموعات فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، ولو أن معظمها جمع لأجل إدخال التسلية والترفيه على الأمراء والملوك[1] .

الشعر :

أما فى ميدان الشعر اللاتينى فإن القرن الثانى عشر شاهد نشاطا كبيرا . وبخاصة فى فرنسا . وحسب ذلك القرن أن ظهرت فيه مجموعة من فطاحل الشعراء مثل ماربود Marbode ، وبودرى Baudry de Bourgueil ، وهلدبير Hildebert de Lavardin ، وآدم Adam de Saint Victor وغيرهم[2] .

ويلاحظ أن الشعر اللاتينى الذى تمخضت عنه نهضة القرن الثانى عشر أخذ مكانا وسطا بين شعر نهضتى القرن التاسع والقرن الخامس عشر ، سواء فى طابعه وصفاته أم فى وضعه الزمنى . فهو أكثر كما وأعظم تنوعا من شعر العصر الكارولنجى وفى الوقت نفسه لم يتعرض لمنافسة خطيرة من الشعر المنظوم باللغات القومية الناشئة كما حدث فى عصر النهضة الإيطالية . حقيقة إن الحقبة الأخيرة من القرن

(1) Haskins : The Renaissanee ; p. 142-148.
(2) Pirenne : La Civilisation Occidentale ; p. 205.

الثانى عشر شهدت نمواً سريعا للشعر المنظوم باللغات القومية ، ولـكن هذا النوع الجديد من الشعر لم يقف عندئذ موقفا عدائيا من الشعر اللاتينى ، كما حدث فى القرن الخامس عشر . فاللغة اللاتينية كانت لاتزال فى القرن الثانى عشر اللغة الطبيعية المألوفة فى نظم الشعر ، كما ظـل الشعر اللاتينى يصادف هوى عظيما فى نفوس كثيرين حتى استخدموه فى تصوير كافة مظاهر الحياة المعاصرة .

ولم يقتصر الشعر اللاتينى فى القرن الثانى عشر على محاكاة النماذج الكلاسيكية التقليدية فحسب ، وإنما نجح أيضا فى استحداث نماذج وأوزان جديدة . وهكذا نستطيع أن نقرر أن نهضة الشعر اللاتينى فى القرن الثانى عشر لم تكن مجرد حركة إحياء ، ولم تقف عن بعث الأساليب والموضوعات القديمة المعروفة فى الشعر اللاتينى ، وإنما جددت فى هذه الأساليب واستطاعت أن تعبر عن أوجه الحياة والنشاط فى العصر الجديد . ولعل هذا هو الذى جعل من القرن الثانى عشر آخر العصور التى ازدهر فيها الشعر اللاتينى واتصف بالصفة الدولية ، لأن ظهور اللغات القومية بعد ذلك جعل لـكل بلد لغته التى تعبر عن أدبه ، نثره وشعره[1] .

وأول أثر يتركه ذلك التراث الضخم من الشعر اللاتينى الذى خلفه القرن الثانى عشر هو شعور الحيرة والربـكة . ولم يحاول أحد حتى الآن جمع ذلك الشعر كله فى مجموعة واحدة ، وإذ تم ذلك فى يوم من الايام ، فإن هذا التراث سيشغل من المجلدات أضعاف ما شغله شعر العصر الـكارولنجى . ذلك أن شعراء القرن الثانى عشر لم يتركوا موضوعا أو فنا من فنون الشعر إلا طرقوه ، فنظموا فى التاريخ وشعر الملاحم ، وفى الاساطير وقصص الانجيل ، وفى الحكم والاخلاق ، وفى الرثاء والتهنئة ، وفى المديح والهجاء ، وفى الغزل ومجالس الشراب ، هذا عدا الشعر الغنائى والفكاهى والتعليمى وغير ذلك من ألوان الشعر .

ومن الواضح أن هذه المادة الضخمة فى حاجة إلى تبويب ، ولـكن المشكلة هى أننا لانجد أساساً صالحاً لهذا التبويب . فإذا نظرنا إلى الاصطلاحات التقليديه القديمة ، وهى تقسيم الشعر إلى شعر ملاحم Epic Poetry وشعر غنائى Lyric

---

(1) Haskins : The Renaissance ; p. 154.

وشعر تمثيلى Dramatic ، وحاولنا اتخاذ هذه الاصطلاحات أساسا للتقسيم لوجدنا أنها لاتفى بالغرض ، فضلا عن أن هناك ألوانا من الشعر يصعب وضعها تحت أحد الاقسام الرئيسية السابقة . وإذا حاولنا أن نتخذ الجغرافيا الإقليمية أساسا للتبويب ، لما أمكن ذلك لان اللغة اللاتينية كانت هى السائدة فى جميع بلدان غرب أوربا ، وجل هذا التراث الشعرى باللاتينية مما يصعب معه فصل إنتاج بلد عن بلد آخر ، لا سيما وأن المقطوعة الواحدة كانت هى السائدة فى جميع بلدان غرب أوربا ، وجل هذا التراث الشعرى باللاتينية مما يصعب معه فصل إنتاج بلد عن بلد آخر ، لا سيما وأن المقطوعة الواحدة كانت أحيانا ترددها الألسن والأقلام فى عدة بلدان متباعدة كذلك لا يمكن الاعتماد على التاريخ لأن الفترة الزمنية لنهضة القرن الثانى عشر محدودة ؛ فضلا عن أن الإتجاه السائد فى أواخر القرن الحادى عشر وأوائل الثانى عشر غلبت عليه الرغبة فى محاكاة نماذج الشعر القديمة فى طابعها الدينى أو الدنيوى وفقاً لمقتضيات الظروف والأحوال .

فإذا أردنا دراسة خصائص الشعر اللاتينى ومميزاته فى القرن الثانى عشر ، فإن أول مانلاحظه هو تأثره بالشعر الرومانى القديم . ويبدو هذا الأثر واضحاً فى أشعار هلدبير Hildebert الذى كان أسقف ليمان Le Mans بين سنتى ١٠٩٧ ، ١١٢٥ وبعد ذلك رئيس أساقفة تور حتى وفاته سنة ١١٣٣ . ويعتبر هلدبير أعظم شعراء عصره ، إذ عالج كثيراً من موضوعات الشعر المعروفة كالرثاء والنقد والمديح والموضوعات الدينية والأخلاقية . ويتضح الطابع الرومانى فى شعره ، لا سيما فى قصيدتيه اللتين نظمهما عن روما القديمة ، وأبدى فيهما شعوره العميق نحو روما الخالدة ونحو روما المعاصرة مركز البابوية ، بطريقة مثيرة وأسلوب خلد اسمه فى التاريخ[1] .

وثمة مظهر آخر امتاز به الشعر فى القرن الثانى عشر هو تأثره بالطابع الدينى وطبيعى أن يكون ذلك شأن الأدب فى عصر امتاز بالنشاط الدينى الوفير والحماسة الشديدة التى ظهرت واضحة فى الحروب الصليبية . ولكن هذا النشاط فى الأدب الدينى لم يكن مظهره ابتكار ألوان جديدة بقدر ما كان إحياء المظاهر القديمة

(1) Haskins : The Renaiisanct ; p. 146

فى صورة أكثر رقياً وتقدما. ذلك أن الشعر اللاتينى فى القرن الثانى عشر تناول قصصا من الإنجيل وسير القديسين، وفضائل المتدينين؛ فضلا عن بعض المسائل الدينية مثل المعصية والتوبة، والموت والحساب، وغير ذلك من الموضوعات التى تمس الحياة الدينية من قريب أو بعيد. والشطر الأكبر من ذلك الشعر الدينى الذى يرجع إلى القرن الثانى عشر لا نعرف ناظمية، وإن كان بعضه ينسب إلى أبيلار وماربود. أما أبيلار (١٠٧٩ — ١١٤٢) فكان شاعرا مجيدا إلى جانب كونه فيلسوفا ومن رجال الدين. وبالإضافة إلى شعره الدينى، نظم كثيرا من الأغانى الشهيرة المحبوبة التى تدل على مواهبه المتعددة[1]. وأما ماربود Marbode (١٠٣٥ — ١١٣٢) فينسب إليه بعض الشعر الدينى، وفى الوقت نفسه نرى له أشعاراً يتغنى فيها بالشباب ويمجد الحب والنساء، وأشعاراً أخرى يبدى فيها سخطه على الشيخوخة[2]. وهكذا يبدو لنا التداخل بين الشعر الدينى والشعر الدنيوى فى القرن الثانى عشر. ولم يقتصر هذا التداخل والتقارب بين النوعين على وجودهما معا على وزن واحد وفى مجلد واحد: وإنما المهم هو أن فرداً واحداً استطاع أن ينظم النوعين ويتغنى بهما، مما جعل تأثير الشعر الدينى والموسيقى الدينية فى الشعر الدنيوى والموسيقى الدنيوية عظيما فى ذلك العصر.

أما عن الشعر التمثيلى Dramatic فكانت الصلة مقطوعة بينه وبين الشعر الكلاسيكى القديم، لأن التمثيل قام فى العصور الوسطى على أسس دينية وقواعد مسيحية تلائم الأوضاع السائدة فى تلك العصور، هذا وإن كان قد تأثر فى بعض الأحايين بالأحوال الثقافية والاجتماعية المعاصرة. والواقع إن الأنواع الثلاثة الرئيسية من التمثيليات التى عرفتها العصور الوسطى أرتبطت بالنهضات الثلاث التى شهدتها تلك العصور. فالتمثيليات الغامضة أو تمثيليات الأسرار (Mystery) أرتبطت بالنهضة الكارولنجية، وهذا النوع من التمثيليات يستمد موضوعاته من القصص التاريخى الواردة فى الانجيل، أو من حياة القديسين والشهداء. وتمثيليات المعجزات Miracle Plays ترتبط بنهضة القرن الثانى عشر، وتقوم أيضا على أساس معلومات تاريخية مستمدة من الانجيل أو بعض التجارب التى

(1) Taylor ; Medieval Mind ; Vol. 2; p. 236.
(2) Pirenne ; La Civilisation Occidentale ; p. 206.

مر بها القديسون والتى تدل على بركتهم وقوة إعجازهم . أما التمثيليات الأخلاقية Morality فنشأت عن النوعين السابقين وارتبطت بنهضة القرن الرابع عشر فى فرنسا وانجلترا[١] .

ويهمنا من هذه الانواع الثلاثة تمثيليات المعجزات التى ازدهرت فى القرن الثانى عشر والتى تناولت القديسين ومافى حياتهم من دلائل الإعجاز ، حتى أصبح الاصطلاح الشائع لهذا النوع هو التمثيليات الدينية Le Drame Liturgique [٢] ومن الواضح أن هناك قصصا كثيرا نسب إلى القديسين بقصد اظهار معجزاتهم وبركاتهم ، مما صار يصلح فى النهاية موضوعا لشعر تمثيلى شيق[٣] وقد بدأت هذه الأشعار أولا على هيئة ملاحم تسرد ما يحدث للحجاج وهم فى طريقهم إلى زيارة الاماكن المقدسة ، وبعد ذلك أخذت تتعرض للقديسين وسيرهم ومعجزاتهم نظراً لأن ذكرى هؤلاء القديسين كثيرا ما أرتبطت بالكنائس المنتشرة فى طول أوربا وعرضها ، والتى كان لابد للحجاج من المرور عليها أو النزول بها . وترتب على ذلك ظهور ما يعرف باسم مآثر القديسين Gestes of Saints ؛ وهى مقطوعات لم تلبث أن تحولت إلى تمثيليات شعرية منذ أواخر القرن الحادى عشر[٤] .

كذلك يعتبر القرن الثانى عشر - أو بتعبير أدق الفترة الفتره الواقعة بين سنتى ١١٢٥ ، ١٢٣٠ - عصرا ذهبيا للشعر الغنائى الدنيوى Secular LyricPoetry وهو الذى يطلق عليه فى اللاتينية اسم الشعر الجولياردى Coliardic Poetry ويمتاز هذا الشعر بالفكاهة والطرافة وخفة الروح مع الابتكار والتجديد والتنوع وقد انتشر وشاع فى كثير من بلدان غرب أوربا ، ولكن مركزه الرئيسى ظل فى شمال فرنسا ، وبصفة خاصة بين طلبة الجامعات الناشئة الذين أصبحت لهم مكانة كبيرة فى الشعر اللاتينى الغنائى[٥] .

---

(1) Haskins ; The Renaissance ; p. p. 170—174
(2) Pirenne ; La Civilisation Occidentale ; p. 208.
(3) Délehaye : Les Passions des Martyrs ; p, 287.
(4) Pirenne ; La Civilisation Occidentale ; p. p. 211—216.
(5) Symonds ; Wine, Women and Songs.

ومن أعلام الشعراء الجولياردين (Les Goliardes) فى القرن الثانى عشر اثنان ، يلقبان فى المراجع ببعض الالقاب الكنسية . أما الأول — واسمه هيو الأورليانى Hugues de Orleans (١٠٩٠ — ١١٥٠) - فنعلم عنه أنه درس وقام بالتدريس فى باريس ، ثم رحل إلى شمال فرنسا بعد أن فقد ثروته ومنصبه وأخذ يقاسى مرارة العيش ؛ وإن كانت هذه المصائب تسببت فى الكشف عن مواهبه وحدة ذكائه وخفة روحه . وقد أدى توسع هيو وتعمقه فى الدراسات الكلاسيكية إلى إحاطته بأوزان الشعر اللاتينى ، حتى أصبح من أظهر الشعراء الذين أنجبتهم العصور الوسطى حتى القرن الرابع عشر بفضل غزارة شعره ورقته وتنوعه [١] أما زميل هيو فى ممارسة فن الشعر الفكاهى الغنائى فنجهل اسمه الحقيقى ، وأن كان يسمى فى المراجع باسم الشاعر الأول أو أمير الشعراء Archipoeta [٢] . وكل ما نعرفه عنه أنه كان من أتباع رينولد رئيس اساقفة كولونيا فى النصف الأخير من القرن الثانى عشر ، كما كان رئيس جوقة المرتلين فى بلاط فردريك بربروسا ؛ واعتمد فى معاشه على المنح التى تقاضاها من أسقفيته . ولما طلب إليه أن ينظم فى ظرف أسبوع قصيدة عن حملات الامبراطور فردريك بربروسا على إيطاليا ، شكا من أنه لا يستطيع أن يكتب ومعدته خاوية ، وقال بأن نوع الشعر الذى ينتجه يتلون دائماً بصنف الخمر الذى يشربه ! . ومهما كان الأمر فإن مهارة هذا الشاعر المجهول وروعة إنتاجه جعلت منه زعيما لتلك المدرسة ، مدرسة الشعر الغنائى الفكاهى [٣] .

وتدور معظم موضوعات الشعر الجولياردى حول الخمر والنساء والغناء [٣] . ونظرة إلى بعض قصائد هذا الشعر ترينا أن فكرته عن الحياة تكاد تكون وثنية الطابع ، فهى ترمى إلى الاستمتاع بملاذ الدنيا ومباهج الحب والشباب والجمال ، والبعد عن قيود الدين وتزمت رجاله . فالخلاعة والمجون يعبران عن الاتجاه الظاهر فى هذا الشعر على الرغم مما فيه من قوة وحماسة [٥] .

(1) Pirenne ; La Civilisation Occidentnle ; p. 207.
(2) Idem ; p. 227.
(3) Haskins ; The Renaissance ; p. 281.
(4) Symonds : op. cit. ; p. 191.
(5) Pirenne ; La Civilisation Occidentate ; p. 207.

وقد اتخذ الشعراء الجولياردیون البابوية والهيئات الدينية والمنظمات الديرية محورا لسخريتهم وفكاهتهم . وبلغ من تماديهم وتطاولهم أن ركناً من أركان الدين لم يسلم من هزلهم وسخريتهم ؛ حتى المسيح والصلوات والطقوس المقدسة لم تكن بمنجاة من عبثهم [١] . وظل هذا الشعر الذى جرح الكنيسة وشهر برجالها قائماً تردده الألسن منذ القرن الثانى عشر إلى ما بعد عصر النهضة الإيطاليه ؛ عندما اعتمد عليه بعض دعاة حركة الإصلاح الدينى (البروتستانت) فى القرن السادس عشر لإثبات مفاسد الكنيسة الكاثوليكية فى العصور الوسطى ، وذلك عن طريق جمع تلك الأشعار ونشرها . لذلك يرى بعض الباحثين فى الأشعار الجولياردية رباطا يربط بين نهضتى القرن الثانى عشر والقرن الخامس عشر ، على أساس أن هذه الأشعار لم تكن سوى محاولة لتحطيم القيود التى فرضتها الكنيسة على تفكير الناس فى العصور الوسطى ، ومظهرا من مظاهر التحرر الفكرى الذى ظهر بعد ذلك واضحاً فى القرن الخامس عشر ، كما أن ما فى هذه الأشعار من تطاول على رجال الدين وتهكم على مفاسد البابوية إنما هو نذير بحركة الإصلاح الدينى التى قامت بعد ذلك بقرون قليلة [٢] . وحسب الشعراء الجولياردیین فى القرن الثانى عشر أنهم صوروا كبار رجال الدين فى صورة المتغطرسين الجشعين القساه ، الذين يستخدمون نفوذهم فى تحقيق مآرب شخصية ، كما وصفوا البابا بأنه شره محب للمال . ومن ذلك أنهم قالوا بأن المال أساس الشر والفساد فى الحياة ، ثم اتبعوا ذلك بقولهم إن البابوية اشتقت اسمها من جمع المال لأن لفظ Pope أصله Papa ، وهذه الكلمة الأخيرة — فى تفسيرهم — محرفة عن Pay ! Pay ! . . . [٣]

ويلاحظ أن كثيراً من أشعار الجولياردیین الهزلية اتخذت قالب حوار بين الخمر والماء ، أو بين رجل الدين الصغير الفقير ورجل الدين الكبير الثرى ، أو بين رجل الدين المتفخ البطن المكتظ الجيب وطالب العلم الجائع الخالى الوفاض وخير مجموعة أمامنا من هذه الأشعار هى تلك التى ترجمها سيموند

(1) Symonds ; op. cit. p 191.
(2) Idem : p. 7.
(3) Haskins ; The Renaissence ; p. 187.

إلى الإنجليزية (١). كذلك يلاحظ أن الشعراء الجوليارديين لم ينتموا إلى مدرسة خاصة أو مؤسسة بعينها ، وإنما ظلوا يتنقلون من مدرسة إلى أخرى ، ومن بلد إلى آخر ينشدون أشعارهم للحصول على ما يسد رمقهم (٢) . وكان معظم هؤلاء الشعراء من طلاب العلم والطلبة المتجولين Wondering Students الذين ازدادت أعدادهم وانتشرت أغانيهم فى عصر الحروب الصليبية بالذات (٣) .

وبعد ، فإننا إذا واصلنا كلامنا عن الشعر فى القرن الثانى عشر سنصل فى النهاية إلى مرحلة لا نستطيع عندها أن نقصر كلامنا على الشعر اللاتينى وحده مع إهمال التيـار الجديد الذى جاء نتيجة لظهور اللغات والأشعار القومية . فالشاعر اللاتينى كلما تقدم به الوقت فى القرن الثانى عشر ، ألفى نفسه أمام مشكلة عويصة هى الربط بين تلك اللغات الناشئة ليجعل أشعاره مقبولة أمام المتكلمين بتلك اللغات (٤) . ولعل هذا هو الذى أدى إلى ظهور لون جديد من الشعر فى القرن الثانى عشر يعرف « بنظم المكرونة Macaronic Rhymes » ، وألفاظه خليط من اللاتينية واللغات القومية الجديدة (٥) .

ويرى بيرين أن النهضة الأدبية فى النصف الأخير من القرن الثانى عشر لا تتضح فى الأدب اللاتينى وحده ، وإنما تبدو أيضاً فى آداب اللغات القومية ؛ وبخاصة الأدب البروفنسالى ففى أواخر ذلك القرن ظهر الشعر الغنائى البروفنسالى La Lyrique Provncale فى جنوب فرنسا ؛ وهو الذى أثر بعد ذلك فى شمال فرنسا ثم فى الأدب الإيطالى والألمـانى . وليس هذا مجال الكلام عن العوامل التى أدت إلى ظهور هذا النوع من الشعر (٦) ؛ ولكننا نكتفى هنا بالإشارة إلى أن شعراء التروبادور الذين تعهدوا هذه الأشعار و تغنوا بها ، هم الذين علموا شعراء غرب أوربا أساليب التغنى بالغزل العفيف ؛ وأول من نعرفه من شعراء التروبادور هو جيوم التاسع Guillaume IX (١٠٧١ - ١١٢٧)

---

(1) Symonds ; Wine, Women and Songs ; p. p. 50—189.
(2) Pirenne ; La Civilisstion Occidentale ; p. 207.
(3) Symonds ; op. cit. ; p. 8.
(4) Taylor ; op. cit. ; Vol. 11 ; p. 196.
(5) Haskins ; The Renaissance ; p. 155
(٦) أنظر الباب الأخير من هذا الكتاب .

أميربوانيه وذوق اكوتين ؛ وقد عاصره وخلفه كثيرون من شعراء هذه المدرسة بحيث أنه يمكن اعتبار الجزء الأخير من القرن الثانى عشر عصراً ذهبياً للشعر البروفنسالى [1] .

وخلاصة القول أننا نستطيع عند نهاية القرن الثانى عشر الكلام عن الأدب الفرنسى والأدب الأسبانى والأدب الألمانى .. مما يجعل ذلك القرن بداية عصر الانتقال من الأدب اللاتينى الخالص إلى الآداب القومية الناشئة [2] .

التدوين التاريخى :

وثمة مظهر آخر، من مظاهر النشاط الفكرى فى القرن الثانى عشر ، يبدو واضحاً فى الكتابات التاريخية التى ازدهرت فى ذلك القرن . أما هذا الازدهار فيرجع إلى عدة أسباب ، أهمها : إحياء الأساليب القديمة فى دراسة التاريخ وكتابته فضلا عن الأحداث الهامة التى امتاز بها القرن الثانى عشر ، والتى ترتب عليها ازدياد الشغف بتدوين التاريخ ؛ مثل الحروب الصليبية ، والنزاع بين البابوية والإمبراطورية ،والعداء بين انجلترا وفرنسا، وازدهار المدن سياسياً واقتصادياً . .

والواقع أننا إذا أردنا الوقوف على أصول التدوين التاريخى فى العصور الوسطى فعلينا بالرجوع إلى العصر المسيحى لا الوثنى . ذلك أن أوربا العصور الوسطى لم تستق فلسفة علم التاريخ من قيصر (١٠١ — ٤٤ ق . م) وسالوست (٨٦ — ٣٥ ق .م.) وتاكيتوس (٥٥ — ١١٧م) وأشباههم ، وإنما استقت تلك الفلسفة من القديس أوغسطس (٣٥٤ — ٤٣٠) والمطران أيوزيبيوس Eusebius (٢٦٥ — ٣٢٠) . ومهما كان الأمر فقد ازدهرت فى القرن الثانى عشر الأنواع الثلاثة من الكتابات التاريخية التى عرفتها العصور الوسطى ، وهى السير Biographies ، والحوليات Annals ، والوقائع Chronicles . ولكن

---

(1) Pirenne ; La Civilissation Occidentale ; Ps. 205 216—219, 230.

(2) Idem ; p. p. 232—252.

إذا كان القرن الثانى عشر استأنف هذه الكتابات التاريخية بأنواعها الثلاثة ، فإنه استأنفها على نحو جديد من الابتكار والحيوية ، يتفق مع روح النشاط والتجديد التى امتازت بها نهضة ذلك القرن .

ففى كتابة السير نجد أن العصور الوسطى بوجه عام حرصت على أن تظهر سير القديسين فى قالب مدح وثناء بحيث يبدون فى ثوب أرباب المعجزات والكرامات . واستمر هذا الأسلوب متبعا فى القرن الثانى عشر فدونت سير بعض القديسين السابقين من جديد وفقا لمقتضيات المناسبات والظروف ، كما كتبت تراجم لقديسى القرن الثانى عشر أنفسهم وعلى رأسهم القديس الشهيد توماس بكت St. Thomas Becket الذى قتل سنة ١١٧٠ بتحريض من بلاط هنرى الثانى ملك انجلترا ، فنظر إليه المعاصرون على أنه شهيد الكنيسة فى صراعها مع السلطة العلمانية . ولم تلبث أن احتلت سيرة القديس بكت مكانا بارزا فى الدراسات الأدبية ، سواء فى الكتابات اللاتينية أو الفرنسية أو الأيسلاندية ، وجميع هذه الكتابات لم تخل من كثير من المعجزات التى نسبت إلى ذلك القديس مما جعل قبره فى كانتربورى قبلة الحجاج .

ولم تقتصر كتابه السير فى القرن الثانى عشر على القديسين ، وإنما شملت أيضا تراجم الشخصيات الشهيرة من رجال الدين وغير رجال الدين . ويلاحظ على هذه التراجم أنها اهتمت فقط بالمظاهر السطحية وأهملت التعرض لجوهر الشخصية المترجم له . كذلك انتشر فى ذلك العصر نوع من كتابة السير عرف باسم « الكتالوجات » ، ولا يتناول هذا النوع سيرة فرد معين وإنما يضم تراجم القديسين والرهبان والنبلاء فى إقليم أو مكان محدد . وهكذا شهد القرن الثانى عشر نشاطا ملحوظا فى كتابة السير ، حتى أن الكاردينال بوزو Bozo كتب فى روما كتابا فى سير كبار رجال الكنيسة السابقين والمعاصرين ، معتمدا فى ذلك على وثائق الأرشيف البابوى . ومن الصعب وضع خط فاصل بين تراجم أمراء الاقطاع ورجال الدين فى ذلك العصر ، لأن كبار رجال الدين تمتعوا بصفات الإقطاعيين ، كما أن معظم تراجم الأمراء والحكام قام بتدوينها رجال الدين . وخير مثل لتراجم الأمراء الإقطاعيين التى دونها رجال الدين ما كتبه القديس

لامبرت Lambert عن أمراء مقاطعة جوين Guines قرب نهاية القرن الثاني عشر . أما ذلك النوع من التراجم الذى يترجم فيه الفرد لنفسه ويكتب تاريخ حياته بيده ، فلا نجد منه سوى القليل النادر فى القرن الثانى . وينحصر معظم هذا القليل فيما كتبه الديريون عن حياتهم داخل أديرتهم . ومن أمثلة ذلك مادونه شوجر Suger رئيس دير سانت دينس St. Denis فيما بين سنتى ١١٢٢ ، ١١٥١ ، وما كتبه أبيلار (١٠٧٩ — ١١٤٢) عن الحياة العلمية فى عصره[1] .

أما النوع الثانى من الكتابات التاريخية - وهو الحوليات Annals — فقد امتازت فى العصور الوسطى بالاقتضاب الشديد بحيث لا تتعدى الحولية ذكر السنة وأهم ما حدث فيها . فسنة ٧٠٩ شتاء قارص البرد، وسنة ٧١٠ قحط ونقص فى المحصول ، وسنة ٧٢٢ فيضان مرتفع .. وهكذا . تشمل الصفحة الواحدة تاريخ عشرين سنة تقريباً . ولكن بمرور الزمن نمت الحوليات بانتقالها من دير إلى آخر ، مما أدى إلى زيادة الحواشى وتعدد التعليقات على حوادث كل سنة. ونلاحظ على الحوليات التى دونت فى الأديرة والكتدرائيات أن كلا منها يحمل الطابع المحلى الخاص الذى يعطى صورة صادقة للحياة فى المكان والزمان الذى كتبت فيه الحولية . ولم تختلف حوليات القرن الثانى عشر كثيراً عن تلك التى كتبت فى الحقبة السابقة من العصور الوسطى .فأهم ماعنيت به الحوليات فى ذلك القرن هو مايتعلق بانخفاض مياه الأنهار، أو زيادة الفيضانات، أو انتشار الاوبئة والمجاعات ، أو وفاة بعض كبار رجال الدين. ويلاحظ على مادة هذه الحوليات أنها أخذت تزداد غزارة بازدياد نشاط الرحلات وما ترتب على ذلك من نقل الاخبار وتبادلها . كذلك نلاحظ أنه كلما تقدم الزمن بالقرن الثانى عشر أخذ التاريخ يخلع عن نفسه الصفة المحلية الضيقة لتزداد صفته العالمية ، وذلك نتيجة لنشاط الاتصال التجارى من ناحية ولازدياد أهمية بلاط الملوك من ناحية أخرى.

أما النوع الثالث من الكتابات التاريخية فيشمل كتب الوقائع والحوادث chronicles التى تعتبر الانتاج المميز لفن التدوين التاريخى فى القرن الثانى عشر عندما أخذت كتابة التاريخ تجنح نحو الطابع العالمى وتخلع عن نفسها صفتها المحلية التى لازمتها فى العصور الوسطى السابقة.. وخير مثل لدينا من الكتب التى تناولت

(1) Haskins ; The Renaissance, P. 246 260

الأحداث التاريخية العالمية فى القرن الثانى عشر كتاب روبرت تورجنى Robert Torigni الذى استمر يكتب تاريخه حتى وفاته ديرسانت مايكل سنة ١١٨٦ . ولم يقف روبرت هذا عند حد معالجة الحوادث المحلية المتعلقة بالدير وكنيسته وأفراده ، بل تخطى ذلك إلى العالم الخارجى وإلى ما حدث فى البلاد الأخرى البعيدة . ومن الواضح أن روبرت كان يلتقط الأخبار التاريخية من الزوار الذين يترددون على الدير فى تلك البقعة النائية من جنوب غرب انجلترا ، حتى جاء كتابه فى نهاية الأمر حاو لكثير من الأخبار عن أسبانيا وصقلية وبلاد الشام ، فضلا عن أخبار مملكة النورمان فى انجلترا وصلب القارة . ومن كتاب هـــذا النوع من التدوين التاريخى روبرت الأوكسرى Robert of Auxerre (١١٦٥ - ١٢١٢) وهو مؤرخ فرنسى ارتبط بدير مارين St Marien فى أوكسر Auxerre وقد شرع - بناءاً على تكليف من مقدم ذلك الدير - فى كتابة تاريخ عام يغطى الفترة من بدأ الخليقة حتى سنة ١٢١١ . وأهم أجزاء ذلك التاريخ الفترة التى عاصرهـا الـكاتب بين سنين ١١٨١ ، ١٢١١ ، وتمتاز بالجدة وصدق المعلومات .

وهناك مثل آخر لهـذا النوع من الـكتابات التاريخيـة يتمثل فيما كتبه أوردريك فيتاليس Ordericus Vitalis أحد رجـال الدين النورمان فى شمال غرب فرنسا ، حيث عـكف فى دير سانت افرول St - Efroul ويبدو أن سعة اطلاع المؤلف وإحاطته بـكثير من الأخبار مـكنتة من كتابة تاريخ حافل مبتدءاً بقيام المسيحية وحاويا لأخبار متنوعة عن صقلية والشرق ونورمنديا وانجلترا ، حتى سنة ١١٤١ . ويعتبر هذا الـكتاب أعظم مؤلف تاريخى شهدته فرنسا فى القرن الثانى عشر . أما الأسقف أوتو المتوفى سنة ١١٥٨ ، فيرجع إليه الفضل فى اكساب التاريخ مسحة فلسفية فى القرن الثانى عشر . ذلك أنه عرف عن أوتو هذا أنه مؤرخ وفيلسوف علاوة على صفته الدينية . وكان أوتو عماً للامبراطور فردريك بربروسا ، فساعدته صلته بالأسرة الامبراطورية فى الوقوف على كثير من مجريات الأمور فى عصره ، كما صحب بعض الحملات الامبراطورية إلى روما وبيت المقدس ؛ فوصف تلك الحملات وصف شاهد عيان[1] .

---

(1) Haskins : The Renaissance, P. 241.

كذلك تبدو صورة التقدم الحضارى والتطور السياسى الذى أحرزته أوربا فى القرن الثانى عشر فى الكتابات المعاصرة التى عالجت تاريخ الملوك وحياتهم فى شىء من التفصيل . وأول مانلاحظه على الكتابات التاريخية التى دونت فى بلاط الملوك هو الاتجاه العام نحو البيروقراطية وتركيز السلطة . وقد تقدمت هذه الكتابات بصفة خاصة فى انجلترا بفضل رعاية ملوكها النورمان . وأشهر مؤرخى انجلترا فى ذلك العصر جيوم دى مالمسبورى (١٠٩٥ — ١١٤٣) Guillaume de Malemsbury الذى كتب تاريخ ملوك انجلترا De Gestis Regum Anglorum كذلك كتب جوفرى دى مونموث Goeffroy de Monmouth (١١٠٠ — ١١٥٤) تاريخاً عاماً لملوك انجلترا historia Regum Britanniae[1] .

ولم تقف الكتابات التاريخية فى القرن الثانى عشر عند حد الموضوعات السابقة ، بل تناولت أيضاً الأحداث ذات الأهمية الخاصة فى نظر المعاصرين ، مثل حملات فردريك الأول على إيطاليا ، وانتشار المسيحية شمالا فى سكندناوة وشرقاً بين العناصر السلافية ، وجنوباً على حساب المسلمين فى أسبانيا وصقلية . كذلك تناولت الكتابات التاريخية فى ذلك القرن الحروب الصليبية ، ومن ذلك وثيقة Gesta Francorum التى لا يعرف مؤلفها والتى تعتبر أعظم مصدر تاريخى للحملة الصليبية الأولى . هذا عدا ما كتبه وليم الصورى William of Tyre فيما بين سنتى ١١٦٩ ، ١١٨٤ عن مملكة بيت المقدس وعن الحضارة اللاتينية بالشرق .

وأخيراً نختتم هذا الموضوع بالإشارة إلى أن الاتجاه العام نحو استخدام اللغات القومية الناشئة فى كتابة التاريخ ظهر قوياً فى القرن الثانى عشر فى فرنسا وألمانيا والبلاط الانجلو نورمانى بانجلترا . ولم يكد يختتم القرن الثانى عشر إلا وكانت كتابة التاريخ باللغات القومية قد أصبحت شيئاً مألوفاً . وترجع أهمية هذه المسألة إلى أن عدم كتابة التاريخ باللاتينية — التى ظلت لغة الكنيسة كما سبق — ، وكتابته باللغات القومية ، ساعد على الحيلولة دون احتكار رجال الدين الكتابات التاريخية ، وجعل هذا النوع من الكتابات أمراً دنيوياً شعبيا . وهكذا أخذ

---

(1) Pirenne, La Civilisation Occidentale ; p. 211.

المؤرخون يخاطبون الشعوب بلغاتها ويكتبون لها بألسنتها ، وبالتالى أصبحوا يهتمون بالامور والمسائل والاخبار التى تهم الشعوب وتعنى الرأى العام .

القانون والتشريع :

أما ميدان الدراسات القانونية ، فكان من أعظم الميادين التى عبرت عن النشاط الفكرى فى القرن الثانى عشر . وفى هذا الميدان بالذات نجد تأثير الرومان فى العقلية الاوربية الغربية كان ولايزال عظيماً ، حتى قال أحدالباحثين إن الإقبال على الدراسات القانونية فى القرن الثانى عشر لم يكن سوى مظهراً لرغبة المعاصرين فى الاحتفاظ بالروابط التى تربطهم بالعالم الرومانى القديم[1] . والمعروف أن الرومان القدماء نبغوا فى التشريع ، مما دفع فرجيل إلى القول بأن الرومان كانوا حكاما ومشرعين أكثر منهم فلاسفةوأدباء . كذلك ذكر كاتب محدث أن روما غزت العالم ثلاث مرات : مرة بجيوشها ، ومرة بكنيستها ،ومرة بقانونها . ونستطيع نحن أن نضيف أن الغزو الاخير كان عقلياً وفكريا وأنه تم بعد أن ماتت الإمبراطورية الرومانية وزالت من الوجود[2] .

والواقع أن قانون الرومان هو خير ما يعبر عن عقليتهم وتفكيرهم ، ولذا فإن إحياء القانون الرومانى يمثل ركنا أساسياً فى أية نهضة رومانية الطابع . وفيما يتعلق بالقرن الثانى عشر بالذات ، شهد ذلك القرن نشاطاً ملحوظا فى إحياء الدراسات القانونية ، حتى اعتبر أهم العصور فى تاريخ القانون منذ العصر الرومانى القديم . وربما ساعد على ذلك اشتداد الصراع بين البابوية والإمبراطورية فى ذلك القرن ، مما أدى إلى الإهتمام بالدراسات القانونية لحاجة كل فريق من الفريقين المتنازعين إلى تدعيم مركزه على أسس قانونية واضحة[3] .

وجدير بالذكر أن حركة إحياء القانون الرومانى فى القرن الثانى عشر لم

---

(1) Eyre ; op cit. ; Vol. 3. : p. 274

(2) Haskins ; The Renaissance : p. 193.

(3) Reshdall ; oo. cit. ; Vol. 1 ; p. p. 130—131.

تكن مجرد بعث نصوص قديمة مهملة، وإنما كانت إحياءاً وبعثا للتشريع فى طابع جديد يمتاز بالنشاط ووفرة الإنتاج . وهنا يصح أن نلاحظ أن دراسة القانون الرومانى لم تتوقف فى غرب أوربا طوال العصور المظلمة ؛ فى روما وجدت مدرسة للقانون الرومانى ظلت قائمة إلى ما بعد تخريب المدينة على أيدى النورمان سنة ١٠٨٤ . كذلك وجدت مدارس أخرى للقانون فى بافيا ورافنا[١] . ولكن يبدو أن هذه المدارس لم يكن لها من النشاط ما يكفى لوقف تيار القوانين العرفية التى انتشرت فى أوربا العصور الوسطى ، والتى استمدت أصولها من عادات الشعوب الجرمانية وتقاليدها . وعلى هذا الأساس لم تقم الدراسات القانونية فى العصرين الجرمانى والإقطاعى على أسس تشريعية علمية بقدر ما قامت على عادات إقطاعية وتقاليد قديمة بالية . وهكذا أصبحت العادات والتقاليد هى التى تحدد كل شىء فى المجتمع الغربى ، فى حين أختفى التشريع العلمى بزوال الإمبراطورية الرومانية ، هذا وإن ظلت بعض آثار هذا التشريع باقية عند اللمبارديين فى شمال إيطاليا فى القرن الحادى عشر كما سبق أن أشرنا[٢] .

وإذا كان القانون الرومانى لم يندثر كلية فى غرب أوربا فى العصور الوسطى ، فإن هذا القانون ظل حيا فى صورتين : أما الصورة الاولى فتبدو فى أنه استمر القانون التقليدى للشعوب الرومانية ، حتى تلك التى خضعت منها لبعض عناصر الجرمان . وحسبنا أن كثيراً من الدول الجرمانية التى قامت فى غرب أوربا — مثل ممالك القوط الشرقيين والقوط الغربيين والبرجنديين — أقتبست تشريعاتها من مجموعة القوانين الرومانية التى جمعها ثيودسيوس Theodosius II امبراطور الدولة البيزنطية سنة ٤٣٨[٣] . ونخص بالذكر المجتمعات القوطية ، سواء القوط الشرقيين أم الغربيين ، لأن القوط عموما احتكوا بالإمبراطورية الرومانية فى القرنين الثالث والرابع ، أى فى وقت كانت تلك الإمبراطورية على جانب نسبى من النفوذ — الحضارى على الاقل — ، وتستطيع أن تؤثر فى الامم المجاورة

---

(1) Eyre ;op, cit. : Vol. 3. p. 275.
(2) Vinogradoff . Roman Law in Medieval Europe , p. 18 &Rashdall . op, cit , Vol. 1 , p. p. 99—101.

بها[1] . وطبيعي أن أهمية القانون الروماني عظمت في البلاد التي غلب عليها العنصر الروماني ، وازدادت فيها كثافة الاهالي الرومان ، مثل بعض أجزاء إيطاليا وجنوب فرنسا . حقيقة أنه لم يرجع إلى مثل هذه القوانين المكتوبة في الممالك الجرمانية سوى المتعلمين ورجال العلم ؛ ولكن على الرغم من ذلك فإن هذا التراث من القوانين الرومانية ساعد على بقاء بصيص من الحضارة الرومانية في غرب أوربا في العصور الوسطى[2] .

أما الصورة الثانية التي حافظت على تراث القانون الروماني في أوربا العصور الوسطى فهي مجموعات جستنيان العظيم إمبراطور الدولة البيزنطية (٥٢٧-٥٦٥) وقد أكتسب هذا الامبراطور شهرة عظيمة بفضل المجموعات التي وضعها في القانون الروماني والتي خلدت اسمه . ففي سنة ٥٢٩ أصدر مجموعة الدساتير الامبراطورية التي نسبت إليه (Codex Justinianus) ، وتشمل جميع الدساتير التي أصدرها الأباطرة السابقون فضلا عن السناتو . وفي سنة ٥٣٣ صدرت الموسوعة Digesta ، وتجمع خلاصة ما كتبه شراح العصر العلمي[3] . وقبل صدور الموسوعة بأيام نشر جستنيان موجزاً يستعمله طلاب القانون . وسمي هذا الموجز القواعد أو المبادىء Institiones . وبعد ذلك ظل جستنيان يصدر بين حين وآخر مايعرف باسم المتجددات Novellae Constitiones ، وهي مجموعة القوانين الجديدة التي كانت تصدر تباعاً .

وكانت الموسوعة أهم هذه الأعمال جميعاً . وهي تقع في خمسين كتاباً ينقسم كل كتاب إلى فقرات ، على رأس كل فقرة بيان يتضمن اسم الفقيه الذي أخذت عنه وعنوان الكتاب والموضوع . وهكذا حفظت الموسوعة أسلوب كبار فقهاء العصر العلمي ونصوصهم وأساليب تفكيرهم ؛ مثل بولس Paul وأليان

---

(1) Vinogradoff : op. ctt.; p.20

(2) ldem : op. cit' ; p' 15.

(٣) يعتبر العصر العلمي أهم عصور القانون الروماني ؛ وهو يبدأ حوالي سنة ١٣٠ ق.م . بصدور قانون أيبوتيا الذى أدخل نظاما جديداً في المرافعات المدنية ، هو نظام المرافعات المكتوبة . وينتهي هذا العصر بحكم الإمبراطور دقلديانوس سنة ٢٨٤ . أنظر مبادىء القانون الروماني للدكتور محمد عبد المنعم بدر والدكتور عبد المنعم البدراوي — ص ٧٩

Ulpian وغيرهما . بحيث أننا لا نبالغ إذا قلنا أن ازدهار علم التشريع فى غرب أوربا أضحى متوقفاً على وصول نسخة من هذه الموسوعة إليه[١] . وإذا كانت الأبحاث الحديثة أثبتت عدم صحة النظرية القائلة بأن القانون الرومانى ظل فى طى النسيان فى غرب أوربا فى العصور الوسطى ، حتى بدأ القرن الثانى عشر وا كتشفت نسخة من موسوعة جستنيان فى أمالفى[٢] سنة ١١٣٥ ؛ إلا أن هذه النظرية صحت فى تأكيد حقيقة لاشك فيها ، هى أن موسوعة جستنيان كانت بمثابة المركز الذى تبلورت حوله النهضة القانونية الجديدة فى القرن الثانى عشر .

وقد اتفق جمهرة العلماء على أن تلك النهضة القانونية فى القرن الثانى عشر ارتبطت بمدرسة بولونيا فى إيطاليا ، وبالعالم القانونى ارنريوس Irnerius فى بولونيا . ذلك أن هذا العالم تمتع برعاية ما تيلدا أميرة تسكانيا التى أرادت أن تقيم فى بولونيا مدرسة للقانون تكون سنداً لها وللبابوية ، ومنافسة لمدرسة رافنا حليفة الإمبراطورية[٣] . لذلك أتخذ ارنريوس بولونيا مركزاً لنشاطه القانونى ، فعمل بها كمدرس ومؤلف فى أوائل القرن الثانى عشر ، وكتب فيها كثيراً من كتاباته القانونية ، لاسيما تلك التى تدور حول موسوعة جستنيان . وإليه يرجع الفضل فى فصل القانون عن البلاغة ، فجعله علما مستقلا فى دراسته ، ذا طابع خاص ، ولا يعتمد على الاقتباسات بقدر ما يعتمد على القوانين القديمة التى جمعها جستنيان وبخاصة الموسوعة التى اتخذها ارنريوس محوراً لمادته . ولم تقم طريقة ارنريوس فى التدريس على الشرح فحسب ، وإنما اعتمدت كذلك على المناقشة والبحث . ومع أنه لم يكن أول الشراح إلا أن الفضل يرجع إليه فى تحديد طريقتهم لعدة أجيال تالية[٤] . هذا وإن كان البعض يرى عدم المبالغة فى أثر ارنريوس وجهوده لأنه من الثابت لم يكن أول أساتذة القانون فى ذلك العصر ، إذ سبقه أساتذة آخرون لا فى بولونيا فحسب بل فى بعض المدن اللمباردية فى شمال إيطاليا[٥] .

(1) Haskins : The Renaissance; p. p. 1 96—197

(٢) أمالفى Amalfi مدينة فى غرب إيطاليا جنوب نابلى .

(3) Vinogradoff : op. cit. ; p. 36.

(4) Cam. Med. Hist. Vol. V. : p. p. 734—735

(5) Rashdall : op. cit. ; Vol. 1 : p. p. 107—108.

ويطلق لقب الشراح Glossators على خلفاء أرنريوس لمدة قرن أو أكثر من الزمان . ذلك أنه لم يكد ينتصف القرن الثانى عشر حتى ظهر على أقل تقدير أربعة من تلاميذ أرنريوس المبرزين فى دراسة القانون ، هم بلجاروس Bulgarus ، ومارتينوس Martinus ، وهوجو Hugo ، ويعقوب Jacobus ، ويطلق عليهم اسم « الدكاترة الأربعة Four Döctors[1] » . وكان الأخير أبرزهم جميعاً ، وبمعنى آخر كان هو خليفة أرنريوس الفعلى ، وإن ظل زملاؤه الثلاثة يتمتعون بصيت واسع . ويبد من الوثائق المعاصرة أن هؤلاء الأساتذة الأربعة حصلوا على شهرة واسعة كمستشارين للإمبراطور فردريك بربروسا[2] .

ومهما كان من أمر الإنتاج الأدبى لهؤلاء الشراح ومن أعقبهم فى الأجيال التالية ، فإنهم أهتموا دائماً بشرح القانون وعمل تفسيرات وشروحات (glosses) لمواده . وكانت هذه الشروح فى أول الأمر مقتضبة ، لا تتعدى كلمات وألفاظ محدودة بين الأسطر ، وفقا للطريقة الشائعة فى شرح الإنجيل فى ذلك العصر . ولكن بازدياد التعليقات والتفسيرات بدأت هذه الشروح تخرج من بين الأسطر وتمتد إلى الهوامش الجانبية حتى فاقت فى طولها وكثرتها حجم النص الأصلى[3] . على أن الهوامش سرعان ما ضاقت هى الأخرى عن الشروح والملاحظات التى ازدادت وطالت كلما تقدم الوقت؛ وهنا أصبح شرح النصوص القانونية وتفسيرها يفرد له كتاب خاص قائم بذاته ، يختلف طولا وقصراً حسب اختلاف الظروف والأحوال . وقد شاهد القرن الثانى عشر عدداً من تلك الشروح القانونية المستقلة المختلفة الألوان والأنواع فمنها ما يتناول كتاباً بالتحليل العام — ويسمى المجمل (Summa) — ، ومنها ما يتناول المبادىء العامة التى تستقى من كتاب أو نص — ويسمى هذا النوع المبادىء (Brocarda) . وظلت هذه الشروح القانونية تتكاثر حتى جاء وقت قرب منتصف القرن الثالث عشر ، أوشك فيه

---

(١) أستعمل لقب (دكتور) فى جامعة بولونيا فى العصور الوسطى مرادفا للقب (استاذ) أنظر كتاب الجامعات الأوربية فى العصور الوسطى — تأليف سعيد عاشور ؛ ص ١٥٨ .

(2) Haskins : Tne Renaissance ; p. 201.

(3) Vinogradoff : op. cit. p. p. 46—47-

أن يختص النص الأصلى خلفها ؛ فشبه المعاصرون الشروح بالجراد المنتشر الذى يحجب قرص الشمس ، بعد أن أخذ رجال القانون يوجهون جهودهم نحو شرح الشروح السابقة ، ويهملون النص الأصلى .

والواقع أن الجهود التى بذلها شراح بولونيا تكون ركناً هاماً من النشاط الفكرى فى القرن الثانى عشر ، وفى الوقت نفسه تحتل مكانة سامية فى تاريخ أوربا الثقافى بوجه عام . فهذه الجهود لم تقف عند حد تهذيب النصوص وتحديد معانيها ، وإنما بحثت أيضاً فى تقديم تحليل لمواد القانون وتفسير لها ، يقوم على أساس مناقشتها وتنفيذها ، وذلك فى عصر غنى بالمنطق والأساليب المنطقية . وإذا كانت الخبرة الكافية بعلمى التاريخ وفقه اللغة قد أعوزت هؤلاء الشراح، فإن ذلك لم يكن ذنبهم بقدر ما كان ذنب العصر الذى عاشوا فيه . ويكفى أنهم فعلوا لخدمة الدراسات القانونية كل ما أمكنهم أن يفعلوه[1] .

ومن المهم أن نلاحظ أن حركة إحياء القانون الرومانى فى القرن الثانى عشر لم تكن مجرد نشاط وسط فراغ كبير ، وإنما ارتبطت إلى مدى بعيد بالتيارات الحضارية الكبرى فى ذلك العصر . ومن هذه التيارات النشاط الإقتصادى فى حوض البحر المتوسط ، لا سيما فى شمال إيطاليا . ذلك أن نشاط التجارة فى ذلك العصر تطلب وجود قوانين أكثر مرونة ورقيا من تلك النظم البدائية التى ظل يتبعها اللمبارديون. كذلك أخذ يبدو فى القرن الثانى عشر انحلال النظام الإقطاعى وانهيار أسسه ، وظهر الاتجاه قوياً نحو الالتئام والاتحاد السياسى مما تطلب قانوناً عاماً أوسع أفقاً وأقوى أساساً من القوانين المحلية والإقطاعية التى اعتمد معظمها على العرف والتقاليد والعادات . هذا إلى أن التطور السياسى والنشاط الاقتصادى فى ذلك العصر ترتب عليهما كثرة الإتصالات بين الممالك والدول ؛ وهنا أخذ كل حاكم يعتمد على القانون فى تأييد موقفه وإثبات حقوقه وتدعيم وجهة نظره . مثال ذلك ما فعله الإمبراطور فردريك بربروسا أثناء نزاعه مع البابوية ، إذ لجأ إلى القانون الرومانى لإثبات سمو الإمبراطورية على البابوية ، ولتأييد حقوقه فى السيطرة على المدن اللمباردية، بل فى السيطرة أيضاً على الأراضى

(1) Haskins : The Renaissnce ; p. 204.

المقدسة بالشام . وهنا نلاحظ أن القانون الرومانى اتجه دائماً نحو تأييد حكم الأباطرة المطلق ، ولذلك وقف جمهرة الشراح فى ذلك العصر إلى جانب الإمبراطورية وأيدوا مبدأ سموها على البابوية . هذا وإن كان يروى أن بعض الشراح — مثل بلجاروس — عارض زميله مارتينوس فى هذا الرأى وطالب — فى حضرة فردريك بربروسا — بتحديد سلطة الإمبراطور .

وإذا كانت بولونيا قد أصبحت المركز الرئيسى لمدرسة الشراح ذلك العصر، فإن كثيرا من الجامعات الأوربية الأخرى التى نشأت فى أواخر القرن الثانى عشر وأوائل الثالث عشر لم تلبث أن عنيت هى الأخرى بدراسة القانون .وقد استغل رجال القانون الجامعيون ما تمتعوا به من نفوذ عظيم فى تقويض العادات والتقاليد المحلية وإحلال القانون الرومانى محلها . وهكذا ظلت إيطاليا منذ القرن السادس عشر مركزا لنشر القانون الرومانى فى أنحاء غرب أوربا .ومع أن هذه العملية لم تتم فى بعض البلاد — مثل اسكتلندا وألمانيا — إلا فى القرن السادس عشر[1] ؛ إلا أن هناك بلاد أخرى مثل أسبانيا وفرنسا انتشرت فيها دراسة القانون الرومانى فى وقت مبكر عن ذلك بكثير[2] . وقد تم الوصول إلى هذه النتيجة فى معظم الحالات عن طريق دراسة القانون فى الجامعات ، ومنها بدأ تطبيق القانون الرومانى تطبيقا عمليا فى الحياة الأوروبية . وقد ساعد على ذلك تنقل أساتذة الجامعات من جامعة إلى أخرى ومن بلد إلى آخر . وعلى رأس البلاد التى انتشرت فيها دراسة القانون الرومانى فى وقت مبكر جنوب فرنسا ، حيث يرجع الفضل فى قيام أول مدرسة قانونية فى مونتبليه إلى أحد شراح بولونيا الذى وصلها حوالى سنة ١١٦٠ ومات بها سنة ١١٩٢[3] .أما انجلترا فعلى العكس قاوم ملوكها تدريس القانون الرومانى مدة نصف قرن تقريباً ، مما يدل على أن هذا القانون بلغ عندئذ درجة من الأهمية جعلت ملوك انجلترا يتخذون منه موقفا متشدداً . ولكن على الرغم من ذلك فإن كثيرا من رجال الدين الانجليز درسوا

(1) Cam. Med. Hist Vol. V ; p. 752.
(2) Idem ; p. 784.
(3) Vinogradoff ; p. p. 59—63.

القانون فى بولونيا . وإذا كان معظمهم قد انصرف لدراسة القانون الكنسى ، إلا أنهم اعتادوا الرجوع إلى القانون الرومانى فى مناقشاتهم وجدلهم . وهكذا نجد علماً مثل حنا سالسبورى يعرف قدرا كبيراً من القانون الرومانى إلى جانب ما يعرفة فى العلوم الكلاسيكية الأخرى ؛ فى حين كان مقدم دير بتربورو Peteoborough يمتلك نسخة من القانون المدنى وبها مجموعات جستنيان ؛ بل إن ماستر فكاريوس Master Vacarius قام بتدريس القانون فى انجلترا شطرا كبيراً من القرن الثانى عشر[1] . ومع ذلك فقد ظل القضاة الملكيون فى انجلترا لا يتبعون القانون الرومانى ولا يسايرون أحكامه ، ولذلك استمرت دراسة هذا القانون فى تلك البلاد لا تؤدى إلى عمل أو وظيفة بالنسبة لدارسه[1] . ويلاحظ أن القانون الرومانى بانجلترا لم تكن له صفة قائمة بذاتها ، ولم يكن له كيان مستقل عن القانون الكنسى ؛ ولعل هذا الارتباط الشديد بين القانون الرومانى والقانون الكنسى هو السبب الرئيسى فى كراهية ملك انجلترا للقانون الرومانى وتخوفهم من انتشاره[2] .

ولم تقتصر العناية بالدراسات القانونية فى القرن الثانى عشر على القانون الرومانى ، وإنما شملت أيضاً القانون الكنسى ، وهو القانون الذى ظل فى صراع مستمر مع السلطة السياسية الدنيوية فى مختلف أنحاء غرب أوربا . فعلى الرغم من أن القانون الكنسى بدأ بداية ضعيفة فاترة إلا أنه سرعان ما أخذ ينمو ويتطور نتيجة لازدياد نفوذ الكنيسة ، حتى جاء وقت فى القرن الثانى عشر استطاع أن يقف فيه جنبا إلى جنب مع القانون المدنى الرومانى ، بل تخطاه فى الأهمية فى بعض الحالات[3] .

ذلك أن القانون الكنسى كان قانون الكنيسة العالمية التى تطالب بالسمو والسلطة العليا ؛ ليس فقط فى الأمور الدينية بل أيضا فى المسائل التى تعتبر من اختصاص السلطة العلمانية وحدها . وساعد على ذلك أن الكنيسة فى العصور

---

(1) Idem ; p. p. 122—123.
(2) Vinogradoff , op; cit. p. p. 84—105
(3) Pollock : The History of English Law : Vol; 1 p. 112.

الوسطى أصبحت دولة عالمية ، تخطت حدودها كافة الحدود السياسية المحلية ، وتمتعت بكل ما للدولة من مقومات. فلها رئيسها الأعلى وهو البابا . ولها قانونها ومشرعوها وقضاتها وسجونها ، حتى أنها أصدرت أحكاما بالإعدام فى القرن الثالث عشر .

وهنا نلاحظ أن القانون الكنسى لم يتأثر به رجال الدين وحدهم دون غيرهم من أفراد المجتمع العلمانى . حقيقة إن الكنيسة فى العصور الوسطى ادعت حق السيطرة القضائية على رجال الدين وحدهم ، ولكن هذا الإدعاء شمل الاشراف على جميع القضايا التى تمس رجال الدين من قريب أو بعيد ، سواء كان رجل الدين مدعيا أو مدعيا عليه ، وسواء كانت القضية مدنية أو جنائية . هذا إلى أن إشراف الكنيسة كان تاما على القضايا ذات الصفة أو الأصل الدينى ، مثل قضايا الملكية والزواج والوصايا والعقود وغيرها . ولم يسمح الملوك والحكام للكنيسة بمد نفوذها إلى هذه النواحى فحسب ، بل سمحوا أيضا بقيام دور قضاء كنسية كاملة يرأسها الأساقفة ومساعدوهم ، مع الاحتفاظ للبابا فى روما بحق تأييد الأحكام التى تصدرها او نقضها وتغييرها(١) .

وللقرن الثانى عشر أهمية كبيرة فى ذلك العصر الذى شهد ازدياد سلطة الكنيسة واتجاهها نحو المركزية ، وهو ما نعبر عنه بالملكية البابوية Papal Monarchy . فالأديرة أصبحت تحت سيطرة البابا مباشرة ، كما قاومت البابوية استقلال الأسقفيات وشجعت الاعتماد على روما والرجوع إليها فى كافة القضايا. وهكذا ازداد عدد القضايا التى تعرض على المحكمة البابوية من مختلف أنحاء العالم المسيحى الغربى . وكلما اتسع نطاق نشاط البابوية القضائى ، كلما تطلب ذلك زيادة فى عدد المحامين والقضاة المتمرنين على أحكام القضاء الكنسى ، وبالتالى أصبح لا بد من إعداد هذه الفئات عن طريق التوسع فى تدريس القانون الكنسى ولم تلبث هذه الظروف مجتمعة أن تطلبت تنظيم القانون الكنسى فى صورة تجعله سهل الاستعمال فى المدارس ودور القضاء .

(1) Cam Med. Hist, , Vol V ; p. 705.

والواقع إن مبادىء القانون الكنسى ترجع إلى عصر الامبراطورية القديمة ، ولكن الجزء الأكبر منها يرجع إلى العصور الوسطى . وتستمد أصول ذلك القانون وأحكامه من الإنجيل وما أثر عن القديسين، ثم من قرارات المجامع الدينية والمراسيم والأوامر البابوية ، وجميع هذه التعاليم والقوانين الدينية كانت تنظم وترتب بين حين وآخر ، ولكنها ظلت مع ذلك تعانى كثيراً من الارتباك والتناقض بسبب كثرتها وتنوعها . وقد شهد القرن الحادى عشر عدة جهود ومحاولات لتنظيم القانون الكنسى وتبويبه ، ومن هذه المحاولات ما قام به برخارد Burchard أسقف ورمز ، وانسلم أسقف لوكا Lucca ، وأيفو Ivo أسقف شارتر[1] . ولكن كما ارتبطت نهضة القانون الرومانى فى القرن الثانى عشر باسم أرنريوس ، فكذلك ارتبطت نهضة القانون الكنسى فى ذلك القرن باسم جراشيان Gratian ، وهو راهب من بولونيا رتب القوانين الكنسية حوالى سنة ١١٤٢ ووضعها فى صورة منظمة واضحة . ونتج عن ذلك مجموعة القانون الكنسى أطلق عليها اسم « مراسيم جراشيان Decretum Gratiani » ، وهى تنقسم إلى ثلاثة أقسام : القسم الأول يتكون من مائة باب وباب تعالج مصادر القانون الكنسى ، والقسم الثانى يشمل ستة وثلاثين قضية مختارة مع مناقشة هذه القضايا فى ضوء القوانين الكنسية ، والقسم الثالث يشمل خمسة أبواب فى العبادة والطقوس الدينية[2] .

ولم تقف جهود جراشيان عند حد الجمع والتنظيم ، وإنما تعدت ذلك إلى الشرح والإيضاح . لذلك أحرز كتابه هذا نجاحا سريعاً بعد أن أصبح مرجعاً للطلبة ورجال القانون ، وصار فيما بعد يكون الجزء الأول من مجموعة القانون الكنسى (Corpus Juris Canonici) . ولا شك فى أن النجاح الذى أحرزه كتاب جراشيان إنما هو خير دليل على شدة الحاجة إلى مثل ذلك المرجع فى القرن الثانى ، حتى قيل فيه إنه ظهر فى الوقت المناسب والمكان المناسب[3] . وهنا

---

(1) Eyre : op. cit. ; Vol. 3 ; p. 275.

(2) Haskins : The Renaissance ; p 215 & pallock : op. cit. ; Vol. 1 ; p. 113.

(3) Rashdall : op. cit. vol. 1 ; : p. 127.

نلاحظ أن القانون الكنسى ظل حتى زمن جراشيان مرتبطاً إلى حد كبير بعلم اللاهوت ؛ ولكن عندما وضع جراشيان مرجعاً قائماً بذاته للقانون الكنسى صار لهذا القانون صفة مستقلة عن اللاهوت[1] .

وبمقارنة القانون المدنى الرومانى بالقانون الكنسى نجد صلة وثيقة بين الطرفين ، كما نلمس فروقا واضحة بينهما . فالقانون الرومانى يعتبر مصدراً هاماً للقانون الكنسى، لأن الكنيسة تأثرت فى مختلف أدوار نموها بالتشريع الرومانى هذا إلى أن رجال الدين كانوا فى حاجة إلى معرفة القوانين الرومانية ، واشتدت هذه الحاجة كلما ازدادت ممتلكات الهيئات الكنسية ، وبالتالى تشعبت مصالحها غير الدينية[2] . فمراسيم جراشيان لم تكن إلا تقليدا للقانون الرومانى ومحاكاة له ، وهى فى الوقت نفسه رد فعل خطير للقانون الرومانى . فامتلاك الامبراطورية لمجموعة منظمة من القوانين التى تمجدها وتعلى شأنها ، جعل البابوية وأنصارها يفكرون فى محاكاتها ، ولذلك نجد جراشيان — رغم تأثره بالقانون الرومانى — يحرص على أن يجعل للكنيسة والبابوية السلطات المطلقة نفسها التى حولها القانون الرومانى للأباطرة . وهكذا وجدت البابوية فى القانون الكنسى سلاحاً قوياً يمكنها أن تستغله فى نضالها ضد الامبراطورية[3] .

على أن هناك فرق واضح بين القانون الرومانى والقانون الكنسى فالقانون الرومانى عبارة عن تشريعات قديمة ومجاميع غير قابلة للزيادة أو الإضافة ، وتقتصر جهود القانونيين على تنظيمها وشرحها . أما القانون الكنسى فظل بحكم طبيعته فى نمو مستمر نظراً لكثرة التشريعات بين حين وآخر[4] . وهنا نلاحظ أن جراشيان اقتصر على جمع المراسيم البابوية حتى سنة ١١٣٩ ، مما جعل الحاجة ماسة باستمرار إلى جمع المراسيم الجديدة الصادرة بعد ذلك التاريخ وتبويبها . لذلك أصبح لابد من أن تعقب جهود جراشيان محاولات أخرى متصلة الحلقات

---

(1) Idem ; p. 134.

(2) Idem ; p. p. 132—133.

(3) Eyre : op. cit., Vol. 3 ; p. 275.

(4) Cam. Med. Hist., Vol. 5 ; p. 705.

حتى يتلاءم القانون الكنسى مع رغبة البابوية وجهودها فى السيطرة على العالم المسيحى الغربى[١] .

ولا شك فى أن أكبر مشرعى القوانين الكنسية فى القرن الثانى عشر كان البابا اسكندر الثالث (١١٥٩ — ١١٨١) الذى كان من رجال القانون قبل أن يعتلى كرسى البابوية كما عمل أستاذاً للقانون فى بولونيا ، وله كتابات تحمل اسمه . وقد بلغ من كثرة المراسيم والتشريعات البابوية التى صدرت فى عصر هذا البابا وعهد خلفه المباشر لوكيوس الثالث (١١٨١ — ١١٨٥) أن شبهها المعاصرون فى أواخر القرن الثانى عشر وأوائل الثالث عشر بغابة كثيفة متشابكة الأغصان . وظلت هذه الغابة يصعب التوغل فيها حتى بدأ تنظيم المراسيم البابوية وترتيبها ترتيباً موضوعياً سنة ١١٩٠ ، وانتهى هذا التنظيم بكتاب « المراسيم Decretals » الذى أصدره البابا جريجورى التاسع سنة ١٢٣٤[٢] .

ومنذ ذلك الوقت أصبح القانون الكنسى مادة واضحة الأفق والمعالم ، تدرس فى الجامعات الأوربية جنباً إلى جنب مع القانون الرومانى ؛ وربما قام بتدريس المادتين أستاذ واحد ولاشك فى أن تقدم القانون الكنسى صحبه تقدم آخر فى ميدان الأدب نتيجة للشروح والمقالات التى كتبت حول ذلك القانون . هذا إلى أن القانون الكنسى أدى إلى تطورات هامة فى الحياة العامة بغرب أوربا نظراً لما ترتب عليه من اتساع نفوذ الكنيسة الإدارى والقضائى، وبخاصة فى القرن الثالث عشر[٣] .

أما عن موقف رجال الكنيسة من القانون الرومانى ، فيلاحظ أن الكنيسة استمرت تأخذ عن ذلك القانون وتستعين به ، ولكن دون أن تجهر أو تقر بذلك فى دور القضاء الدينية . والسبب فى ذلك هو أن القانون الرومانى لايعترف بسلطة البابوية ويمجد سلطة الامبراطورية ، هذا فى الوقت الذى اشتد الصراع بين البابوية والإمبراطورية . واستمر الوضع على ذلك حتى جاء وقت وجدت

---

(1) Pollock : op. cit. ; Vol. 1; p. 113.
(2) Pollock : op. cit. ; Vol. 1 : p. 113.
(3) Haskins : The Rrenaissance ; p. 216.

فيه الكنيسة نفسها على درجة من القوة تمكنها من الوقوف بمفردها فى الميدان ، دون حاجة إلى الاعتراف بالقانون الرومانى الذى أغفل شأنها وقوى نفوذ خصومها ؛ وعندئذ حرمت البابوية سنة ١٢١٩ — أى فى أوائل القرن الثالث عشر — على رجال الدين دراسة القانون الرومانى ، ومنعت تدريسه منعاً باتاً فى جامعة باريس بالذات . وربما استهدفت البابوية من وراء القضاء على ذلك المنافس إتاحة الفرص للقانون الكنسى كى ينتشر ويعم غرب أوربا مما يؤدى إلى ازدياد نفوذ البابوية والكنيسة الغربية . ولم تلبث الصفة الدينية التى لازمت القانون الكنسى ، والتى جعلت منه قانون الكنيسة الغربية العالمية ، أن أدت إلى انتشاره فى بلاد لم يستطع القانون الرومانى بمفرده أن ينفذ إليها أو ينتشر فيها . وقد نتج عن ذلك أن أصبح القانون الكنسى أداة لنقل القانون الرومانى ونشره ، نظراً لأن الأول تشرب بروح الثانى كما سبق أن أشرنا ، كما أصبح أداة لنقل الأسلوب الجديد فى التشريع إلى بلاد عديدة .

ومهما كان الأمر ، فقد ترتب على العناية بالقانون الرومانى والقانون الكنسى فى القرن الثانى عشر انتعاش الدراسات القانونية فى البلاد التى ظلت حتى ذلك العصر خاضعة للنظم الإقطاعية وأحكام العادات المحلية . ولعل هذا هو السبب فى كثرة الأحكام والتشريعات التى ظهرت فى البلاد الأوربية فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر . وهنا نشير إلى أن النشاط التشريعى وجد تربة صالحة فى المدن الإيطالية الناشئة ؛ وهى تلك المدن التى ظلت قوانينها حتى القرن الحادى عشر مزيجاً غريباً من القانون الرومانى والعادات الجرمانية . ولكن انتعاش هذه المدن واتساع تجارتها فى القرن الثانى عشر تطلب تنظيم قوانينها وتدوينها ؛ كما تطلب منها العناية بالقوانين التجارية والبحرية . وهكذا نجد مدينة بيزا تدون قوانينها وتضع دستورها سنة ١١٦٠ ؛ ثم حذت حذوها مدينة ألسندريا — أو اسكندرية —[١] Alessandria سنة ١١٧٩ ؛ وحاكتهما بعد ذلك كثير من المدن الإيطالية فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر . وإذا كنا لا نستطيع أن

---

(١) مدينة فى سهول لمبارديا تابع شمالى تورين ، شيدتها مدن الحلف اللمباردى تخليدا لذكرى البابا اسكندر الثالث (١١٥٩ — ١١٨١) الذى ناصرها أثناء النزاع مع الامبراطور فردريك بربروسا . أنظر (سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ج ١ ص ٢٠٠) .

تنسب إلى القرن الثانى عشر بالذات وضع مجموعة القانون البحرى ، إلا أننا نستطيع أن نؤكد أن ذلك القرن عرف نظام القناصل الذين أوفدتهم كل مدينة إلى البلاد الأخرى لرعاية مصالحها التجارية ؛ كما عرف التشريعات الخاصة بالتجار المتنقلين الجائلين . وهكذا أخذت المجتمعات التجارية تشرع القوانين التى تلائم حاجاتها ومطالبها .

وبعد ، فإن القانون غدا فى القرن الثانى عشر — كما كان ايام الرومان — العلم الذى وجدت فيه العقلية الأوربية لذتها الكبرى ، فاستأثر جزء كبير من جهود المعاصرين الفكرية . وبذلك وجدت بقية العلوم — بصفة خاصة علم اللاهوت — منافساً قويا لها فى الدراسات القانونية . حتى القانون الكنيسة اختار أن يستقل عن اللاهوت ليصبح علماً قائماً بذاته . وهكذا سرعان ما وجد رجال الدين أنفسهم أمام منافسين جدد ، فطالما كان رجال الكنيسة محتكرين العلم والمعرفة ، استمروا مسيطرين على الوظائف العامة التى يتطلب القيام بها شيئاً من ذلك العلم وتلك المعرفة . ولكن بانتعاش العلوم غير الدينية وبظهور الجامعات فى القرن الثانى عشر ، نشأت طائفة من المتعلمين من غير رجال الدين ، يمكن أن يعتمد عليهم الحكام والملوك فى الوقت الذى تنكرت الكنيسة للسلطة العلمانية ونادت بالسمو عليها . وكان أن أخذت الكنيسة تعتمد على فقهائها فى القانون الكنسى ، فى حين اتجه الملوك نحو رجال القانون الرومانى المدنى ، مما جعل رجال القانون عنصراً نشيطا فى الحياة العامة والسياسية ، وهو أمر ظهرت مزاياه — ومساوئه — العديدة فيما بعد [١] .

حركة الترجمة عن اليونانية والعربية :

وإذا كان كثير من مظاهر النهضة الفكرية فى القرن الثانى عشر اعتمد على التراث الرومانى اللاتينى — كما رأينا فى النشاط الأدبى والتشريعى — ، فإن هناك جانب آخر — هو الجانب العلمى والفلسفى — ارتبط إلى حد كبير بالتراثين اليونانى والعربى الإسلامى . ولم تستطع أوربا أن تستفيد من هذين التراثين

(١) Haskins : The Renaissance : p. 222.

استفادة كاملة فى القرن الثانى عشر ، إلا عن طريق حركة ترجمة واسعة عن اليونانية من ناحية والعربية من ناحية أخرى . لذلك من الضرورى أن نتكلم عن حركة الترجمة فى القرن الثانى عشر ، لا بوصفها مظهراً هاما من مظاهر النشاط الفكرى فى ذلك القرن فحسب ، بل لأنه يتعذر علينا تتبع التقدم الكبير الذى أحرزته العلوم والفلسفة فى النهضة الوسيطة دون معرفة أسباب العناية بهذه العلوم وكيفية انتقال أصولها إلى غرب أوربا فى ذلك العصر .

والملاحظ أن غرب أوربا فى العصور الوسطى ظل حتى أواخر القرن الحادى عشر يهمل العلوم والدراسات اليونانية إهمالا يكاد يكون تاما . وفى تلك الأثناء استمر التراث اليونانى حياً فى الامبراطورية البيزنطية، لاسيما القسطنطينية، حيث بقيت اليونانية اللغة التقليدية المستخدمة فى الكنيسة والقانون والإدارة والدراسات العلمية والأدبية . حقيقة إن مفكرى الإمبراطورية الشرقية لم يضيفوا للتراث القديم سوى القليل ، ولكن علوم اليونان وكتاباتهم ظلت تدون وتدرس باستمرار ، مما ساعد على حفظ الجزء الأكبر من التراث الفكرى اليونانى فى الإمبراطورية الشرقية .

على أن الدراسات اليونانية التى لم يقدر لها أن تنتشر وتمتد غربا فى تلك المرحلة المبكرة من مراحل العصور الوسطى ، امتدت وانتشرت فى الشرق حيث ترجمت أولا إلى السريانية والعبرية والعربية . ولم تلبث هذه التراجم السامية للتراث اليونانى أن أصبحت فيما بعد على جانب عظيم من الأهمية بالنسبة لغرب أوربا الذى لم يعثر على جزء كبير من ذلك التراث إلا فى تلك التراجم . وربما كان الطريق الذى سلكته علوم اليونان فى وصولها إلى الغرب اللاتينى شاقا وطويلا فى بعض الأحيان ، فن اليونانية إلى السريانية أو العبرانية ثم بعد ذلك إلى العربية ، ومن هذه الأخيرة إلى اللاتينية . ولكن هذا الطريق رغم طوله أدى فى النهاية إلى الغرض المقصود .

وقد بدأت الجولة أولا فى بلاد الشام ، حيث ترجمت الكتابات اليونانية لتغذية الأدب الآرامى Aramaic ؛ وبقيت كثير من هذه التراجم بالشام حتى

الفتح العربى ، فى حين حمل بعضها إلى فارس جماعة النساطرة الذين فروا بعقيدتهم من وجه العرب ، ومن ثم ظل ذلك الجزء من التراث اليونانى حياً فى بلاد فارس حتى توصل إليه العرب أيضا بعد فتحهم تلك البلاد .

ومن المعروف أن العرب عندما اندفعوا من شبه الجزيرة العربية مبشرين بدينهم الجديد ، لم تكن لديهم فى تلك المرحلة المبكرة من تاريخهم دراسات فلسفية أو علمية خاصة بهم ، ولكن كان لديهم ما هو أهم من ذلك وهو الرغبة فى التعلم والقدرة على تشرب حضارة الآخرين . وبفضل هذه الاستعدادات استطاع العرب أن يتشربوا بسرعة ما وجدوه من علوم وثقافات ودراسات فى غرب آسيا . وكان بنو أمية على درجة كافية من الحكمة وبعد النظر جعلتهم يتركون المدارس الكبرى المسيحية أو الصابئية أو الفارسية ، قائمة فى الاسكندرية وبيروت وأنطاكية وحران ونصيبين وغند يسابور ، فاحتفظت هذه المدارس بأمهات الكتب فى الفلسفة والعلم ، معظمها فى ترجمته السريانية . وقد استهوت هذه الكتب المسلمين العارفين باللغتين السريانية واليونانية وما لبث أن قام بترجمتها إلى العربية جماعة من المسلمين ، فضلا عن النساطرة المسيحيين أو اليهود[1] .

ولم يلبث العرب على مر السنوات أن أضافوا إلى هذه الدراسات كثيراً من مستحدثاتهم ومن علوم الشعوب الشرقية الأخرى مثل الفرس والهنود والصينيين. وفى العصر العباسى بصفة خاصة نهضت الحركة العلمية وحركة الترجمة إلى العربية نهضة عظيمة ؛ فى حين أدى انتشار اللغة العربية شرقاً وغرباً إلى سهولة الاتصال الفكرى ونشر الحضارة الإسلامية ؛ بحيث أننا نستطيع القول بأن أعظم نشاط علمى وفلسفى شهده العالم أجمع فى الشطر الأول من العصور الوسطى كان فى البلاد العربية الإسلامية[2] .

على أن الاتصالات الثقافية بين أوربا المسيحية والعالم العربى الإسلامى ظلت ظلت محدودة ، ضعيفة الأثر حتى القرن الحادى عشر . ولكن هذه الإتصالات

---

(١) ديورانت قصة الحضارة — الجزء الثانى من المجلد الرابع ص ١٧٧ .

[2] Haskins : The Renaissance, p. 282.

أخذت تظهر قوية واضحة منذ أواخر ذلك القرن ، عندما بدأت العلوم العربية تنتقل إلى غرب أوربا عن طريق معابر عدة ، تردد عليها الأوربيون طلباً لعلوم العرب وحضارتهم . فهناك فريق من الإطاليين المشتغلين بالعلم قصدوا شمالى إفريقية ، مثل قسطنطين الإفريقى Constantine the African الذى له فضل كبير على علم الطب فى أوربا لأنه قام بترجمة بعض المؤلفات اليونانية عن العربية ومثل ليونارد البيزى الذى تعلم فى شمال إفريقية الرياضيات العربية مما جعل منه أكبر علماء الرياضة فى أوربا فى القرن الثالث عشر . وهناك أرض إيطالية — هى جزيرة صقلية —أسهمت بنصيب مباشر فى حركة الترجمة عن العربية . وساعد على قيام صقلية بهذا الدور موقعها المتوسط بين أوربا وإفريقية ، فضلا عن دخولها تحت حكم العرب من سنة ٩٠٢ حتى سنة ١٠٩١ تقريباً ، ثم احتفاظها بنسبة كبيرة من سكانها المسلمين وثقافتها العربية فى عصر النورمان الذين خلفوا العرب فى حكم الجزيرة . وقد ترجم فى صقلية فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر كثير من الكتب العربية ، ففى سنة ١١٥٠ ترجم أيوجينيوس البالرمى Augenius of Palermo كتاب بطليموس السكندرى فى المرئيات عن العربية . وفى سنة ١١٦٣ ترجمت بعض كتابات بطليموس الأخرى فى الفلك والرياضيات عن العربية . واشتهر من المترجمين فى القرن الثالث عشر فرج بن سالم اليهودى المتوفى سنة ١٢٨٥ ، وهو من أصل صقلى وطلب العلم فى سالرنو ، حتى ترجم كثيراً من كتب العرب إلى اللاتينية[1] .

على أن المركز الرئيسى للترجمة من العربية إلى اللاتينية ، أصبح شبه جزيرة أيبريا ، حيث ازدهرت حضارة العرب وكثرت كتبهم فى مختلف العلوم والفنون لذلك اتجه كثير من أعلام النهضة الأوربية فى القرن الثانى عشر إلى أسبانيا ، يطلبون الارتواء من فيض الحضارة الإسلامية فى مختلف العلوم والآداب ، كالرياضيات والفلك والطب والفلسفة وغيرها . ومن هؤلاء الذين قصدوا أسبانيا فى القرن الثانى عشر أديلارد Adelard الانجليزى وهرمان Hermann من كارنثيا[2] ، وجيرارد الكريمونى . هذا عدا أهل أسبانيا من المستعربين واليهود

(1) Singer : From Magic to Science , p. 18.

(٢) شرقى التيرول وشمال البندقية .

الذين اشتغلوا بنقل المعارف العربية وترجمتها ؛ مثل دومونيقوس جونديسالفي Dominicus Gondisalvi وبطرس ألفونسى Petrus Alphonsi وحنا الأشبيلي John of Seville وإبراهيم بن عزرا Abraham ben Ezra ولا نعرف — للأسف — كثيراً عن حياة هؤلاء العلماء ، وعما كان بينهم من اتصالات وتعاون وكل مايدولنا هو أن عملهم لم يتركز فى مدينة واحدة ، وإنما نشطت حركة الترجمة عن العربية فى برشلونه وطرزونة إلى الجنوب منها ، وليون وبمبلونة . أما طليطلة فكان لها شأن كبير فى ذلك الميدان ، إذ أنشأ ريموند رئيس أساقفة طليطلة مكتباً كبيراً للترجمة عن العربية فى النصف الأول من القرن الثانى عشر ، وتمت فى ذلك المكتب ترجمة كثير من أمهات المراجع العربية إلى اللاتينية . كذلك لانستطيع تحديد تاريخ ثابت لبداية حركة الترجمة فى أسبانيا ، وإن كان كثير من أعلام هذه الحركة يرجعون إلى النصف الأول من القرن الثانى عشر ، مثل روبرت الشسترى Robert of Chester (ت ١١٤٤) الذى ترجم القرآن لأول مرة إلى اللغة اللاتينية ، كما ترجم كتاب الخوارزمى فى الرياضيات ، فضلا عن بعض المؤلفات العربية الأخرى فى الكيمياء والفلك [1] أما النصف الأخير من القرن الثانى عشر ، فشهد جهود زعيم حركة الترجمه عن العربية . وهو جيرارد الكريمونارى Gerard of Cremona (١١١٤—١١٨٧) الذى رحل إلى طليطلة حيث قضى عدة سنوات تعلم فيها العربية على أحد المستعربين [2] وعندما أدرك أن العالم الغربى مفتقر تماما إلى تلك الدراسات التى زخرت بها المكتبة العربية فى طليطلة فى كل علم وفن ، عكف على ترجمتها إلى اللاتينية ، حتى توفى سنة ١١٨٧ وهو فى الثالثة والسبعين من عمره ، بعد أن ترجم إلى اللاتينية أكثر من سبعين مؤلفا عربياً [3] تناولت مختلف ألوان المعرفة كالمنطق والرياضيات والطبيعة والكيمياء والطب [4] . على أن وفاة جيرارد الكريموناوى لم تؤثر فى سير حركة الترجمة عن العربية ، إذ ظهر فى أوائل القرن الثالث عشر

---

1) Singer : op. cit. ; p. 80.

2) Ibid.

3) Haskins : The Renaissance ; P. 287.

وقدر سنجر هذه الكتب التى ترجمها جيرارد بأكثر من تسعين كتابا .

4) Ball : A Short Account of the History of Mathematics p. 166.

الفرد الإنجليزى ، وميخائيل سكوت السكتلندى ، وهرمان الألمانى ،وجميعهم ، عملوا فى ترجمة الكتب العربية بأسبانيا .

وإذا كانت حركة الترجمة من العربية إلى اللاتينية اتخذت لها أكثر من مركز فى القرن الثانى عشر ، فإن حركة الترجمة عن اليونانية لم يكن لها سوى مركز رئيسى واحد ، هو صقلية وإيطاليا حيث التقت الثقافات الثلاث اليونانية واللاتينية والعربية . وكانت مملكة النورمان فى صقلية وجنوب إيطاليا هى المكان الطبيعى لالتقاء تلك الثقافات . ذلك أن هذا الجزء ظل مدة طويلة تابعا للامبراطورية البيزنطية، ولذا احتفظ بكثير من تراث اليونان، كما استمرت اللغة اليونانية سائدة بين نسبة كبيرة من أهاليه . هذا إلى أن العلاقات بين صقلية وجنوبى إيطاليا من ناحية ، والشرق اليونانى من ناحية أخرى، ظلت قائمة حتى بعد أن فقدت الدولة البيزنطية سيطرتها على تلك البلاد . ففى القرن الحادى عشر احتفظ تجار أمالفى Amalfi بنشاط كبير مع القسطنطينية بل مع بلاد الشام ، فصدر الصناع البيزنطيون الأبواب البرونزيه الضخمة اللازمة لكنائس إيطاليا وقصورها ، هذا فى الوقت الذى اعتاد الحجاج ورجال الدين الغربيون أن يعودوا من الشرق وبصحبتهم المؤلفات والكتب الدينية اليونانية ليترجموها إلى اللاتينية .

على أن حركة الترجمة من اليونانية إلى اللاتينية لم تنشط فى إيطاليا وصقلية إلا منذ النصف الأول من القرن الثانى عشر . وساعد على نشاطها ما وجد فى صقلية وإيطاليا من مكتبات ضمت كثيراً من الكتب اليونانية لا سيما ما يختص منها بالموضوعات الدينية . وقد وجدت أهم مجموعة من تلك الكتب فى الأديرة الباسلية[١] . أما بالرمو عاصمة ملوك صقلية النورمان فزخرت بمجموعة ضخمة من المؤلفات اليونانية ؛ مما شجع هؤلاء الملوك ـ لاسيما روجر الثانى وخلفائه ـ على رعاية حركة الترجمة عن اليونانية . وتزعم هذه الحركة اثنان من رجال الإدارة فى بالرمو هما هنرى ارستبوس Henricus Aristippus وأيوجين Eugene .

---

(١) عن الاديرة الباسليه أنظر (سعيد عاشور : أوربا الوسطى ؛ ج ١ ، ص ١٤٩ ، ج ٢ ص ٢٦) :

وكان الأول حاكما على قطانيا Catania سنة ١١٥٦ ، عندما اشتغل ببعض مؤلفات أفلاطون ، ثم أصبح موظفاً كبيراً فى إدارة القضاء بصقلية من سنة ١١٦٠ حتى سنة ١١٦٢ . ويرجع إليه الفضل فى ترجمة كثير من كتابات أفلاطون وأرسطو لأول مرة من اليونانية إلى اللاتينية مباشرة ، وهى التراجم التى ظلت متداولة فى غرب أوربا بقية العصور الوسطى حتى أوائل عصر النهضة الإيطالية . كذلك يرجع إليه الفضل فى جلب بعض المخطوطات اليونانية الهامة إلى صقلية من مكتبة مانويل الأول كومنين إمبراطور القسطنطينية ؛ ومنها كتاب بطليموس السكندرى فى الفلك الذى ترجم إلى اللاتينية حوالى سنة ١١٦٠. أما أيوجين الأمير Eugene the Emir ، فامتاز هو الآخر بالكفاية فى اللغات اليونانية والعربية واللاتينية ؛ وإليه يرجع الفضل فى ترجمة كثير من المؤلفات اليونانية والعربية إلى اللاتينية[1] .

وبالإضافة إلى جهود ملوك النورمان فى تشجيع التراث الشرق وترجمته إلى اللاتينية ، نلاحظ أن العلاقات ـ الرسمية وغير الرسمية ـ بين الامبراطورية البيزنطية من ناحية والبابوية والامبراطورية الغربية من ناحية أخرى ، مهدت للتبادل الثقافى بين الشرق اليونانى والغرب اللاتينى . ويضيف راشدال إلى ذلك أن إستيلاء الحملة الصليبية الرابعة على القسطنطينية سنة ١٢٠٤ فتح أمام الغرب الأوربى للتعرف على كثير من الكتب والدراسات اليونانية القديمة ، فجمع الغربيون منها ما استطاعوا وترجموا بعض ما جمعوه إلى اللاتينية فى القرن الثالث عشر[2] . ثم إن هناك فريق من الإيطاليين تعلموا اليونانية عن طريق أسفارهم إلى القسطنطينية لأغراض سياسية أو تجارية أو دينية . ومن هذا الفريق بعض أسماء لامعة ، أسهمت فى حركة الترجمة عن اليونانية ، مثل جيمس البندقى الذى ترجم المنطق الجديد لأرسطو ، وموسى البرجامى Moses of Bergamo الذى تدل آثاره الباقية على نشاطه المتنوع فى النحو والترجمة والشعر ، فضلا عن جهوده فى جمع المخطوطات . أما برجنديو البيزى Burgundio of Pisa فكان شخصية بارزة فى الحياة العامة فى بيزا ، وقام

1) Haskins : The Renaissance ; p. p. 292—293.
2) Rashdall : op. cit. ; Vol 1; p. 358.

بعدة سفريات إلى القسطنطينية . ومع أنه لم يمارس الترجمة عن اليونانية إلا فى أوقات فراغه فقط ، إلا أن إنتاجه فاق جميع معاصريه من الغربيين[1] .

هذا عن حركة الترجمة عن العربية واليونانية فى القرن الثانى عشر ، وهى الحركة التى ترتب عليها إنعاش الحياة الفكرية فى غرب أوربا فى الجزء الأخير من العصور الوسطى . ومن الغريب أن المترجمين عن العربية اتفقوا مع إخوانهم المترجمين عن اليونانية فى معالجة موضوعات متشابهة كالفلسفة والرياضيات والطب والعلوم الطبيعية ، مما جعل هذه الدراسات تصل إلى الغرب اللاتينى عن طريق ترجمتها عن العربية أو عن اللاتينية ، أو عن الطريقين معاً . وأدى إلى ذلك أن العرب كانوا قد نقلوا إلى لغتهم كثيراً من مؤلفات اليونان وأبحاثهم . وإذا كانت مؤلفات أفلاطون قد تعذر الحصول عليها عندئذ فى غير اللغة اليونانية ، فإن كتابات أرسطو أمكن الحصول عليها فى اليونانية والعربية . وكثيراً ما نصادف فى ذلك العصر ترجمتين باللاتينية لمؤلف واحد أصله باليونانية ، إحداهما مأخوذة عن العربية والأخرى مأخوذة عن الأصل اليونانى مباشرة . وفى معظم الحالات كانت الترجمة عن العربية تسبق زمنياً الترجمة عن اليونانية[2] .

العلوم :

وفى ضوء حركة الترجمة السابقة ، نستطيع أن نتتبع النهضة العظيمة التى شهدها القرن الثانى عشر فى ميدان العلوم والفلسفة . أما فى العلوم بالذات فيبدو أن غرب أوربا لم يعرف حتى نهاية القرن الحادى عشر أكثر من مختصرات إيسيدور Isidore وبدى Bede وبعض أبحاث متفرقة لكتاب الرومان . ولكن حدث فى المائة عام التالية — أى خلال القرن الثانى عشر — أن أقبل الأوربيون على علوم العرب وفلسفتهم ، وبالتالى على علوم اليونان التى نقلها العرب إلى لغتهم ، فلم تحل سنة ١١٢٥ إلا وكان غرب أوربا قد حصل فى الرياضيات والفلك

---

1) Haskins : The Renaissance ; p. 294.

2) Haskins : The Renaissance ; p. p. 299—301.

والكيمياء على دراسات إقليدس وبطليموس السكندرى ، فضلا عما كتبه العرب فى هذه العلوم ؛ وفى الطب على كتابات جالينوس Galen وهيبوقراط وابن سينا من علماء العرب . . هذا إلى ظهور الروح التجريبية فى مناهج البحث، مما يجعلنا نقرر فى ثقة واطمئنان أن القرنين الثانى عشر والثالث عشر شهدا فعلا نهضة علمية فى غرب أوربا[1] .

على أننا يجب أن نتذكر دائماً أن نهضة القرن الثانى عشر فى ... وب الأوربى لم تأت مصحوبة بإهمال ايسيدورس وأتباعه السابقين ، ونبذطريقتهم غيرالعملية فى البحث والتفكير . فالواقع أن علوم هؤلاء المفكرين ومناهجهم ظلت ماثلة قوية الأثر فى غرب أوربا إلى ما بعد القرن الثانى عشر بكثير . ولكن مافعله القرن الثانى عشر هو أنه أثار نهضة علمية ، لا عن طريق محو المعلومات القائمة فعلا : وإنما عن طريق تعريف الغرب الأوربى بتراث اليونان العلمى وعلوم العرب الجديدة ، مما أثار نهضة علمية حقيقية . هذا إلى أن معلومات الشرقيين — العرب واليونانيين — التى تدفقت على غرب أوربا فى القرن الثانى عشر ، بلغت من الغزارة والتنوع درجة استوجبت تقسيمها وتصنيفها ، ومن ثم بدأ يظهر نوع من التخصص العلمى . ويبدو الفارق فى المستوى العلمى واضحاً إذا قارنا بين كتاب لامبرت Lambert الذى يرجع إلى حوالى سنة ١١٢٠ والذى لا تتعدى معلوماته ما جاء فى المراجع اللاتينية المعروفة مثل ايسيدورس وبلينى وبدى ؛ وما كتبه فنسان Vincent حوالى منتصف القرن الثالث عشر ، وهو عبارة عن دائرة معارف ضخمة فى العلوم ، تدل على غزارة المعلومات وكثرة الاطلاع وتنوع المادة .

والواقع أنه لابد من استعراض بعض العلوم وما أصابته من تقدم فى القرن الثانى عشر ، لندرك مدى التطور العلمى فى ذلك القرن . ففى العلوم الرياضية لم يهمل التعليم فى العصور الوسطى الحساب والهندسة والفلك . ولكن هذه الدراسات استمرت بسيطة وبدائية حتى أوائل القرن الثانى عشر عندما ظهرت ترجمة لاتينية لما كتبه إقليدس فى الهندسة . ويبدو أن هذه الترجمة لم تؤخذ عن

1) Dampir: AShort History of Science ; p. p. 40--41.

الأصل اليونانى ، وإنما عن الترجمة العربية . ومهما كان الأمر ، فقد كان لظهورها أثر كبير ، إذ رفعت من شأن علم الهندسة وجعلت هذا العلم يتبوأ مكانته التى لا يزال يشغلها حتى اليوم[1] . وفى سنة ١١٢٦ نقل أديلارد الباثى جداول حساب المثلثات للخوارزمى إلى اللاتينية . وفى سنة ١١٤٥ نقل روبرت الشسترى كتاب الجبر للخوارزمى إلى اللاتينية كذلك ، وبذلك أدخل علماً جديداً فى غرب أوربا . كذلك نقل أحد يهود أسبانيا فى القرن الثانى عشر — وهو إبراهيم بن عزرا (١٠٩٧ — ١١٦٧) بعض مؤلفات العرب فى الفلك والرياضيات إلى اللاتينية ، وأهم مافى ذلك أنه شرح للأوربيين نظام الأعداد العربى — أو بعبارة أصح الهندى — والأرقام التسعة مع كيفية استخدام الصفر. وهناك من الباحثين من يعتقد أن هذا النظام العددى انتقل عن طريق العرب إلى أوربا خلال عمليات التبادل التجارى بين العرب والأوربيين ، لا عن طريق الكتب الأكاديمية . ومهما كان الأمر ، فالذى يهمنا هو أن معرفة أوربا للنظام العددى الجديد أحدثت ثورة فى الحساب وساعدت على التقدم الرياضى الذى شهدته أوربا فى ذلك العصر والعصور التالية[2] .

أما علم الفلك فالمخطوطات التى وجدت عنه فى أوائل القرن الثانى عشر بغرب أوربا لم تتعد معلومات بدى والرياضى الكارولنجى هلبرك Helperic . وإذا ظهرت فى الكتب الأوربية عندئذ بعض إشارات عن الاسطرلاب ، فإن هذا لايعنى بأى حال معرفة الأوربيين للفلك العربى فى ذلك الوقت . ولكن حدث سنة ١١٢٠ أن بدأ أحد الإنجليز وهو والشر Walcher فى حساب الدقائق والثوانى ، بعد أن تعلم ذلك من بطرس ألفونس الأسبانى اليهودى . وفى سنة ١١٢٦ ترجم أديلارد الباثى كتابات الخوارزمى فى الفلك ، وتبع ذلك مباشرة ترجمة كتابات البتانى والفرغانى وغيرهما من علماء المسلمين. أما كتابات بطليموس السكندرى — وهى خلاصة ما وصل إليه القدماء فى علم الفلك — فقد نقلت عن اليونانية حوالى سنة ١١٦٠ وعن العربية حوالى سنة ١١٧٥ . ومهما كان

---

1) Ball : op. cit. p. 165.
2) Idem ; p. 166.

أمر هذه الكتابات ، فمن الواضح أن العرب هم أصحاب الفضل فى التقدم بعلم الفلك فى العصور الوسطى ، إذا خطوا به خطوات واسعة نحو الأمام فصححوا معلومات بطليموس وغيره من علماء العصر القديم . وأضافوا إليها الشيء الكثير من التعديلات والإضافات . وفى الربع الثانى من القرن الثانى عشر وصلت معلومات العرب هذه إلى أوربا ، مما أتاح للعالم الغربي فرصة طيبة ليطلع على معارف جديدة لم يسمع الأوربيون عنها من قبل . وربما دفع الأوربيين إلى العناية بعلم الفلك عناية خاصة . ما لهذا العلم من أهمية فى تحديد مواعيد الأعياد الدينية[1] . وهكذا ظهر علماء متخصصون فى الفلك فى الجامعات الأوربية فى القرن الثالث عشر . كما حرص الملوك والأمراء على استشارة الفلكيين ليس فقط فى المهام الأمور السياسية ، بل أيضاً فى دقائق حياتهم الخاصة .

أما علم الجغرافيا فلم يحرز تقدما كبيراً فى غرب أوربا فى القرن الثانى عشر . ذلك أن الحزام الذى أحاط به المسلمون أوربا من جهة الجنوب حال دون توغل الأوربيين فى ذلك الاتجاه . وفى الوقت نفسه لم تعرف أوربا كتابات الجغرافيين العرب أمثال المسعودى وابن حوقل والاصطخرى فى وقت مبكر . وعلى ذلك ظلت المعلومات الجغرافية المعروفة فى غرب أوربا لا تتجاوز ما كتبه القدماء مثل بطليموس السكندرى وايسيدورس . وما قام به الفيكنج فى القرن التاسع من اكتشافات فى المناطق الشمالية[2]، واستمر الوضع على ذلك حتى النصف الاخير من القرن الثانى عشر عندما ظهرت بعض الكتابات التى تشير إلى تقدم علم الجغرافية فى غرب أوربا . وفى سنة ١١٨٠ كتب جيرالدوس كامبرنسيس Giraldus Cambrensis عن جغرافية أيرلند وويلز . فوصف البحيرات والأنهار والجبال والمناخ ومظاهر المد والجزر على شاطىء البحر الايرلندى ، مستعيناً بما استقاه من معلومات الملاحين والصيادين . لم يقتصر جيرالدوس على وصف المظاهر السابقة ؛ وإنما تعرض للغة الأهالى وعاداتهم وتقاليدهم وتأثير المناخ على أمزجتهم وطباعهم ، مع الإشارة الى فضائلهم ونقائصهم . كذلك أخذ الأوربيون فى ذلك الوقت يتنبهون لدراسات العرب الجغرافية وعلى رأسها كتابات

1) Baskins : The Renaissance ;321.

1) Eyre : op. cit. ; Vol. 3 ; p. p 3:3—

لإدريسى . ولم تلبث أن ازداد النشاط الجغرافى عندما عرف الغرب استعمال البوصلة . وهكذا أخذت أوربا تعد نفسها بين سنتى ١٢٦٠ ، ١٤٢٠ للانقلاب الجغرافى العظيم الذى تزعمه الأمير هنرى الملاح (١٣٩٤ — ١٤٦٠) .

وكذلك فى علم الطبيعة تدفقت المعلومات على غرب أوربا فى القرن الثانى عشر ، سواء تلك المعلومات التى ترجمها العرب عن اليونانية أو النتائج العلمية العظيمة التى توصل إليها العرب أنفسهم[1] ففى منتصف ذلك القرن نلاحظ كثرة الأبحاث التى عالجت طبيعة الكون وعناصره ومظاهر الزلازل والبراكين ، وغير ذلك من الدراسات التى تدل على تقدم نطاق التفكير العلمى واتساعه .

أما علم الكيمياء فظل الغموض يحيط به طيلة العصور الوسطى فى غرب أوربا ، حتى إذا ما حل القرن الثانى عشر ، ترجم جيرارد الكريمونى ثلاث مؤلفات عربية فى ذلك العلم . ومن المعروف أن العرب لهم فضل كبير على تقدم علم الكيمياء فى العصور الوسطى ، ولكن من المرجح أن الفائدة التى حصلها الأوربيون من العرب فى ذلك العلم لم يظهر أثرها واضحاً إلا فى الفترة الواقعة بين القرنين الرابع عشر والسادس عشر ؛ هذا وإن ظهرت بعض مؤلفات جديدة فى علم الكيمياء فى غرب أوربا أوائل القرن الثالث عشر مثل كتابات ميخائيل سكوت وفريار إلياس Friar Elias وغيرهما[2] .

وفى الطب شهد القرن الثانى عشر كذلك إحياء دراسات اليونانيين كما شهد ترجمة كثير من المؤلفات العربية الشهيرة . وكان المحور الرئيسى للنشاط الطبى فى ذلك العصر مدرسة سالرنو ، وهى أول معهد طبى عرفته أوربا الحديثة . ويبدو أن معلومات اليونانيين فى الطب لم تندثر مطلقاً من جنوب إيطاليا فى العصور الوسطى . ولم تلبث أن تبلورت هذه المعلومات فى سالرنو بجنوب إيطاليا ، مما ساعد على الشهرة العظيمة التى تمتعت بها تلك المدينة منذ القرن العاشر . وساعد على تقدم علم الطب فى سالرنو الكتابات اليونانية التى ترجمها قسطنطين الأفريقى من العربية إلى

---

1) Ball : op. cit. ; p. 166.

2) Haskins : The Renaissance ; p. 321.

اللاتينية فى أواخر القرن الحادى عشر [١] . وهكذا أخذت جامعة سالرنو [٢] فى القرن الثانى عشر تتمتع بنظامها ومناهجها الخاصة وأساتذتها الذين عالجوا مختلف نواحى الطب والجراحة ؛ ومن هؤلاء الأساتذة جاريوبنتوس Cariopontus وأورسو Urso ، وروجر ، ونيقولا ، وغيرهم . ومع أنهم تجنبوا تشريح جسد الإنسان ، إلا أنهم تركوا رسالة فى تشريح جسد الخنزير ، كما اهتموا اهتماما كبيراً بطب العيون والصيدلة وتركيب الأدوية . وكان من المتعذر على جامعة سالرنو أن تصل إلى تلك الدرجة دون الاعتماد على معلومات اليونانيين والعرب فى الطب . فبالإضافة إلى ما نقله قنسطنطين الإفريقى ، قام جيرارد الكريمونى بنقل كثير من المؤلفات التى ترجمها العرب إلى لغتهم ، كما نقل إلى اللاتينية بعض المؤلفات العربية الشهيرة فى الطب مثل كتاب « الملكى » لعلى بن العباس ، وكتاب « القانون » لابن سينا .

أما علماء الحيوان والنبات فكان نصيبهما ضئيلا ومحدوداً من النهضة العلمية فى القرن الثانى عشر . فعلم الحيوان ظل يعتمد على كتابات بيلينى ، وإن ظهرت عناية الملوك المعاصرين — مثل هنرى الثانى وفردريك الثانى — بالحيوانات الغريبة . وعلم النبات ظل مرتبطا بحاجة الطب من العقاقير والأعشاب . ويبدو أن هذه النظرة الضيقة إلى النباتات مأخوذة عن اليونانيين ، كما يظهر فى ترجمة كتاب ديسقريدس Dioscorides اللاتينية [٣] .

وفى ختام كلامنا عن النهضة العلمية فى القرن الثانى عشر ، يصح أن نشير إلى مدى تأثر رجال ذلك العصر بروح اليونانيين والعرب فى الملاحظة ومنهج البحث التجريبى . وهنا يبدو لأول وهلة أن الأوربيين فى العصور الوسطى أخذوا من علوم اليونانيين والعرب أكثر مما أخذوه من طرقهم فى البحث . على أننا فى القرن الثانى عشر بالذات نلاحظ عدة أمثلة تدل على ظهور روح البحث التجريبى . وهنا يبدو لأول وهلة أن الأوربيين فى العصور الوسطى أخذوا

---

1) Rashdall : op. cit. ; Vol 1 ; p. p. 77—78.

(٢) عن نشأة جامعة سالرنو أنظر كتاب (الجامعات الأوربية فى العصور الوسطى ؛ تأليف سعيد عاشور ص ٧٣ — ٧٥) .

3) Haskins : The Renaissance ; p.329.

من علوم اليونانيين والعرب أكثر مما أخـــذوه من طرقهم فى البحث . على أننا فى القرن الثانى عشر بالذات نلاحظ عدة أمثلة تدل على ظهور روح البحث والتجربة بين المعاصرين ، ففى سنة ١٠٩٢ حاول والشر Walcher تحديد الفرق الزمنى بين انجلترا وإيطاليا عن طريق الكسوف ، فى حين عمـــل غيره من المعاصرين الوقوف على ظواهر بركان إتنا الثائر ؛ أو قياس ارتفاع المد على شواطىء أيرلند وويلز . . . وغير ذلك من الأبحاث التى لاتخلو من روح المشاهدة والتجربة . ومن علماء القرن الثانى عشر الذين أولوا المشاهدة والتجربة عناية خاصة أديلارد الباثى الذى تنقل فى النصف الأول من ذلك القرن بين بلاد حوض البحر المتوسط طلبا للمعرفة واكتسب نتيجة لذلك الشىء الكثير من روح العرب واليونانيين الواقعية ومناهجهم التجريبية فى البحث [1] .

وفى القرن الثالث عشر اهتم الإمبراطور فردريك الثانى (١٢١٠ — ١٢٥٠) بالعلوم اهتماما زائداً ، فلم يكتف بترجمة بعض ما كتبه العرب فى العلوم ، وإنما كتب عن الطيور وطبائعها وخصائصها معتمداً على إطلاعـــه ومشاهداته وتجاربه [2] . كذلك أجرى عدة تجارب على الإنسان ، منها القصة الشهيرة التى تقول إنه حبس رجلا فى مكان محكم ليثبت أن الروح تموت مع الجسد ، وألا حياة لها بعد وفاة صاحبها . ولعل هذه الأمثلة تكفى لدحض الأسطورة القائلة بأن روجر بيكون هو مبتدع المـــذهب التجريبى فى أوربا العصور الوسطى [3] .

الفلسفة .

أما الفلسفة فقد ارتبطت فى العصور الوسطى بالعلوم البحتة حتى اعتبرت جزءاً أو فرعا منها ، وذلك وفقاً لما كان عليه الحال عند اليونانيين القدماء . ولكن

---

(١) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ج ٢ ص ٢١٧ — ٢١٨ .

2) Ball : op cit. ; p. p. 170—171.

3) Haskins : The Renaissance ; 335.

القرن الثانى عشر بالذات يمثل مرحلة انتقال أساسية فى تاريخ الفلسفة واستقلالها ونموها [1] ؛ وذلك بفضل إحياء فلسفة أرسطو وأفلاطون ، وانتصار المنطق على الأدب ، وتقدم الطريقة المدرسية على أيدى أبيلار وجراشيان وبطرس لمبارد . وهكذا تم فى القرن الثانى عشر وضع أساس ذلك البناء العظيم المترابط الأجزاء الذى نراه فى القرن الثانى عشر .

والمشاهد أن أرسطو كان أقوى أثرا من أفلاطون فى الحياة الفكرية الغربية فى العصور الوسطى ، وبصفة خاصة منذ القرن الثانى عشر . والسبب فى ذلك لا يرجع فقط إلى أن فلسفة أرسطو تتصف بطابع التعميم الذى يجعل منها مادة صالحة لكل زمان ومكان ، بعكس أفلاطون الذى كان يكتب لأهل أثينا والذى ظل تفكيره يعبر إلى حد كبير عن عقائد اليونانيين — ؛ وإنما يرجع أيضاً إلى أن التفكير الفلسفى فى العصور الوسطى قام على أساس منطق بوئيوس (٤٧٠ — ٥٢٧) Beothius ، وهو منطق مستمد من أرسطو [2] . هذا إلى أن طريقة أفلاطون فى أن يطلق عنان تفكيره ليعالج موضوعا من الموضوعات عن طريق حوار جدلى لم تكن مستساغة فى العصور الوسطى ؛ فى حين اتصفت طريقة أرسطو بحسن العرض والتركيز والإيجاز المفيد ، وهى الإتجاهات التى تتفق مع ما عرف عن أهالى العصور الوسطى من حبّ للمختصرات والكتب الموجزة . وهكذا عثر رجال الفكر فى العصور الوسطى على ضالتهم فى شتى ميادين الفلسفة والعلوم فى مؤلفات أرسطو ؛ مما جعل أرسطو أبا الفلسفة وأميرا لها فى تلك العصور [3] .

ولكن ليس معنى هذا أن المدرسة الافلاطونية عجزت عن أن تشق لنفسها طريقا — ولو ضيقا — فى العصور الوسطى عامة ، والقرن الثانى عشر خاصة . ومن ذلك أن بعض كتابات أفلاطون ترجمت إلى اللاتينية فى النصف الأخير من القرن الثانى عشر ، عندما غدت مدرسة شارتر تمثل أكبر مركز للدراسات الأفلاطونية . ولكن هذا لا يخفى الحقيقة الواقعة ، وهى أن هذه الحركة كانت

---

1) Eyre : op: cit. Vol. 3 ; p. 288.

2) Pirenne : La Civilisation Occidentale ; p. 200

3) Haskins : The Renaissance ; p. 243.

قصيرة العمر ، ضعيفة الأثر فى الحياة الفكرية المعاصرة ، وسرعان ماذبل نفوذ أفلاطون قبل الإحياء الشامل لفلسفة أرسطو فى ذلك القرن .

ولم يعرف من أبحـــاث أرسطو فى أوائل العصور الوسطى سوى ستة أبحاث فى المنطق ، هى التى ترجمها بوئثيوس إلى اللاتينية [١] . ولكن لم يلبث فى النصف الأول من القرن الثانى عشر أن عرفت من كتب أرسطو التحليلات الثانية والجدل والأغاليط ، وقد سميت جميعها بالمنطق الجديد تمييزا لها من كتب المقولات والعبارة والتحليلات الأولى ، وهى التى عرفت جميعها بالمنطق القديم [٢] وهكذا أخذت كتابات أرسطو تظهر فى غرب أوربا تباعا منذ سنة ١١٢٨ ، فلم ينته القرن الثانى عشر إلا وكان معظمها ترجم إلى اللاتينية . أما ما بقى من تلك الكتابات ـ مثل ما كتبه أرسطو فى الحيوان والأخلاق والبلاغة والشعر ـ فقد ترجم فى القرن الثالث عشر ، بحيث لم تحل سنة ١٢٦٠ إلا وكان جميع ما بقى من تراث أرسطو معروفا فى غرب أوربا ؛ وعندئذ انهمك رجال العلم فى مقارنة التراجم اللاتينية المأخوذة عن العربية بتلك المأخوذة عن اليونانية مباشرة . ويلاحظ فى كتابات أرسطو التى وصلت إلى غرب أوربا عن طريق العرب أن الأوربيين تلقوها مزودة بكثير من الشروح والتعليقات التى كتبها فلاسفة المسلمين. وبعض هذه الشروح — وبخاصة شروح ابن رشد — جاءت صادقة لا تحريف فيها ولا تستر عليها ؛ مما جعلها تثير ضجة فى الكنيسة الغربية ضد ابن رشد وأرسطو جميعاً . ففى سنة ١٢١٠ حرم مجمع باريس تدريس فلسفة أرسطو وتناقلها . وتكرر هذا الحرمان سنة ١٢١٥ ضد كتابات أرسطو ، لا سيما فيما يتعلق بالميتافيزيقا . وفى سنة ١٢٣١ حرم البابا تدريس فلسفة أرسطو فى جامعة باريس حتى يتم تهذيبها وتنقيحها بواسطة لجنة خاصة . والواقع أنه لم يتم شىء من ذلك التهذيب الذى أرادته البابوية لكتابات أرسطو ، حتى أننا نجد المنطق الجديد يدرس تاما وكاملا لطلبة الدراسات العليا بجامعة باريس سنة ١٢٥٥ [٣] .

---

1) Cam. Med. Histf ; Vol. 5 ; p. 789.

(٢) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الأوربية ، العصر الوسيط ص ٩٩ .

1) Rashdall : op. cit. ; Vol. 1; p. p. 354—358. & Haskins: The Renaissance ; p. 847.

على أنه ينبغى أن نشير إلى أن الفضل فى النشاط الفلسفى الذى شهده الغرب الأوربى فى القرن الثانى عشر لا يرجع فقط إلى مؤثرات اليونانيين والعرب وعلومهم . ذلك أنه وجد من رجال الفلسفة والفكر فى ذلك العصر من سبقوا من الناحية الزمنية حركة تدفق العلوم والدراسات العربية واليونانية على أوربا ، مثل روسيلنوس وأنسلم وأبيلار . أما روسللينوس Rosecllinus (١٠٥٠ — ١١٢٠) فيعتبر أول من نادى بمذهب الاسمية ، فقال إن الجزئى هو الموجود وأنه فى وجوده غير متجزىء ، فى حين أن الكليات ليست إلا مجرد أصوات (Flatus Vocis) [1] . وتمييزنا للجنس والنوع والجوهر والعرض ليست إلا تمييزا لفظياً لا يقوم إلا على أساس الكلام . فبالكلام فقط نفصل الإنسان عن سقراط ، ولكن الإنسان الذى نقصده فى حديثنا هو فى الواقع سقراط ؛ وكذلك بالكلام فقط نفصل البياض عن الجسم الأبيض ولكن البياض الذى نقصده ليس فى الواقع إلا شيئاً أبيض اللون . وهكذا لا يمكن أن نتصور إنسانية دون إنسان معين ولا بياضا دون أن نتخيل شيئا معينا أبيض اللون . وهذه الآراء التى نادى بها روسللينوس أحدثت ثورة ضخمة فى التفكير الفلسفى الأوربى ، استمرت مدة طويلة بعد وفاته [2] .

أما القديس أنسلم Anselme (١٠٣٣ — ١١٠٩) فقد جمع فى فلسفته بين العقل والإيمان . وهو إيطالى درس بفرنسا ودخل ديربك حيث تعلم ثم علم ، وبفضله ذاعت شهرة الدير فقصده كثير من طلاب العلم الفرنسيين والانجليز ، وظل به حتى عين سنة ١٠٩٣ رئيساً لأساقفة كانتربورى . وتدور معظم فلسفته حول موضوعات دينية ، لاسيما موضوع وجود الله وصفاته [3] . وهو يعترف فى كتاباته أنه تلميذ القديس أوغسطين وأنه أخذ عنه منهج (تعقل الإيمان) ، فيقول إن الإيمان هو الذى يوجد المحبة فى النفس ، والمحبة هى التى تدفع بالنفس إلى استعمال الرؤية الآجلة بالاستدلال ، وعلى ذلك فالإيمان شرط التعقل ، لأن الذى لا يؤمن لا يشعر بموضوع الإيمان ، والذى لا يشعر لا يعقل . وبعد ذلك

---

1) Cam. Med. Hist.; Vol 5 ; p. p. 795—795.

2) De Wulf : Hist. de la Philosophie Medievale, Tome 1 ; p. p. 102—106 & وكذلك يوسف كرم ص ٨١ — ٨٢

3) De Wulf : Tome 1 ; 114.

يورد أنسلم أدلة على وجود الله مستقاة عن النواحي التي تتشابه فيها الأشياء مع تفاوتها في ذلك التشابه [١] .

أما أبيلار Abelarod (١٠٧٩ — ١١٤٢) فهو أهم شخصية فلسفية في القرن الثاني عشر ، نظراً لما امتاز به من كفاية نادرة ومواهب عقلية ممتازة وجرأة في الابتكار والتجديد ،حتى أنه يمكننا وضعه بين أعلام فلاسفة العصور الوسطى قاطبة [٢] . كذلك عرف عنه أنه من أبرز رجال المنطق والجدل في عصره ، وإن كان ذلك سبب له مشاكل كثيرة ، إذ اتهمه معاصروه بضعف العقيدة رغم إيمانه الصادق . ومع ذلك لم يتراجع أبيلار ، وأخذ يدفع عن نفسه التهم والشبهات دون أن يحيد عن طريقه الشائك الصعب . وإليه — أكثر من أى مفكر آخر في عصره — يرجع الفضل في تحديد أساليب ومسائل المذهب المدرسي ، ولا سيما مسألة الكليات التي ظلت المشكلة الرئيسية في الفلسفة المدرسية [٣] فهل الاصطلاحات العامة والمدركات الكلية — مثل إنسان ومنزل وشجرة — ليست إلا أصوات ومجرد ألفاظ لا وجود فعلى لها كما يقول الأسميون Nominalists وعلى رأسهم روسيللنوس كما سبق ؛ أم هي حقائق واقعية لها كيانها المستقل عن الجزئيات ، كما يقول الواقعيون Realists ؟ ففي الحالة الأولى لا يمكن أن نتكلم عن الإنسانية دون تصور إنسان بذاته أو عن المنزل دون تصور منزل معين . اما في الحالة الثانية فيمكن اعتبار هذه الكليات ذات كيان قائم بذاته مستقل تماماً عن الجزئيات ، بمعنى أنه من الممكن أن نتكلم عن الإنسانية دون أن نتصور إنساناً بعينه ، وهكذا [٤] . وربما بدت هذه المشكلة في نظرنا تافهة وقليلة الأهمية ، ولكنها من الممكن أن تصبح على جانب عظيم من الخطورة إذا طبقت في المسائل الدينية الكبرى المتعلقة بوجود الله والثالوث المقدس وقدسية الكنيسة ، أو إذا طبقت على الدولة وأين تتمثل السلطة السياسية فيها . وقد توصل أبيلار إلى حل معتدل لهذه المشكلة ، فقال بأن الألفاظ تعتبر

---

(١) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ج ٢ ص ١٦٤ .

2) Taylor : The Med. Mind ; Vol. 2 ; p. 374.

3) Pirenne : La Civilisation Occidentale ; p. 203.

4) Maurice De Wulf : op. cit. ; Tome 1 ; p. p. 152—156.

كلية لأننا نقصد بها دلالة كلية ، وأن للأنواع والأجناس مقابلا فى الخارج ، وهذا المقابل هو طبيعة الجزئى مجردة من الأعراض . هذا إلى أن الطبيعة واحدة فى الجزئيات الحاصلة عليها ، فالأنواع والأجناس ذاتية فى الجزئيات، مجرد فى العقل[١] . ومن ناحية أخرى أسهم أبيلار بسهم وافر فى تكوين المدرسية — أو المذهب المدرسى Scholasticism[٢] — عن طريق كتابه « نعم ولا Sic et Non » : وهو الكتاب الذى عالج فيه نحو خمسين مسألة لاهوتية عن طريق الجدل مستعرضاً آراء آباء الكنيسة فى كل مسألة[٣] . ولا شك فى أن هذه الطريقة الجدلية التى اتبعها بعض فلاسفة الجزء الأول من القرن الثانى عشر اكتسبت قوة ونشاطا باكتشاف المنطق الجديد لأرسطو . وكانت كتب المنطق القديم لأرسطو التى عرفتها أوربا من قبل قد حفظت التوازن بين المنطق من جهة والنحو والبلاغة من جهة أخرى . ولكن حدث بعد انتشار طريقة الجدل فى القرن الثانى عشر ، وبعد ظهور المنطق الجديد لأرسطو ، أن طغى المنطق على النحو والأدب ، حتى أننا نجد أن حنا السبورى سنة ١١٥٩ يصيب على معاصريه إهمالهم الدراسات الكلاسيكية الأدبية واهتمامهم بالعلوم الجديدة وحدها ؛ كما نبههم إلى أن الجدل والمنطق يجب أن يكونا وسيلة لا غاية[٤] .

اللاهوت

ويتضح من كلامنا السابق عن الفلسفة أن النشاط الفلسفى فى القرن الثانى عشر ظل كما هو الحال فى العصور الوسطى قاطبة مرتبطا إلى حد كبير بالنشاط الدينى وعلم اللاهوت[٥] . فكثيرا ما خاض فلاسفة أمثال جيوم الكونشى Guillaume de Conches (ت١١٤٥) وأبيلار فى مسائل كنسية ولاهوتية بحتة[٦] . وفى الوقت نفسه اعتقد اللاهوتيون — كما قال بطرس دميانى

1) Cam. Med. Hist. ; Vol. V ; p. p. 797—800.
ويوسف كوم ص ١٠٥ .

(٢) عن الفلسفة المدرسية أنظر (سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى . ح٢ ص١٥٧ ١٥٧ وما بعدها) .

3) Pirenne : La Civilisation Occidentale ; p. 203 & De Wulf : op. cit. Tome 1 ; p. 155.

4) Haskins : The Renaissance ; p. 356.

5) Maurice de Wulf : op. cit. ; Tome 1 ; p. p. 20—22.

6) Rashdall : op. cit. ; Vol. 1 ; p. p. 44-45 20—22.

(+ ١٠٧٢) — أن الفلسفة خادمة اللاهوت ، فاشتغلوا — وعلى رأسهم روسيلينوس والقديس أنسلم — بالجدل والفلسفة ،وتعرضوا لكثير من المسائل الفلسفية البحتة . وهكذا سرعان ما تأثر اللاهوت بالفكر الفلسفي والأسلوب المنطقي . من ذلك أنه عندما ترجم برجنديو البيزى كتابات يوحنا الدمشقي [١] ، فإنه أضاف معلومات جديدة إلى اللاهوت الغربي . وعندما وضع بطرس لمبارد (ت ١١٦٤) كتاب « الأحكام » في علم اللاهوت ، ظهر فى كتاباته صدى آراء أبيلار وجراشيان .

وقد اهتمت البابوية باللاهوت اهتماما كبيراً ، لما يترتب على التوسع فى دراسته من تدعيم نفوذها وإمداد الكنيسة بدعامة قوية . وسرعان ما أصبح اللاهوت علما قائما بذاته يدرس فى الجامعات الأوربية الناشئة ، وبخاصة جامعة باريس [٢] . أما المراجع الأساسية التى قامت عليها دراسة اللاهوت فى جامعات العصور الوسطى فأولها الإنجيل ، وكتابات آباء الكنيسة ، ثم كتاب « الأحكام » الذى وضعه بطرس لمبارد . ومما يجدر بالذكر أن كتاب الأحكام هذا جاء فى أربعة أجزاء ، رتب فيها بطرس لمبارد مسائل اللاهوت ، وأرفق كل مسألة بحجج الإثبات أو النفى وفقا لأصول المنطق وقواعده، وبخاصة الطريقة التى اتبعها أبيلار . وعندما توفى بطرس لمبارد — وهو أسقف باريس — استمر كتابه بقية القرن الثانى عشر وطوال الثالث عشر المرجع الأساسى الذى اعتمد عليه تدريس اللاهوت فى غرب أوربا [٣].

وقد تعرضت الكنيسة واللاهوت لبعض أزمات فى القرن الثانى عشر ، نتيجة لظهور مبادىء هرطقية ، أولها مذهب وحدة الوجود Panthisme الذى نادى به عمورى دى بين Amaure de Béne (ت ١٢٠٧) ومعاصره داود دى دينان David de Dinant . وأنكر مجمع باريس الدينى سنة ١٢١٠ هذا المذهب ، الذى يحتمل أن تكون له صلة بآراء الرشديين [٤] . أما المذهب الهرطقى الثانى الذى انتشر فى القرن الثانى عشر فهو مذهب المانويين

(١) ولد فى دمشق فى أواخر القرن السابع وتوفى قبل سنة ٧٥٤ ؛ يعتبر أحد أعلام اللاهوت فى الكنيسة الشرقية ؛ اسمه العربى منصور .

(٢) سعيد عاشور الجامعات الأوربية فى العصور الوسطى ؛ ص ١٤٤ .

3) Haskins : The Renaissance ; p. p. 357—358.

4) Maurice De Wulf : op cit. ; Tome 1 ; p. p. 180—184

Manichaeans or Duolisti الذى نادت به فرقتان ، هما فرقة الكاثاريين Cathari أى الأطهار باليونانية،وفرقة الالبيجنسيين Albigensians التى انتشر اتباعها فى إيطاليا وفرنسا وبخاصة فى إقليم جبال الألب[١] . ومهما قيل من أن هذه الفرق استقت مبادئها من ألوان الهرطقة القديمة التى وجدت فى الامبراطورية الرومانية وفى الدولة الفارسية،فإن معظم الباحثين أجمعوا على أن مصدرها شرقى، وعلى أن العلاقة قوية بينها وبين بعض المذاهب الهرطقيـة التى ظهرت فى شبه جزيرة البلقان[٢] . وقد نادى المانويون بالتحرر من جميع القيود الدينيـــة والاجتماعية وتحريم الزواج ، ثم تمادوا إلى إباحة اغتيال الكاثوليك ونهب الأديرة والكنائس . ومن الواضح أن انتشار هذه الدعوة من شأنه هدم دعائم الكنيسة الغربية ، بل زعزعة أركان المجتمع الأوربى ؛الأمر الذى أفزع الكنيسة الغربية فأنشأت تعمل على إقناع فرق المانويين طوال القرن الثانى عشر دون جدوى ، حتى اضطر البابا أنوسنت الثالث إلى شن حرب صليبيـة على أولئك الهراطقة سنة ١٢٠٩ والقضاء على حركتهم قضاءاً تاما[٣] .

على أنه ينبغى ألا نفهم من موقف الكنيسة من بعض الفرق الهرطقيـة أن حرية الفكر كانت معدومة فى الغرب الأوربى فى القرن الثانى عشر أو فى العصور الوسطى . فالواقع إن هذة الحرية ظلت أعظم مما تصورها البعض عليه . وكل ما هنالك هو أن الناس كانوا أحراراً فى تفكيرهم وكتاباتهم داخل نطاق تعاليم الكنيسة . وحتى تلك القيود التى وجدت فى العصور الوسطى لم تكن بالضيق والصرامة التى يميل البعض إلى تصويرها عليه . فلم توجد هناك أية قوانين تحد من تفكير أساتذة القانون والطب والنحو والمنطق . . . وغيرها من العلوم . وعلى ذلك ظلت الفلسفة حرة طليقة طالما لم تصطدم باللاهوت وتعاليم الكنيسة[١] .

---

(١) عن هـذه المذاهب الهرطقية وأثرها فى تاريخ القرن الثانى عشر أنظر (سعيد عاشور أوربا العصور الوسطى ؛ ج ١ ص ٢٣٥ — ٢٤٠) .

(2) Cam. Med. Hist. ; Vol. 6 ; p. p. 702—703

(3) Pirenne : La Civilisation Occidentale ; p. 224.

(4) Haskins : The Renaissance ; p. 362.

الفكر السياسي :

أما عن فلسفة السياسة ، وهو التفكير الذي يعالج شئون السياسة وفلسفة الحكم ، فنجد أن نشاط القرن الثاني عشر كان ضعيفاً فيها ولكنه ليس معدوماً . فالمؤلفات التي خلفها أعلام القرن الثاني عشر لا تعبر عن النشاط السياسي في الدول المعاصرة مثل الإمبراطورية المقدسة وإنجلترا ومملكة الصقليتين وأرغونة. ولم يحاول معظم الفلاسفة المعاصرين أن يتعرضوا لشئون الحكم والدولة . وإذا كانت بعض الكتابات المعاصرة مست هذه المشاكل عن بعد ، فإنها مستها عن طريق المسائل المعلقة بين الكنيسة والدولة . وهنا نجد كثيراً من تلك الكتابات تركز اهتمامها في مسألة التقليد العلماني ، محور النزاع بين البابوية والإمبراطورية طوال الجزء الأكبر من القرن الثاني عشر . وحتى الكتابات المنظمة في هذا الموضوع لم تظهر قبل ترجمة كتاب أرسطو في السياسة سنة ١٢٦٠ .

على أن ركود الفكر السياسي في القرن الثاني عشر لا يمنعنا من الإشارة — في إيجاز — إلى تطور هذا الفكر في العصور الوسطى عامة ، حتى يمكننا تفهم الأسس التي بنى عليها حنا سالسبوري — أكبر فلاسفة السياسة في القرن الثاني عشر — آراءه في السياسة والحكم . وهنا نلاحظ أن الفكر السياسي في العصور الوسطى نبع من فكرة أساسية واحدة ،هي فكرة وجود إمبراطورية رومانية مسيحية. فالمفكرون في تلك العصور لم يقروا مطلقاً أن الإمبراطورية الرومانية انتهت بزوال الوثنية وأباطرتها . بل أخذوا يربطون بين الآراء السياسية في الإمبراطورية الرومانية من ناحية وبين تعاليم المسيحية ومبادئها من ناحية أخرى . ومعنى ذلك أن الناس في العصور الوسطى نظروا إلى العالم على أنه مجتمع سياسي ديني كبير ، يحكم وفقاً لقانون موحد، يمثل من جانبه الدنيوي التراث الروماني ، ومن جانبه الديني تعاليم المسيحية والكنيسة[1] .

والواقع إن ظهور المسيحية وانتشارها في غرب أوربا أدى إلى مولد مشكلة

---

(1) Eyre : op. cit. ; Vol. 3 : p. p. 278—279

سياسية خطيرة ظلت مستحكمة جزءاً كبيراً من العصور الوسطى . فالإمبراطورية الرومانية القديمة لم تعرف حدوداً لسلطة الدولة على الفرد ، واعتبرت الفرد يعيش من أجل الدولة وليست له أية حقوق قبلها . ولكن المسيحية أنكرت هذا الوضع ، ولم تقر بأن حياة الفرد كلها ملك لقيصر وإنما يجب أن يكون ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله . ومن هنا نشأت الفوارق بين السلطتين الزمنية والروحية . وهى الفوارق التى تحكمت تحكماً بعيد المدى فى سياسة العصور الوسطى ، حتى أدت فيما بعد إلى قيام صراع رهيب بين البابوية والإمبراطورية . ولقد حاول أحد رجال الدين فى القرن الخامس — وهو جلاسيوس الأول أسقف روما (٤٩٢ — ٤٩٦) — أن ينظم العلاقة بين السلطتين على أساس استقلال كل منهما عن الأخرى ، بشرط أن تتبع الكنيسة الدولة فى الشئون الدنيوية ، فى حين تتبع الدولة الكنيسة فى الشئون الدينية . ولكن الأحداث التالية طوال العصور الوسطى أثبتت صعوبة تنفيذ هذا الرأى تنفيذاً عملياً ، اللهم إلا فى حالات قليلة وتحت ضغط ظروف خاصة عندما تحقق نوع من التحالف بين الكنيسة والدولة[1] .

وعندما تعمق مفكرو العصور الوسطى فى بحث الأسس التى يقوم عليها المجتمع ، وصلوا إلى نتيجة لم تكن فى حقيقة الأمر من ابتكارهم ، إذ سبقهم إليها أرسطو قديماً . أما هذه النتيجة فهى أن الإنسان اجتماعى بالطبع : فالفرد لا يمكن أن يكون إنساناً إذا استساغ المعيشة الانفرادية لأنه فى هذه الحالة إما أن يكون إلهاً أسمى من مستوى البشر أو حيواناً أحط من مستوى البشر. ثم قال المفكرون فى العصور الوسطى : إن تنظيم المجتمع البشرى يقوم على أساسين : أولهما : القانون الطبيعى ويقصد به مجموعة الصفات والأخلاق الطيبة التى يجب أن يتحلى بها البشر ، وثانيهما القوانين المدنية الوضعية القائمة فى مختلف الدول ؛ والمفروض فيها أن تكون مستمدة من القانون السابق ومتمشية معه ، ولكنها فى الواقع تختلف عنه لأنها تعمل حساباً للتقاليد والعادات، حتى ولو كانت ذميمة. وهذا الخلاف — بين القانون الطبيعى والقوانين الوضعية — أثار مشكلة كبيرة نستطيع أن تنفذ منها إلى مشكلة الدولة السياسية ؛ أما هذه المشكلة فهى : هل

(1) Ibem : p. 10

القوانين الوضعية التي تختلف باختلاف الدول تتفق مع القانون الطبيعى ومبادىء الأخلاق؟أم هى مصطنعة فاسدة جاءت نتيجة لآثام الإنسان وشروره ؟ وبالتالى هل الوحدات السياسية التى قامت على أساس القوانين الوضعية إجراء طبيعى وسليم ، أم هى إجراء فاسد قام على أساس قوانين فاسدة[١] ؟

وقد تعرض لهذه المشكلة فى أوائل العصور الوسطى القديس أوغسطين (٣٥٤ — ٤٣٠) فى كتابه عن « مدينة الله De Civitas Dei » وهو الكتاب الذى ترك أثرا فى الفكر السياسى فى العصور الوسطى فاق الأثر الذى أحرزه أى مؤلف آخر . وتتركز الفكرة الأساسية التى يدور حولها هذا الكتاب فى المقارنة بين « مدينة الله Civitas Dei » و « مدينة الأرض Civitas Terrana » وإذا كان القديس أوغسطين قصد بمدينة الله ، مدينة الخيرين الذين باركهم الله ، فإنه بلاشك - يقصد بمدينة الأرض الوحدة السياسية أو الدولة ، التى اصطنعها الناس والتى تقوم على أسس من الشر والغدر والقوة.وبالتالى فإن سيطرة الإنسان على أخيه الإنسان فى ظل النظم السياسية ليست أمرا طبيعيا[٢] ، لذلك طالب القديس أوغسطين السادة أن يعاملوا عبيدهم كأبنائهم إذا كانوا يخشون الله[٣] . وهذه الآراء التى نادى بها القديس أوغسطين فى كتابة السابق رددها بعد ذلك بستة قرون البابا جريجورى السابع ثم البابا انوسنت الثالث ثم البابا بونيفيس الثامن(٤) .

على أن هذا الحكم الجائر على الدولة العلمانية لا يمثل الرأى القاطع الذى أخذ به مفكرو العصور الوسطى . هذا وإن لعب دوراً هاما فى الفكر السياسى لتلك العصور . فالمفكرون فى العصور الوسطى بوجه عام اعتبروا الدولة وليدة آثام البشر وأخطائه ، ولكنهم لم يعتبروا هذه الدولة آثمة ومليئة بالأخطاء على طول

---

(١) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ج ٢ ص ١٨٤ — ١٨٩ .

(2) Carlyle : A History of Medieval Political Theory in the West ; Vol. 1 : p.p. 126—128.

(3) Idem ; p, 123,

(4) Cam. Med. Hist. ; Vol. 6 p. p. 606-608.

الخط . حقيقة إن قيام الدولة ينافى القانون الطبيعى للبشرية ، وهو القانون الذى يقضى بالمساواة التامة بين جميع الأفراد أمام الله - على الأقل ، والذى يحول دون تحكم إنسان فى أخيه الإنسان ، ولكن المفكرين لم يستطيعوا أن ينكروا أن قيام الدولة أصبح أمرا مفيداً لا بد منه لمواجهة أعباء الحياة وظروفها القاسية ومطالبها العديدة ، وكذلك لكبح جماح البشر بعد أن تردى الإنسان فى الخطيئة وتخلى عن الصفات الطيبة التى يجب أن يتحلى بها . وبعبارة أخرى فإن الحكومة الدنيوية السياسية جاءت وليدة الخطأ والإثم ، ولكن بقاءها أصبح ضروريا لعلاج ذلك الخطأ والإثم . وكل ما هنالك هو أنها يجب أن تعتمد فى ذلك العلاج على تأييد الله ونصرة الدين ورجاله ، وفى هذه الحالة تجب طاعتها على الناس . هذه هى النظرية السياسية فى العصور الوسطى ، وهى التى توسع فيها دانتى بعد ذلك فى كتابه عن « الملكية De Monarchia » .

وقد ظهرت مدى الآراء السابقة فى جميع نواحى الفكر السياسى فى غرب أوربا فى العصور الوسطى وبداية الحديثة . فالقول بأن السلطة الزمنية لها وجه دينى مقدس فى محاربة الفساد والآثام ، أدى مباشرة إلى القول فى غرب أوربا بنظرية حق الملوك الإلهى أو المقدس (Divine Right of Kings)[1] . حقيقة إن هناك عوامل أخرى أسهمت فى تطور هذه النظرية فى الغرب الأوربى ، منها ما نادى به الفريق الامبراطورى من أن الامبراطور يستمد سلطته من الله مباشرة ، ولكن فكرة « الحق المقدس » ذاتها نشأت داخل نطاق الدولة أو الوحدة السياسية ؛ لأن الرأى الذى ساد العصور الوسطى هو أن الامبراطور أو الملك أداة الله فى مقاومة الآثام البشرية ، وأنه بناءا على ذلك يتولى وظيفته وفقا لحق مقدس مما جعل الخروج عن طاعته أو الثورة ضده خروجا عن طاعة الله[2] . على أنه يلاحظ أن نظرية حق الملوك المقدس لم يتسع تفسيرها فى العصور الوسطى إلى حد عدم مسئولية الحاكم أو الملك عن أعماله ، وهو المبدأ القديم الذى أحياه المعاصرون فى القرن السابع عشر ، وحرفوه لصالح الملوك .

---

(1) Gierke ; Political Theories of the Middle Ages ; p. 31.
(2) Carlyle ; op. cit. Vol 1 ;p. p. 210—216.

فالمفكرون فى العصور الوسطى اعتقدوا دائما فى أن الحكم أمانة ، وفى أن الحاكم سواء كان ملكا أو امبراطورا عليه واجبات محدودة يجب أن يراعيها[1] .

على أن هذا الاعتقاد سرعان ما أثار مسألة أخرى ، هى العلاقة بين الحاكم والمحكومين ، أو بين الملك وشعبه . ذلك أنه لما كان قيام الدولة - وبالتالى قيام حاكم الدولة - جاء وليدا لأخطاء البشر وعلاجا لهذه الأخطاء ، فإن الحكمة من بقائهما أصبحت مراعاة صالح المحكومين وتوفير السلام والعدالة والحرية لهم[2] ، وهكذا أصبحت المشكلة الجديدة هى كيفية تحديد العلاقة بين الحكام والمحكومين على أساس من الحقوق والواجبات المتبادلة . وقد اتخذت العصور الوسطى فى هذه المشكلة رأيا حاسماً ، عبر عنه توما الأكوينى فى القرن الثالث عشر (١٢٢٥ — ١٢٧٤) حين قال « ليست المملكة ملكا للملك وإنما الملك ملك للمملكة[3] Regnum not est propter regem, sed rex propter regnum » . ويفسر توما الأكوينى ذلك بأن الله أقام ملوك الأرض ، لا لتحقيق مصالحهم الخاصة ، وإنما لتحقيق الصالح العام للناس . كذلك يضيف توما الأكوينى أن القانون المدنى يجب أن يستهدف الصالح العام ، وإلا فإنه يصبح عديم القيمة والأثر . ومن هذا نستطيع أن نقرر أن نظرة العصور الوسطى إلى الحكومات الدنيوية كانت لا يمكن أن تتفق وفكرة عدم مسئولية الحكام[4] كذلك تبدو من خلال هذه الفكرة بذور نظرية العقد الاجتماعى ، لأن معنى أن بقاء الملك فى الحكم يجب أن يكون مشروطاً بصالح الشعب ، أنه يحق للشعب التخلى عن طاعة حاكمه إذا لم يعمل ذلك الحاكم على تحقيق الصالح العام لشعبه . هذا إلى أن قول المفكرين فى العصور الوسطى بأن الناس جميعاً متساوون أمام الله ، تبدو فيه النزعة الديموقراطية التى ظهرت واضحة فى العصور الحديثة . وهكذا نستطيع أن نقرر أن العصور الوسطى وضعت أساس كثير من النظريات السياسية التى لعبت دوراً خطيراً فى التاريخ الحديث .

---

(1) Gierke ; op. cit. p. 34.

(2) Ibid.

(3) Eyre ; op. cit Vol 3 ; p' 281.

(4) Cam. Med. Hist' ; Vol 6; p. 629.

وعلى أساس هذه الآراء السابقة فرق حنا سالسبورى فى القرن الثانى عشر بين الملك والطاغية أو الحاكم المطلق Tyrannus؛ فقال إن الملك يطيع القانون ويحترمه، فى حين يتجاهله الحاكم المطلق. ثم قال إنه لما كانت الملكية نظاما إلهيا مقدسا، فإن إساءة الملك استخدام سلطته يعتبر خيانة الله؛ وفى هذه الحالة يجب إعدام الملك، وتكون هذه العقوبة حقا وعدالة Aaqunm et Justum[1].

هذه الآراء وغيرها عرضها حنا سالسبورى سنة ١١٥٩ فى كتابه عن الحكومة والسياسة «Plicraticus» الذى يعتبر أهم محاولة لتنظيم الفلسفة السياسية فى القرن الثانى عشر بل العصور الوسطى قاطبة. وقد درس حنا هذا على كبار أساتذة القرن الثانى عشر فى فرنسا مثل أبيلار وجيوم الكونشى وغيرهما، ثم تنقل بين إنجلترا وإيطاليا فكان من مستشارى البابا أدريان الرابع والملك هنرى الثانى ملك انجلترا، وبذلك استطاع أن يجمع بين الثقافات اللاتينية والإنجليزية والفرنجية[2]. ولكنه فى كتابه السابق لم يشر إلى إحدى الشخصيات العظيمة التى اتصل بها: وإنما استمد معظم أمثلته من الإمبراطورية الرومانية. ويبدو أن نظريته فى الملكية جاءت متأثرة إلى حد كبير بالفكرة الإقطاعية التى تجعل القانون فوق الملك، ولكن السلطات الواسعة التى خولها الملك أخذها عن القانون الرومانى والمؤرخين القدماء[3]. ومن هذا أن حنا سالسبورى استطاع فى كتابه السابق أن يعبر عن القرن الثانى عشر تعبيراً مثاليا يبين فيه ما يجب أن يكون، لا ما هو كائن فعلا؛ كما أنه لم يحاول أن يتعرض للمشاكل السياسية القائمة[4]. وهكذا نلاحظ الفرق واضحاً بين مستوى الفكر السياسى فى القرن الثانى عشر ومستواه بعد ذلك فى القرن الثالث عشر. فمفكرو القرن الثانى يمثلون عصراً سريع التطور فى الميدانين السياسى والحضارى، مما لم يتح لهم فرصة للتوقف وجمع شتات أفكارهم ووضعها فى قالب عملى؛ فى حين عمل كتاب القرن الثالث عشر على جمع خلاصة الآراء السياسية فى العصور الوسطى، واستغلال هذه الآراء فى إقامة بناء قوى منظم[5].

---

(1) Eyre : op. cit. ; Vol. 3 ; p. 288.
(2) Pirenne ; L . Civilisation Occidentale ; p. 222
(3) Cam. Med. Hist Vol. 6 ; p p. 621-622
(4) Haskins ; The Renaissance ; p. p. 359—360
(5) Carlyle : op. cit. Vol. 1. ; p. 250

ومهما كان الأمر ، فإن كتاب حنا سالسبورى يعتبر أهم ما ظهر فى العصور لوسطى فى الفلسفة السياسية ، وذلك حتى ظهور ترجمة كتاب أرسطو فى السياسة سنة ١٢٦٠ .

نشأة الجامعات :

وفى ختام كلامنا عن النهضة الفكرية فى القرن الثانى عشر ، نشير إلى أن هذا القرن لم يكن عصر إحياء فى الميدان الثقافى فحسب ؛ وإنما كان أيضاً عصر ابتكار وتجديد فى النظم التعليمية لا سيما ما تعلق منها بالتعليم العالى . فالقرن الثانى عشر بدأ بالمدارس الديرية والكتدرائية واختتم بمولد أولى الجامعات التى عرفتها أوربا . وليس هناك من شك فى أن ظهور الجامعات يعتبر ثورة كبيرة فى الحياة الأوربية ، حتى قال بعض الكتاب أن الجامعة هى أعظم ما أخرجته العصور الوسطى للعالم ، فى حين ذكر أحد رجال العصور الوسطى إن الجامعة إحدى قوى ثلاث سيطرت على الفكر المسيحى ووجهته ، بالإضافة إلى الكنيسة والامبراطورية[1] .

والواقع إنه كان المستحيل أن يتسع نطاق المعرفة فى القرن الثانى عشر على تلك الصورة التى رأيناها ، مع بقاء نظم التعليم ثابتة فى وضعها . وعلى هذا فالجامعات جاءت وليدة نهضة القرن الثانى عشر العلمية ، واتساع نطاق المعرفة فى ذلك القرن هى فى الوقت نفسه من أهم مظاهر تلك النهضة . فطالما اقتصرت الحياة العلمية فى أوربا على معالجة الفنون السبعة الحرة ، لم تكن هناك ثمة حاجة إلى جامعات ، لأنه لم يوجد ما يتلقاه الطلبة أكثر من مبادىء النحو والبلاغة والمنطق والحساب والفلك والهندسة والموسيقى . ولكن فى المدة بين نهاية القرن الحادى عشر وبداية القرن الثالث عشر تطورت الحياة العلمية فى أوربا تطوراً كبيراً نتيجة للعلوم والمعارف الجديدة التى تدفقت على الغرب ، والتى كانت أعظم من أن تتسع لها المدارس الديرية والكتدرائية القديمة . وبالتالى أصبح لابد من

(1) Rashdall op. cit ; Vol 1 ; p. 2.

حدوث تطور فى نظم التعليم العالى وقيام كليات جامعية تحتضن تلك المعارف الجديدة[1] .

ولم تقف أهمية القرن الثانى عشر عند حد نشأة الجامعات ، وإنما يستطيع ذلك القرن أن يفخر أيضاً بابتكار كثير من النظم والأوضاع التى سارت عليها الجامعات فى العصور التالية . ولم يكن فى هذه النظم والأوضاع شىء قديم مأخوذ من تراث اليونانيين أو الرومان ، لأن العالمين اليونانى والرومانى لم يعرفا الجامعات وإن عرفا التعليم العالى . فأوربا لم تعرف الجامعات لأول مرة فى تاريخها إلا فى القرن الثانى عشر ، وإلى هذا القرن بوجه خاص يرجع الفضل فى قيام ذلك الركن الهام من أركان الحضارة الأوربية[2] .

والجامعات تشبه البابوية والإمبراطورية فى أن نشأتها جميعاً ترجع إلى ظروف يغلب عليها طابع المصادفة . ولذا يتعذر علينا أن نفهم كيفية نشأة الجامعات فى القرن الثانى عشر دون الإشارة إلى تلك الظروف . وهنا نجد أن المعنى الأصلى للفظ جامعة « Universitas » فى مصطلح العصور الوسطى ، هو مجموعة أو اتحاد أو رابطة تضم المشتغلين بعمل واحد أو حرفة واحدة . والمعروف أن العصور الوسطى شهدت ألواناً متعددة من الاتحادات والنقابات ، ولكننا فى أواخر القرن الثانى عشر ـ وفى القرن الثالث عشر ـ نجد هذا اللفظ قد أصبح يطلق على الاتحاد العلمى أو النقابة التى تشمل عدداً من رجال العلم ، سواء كانوا أساتذة أو طلاباً[3] . ووفقاً لهذا المعنى الأخير ، أصبح يوجد بالمدينة الواحدة عدد من الجامعات ، بالضبط كما وجدت بها عدة نقابات مهنية . ولم يكن من الضرورى أن تكون هذه الجامعات المتقاربة قد اشتغلت جميعاً بفرع واحد من فروع المعرفة ، فإذا عنى بعضها بدراسة الطب فإن البعض الآخر عنى بالقانون أو الفلسفة واللاهوت . ولكن لم تلبث هذه الاتحادات أو الجامعات القائمة فى مدينة واحدة أن أخذت ترنو إلى الاتحاد والاندماج ليكمل بعضها بعضاً ، وهكذا نشأت من ذلك الاتحاد فى كل مدينة من المدن الجامعية جامعة واحدة كبيرة ، ترتبط باسم

(1) Haskins ; The Rise of Universitiese, p. 7,

(2) Haskins ; the Renaissance, p 369.

(٣) سعيد عاشور : الجامعات الأوربية فى العصور الوسطى ص ٣٤ — ٣٥ .

تلك المدينة . وهذا التطور الأخير كان محوره فى شمال أوربا نقابات الأساتذة والمدرسين ، كما هو واضح فى جامعة باريس والجامعات التى تفرعت عنها ، أما فى جنوب أوربا فكان محوره نقابات الطلبة ، كما هو واضح فى جامعة بولونيا والجامعات التى تفرعت عنها[1] . ولكن الخطوة الأساسية فى الحالتين ظلت السماح للفرد بالدخول فى نقابة هيئة التدريس ، وبدون ذلك لا يكون الشخص إلا طالباً للعلم . ولمنع المحاباة والأنانية فى احتكار مناصب التدريس ، وضع نظام يكفل للطالب الحصول على ترخيص بالتدريس الجامعى (Licentia docendi بعد أن يجتاز امتحاناً خاصاً فى مواد معينة درسها ، وبذلك أصبح هذا الترخيص أول نوع من أنواع الدرجات العلمية الجامعية . هذا إلى أن طالب شهادة التدريس كان يكلف عادة بإلقاء محاضرة تجريبية فى موضوع من الموضوعات التى أمتحن فيها ، وذلك لتزينه من جهة ، ولاختبار صلاحيته لمباشرة مهنة التدريس من جهة أخرى . وهكذا يبدو أن البرامج الدراسية ، والإعداد لوظائف التدريس الجامعية ، ومنح الدرجات العلمية ، كلها نظم ورثتها الجامعات الحديثة عن الحياة الجامعية فى العصور الوسطى وبوجه خاص القرنين الثانى عشر والثالث عشر[2] .

ويلاحظ أن أولى الجامعات الاوربية التى ظهرت فى القرن الثانى عشر جاءت وليدة مدارس الكتدرائيات، مدارس الاديرة . ويرجع السبب فى ذلك إلى عدة عوامل أولها أن المدارس الديرية بحكم طبيعتها لم تكن على استعداد لقبول طلاب من غير الرهبان ، لأن وجود الطلاب غير الديرين بأية نسبة من شأنه أن يفسد روح النظام السائدة فى الدير . هذا بالإضافة إلى أن معظم الاديرة فى العصور الوسطى قامت فى المناطق المتطرفة البعيدة عن العمران . وأخيراً فإننا نلمس تدهوراً مستمراً فى الحياة الديرية فى القرن الثانى عشر ، بحيث أن النهضة العلمية فى القرن الثانى عشر لم تجد لها متسعاً فى مدارس الاديرة . أما الكتدرائيات فقد صار لها وضع آخر بحكم طبيعتها وقيامها فى المدن ، ففتحت أبوابها أمام الطلاب العلمانيين ، كما كانت الحياة العلمية بين أرجائها أكثر حرية وأوسع

---

(1) Rashdall ; op. cit' Vol 1 ;p 17.

(2) Haskins ; The Renaissance : p. 370,

أفقاً[١] . وكانت أظهر المدارس الكتدرائية في القرن الثانى عشر فى شمال فرنسا ، مثل ريمس Rheims ، وشارتر Chartres ، وتور Tours وباريس وأورليان . وجميع هذه المدارس تأثرت بالنهضة العلمية فى ذلك القرن تأثراً متباينا ، فعنى بعضها بالدراسات الفلسفية واللاهوتية ، وعنى البعض الآخر بالدراسات الفلسفية واللاهوتية ، فى حين عنى فريق ثالث بالدراسات الكلاسيكية . ومهما كان الأمر فإنها جميعاً استمدت مكانتها وشهرتها من الأساتذة الذين قاموا بالتدريس فيها . فالأستاذ لا المدرسة هو الأساس الذى يقصده طلاب العلم[٢] .

ومن الثابت أنه وجد فى غرب أوربا عند ختام القرن الثانى عشر خمس أو ست جامعات على الأقل : هى جامعات سالرنو وبولونيا ورجيو بإيطاليا ، وباريس ومونتبليه بفرنسا ، واكسفورد بانجلترا[٣] . وإذا كانت جامعة سالرنو قد ذبلت فى وقت مبكر ، فإن جامعة بولونيا ظلت حيناً من الدهر تحمل لواء نهضة القانون فى غرب أوربا ، فى حين أن جامعة باريس أخذت تنمو بسرعة حتى جعلت من فرنسا زعيمة الحركة الفكرية فى أوربا العصور الوسطى . والحق أن جامعتى بولونيا وباريس هما الشجرتان اللتان تفرعت عنهما ونظمت وفق نمطيهما بقية الجامعات الأوربية[٤] .

أما النمط الأول الذى يمثل جامعات البحر المتوسط وجنوب أوربا ، فيلاحظ عليه أنه لم يهتم بالمنطق والرياضيات والفلسفة قدر الإهتمام بالعلوم العملية وبخاصة القانون والطب . وبعبارة أخرى فإن هذا القسم من الجامعات قام على أساس الكليات العملية المهنية . وقد سبق أن أشرنا إلى تقدم الدراسات الطبية فى سالرنو فى العصور الوسطى ، مما أدى إلى قيام مدرسة كبيرة للطب فى تلك المدينة ، ظلت أكثر من قرنين محتفظة بمستوى أكاديمى فى دراسة الطب لا يقل عما بلغته بولونيا فى القانون وباريس فى الفلسفة[٥] . ومهما كان من وجود بعض آثار لهذه

---

(1) Rashdall op cit, Vol. 1 : p. p. 43—44.

(٢) سعيد عاشور : الجامعات الأوربية فى العصور الوسطى ص ١٠ — ١٨ .

(3) Rshdall op. cit, Vol. I; o' XXIV.

(4) Eyre ; op cit. Vol. 3 ; p. 328.

(5) Rashdall ; op. cit. ; Vol. 1 ; p. 75.

المدرسة منذ القرن التاسع ، فإن شهرة سالرنو فى الطب ترجع بدون شك . منتصف القرن الحادى عشر [١] . ولكن يبدو أن هذه الجامعة ظلت فى شبه عزلة عن بقية غرب أوربا ، ولم يتوافر لها من التنظيمات وأسباب النمو والعظمة ما يجعل منها نموذجا يحتذى فى بقية الجامعات الناشئة [٢] . وهكذا استمر الغموض يكتنف جامعة سالرنو ونظمها فى القرن الثانى عشر ، حتى نظمها الإمبراطور فردريك الثانى فى القرن الثالث عشر ، عندما أصدر مرسوما سنة ١٢٣١ يحرم مزاولة الطب أو تدريسه فى أنحاء الإمبراطورية ، دون الحصول على ليسانس أو تصريح ملكى ، ولا تعطى هذه الشهادة إلا بعد امتحان على أيدى أساتذة سالرنو ، وكان هذا المرسوم أول اعتراف رسمى بجامعة سالرنو [٣] .

أما جامعة بولونيا فهى أهم جامعات البحر المتوسط وأوضحها من حيث النشأة والنمو . والمعروف أن هذه الجامعة جاءت وليدة نشاط الدراسات القانونية فى القرن الثانى عشر ، كما سبق أن شرحنا بالتفصيل ، وإذا كانت هناك مدارس أخرى للقانون وجدت فى روما ورافنا وبافيا فى القرن الحادى عشر — أى قبل ظهور مدرسة بولونيا — فإنه من الثابت أنه لم يقدر لإحدى هذه المدارس أن تنمو لتصبح جامعة ذات شهرة واسعة ، كما حدث لمدرسة بولونيا [٤] . وربما يرجع السبب فى ذلك إلى أن الطبيعة حبت بولونيا بميزة جغرافية كبرى هى وقوعها عند ملتقى الطرق ومفترقها فى شمال إيطاليا ، مما جعلها مكانا صالحاً لالتقاء العلماء وطلاب العلم [٥] . وقد عرفت بولونيا فى القرن الحادى عشر بدراسة الفنون الحرة ، ولكن شهرتها فى دراسة القانون لم تلبث أن ذاعت فى القرن الثانى عشر على أيام أرنريوس ، وبفضل هذه الشهرة قصدها طلاب العلم من مختلف الأنحاء البعيدة ، وإن كان عهد ارنريوس نفسه لم يشهد قيام جامعة بالمعنى الذى نعرفه [٦] .

---

(1) Idem ; Vol. 1 ; p. p. 76—77.

(2) Idem ; p. 82 ;

(3) Idem ; p. 82-83.

(٤) سعيد عاشور : الجامعات الأوربية ص ٢٥ .

(5) Rashdall : op. cit. Vol. 1 ; p. 117.

(6) Idem ; p. 141.

وهذه الجموع الغفيرة من الطلاب المغتربين ، لا سيما الوافدين من وراء الألب ، أصبحوا بمثابة النواة الأولى التى نشأت منها جامعة بولونيا . ذلك أن هؤلاء الطلبة أخذوا — بحكم رباط الغربة الذى ربط بينهم — ينظمون أسباب المعيشة لأنفسهم ويعملون على حماية مصالحهم ، فكونوا جاليات ونقابات تحت رآسة أعضاء منهم ، واستطاعوا عن طريق هذه النقابات أن يحددوا أسعار المأكل والمأوى والكتب وغير ذلك من التنظيمات الهامة التى تعتبر خطوة حاسمة فى طريق التنظيم الجامعى[١] . وسرعان ما أصبح لهذه النقابات نوع من التحكم والسيطرة على هيئة التدريس من الأساتذة وذلك لحماية مصالح الطلاب قبلهم ، واستخدموا فى ذلك سلاحا قويا هو تهديد أى أستاذ لا يمتثل لرغباتهم بالإنقطاع عنه وعدم حضور محاضراته . ولما كان دخل الأستاذ متوقفاً على مقدار ما يحصل عليه من طلبته ، فإن مستوى معيشته صار مرتبطاً بمصير العلاقات بينه وبين نقابة الطلبة ، مما جعل رئيس هذه النقابة هو الرئيس الفعلى للجامعة[٢] . وقد دفع ذلك بعض الكتاب المحدثين إلى التعبير عن جامعة بولونيا بأنها كانت « جامعة طلبة » ، كما ذكر باحث آخر أن هذه الروح استمرت فى الجامعات الإيطالية حتى اليوم ، إذ ما زال الطلبة الإيطاليون حريصين على أن يكون لهم صوت مسموع فى إدارة شئون جامعاتهم[٣] . على أن أساتذة بولونيا ـ هم الآخرون سرعان ما أحسوا بضرورة الإتحاد لحماية مصالحهم فألفوا نقابات خاصة بهم ، ووضعوا شروطاً لمنح إجازة التدريس والسماح لأى عضو جديد بالدخول فى نقابة هيئة التدريس ، وذلك لتحديد عددهم[٤] .

ومن هذين النوعين من النقابات ـ نقابات الأساتذة ونقابات الطلبة ـ نمت النظم الجامعية وتطورت فى أوربا العصور الوسطى . ويرجح أن نقابات الطلبة فى بولونيا كان عددها أربع نقابات فى أول الأمر ، ولكنها اختزلت إلى نقابتين ، إحداهما تضم الطلبة الوافدين من بلاد ماوراء الألب ، والثانية تضم الطلبة الوافدين

---

(1) Haskins ; The Renaissance p. 389.
(2) Eyre : op. cit. Vol 3 ;p. 30
(3) Haskins The Rise of Universities ; p. 16
(4) Rashdall ; op. cit. Vol. 1 ; p. 147.

من الجهات الواقعة جنوبي الألب . وفى الربع الأخير من القرن الثانى عشر أخذت النظم الخاصة بجامعة بولونيا تنمو نمواً سريعاً ، وإن كانت لاتوجد وثيقة محددة تقرر تاريخاً معيناً لتأسيس تلك الجامعة[1] . وكل ما نعرفه فى هذا الشأن هو أن فردريك الأول منح طلبة جامعة بولونيا بعض الامتيازات سنة ١١٥٨ ، وأهمها أنه إذا أذنب أحدهم فإن محاكمته تكون أمام لجنة من أساتذته . ولما كان من المستحيل أن يعترف الإمبراطور بهيئة غير منظمة ، فإنه من المعقول أن يكون المشجع للإمبراطور على ذلك الاعتراف هو أن نظم جامعة بولونيا قد تبلورت فى ذلك الوقت ، وأصبحت لها براجها ولوائحها[2] .

وهنا نشير إلى أن جامعة بولونيا أصبحت أماً لعدد من الجامعات فى جنوب أوربا ، مع ملاحظة أن واحدة من بنات جامعة بولونيا لم تولد فى القرن الثانى عشر إذا استثنينا العلاقة بين جامعة بولونيا وجامعة مونتبليه . وعلى الرغم من أن جامعة مونتبليه هذه اشتهرت بالطب واللاهوت والآداب ، إلا أنها تفوقت أيضاً فى دراسة القانون ، حيث نزح إليها حوالى سنة ١١٦٦ أحد رجال مدرسة بولونيا واسمه بلاكنتيوس Placentius [3] . ولا يهمنا فى هذه العجالة من أمر جامعة مونتبليه أو غيرها من الجامعات التى قامت بجنوب أوربا فى القرن الثالث عشر ، سوى أن غالبيتها استقت معظم نظمها من جامعة بولونيا وسارت على هديها ، لاسيما فيما يتعلق بالعناية بالدراسات القانونية .

على أنه إذا كانت بولونيا قد غدت أماً لبقية الجامعات الأوربية فى حوض البحر المتوسط ، فإن باريس أصبحت هى الأخرى أماً لجامعات شمال أوربا وغربها . وقد يكون من الصعب تتبع نشأة جامعة باريس ، لأن هذه المدينة وجدت بها فى القرن الثانى عشر — على عصر أبيلار — ثلاث مدارس هى : مدرسة نوتردام ، ومدرسة سانت فيكتور Si. Victor ، ومدرسة سانت جنيفيف

---

(١) سعيد عاشور : الجامعات الأوربية ص ٤٤ وما بعدها .

(2) Rashdall ; op. cit. Vol. 1 p. p. 143—146.

(3) Idem ; Vol. 2 p. 128.

Ste. Genevieve[1] . والمعروف أن شهرة أبيلار وحدها جذبت كثيراً من طلاب العلم إلى باريس حتى اكتظت طرقاتها بالطلاب الذين استدعت كثرتهم زيادة الأساتذة ، وعن هذا الطريق وحده يمكن ربط نشأة جامعة باريس بشهرة أبيلار وشخصيته[2] . وقد ذكر حنا سالسبورى - الذى درس على أبيلار فى باريس بين سنتى ١١٤٠ ، ١١٦٣ - أن أبيلار كان واحداً من مجموعة ضخمة من كبار الأساتذة الذين ذخرت بهم باريس ، ولعل هذا مما دفع أحد الكتاب المحدثين إلى القول بأن باريس « أصبحت مدينة الأساتذة ، أو أول مدينة للأساتذة عرفتها العصور الوسطى[3] » . وهؤلاء الأساتذة - مثل الطلاب - وفدوا من جميع أنحاء أوربا .

وفى ذلك الجو الحافل بالأساتذة والطلاب والحياة العلمية النشطة ، لا نجد سوى قليلا من التنظيمات الجامعية الأساسية ، حتى اسم « جامعة » لانعثر عليه قبل القرن الثالث عشر عندما ورد سنة ١٢٠٨ فى رسالة للطالب الذى أصبح فيما بعد أنوسنت الثالث . على أننا يجب أن نذكر دائماً فى تاريخ النظم أن الاسم لا يظهر عادة إلا بعد مولد المسمى . ولذلك نستطيع أن نتتبع بعض المظاهر الجامعية فى باريس فى أواخر القرن الثانى عشر ، على الرغم من عدم ظهور اصطلاح « الجامعة » فى ذلك الوقت(٤) . أما أهم هذه المظاهر فكان تجمع مواد الدراسة فيما يشبه الكليات ، فى الوقت الذى أخذ الطلبة يعيشون على هيئة جاليات أو أروقة تضم كل جالية أبناء الإقليم أو البلد الواحد . ومن المعروف أن جامعة باريس نشأت من مدرسة الكتدرائية ، ولعل هذا هو السبب فى أن أمين الكتدرائية « Chancellor » ظل مدة طويلة يشغل مكان الرئاسة فى الجامعة فى مرحلة نشأتها الأولى ، كما كان هو وحده الذى يمنح مؤهل التدريس Licentia docendi(٥) ولما كان التطور الجامعى جاء تدريجياً وبطيئاً ، فإننا لانستطيع تحديد تاريخ

---

(1) Idem ; Nol. 1 ; 1 p. 276.

(٢) سعيد عاشور : الجامعات الأوربية ص ١٦ — ٢٠ ، ٥٢ .

(3) Rashdall op. cit. Vol. p. 288

(4) Haskins ; The Renaissance p. p. 380—382.

(5) Taylor: The Medieval Mind Vol. p. 2 p. 3—4.

معين نقول إن مدرسة باريس خلعت فيه عن نفسها صفتها الكتدرائية وأتخذت صفتها الجامعية الخالصة . هذا إلى أننا لانستطيع تحديد زمن معين لتأسيس جامعة باريس ، لأن هذه الجامعة مثل غيرها من الجامعات الأولى فى العصور الوسطى ظهرت نتيجة للنمو والتطور لا للانشاء والتأسيس . وكل ما هنالك هو أننا نرى هيكل جامعة باريس يتكون فى أواخر القرن الثانى عشر عندما أنشأ أعضاء هيئة التدريس فيها نقابة خاصة بهم ومع أن أمين الكتدرائية ظل خارج تلك النقابة إلا أن رأيه استمر يؤخذ به دائماً قبل السماح لأى فرد جديد بالتدريس فى الجامعة[1] . ويمكن أن ترجع الآثار الأولى لنقابة أساتذة جامعة باريس لسنة ١١٧٠ ، ومنذ ذلك الوقت أخذ نفوذ تلك النقابة فى الازدياد حتى صارت هى المهيمنة فعلا على شئون الجامعة ، ومن ثم طالبت بأن يكون رئيسها - لا أمين الكتدرائية — هو المدير الفعلى للجامعة[2] .

ثم حدث فى النصف الأخير من القرن الثانى عشر أن أخذت الامتيازات التى حصلت عليها جامعة باريس فى الازدياد . وأختلفت هذه الامتيازات فى روحها وطابعها عن تلك التى حصل عليها زملاؤهم فى الجامعات الإيطالية . فرجال العلم فى المدن الإيطالية مثلوا طبقة منفصلة عن رجال الكنيسة ، ولذلك حصلوا على معظم امتيازاتهم من الحكام العلمانيين أو من أهالى المدن وسلطاتها . أما فى فرنسا فظلت النظرة إلى جميع الطلاب والأساتذة فى المدارس الكنسية على أنهم من رجال الدين ، ومن ثم أصبح من حقهم أن يتمتعوا بالإمتيازات نفسها التى تتمتع بها رجال الكنيسة[3] وهكذا نجد أنه فى الوقت الذى حصل طلبة جامعة بولونيا بإيطاليا من الإمبراطور فردريك الأول على حق محاكمتهم أمام أساتذتهم - كما سبق - إذ بطلبة فرنسا يتطلعون إلى الحصول على ذلك الحق ، ولكن من البابا اسكندر الثالث (١١٥٩ — ١١٨١)[4] .

---

(١) سعيد عاشور : الجامعات الأوربية ص ٦١ — ٦٢ .

(2) Eyre : op' cit Vol. 3 p 330.

(3) Rashall op. cit. Vol. p. 290.

(4) Idem p. p. 290-191.

وترجع أول وثيقة رسمية اعترفت بوجود جامعة باريس إلى سنة ١٢٠٠ عندما منح فيلب أوغسطس بعض امتيازات الطلاب عقب ثورة عنيفة قاموا بها[١] . لذلك يميل البعض إلى اتخاذ السنة السابقة بداية لتاريخ جامعة باريس ، مع أن الجامعة وجدت فعلا قبل ذلك التاريخ[٢] . ولم يرد فى الوثيقة السابقة اصطلاح « جامعة » ولكنها أقرت قيام هيئة من الطلاب والأساتذة تعهد الملك برعايتهم والدفاع عنهم . وفى سنتى ١٢٠٨ ، ١٢٠٩ صدرت أولى المراسيم التى حددت الزى الأكاديمى ونظام المحاضرات ، كما اعترفت البابوية فى عهد أنوسنت الثالث (١١٩٨ — ١٢١٦) بذلك المجتمع الجامعى الجديد ، وبحقه فى أن يدير شئونه بنفسه[٣] . على أن استكمال سلطان جامعة باريس تطلب من أساتذتها أن يدخلوا فى صراع عنيف مع أمين الكتدرائية ، الذى اختار أن يظل محتفظاً بهيمنته على كثير من الشئون الجامعية . وفى هذا الصراع الطويل اختارت البابوية أن تقف إلى جانب قوة المستقبل ، فأيدت الأساتذة ووافقت على الحد من سيطرة أمين الكتدرائية على الجامعة[٤] . وهكذا أخذت البابوية تتوسع فى منح الحقوق والامتيازات لجامعة باريس بين سنتى ١٢١٥ ، ١٢٣١ ، مما أدى إلى استكمال استقلال الجامعة عن الكتدرائية ورجالها ، ولم تلبث أن أصبحت باريس أم الجامعات الغربية فى القرن الثالث عشر . بل إن إمبراطور القسطنطينية اللاتينى[٥] أرسل سنة ١٢٠٥ يطلب معونة جامعة باريس ، وبصفة خاصة فى ميدانى الفلسفة واللاهوت . وإذا كانت جامعة باريس قد غدت قبلة رجال العلم فى أوربا (Mecca of Scholars) — على قول أحد الباحثين — فإن ذلك جعل من فرنسا زعيمة الحركة الفكريه فى أوربا فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر[٦] .

---

(١) سعيد عاشور : الجامعات الأوربية ص ٥٧ .

2) Haskins: The Rise of Universities. p.22

3) Rashdall op. cit. Vol. 1 p. p. 300—303.

4) Idem p. p. 304—314.

(٥) تعرف الامبراطورية التى قامت فى القسطنطينية عقب استيلاء الحملة الصليبية الرابعة عليها سنة ١٢٠٤ بالامبراطورية اللاتينية ، لأن أباطرتها كانوا من أمراء الغرب .

6) Eyre; op. cit. Vol, 3 p. 332.

أما الإبنة الكبرى لجامعة باريس فى الغرب الأوربى فكانت أكسفورد التى غدت بدورها أما لبقية الجامعات الانجليزية . ولانستطيع بالضبط معرفة العوامل التى جعلت من أكسفورد مكاناً مختاراً لقيام أولى الجامعات الانجليزية فى أواخر القرن الثانى عشر ، لأن أكسفورد لم تكن عندئذ من أمهات المدن الانجليزية لتفوز بهذا الشرف . وربما كانت لندن أو يورك أو ونشستر أو كانتربورى أحق بهذا الشرف ، لاسيما وأنها كانت جميعاً مراكز لكتدرائيات هامة . وربما كان الموقع الذى حظيت به مدينة أكسفورد أثر فى قيام الجامعة بها[1] ويظن بعض الكتاب أن اختيار هنرى الثانى ملك انجلترا أكسفورد مكانا مختاراً لاقامته كان له بعض الأثر فى قيام أولى الجامعات الانجليزية فيها[2] .

ومهما كان الأمر فإن جامعة أكسفورد لم تكن وليدة جامعة كتدرائية مثل جامعة باريس . وكل ما هنالك هو أن كثيراً من الأساقفة ورجال الدين الانجليز اعتادوا السفر إلى الخارج فى القرن الثانى عشر لتلقى العلم ، وعند عودتهم إلى وطنهم حاولوا أن يقيموا نوعا من التعليم العالى يشبه ما شاهدوه فى الجامعات التى قامت فى صلب القارة ، وبخاصة فى فرنسا . وساعد على هذا الاتجاه هنرى الثانى الذى قام بدور راعى الحركة الفكرية فى بلاده ، وشجع كثيرا من رجال الفكر ، مثل بطرس بلوا الذى عاد إلى انجلترا سنة ١١٧٣ ، وماسترفكاريوس الذى حاول إدخال دراسة القانون الرومانى بإنجلترا سنة ١١٤٩ ، وحنا سالسبورى الذى درس فى باريس وعاد إلى انجلترا سنة ١٢٥٠ ليصبح محور النشاط العلمى مدة ثلاثين سنة[3] .

ويبدو أن أكسفورد استفادت من حادث استدعاء الطلبة الإنجليز الذين يدرسون فى باريس سنة ١١٦٧ ، فأحتضنتهم عند عودتهم ، حتى أدى وجود ذلك العدد من طلاب العلم ورجاله إلى قيام جامعتها[4] . ومما يدل على تقدم الحياة العلمية أكسفورد حوالى ١١٨٠ كثرة مجلدى الكتب وناسخيها مما لا يتوفر إلا فى البيئات العلمية . كذلك روى جيرالدوس كامبرنسيس Giraldus Cambrensis

---

(١) سعيد عاشور : الجامعات الأوربية ص ١٢٣ — ١٢٤ .

2) Stubbs, Seventeen Lectures, p.p. 198—164.

أنه عندما زار أكسفورد حوالى سنة ١١٨٤ قرأ أحد مؤلفاته على هيئة محاضرات عامة ، واستغرقت قراءته ثلاثة أيام فى حضرة جمع كبير من الأساتذة وطلاب العلم[١] . ولكن إذا كان اسكندر نكام ذكر فى كتاب له فى أواخر القرن الثانى عشر اسم أكسفورد إلى جانب باريس وبولونيا ومونتبليه وسالرنو ، إلا أنه لم يذكر شيئاً عن نظام جامعة أكسفورد[٢] . وكل ما نستطيع أن نقوله فى هذا الموضوع هو أن الجامعات الإنجليزية قامت وفقاً لنظم الجامعات الأوربية وبخاصة جامعة باريس[٣] .

أما عن المناهج وطرق التدريس فى جامعات القرن الثانى عشر فلا نستطيع أن نتكلم عنها سوى كلاما عاماً ، لأن اللوائح والنظم الجامعية لم تكن قد أكتملت بعد فى ذلك الوقت المبكر . فمن ناحية التدريس أعتمدت محاضرات الأساتذة إلى حد كبير على النصوص ، مع اشتمال المحاضرات على قدر غير قليل من البحث والمناقشة[٤] . وكان الأساتذة فى أول الأمر يلقون محاضراتهم فى مساكنهم أو فى قاعات يستأجرونها لهذا الغرض ، نظراً لعدم وجود مبانى خاصة بالجامعات أو قاعات خاصة بالدرس . أما برامج الدراسة فقامت فى تلك المرحلة المبكرة على أساس الفنون السبعة الحرة ، ففى النحو ظلت مؤلفات برسكيان ودوناتوس المراجع الأساسية ، مضافاً إليها بعض دراسات حول الشعراء ورجال البلاغة القدماء[٥] . أما المنطق فاتسعت دراسته بظهور المنطق الجديد لأرسطو ثم بظهور غيره من كتابات أرسطو لاسيما فى الميتافيزيقا . وفى الحساب والرياضيات استمر الاعتماد على كتاب بيؤثيوس إلى أن ظهرت مؤلفات إقليدس والموجز الذى وضعه العرب لأبحاث بطليموس السكندرى فى الفلك . وفى القانون أصبحت موسوعة جستنيان أساس تعليم القانون المدنى ، ومراسيم جراشيان أساس تعليم القانون الكنسى . أما دراسة الطب فبقيت فى القرن الثانى عشر تعتمد على

---

1) Idem Vol. 2, p 341 & Vol. 3; p 25
2) Idem Vol. 3 p. 28.
3) Idem: p 49.
(٤) سعيد عاشور : الجامعات الأوربية ص ٣٧ وما بعدها .
5) Rashdall op. cit. Vol. 3, p. 35.

كتابات جالن وهيبوقراط ، فضلا عما ظهر من تراجم مبكرة لكتب العرب فى ذلك العلم . هذا فى حين ظل الكتاب المقدس وكتاب بطرس لمبارد بمثابة المرجعين الأساسيين فى تعليم اللاهوت[1] .

وخلاصة القول انه إذا كانت الجامعات الاوروبية قد تكاثرت حتى بلغت فى أواخر العصور الوسطى أكثر من ثمانين جامعة [2] ، أثارت نشاطا حضارياً وفكرياً ضخماً : فإن الفضل فى كل ذلك يرجع إلى القرن الثانى عشر ، الذى شهد مولد أولى الجامعات الاوروبية ، والذى هيأ لها مجالا علمياً واسعاً بفضل النهضة الكبرى التى ظهرت فى غرب أوروبا فى ذلك القرن .

الفن القوطى :

على أن نشأة الجامعات لم تكن المظهر الوحيد لروح الإبتكار والتجديد التى امتازت بها النهضة الاوربية فى القرن الثانى عشر ؛ وإنما تجلت هذه الروح واضحة فى ميدان آخر هو الميدان الفنى . ذلك أن فن العصور الوسطى بلغ أرفع آياته فى القرن الثانى عشر بظهوره فى قالب جديد يعرف باسم الطراز القوطى .

وقد ظهر الطراز القوطى نتيجة لتطور الطراز الرومانسكى الذى سبق أن تكلمنا عنه فى الباب السابق ؛ وهذا التطور إنما جاء وليد عوامل شتى ومؤثرات عديدة دينية واجتماعية واقتصادية وفكرية . ويمكن أن نضيف إلى هذه العوامل التى أدت إلى مولد الفن القوطى ما كان فى ذلك العصر من زيادة الاتصال بين الشرقين العربى والبيزنطى من جهة واللاتينى من جهة أخرى ، مما جعل الاتجاهات الشرقية تبدو واضحة فى الفن القوطى . هذا إلى ما يبدو فى ذلك الفن من مظاهر معبرة عن دماء جديدة ، هى دماء العناصر الشمالية من الجرمان [3] . وقد دفع ذلك بعض الباحثين إلى القول بأن الفارق بين الطرازين الرومانسكى والقوطى هو أن الأول نظر إلى الخلف فاستمد أسسه وقواعده من روما وبيزنطة ، فى

1) Haskins: The Renaissance p. p. 392—393.
2) Rashdall ; op. cit. Vol, 3 p. 341.
3) Lethaby: The Legacy of the Middle Ages; p. p. 61—62

حين نظر الطراز القوطى إلى التطورات الجديدة التى ألمت بالعالم الغربى نتيجة لقيام ممالك الجرمان ونتيجة للاتصال بالحضارات الشرقية [١] .

والواقع أن غرب أوربا شعر منذ القرن الرابع بالحاجة إلى مبانى قوية جميلة ؛ ولكن الشعور بالحاجة وحده لا يمكن أن يحقق الرغبة مالم تتوافر عوامل التنفيذ من مال واستقرار ونشاط فكرى وحماسة دينية ، لأن فن العمارة فى العصور الوسطى ارتبط إلى حد كبير بالمؤسسات الدينية . ومن الواضح أن هذه العوامل كلها تهيأت فى القرن الثانى عشر ، عندما توفر المال نتيجة للنشاط التجارى والاستقرار بعد انتهاء غارات الفيكنج ، والنشاط الفكرى فى تلك النهضة الزاهرة التى سبق أن استعرضناها ، وبذلك لم يبق غير الحماسة الدينية . ولعل خير مايعبر عن الحماسة الدينية فى الغرب الأوربى فى القرن الثانى عشر هى الحروب الصليبية التى شهد ذلك القرن مرحلة حاسمة من أهم مراحلها .وقد صور لنا هيمو Haymo مقدم أحد الأديرة فى غرب أوربا فى القرن الثانى عشر ، مدى الحماسة الدينية فى ذلك القرن ، فقال إن النساء والرجال — من العامه والنبلاء — كانوا يربطون بالحبال ليسحبوا العربات المحملة بالأحجار والأخشاب ولوازم البناء لإقامة كتدرائية شارتر فى القرن الثانى عشر ، والكل فى هـــدوء وسكون شامل لا يقطعه إلا صوت الترتيل الدينى [٢] .

ولكن إذا كان الطراز القوطى امتداداً للطراز الرومانشكى ، فما صلته بالقوط ؟ ولماذا نسب هذا الفن إليهم ؟ الواقع أنه لاتوجد أية صلة تربط بين القوط والطراز المعروف باسمهم . ويقال إن أول من سمى ذلك الطراز باسم القوطى هو فاسارى Vasari (١٥١٢ — ١٥٧٤) تلميذ ميخائيل أنجلو وأحد فنانى عصر النهضة بإيطاليا .ويعلل الدافع إلى ذلك بأن فنانى ذلك العصر نظروا إلى فنون العصور الوسطى نظرة احتقار وازدراء ، فلم يجدوا أسوأ من نسبتها إلى القوط ، الذين كرههم الإيطاليون واعتبروهم مسئولين عن فساد الآثار الرومانية الجميلة عندما احتلوا إيطاليا فى أواخر القرن الخامس [٣] .فالغرض من نسبة هذا الفن إلى القوط كان الحط من شأنه وإظهار جمال النهضة الإيطالية له أنه بربرى

1) Cam Med. Hist Vol p. 559.
2) Cam. Med. Hist Vol. 6 p. p. 771—772.
3) Leight: History of World's Art; p. 222.



رسم تخطيطي لكتدرائية سالسبوري

مسيحي ، ولكنه فى الواقع اسم على غير مسمى ، لأن القوط أبرياء منه وهو برىء منهم براءة الذئب من دم ابن يعقوب [1] .

ويرى بعض الباحثين أن العناصر الأساسية التي حولت فن العمارة من رومانسكى إلى قوطى أخذت تظهر فى شمال إيطاليا منذ منتصف القرن الحادى عشر تقريباً ، عندما نجد بعض الأديرة التى شيدت فى ذلك العصر ، وقد ظهر بها شيء من خصائص العمارة القوطية [2] . ولكن من الواضح أن مميزات تلك العمارة لم تظهر واضحة إلا حوالى منتصف القرن الثانى عشر ، وكان ذلك فى الأجواء الشمالية من فرنسا ، ومنها انتشر ذلك الطراز إلى بقية أنحاء أوربا [3] .

ولم يكن البناء القوطى عملا فنياً رائعاً فحسب ، بل أيضاً عملا هندسياً بارعاً من حيث المحافظة على توازن البناء ومراعاة ثقله والمهارة فى استخدام العقود والأكتاف وانتقاء الخامات الكفيلة بحفظ توازن المبنى . وهكذا نجد العمارة القوطية تنفرد بعدة خصائص أساسية منها استعمال الأضلاع المتقاطعة الأقواس Criosse d'ogive ، واستعمال العقود المدببة والعقود السائدة Arc boutant لتدعيم القبوة ، هذا عدا ابتكار زخارف من طراز جديد سنتكلم عنها فيما بعد [4] ومن هذا يبدو أن أهم ما يميز الكنيسة المشيدة على الطراز القوطى عن تلك المشيدة على الطراز الرومانسكى ، هو أن الأولى امتازت بجدرانها الرقيقة وعقودها المدببة فى حين جاءت الثانية سميكة وعقودها نصف دائرية . كذلك امتازت الكنيسة القوطية بارتفاعها وعلوها الذى ساعد رقة جدرانها ، فى حين أن زميلتها الرومانسكية قليلة الإرتفاع رغم علو برجها [5] . ولما كان ارتفاع الجدران فى الطراز القوطى مع إقامة قباب وأبراج فى أعلى البناء يتطلب تقويتها عن طريق غير زيادة سمك الجدران، فإن المهندسين حلوا هذه المشكلة عن طريق

1) Cam. Med. Hist. Vol. 6; p. 771.
2) Idem p. 763.
3) Lethaby: The Legacy of the Middle Ages, p. 69.
4) Lethrby: Medieval Art; p. p. 116—119 & Cam' Med Hist. Vol 6 p. p. 763—764.
5) Cam. Med. Hist. Vol 6. p. 764—765.



واجهة كنيسة قوطية فى فرنسا

إقامة سوالد وأكتاف معلقة Flying buttresses [١] . وهذه الأكتاف تبنى فى الجهات المضادة للحوائط كى تساعدها على تحمل الأثقال الواقعة عليها ، مما مكن من ازدياد ارتفاع القباب فى الكنائس القوطية حتى بلغ ارتفاع قبة صحن نوتردام أكثر من مائة قدم . على أن ارتفاع البناء على ذلك الوجه تطلب اتساع الفتحات والنوافذ لتيسير الإضاءة داخل الكنيسة ، ومن ثم امتازت الكنائس القوطية بالنوافذ العالية المرتفعة بارتفاع البناء ، والتى كثيراً ما كانت تقسم إلى أقسام طولية تفصل بينها حواجز رفيعة من الحجر . وقد جرت العادة أن تحلى الكنائس القوطية بصف أو أكثر من النوافذ (Clerestory) ، ولم يكن من الضرورى أن تكون النوافذ متراصة بعضها فوق بعض ، وإنما جاءت فى أوضاع مختلفة حسب الحاجة إليها ، دون رعاية لتناظرها [٢] .

وفيما عدا ذلك ، امتازت الكنائس القوطية بالأبراج Spires والشرفات Tracery التى زينت واجهاتها . واشتهرت أبراج الكنائس القوطية بطرفها المدبب حتى أصبح من الممكن التعرف على ذلك الطراز عن بعد بأبراج البناء ذات القمم المدببة . أما مداخل الكنائس فكانت كبيرة واسعة نتيجة لرقة الجدران وكثرة الممرات ، وإن كانت أبوابها صغيرة لا تتناسب مع اتساع الممرات وارتفاع البناء وقد حليت مداخل الكنيسة بتماثيل القديسين والأعمدة المزركشة ، فى حين فصلت ممرات الكنيسة بعضها عن بعض سلسلة من الأعمدة فى المبانى القوطية ، وإن كان أغلبها على هيئة ناقوس منكس تكسوه زخارف تمثل أوراق النبات وأغصان الأشجار . وكذلك امتازت القواعد التى ارتكزت عليها تلك الأعمدة بجمال هيئتها وتنوع أشكالها .

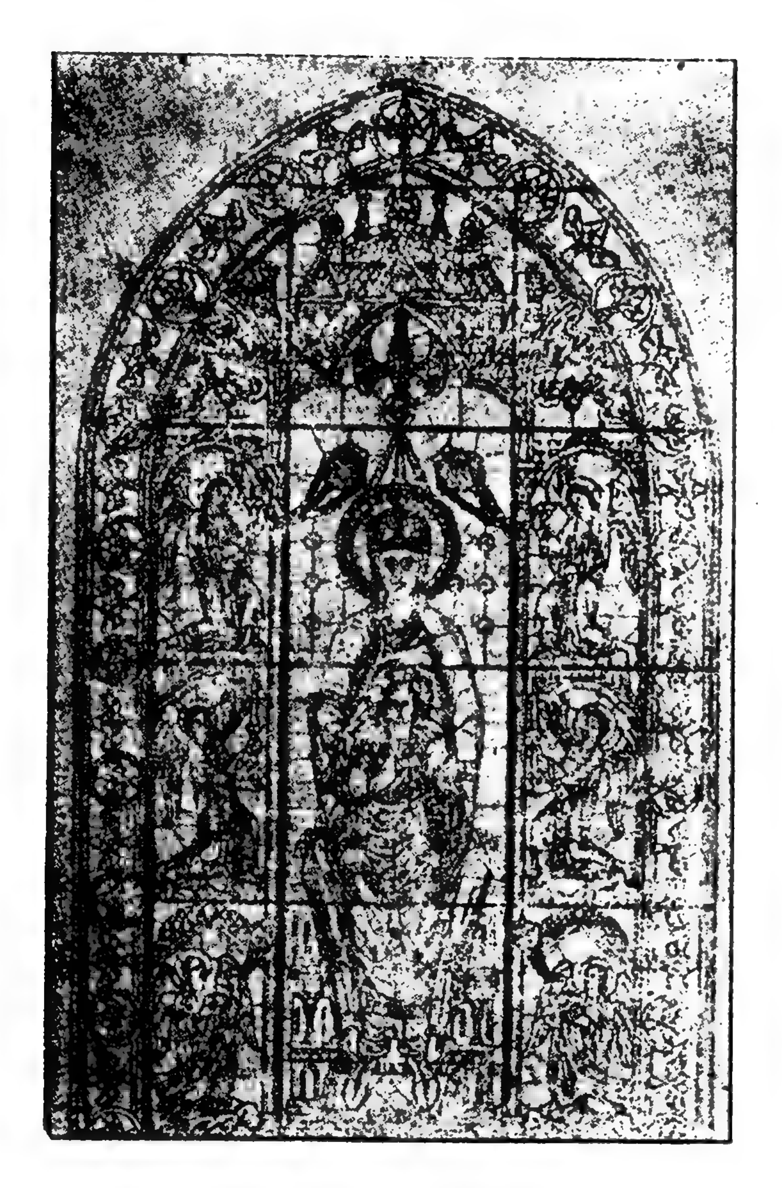
أما الزخارف القوطية فكانت على جانب كبير من الروعة ، هذا وإن كانت روح الطراز القوطى ومميزاته تبدو فى فنه المعمارى أكثر منها فى فنه الزخرفى [٣] وقد كثر فى تلك الزخارف استعمال الزجاج الملون المنقوش المؤلف بالرصاص

---

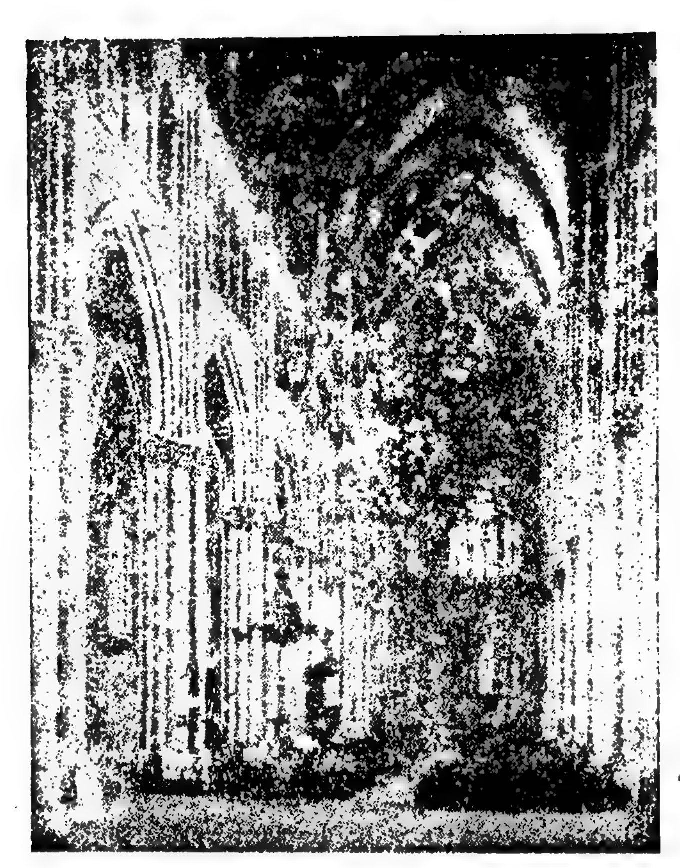
1) Briggs: Architecture p, 93 & Lethaby: Med. Art : p 120.

2) Lethaby: Med. Art p. p. 130-133,

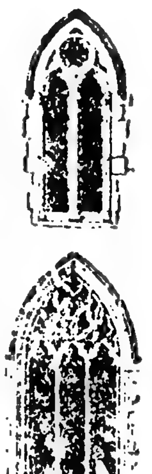
3) Briggs. op. cit, p. 93.

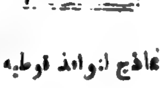


نموذج لزخارف نافذه قوطيه من الزجاج المعشق بالرصاص



كنيسة قوطية من الداخل





نماذج لنوافذ قوطية

وروعى فى ذلك الزجاج أن يكون غالباً على هيئة وحدات صغيرة تستعمل فى رسم قصة دينية مقتبسة من الإنجيل أو غير ذلك [١] . ولم تقتصر الزخرفة على نوافذ الكنائس وإنما امتدت إلى الأكتاف والأعمدة والعقود . ويرتبط جزء هام من الزخرفة القوطية بالنحت وأنواعه المختلفة . وتبدو أكثر أنواع النحت فى حشوات الحفر المأخوذة من الوحدات النباتية والتماثيل الخرفية وتماثيل القديسين . وهكذا أدى الإكثار من استخدام النحت فى زخرفة الكنائس القوطية إلى سمو فن النحت وتحرره من القيود التقليدية القديمة [٢] . وكذلك روعى فى زخرفة ظاهر الكنيسة أن تقسم واجهتها إلى أقسام رأسية تمتد من على الأبواب والنوافذ والأبراج والعقود العمياء التى تزين واجهة الكنيسة . وهنا نلاحظ أمرين ، أولهما : أن خطوط الزخرفة الرأسية كانت أكثر شيوعاً من الخطوط الأفقية فى الفن القوطى ، وثانيهما : أن خصائص العمارة القوطية ذاتها استخدمت أيضاً فى تزيين المبانى وزخرفتها ، ومن ذلك أن أشكال العقود المدببة كثيراً ما استخدمت فى زخرفة الأبواب وستائر غرف الترتيل .. الخ .

ومن الواضح أن الفن القوطى الذى انتشر فى أوربا وأصبح طراز العمارة والزخرفة السائد فى الفترة الواقعة بين القرنين الثانى عشر والسادس عشر ، لم تتشابه تفصيلاته فى جميع البلدان الأوروبية ، وإنما اختلفت هذه التفصيلات من بلد إلى آخر حسب ظروف البيئة والأوضاع السائدة فى كل بلد . ففى إيطاليا مثلا استخدم الرخام الأبيض والملون نظراً لوفرته ، فى حين استعملت فى فرنسا وانجلترا الأحجار الصخرية والحبية ، واستعمل الحجر الجيرى فى ألمانيا . كذلك اختلفت نسبة الفتحات والنوافذ بين شمال أوربا وجنوبها ؛ ففى إيطاليا وجنوب فرنسا - حيث الشمس ساطعة - استخدمت الكرانيش والبواكى لتهىء قدراً كافياً من الظل ، فى حين أن البلاد الشمالية - حيث تزداد السحب - أكثرت من الفتحات الواسعة لتمكين الضوء من الدخول كما راعوا شدة انحدار السقوف اتقاء للامطار والجليد . وهكذا أخذ الطراز القوطى يتشكل

---

1) Lethaby. Medieval Art p. p. 132—135.
p. 567.
2) Idem. p.p. 160 —171 & Cam. Med. Hist., Vol. 8, p. 567.

فى كل بلد من بلدان أوربا وفق خصائص مميزة ، هـذا وإن إتفقت جميعاً فى الخصائص العامة التى تميز ذلك الطراز عن غيره من الطرز الفنية [١]. ولا نستطيع أن نتتبع فى هذا المجال خصائص الفن القوطى بالتفصيل فى كل بلد من بلدان غرب أوربا ، لأن هذه الخصائص لم تظهر فى وضوح إلا بعد انقضاء القرن الثانى عشر .

ويبدو أن ازدهار الفن القوطى منذ القرن الثانى عشر جاء مصحوبا بنشاط كبير فى مختلف النواحى الفنية . فبالإضافة إلى ما ذكرناه من تقدم فن النحت وزخرفة المبانى واستعمال الزجاج الملون فى عمل رسومات جميلة ، انتشر التصوير الذى كان حتى ذلك الوقت مقصورا على زخرفة الكتاب المقدس ، فانتقل إلى زخرفة الجدران وإلى عمل لوحات ناطقة للقديسين أظهرتهم أكثر جمودا وأكثر مرونة . هذا بالإضافة إلى زخرفة المخطوطات وتزيينها برسوم واهية تجمع بين الرقة والجمال . كذلك ظهر الاهتمام ـ لاسيما فى انجلترا ـ بروعة الأثاث والتفنن فى زخرفته عن طريق النقش والحفر ، وصحب ذلك المهارة في صناعة المعادن سواء صياغة الحلى أم صنع الثريات والحواجز الكنسية التي صنعت من المعدن أو الخشب وحليت ببعض الأحجار الثمينة .

أما الموسيقى فأهميتها واضحة فى العصور الوسطى لارتباط بمباشرة الطقوس الدينية فى الكنائس [٢] . وقد ظلت الموسيقى الغربية شبه بدائية وسطحية فى أنغامها وألحانها حتى عصر الحروب الصليبية ، عندما أخذ يظهر فى القرن الثاني عشر التوافق والإنسجام بين الألحان والأنغام . ومما ساعد على ذلك ، التقدم الذى أحرزته كتابة النوتة الموسيقية منذ القرن الثانى عشر ، حتى أصبح فى الإمكان تدوين مختلف الأصوات ومراعاة التوزيع الموسيقى على الآلات المتباينة سواء القديم منها أو ما استجد فى ذلك القرن .

---

(١) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ج ٢ ص ٢٧٥ — ٢٧٦ .

1) Pirenne : La Civtlisation Occidentale. p. 201.

الباب الرابع

النهضة الإيطالية

أوربا بين عصرين:

سبق أن ذكرنا في بداية الجزء الأول من هذا الكتاب أن تقسيم التاريخ إلى عصور أمر غير طبيعي ، على الرغم من أهمية هذا التقسيم لدراسة التاريخ[1] حقيقة إن الفوارق بين العصور التاريخية القديمة والوسطى والحديثة تبدو في كثير من الأحيان واضحة جلية ، ولكن من التعسف أن نضع فواصل تاريخية معينة بين كل عصر وآخر لأن التطور التاريخي يأتي تدريجياً دون أن يخضع لحدث معين أو يتحدد بيوم أو سنة أو قرن . وكل ماهناك هو أنه توجد فترة انتقال زمنية بين كل عصر وآخر من عصور التاريخ ، وفي هذه الفترة نرى بعض بشائر العصر الجديد وقد أخذت تشق طريقها وسط معالم العصر السابق .

وعصر النهضة هو الذي يمثل فترة الانتقال من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة [2] : فهو العصر الذي نختتم به دراستنا لتاريخ العصور الوسطى ، وفي الوقت نفسه نبدأ به دراسة تاريخ أوربا العصور الحديثة . وفي كلتا الحالتين لا يمكننا تحديد بداية زمنية دقيقة لهذه النهضة ، ولكن من الممكن القول بأن بذورها ظهرت في القرنين الثاني عشر والثالث عشر لتبلغ أشدها في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ؛ ثم تستمر ذيولها في صورة حركات الإصلاح الديني والنزاع المذهبي في القرن السابع عشر [3] . وبعد ذلك ينتهي عصر النهضة -

---

1) Cam. Med. vol. 8, p. 803 & Cam. Modern Hist. vol. I, p. I.
2) Symonds: Renaissance in Italy, Vol. I, p. I,
3) Idem., p. 7,

أو فترة الانتقال ـ لنجد أنفسنا في عصر حديث يختلف في معالمه ومثله وآفاقه وحضارته المعنوية والفكرية والمادية عما كان عليه عالم العصور الوسطى .

والواقع أنه يصعب على الباحث حصر جميع أوجه الخلاف بين العصور الوسطى والحديثة ، وإنما نستطيع أن نبرز ثلاثة عناصر أساسية كبيرة تجعلنا نشعر فعلا بالفارق بين العهدين [١] . أما الجانب الأول فيبدو في أن العصور الحديثة عرفت الدولة كوحدة سياسية تقوم على أساس الشعور القومي الذي يربط بين أبناء الأمة الواحدة . فالأمم الحديثة كالأمة الأسبانية أو الإنجليزية أو الإيطالية لم يتم تكوينها على أساس التماسك بين أبنائها والشعور بالفارق بينهم وبين غيرهم من أبناء الأمم الأخرى إلا في أواخر عصر النهضة . وبينما ظل المفكرون السياسيون في العصور الوسطى متأثرين بتقاليد الامبراطورية الرومانية العالمية وفكرة الكنيسة العالمية أيضاً ، ومن ثم اعتبروا العالم المسيحي بأكمله يمثل دولة واحدة على رأسها زعيمان هما البابا والإمبراطور ليعبر الأول عن السلطة الدينية ويعبر الثاني عن السلطة الدنيوية ؛ إذا بالعصور الحديثة تتنكر لكل هذه المبادىء وتنادي بأن لكل دولة كيان سياسي مستقل يعتمد على الشعور القومي الذي يربط بين أبنائها ويجعلهم يتعصبون بعضهم لبعض فضلا عن تعصبهم لوطنهم [٢] .

والفارق الثاني بين العصور الوسطى والحديثة هو أن الأولى لم تتخذ الفرد وحدة أو أساساً للبناء الاجتماعي [٣] فالفرد في العصور الوسطى لا يمثل الخلية الأولى في بناء المجتمع ، وإنما تتمثل هذه الوحدة في المجموعة ، سواء كانت هذه الوحدة الضيعة الإقطاعية أو كانت القومون ـ وهي المدينة ذات الكيان السياسي المستقل ـ أو كانت النقابة التي تنظم مصالح أبناء الحرفة الواحدة . وبعبارة أخرى فإن الفرد كان لاشيء في العصور الوسطى ، في حين كانت المجموعة هي كل شيء . ولم يكن هناك مجال أمام الفرد في العصور الوسطى لإظهار نشاطه وكفايته ؛ اللهم إلا إذا انتظم في سلك الكهنوت فعندئذ فقط يستطيع الفرد

1) Lodge: The Close of the Middle Ages, pp. 516—517.

2) Cam. Modern. Hist. vol. I, p. 2.

3) Cam. Med. Hist. vol. 5, p. 624.

المغمور أن يبرز ويظهر ويحتل مكانة مرموقة فى المجتمع . أما العصور الحديثة فقد اعترفت بحرية الفرد ومكانته وأعطته حقه كاملا فى المجتمع وفى الحياة[1] حتى قيل إن أعظم ماحققته النهضة هو أنها كشفت عن العالم والفرد[2] .

أما الفارق الثالث بين العصور الوسطى والحديثة فهو انتشار الجهل والجمود فى الأولى واتساع نور المعرفة ونطاق التفكير فى الأخرى . ولسنا نريد أن نبالغ فنحا كى البعض فى القول بأن العصور الوسطى كانت عصور ظلام وجهل على طول الخط ، إذ أثبت الواقع أن ركاب الحضارة لم يتوقف فى أوربا العصور الوسطى ، وأن تلك العصور لم تخل من دراسات ونهضات ووثبات حضارية[3] بل إننا نكرر القول بأنه يمكن اقتفاء جذور نهضة القرن الخامس عشر فى أوربا القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، كما يبدو لنا من أبواب القسم الثانى من هذا الكتاب أن العصور الوسطى كانت لها حضارتها ذات الطابع الخاص التى تنفى عنها تهمة الظلام المطبق . ولكن كل ما نريد أن نثبته هو أن الكنيسة ومؤسساتها ورجالها هم الذين احتكروا العلم والتعليم طوال الشطر الأكبر من العصور الوسطى . وليس بخاف أن الكنيسة كانت تفرض قيوداً شديدة على حرية الفكر وحرية البحث العلمى ، حتى انتهى مصير كل من حدثته نفسه بشىء من التحرر الفكرى إلى اتهامه بالهرطقة ، وبئس المصير . فالجمال إثم ، والمرح وزر ، والحياة عرض زائل ، والجهل برهان على الخضوع لله والرضاء بأحكامه . . . . وهكذا حتى جاءت النهضة فحررت العقل البشرى من هذه المعتقدات وجعلته طليقاً يسبح حراً فى دنيا التأمل والجمال[4] . هذا بالإضافة إلى أن وسائل التعلم واكتساب المعرفة كانت محدودة وباهظة النفقات فى أوربا العصور الوسطى . فالطباعة لم تكن قد عرفت بعد ، والورق لم تتوصل إليه أوربا إلا عن طريق العرب فى أواخر العصور الوسطى ، ورقائق جلود الحيوانات التى استخدمت فى الكتابة كانت باهظة التكاليف ، حتى لجأ الناس إلى محو ما على الرقائق من

1) Cam. Modern Hist. vol. I, p. 3.
2) Symonds: Renaissance in Italy. vol, I, p, 12.
3) Eyer: op. cit. p. 334.
4) Symonds: Renaissance in Italy vol. I, p. II & vol, 2, p. 130

كتابات قديمة لإعادة استخدامها أكثر من مرة . فإذا أضفنا إلى ذلك انتشار الخرافات والمعتقدات الباطلة فى العصور الوسطى ، وقلة من عرفوا اللغة اللاتينية قراءة وكتابة ـ وهى لغة الأدب والعلم فى تلك العصور ـ أمكننا فى النهاية إدراك مدى الفارق الثقافى بين العصور الوسطى والعصور الحديثة [١] .

فعصر النهضة إذاً هو العصر الذى شهد نهاية النظام الاجتماعى والسياسى الذى عرفته العصور الوسطى ، كما أزيلت فيه القيود التى فرضتها تلك العصور على حرية الفكر والبحث. والواقع أن الجزء الأخير من العصور الوسطى شهد تغييرات وتطورات على جانب كبير من الأهمية ، منها اضمحلال الإمبراطورية والبابوية جميعاً [٢] ، ونمو الأمم الفرنسية والأسبانية والإنجليزية ، وظهور اللغات القومية ، وانهيار النظام الإقطاعى ونظام الفروسية نتيجة لنمو الصناعة ونشاط التجارة وتحرر المدن [٣] هـــذا كله بالإضافة إلى التخلص من سيادة أرستقراطية الأمراء ورجال الدين نتيجة لارتقاء عامة الناس إلى المناصب السياسية ، ونمو ملكيات قوية تعتمد على تأييد الشعوب فى كثير من بلاد أوربا. ولابد من أن نضيف إلى هذه التغييرات التى أدت إلى حركة النهضة وساعدت على مولدها ما تم فى ذلك العصر من اختراعات واستكشافات عظيمة [٤] . فاستخدام البوصلة والاسطرلاب وما ترتب عليهما من تقدم الملاحة البحرية ، أدى إلى الكشف عن طريق الهند البحرى والكشف عن العالم الجديد ، مما ساعد على ازدياد المعرفة وإحداث ثورة شاملة فى طرق التجارة فى العالم أجمع هذا بالإضافة إلى استكشاف البارود وما ترتب عليه من ثورة فى نظم الحرب والمجتمع ، واستكشاف الطباعة وما أدى إليه من انتشار العلم والمعرفة [٥] . وأخيراً جاء سقوط القسطنطينية فى أيدى العثمانيين سنة ١٤٥٣ ليدفع كثيراً من علمائها إلى الفرار نحو الغرب حاملين معهم قسطا كبيرا من علوم اليونان وحضارتهم [٦] .

---

1) Lodge: op. cit. p. 518.
2) Pirenne: La Fin du Moyen Age, Tome 2, pp. I—24
3) Idem, pp. 142—155.
4) Lodge: op. cit., p. 518—519.
5) Symonds: Renaissance in Italy, vol. I, pp. 22—23.
6) Eyre : op. cit. p. 287.

وجميع هذه التطورات تنتمى إلى النهضة وترتبط بها ، وعلى ذلك تجب علينا دراستها كلها دراسة شاملة إذا أردنا الإحاطة التامة بالنهضة فى كافة البلاد الأوربية وهو الأمر الذى يخرج عن نطاق هذا الكتاب . لذلك نكتفى بالإشارة إلى أوجه نشاط النهضة بمعناها الضيق ـ أعنى حركة إحياء الآداب والفنون ـ وهى الحركة التى ارتبط مولدها ونشأتها بإيطاليا . هذا مع إعترافنا بأن اصطلاح النهضة بمعناها الواسع لايقتصر على إحياء الآداب والفنون ودراسات القدماء من يونان ورومان فحسب ، وإنما يمتد هذا المعنى ليشمل تغيير الآراء والمثل المعنوية والاجتماعية والسياسية التى سادت العصور الوسطى [1] .

إيطاليا وحركة النهضة :

والواقع أن إيطاليا تستطيع أن تفخر بأنها الدولة التى شهدت مولد النهضة الأوربية العظيمة وتولت زعامتها ، وهى النهضة التى ظهرت واضحة جلية فى القرن الخامس عشر . ولاعجب ، فإن إيطاليا امتلكت لغة قومية وجواً معتدلا وحرية سياسية ورخاء اقتصاديا ، فى الوقت الذى كانت بقية البلاد الأوربية لاتزال فى حالة واضحة من الجمود والتأخر [2] . وفيما يتعلق بالأدب والفن ، لم تشهد إيطاليا حركة إحيائهما فحسب وإنما تعهدتهما بالرعاية والعناية حتى اكتمل نموهما وازدهرا بين ربوعها . وبعد ذلك أخذت بقية الأمم الأوربية تتلقى من إيطاليا أصول النهضة وتطبق هذه الأصول فى ميادين جديدة كالإصلاح الدينى والاستكشافات التى تمت فى مختلف ميادين المعرفة .

وهنا نواجه مشكلتين هامتين : الأولى هى لماذا انفردت إيطاليا ـ دون غيرها من البلاد الأوربية ـ بشرف مولد النهضة الأوربية الحديثة بين ربوعها . والأخرى هى كيف تولد النهضة فى إيطاليا ، وهى مركز البابوية والكنيسة الغربية التى عرفت طول العصور الوسطى بالجمود والتزمت وتقييد حرية الفكر . أما الإجابة عن السؤال الأول فخلاصتها أن إيطاليا ـ وعاصمتها روما ـ ظلت فى العصور الوسطى تحتفظ بقدر كبير من تراث الرومان القدماء ومجدهم ، على الرغم من أنها

1) Ibid.
2) Cam. Modern Hist. vol. 1, p. 3.

تعرضت لغزو البرابرة وتدميرهم ، شأنها شأن بقية الولايات الرومانية [١] وإذا كانت روما لم تعد حاضرة إمبراطورية ضخمة كما كان الحال فى سالف الزمان ، فإنها أضحت فى العصور الوسطى مركز البابوية وقبلة العالم المسيحى الغربى بأكمله ! مما أضفى على إيطاليا مكانة خاصة لم تتوافر لغيرها من الدول الأوربية. هذا بالإضافة إلى أن موقع إيطاليا الجغرافى على جانب عظيم من الأهمية فى عصر كان البحر المتوسط مركز التجارة العالمية . وهكذا أدى النشاط التجارى ووفرة الانتاج إلى زيادة ثروة المدن الإيطالية الشهيرة مثل البندقية وجنوا وفلورنسا [٢] . وهل هناك شك فى أن ازدياد ثروة الأفراد والجماعات تؤدى فى معظم الحالات إلى الاعتداد بالنفس والشعور بالقوة والسلطان والرغبة فى تنوير الفكر والتحرر من كافة القيود والأغلال ، فضلا عن حب الترف والتفنن فى اقتناء التحف والمبالغة فى مكافأة المنتجين ، مما يدفعهم إلى زيادة الإتقان والتحمس للإبتكار [٣] .

وأما عن المشكلة الثانية الخاصة بموقف البابوية من حركة النهضة الإيطالية فخلاصة حلها أن البابوية فى أواخر العصور الوسطى لم تعد كما كانت عليه فى أوائل تلك العصور . ذلك أن البابا أضحى فى أواخر العصور الوسطى ـ بالإضافة إلى صفته الدينية كرأس للكنيسة ـ حاكما دنيويا لايختلف عن الملوك والأمراء وغيرهم من الحكام الدنيويين المعاصرين ، فله أراضى يحكمها ، وله بلاط يعج بالأتباع والموظفين ، بل إن البلاط البابوى لم يخل من المفاسد والمخازى التى ليس لها نظير فى بلاط بقية الملوك والأمراء العلمانيين [٤] . وفى الوقت الذى أخذ المسيحيون فى شمال أوربا يستقبحون ذلك الوضع الذى أمست فيه البابوية وبلاطها، ويستنكرون القبائح التى تردى فيها البابوات ، إذا بالإيطاليين أنفسهم ينظرون إلى تلك الأوضاع على أنها شىء عادى لاعيب فيه ، ولا يختلف عما كان عليه بقية الأمراء الإيطاليين فعلا [٥] . وكل ما كان يهتم له الإيطاليون حينئذ هو أن يبقى

1) Lodge : op. cit. p.520.
2) Cam. Med. Hist. vol. 8, p. 219.
3) Eyre : op. cit. p. 628.
4) Cam. Med. Hist. vol. 1, pp. 281—282.
5) Symonds : Renaissance, vol. 1, p.p. 292—295.

الكرسى البابوى فى روما ، وأن تظل إيطاليا مركز الكنيسة الغربية حتى تتدفق عليها الأموال التى يجمعها رجال البابا من مختلف بلاد العالم الغربى . ولم يلبث البابوات أن أخذوا يسابقون الأمراء الإيطاليين فى تشجيع الأدب ورعاية الفنون ، فنافسوا آل مديتشى فى فلورنسا وملوك نابلى ، وهرع الأدباء والفنانون إلى البلاط البابوى طامعين فى حسن الجزاء وكرم العطاء [1] . وهكذا وجد من البابوات أمثال نيقولا الخامس (١٤٤٧ - ١٤٥٥) وليو العاشر (١٥١٣ - ١٥٢١) من أسهم فى بناء النهضة وعمل على تشجيع رجالها ، بل إنه منذ وقت مبكر — يرجع إلى أوائل القرن الرابع عشر — ظهر فى البلاط البابوى فى أفينون إتجاه نحو تشجيع التراث الكلاسيكى [2].

النهضة الأوربية :

وليست الأهمية فى إحياء الآداب والفنون إلى أن هذا الإحياء أثار موجة من التقدم الفكرى قضت على الجهل والخرافات فحسب ، بل إن هذا الإحياء جاء خطوة كبرى فى سبيل تحرير الفرد من قيود العصور الوسطى . بل إن الفرد كثيراً ما يجد فى الفن والأدب مجالا واسعاً للتعبير عن مواهبه الذاتية والوصول إلى قمة الشهرة والمجد ، دون حاجة إلى الاعتماد على شرف المولد أو الارتباط بهيئة أو جماعة معينة [3] . وكان دانتى (١٢٦٥ — ١٣٢١) — الذى احتل مكانة بارزة عند مدخل النهضة الإيطالية - أول رجل عظيم فى العصور الوسطى وقف بمفرده واعتمد على نفسه وعلى مواهبه فى الوصول إلى قمة الشهرة دون أن يرتبط بهيئة دينية أو علمانية . ذلك أن « الكوميديا الإلهية » التى وضعها دانتى صبغت أولى اللغات الأوربية الحديثة بطابعها الأدبى ، ومن ثم أصبح هذا الإنتاج بالغ الأهمية بالنسبة لإيطاليا ، كما ترك أثراً عميقاً فى نفوس الإيطاليين وعقولهم [4]

---

1) Cam. Med. Hist. vol. 8. p. 773.
2) Eyre : op. cit. p. 589.
3) Lodge : op; cit., p. 522.
4) Pirenne : La Fin du Moyen Age, Tome 2, pp. 196—201.

وحسبنا أن أسمى أمنية يتمناها الكاتب الإيطالى اليوم هى أن يستخدم أسلوب دانتى ولغته ، حتى أنه كثيراً ما يرجع إلى المعاجم ليتأكد من أن لفظه المختار كان مستعملا فى القرن الثالث عشر . على أن دانتى - على الرغم من عظمته - لم يكن مشبعاً بالروح الحديثة ، ولم يحاول أن يحرر نفسه من آراء معاصريه ومعتقداتهم ليرتفع فوق مستواهم . ففى رسالته عن الملكية (De Monarchia) تراه يستسلم لآراء الفلسفة المدرسية ، ويبذل مجهوداً كبيراً للدفاع عن نظرية الامبراطورية العالمية [١] وعلى ذلك قد يكون من الصواب أن نقول إن دانتى الذى يقف على عتبة النهضة ، يمثل فى الواقع آخر عمالقة العصور الوسطى أكثر منه أول رسل العصور الحديثة [٢] .

وبعد دانتى جاء بترارك (١٣٠٤ — ١٣٧٤) الذى أثرت قصائده الغزلية فى آداب جميع البلاد الغربية . فى حين يعتبر أول الإنسانيين الايطالين نظراً لحبه لأدب القدامى وشغفه بحريتهم [٣] . وقد عثر بترارك على خطبتين لشيشيرون فى لييج سنة ١٣٣٣ وعلى مجموعة أخرى من رسائله سنة ١٣٤٥، ومن ثم أخذ يواصل البحث عن تراث القدامى حتى جمع ما يقرب من مائتى مخطوطة ظل يحتفظ بها أمام عينيه فى حله وترحاله [٤] . وقد عاصر بترراك عبقرى آخر على جانب كبير من الإلهام وقوة الابتكار - هو بوكاشيو Boccaccio(١٣١٣ - ١٣٧٥) - الذى حاكى بترارك فى ولعه بدراسة آداب القدماء حتى أنه فعل الكثير من أجل إدخال دراسة اللغة اليونانية فى إيطاليا [٥] . وكان أن أحرز بوكاشيو شهرته العظيمة من المائة قصة التى وضعها ، والتى تعرف بإسم « الأيام العشرة Decameron على أساس أن سردها يستغرق عشرة أيام (٦) . وفى هذه المجموعة من القصص يظهر بوكاشيو احتقاره لخرافات العصور الوسطى وتقاليدها البالية ، كما ينظر إلى الحياة نظرة مرحة باسمة ، وهذه كلها اتجاهات غريبة عن العصور

1) Eyre : op. cit., pp. 476—477.
2) Symonds : Renaissance in Italy, vol. 1, pp. 8—9.
3) Foligno : Epochs of Italian Literature, p. 12.
4) Eyre : op. cit, p. 589.
5) Eyre : op. cit., p. 590.
6) Symonds : Renaissnce, vol. 2, p. 63.

الوسطى جديدة عليها [1] . وقد استعار شوسر فيما بعد فى مؤلفه « قصص كانتر بورى » كثيراً من الفصول والمواقف التى زخرت بها قصص بوكاشيو . وعن طريق شوسر تأثر بقية الكتاب فى العصور التالية الأدب الإنجليزى بنفوذ بوكاشيو .

والحق إن هؤلاء الأعلام الثلاثة ـ دانتى وبترارك وبوكاشيو ـ هم الذين أعادوا لإيطاليا حريتها الفكرية . حقيقة إن النهضة لم تكن قد بدأت بعد ، ولكن ظهورهم بشر بها وجعل قدومها أمراً متوقعاً فى السنوات التالية [2] . وقد أعقب هؤلاء الثلاثة مجموعة من الجامعين ، وهم الذين أخذوا يتنقلون بين مختلف أنحاء أوربا ـ بل خارجها ـ للبحث عن مخطوطات القدماء وجمعها ، بفضل ما صادفوه من تشجيع بعض الأمراء والبابوات مثل كوزيمودى مديتشى والبابا نيقولا الخامس [3] . ومن الصعب علينا الآن تصوير مدى الحماسة التى أقبل بها هؤلاء على مهمة الجمع . حتى لقد دفعتهم الرغبة فى اقتناء المخطوطات القديمة إلى الاحتيال والخداع فى بعض الأحيان [4] . وقد ظهر من هؤلاء الجامعين فريق أدوا خدمة لا تقدر للعلم والعالم ، مثل بوجيو ، وفرانسسكوا فليلفو ، ونيقولو نيقولى مؤسس مكتبة سانت مارك فى فلورنسا [5] . أما اللغة الإيطالية فى خلال تلك الفترة — أى فى النصف الأول من القرن الخامس عشر تقريباً — فكانت فى طى النسيان ، لعدم ظهور كتاب كبار حينئذ — سوى بوجيو وسلفيوس ـ وكلاهم لم يكتب سوى باللاتينية . والواقع أن الفضل فى عدم زوال اللغة الايطالية كلية . إنما يرجع إلى آل مديتشى فى فلورنسا ، وهى الأسرة التى حرصت على تشجيع الآداب والفنون واستمالة الأدباء والفنانيين حتى جعلوا من مدينتهم « أثينا إيطاليا » [6] وحسبنا أن لورنز ومديتشى ـ الذى تسلم أعنة الحكم سنة ١٤٦٩ وهو فى الحادية والعشرين من عمره ـ كان يعرف اللاتينية واليونانية ، ويتذوق التاريخ والفلسفة ،

1) Stephenson : Med Hist. p. 588.
2) Symonds : Renaissance, p. 9.
3) Eyre : op. cit., pp. 600—601.
4) Symonds : Renaissance, vol 2, p.p. 98—103.
5) Pirenne : La Fin du Moyen Age: Tome 1, p.p. 517—519.
6) Eyre : op. cit., p. 614.

فضلا عن تحمسه لجميع ألوان الفنون . حتى أنه دون بنفسه مجموعة شهيرة من الأغانى بالإيطالية لتنشد فى الأعياد الشعبية ، مما يوضح لنا إلى أى حد عمل هذا الأمير على النهوض باللغة الإيطالية وسط محيـــط متضارب من الدراسات اليونانية واللاتينية (١) .

ثم كان أن دخلت الدراسات الكلاسيكية فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر فى دور جديد - خلاف دور الجمع - هو دور النقد (٢) . فبعد أن انتهى المعاصرون من جمع أكبر قدر ممكن من التراث القديم ، أخذوا يتفهمون هذا التراث ويدرسونه ويحاولون تطبيق تعاليم القدماء على الأوضاع والمشاكل التى يعيشون وسطها . وليس من المبالغة أن نعترف بعظم الأثر الذى تركته هذه الدراسات فى الفكر البشرى ، إذ أخذ الناقدون ورجال العلم يدرسون النصوص الأصلية للفلاسفة القدماء - مثل أرسطو - ويهملون الدراسات المدرسية التى قامت على تراجم محرفة مأخوذة عن العربية . وكان على رأس هذه الحركة لورنزو فالا فى روما ونابلى وفشينو وبوليتيانو فى فلورنسا (٣) . وقد نشر لورنزو فالا مقالا ليثبت تزوير وثيقة « هبة قسطنطين » التى اعتمد عليها البابوات فى العصور الوسطى فى إثبات شرعية سلطانهم العلمانى . وكان فالا عندئذ فى خدمة ألفونسو ملك نابلى - خصم البابا اللدود - الأمر الذى شجع فالا على الاحتماء به ومهاجمة النظامين الكنسى والديرى (٤) . ولو أن الأمر اقتصر على إيطاليا وحدها ، لهان شأن هذا الهجوم ، ولكن الدراسات والعلوم الجديدة التى أتت بها النهضة أخذت تنتشر حينئذ فى بقية بلدان أوربا ، مما جعل لوثر (١٤٨٣ - ١٥٤٦) يتأثر بروح العصر التى أثارها الناقدون ، ويعلن ثورته على الكنيسة ونظمها البالية ، وهى الحركة التى عرفت بالإصلاح الدينى .

---

1) Idem : p. 615.

2) Symonds : Renaissance ; p.p. 18—19.

3) Pirenne : La Fin du Moyen Ages, Tome I, p.p. 160—168.

4) ...

النهضة الفنية :

وإذا كانت حركة النهضة قد بدأت بإحياء الدراسات الكلاسيكية على يدى الإنسانيين الإيطاليين فإنها استؤنفت بوساطة الفنيين الذين كشفوا النقاب عن جمال الآثار القديمة وعملوا على محاكاتها فى روحها وتعبيراتها [1] . وبعبارة أخرى فإنه إذا كان الإيطاليون أصحاب الفضل الاول فى نشأة الأدب الحديث فإنهم يستطيعون أن يفخروا أيضاً ـ وعلى مقياس أعظم ـ بأنهم مبتكرو الفن الحديث ، وبصفة خاصة فى التصوير والنحت . ذلك أن فن العمارة كان الجانب الفنى الوحيد الذى لم يصبه انهيار فى العصور الوسطى والذى استطاع أهالى شمال أوربا أن يبذوا أهالى إيطاليا فيه . أما فى الرسم والزخرفة من ناحية والنحت من ناحية أخرى ، فإن الإيطاليين احتفظوا بشرف إحيائها جميعاً والنهوض بها إلى مستوى الجمال والكمال ، بعد أن أصبح الجمال غاية لا وسيلة ، يقدس ويحترم لأنه شىء جميل لا لأنه يعبر عن مجرد فكرة دينية [2] .

أما عن فن التصوير ، فقد كان فى العصور الوسطى مقيداً بقواعد جعلته غير جدير بإسم فن : ذلك أن الرسم اقتصر على الأغراض الدينية ، وأصبح مفروضاً أن يطابق الروح الدينية فى اتجاهاته ، بحيث صارت الزخرفة تخضع لتقاليد معينة ثابتة تحدد موضع الرسم وطريقة معالجته ، بل نوع الألوان التى يجب أن يتقيد بها الرسام فى رسمه . فإذا تغاضى الرسام عن إحدى هذه القواعد أو أهمل اتباعها فى رسمه اعتبر ذلك خروجاً عن الدين . وهكذا صارت مذابح الكنائس فى العصور الوسطى لا تكسوها إلا صور جامدة للقديسيين أو لمريم العذراء ، مما جعل لها أهمية تقليدية دون أن تتمتع بمستوى فنى معين. [3] حقيقة إن العصور الوسطى خلفت لنا تراثا ضخما من الصور والزخارف والرسومات ، ولكنها لم تخلق فنانين مبرزين ، لان شخصية الفرد ـ كما سبق أن ذكرنا ـ اختفت وذابت وسط الجماعة

---

1) Stephenson : Msd. Hist. p. 585.
2) Symonds : Renaissance, vol. 3, p.p. 16—17.
3) Idem, vol, 1, p, 14,



التي اضطر الفرد إلى الارتباط بها . ويمكننا أن ندرك عظم الفارق إذا وازنا بين رسمين أحدهما حديث والآخر يرجع إلى العصور الوسطى . وإلى عصر النهضة يرجع الفضل في سد هذه الثغرة الواسعة بين العصرين ، إذ أخذ الفرد يتحرر تدريجياً في ذلك العصر من قيود العصور الوسطى وأغلالها . أما أهم مظاهر هذا التطور فتبدو في ازدياد تعلق الناس بالطبيعة وجمالها ، وفي تقديرهم لذات الإنسان ، ثم في ضعف الأثر الديني في الفن ، هذا كله زيادة على تقدم الأساليب الفنية ذاتها [1] . وتتمثل أهم التطورات الفنية التطبيقية في إدخال التصوير الجصي (Fresco) على الجدران واستكشاف التلوين بالزيت — الذي يرجع الفضل فيه إلى الفلمنكيين — واستخدام الألواح النحاسية وحفر الخشب وطبعه ، وهي الأمور التي جعلت من المستطاع إخراج كثير من الانتاج الفني الرائع . على أن أهم تطور شهده الأسلوب الفني في عصر النهضة يتمثل في محاكاة أشكال جميلة مستقاة من الطبيعة ، مع الاعراض عن الصور القديمة التي تتصف بالجمود والرسوخ . هكذا أصبحت دراسة تشريح الاعضاء وحركاتها المنظورة أشياء لابد منها للرسام ، لأن الانتاج الفني لم يعد عملية نسخ آلي لقالب معين تفرضه السلطات الكنسية ، وإنما أصبح تعبيراً حراً عن عقلية الفنان وعبقريته [2] .

وترجع بداية النهضة في فن التصوير إلى القرن الرابع عشر عندما برزت في هذا الفن مدينتان في إيطاليا هما فلورنسا وسينا Siena . وأول رسام فلورنسي عظيم هو كيمابو Cimabue الذي عاصره في مدينة سينا الرسام دوتشيو Duccio [3] وعلى الرغم مما نلاحظه على إنتاجهما من استمرار الجمود والتقيد في توزيع الألوان، إلا أننا نلمس في هذا الإنتاج تناسقاً بين أعضاء الجسم وجمالا في شكل الوجه ثم كان أن خلف هذين العلمين مجموعة من الفنانين بلغوا غاية الشهرة ، فظهر في فلورنسا جيوتو Giotto (١٢٦٦ — ١٣٣٦) الذي اشتهر في ميادين الرسم والنحت والعمارة حتى أنه وضع أساس مدرسة في فلورنسا سمت بالمستوى الفني

1) Cam· Med· Hist· vol. 8, p. 779. & Symonds : op. cit, vol. 3, p. 5.

2) Symonds : op. cit., vol. 3, p. 135.

3) Idem : p, 137,

سمواً كبيراً . وكان جيوتو أول من أحل الرسم التعبيرى محل صور الأشكال الآدمية الجامدة التى كانت سائدة حتى ذلك الوقت[1] . وإلى جانب جيوتو ظهر بعض معاصريه من أعلام الرسم والزخرفة أمثال أندريا أوركاجنا Andrea Orcagna وأمبروجيو لورنزتى Ambrogio Lorenzetti ، وفرا انجليكو Fra Angelico ولو أن الوثائق تذكر الأخير متأخراً زمنياً بعض الوقت عن سابقيه . على أننا يجب أن نشير هنا أيضاً - كما قلنا عن دانتى - إلى أن هؤلاء الأعلام ينتمون إلى الصفحة الأخيرة من العصر المنصرم أكثر من ارتباطهم بالصفحة الأولى من العصر الجديد[2] . ذلك أنهم عبروا فى صورهم وزخارفهم عن نظريات العصور الوسطى فى الديانة والحياة البشرية . وكل ما هنالك هو إنهم أدخلوا على رسومهم تحسينات واسعة فى الطريقة والأسلوب ، مع بقاء هذه الرسوم تمثل كل ما ينتمى إلى العصور الوسطى . والواقع أن هناك ثلاث صور من ذلك العصر تصور العصور الوسطى تصويراً دقيقاً ، الأولى صورة « انتصار الموت » لأوركاجنا ، وهى تعبر عن الطابع الدينى المتزمت الذى امتازت به العصور الوسطى[3] والثانية صورة « الكنيسة المناضلة الظافرة » التى قام برسمها تلاميذ جيوتو فى كنيسة القديسة مريم الجديدة فى فلورنسا ، وهى تبرز تنظيم الكنيسة بجلاله وهيبته . وأخيراً تأتى صورة « الحكومة المدنية » من انتاج امبروجيولورنزتى ، وهى تصور الحياة السياسية العاصفة فى قومون العصور الوسطى[4] .

فإذا تركنا جيوتو وتلاميذه ، فإننا نرى الجيل التالى من رسامى القرن الخامس عشر يعبر عن النهضة تعبيراً فنياً ناضجاً . وكانت فلورنسا لاتزال تحمل لواء النهضة الفنية فظهر فيها ماساشيو Massaccio الذى تعتبر رسومه الجصية على جدران كنيسة برانكاتشى Brancacci خير ما يعبر عن الخطوة الفنية التالية بعد جيوتو . وقد تأثر الفنانون الذين ظهروا بعد ذلك بهذا الإنتاج إلى حد

(1) Symonds : op. cit. vol. 3, p.p. 138—143.

(2) Pirenne : La Fin du Moyen Ages, Tome 2, p.p. 225—222

(3) symonds : op. cit., vol 3, p. 146.

(4) Pirenne : La Fiu du Moyeo Ages, Tome 1, p.p. 303—304.

بعيد ، وبخاصة روفائيل الذى أفرد له دراسة خاصة[1] . ثم خلف ماساشيو عدد كبير من الرسامين البارزين من بينهم فيلبوليبي Filippo Lippi وساندور بوتشيلى Sandro Botticelli ولوقاسجنوريلى Luca Singnorelli وغيرهم[2]. وربما كان الأخير أقدرهم جميعاً حتى أنه يعتبر بجراءته فى التصوير ودرايته بتشريح الأعضاء وازدرائه لقواعد العصور الوسطى وقيودها ، منافساً لميخائيل أنجيلو . على أن فلورنسا لم تكن الميدان الوحيد لتلك الثورة الفنية ، إذ تجلى هذا التطور بوضوح فى غيرها من المدن مثل مدينة بروجيا حيث ظهر بيترو بيروجينو ، ومدينة بادوا حيث ظهر أندريا مانتجنا ، وفى البندقية حيث ظهر جيوفانى وجنتيل بلينى وفيتور كارباشيو . والواقع أن هذه المجموعة من الفنانين هى التى مهدت الطريق أمام أعلام القرن السادس عشر ، مثل ليوناردو دافينشى ، وميخائيل أنجيلو ، ورفائيل ، وأندريا دل سارتو ، وتيتان تنطورتو . حقيقة إن هؤلاء الفنانين استمروا يسخرون مواهبهم فى أغراض دينية ، ولكنهم عالجوا هذه الموضوعات فى روح إنسانية دنيوية ، فجعلوا الرغبة فى الكمال الفنى هى الأساس ثم يأتى التعبير الدينى على هامشها . هذا فضلا عما امتاز به إنتاج هؤلاء الفنانين الذى يعبرون عن النهضة فى عصر نضجها ، من عدم تحمس نسبى للمثل الأخلاقية ومقدرة فائقة على التحكم فى توزيع الألوان والأصباغ[3] .

ومع ذلك فإن السمو الفنى الذى امتازت به النهضة يبدو فى ميدان النحت أكثر منه فى ميدان التصوير والرسم . وإذا كان الفنانون بوجه عام قد ثاروا فى عصر النهضة ضد تقاليد العصور الوسطى وقيودها ، وتحرروا من هذه القيود ليخرجوا إنتاجاً أوفر جمالا وأعظم ابتكاراً ، فإن النحاتين بوجه خاص تأثروا إلى حد كبير — فى سبيل الوصول إلى هذه الغاية — بالدراسات والنماذج الكلاسيكية[4] . والسبب فى ظهور الأثر الكلاسيكى فى النحت أقوى منه فى التصوير واضح وجلى ، لأن أعلام التصوير والرسم عند اليونان والرومان عفى

---

(1) symonds : op, cit., vol 3, pp, 166—170.

(2) Pirenne: La Fin pu Monyen Ages, Tome 2, pp, 225—23[illegible]

(3) Symonds : op. cit., vol 3, p.p. 16 —17 & 249.

(4) Lodge : op. cit, p.p. 529—5[illegible]0.

عليهم الزمن ودرس إنتاجهم ولم تبق سوى أسماؤهم ، ولذلك لم يتأثر التصوير فى عصر النهضة بالروح الكلاسيكية إلا تأثراً شفوياً لعدم وجود نماذج يحاكيها فنانو ذلك العصر . أما فن النحت، فكان الحال فيه على العكس . لأن تماثيل اليونان والرومان ظلت باقية حتى عصر النهضة ؛ وبعض هذه التماثيل بلغت درجة رائعة من الجمال والقرب من الطبيعة بما هيأ نماذج حية ناطقة أمام فنانى النهضة. وهكذا أنجب عصر النهضة مجموعة من النحاتين البارعين الذين بذوا فى إنتاجهم إنتاج اليونان . وأول من يصور لنا هذا العهد الجديد فى تاريخ النحت، هونيقولا البيزى Niccolâ de Pisano الذى شاهد أثراً يونانياً جلبه إلى بيزا فأعجب بجماله وروعته ، ودفعه ذلك إلى دراسة أوضاع الفن اليوناني وأساليبه [1]. ومنذ ذلك الوقت عكف نيقولا على التوفيق بين حب اليونان للنحت وبين تقاليد الفن المسيحى [2] . ثم جاء بعده فى القرن التالى عدد كبير من النحاتين الذى انتمى معظمهم إلى فلورنسا ، مثل لورنزو غيبرتى Lorei Chiberti الذى نحت أبواب كنيسة فلورنسا، وهى الأبواب التى قال عنها ميخائيل أنجلو أنها تستحق أن تكون أبواباً للجنة [3] . هذا فضلا عن عدد آخر من النحاتين مثل لوقا دلاروبيا ، ودناتللو ، وأندريا فروشيو وغيرهم ؛ وبعد هؤلاء تأتى مجموعة من أعلام فن النهضة فى النحت وعلى رأسهم بنفنيتو شلينى (Benvenuto Cellini) وميخائيل أنجلو (Michael Angelo). ويعتبر أولهما مثالا لمن يريد أن يدرس النزعة الفنية الخالصة غير المتأثرة باعتبارات دينية أو خلقية ، وهى النزعة التى تولدت فى المراحل المتأخرة من النهضة . أما الثانى فكان ضد الأول على خط مستقيم . لأنه فى حين أعطى شلينى فى فنه صورة للعصر الذى عاش فيه ، إذا بميخائيل أنجلو يبرز شخصيته القوية فى إنتاجه الفنى . والواقع إن عبقرية النهضة وعظمتها بلغت ذروتها فى شخص ميخائيل أنجلو [4] . وهنا يصح أن نشير إلى أن النحت يصح أن يغلب عليه الطابع اللاديني والمظهر الوثنى أكثر مما هو

---

(1) Symonds : op. cit., vol. 3, p.p. 77—80.
(2) Pirenne : La Fin du Moyen Age, p.p. 296—297
(3) Symonds : op. cit., vol. 3, p.p. 92—93.
(4) Symonds : op. cit., vol. 3, p.p. 281—282.

الحال فى التصوير، لأن جمال الوجه لابد وأن يتبعه جمال القوام وابراز محاسنه دون التقيد بالأخلاقيات .

أما فن العمارة فقد شهد هو الآخر تقدماً مستمراً فى عصر النهضة ،وهو تقدم كانت الزعامة فيه لإيطاليا أيضاً . وقد سبق أن أشرنا إلى أن فن العمارة لم ينله انهيار فى العصور الوسطى مثلما حدث بالنسبة للرسم والنحت ، كما أن الأثر الكلاسيكى لم ينعدم فى العصور الوسطى لأن الطراز الرومانسكى الذى انتشر فى أوائل تلك العصور قام على أسس وقواعد كلاسيكية[1] ، وقد خلف الطراز الرومانسكى فيما وراء الألب الطراز القوطى حيث ظلت الكتدرائيات القوطية تعبر عن الحماسة الدينية للشعوب الجرمانية فى أواخر العصور الوسطى . ولم تلبث إيطاليا أن عرفت الطراز القوطى على أيدى المعماريين الألمان فى أواخر القرن الثالث عشر . على أن الفن القوطى فى إيطاليا اختلفت خصائصه عنه فى شمال أوروبا نتيجة لظروف البيئة والمناخ . فضلا عن أن إيطاليا لم تشأ أن تتنكر تماماً للطابع الكلاسيكى فى فنها[2] .

ثم كانت النهضة فى فن العمارة نتيجة لإحياء التراث الكلاسيكى مثلما كان الحال فى فن النحت . وتبدو التطورات الاولى التى جاءت بها النهضة فى العمارة فى العودة إلى الاقواس والعقود نصف الدائرية التى امتاز بها الفن الرومانسكى ، ثم بعد ذلك فى استخدام الأسقف المسطحة ، والكرانيش التى تعلوا النوافذ والأبواب مثلما كانت علية المبانى اليونانية والرومانية[3] . وتعتبر كتدرائية فلورنسا بقبتها العظيمة التى قام فيليبو برونلسكو (Filippo Brunellesco) بإنشائها أعظم نموذج لمبانى الشطر الأول من عصر النهضة[4] . ويمكن أن نتتبع هذا التطور العظيم بعد ذلك فى كتدرائية القديس بطرس بروما التى وضع تصميمها برامانت (Bramante) . ثم بعد ذلك فى القصور التى شيدها بلادبو

(1) Lethaby : Med. Art, p. 60.

(2) Symonds : op. cit., vol. 3, p.p. 3[illegible]—41

(3) Idem : p.p. 46.—52.

(4) Lodge : op. cit., p. 531.

. (Pölladio) فى فيتشنزا وفيرونا . ويمتاز فن العمارة فى أواخر عصر النهضة بشدة العناية بالتناظر والتناسق والانسجام ، الأمر الذى أدى إلى إضعاف روح الابتكار والتجديد .

أثر حركة النهضة

وبعد ، فإن حركة النهضة — شأنها شأن الحركات العظيمة فى التاريخ — حوت كثيراً من المزايا والمثالب. وكان أهم اتجاهين سادا هذه الحركة — لاسيما فى الشطر الأخير منها — هما إحياء المؤثرات الكلاسيكية فى الأدب والفن ؛ ثم تحرير الفكر والفرد من قيود العصور السابقة وأغلالها . ومن الواضح أن كلا الاتجاهين كانت له عيوبه ومخاطره . فالاتجاه الأول من شأنه أن يجعل المفكرين عبيداً للنماذج الكلاسيكية التى يحاولون محاكاتها ؛ والاتجاه الثانى أدى فى حالات كثيرة إلى الإلحاد والمبالغة فى التحرر إلى حد الفوضى الإجتماعية والدينية . وقد أدى اتجاه النهضة نحو حرية البحث والاستقصاء إلى حركة الاصلاح الدينى ، وهى الحركة التى لم تلبث أن تحولت إلى اتجاه مضاد لروح الحرية التى نشأت فى الأصل عنها . ذلك أن البروتستانتية المتطرفة تعارضت فى حالات كثيرة مع الاتجاهات الإنسانية تعارضاً واضحاً حاداً ، حتى أن سافوناورلا — الذى يعتبر ممثلا لحركة البيوريتان فى إيطاليا — حرض أتباعه على أن يحرقوا صورهم وحليهم بل حتى كتبهم[1] . كذلك حرم البيوريتان الإنجليز حب الجمال فى الفن لأنه اتجاه مادى يؤدى إلى فساد الروح . وهكذا لم يلبث البروتستانت — الذين أقاموا حركتهم على أساس حرية الفكر والعبادة — أن أعتنقوا مبادىء تعسفية تستهدف عدم التسامح والاستبداد.

أما عن الآثار الطيبة لحركة النهضة فأهمها تنوير الفكر وانتشار التعليم ذلك

---

(١) حسن عثمان : سافونارولا ص ١٣٦ — ١٤١ .

أن ازدهار المعارف الجديدة وإصلاح الكنيسة أدى فى كل بلد إلى إنشاء مدارس وجامعات جديدة ، فضلا عن التقدم بالنظم التعليمية فى المعاهد القائمة فعلا . وبفضل انتشار التعليم تحققت أعظم نتائج النهضة وأكثرها استمراراً ، وهى إيجاد نوع من الوحدة الخلقية والثقافية بين بلدان غرب أوربا . ولا شك فى أن هذه الوحدة التى قامت على أساس حرية الفكر والضمير الفردى كانت أقوى أثراً وأكثر استمراراً من وحدة قامت فى العصور الوسطى تحت ضغط قيود فرضتها الكنيسة لتضمن سيطرتها على الناس داخل دائرة معينة .

القسم الثانى

النظم والحضارة



النظم الدينية

البابوية ونظمها

من الثابت أن الفوارق التي يعرفها العالم الحديث بين السلطتين الزمنية والدينية لم يكن لها وجود في أوربا العصور الوسطى . فالناس في تلك العصور لم يعتبروا الكنيسة والدولة هيئتين متعارضتين ، لأنهم لم يعرفوا سوى مجتمع سياسي واحد هو المجتمع المسيحي . حقيقة إن هناك قوتين أو سلطتين تتوليان حكم هذا المجتمع ولكنهما كانتا تحكمان مجموعة واحدة من الناس يربطهم جميعا رباط المسيحية الغربية[1] .

ونجد خير مصداق لهذه الفكرة فيما كانت عليه البابوية في العصور الوسطى . ذلك أن الكنيسة الغربية وجدت في جمع شملها وتركيز إدارتها تحت زعامة البابوية خير وسيلة لتحقيق رغبتها في السمو[2] . وهكذا أصبح البابا رأس الكنيسة الكاثوليكية ، ومصدر ولايتها ، والحارس الأول على قوانينها ونظمها وعقائدها ، ومعلم أتباعها المعصوم من الخطأ . هذا فضلا عن كون البابا نائب المسيح ، لأنه يستمد سلطته من تعيين المسيح له مباشرة . فالبابا خليفة القديس بطرس في كرسيه الأسقفي بروما ، وهذا الأخير زعيم الحواريين ومقدم الرسل الذي اتخذه المسيح أساسا بني عليه كنيسته[3] . وبعبارة أخرى فإن البابوية وجدت سنداً قويا في قول

---

(1) Eyre : European Civilisation; p. p. 201—202.

(2) Powicke : The Legacy of the Midale Ages ; p. 48.

(3) Howell-Smith : Thon Art Peter ; p. 531.

المسيح للقديس بطرس « أنا أقول لك أيضاً أنت بطرس ، وعلى هذه الصخرة أبنى كنيستى ، وأبواب الجحيم لن تقوى عليها ، وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات ، فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطا فى السموات ، وكل ما تحله على الأرض يكون محلولا فى السموات[1] » .

لذلك لا عجب أن أصبح البابا — وهو خليفة القديس بطرس — رأس الجهاز السياسى فى أوربا العصور الوسطى،حتى اعتبره المعاصرون ملك الملوك وأمير الأمراء .ومن هنا أخذت البابوية تنظم سيادتها على أسس إقطاعية فعالة ، مما جعل التطابق محكما بين الكنيسة والجهاز السياسى فى غرب أوربا . وقد سبق أن أشرنا إلى نمو البابوية فى أوائل العصور الوسطى[2] ، حتى جاء سقوط الإمبراطورية الغربية فى القرن الخامس ليجعل منها القوة الوحيدة فى غرب أوربا التى تستطيع حماية التراث الرومانى وسط الفوضى التى عمت أوربا حينئذ .ذلك أن البابا جريجورى الأول أو العظيم (٥٩٠ — ٦٠٤) أخذ يعمل على تقوية نفوذ البابوية السياسى ، ويجعل هذا النفوذ حقيقة ملموسة فى مختلف بلاد الغرب بل الشرق المسيحى[3] .وقد تجمعت عدة عوامل لتساعد البابوية على الإستمرار فى تنفيذ هذه السياسة ، أهمها الظروف التى سادت إيطاليا من جهة ، وانصراف الإمبراطورية البيزنطية إلى مشاكلها الشرقية من جهة أخرى ، مما جعل عبء حماية إيطاليا وحضارتها يقع على كاهل البابوية وحدها[4] . ثم جاء الإنشقاق المذهبى والسياسى بين الشرق والغرب ، وهو الانشقاق الذى بدت مظاهره واضحة فى الجدل حول مشكلة اللا إيقونية ، وفى التفاف الشعوب الغربية تدريجيا حول البابوية لتقف موقفاً سياسيا مضاداً للامبراطورية الشرقية ، ثم فى إحيـــاء الإمبراطورية الغربية على عهد شارلمان .وسرعان ما اتضح مرة أخرى فى العصر المظلم الذى أعقب تقسيم امبراطورية شارلمان أن بقاء الحضارة الغربية

---

(١) انجيل متى : الاصحاح السادس عشر ، ١٨ — ١٩ .

(٢) انظر الجزء الأول من هذا الكتاب ص ٤٢ — ٤٦ .

(3) Ullmann : The Growth of Papal Government ; p.p. 36-40

(4) Eyre : op. cit , 202.

واستمرارها بات متوقفاً على الإصلاح الكنسي ، وأن هذا الإصلاح يتوقف بدوره على قيام سلطة كنسية مركزية قوية تستطيع الصمود فى وجه السلطة الزمنية ومناضلتها من أجل الاعتراف بسمو الكنيسة وسيادتها[١] . وهكذا بلغت الكنيسة مرحلة حاسمة فى تاريخها فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر، وهو العصر الذى يعرف بعصر البابا جريجورى السابع ،أعظم بابوات العصور الوسطى (١٠٧٣ — ١٠٨٥) . ذلك أن جريجورى السابع وقف من الامبراطورية موقفاً عنيداً لإجبارها على الاعتراف بسمو البابوية ، وبأن هذه البابوية مصدر جميع السلطات السياسية والدينية[٢] .

وقد أدت هذه السياسة — كما رأينا — إلى دخول البابوية فى صراع طويل ضد السلطة الزمنية[٣] . وفى هذا الصراع استعمل جريجورى السابع سلاحين روحيين على جانب كبير من الخطورة . حقيقة إن هذه السلاحين لم يكونا جديدين على الكنيسة ، ولكن جريجورى السابع استخدمهما فى عنف وقوة وبطريقة فعالة . أما السلاح الأول فهو توقيع عقوبة الحرمان (القطع ـ الشلح) بطريقة فردية شخصية .أى ضد فرد معين مقصود بالذات Excommunication وعندئذ يصبح هـــذا الشخص منبوذاً مطروداً من المجتمع المسيحى Societas christian فلا يسمح لأحد بالاقتراب منه أو التعامل معه سوى زوجته وأولاده[٤] . وأما السلاح الثانى فهو عقوبة الحرمان الإجماعى Interdict التى توقع على مجتمع بأكمله ، سواء كان هذا المجتمع مدينة أو إقليما أو مملكة بأسرها ؛ وفى هذه الحالة تغلق الكنائس أبوابها فى ذلك المجتمع ويضرب رجالها عن تأدية أعمالهم فلا يجد الناس أحداً يقضى مصالحهم المرتبطة بالكنيسة كراسيم التعميد والزواج والشعائر الجنائزية ، فضلا عن انقطاع الروابط التى تربط ذلك المجتمع ببقية العالم المسيحى[٥] .

---

(1) Idem; p. 202.

(2) Cam. Med. Hist., vol. 6: p. p. 650—651

(٣) انظر الجزء الأول من هذا الكتاب ص ٣١٨ وما بعدها

(4) Ullmann : The Growth of Papal Governmment ; p. 299—300.

(5) Howell-Smith op. cit ; p. 632.

ولم يلبث نجاح هلد براند فى برنامجه الإصلاحى أن أدى إلى تحقيق أغراض البابوية فى الهيمنة على الكنيسة الغربية[1] ، بحيث أن المهمة الرئيسية للبابوية بعد هذا النجاح انحصرت فى تنظيم شئون البابوية والكنيسة جمعاً، حتى وصف تاريخ البابوية فيما بين منتصف القرن الحادى عشر وأوائل القرن الثالث عشر بأنه عملية لتحقيق الارتباط والنظام والسيطرة المركزية داخل الكنيسة . وبعبارة أخرى فإن جهاد الكنيسة فى سبيل تحقيق سموها جاء مصحوباً بحركة أخرى داخلية ترمى إلى تدعيم مركز البابا ونفوذه داخل الكنيسة . وكان لهذا الاتجاه الأخير عدة مظاهر أساسية أولها إصرار البابوية على مكانتها الخاصة داخل الجهاز الكنسى بوصفها المرجع الوحيد فى شرح أصول العقيدة ، وثانيها نمو التنظيم الكنسى الإقليمى ليحد من سلطان الملكية والأمراء الإقطاعيين وتدخلهم فى شئون الكنيسة[2] . والواقع أنه كان لابد من نمو هذا التنظيم بعد أن أقام شارلمان إمبراطوريته على أساس ثيوقراطى يضمن للدولة السيطرة على الكنيسة ورجالها ، مما هدد نفوذ البابوية وحقها فى الهيمنة على الكنيسة تهديداً خطيراً[3] . وهنا نجد البابوية تنجح فى جعل الإقليم — لا المملكة — الوحدة الأساسية فى التنظيم الكنسى ، كما نجحت أيضاً — بعد متاعب مضنية وجهود طويلة — فى إخضاع رؤساء الأساقفة فى الأقاليم لسلطان البابوية المطلق[4] . وبذلك تحققت سيادة البابوية على الكنيسة فى غرب أوربا بعد نهاية القرن الثانى عشر فى صورة لا تقبل شكا أو جدلا[5] .

وعلى هذا الأساس نستطيع أن نؤكد أن ما وصلت إليه البابوية على عهد أنوسنت الثالث (١١٩٨ — ١٢١٦) من مركز سام ، وتنظيمات خاصة بالبلاط

---

(1) Ullman : The Growth of Papal Government, ps., 262. 296. 297

(2) Cam Med. Hits., vol. 6, p.p. 553—554.

(3) Ullmann: The Growth of Papal Government. p.p.87—118

(4) Cam, Med. Hist. p. 557.

(5) Eyre : op. cit.. p. 204.

البابوى ، وسياسة مرسومة ثابتة تجاه السلطة الزمنية ، وسيطرة نافذة على الهيئات الدينية؛ كل ذلك جاء ثمرة خبرات وتجارب طويلة لا يمكن إدراكها إلا بدراسة تاريخ البابوية ؛ وإن كانت هذه الدراسة تعنى فى الواقع دراسة تاريخ الكنيسة الغربية طوال العصور الوسطى[1] . والواقع أن المكانة الخاصة الممتازة التى تمتعت بها البابوية داخل الكنيسة انعكست صورتها بوضوح فيما أصبح لها من نفوذ سياسى ، لأن الكنيسة الرومانية لم تكن فى العصور الوسطى هيئة دينية فحسب بل سياسية أيضاً[2] . وحسب البابا أنه اعتبر نفسه نائب المسيح Vicar of Christ، وعلى أساس هذه العقيدة أصبح هدفه الأعلى أن يجعل من العالم المسيحى مملكة يتولى هو حكمها وزعامتها . وإذا كان البابا قد أخذ يعامل ملوك أوربا وأمراءها على أنهم أبناء الكنيسة وأنه هو أبوهما[3] ، فإنه من الواضح أن معنى هذه الفكرة إدخال غرب أوربا بأسره داخل نطاق الكنيسة مما أكسب الحكومة البابوية أهمية خاصة عند نهاية القرن الثانى عشر . فالبابا لم يكتف حينئذ باعتبار نفسه زعيما لهيئة مستقلة ممتازة من رجال الكهنوت ، وإنما اعتبر نفسه رأس العالم المسيحى بأجمعه ، فأخذ يمد أنفه إلى كل ركن من أركان البناء الاجتماعى والسياسى لغرب أوربا ، زيادة على الهيئات الدينية[4] .

وكان البابا يعيش فى بلاط أشبه شىء ببلاط الملوك والأباطرة ، أى أنه كان زعيما دينياً ملكياً Sacerdos regalis ، تحيط به جميع مظاهر العظمة والفخامة من موظفين وأمناء وألقاب[5] . ولم يلبث أن أصبح البلاط البابوى مركزاً لجهاز ضخم مهمته تنفيذ أطماع البابوية وسياستها. هذا إلى أن البابا عبر عن سيادته بالإكثار من إرسال بعثات من المندوبين البابويين Legate Missi إلى

(1) Powicke : The Legacy, p. 52.
(2) Howell-Smith : op. cit., p. 741.
(3) Ullmann : The Growth of Papal Government, p.p. 425 — 434.
(4) Cam. Med. Hist., vol. 6. p.p. 4—5, 34.
(5) Ullmann : The Growth of Papal Government., p. 325

مختلف أنحاء الغرب الأوربى [١] . وكان هؤلاء المندوبون على جانب كبير من الأهمية فى العصور الوسطى إذ يعقدون مجامع كنسية إقليمية فى الجهات التى يقصدونها [٢] ، ويفصلون فى القضايا الخطيرة التى تستأنف أمامهم بحيث لا يستطيع أحد – سوى البابا نفسه – أن ينقض قراراتهم [٣] .

أما المحكمة البابوية فقد غدت على عهد البابا انوسنت الثالث بمثابة هيئة قضائية عليا تنظر فى جميع القضايا المعروضة عليها من مختلف أنحاء الغرب الأوربى (٤) . وقد أخذ عدد القضايا المستأنفة أمام المحكمة البابوية فى ازدياد ، حتى أصبح من الأمور العادية منذ نهاية القرن الثانى عشر أن تستأنف أحكام المحاكم الكنسية الإقليمية أمام المحكمة البابوية [٥] . وفى أغلب هذه الأحوال ، كان البابا . يساعده بعض الكرادلة . ينظر بنفسه فى القضية ، وإن كان فى حالات خاصة يحول القضايا إلى بعض كبار رجال الدين فى البلد الذى أتت منه القضية . وسرعان ما أدى هذا النشاط القضائى إلى اتساع أفق القانون الكنسى وظهور فئة من القانونيين فى البلاط البابوى ليستشيرهم البابا ويبنى أحكامه على آرائهم [٦]

ولما كان تنفيذ سياسة البابوية الواسعة المدى يتطلب وجود جهاز إدارى مركزى دقيق ، فإن الديوان البابوى سرعان ما أصبح أعظم جهاز إدارى عرفته العصور الوسطى [٧] . ذلك أن الحكومة البابوية أخذت تتطور تطوراً بطيئاً تدريجياً ، حتى ظهر نوع من التخصص فى البلاط البابوى ، بمعنى قيام هيئات وجماعات من الموظفين اختص كل منهم بعمل إدارى معين [٨] .

---

(1) Idem : p. 790.
(2) Cam. Med. Hist., vol. 6. p. 40.
(3) Howell-Smith : op. cit., p. 749.
(4) Eyre : op. cit., p. 205
(5) Cam Med. Hist., vol. 6, p. 34.
(6) Ullmann: The Growth of Papal Government, p. 359—381.
(7) Powicke : The Legacy of the Middle ages ; p. 54,
(8) Cam. Med. Hist; vol. 6., p. 32

وكانت الأوامر والقرارات واللوائح البابوية تصدر عادة فى صورة مراسيم تكتب دائماً باللاتينية، وعلى رقائق كبيرة المساحة، على أن يبدأ المرسوم البابوى بعبارة « الأسقف (فلان) خادم خدام الله ... »[1] . وقد انقسمت هذه المراسيم على عهد البابا أنوسنت الثالث إلى قسمين : المراسيم الكبرى Great Bulls والمراسيم الصغرى Little Bulls . أما الأولى فكانت وثائق رسمية ذات طابع معين ثابت ومميزات خاصة لا تتغير ، وتحوى توقيع البابا ورمزه أو شعاره ، زيادة على توقيعات عدد معين من الكرادلة . وتطلبت أهمية هذه المراسيم أن يوكل بإعدادها إلى موظفين مختصين فى الديوان البابوى استازوا بالمهارة والدقة والكفاية[2] . ذلك أن صياغة المرسوم البابوى وإنشاءه كانت تتم وفق قواعد دقيقة تحدد أسلوبه وألفاظه وخطه والكيفية التى يختم بها[3] ، بحيث أصبح من السهل على كتبة الديوان البابوى أن يستكشفوا تزوير أية وثيقة بابوية لا تتوافر فيها القواعد السابقة . هذا فضلا عن أن الرسائل التى صدرت عن الديوان البابوى كانت تنسخ من صورتين لتحفظ إحداهما فى أرشيف الكنيسة الرومانية[4] وهكذا يمكن بدراسة الوثائق والمراسيم البابوية التى ترجع إلى نهاية القرن الثانى عشر الوقوف على حقيقة هامة : هى أن البلاط البابوى تمسك حينئذ بقواعد الدبلوماسية والمظاهر القانونية ، وهو اتجاه لم يكن له مثيل فى أى مكان آخر بأوربا فى ذلك العصر .

وقد وجدت بالبلاط البابوى إدارة مالية قائمة بذاتها للنظر فى شئون الإيرادات والمصروفات[5] . أما عن الإيرادات فكانت هناك عدة موارد تغذى الإدارة البابوية بالأموال اللازمة ، أولاها الممتلكات الواسعة فى إيطاليا التى حرص حكام الفرنجة منذ شارل مارتل حتى شارلمان على تثبيت حقوق البابوية فيها

---

(1) Howell-Smith ; op. cit., cit. 751.
(2) Ullmann : op. cit., p.p. 327—328.
(3) Cam. Med. Hist., vol. 6, p.p. 32—33.
(4) Howell—Smith : op. cit., p. 758.
(5) Eyre : op. cit., p. 205.

ومساعدتها فى الدفاع عنها وبخاصة ضد النبارديين[1] . ومن الواضح أن هذه الممتلكات هيأت للبابوية دخلا ثابتا جعلها من الناحية العملية فى غنى عن أى حاكم علمانى . وفى نفس الوقت أحرزت البابوية حقوقاً إقطاعية واسعة عادت عليها عند نهاية القرن الثانى عشر بدخل كبير منتظم . ذلك أنه وجد فى ذلك العصر عدد كبير من الأفراد والهيئات التى دانت للبابوية بضرائب معينة[2] ، مثل بعض المؤسسات الكنسية والديرية التى أحاطت بها ظروف صعبة جعلتها تدخل تحت حماية البابوية مباشرة مقابل دفع إتاوة منتظمه ، بالضبط كما كان الحال بشأن الضرائب الإقطاعية التى كان يدفعها الأقنان للسيد الإقطاعى مقابل حمايتهم والذود عنهم[3] . على أن هذه التبعية الإقطاعية للبابوية لم تقتصر على المؤسسات والهيئات الدينية ، وإنما امتدت فى العصور الوسطى إلى بعض الحكام العلمانيين ، فظهر من الأمراء والملوك من أحس بضعفه وحاجته إلى حماية البابويه فسلم أراضيه وممتلكاته للبابوية على أن يعود فيتسلمها من البابا كإقطاع ، وفى هذه الحالة يصبح الأمير فصلا إقطاعياً للبابا يتمتع بحمايته مقابل بعض الإلتزامات الإقطاعية التى يؤديها الفصل لسيده[4] . هذا عدا الضرائب التى كانت تجمعها البابوية من بعض الأديرة نظير تحريرها من ولاية الاسقفيه التى يقع الدير ضمن دائرتها ، أو تجمعها من بعض الأسقفيات مقابل تحريرها من ولاية رئيس الأساقفة الذى تتبع الأسقفية داخل منطقة نفوذه . وهكذا صار للبابويه إيراد ضخم من هذه الموارد المختلفة ، الأمر الذى تطلب سنة ١١٩٢ تعيين مسجل خاص للخزانة البابوية ، لحصر مختلف الهيئات التى تدانيها البابوية بضرائب منتظمه فى كافة بلدان غرب أوربا مثل أبوليا وصقليه والبرتغال وبولندا وانجلترا وغيرها ؛ وبيان المبلغ المستحق على كل منها[5] .

---

(1) Ullmann ; The Growth of Papal Goverament, p. 52—57.

(2) Cam. Med. Hist., vol. 6, p. 564.

(3) Painter : A Hist., of the Middle ages p 268.

(4) Ullmann : The Growth of Papal Government, p p. 332—334.

(5) Idem, p. 330.

وبالإضافة إلى هذه الضرائب التى يمكن إدخالها جميعاً تحت اسم « الدخل الخاص » ، كان للبابوية مورد عام ضخم على عهد البابا انوسنت الثالث ، هى الضرائب التى اشترك فى دفعها العالم المسيحى الغربى بوجه عام(١) . وكانت هذه الضرائب مرتبطة فى تطورها بالحروب الصليبية بعد أن فرضها بعض الملوك مثل لويس السابع ملك فرنسا وريتشارد الأول ملك انجلترا على رعاياهم العلمانيين والكنسيين من أجل الغرض الصليبي(٢). وقد أدى تطور هذه الفكرة إلى خطوة جديدة عندما أصدر البابا أنوسنت الثالث أمرا سنة ١١٩٩ إلى جميع الأساقفة بأن يرسلوا إلى البابوية نسبة معينة تبلغ جزءاً من أربعين (١/٤٠) من دخل الأسقفية السنوى المتحصل من جميع ممتلكاتها وإقطاعاتها . هذا غير الضرائب الأخرى التى أخذت البابوية فى جمعها عن طريق مباشر عند تعيين الأساقفة وغيرهم من كبار رجال الكنيسة فى مناصبهم ،أو عن طريق غير مباشر مثل بيع صكوك الغفران (٣) . وهكذا أخذت تتكاثر الالتزامات التى فرضتها البابوية على العالم المسيحى الغربى بوجه عام والهيئات الكنسية والدينية بوجه خاص ، فى الوقت الذى بلغ النضال أشدة بين البابوية والسلطة الزمنية لتحرير هذه الهيئات من التزاماتها الماليه — وغير المالية — تجاه الحكام العلمانيين . وربما كان السبب فى ذلك أن ملوك أوربا كانوا فى حاجة إلى المال لتدعيم ملكياتهم الناشئة ، فى الوقت الذى كانت بابوية القرن الثالث عشر تمتلك من الموارد ما يعادل دخل كل هؤلاء الملوك مجتمعين(٤) .

المجامع الكنسية

تمثل المجامع الكنسية ركناً هاماً من أركان التنظيم الكنسى فى العصور الوسطى . والواقع أن انتشار المسيحية ، وما صحبه من اتساع نفوذ الكنيسة استلزم عقد كثير من المجامع الدينية منذ القرن الرابع لحل المسائل المعقدة التى

---

(1) Cam. Med. Hist., vol. 6. p p. 554—555.
(2) Painter ; P Hist. of the Middle Ages. p. 298.
(3) Howell-Smith ; op. cit., p. 745.
(4) Thompson : op. cit ; vol. 2, p 648

صحبت انتشار المسيحية من جهة ولتنظيم شئون الكنيسة وتدعيم سلطانها من جهة أخرى(١) . وهنا نشير إلى أن الكنيسة لم تكن أول من ابتكر فكرة عقد المجامع أو صاحبة الفضل فى ظهورها ، لأنها استمدت هذه الفكرة من سوابق إسرائيلية ووثنية معروفة(٢) .

وإذا كانت معظم المراجع التاريخية قد ركزت اهتمامها فى المجامع المسكونية الاربعه الأولى ، وهى مجمع نيقية سنة ٣٢٥ ومجمع القسطنطينية سنة ٣٨١ ومجمع إفسوس سنة ٤٣١ ومجمع خلقدونيا سنة ٤٥١ ، هذا زيادة على مجمع كونستانس (١٤١٤ — ١٤١٨) ومجمع بازل سنة ١٤٣١ : فإنه من الثابت أن أوربا العصور الوسطى شهدت ـ عدا المجامع السابقة ـ عدداً من المجامع الدينية ذات الأثر العظيم فى التاريخ الأوربى بوجه عام والتاريخ الكنسى بوجه خاص(٣) . ومن هذه المجامع ما اتخذ طابعاً عاماً عالميا فحضرها الأساقفة من جميع أنحاء العالم المسيحى ليتدارسوا سويا المشاكل التى واجهتهم فى مناطق نفوذهم ، أو ليبحثوا أوجه الخلاف فيما بينهم ويزيلوا ماقد يكون هناك من سوء تفاهم عن طريق الحجة والإقناع(٤) . وخير مثل لهذا النوع من المجامع مجمع القسطنطينية الثانى سنة ٥٥٣ الذى اجتمع بسبب الخلاف حول تفسير بعض المسائل اللاهوتية ومجمع القسطنطينية الثالث سنة ٦٨٠ الذى أدان مذهب الطبيعة الواحدة ، ومجمع نيقية الثانى ٧٨٧ الذى أدان اللا أيقونية ، ثم مجمع القسطنطينية الرابع سنة ٨٦٩ الذى قرر إدانة البطريرق فوتيوس وعزله(٥) . والملاحظ فى هذه المجامع السابقة أنها كانت تجمع بين أعضاء الكنيسة فى الشرق والغرب ، حتى كان الانشقاق بين الكنيستين الشرقية والغربية ، وهو الانشقاق الذى بدأت حوادثه فى القرن التاسع على عهد البطريرق فوتيوس ، والذى انتهت ذيوله فى القرن الحادى عشر (سنة ١٠٥٤) بالانفصال التام بين الكنيستين(٦) . ومنذ ذلك الوقت أصبحت

---

(1) **Painter : A Hist. of the Middle Ages : p.p. 16—17.**
(2) **Howell-Smith : op. cit ; p. 552.**
(3) **Eyre : op. cit ; p. 208.**
(4) **Cam. Med. Hist vol. 1., p. 165.**
(5) **Howell-Smith ; op. cit., p. 553.**

(٦) يطلق على هذا الانشقاق الدينى عادة اسم الانشقاق الشرقى أو اليونانى ، تمييزا له عن الانشقاق الغربى الكبير الذى نجم عن قيام أكثر من بابا فى الغرب (انظر الجزء الأول من هذا الكتاب ص ٤٧٦)

المجامع الدينية التى تعقد فى الغرب لا تختص إلا بشئون الكنيسة الغربية ، وإن كان لقب مسكونى أو عالمى قد أطلق أيضاً على مجامع اللاتران البابوية Lateran Councils وهى التى عقدت بالكتدرائية والبابوية فى روما سنوات ١١٢٣ ، ١١٣٩ ، ١١٧٩،١٢١٥ ، ١٥١٢ وهكذا أحصيت المجامع المسكونية فى تاريخ المسيحية بعشرين مجمعاً هى(١) :

٣٢٥ مجمع نيقية الأول
٣٨١ مجمع القسطنطينية الأول
٤٣١ مجمع أفسوس
٤٥١ مجمع خلقدونيا
١١٢٣ مجمع اللاتران الأول
١١٣٩ مجمع اللاتران الثانى
١١٧٩ مجمع اللاتران الثالث
١٢١٥ مجمع اللاتران الرابع
١٢٤٥ مجمع ليون الأول
١٢٧٤ مجمع ليون الثانى
١٣١١ مجمع فينا

٥٥٣ مجمع القسطنطينية الثانى
٦٨٠ مجمع القسطنطينية الثالث
٧٨٧ مجمع نقية الثانى
٨٦٩ مجمع القسـ لينيه الرابع
١٤١٤ — ٤١٨ مجمع كونستانس
١٤٣١ مجمع با (متمم لسابقه)
١٤٣٨-١٤٤٢ م فرارا ـ فلورنسا
١٥١٢ - ١٥١٧ م اللاتران الخامس
١٥٤٥ — ١٥٦٣ مع ترنت
١٨٧٠ مجمع الفـ تيكان

وبالإضافة إلى هذه المجامع العالمية أو المسكونية ، وجد نوع آخر من المجامع الدينية المحلية ذات الأثر المحدود . ذلك أن الأساقفة فى بلد من بلدان غرب أوربا اعتادوا أحياناً أن ينظموا اجتماعاً دينياً يجمع شملهم للنظر فيما يعنيهم من مسائل أو يعترضهم من مشاكل ، مثلما حدث سنة ٥٩٧ من اجتماع اثنين وستين أسقفا وخمسة من رؤساء الأساقفة من أسبانيا وجنوب فرنسا فى طليطلة(٢) . وبتقدم

---

(1) Howell-Smith : op. cit. p.p. 551—553.

ولم تعترف الكنيسة الشرقية سوى بالمجامع السبعة الأولى فقط على أنها مسكونية .

(2) Cam. Med. Hist., vol. 1, p. 164.

التنظيم الكنسى تطور هذا النوع من المجامع إلى ما يعرف باسم المجامع الإقليمية المنتظمة ، فيقوم رئيس الأساقفة فى كل إقليم بدعوة الأساقفة التابعين له وغيرهم من كبار رجال الدين للمشاركة فى اجتماع دينى خاص إقليمى الطابع(١) . ومن الواضح أن هـــذا النوع من المجامع الإقليمية كان له أثره فى تركيز السلطة الكنسية وتوحيد نظم الكنيسة ومقاومة النزعة الإنفصاليـة فى بعض البلدان الاوربية(٢) .

وأخيراً يأتى نوع أصغر من المجامع الدينية ، هى المجامع الأسقفية التى تتمثل فى دعوة الأسقف الواحد لقساوسة الكنائس التابعين له فى أسقفيته لبحث ما يهمهم من مسائل . وهكذا بلغت المجامع الدينية درجة من الكثرة والتنوع فى أوربا العصور الوسطى ، جعلت لها أثراً خطيراً فى الحياة الدينية . وهنا ينبغى أن نستبعد من تفكيرنا الآراء الدستورية الحديثة الخاصة بالغرض من عقد المجامع والمجالس ، فلا يمتد بنا التفكير إلى أن المجامع الدينية التى عرفتها أوربا العصور الوسطى تستهدف بأى حال تحديد سلطان البابوية أو تقييد نفوذ كبار رجال الكنيسة(٣) فالحكومة الكنسية فى غرب أوربا أصبحت عند نهاية القرن الثانى عشر أشبه شىء بالملكية المطلقة ، ومن ثم لم يكن هناك أى مطمع للمجامع الكنسية — سواء كانت مسكونية أو إقليمية أو أسقفية — فى تحديد سلطات البابا أو غيره من كبار رجال الدين . أما الأهداف الأساسية للمجامع المسكونية فكانت مقاومة ضرب من ضروب الهرطقة التى أخذت تهدد الكنيسة بين حين وآخر ، أو الرغبة فى القيام بحركة شاملة لنصرة المسيحية مثل الحروب الصليبية ، أو الشعور بضرورة القيام بحركة جامعة لإصلاح الكنيسة وتدعيمها . ومن الواضح أن هذه الأهداف كانت تنتهى — بطريق مباشر أو غير مباشر — إلى تقوية نفوذ البابوية وتدعيم سلطاتها(٤) . وهكذا غدت البابوية على عهد أنوسنت الثالث تسيطر على الكنيسة سيطرة تامة فضلا عن تحكمها فى المجامع الدينية الكبرى

(1) Thompson : vol 2. 655.
(2) Cam. Med. Hist. vol. 6, p. 545.
(3) Eyre op. cit., p.p. 209—210.
(4) Stephenson. Med. His., p. 434.

تحكما بعيد الأثر . حقيقة إنه ظهرت فيما بعد محاولة لجعل المجامع الدينية تسمو فى إرادتها ونفوذها على البابوية ، ولكن هذه المحاولة لم تظهر إلا فى القرن الخامس عشر ، أى قرب ختام العصور الوسطى[1] .

ومن الطبيعى أن هذه الأحكام التى أصدرناها على المجامع العامة الكبرى يمكن تطبيقها بهذه الروح ذاتها على المجامع الإقليمية والأسقفية . فالمجمع الإقليمى الذى يجمع بين أساقفة الإقليم الواحد ، والمجمع الأسقفى الذى يجمع بين قساوسة الأسقفية الواحدة لم يستهدفا مطلقاً الحد من نفوذ رئيس الأساقفة فى إقليمه أو نفوذ الأسقف فى أسقفيته . ولكن إذا كان الغرض الأساسى من هذه المجامع هو التعاون وبحث المسائل التى تهم رجال الدين فى الإقليم أو الأسقفية ، فإنه توجد بعض حالات فردية قام فيها رجال الدين المجتمعون فى بعض هذه المجامع باستنكار سلوك أسقف أو رئيس أساقفة ، وطالبوا بعزله على أساس تصرفاته غير المقبولة .

أما عن القواعد المتبعة فى دعوة هذه المجامع للانعقاد ثم فى كيفية تنظيمها ورآستها ، فتتفق كلها مع مبادىء تركيز السلطة فى الكنيسة . وقد ظل الكاثوليك أمداً طويلا يعتقدون فى أن البابوية هى التى دعت جميع المجامع المسكونية ، أو على الأقل لم تعقد هذه المجامع إلا بموافقة البابا وتأييده . ولكنهم عادوا فاعترفوا فى القرن الماضى فقط بأن الإمبراطور هو الذى دعا المجامع المسكونية الثمانية الأولى وأن موافقة البابا سلفاً لم تشترط فى عقد هذه المجامع ، وإن كانت موافقته على قرارات كل مجمع شرطاً ضرورياً لإلزام الكنيسة الغربية باتباعها[2] ولم يلبث القانون الكنسى الذى تم نضجه وجمعه فى أواخر القرن الثانى عشر وأوائل الثالث عشر ، أن نص على أنه ليس لأحد حق دعوة المجمع الدينى إلا الرئيس الدينى الأعلى للمنطقة التى يمثلها المجمع ، فإذا كان المجمع عاماً فالبابا وحده هو الذى يمتلك حق دعوته ورآسته[3] ، إما شخصياً وإما عن طريق إنابة من يمثله فى الرآسة[4] . أما إذا كان المجمع إقليمياً فإن الأسقف هو الذى

---

(1) Eyre : op. cit., p. 210.
(2) Howell-Smith : op. cit., p.p. 551 — 552.
(3) Thompson : op. cit., vol. 2, p. 645.
(4) Howell-Smith : op. cit., p. 554.

ويبدو لنا مما سبق أن المسيحية لم تحرم الزواج على رجال الدين ، ولكنها فضلت لهم حياة العزوبة ، الأمر الذى لم يأخذ به كثير من رجال الكنيسة ، فـ اروا يتزوجون ويكونون عائلات وروابط أسرية مثل العلمانيين(١) . وقد ركت الكنيسة منذ وقت مبكر ماترتب على زواج رجال الدين من خطر لأنه يدفعهم إلى الانصراف نحو مباهج الحياة ومشاغل الأسرة ، ولذلك حرصت على أن ينص على مبدأ عزوبة رجال الدين فى تشريعاتها ، وطلبت من جميع القساوسة أن يطردوا من منازلهم من يحللن لهم من النساء . مع السماح لأولئك الذين كانوا قد تزوجوا قبل ترسيمهم قساوسة بالاحتفاظ بزوجاتهم ، بشرط أن يعاملوهن فى هذه الحالة كأخوات ولا يعاشرونهن كزوجات !! ثم كان أن حاول مجمع الفيرا Elvira الدينى الذى عقد فى أسبانيا سنة ٣٠٦ طرد جميع القساوسة المتزوجين من الكنيسة ، والقضاء على عادة الاحتفاظ [بأخت زوجة] بعد أن أصبح من الأمور الشائعة أن ينجب القساوسة أولاداً من هؤلاء الأخوات الزوجات ! ولكن من الواضح أنه كان من الصعب أو المستحيل تنفيذ هذه الرغبات تنفيذاً عملياً ، حتى بعد أن أقرها مجمع نيقية سنة ٣٢٥ — وهو أول المجامع المسكونية فى تاريخ الكنيسة (٢) . وهكذا سارت الأمور حتى اشتدت الرغبة فى إصلاح الكنيسة على عصر هلدبراند [جريجورى السابع] ، وعندئذ وضع المصلحون مسألة عزوبة رجال الكنيسة على رأس قائمة الإصلاح . والواقع أن البابوية لقيت فى ذلك العصر معارضة شديدة عند تطبيقها هذا المبدأ ، ليس فقط من رجال الدين الذين اعتادوا النظم القديمة وألفوا حياة الزوجية ، بل أيضاً من بعض بعيدى النظر الذين خشوا عاقبة انتشار الزنا والزواج العرفى بين رجال الدين . على أن البابوية لم تأبه لهذه المعارضة ومضت فى طريقها جادة ، فعقدت مجامع فى روما سنة ١٠٥٠ ، وسنة ١٠٥٩ ، وسنة ١٠٦٣ طلبت جميعها من العلمانيين قطع صلتهم بالقساوسة الذين يحتفظون بزوجات أو عظيات . وأخيراً عقد البابا جريجورى السابع مجمعا فى روما سنة ١٠٧٤ ، أى بعد اعتلائه كرسى

---

(1) Taylor : The Med. Mind. vol. 1, p. 354.
(2) Howell-Smith : op. cit., 367.

البابوية بعام واحد ، أصدر مرسوما بتحريم زواج رجال الدين تحريما تاماً . وفى تلك المرة عزم جريجورى السابع على تنفيذ هذا القرار بكل ما أوتيه من عزم وإصرار وعناد ، حتى أنه أمر المتزوجين من رجال الدين بطرد زوجاتهم فوراً[1] . وقد قوبلت هذه القرارات بالمعارضة وعدم الرضا فى مختلف البلاد الأوربية ، حتى أنه عقد مجمع فى ونشستر بانجلترا سنة ١٠٧٦ قرر الموافقة على مبدأ منع رجال الدين من الزواج بشرط عدم إجبار المتزوجين منهم فعلا على هجر زوجاتهم . ومع ذلك فإن البابوية لم تهتم بهذه المعارضة ، ومضت فى طريقها حتى اتخذت خطوة أخيرة فى مجمع روما سنة ١١٣٩ الذى قرر أنه لا يجوز لأحد من رجال الكنيسة أن يعاشر امرأة ، وأن زواج أى واحد منهم يعتبر غير شرعى ، وبناء على ذلك تصبح ذرية رجال الكنيسة أبناء سفاح(٢) . ولما كان مشروع إصلاح الكنيسة يمثل وحدة مترابطة الاجزاء ، فإن نجاح البابوية فى تحقيق مبدأ عزوبة رجال الدين كان مرتبطا إلى حد كبير بركن آخر من أركان تلك الحركة الإصلاحية وهو تحقيق سمو البابوية وسيادتها وسيطرتها على العالم المسيحى الغربى . وهكذا أستطاعت البابوية بفضل نجاحها فى تحقيق سيادتها أن تنفذ مبدأ عزوبة رجال الكنيسة تنفيذاً دقيقا شاملا حتى غدت أية مخالفة لهذا المبدأ تعتبر منذ منتصف القرن الثانى عشر خرقا لأحد مبادىء القانون الكنسى الأساسية (٣) .

ولسنا فى حاجة إلى المبالغة فى أهمية هذا المبدأ وأثره فى الحياتين الدينية والاجتماعية . ذلك أنه كيف الوضع الاجتماعى لرجال الدين فى أوربا منذ القرن الثانى عشر ، وزاد من قوة الرابطة بين رجال الدين بعد أن أوشكت حياة الأسرة والروابط العائلية أن تقضى على الرابطة الأساسية التى تربط رجال الدين بعضهم ببعض . هذا بالإضافة إلى أن بقاء رجال الكنيسة عزابا جعل لهم مكانة خاصة سامية فى نفوس الأهالى وغير من نظرة الناس إليهم (٤) .

---

(1) Idem, p. 368.
(2) Eyre : op. cit., p.p. 216—217.
(3) Idem, p. 217.
(4) Ibid.

أما عن بناء الكنيسة العام فقد رأينا كيف كانت البابوية على رأس الكنيسة الغربية تحتل المكانة الأولى وتتمتع بالسيطرة التامة على جميع رجال الكنيسة . ويأتى بعد البابا فى الدرجة مجموعة الكرادلة ، الذين حدد « الدستور الرومانى Roman Constition » الصادر سنه ١٠٥٩ على عهد البابا نيقولا الثانى مهامهم الأساسية(١) . ويبدو أن هؤلاء الكرادلة كانوا مجموعة مختارة من كبار الأساقفة (episcopi cardinales) بدأت مهمتهم الأولى كمستشارين للبابوية ، ولكن نفوذهم أخذ يزداد تدريجياً نتيجة لكثرة اختصاصاتهم ومهامهم(٢) . وهكذا إذا كان البابا قد أصبح ملكا فى بلاطه بروما ، فإن الكرادلة كانوا بمثابة الأمراء الذين أحاطوا بزعيمهم وجاءوا بعده مباشرة فى الدرجة من حيث المكانة والنفوذ (٣) .

وقد انقسم العالم المسيحى الغربى إلى أسقفيات واسعة ، يرأس كل منها أسقف يشرف على شئون الكنيسة ورجال الدين فى أسقفيته ، ثم انقسمت كل أسقفية من هذه الأسقفيات إلى أبرشيات صغيرة بكل منها كنيسة يشرف عليها قس(٤) . على أنه من الملاحظ أن مركز الأساقفة والقساوسة تطور فى العصور الوسطى وفقاً لعوامل محددة ، كما يتضح ذلك بالكلام عن كل فريق على حدة .

أما عن الأبرشيات فقد اختارت الأساطير أن ترتبط نشأة كل منها باسم رجل من رجال الدين — أو غير رجال الدين — ، وإن كان الواقع هو أن الأبرشيات أخذت تظهر وتنتشر تدريجياً فى غرب أوروبا وفقاً لحاجيات الأهالى وانتشار المسيحية . وكان تأسيس الكنائس المحلية يتم إما بواسطة الأساقفة أو بواسطة الحكام العلمانيين الذين يهبونها للكنيسة . ولكن المهم هنا هو أن مؤسسى هذه الكنائس الجديدة — سواء كانوا من رجال الدين أو العلمانيين — اعتادوا أن ينظروا إلى مؤسساتهم على أنها ملك خاص بهم وبالتالى أصروا على الإشراف

(1) Howell-Smith : op. cit., 746.
(2) Ullmann : The Growth of Papal Government, p. 320
(3) Cam, Med. Hist. vol. 6, p.p. 4—5 p. 43.
(4) Thompson : op. cit., vol. 2, p.p. 652—653.

عليها[1] . وهكذا كان مركز قسيس الابرشية قلقاً فى أول الأمر ، إذ توقفت حالته الاجتماعية على شخصيته من جهة وعلى نصيبه الثابت من غلة الحقول التى تتبع أبرشيته من جهة أخرى[2] . أما دخل الكنيسة نفسها فكان يستأثر به مالك الأبرشية أى مؤسسها ، ولم يكن ذلك إلا تدريجياً عندما سمح لقسيس الأبرشية بجزء من هذا الدخل . واستمر الوضع على ذلك حتى تقدمت النظم الإقطاعية فأصبح للكنيسة أملاكها الخاصة بها فى كل أبرشية ، والتى آلت إليها عن طريق الهبة من السيد الإقطاعى صاحب الأرض . على أنه كان للكنيسة مورد هام آخر أخذ يزداد منذ القرن الثامن ، ونعنى به ضريبة العشور التى تلزم جميع الأراضى بدفع عشر إنتاجها لحفظ الكنيسه وصيانتها . وأمتازت هذه الضريبة بأنها كنسية بحتة ، ينتفع بها القساوسة ورجال الأكليروس وحدهم .

ومن هذا يبدو أن قسيس الابرشية ظل يحيا مثل الفلاحين المحيطين به ، على نصيبه من غلة أراضى القرية . وليس هناك مايدل على أنه امتاز عن هؤلاء الفلاحين فى مستواه الاقتصادى . إذ كان من الناحية العلمانية يخضع للأمير الإقطاعى الذى تقع الأبرشية فى أراضيه ، فى حين خضع فى الجانب الدينى للأسقف الذى يتبعه[3] . ومع ذلك فإن قسيس الأبرشية احتل مكانة على جانب كبير من الأهمية فى النظام الكنسى فى العصور الوسطى . ذلك أن مهمة الربط بين الكنيسة من جهة والفلاحين وعامة الناس من جهة أخرى ، ألقيت على عاتقه بوصفه عضواً عاملا فى مجتمع القرية فضلا عن كونه ممثل الكنيسة . هذا إلى أن تطبيق مبدأ عزوبة رجال الدين ، جعل لقسيس الأبرشية مكانة خاصة قائمة بذاتها فى القرية . لذلك لانعجب إذا أدركت التشريعات الكنسية أهمية هذا العضو ، فنصت المجامع المسكونية مراراً على ضرورة مراعاة الدقة فى إختيار قسيس الأبرشية والتأكد من سلامة أخلاقه ، فلا يجوز لأسقف أن يرسم قساً غير متعلم ، وأن يتأكد من استقامته وألا يقل عمره عن خمس وعشرين سنة[4] . ومع ذلك فقد ظل قساوسة

---

(1) Eyre : op. cit., p. 218.
(2) Cam. Med. Hist., vol. 6, 531.
(3) Thompson : op. cit., vol. 2, p. 654.
(4) Eyre : op. cit., p. 219.

الأبرشيات فى أنحاء كثيرة من أوربا العصور الوسطى لا يرتفعون كثيراً فى مستواهم الفكرى عن عامة أهالى الأبرشية . فمعظمهم لم يكن على قسط كاف من التعليم مما أوقعهم فى أخطاء كثيرة أثناء الصلاة والوعظ ، دون أن يتنبه مستمعوهم لهذه الأخطاء بسبب جهل الناس باللاتينية . كذلك وجد من هؤلاء القساوسة من عرف بسوء السيرة والإدمان على شرب الخمر ، وإن اشتهرت قلة منهم بالصلاح والجد[1] .

أما الأسقف فكان الرئيس المباشر للقسيس فى الهيئة الكنسية . وكان للأسقف عادة كتدرائية فى المركز الرئيسى لأسقفيته يتخذها حاضرة له وقاعدة لنفوذه ، وسميت بهذا الأسم لأن بها كرسى [cathedra] الأسقف[2] . ويثبت الواقع أن الأساقفة تمتعوا بسلطان واسع فى الإشراف على شئون أسقفياتهم وإدارتها وتوجيه القساوسة التابعين لهم مستلهمين واجباتهم من قول بولس « احترزوا إذاً لأنفسكم ولجميع الرعية التى أقامكم الروح القدس فيها أساقفة لترعوا كنيسة الله التى أقتناها بدمه »(٣) .

ويبدو من آراء كتاب المسيحية الأوائل — مثل القديس أرناوس St. Irenaus والقديس سيبريان St. Cyprian — أن المفروض فى جميع الأساقفة أن يكونوا متساويين تماماً ، لأن الغرض من وجودهم واحد ، ونوع السلطة المزودين بها واحدة ، مهما تختلف مساحات أسقفياتهم . ولكن الواقع العملى أثبت غير ذلك ، إذ تفاوت شأن الأساقفة ونفوذهم تبعاً لتباين أهمية مراكزهم الأسقفية(٤) . وكان ذلك فى القرن السابع عندما اتضحت ضرورة إيجاد حلقة فى التنظيم الكنسى بين البابوية من جهة وأساقفة البلد الواحد من جهة أخرى ، مما أدى إلى قيام أسقفية كبرى فى كل إقليم واسع برأسها رئيس أساقفة Archpishop له حق الزعامة على أسقفيات ذلك الإقليم . فإذا تعدد رؤساء الأساقفة فى الدولة الواحدة ، فإن العرف جرى على أن تكون الزعامة لأقدمهم . وهكذا وجد

---

(1) Thompson : op. cit., vol 2, p. 654.
(2) Howell—Smith : op. cit., p. 746.
(٣) العهد الجديد — سفر أعمال الرسل — الاصحاح العشرون (٢٨) .
(4) Cam. Med. Hist., vol. 1. p. 167.

فى انجلترا العصور الوسطى رئيس أساقفة فى كل من يورك وكانتربورى ، يشرف كل منهما على عدد كبير من الأسقفيات التابعة له ، ولكن الوعامة الدينية فى انجلترا كانها كانت للأخير . ومثل ذلك يقال عن رئيس أساقفة مينز فى ألمانيا ورئيس أساقفة ريمس فى فرنسا . وهنا نلاحظ أن الأخيرة لم تكن أقدم أسقفيات فرنسا ، ولكنها وصلت إلى مكانة الوعامة بفضل تشجيع ملوك الفرنجة [١] .

وتمتع الأسقف فى أسقفيته بحقوق قضائية وسلطات واسعة باعتباره نائباً عن البابا فى دائرته [٢] وهنا يلاحظ أن الأسقف كان مسئولا أمام البابا عن أعماله ومقيداً فى إدارته لشئون الأسقفية بالتشريع الكنسى العام وبالأوامر البابوية ، وفيما عدا ذلك كانت سلطته مطلقة على القساوسة داخل حدود أسقفية [٣] . ولم يكن الأسقف ملوماً بدعوة مجمع محلى لإقرار تصرفاته مادامت هذه التصرفات لاتتعارض مع قانون الكنيسة العام والواقع أن وظيفة الأسقفية تمتعت بكثير من الضمانات ، إذ كان لا يمكن عزل الأسقف من وظيفته إلا بأمر البابا وحده ويتضح نفوذ البابوية على الأساقفة فى عهد أنوسنت الثالث من قول رئيس أساقفة كانتربورى « إننى حر فى أن أعتقد ما أشاء ، إلا إذا أصدر البابا أمراً مخالفاً لعقيدتى فعندئذ يجب أن أعترف فوراً بأننى كنت على خطأ [٤] » .

على أنه يلاحظ أن سلطة الأساقفة تناقصت إلى حد ما فى الجزء الأخير من العصور الوسطى بعد أن تحررت الأديرة ـ عقب حركة الإصلاح الكلونية ـ من سيطرة الأساقفة الذين تقع الأديرة داخل دوائر نفوذهم [٥] . هذا إلى أن انصراف كثير من الأساقفة الأغنياء نحو المصالح الدنيوية وإنطلاقهم فى التيار الإقطاعى ، جعلهم ينصرفون إلى ماهو أجدى على نفوذهم وأنفع لهم [٦] .

---

(1) Thompson : op. cit., vol. 2, p. 650.
(2) Ullmann : The Growth of Papal Government : p. 8.
(3) Cam Med. Hist., vol. 6 p. 528.
(4) Thompson : op. cit., vol. 2 p. 648.
(5) Idem : p. 656.
(6) Taylor : The Med Mind., vol. 1 p.p 488—489.

وإذا كانت الوظيفة الأسقفية تمثل ركناً هاما فى نظام الكنيسة الغربية ، فإن أثر الاساقفة الشخصى فى تطور المجتمع الأوربى كان هو الآخر خطيراً . ذلك أن الأساقفة أضحوا بعد انتهاء غزوات البرابرة حماة التراث الكلاسيكى القديم . وسرعان ما صار لهم شأن كبير فى توجيه سياسية ملوك البرابرة الذين أقاموا ملكيات قوية فى غرب أوربا، مما جعل أثرهم يبدو خطيراً فى التطور الاجتماعى بين القرنين السادس والثالث عشر[1] . هذا بالإضافة إلى أن الأساقفة صارت لهم ممتلكات واسعة من أراض وعقار وغيرها ، الأمر الذى استلزم التفرقة بين وظيفة الأسقف واختصاصاته الروحية (Spiritulia) داخل نطاق أسقفيته، وبين سلطاته واختصاصاته الزمنية (saecularia) (٢) .

ولم تكن هناك قواعد ثابتة فى أول الأمر تحدد كيفية تعيين الأساقفة فى مناصبهم ؛ ففى عصر الغزوات الجرمانية كان لقساوسة الأسقفية ورعاياها حق انتخاب أسقفهم . على أن ملوك الفرنجة سرعان ما ادعوا لأنفسهم هذا الحق وصاروا يعينون من يختارونه فى الأسقفيات الشاغرة(٣) ، على الرغم من صيحات الاحتجاج التى صدرت ضد هذا الوضع من مجامع أورليان سنوات ٥٢٣، ٥٣٨، ٥٤٩ ، وكليرمونت سنة ٥٣٥ ، وباريس سنة ٥٥٧ . وقد غالى شارل مارتل فى هذه السياسة ، حتى أخذ ينعم بالوظائف الأسقفية على المخلصين من أتباعه وبذلك وضع أساس سابقة اتبعها بقية ملوك الجرمان فى غرب أوربا فيما بين القرنين السادس والعاشر . ففى ألمانيا دأب أوتو العظيم ثم ابنه وحفيده من بعده على التحكم فى شغل الأسقفيات الشاغرة فى الإمبراطورية(٤) . وفى إنجلترا جاء وقت أصبح معروفاً أن القصر الملكى هو أسهل طريق للوصول إلى كرسى الأسقفية . . . وهكذا فى بقية بلاد الغرب .

على أنه لم يوجد فى القانون الكنسى ماينص على حق الملك فى تعيين الأساقفة ،

---

(1) Cam. Med. Hist. vol. 6. Ps 536, 545.

(2) Ullmann : The Growth of Papal Government, p. 408.

(3) Cam. Med. Hist. I, p. 152 & Ullmann : op. cit., p. 48—52.

(4) Fliche : L'Furope Occidentale., p.p. 121—122.

مما شجع رجال الدين المصلحين على معارضة هذا التقليد . وقد رأينا كيف وضع هلد براند مسألة منع التقليد العلمانى على رأس قائمة إصلاحاته ، الأمر الذى أوقع البابوية فى صراع طويل مع الإمبراطورية ، وهو الصراع الذى انتهى أخيراً بإقرار حق البابوية كاملا فى تقليد الأساقفة وحرمان الحكام العلمانيين من كل حق فى هذا التقليد[١] . ولكن هذا الحل لم يضع نهاية لمشكلة تعيين الأساقفة ، لأنه بقى إشكال آخر هو تحديد الهيئة التى تقوم بانتخاب الأسقف ليعتمد البابا ذلك الاختيار ويقلد الأسقف مهام منصبه[٢] . وكانت هذه الهيئة غير محددة عند بداية القرن العاشر ، إذ تألفت من قساوسة الأسقفية ورعيتها ، حتى جاء البابا جريجورى السابع (هلدبراند) فاتجهت سياسته نحو الإبقاء على هذا العنصر الشعبى فى إختيار الأساقفة ليكون قوة مضادة لنفوذ الأمراء والحكام العلمانيين؛ وأكتفى جريجورى السابع بأن يقسم الأساقفة للبابا يمين الولاء والطاعة[٣] . على أنه يبدو أن دائرة الأشخاص الذين لهم حق إختيار الأسقف ضاقت بعد ذلك فى القرن الثانى عشر ، حتى أصبح هذا الحق مقصوراً على القساوسة الذين يرتبطون بالكرسى الأسقفى ارتباطاً مباشراً . ثم كان أن تم بعد ذلك — فى المجامع البابوية التى عقدت بروما سنة ١١٧٩ ، وسنة ١٢١٥ - تحديد قواعد إختيار الأساقفة ، فنص المجمع الأول على ألا يقل عمر المعين فى هذه الوظيفة عن ثلاثين سنة ، وأن يكون متعلماً وذا شخصية تتناسب مع جلال وظيفته[٤] . أما المجمع الثانى فقد حدد طرق إنتخاب الأساقفة ، وأحتفظ البابا أنوسنت الثالث للبابوية بحق رفض الاختيار إذا كان المرشح غير لائق للوظيفة . بل إن هذا البابا لجأ إلى تعيين بعض الأساقفة بطريق مباشر لإثبات حق البابوية فى اتخاذ مثل هذا الإجراء ، وحسبنا ما فعله من رفض مرشح رجال الدين ومرشح ملك إنجلترا لشغل وظيفة رئيس أساقفة كانتربورى سنة ١٢٠٧ ، وأختار لذلك رجلا ثالثاً هو ستفن لانجتون[٥] .

---

(1) Ullmann : The Growth of Papal Government, p.p. 259—261.
(2) Cam Med. Hist., vol. 6, p. 539.
(3) Ullmann : The Growth of papal Government, p.p. 296—297.
(4) Eyre : op. cit., p.p. 224—225.
(5) Adams : The Hist. of England., p. 416.

التنظيمات الديرية :

ظهر الاتجاه نحو العزلة والانقطاع للعبادة فى تاريخ معظم الأديان الكبرى التى عرفتها البشرية ، ولكن هذا الاتجاه لم يترك أثراً فى الحياة العامة مثلما ترك فى العالم المسيحى الأوربى فى العصور الوسطى (١).

وقد سبق أن أشرنا إلى ظهور الديرية وانتشارها فى غرب أوربا(٢) . وهنا نكرر أن القديس بندكت لم يكن مبتكر النظام الديرى فى المسيحية ،وإنما سبق أن ظهر هذا النظام فى بلاد الشرق الأدنى المسيحية وانتشر بين ربوعها ، ومنها انتقل بعد ذلك إلى الغرب . وقد أجمعت المراجع على أن مصر هى البلد الأول الذى طبقت فيه المسيحية نظام العزلة والانقطاع للعبادة(٣) . فعلى ضفاف النيل باشر أقباط مصر نهجين من الانقطاع للعبادة ، يتمثل الأول فى الرهبانية الانفرادية المطلقة التى باشرها القديس أنطون ، والتى انتشرت بعد ذلك فى مصر والشام وأسهمت إلى حد واضح فى نشر المسيحية فى الشرق ، فى حين يتمثل الثانى فى الديرية الاجتماعية ، التى ارتبطت بالقديس باخوم صاحب أول مؤسسة ديرية فى مصر العليا ، والذى نجح قبل وفاته سنة ٣٤٨ فى تأسيس تسعة أديرة للرجال وواحد للنساء ضمت جميعها بضعة آلاف من الديريين(٤) .

وهذا النوع الأخير من أنواع الانقطاع للعبادة هو الذى قدر له البقاء والاستمرار ، فانتشر إلى الشرق البيزنطى حيث ظهرت الأديرة الباسلية نسبة إلى مؤسسها القديس باسل (٣٢٩ — ٣٧٩) أسقف قيصرية فى كابادوكيا . وقد أسس باسل مؤسسة ديرية كبرى قرب قيصرية ضمت ملجئاً ومستشفى ومدرسة لتعليم الصغار . ولم يلبث أن انتشر نظامه ، حتى زاد عدد أتباعه قبل وفاته

---

(1) Workman : The Evolution of the Monasticideal. p.p. 1—5.

(٢) انظر الجزء الأول من هذا الكتاب ص ١٦١ وما بعدها .

(3) Workman : op. cit., p. 86.

(4) Howell--Smith : op. cit., p. 676.

على ثمانين ألفاً ، كما أصبح هذا النظام بمثابة حجر الزاوية فى الديرية الشرقية . وهنا نلاحظ أن الديرية الباسلية غلب عليها طابع التأمل والعبادة والزهد فضلا عن قلة العمل وضعف الانتاج الحضارى ، بخلاف ما أصبحت عليه الديرية فى الغرب(١) .

أما فى الغرب فإن الديرية لم تصبح قوة فعالة فى المجتمع الأوربى إلا على عهد القديس بندكت فى القرن السادس(٢) . حقيقة إن غرب أوربا عرف الرهبانية الانفرادية والديرية الاجتماعية قبل ذلك العصر ، بل منذ سنة ٣٤٠ عندما وصل أثناسيوس إلى روما وبصحبته اثنان من الرهبان فراراً من الاضطهاد الآريوسى ، ولكن الديرية لم تصبح عندئذ قوة فعالة ذات شأن كبير فى تطور الحياة الأوربية وكل ماهنا لك هو أن الحياة الديرية انبعثت من روما لتنتشر فى جميع أنحاء إيطاليا بل غاليا وشمال أفريقيا(٣) .

وعلى هذا الأساس لا يمكننا القول بأن القديس بندكت هو صاحب الفضل فى تأسيس النظام الديرى فى المسيحية ، وإن كان هو صاحب الفضل فى التقدم بهذا النظام ووضع القواعد والأسس التى أثرت فى مستقبله ، حتى أن حياته تعتبر نقطة تحول خطيرة فى تاريخ الديرية ونظمها(٤) . ويمكننا إجمال مافعله بندكت فى أنه اقتبس من النظم القائمة ماهو صالح فعلا وما يلائم ظروف البيئة الغربية . وأول طابع للنظام البندكتى هو ما امتازت به الحياة داخل الدير من روح اجتماعية نتيجة لاشتراك مجموعة من الديريين فى حياة منظمة أساسها الاشتراك والتعاون فى العبادة والعمل والنشاط . فالنظام البندكتى ابتعد تماما عن فكرة الرهبانية الانفرادية التى عرفها الشرق ، وبذلك أصبحت الديرية الغربية لا تعرف

---

(1) Idem , p. 677.
(2) Eyre : op. cit., p.p. 227—228.
(3) Howell-Smith : op. cit., p. 678.
(4) Workman : op. cit., p. 139.

إلا النظام الاجتماعى التعاونى ، مما ترك أثراً بعيداً فى المجتمع الأوربى(١) . أما الطابع الثانى للنظام البندكتى فهو أن أعضاء الدير كان عليهم أن يظلوا مدى الحياة مرتبطين بالمجتمع الديرى الذى دخلوه مختارين . وهذا النوع من الاستقرار جعل الدير البندكتى بمثابة مؤسسة مسئولة عن نزلائها حتى مماتهم ، فتقوم هذه المؤسسة بالاعتماد على نفسها فى سد حاجاتها ورعاية شئونها ، دون أن ترتبط بغيرها من الهيئات أو الأديرة الأخرى . وقد تطلب هذا الوضع أن يكون للدير البندكتى رئيس يشرف عليه ويتمتع بالسلطة المطلقة العليا فى إدارة شئون الدير ، ويلتزم له بقية الأعضاء بالطاعة العمياء(٢) . لذلك نص النظام البندكتى على أن يختار أعضاء الدير رئيسهم ، ولهذا الرئيس أن يستشير هؤلاء الأعضاء فى مختلف المسائل التى تهم المجموعة ، على أن يكون له وحده الرأى النهائى والقرار الأخير ليصبح المسئول الأول - فى الدنيا والآخرة - عن صالح الدير ومن بداخله من أعضاء(٣) .

وهكذا يبدو الفارق واضحاً بين الدير البندكتى وبين بقية المنظمات الديرية السابقة . فالدير البندكتى كان مجتمعا صغيرا مستقلا ، ربطت أعضاءه رغبة مشتركة فى تكريس أرواحهم وأبدانهم لنوع معين من الحياة . وفى سبيل تحقيق هذه الغاية نبذوا الملكية الفردية نبذاً تاماً ، ودانوا بالطاعة العمياء لرئيس الدير ، وعاشوا سوياً كأسرة واحدة حتى الممات(٤) . وهنا نلاحظ أن النظام البندكتى لم يحاول مطلقا أن يجعل من نفسه منظمة عسكرية ، وظل دائما أقرب إلى الحياة الإجتماعية المعتدلة . كذلك نلاحظ أن الديرية البندكتية تجنبت التطرف وظلت بعيدة عن حياة الصرامة والخشونة التى اشتهرت بها الرهبانية الشرقية فى وقت ما ، بحيث أن الراهب البندكتى كان يحيا حياة لا تختلف كثيراً فى مستواها عن

---

(1) Eyre : op. cit., p. 229.
(2) Workman : op. 146—147.
(3) Eyre : op. cit., p. 229.
(4) Workman : op. cit. p. 146

حياته العادية لو قدر له أن يبقى خارج سلك الديرية(١) . والفارق الوحيد بين الحياتين هو الشعور الديني الذى سيطر على الحياة الديرية سيطرة تامة ، ومع أن العبادة المشتركة تمثل المظهر الأساسى لحياة الرهبان داخل الدير البندكتى . إلا أن هذا النظام امتاز بمظهر آخر لا يقل أهمية وهو اشتراك الرهبان فى العمل الزراعى وغير الزراعى ، لاعتقاد بندكت فى أن « الكسل عدو الروح » ، حتى فاقت الساعات المخصصة للعمل تلك المحددة للعبادة . ولعل خير ما قاله بندكت فى هذه الناحية هو مثله المعروف « العمل عبادة Laborare est orare »(٢) .

وقد ظل النظام البندكتى يمثل أكبر قوة فعالة فى الحياة الديرية فى العصور الوسطى ، بل إنه يمثل ثورة كبرى فى تلك الحياة . ويكفى أن هذا النظام أعرض عن حياة الزهد والتقشف ونبذ مبدأ التطرف فى حرمان الجسد ، فى الوقت الذى لم يجعل الرهبان يوجهون كل نشاطهم نحو التأمل والعبادة ، ويهملون العمل والإنتاج(٣) . وهكذا جاء هذا النظام ملائماً من جميع الوجوه للحياة الغربية فى العصور الوسطى ، الأمر الذى أدى إلى انتشاره انتشاراً سريعاً واسعاً فى مختلف أنحاء الغرب الأوربى(٤) . على أن نجاح النظام البندكتى لا يرجع فقط إلى المزايا العديدة التى امتاز بها بالقياس إلى فوضى الحياة الديرية فى العهود السابقة ؛ وإنما يرجع هذا النجاح أيضاً إلى ارتباط ذلك النظام الديرى بثلاث حركات كان لها شأن كبير فى العصور الوسطى . أما هذه الحركات التى ربط النظام البندكتى نفسه بها فأولاها حركة نمو البابوية وتطورها ، وثانيتها الحركة التبشيرية الواسعة التى قامت بها الكنيسة الغربية ، وثالثتها حركة الإحياء الحضارى فى أوربا(٥) .

على أنه يلاحظ أن الفكرة الأساسية فى التنظيم البندكتى قامت على أساس الاستقلال الذاتى لكل دير ، فيكفى الدير نفسه بنفسه ويصبح مأوى دائمـــاً

---

(1) Eyre : op. cit., p. 230 & Workman : op. cit., p. 150

(2) Workman : op. cit., p. 156.

(3) Howell-Smith : op. cit , p.p. 680—681.

(4) Cam. Med. Hist. vol. 5 p. 658.

(5) Workman : op. cit., p. 162.

لأعضائه ، يعيشون داخله فى شبه عزلة تامة عن غيرهم . ومن الواضح أن لهذا الاتجاه محاسنه وعيوبه ، فهو من ناحية يكفل لأهل الدير قدراً كافياً من حرية التطور ، ولكنه من ناحية أخرى يؤدى إلى الحد من نفوذ الحياة الديرية ، ويجعل أثرها سلبيا فى المجتمع الإنسانى الكبير(١) . هذا إلى أن عزلة الدير البندكتى عرضته فى كثير من الأحيان للانحلال والتدهور ، حتى يقال أن إثنين من رهبان دير فارفا Farfa قتلا مقدم الدير ، سنة ٩٣٦ وفرضا سيطرتهما على الدير حيث عاشا عيشة أقرب إلى الأمراء ، فصار لكل منهما زوجته وأولاده وأتباعه الذين ينعمون بخيرات الدير وضياعه(٢) . فإذا أضفنا إلى ذلك أن عزلة الدير البندكتى لم تمكنه من حماية نفسه واستقلاله ضد تدخل السلطة العلمانية ، ولا سيا فى العصر المظلم الذى أعقب تفكك إمبراطورية شارلمان ، أدركنا فى النهاية أن الحياة الديرية فى غرب أوربا أمست عند نهاية القرن التاسع مفتقرة إلى إصلاح شامل سريع يعالج هذه العيوب(٣) .

وكان أن تحققت حركة الإصلاح المنشودة فى القرن العاشر ، وهى الحركة العظيمة التى عرفت باسم حركة الإصلاح الكلونية ، والتى تمثل الدور الثانى فى تاريخ الديرية الغربية . وقد انبعثت هذه الحركة الإصلاحية من غاليا ، ثم أدخلت عليها تعديلات كثيرة فى إنجلترا بعد أن أصبح لانفرانك Lanfrank — أستاذ ديربك Bec المعروف — رئيسا لأسقفية كانتربورى فى القرن الحادى عشر(٤) . أما الأهداف الأساسية للحركة الكلونية فكانت ترمى إلى فرض قسط أكبر من الرقابة على أهل الدير ، ووضع حد للتهاون الذى ساد الحياة الديرية حينئذ ، وذلك عن طريق إخضاع جميع الأديرة التابعة للمنظمة الجديدة لإشراف موحد ، فضلا عن تحديد أعباء الحياة الديرية تحديداً واضحاً(٥) .

وقد نسبت هذه الحركة الجديدة إلى دير كلونى فى برجنديا ، وهو الدير الذى

---

(1) Eyre : op. cit , 231.
(2) Workman. op. cit., p.p. 233—234.
(3) Howell—Smith : op. cit., p. 684.
(4) Workman : op. cit., p.p. 220—223.
(5) Eyre : op. cit, p. 232.

قام بدور هام فى عملية الإصلاح الكنسى التى أنقذت غرب أوربا من المصائب التى ألمت به فى أشد سنوات العصور الوسطى حلكة وظلاما[١] . وكان الهدف الأول للزعماء الذين تولوا رآسة دير كلونى هو إصلاح الكنيسة عن طريق تحريرها من سيطرة الحكام العلمانيين ونفوذهم . وفى سبيل تحقيق هذه الغاية ، استطاع دير كلونى — الذى لم يكن يمتاز فى أول الأمر عن غيره من الأديرة البندكتية العادية — أن يتزعم شبكة مترابطة أو حلفا متماسكا من الأديرة ذات الطابع الخاص(٢) . وأول ميزات هذا الطابع هو أن الأديرة الكلونية لم تكن هيئات مستقلة منفصلة بعضها عن بعض ، وإنما كان يرأسها رؤساء يعينهم مقدم دير كلونى ويخضع له خضوعا مباشرا ؛ وبعبارة أخرى أصبح دير كلونى بمثابة الدير الأم أو الدير الرئيسى العام فى هذا التنظيم الجديد(٣) . وثمة ميزة أخرى امتاز بها النظام الكلونى وهى أن جميع الأديرة الكلونية نجحت فى أن تحرر نفسها من سيطرة الأساقفة المحليين لتصبح المنظمة الديرية الكلونية تحت سيطرة البابا المباشرة(٤) .

أما عن آثار الحركة الكلونية فكانت عظيمة فيما يتعلق بإصلاح الكنيسة وتطهيرها مما كانت تعانيه من انحلال بسبب تدخل رجال السلطة الزمنية فى شئونها(٥) . على أن الذى يهمنا فى هذا المقام هو أثر الحركة الكلونية فى الحياة الديرية ونظمها . وهنا نجد أن هذه الحركة نفخت فى الحياة الديرية روحا قوية أدت إلى قيام كثير من الأديرة الجديدة بفضل الشخصيات الممتازة التى تولت رآسة دير كلونى مثل القديس أودو (ت ٩٤٣) من ناحية ، وبفضل حماسة الرهبان الكلونيين من ناحية أخرى(٦) . ولم تلبث هذه الأديرة أن انتشرت فى شمال غرب أوربا وفى انجلترا نفسها بعد الغزو النورمانى فى القرن الحادى عشر[٧] ،

---

(1) Fliche : L'Europe Occidentale. p.p 121—124.
(2) Cam. Med. Hist. vol. 5 p.p. 662—664.
(3) Howell-Smith : op. cit., p. 685.
(4) Cam. Med. Hist. 5., p. 667.
(5) Fliche : L'Europe Occidentale., p.p. 124—127.
(6) Cam, Med. Hist., vol. 5. p p. 662—663.
(7) Eyre. op. cit.; p.p 232—233.

بحيث لم يقل عددها عن مائتى دير خضع رؤساؤها خضوعا مباشراً لمقدم دير كلونى ولاشك فى أن هذه الرابطة القوية بين الأديرة الكلونية تركت أثراً عميقاً فى الحياة الديرية فى الغرب . ذلك أن النظام الكلونى اهتم اهتماما خاصاً بأن يحيا الديريون حياة زهد ، وأن يحذوا جميعهم حذو أهل دير كلونى فيقللوا من أهمية العمل والساعات المخصصة له داخل الدير ويضاعفوا عنايتهم بالتعبد. وجميع هذه الاتجاهات كان لها أثر فعال فى الحياة الديرية فى غرب أوربا ، حتى فى الأديرة التى لم تدخل دائرة النظام الكلونى[1] .

على أن عوامل الانحلال والفساد سرعان ماتطرقت إلى الحياة الديرية مرة أخرى ، فأخذ الديريون يحيون حياة مترفة ويسرفون فى تناول الفاخر من الطعام والشراب وارتداء الثمين من الملابس ، فى الوقت الذى جنحوا إلى حياة البطالة والكسل[2] . هذا فضلا عن أن النظام الكلونى كانت تكمن فيه نقطه ضعف خطيرة هى إلقاء عبء الإشراف على جميع الأديرة التابعة لهذا النظام على كاهل مقدم دير كلونى[3] . ومعنى هذا التركيز أنه إذا حاد الأخير عن جادة الصواب فإن ذلك يؤدى إلى انحراف بقيه الأديرة الكلونية هى الأخرى عن الطريق السوى . وفعلا حدث ذلك فى أوائل القرن الثانى عشر ، عندما انتهت سلسلة مقدمى دير كلونى المبرزين وبدأت سلسلة أخرى من الرؤساء الضعاف ، فانحل دير كلونى نفسه وتبع ذلك انحلال بقية الأديرة التابعة له[4] .

ولم تلبث تلك الأوضاع أن دفعت فئة من الساخطين الراغبين فى الإصلاح إلى البحث عن حياة أكثر بساطة من حياة الدير الكلونى ، مما أدى إلى مولد أنظمة ديرية جديدة . ومن هذه الأنظمة النظام الكامالدولى Camaldoli [5] الذى اعترفت به البابوية سنة ١٠٧٢ . وفى هذه المنظمة الديرية كان الرهبان

---

(1) Idem : p. 233.

(2) Howell-Smith : op. cit., p.p. 685—686.

(3) Cam. Med. Hist . vol. 5., p. 664.

(4) Workman : op. cit., p. 236.

(٥) كاما لدولى جبل منعزل قرب أرزو Arezzo

يحيون حياة نسك فى خلايا منفصلة يقضون وقتهم فى التأمل ولا يجتمعون إلا فى أوقات الصلاة المشتركة[١] . وهناك نظام ديرى آخر أكثر أهمية ظهر فى القرن الحادى عشر هو الكارثوسيان ـ نسبة إلى صحراء كارتريو ـ حيث أسس برونو الكولونى أول دير من هذا النوع سنة ١٠٨٤ . وقد امتاز هذا النظام الديرى بالصرامة والتطرف فى حياة الزهد والعناية الفائقة بالتأمل والعبادة الانفرادية[٢] ومهما يكن من أمر هذه المنظمات الديرية الجديدة ، ومدى انتشارها وأثرها ، فالمهم هو أنها تمثل رد فعل قوى للمبادىء والمثل الكلونية ، مما يجعلنا نقرر أن الطابع الغالب على الحياة الديرية فى غرب أوربا طوال القرنين العاشر والحادى عشر كان الطابع الكلونى(٣) .

والواقع أن نظام الديرية الكلونية ظلت له السيادة على الغرب الأوربى حتى أوائل القرن الثانى عشر ، عندما بدأ الدور الثالث فى تاريخ تطور الحركة الديرية فى غرب أوربا وجاء هذا الدور الجديد أيضاً وليد رغبة خالصة فى إصلاح الأوضاع القائمة ، وهى الرغبة التى انبعثت هذه المرة من دير سيتو Citeaux فى برجنديا(٤) . وكان دير سيتو هذا قد تم تأسيسه سنة ١٠٩٨ بواسطة جماعة من الرهبان البندكتيين الذين رغبوا فى حياة أكثر خشونة وصلابة من الحياة الديرية السائدة عندئذ . ولم يلبث أن أخذ هذا الدير يرق ويتقدم بسرعة بفضل العهد أو القانون(Charta Charitati)الذى وضعه ستفن هاردنج (Stephen Haridng) الانجليزى ثالث رؤسائه ، واستمر ذلك حتى كانت سنة ١١١٥ عندما التحق القديس برنارد العظيم بذلك الدير(٥) .

ويمكن القول بأن هذا النظام الديرى الجديد الذى عرف باسم السسترشيان Cistorciam كان محاولة لاتخاذ طريق وسط بين الاستقلال المحلى الذى تمثل فى الديرية البندكتية ، والمركزية المطلقة التى اتبعتها الديرية الكلونية . لذلك أصبح

(1) Cam. Med. Hist., Vol 5, p. 667.
(2) Thompson : op. cit., vol. 2, p. 667.
(3) Eyre : op. cit., p 233.
(4) Cam. Med. Hist., vol. 5. 672.
(5) Workman, op. cit:, p. 239.

مقدم دير سيتو هو الرئيس الأعلى لأديرة المنظمة الديرية الجديدة - السسترشيان - وله سلطة زيارة الأديرة التى تفرعت عنه لمراقبتها والتفتيش عليها[1] . ومن جهة أخرى فإن رؤساء هذه الأديرة كان لهم حق زيارة الدير الأم سيتو - وتفقد أحواله . وهنا يلاحظ أن كل دير من أديرة السسترشيان كان مرتبطاً ارتباطاً مباشراً بالدير الذى تفرع عنه فقط دون غيره من بقية أديرة المنظمة(٢) . وفى كل سنة يعقد مجمع عام فى دير سيتو يحضره جميع مقدمى أديرة هذه المنظمة ، ولهذا المجمع سلطة فعالة فى المسائل التى تهم هيئة السسترشيان(٣) .

ومن هذا يبدو أن نظام السسترشيان خول لكل دير سلطة محدودة اختلفت عما تمتع به مقدم الدير البندكتى من نفوذ مطلق ، كما اختلفت عما تعرض له مقدم الدير الكلونى من تبعية تامة لرئيس المنظمة الأعلى(٤) . ولم يلبث نظام السسترشيان أن نما فى سرعة فائقة وانتشر فى جميع أنحاء غرب أوربا بفضل ميزاته الواضحة من ناحية ، وجهود القديس برنارد من ناحية أخرى . ولاغرو ، فإن هـــذا القديس (١٠٩١ - ١١٥٣) أضحى عند أواخر أيامه أعظم شخصية فى أوربا كما كان المستشار والصديق الشخصى للبابا أيوجنيوس الثالث . وأهم القواعد التى أكتملت لنظام السسترشيان على عهد القديس برنارد هى امتياز الحياة الديرية بالبساطة المطلقة ، فروعى فى الأديرة السسترشيانية أن تكون متباعدة وفى مناطق نائية ، وألا تمتلك حقولا آهلة بالاقنان حتى ينصرف الديريون لفلاحة الأرض بأنفسهم . وهكذا أدى الرهبان السسترشيان خدمة كبيرة للحياة الاقتصادية باستصلاح الأرض البور وفلاحتها فضلا عن العناية بتربية الخيول والمواشى(٥) وقد أحرز هذا الفريق من الديريين شهرة كبيرة فى يوركشير بوجه خاص نتيجة لعنايتهم بأصواف الأغنام ، حتى أصبحت تجارة الصوف محور الحياة الاقتصادية فى ذلك الإقليم . أما فى برجنديا — حول ديرهم الرئيسى فى سيتو - فقد أصبح السسترشيان يمتلكون أعظم مزارع الكروم وأشهرها . على أن هذا النشاط

(1) Painter : A Hist. of the Middle Ages. p. 145.
(2) Cam. Med. Hist., vol. 5. p.p, 673—674.
(3) Workman : op. cit. p. 243.
(4) Painter : A Hist of the Middle Ages : p. 145.
(5) Workman : op. cit., p p. 241—244.

الاقتصادى وماتبعه من ازدياد ثروة السسترشيان ، سرعان ما أدى إلى تغلب الروح التجارية على هذا الفريق من الديريين ، حتى انساقوا فى الطريق نفسه الذى انزلقت إليه المنظمات الديرية السابقة ، وذلك منذ نهاية القرن الثانى عشر(١) . وهكذا يمكن القول بأنه بوفاة القديس برنارد سنة ١١٥٢ انقضى العصر الذهبى لمنظمة السسترشيان ونظامهم الديرى (٢) .

* * *

وبعد ، فلعله من الواضح بعد هذا العرض السريع لتاريخ الديرية ونظمها فى غرب أوربا ، أن الطابع الرئيسى للحياة الديرية يكمن فى أنها نبعت من مصدر واحد هو نظام القديس بندكت . وعن هذا الأصل تفرعت الغالبية العظمى من الانظمة الديرية التى عرفتها أوربا العصور الوسطى نتيجة للرغبة فى الإصلاح والتعديل بين حين وآخر(٣) . ولاشك فى أن اتساع مجال الحركة الديرية فى أوربا العصور الوسطى وسرعة انتشارها ، وتنوع صورها ، ترك أثراً واضحاً فى جميع مناحى الحياة فى تلك العصور . ذلك أن الديريين صاروا يكونون ركناً كبيراً فى المجتمع الأوربى ، حتى أصبحت تعاليمهم وأعمالهم تمثل جزءاً أساسياً من حياة المجتمع الغربى بأكمله . وحسب الديريين أنهم شاركوا مشاركة فعالة فى عملية البناء والإنتاج التى حفظت الحضارة الغربية كيانها بعد غزوات البرابرة منذ القرن الخامس ، كما بذلوا جهداً مشكوراً فى صيانة هذه الحضارة وسط الكوارث التى لحقت بغرب أوربا فى القرن التاسع . وإذا كان غرب أوربا قد تمتع بنهضة حضارية كبرى فى القرن الثانى عشر فالفضل الأول فى ذلك يرجع إلى الديريين الذى مهدوا لهذه النهضة بجهودهم ومساعيهم(٤) . ففى وسط مظاهر عدم الاستقرار السياسى والاجتماعى التى سادت غرب أوربا فى السنوات المظلمة ، ظلت الأديرة تمثل عنصر الاستقرار الوحيد فى المجتمع الغربى ، وتلا ذلك أن تنقل التراث الحضارى من السلف إلى الخلف . وبعبارة أخرى يمكن القول بأن الأديرة امدت

(1) Idem : p.p. 245—246.
(2) Cam. Med. Hist , vol 5., p.p 676—677.
(3) Taylor : The Med. Mind. vol. I, p. 375.
(4) Eyre : op. p. 238.

المجتمع الغربى « بخميرة حضارية » بين القرنين السادس والثانى عشر (١) . ذلك أنها أصبحت ـ بحكم استقرارها وسط مجتمع مذبذب متقلب ـ مركز العلم والدراسة ، بما جعل ثقافة ذلك العصر ديرية بكل معانى الكلمة . حقيقة إن المقصود بالعمل الديرى الذى نص عليه القديس بندكت هو الفلاحة والعمل الزراعى ، لا النشاط الثقافى والفكرى ، ولكننا إذا حاولنا وضع سجل لرجال المعرفة الأدب فى العصور المظلمة ، وجدناهم ـ جميعهم تقريباً ـ من الديريين . وهكذا نستطيع أن نؤكد حقيقة قاطعة ، هى أن الأديرة فى غرب أوربا كانت المراكز الأساسية للثقافة والدراسات المتنوعة ، فضلا عن الفنون ، فيما بين نهاية القرن الخامس ونهاية القرن الحادى عشر . وحسبنا أن جميع كبار المؤرخين فى تلك الحقبة كانوا من الديريين ، وعلى رأسهم بدى Bede الذى يعتبر بحق رائد فن التدوين التاريخى (historiography) وأباً للمؤرخين الإنجليز فى العصور الوسطى (٦٧٥ - ٧٣٥) (٢) . أما التعليم فى ذلك العصر فكان ديرياً إلى مدى بعيد ، حتى أن برامج الدراسات التى وضعها الديريون فى العصور المظلمة ظلت باقية ليعتمد عليها رجال الجامعات الناشئة فى القرن الثانى عشر . وهنا نشير إلى أن الأديرة البندكتية بوجه خاص كانت بمثابة مدارس عظيمة الأهمية . فدير مونت كاسينو نفسه أضحى فى القرن الحادى عشر مركزاً أساسياً لدراسة اللاهوت والعلوم الكلاسيكية ، فضلا عن القانون والطب والأدب والنحو (٣) . أما ديريك Bec فى غاليا فقد قام بدور فى النشاط العلمى والحضارى يضيق المقام عن شرحه . وإذا كان هذا هو حال الأديرة فى صلب القارة فإن الاديرة الإيرلندية (الكلتية) أصبحت هى الأخرى فى العصور المظلمة التى أعقبت سقوط الامبراطورية الرومانية فى الغرب (سنة ٤٧٦) مركزاً للعلوم الكلاسيكية والمعارف اليونانية ، ومنها امتد ضوء الحضارة إلى غرب أوربا ليثير ما يعرف باسم النهضة الكارولنجية (٤) . وقد ظل الوضع على ذلك حتى نشأة النظام الكلونى ، وعندئذ

---

(1) Workman : op. cit., p.p. 158—162.

(2) Pooler : Illustrati ons of the Hist. of Med. Thought, p.p. 17-18.

(3) Taylor : The Med. Mind, p 254

(4) Workman : op. cit., p.p. 199—200.

بدأ التعليم فى غرب أوربا ينتقل من أيدى الديريين تدريجياً، لانصراف الأديرة الكلونية إلى العبادة وإهمال ما عداها ، هذا وإن ظل أثر التعليم الديرى قائماً مدة طويلة بعد ذلك . وخلاصة القول أنه لولا الأديرة لتناقص التراث الثقافى الذى خلفته لنا أوربا العصور الوسطى إلى حد كبير لأن الديريين هم الذين حفظوا ذلك التراث من الضياع ، واستمروا يضطلعون بمهمة تعليم غرب أوربا حتى مطلع النهضة الأوربية فى القرن الثانى عشر ، وعندئذ ظهرت الجامعات الأوربية لتحمل لواء العلم والمعرفة(١) .

وهناك ميدان حضارى آخر أسهمت فيه الحركة الديرية بسهم وافر فى أوربا العصور الوسطى ذلك أن مهمة نشر الحضارة اللاتينية والديانة المسيحية ، لم يقم بها كبار الفاتحين من أمثال شارلمان وألفرد العظيم (٨٤٨ - ٨٩٩) وحدهم ، وإنما كانت بعثات الديريين وجهودهم تساند جيوش هؤلاء الغزاة وتسير فى ركابها لتنشر الحضارة اللاتينية والديانة المسيحية بين الشعوب الوثنية . وحسبنا أن نذكر أن البابا جريجورى الأول (العظيم) صاحب البعثات التبشيرية المعروفة ـ كان راهباً ، كما أن الأبحاث الحديثة تميل إلى تأكيد الحقيقة القائلة بأن القديس أوغسطين مبعوث جريجورى العظيم الذى حول انجلترا إلى المسيحية فى أوائل القرن السادس كان ـ هو ورفقاؤه ـ من الرهبان البندكتيين(٢) . هذا زيادة عما قامت به الأديرة الكلتية فى أيرلندا من جهود تبشيرية واسعة النطاق داخل جزيرتهم ثم خارجها منذ القرن السادس ؛ بل إن رسالة هؤلاء الرهبان لم تقتصر على صلب القارة وإنما امتدت إلى جزر فاروى وايسلاند وغيرها من المناطق النائية(٣) .

على أنه إذا كان الديريون قد عملوا جنباً إلى جنب مع الجنود فى الذود عن الحضارة الغربية ونشر هذه الحضارة بعيداً بين الشعوب الوثنية ، مما طبع حروب العصور المظلمة بطابعها الخاص المميز ، فإن الديرية كان لها أثرها أيضاً فى التقدم

(1) Adamson : The Legacy of the Middle Ages., p. 258
(2) Workman : op. cit., p. p. 172—173.
(3) Idem., p.p. 299—202.

الاقتصادى والاجتماعى الذى أصابته بلدان غرب أوربا فى تلك العصور [١] وهنا نلاحظ أن المؤسسات الدينية — وبخاصة الديرية — كانت من أولى الهيئات التى منحها ملوك الغرب كثيراً من الإعفاءات والامتيازات ، حتى امتلكت الأديرة أكبر نسبة من الأراضى الزراعية فى أوربا العصور الوسطى . ولاشك أن هذه الثروة المتزايدة التى هبطت على الأديرة جاءت متعارضة مع مثالية القديس بندكت وآرائه ، كما أنها كانت العامل الأول فى تحريك الرغبة نحو إصلاح الحياة الديرية بين حين وآخر . على أنه إذا كان الديريون قد استغلوا نفوذهم ومكانتهم للحصول على ملكيات واسعة من الأراضى ، فإنه ينبغى ألا يغيب عن بالنا أنهم كانوا فى ذلك العصر يمثلون أقدر الملاك الزراعيين وأكثرهم خبرة وكفاية [٢] وبعبارة أخرى فإن عناية الأديرة — وبخاصة البندكتية — بالعمل كانت فى حد ذاتها عاملا من عوامل التمدين ومظهراً من مظاهر الإنتاج الحضارى والاستقرار السلمى [٣] .

وتشهد سجلات الأديرة — وهى السجلات التى أصبحت فيما بعد مصدراً نفيساً من مصادر التاريخ الأوربى فى العصور الوسطى — على مدى العناية والكفاية التى كانت تدير بها الأديرة ضياعها وممتلكاتها الواسعة [٤] . حقيقة إن الملاح أو العامل الزراعى ظل يعانى فى غرب أوربا حتى القرن الثانى عشر كثيراً من المتاعب التى يعانيها الفلاحون فى كل مكان ، ولكننا على الرغم من ذلك نستطيع الحكم بأن الديريين فعلوا الكثير من أجل السمو بالعمل الزراعى وأضفوا على هذا النوع من العمل مكانة خاصة لم تتهيأ له فى العصور السابقة [٥] . هذا زيادة على أن الديريين فى العصور الأولى كانوا ينتمون إلى مختلف طبقات المجتمع — بما فيها طبقة النبلاء — فكانت منهم نسبة غير صغيرة تمتاز بالعلم وطيبة الأصل . ومثل هؤلاء عندما يمسكون الفأس ويعملون فى الأرض كانوا يضربون لغيرهم من الناس فى البيئات المجاورة مثلا فريداً له أهميته فى الحياتين الاجتماعية والاقتصادية .

---

(1) Eyre : op. cit., p. 240.
(2) Workman ; op cit ; p.p. 155—158.
(3) Boissonnade : Life and Work in Med. Europe, p. 9.
(4) Boissonnade : op. cit. p. 86—96.
(5) Painter : A Hist., of the Middle Ages. p. 149.

أما فى الميدان الصناعى ، فإن كثيراً من الأديرة أضحت مراكز صناعة روعى فيها التخصص فى العمل ، ومن هذه الأديرة دير كوربى الذى كانت به أربع مصانع يدوية صغيرة (ورش) ، ودير سانت ركويير الذى قامت حوله مدينة صناعية تصنع فيها السروج والأسلحة والجلود وغيرها[1] .

وهكذا يبدو لنا ان الدور الذى قام به الديريون فى بناء مجتمع أوربى منظم خلال العصور المظلمة أعظم من أن يقدر فى سهولة .

الحياة الديرية أواخر العصور الوسطى :

يمكننا أن نخرج مما سبق بأن مقدم الدير أو رئيسه أصبح شخصية هامة فى المجتمع العلمانى المعاصر نتيجة للدور الكبير الذى قامت به الأديرة فى الحياة الإقطاعية من ناحية والضياع الواسعة التى امتلكتها الأديرة من ناحية أخرى . ذلك أن مقدم الدير غدا عضواً بارزاً فى الارستقراطية الإقطاعية ، أو بعبارة أخرى غدا سيداً إقطاعياً كبيراً بكل معانى الكلمة[2] . وعلى هذا الأساس اكتسب مقدموا الأديرة مكانة كبيرة فى مختلف الممالك الغربية التى قامت فيها أديرتهم ، حتى أصبح الملوك يهتمون بأمر تعيينهم ، كما غدا تعيين هؤلاء الرؤساء محور خلاف وجدل وتنافس بين السلطتين الزمنية والدينية . فإذا تم تعيين مقدم لأحد الأديرة الكبيرة فإنه كان بحكم مركزه وإمكانيات ديره يقوم بدور هام فى سياسة الدولة ، بل ربما أصبح من مستشارى الملك وعندئذ يزداد النفوذ الديرى فى السياسة الزمنية . وهكذا أخذ يتحول رؤساء الأديرة إلى شخصيات سياسية ، مبتعدين عن المثل والمبادىء الديرية ، مما أدى إلى فساد الحياة الديرية بأكملها فى أواخر العصور الوسطى[3] .

هذا بالإضافة إلى أن ازدياد الأراضى التى امتلكتها الأديرة أدى فى القرن

---

(1) Boissonnade : op. cit., p. 104.
(2) Eyre ; op. cit., 241.
(3) Idem ; p. 242.

الثانى عشر إلى تطور المركز الاجتماعى لرهبان الأديرة أنفسهم . ذلك أنه جرت العادة فى الأديرة الكبرى أن تقسم ممتلكاتها بين مقدم الدير وبقية رهبانه ، مما ترتب عليه تحول الديريين إلى ارستقراطية ممتازة من السادة الملاك دون أن يفتح الدير أبوابه إلا لفئة محدودة فقط ، خشية توزيع أراضيه بين عدد كبير من الأفراد . وقد أثار هذا الوضع شعور كثير من المسيحيين المخلصين الذين ساءهم ما أصبح عليه رجال الدين من ثروة وغنى ، مخالفين بذلك تعاليم المسيحية وبساطتها الأولى ، الأمر الذى ظهر صداه فى الحركات الهرطقية فى القرن الثانى عشر من ناحية ، وفى ظهور الإخوان الرهبان (Frairs) أو الرهبان الفقراء Mendicant Orders من ناحية أخرى(١) .

ويرجع الفضل فى تأسيس منظمات الاخوان الفقراء فى أوائل القرن الثالث عشر إلى اثنين من القديسين ، هما القديس فرانسيس والقديس دومنيك(٢) . أما الأول فقد حاول مع أتباعه أن يقتدى بالمسيح فى بساطته ، فنبذوا متاع الدنيا بأجمعه وأخذوا يتنقلون من مكان إلى آخر فى أوربا لوعظ الناس وتبشيرهم بالإنجيل معتمدين على ما يجود به عليهم الخيرون من فتات العيش(٣) . ولم تلبث أن نجحت هذه الحركة التى تبلورت فى منظمة الإخوان الفرانسسكان حيث اعترف بها البابا أنوسنت الثالث ؛ ثم كان التصديق على لائحتها سنة ١٢٢٣ . وفى نفس الوقت نشأت منظمة أخرى فى جنوب فرنسا من منظمات الإخوان الفقراء ، وهى الهيئة التى أسسها القديس دومنيك(٤) . وقد حاول دومنيك هذا — وهو أسبانى الأصل — أن يقنع الهراطقة فى جنوب فرنسا وشمال أسبانيا بالعودة إلى داخل حظيرة الكنيسة الغربية ، وذلك عن طريق الوعظ والتبشير(٥) لذلك اتبع مع أتباعه أسلوب الفقر المطلق نفسه ، فاستقر جماعة منهم فى تولوز سنة ١٢١٦ واعترف البابا هونريوس الثالث بهيئتهم بعد قليل(٦) .

---

(1) Cam Med. Hist., vol. 6, p. 727.
(2) Workman : op. cit. p. 271.
(3) Idem p.p. 282—288.
(4) Cam. Med. Hist. vol. 6 p. 737.
(5) Eyre ; op. cit., p. 243.
(6) Workman op. cit , p. 276.

ولكن لم تلبث هيئات الإخوان الرهبان — وبخاصة الفرانسسكان والدومنيكان - أن ازداد نفوذها ، وتكاثرت مؤسساتها ، وتخلت عن مبادئها الاولى فى الفقر والتقشف(١) ، لتلعب دوراً عظيماً فى الحياة الأوربية أواخر العصور الوسطى ، ولاسيما فيما يتعلق بالنشاط الفكرى المرتبط بنشأة الجامعات(٢) فضلا عن النشاط التبشيرى بين المغول فى آسيا(٣) ؛ حتى أطلق على القرنين الثالث عشر والرابع عشر « عصر الإخوان الرهبان (الفرير) .

---

(1) Boissonnade : op. cit., 244.

(2) Taylor : The Med. Mind, Vol. 2, p.p. 416—. 417.
أنظر كذلك كتاب الجامعات الأوربية فى العصور الوسطى للمؤلف .

(3) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 321.

الباب الثانى

النظام الاقطاعى

نشأة النظام الاقطاعى وتطوره :

رأينا فى الجزء الأول من هذا الكتاب ما كان من قيام امبراطورية شارلمان العظيمة ، ثم تفكك هذه الإمبراطورية فى القرن التاسع . والواقع أنه يمكن تفسير هذا التفكك السياسى فى ضوء الانحلال الاجتماعى الذى أصاب جوف الإمبراطورية من جهة ، ثم فى ضوء الهجمات الهدامة التى تعرضت لها الامبراطورية من الخارج من جهة أخرى(١) . أما عن حركة الإنحلال الداخلى فهى حركة معقدة ، جرى العرف على تسميتها التطور الإقطاعى ، وهو اصطلاح معقد مبهم ، بل هو أكثر تعقيداً وإبهاماً مما يظن الكثيرون .

ذلك أن التطور الإقطاعى يرتبط ارتباطاً قويا بالحياة الأوروبية فى العصور الوسطى من النواحى السياسية والاقتصادية والاجتماعية بل الدينية ، الأمر الذى يجعل علاج موضوع هذا التطور أمراً شائكا عسيراً . ومهما يكن من أمر ، فإن النظام الإقطاعى فى غرب أوربا بلغ فى القرن التاسع مرحلة حاسمة حرجة من مراحل نموه وتطوره ، جعلت بعض المؤرخين يعتبرونه مسئولا عن سقوط امبراطورية شارلمان(٢) .

ولكى نفهم نشأة النظام الإقطاعى فى الغرب ، يجب أن نذكر أن البناء الاجتماعى لغرب أوربا فى العصور المظلمة جاء نتيجة لتداخل شعوب قبلية ـ من الجرمان وغير الجرمان ـ فى محيط سياسى واجتماعى لايقوم على أسس

---

(1) Thompson op. cit. vol. 1 ; 279--280.
(2) Eyre : op. cit., p. 100.

قبلية . وليس هناك من شك فى أن هؤلاء البرابرة الذين دخلوا الامبراطورية الرومانية جلبوا معهم كثيراً من عناصر التنظيم القبلى ، ولاسيما فيما يتعلق بتقديس رابطة الدم . وهنا نلاحظ أن المجتمع القبلى أبعد دائماً عن أن يكون ديموقراطياً ، لا لأنه يقوم على أساس احترام سلطة رئيس القبيلة أو العشيرة احتراماً مطلقاً فحسب ، بل لأن الفرد ذا العصبية القوية فيه يسود دائماً ويتغلب على ضعاف العصبية . هذا إلى أن استخدام العبيد كان أمراً مألوفاً عند شعوب الجرمان القبلية ، وهذه كلها عناصر لها أهميتها وقيمتها فى التنظيم الإقطاعى[1] .

على أنه يلاحظ من ناحية أخرى أن الملكية تكون دائماً ضعيفة فى المجتمع القبلى، لأن القوة الحقيقية فى ذلك المجتمع تكمن فى سلطة زعماء القبائل والعشائر. وإذا كانت بعض الملكيات الجرمانية ـ كالملكية الميروفنجية مثلا ـ نمت فى غرب أوربا ، فإن هذا النمو جاء نتيجة لتأثر هؤلاء الجرمان بروح الاستقرار والنظريات الرومانية السائدة فى البلاد التى استقروا فيها . ولم يلبث هذا الاستقرار الذى نعمت به القبائل الجرمانية غداة اقتحامها العالم الرومانى أن أثر بدوره فى تنظيمها الاجتماعى ، لأن اتساع رقعة البلاد التى حكمها ملوك الجرمان ، مع انتشار عوامل الفوضى التى سادت ذلك العصر أدت إلى إفلات الزمام من أيديهم تدريجياً . وهكذا يبدو أنه فى الوقت الذى هيأت بعض الظروف لملوك الجرمان قدراً متزايداً من السلطان والنفوذ ، اضطر هؤلاء الملوك ـ تحت ضغط ظروف أخرى ـ إلى التخلى عن هذه السلطة وذلك النفوذ وتفويضها لمن ينوب عنهم[2] .

وقد يلاحظ القارىء أننا اخترنا فى الأسطر السابقة أن نضرب المثل بملوك دولة الفرنجة عند الكلام عن البذور الأولى للنظام الإقطاعى . والواقع أن هذه الإشارة المقصودة جاءت لأن تاريخ دولة الفرنجة فى غاليا يكشف عن كثير من العادات والتقاليد التى يمكن تسميتها إقطاعية والتى تعتبر جذوراً للنظام الإقطاعى[3] . فمن المعروف أن محاربى الفرنجة كانوا من المشاة بوجه عام، وإن

---

(1) Idem ; p. 101.

(2) Idem; p. 102.

(3) Ganshof : Feudalism, p. 3.

اعتاد الملوك والنبلاء أن يمتطوا صهوة جيادهم فى وقت الحرب(١) . واستمر الوضع على ذلك حتى حاول شارل مارتل أن يتوسع فى نظام الخيالة ليجعل جيشه قوة فعالة فى ميدان الحرب ، وعندئذ استكشف أن تعميم هذا النظام يتطلب منه نفقات ضخمة لإعداد مايحتاج إليه الفارس من حصان ودرع وسلاح ،فضلا عن أن هذا النوع من الفرسان يجب أن يتوافر لهم مورد يعيشون عليه حتى يتفرغوا لشئون الحرب والقتال(٢) . ولما كانت موارد دولة الفرنجة محدودة فى القرن الثامن بحيث لاتفى بكل هذه المطالب ، فإن شارل مارتل لجأ إلى حل يتفق وتقاليد ذلك العصر : فسجل أسماء المحاربين ، ليجعلهم يقسمون له يمين الولاء ، ثم أعطى كلا منهم إقطاعاً يكفى لسد مطالب معيشته على أن يبقى هذا الإقطاع فى حوزته مادام يقوم بالخدمة العسكرية(٣) وعندما وجد شارل مارتل أنه من الصعب توافر الأرض اللازمة لهذا العدد الكبير من الفرسان ، وأنه لايستطيع إضعاف موارد الحكومة بتوزيع الأراضى ‍ ‍ ‍ كية على الجند ، بدأ يتطلع إلى أراضى الكنيسة ليجبر رجالها على منح إقطاع ، من الأرض لجنوده . وعن هذا الطريق تمكن شارل مارتل من التغلب على مواجهة من صعاب ، فكون جيشاً قوياً من الفرسان استغله فى طرد المسلمين من جنوب غاليا وفى محاربة السكسون فى الشمال . والمهم فى أمر هذا التنظيم الذى وضعه شارل مارتل لجيشه والذى اقتفى أثره فيه بيبين القصير ثم شارلمان ، أنه قام على أساس إقطاعى واضح(٤) .

وإذا كانت بذور النظام الإقطاعى قد ظهرت فى دولة الفرنجة فى القرن الثامن ، فإن الظروف التى تعرضت لها هذه المملكة بوجه خاص وغرب أوربا بوجه عام فى القرن التاسع ساعدت على نمو هذا النظام وتفرعه . ذلك أن الحرب العنيفة التى قامت بين لويس التقى وأبنائه ، والتى استمرت بين الأبناء بعد وفاة أبيهم ، كانت فى حد ذاتها كافية لأن تثير جواً من الفوضى أصبحت

---

(1) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 70.
(2) Painter : Med. Society, p. 14.
(3) Ganshof : op. cit ; p.p. 16—17.
(4) Stephenson : Med. Feudalism, p. 11.

فيه الكلمة الأخير لقوة السلاح وحدها . ثم جاءت الأخطار الخارجية لتزيد من اضطراب الأوضاع ، لأن إغارات الفيكنج والمسلمين والمجريين على غرب أوربا ووسطها فى القرن التاسع جعلت أهالى القرى والمدن والمؤسسات الدينية لا يأمنون على أنفسهم إلا فى ظل القوة المسلحة(١) . وفى هذه الأوضاع القلقة أصبح لزاماً على الرجل العادى الحر أن يختار أحد طريقين ، فإما أن يصبح جنديا وإما أن يصبح قناً ، لأنه لا يستطيع البقاء بمفرده دون سيد قوى يحميه ويذود عنه. وهكذا أخذ الملوك وكبار الأمراء وملاك الأراضى يبحثون عن أتباع مسلحين يساعدونهم فى التغلب على ماواجههم من أخطار . وبعبارة أخرى لجأ كل من يمتلك أرضاً أكثر من حاجته وحاجة أسرته إلى منح هذه الزيادة - على هيئة إقطاعات - لأتباعه من الجنود(٢) أما صغار ملاك الأراضى فقد دفعتهم هذه الفوضى الشاملة التى تعرض لها غرب أوربا فى القرن التاسع إلى الدخول فى حماية من هم أقوى منهم وأقدر على الذود عنهم ، فيسلم المالك الصغير أرضه لسيد قوى، ثم يعود فيتسلمها منه كإقطاع ، وبذلك يصبح فصلا أو تابعاً إقطاعياً له . وكان يحتفل عادة بقيام علاقة إقطاعية بين سيد وفصله فى حفل بسيط ، فيركع الفصل أمام سيده الإقطاعى ويضع يده بين يديه ، ثم يقسم على أن يظل تابعاً أميناً له ويؤدى كافة الخدمات والالتزامات الإقطاعية المتنوعة المفروضة على الإقطاع ، يسمى هذا القسم « يمين الولاء homagium» وبعد ذلك يناوله السيد الإقطاعى حفنة من التراب إشارة إلى أنه سلمه الإقطاع فعلا(٣) . كما يسلم لفصله علماً وعكازاً وبراءة تثبت أوصاف الأرض الممنوحة ومساحتها ، وتسمى هذه العملية (التقليد investitura(٤)) .

وهكذا أخذت تتكون فى القرن التاسع طبقة من السادة الإقطاعيين والأفصال ، فأصبح المحارب أو الفارس الصغير الذى لا يمتلك من الأرض إلا قدراً بسيطاً فصلا لمالك أكبر . . . مما كان كونت الإقليم - فى حين صار هذا

---

(1) Thompson : op. cit., 279.
(2) Fliche : L'Europe Occ. p.p. 162 – 163.
(3) Painter A Hist. of the Mi[illegible]e Ages ; p. 112.
(4) Cam. Med. Hist ; vol. 3., p. 459.

الكونت، فصلا للملك أعظم ، قد يكون الدوق أو الملك . على أن هذا النظام الهرمى الذى كان الملك فى قمته والفارس العادى فى أسفله ، لم يكتمل بناؤه بالصورة التى قد نتصورها فى القرن التاسع ، إذ ظلت هناك كثير من أراضى الملكيات الحرة (allods) التى لم تدخل ضمن التنظيم الإقطاعى منتشرة فى غرب أوربا حتى القرن الثانى عشر[١] .

وهنا ينبغى أن نلاحظ أنه لم تكن هناك أية غضاضة فى تلك العصور فى أن يكون الفرد فصلا لغيره ، لأن هذا الفصل كان بدوره سيداً لمن هو دونه فى الدرجة فضلا عن أن هذه التبعية الإقطاعية تعنى أن صاحبها عضو فى طبقة المحاربين ، وتبعاً لذلك يتصف بأخلاق الشجاعة والكرم والمروءة وهى الصفات التى عرف بها فرسان العصور الوسطى[٢] .

ومن الواضح أن عملية التطور الإقطاعى تعنى تنازل السلطة المركزية فى الدولة عن حقوقها وواجباتها بسبب ضعفها وعجزها عن مواجهة الأخطار المحيطة بها ، مما دفع الملك إلى اختيار بعض ذوى النفوذ والبأس لينعم عليهم بحقوق وامتيازات فى مناطق معينة مقابل شروط خاصة[٣] . لذلك لا ينبغى أن يقتصر تفسيرنا لهذه العملية على جانبها الاقتصادى لأنها تمس فى الواقع جميع أركان النظام السياسى فى الدولة . فإذا أعلن الملك مثلا تنازله عن حق جباية الضرائب فى منطقة معينة لسيد معين ، فليس معنى ذلك أن الفلاحين فى هذه المنطقة استراحوا من عبء تلك الضرائب ، لأن الذى حدث فعلا هو أنهم استمروا يدفعون الضرائب المقررة نفسها ولكن للسيد الذى عينه الملك . وهكذا أصبح هذا السيد صاحب السيادة المباشرة وصاحب الحق فى الحصول على الالتزامات المفروضة على أولئك الفلاحين[٤] . ومثل هذا الوضع يمكن أن يقال عن العدالة والقضاء ، لأن تنازل الملك عن حقوقه القضائية فى منطقة معينة من بلاده لفرد من أفصاله ، يعنى قيام هذا الفرد بما كان ينبغى أن تقوم به السلطة الملكية فى هذا الميدان ، فضلا عن

---

(1) Ganshof : op. cit ; p. 115 & Painter ; Med. Society ; p. 16.

(2) Stephenson : Med. Hist ; p. 234.

(3) Flicıe : L'Europe Occidentale, p.p. 162—163.

(4) Eyre : op. cit. p.p. 182.

قيامه بجمع الرسوم القضائية من المتقاضين ، بمعنى أن الإقطاع كان يمثل أيضاً وحدة قضائية يتمتع بها السيد الإقطاعي بحقوق قضائية واسعة على أفصاله[١] . أما فى الجانب الحربى فإن المنح الملكية الإقطاعية كانت تأتى مشروطة غالباً بأن يقوم الشخص المنعم عليه بمساعدة الملك ومناصرته فى وقت الحاجة . ومعنى ذلك أنه إذا كان الملك ينتظر معونة أفصاله الكبار ، فإن هؤلاء الأفصال لابد أن يعتمدوا بدورهم على أفصالهم فى الحصول على هذه المعونة[٢] .

وهنا نلاحظ أن الكنيسة قامت بدور كبير فى هذه العملية الطويلة المعقدة . ذلك أن كبار ملاك الأراضى من الديريين ورجال الأكليروس كانوا يتمتعون بمكانة سامية فريدة فى المجتمع ، الأمر الذى أحاط أشخاصهم وممتلكاتهم بمسحة من القدسية . لذلك كان معظم المنح التى أنعم بها ملوك الجرمان من نصيب الأسقفيات الكبيرة ، ثم الأديرة العظيمة فيما بعد ، حتى يكتسب هؤلاء الملوك تأييد رجال الدين وعطفهم[٣] . ولكن يلاحظ فيما يتعلق بالإقطاعات الكنسية والديرية أنها كانت تعفى فى معظم الحالات من الواجبات والالتزامات الإقطاعية ، ويكتفى بأن يقوم أفراد الهيئة الدينية المنعم عليها بالإقطاع بالدعاء للواهب أو الترحم عليه . هذا إلى أنه كان يحدث فى كثير من الحالات أن يفى مقدم الدير أو الأسقف بالالتزامات العسكرية المفروضة على الإقطاع عن طريق توزيع جزء منه - أو كله - على أفصال جدد ينهضون بأعباء هذه الالتزامات[٤] .

وكانت أهم مظاهر تطور العلاقات الإقطاعية بين السادة الاقطاعيين وأفصالهم هى تحول الإقطاع إلى منحة وراثية بعد أن كانت هذه المنحة فى أول أمرها مؤقتة أو مرهونة بمدى الحياة . ومن الواضح أن هذه الخطوة جاءت نتيجة طبيعية لتعذر منع ابن الفصل من الاستيلاء على أقطاع أبيه بعد وفاته . وقد حدث عندما أزمع شارل الأصلع السفر إلى روما ليتوج إمبراطوراً أن أصدر مرسوماً بأنه فى حالة وفاة أحد أفصاله فى غيابه فإن ابن ذلك الفصل له الحق فى الاستيلاء على

---

(1) Thompson : op. cit., vol. 1, p. 348.
(2) Ganshof : op. cit., p.p. 79.
(3) Eyre : op. cit ; p.p. 240—242.
(4) Stephenson : Med. Hist., P. 237.

إقطاع أبيه[1] . وهنا نلاحظ أن الالتزامات المفروضة على الفصل ظلت رهناً بمشيئة السيد الإقطاعى طالما كان الاقطاع غير دائم ولا يورث . أما وقد اتخذ الاقطاع صفة وراثية ، فإن هذه الالتزامات اتخذت شكلا ثابتاً بموجب عقد عرف حدد الحقوق والواجبات المتبادلة بين السيد وأفصاله . وثمة ملاحظة أخرى على مبدأ توريث الاقطاع ؛ وهى أن الابن الأكبر وحده كان له حق الاستئثار بوراثة الاقطاع . حقيقة إن الأرض يسهل تقسيمها ، ولكن الاقطاع كان وظيفة ، والوظيفة لا تقسم . فالاقطاع بمعناه وأهميته الحربية التى تقوم على أساس المسئولية الشخصية ، يعتبر وظيفة ، ولذلك حرص القانون الاقطاعى - بخلاف القوانين الرومانية والجرمانية — على أن ينص على انتقال الاقطاع كاملا فى حالة وفاة صاحبه إلى أكبر أبنائه . ومن الواضح أن الذى كان يورث فى هذه الحالة هو حق الحصول على الاقطاع تحت شروط معينة . فالابن الأكبر أو الوريث ليس له حق شرعى فى الحصول على إقطاع أبيه ، إلا إذا أدى فروض الولاء والتبعية للسيد الاقطاعى[2] .

الحقوق والواجبات الإقطاعية :

اختلف النظام الاقطاعى فى نشأته من مكان إلى آخر فى غرب أوربا وفق الظروف والملابسات ، ولكنه قام فى جوهره على أساس العلاقة الشخصية التى ارتبطت بحيازة الأرض[3] . ذلك أن المتمتع بالأرض كان يتعهد بالتزامات معينة لسيده الاقطاعى مقابل تعهد السيد بالتزامات أخرى لفصله . وبعبارة أخرى فإن كلا من الطرفين كانت له حقوق وعليه واجبات قبل الطرف الآخر . وهنا نلاحظ أن النظام الاقطاعى لم يعترف فى بداية تطوره بملكية الأفراد للأرض ملكية مطلقة ، لأن الملك كان - من الناحية النظرية - هو المالك الفعلى لجميع أراضى المملكة ؛ وإن كان الثابت من الناحية العملية أن لكل أرض سيدها ،

---

(1) Painter : Med. Society, p.p. 16—17.

(2) Stephenson : Med. Hist., p. 236.

(3) Ganshof : op. cit. p. XVI.

حتى قيل «لاتوجد أرض بلاسيد «Nulle terre sans seigneur»»[1] . ومهما يكن من أمر ، فإن العلاقة المتبادلة بين السادة الاقطاعيين وأفصالهم لم تتطلب نوعاً من الالتزامات الشخصية فحسب ، بل ترتب عليها أيضاً حقوق عامة والتزامات سياسية ، لأنه إذا كانت الوظيفة الأساسية لحكومات العصور الوسطى هي القيام بأعباء الحرب والعدالة ، فإن هاتين المهمتين نظمتا على أساس إقطاعي بحت في أوربا العصور الوسطى[2] . وتتضح الحقيقة كاملة بشرح الحقوق والواجبات الاقطاعية .

أما السادة الاقطاعيون فكانت لهم حقوق على أفصالهم ، وهي حقوق أصبحت بمثابة مهام أو التزامات ملقاة على عواتق الأفصال وتجب عليهم تأديتها والوفاء بها في حدود ماقضي به العرف الاقطاعي . وقد تنوعت هذه الالتزامات المفروضة على الأفصال تجاه سادتهم الاقطاعيين ، فظهر منها ماهو حربي وماهو مالي وما هو اجتماعي ... إلى غير ذلك من أنواع التكاليف التي نهض بها الأفصال مقابل ماحصلوا عليه من حماية[3] .

ومن الطبيعي أن يكون التعاون في ميدان الحرب هو المحور الأساسي للعلاقات الاقطاعية بين السيد وأفصاله ، لأن المهمة الأولى للسيد الاقطاعي كانت حماية أفصاله وأراضيهم ، في حين كان الواجب الاول على هؤلاء الافصال هو الخدمة في جيش سيدهم[4] . وهكذا أصبح المجتمع الاقطاعي يدور حول محور واحد هو الفارس المحارب ، فيتعهد الامير الاقطاعي بالحضور فوراً على رأس عدد معين من الفرسان لمساندة الملك متى طلب إليه ذلك ، وبالتالي يتعهد أفصال ذلك الامير بمساندته وقت اشتباكه في حرب مع عدو له[5] . ومن السهل علينا أن نكشف مدى مافي هذا النظام من خطر لانه يجعل كل عضو في

---

(1) Eyre : op. cit. p. 247.
(2) Fliche : L'Europe Occidentale, p.p. 166—168.
(3) Thompson : op. cit., vol. 2, p.p. 701—702.
(4) Painter : Med. Society, p. 18.
(5) Stephenson : Med. Feudalism, p.p. 27—28.

المجتمع الإقطاعي يقدم خدماته العسكرية لسيده المباشر ، حتى ولو قام هذا السيد بحرب تستهدف مصلحة خاصة أو ضد ملك البلاد . ولم يتم التخلص من هذا الخطر نسبياً إلا في أواخر القرن الثاني عشر عندما نص القانون في انجلترا ثم في فرنسا على أن يتعاون الفرسان مع أميرهم الإقطاعي في خدمة الملك ، ولا يساعدونه في أي حرب خاصة[١] .

والواقع أنه لم يكن هناك تحديد في أول الأمر لمدى الخدمة العسكرية التي يؤديها الفصل لسيده ، وذلك في الوقت الذي اشتدت إغارات الفيكنج وغيرهم من الغزاة على غرب أوربا ، فسادت الفوضى وعظم الخطر وأصبح لزاما على الأفصال أن يهبوا لحمل السلاح دون قيد أو شرط وقتما يأمرهم سيدهم الإقطاعي[٢] ولكن الأفصال أخذوا — بمرور الوقت — يميزون بين نوعين من الحروب : الحرب الهجومية والحرب الدفاعية . فإذا أغار عدو أو اعتدى معتد على أملاك السيد أصبح لزاما على أفصاله أن يقاتلوا معه حتى يردوا ذلك العدو . أما إذا قام السيد الإقطاعي بحرب هجومية لتوسيع ممتلكاته أو للاعتداء على ضيعة مجاورة أو حصن قريب ، فإن الأفصال اتجهوا في تلك الأحوال نحو تحديد التزاماتهم تجاه سيدهم . وهناك شبه قاعدة عامة حددت الحد الأقصى للمدة التي يخدم فيها الفصل سيده في حربه الهجومية بأربعين يوما في السنة[٣] .

ويرتبط بالخدمة العسكرية التي يؤديها الفصل لسيده قيام الأول بنصيبه في حراسة قلعة السيد[٤] . ولم تكن هناك حصون إقطاعية في غرب أوربا قبل القرن العاشر ، ولكن هذه الحصون أخذت تنتشر منذ ذلك الوقت حتى أصبح لكل أمير إقطاعي — في القرن الحادي عشر — قلعة على الأقل يأوي إليها أفصاله وذووهم وقت الخطر ، ويتناوب هؤلاء الأفصال حراستها على مدار السنة . وكان السيد الإقطاعي يولي هذه القلاع اهتماماً خاصاً — سواء كانت خاصة به أو بأفصاله - فلا يسمح لأحد من هؤلاء الأخيرين بهدم قلعة أو بناء

---

(1) Eyre op. cit., p.p. 247—248.

(2) Painter : Med. Society, p. 18.

(3) Ibid.

(4) Ganshof : op. cit., p.p. 80—81.

أخرى إلا بإذن خاص منه . أما المدة التى فرض على الأفصال قضاؤها فى حراسة قلعة سيدهم فقد تراوحت بين ثلاثين وأربعين يوما فى السنة .

وبالإضافة إلى هذه الواجبات الحربية وجدت واجبات أخرى اجتماعية فرضتها طبيعة العلاقات الإقطاعية بين السيد وأفصاله : وكانت هذه الواجبات كثيرة ومتنوعة ، أولها التزام الفصل بالحضور على نفقته الخاصة إلى مقر السيد الإقطاعى عندما يطلب إليه ذلك . وكانت هناك أغراض متعددة تستدعى توجيه هذه الدعوة ، أهمها رغبة السيد فى إستشارة أفصاله فيما يهم مجتمعهم الصغير من مصالح مشتركة[١] . ويبدو أن مبدأ الشورى هذا كان من المبادىء الأساسية التى سادت المجتمع الإقطاعى ، إلى درجة أن السيد الإقطاعى كان يجمع أفصاله ليأخذ رأيهم فى إختيار زوجة لنفسه أو لإبنه أو زوجاً لابنته ، هذا فضلا عن استشارتهم قبل الإقدام على حرب خارجية أو المشاركة فى حملة صليبية مثلا . ومن هنا كان لزاماً على الفصل أن يقدم مشورته لسيده عند طلبها[٢] .

على أنه كان للسيد أن يستشير أفصاله قبل الإقدام على عمل هام ، فإن الفصل كان ملزماً بالحصول على موافقة سيده الإقطاعى قبل أن يزوج إبنته ، لأن هذا الزواج قد يترتب عليه إنتقال جزء من إقطاع والد الزوجة — أو الإقطاع كله — إلى زوجها . مما يجعل موافقة السيد أمراً ضرورياً لازماً[٣] . فإذا مات الفصل وترك إبناً صغيراً لا يستطيع النهوض بمهام الاقطاع والتزاماته ، أو إبنة لم تتزوج بعد ، ففى هذه الحالة يعين السيد الإقطاعى أحد أقارب الفصل المتوفى ليقوم بمهمة الوصاية وينهض بمسئوليات الاقطاع . وقد جرت العادة أن يفضل فى القيام بالوصاية أكبر خال للوريث أو الوريثة نظراً لأنه لا يملك أى حق وراثى فى الإقطاع ، بعكس العم ، الذى ربما حاول التخلص من الورثة لتنتقل إليه حقوقهم فى الإقطاع(٤) . وفى كثير من الأحيان كان يتولى السيد الإقطاعى نفسه الوصاية على الوريث وأرضه . فإذا كان الوريث ذكراً ظلت وصاية السيد

---

(1) Stephenson : Med. Feudalism ; p.p. 30—31.

(2) Painter : Med. Society., p.p. 21—22.

(3) Idem : p. 24.

(4) Painter: A Hist. of the Middle Ages, p. 111.

عليه قائمة حتى يبلغ سن الرشد ، وإذا كانت الوريثة أنثى أصبح واجباً على السيد أن يبحث لها عن زوج مناسب يستطيع أن يفي بكافة الالتزامات المفروضة على الإقطاع[1] . ولاشك في أن السيد الإقطاعي كان يرحب كثيراً بهذه الفرصة الأخيرة ، وذلك لأن كل واحد من السادة الإقطاعيين التف حوله عادة بعض الفرسان الشباب الذين يتوقون للحصول على إقطاعات خاصة بهم ، فلم يكن هناك طريق أمام السيد أيسر من أن يزوج أحد هؤلاء الشبان بإحدى وريثات الإقطاع . وقد أصبح هذا الطريق في الواقع المخرج الوحيد أمام أي فارس بدون إقطاع ليصبح ذا مكانة في المجتمع الإقطاعي[2] .

أما إذا مات الفصل دون أن يترك وريثاً يخلفه ، فإن إقطاعه ينتقل في هذه الحالة إلى سيده الإقطاعي عن طريق الاستيراث (escheat) . وعلى الرغم من أن عملية الاستيراث هذه لم تكن شائعة إلا أنها تكررت كثيراً في العصور الوسطى[3] .

فإذا تركنا الواجبات الحربية والاجتماعية المفروضة على الأفصال تجاه سادتهم الإقطاعيين ، فإننا نجد الأفصال أمام عبء ثقيل من الالتزامات المادية أو المالية[4] . ذلك أنه صار لزاماً على الفصل أن يؤدي لسيده عدة مقررات ، ومكوس إقطاعية ، أصبحت بمثابة حقوق ثابتة للسيد . ومن هذه ضريبة الحلوان (relief) ، وهي أشبه شيء بضريبة الميراث أو التركات في عصرنا الحديث ، وكانت تدفع كلما تولى على الإقطاع وريث جديد من سلالة صاحب الإقطاع المتوفى . ولم تكن هناك قاعدة ثابتة لتحديد قيمة المبلغ الذي يدفعه الفصل في هذه الحالة ، وإن دلت بعض الشواهد على أن هذا المبلغ كان يساوي — في معظم الحالات — دخل الإقطاع عن عام كامل[5] .

وهناك أيضاً ضريبة المعونة (aid) ، وهي في الواقع أموال يقدمها الفصل

---

(1) Ganshof : op cit., p.p. 128—129.
(2) Painter : A Hist. of the Middle Ages., p. 111.
(3) Stephenson : Med. Feudalism, p. 24.
(4) Eyre : op. cit., p. 248.
(5) Thompson : pp. cit., vol. 2, p.p. 702—703.

لسيده فى مناسبات خاصة . ذلك أنه كان مفروضاً أن يحصل السيد الإقطاعى على ما يحتاج إليه من نفقات إضافية أو استثنائية من أفصاله . فإذا كان وريث الإقطاع نفسه عاجزاً عن دفع ضريبة الحلوان لسيده الإقطاعى ، فإنه لن يجد أمامه فى هذه الحالة غير أفصاله ليجمع منهم المبلغ المطلوب . وإذا أسر السيد الإقطاعى فى حرب ،وجب على أفصاله أن يجمعوا الفداء اللازم لإطلاق سراحه. هذا فضلا عن المناسبات السعيدة التى يتكلف السيد الإقطاعى نفقات طائلة فى إحيائها والتى وجب على أفصالة أن يعاونوه فى سد هذه النفقات ، مثل تأهيل كبرى كريماته أو الاحتفال بتدشين أكبر أبنائه فارساً[1]. وكان المتبع فى أول الأمر أن يسهم الأفصال فى هذه النفقات بتقديم الخبز والنبيذ ، ولكن استعيض بعد ذلك بالمال عن هذه المعونة العينية[2] : أما إذا أزمع السيد الإقطاعى القيام بمشروع باهظ النفقات ، مثل الشروع فى حملة صليبية أو بناء حصن جديد ، فإنه لا بد من أن يعتمـــد فى هذه الأحوال على معونة أفصاله . فإذا كان السيد الإقطاعى من رجال الدين — مقدم ديرأو أسقف مثلا — فإنه يجد مبرراً لجمع المعونة من أفصاله فى الاحتفال بتقليد أحد رجال الدين وظيفة جديدة أو فى القيام برحله دينية إلى روما مثلا[3] وهكذا تنوعت المعونة التى يقدمها الأفصال للسيد الإقطاعى ، حتى انقسمت هذه المعونة فى القرن الحادى عشر إلى قسمين أساسيين ، الأول يشمل المعونة التى يفرضها السيد الإقطاعى على أفصاله كحق ثابت له بمقتضى العرف والتقاليد والثانى المعونة التى يطلب السيد من أفصاله أن يجاملوه بها دون أن يكون فيها شىء من الإلزام(٤) .

ولم تقتصر الالتزامات ذات الصبغة الاقتصادية التى فرضها العرف الإقطاعى على الأفصال على الحلوان والمعونة ، وإنما وجدت ضريبة أخرى هى ضريبة « الضيافة » . ولم تكن هذه الضريبة محدودة فى أول الأمر ، إذ كان على الفصل

---

(1) Stephenson : Med. Feudalism., p. 30.
(2) Painter : Med. Society., 23.
( ) Stephenson : Med. History., p.p. 237—238.
(4) Painter : Med. Society., p. 24.

أن يكرم سيده وحاشيته فى أى وقت يختار ذلك السيد أن يزور فصله . ولكن ساد الاتجاه — بمضى الزمن — نحو تحديد هذه الزيارات . فأصبح السيد لا يستطيع زيارة فسله أكثر من عدد معين من المرات فى السنة . على ألا يصطحب معه فى هذه الزيارات إلا عدداً محدداً من الاتباع والخيول . وفى بعض الحالات حدد العرف الإقطاعى ألوان الطعام التى على الفصل أن يقدمها إلى ضيوفه فى تلك المناسبات[1] .

وإذا كان النظام الإقطاعى يعتبر قبل كل شىء تعاقداً بين السيد وأفصاله على أساس من الحقوق والواجبات المتبادلة ، فإن هذه الفكرة تستلزم وجود حقوق للأفصال تجاه سادتهم الإقطاعيين ؛ أو بعبارة أخرى واجبات على هؤلاء السادة تجاه أفصالهم[2] حقيقة إن السيد الإقطاعى خرج من هذا التعاقد بنصيب الأسد نتيجة لأنه الطرف الأقوى صاحب النفوذ والسلطان ، ولكن هذا السيد كان مقيداً بقواعد وشروط خاصة والتزامات معينة يعيها ويدركها جميع الناس بحيث لا يستطيع أن يتهرب منها دون أن يدفع ثمناً غالياً . أما أهم الالتزامات التى ألقاها القانون الإقطاعى على كاهل السيد فكانت قيامه بحماية أفصاله ورعايتهم وتحقيق العدالة لهم[3] . فإذا اعتقد الفصل أن سيده يسىء إليه ، فله أن يطلب عرض قضيته أمام محكمة من أنداده . هذا زيادة على أن الفصل كان يستطيع أن يفسخ العلاقة الإقطاعية ويتحلل من تبعيته إذا ثبت أن السيد الإقطاعى لا ينهض بمسئولياته الأساسية تجاهه[4] . وبعبارة أخرى فإن الأفصال كانوا فى حل من عدم التقيد بالعقد الإقطاعى والتنصل من التزاماتهم تجاه سادتهم ، مادام هؤلاء السادة قد خرقوا بالتزاماتهم وتجاوزوا الحدود التى يفرضها عليهم العرف الإقطاعى . وكانت هذه العملية — عملية سحب الثقة من السيد الإقطاعى (diffidatio) وفسخ العقد العرفى المعقود معه إذا أخل بأصول واجباته — من

---

(1) Stephenson : Med. Feudalism., p. 30
(2) Eyre : op. cit., p. 247.
(3) Ganshof : op. cit., p. 85.
(4) Idem : p.p. 89—90.

المبادىء الأساسية فى التنظيم الإقطاعى ، وبمقتضاه تنصل البارونات الإنجليز من ولائهم وتبعيتهم للمالك حنا (١١٦٧ — ١٢١٦)[1] . أما إذا حدث العكس وأدين الفصل بأنه أخل بواجباته والتزاماته تجاه سيدة الإقطاعى ، فعندئذ كان يحق للسيد أن يحرمه من إقطاعه ويصادره . على أن هذه الحالة كانت قليلة ونادرة لأن الحكم بحرمان فصل من إقطاعه كان لا يصدر إلا من محكمة تتألف من أنداد الفصل المتهم ، الذين يجتمعون فى دوار السيد الإقطاعى أو قلعته للنظر فى القضية ومن الواضح أنه لم يكن من السهل أن يصدر مثل هؤلاء الأفصال مثل هذا الحكم على ند لهم ، إذ يخشى كل منهم أن يرى نفسه فى يوم ما فى موقف زميله وهنا نسجل أن الأفصال كانوا فى كثير من الحالات أرجح كفة من سيدهم الإقطاعى ، فإذا تكتلوا ضده فإنه يقف فى هذه الحالة مكتوف اليدين لأنهم جنوده والمصدر الوحيد للقوة التى يستند إليها . هذا إلى أن عقوبة حرمان الفصل من إقطاعه كانت من العقوبات التى يصعب تنفيذها لأن الفصل كان فى هذه الحالة يستميت فى التمسك بإقطاعه ويحاول إلقاء تبعة الخلاف على سيده الإقطاعى ، حتى يحل الإشكال فى النهاية بقوة السلاح[2] . أما التهمة التى توجه إلى الفصل ولا يرجى له فيها شفاعة أو غفران فهى أن يعتدى على سيده الإقطاعى فيجرحه أو يقتله ، أو يغرى زوجته أو ابنته على المنكر . ذلك أن المفروض فى الفصل أن يحمى سيدة الإقطاعى ويذود عنه وعن عرضه ؛ كما يذود عن نفسه وبيته[3] .

خصائص النظام الإقطاعى وأثره :

من الثابت ان المجتمعات الإقطاعية تباينت فى خصائصها ومميزاتها نتيجة لمدى تركيز الحقوق والواجبات الإقطاعية[4] . لذلك يبدو من الصعب — فى كثير من الأحيان — إصدار أحكام عامة تشمل جميع المجتمعات الإقطاعية ، لاختلاف

---

(1) Eyre : op. cit., p. 250.

(2) Stephenson : Mod. Hist., p. 238.

(3) Painter : A Hist. of the Middle Ages., p. 112.

(4) Eyre : op. cit., p. 246.

عدد الأفصال الذين يتبعون السادة الإقطاعيين من جهة، ولاختلاف مدى اتساع دائرة الحقوق والواجبات الإقطاعية من جهة أخرى. ولكن إذا كان من الصعب التعميم فى الأحكام التى نصدرها على النظام الإقطاعى، إلا أنه من الممكن أن نتبع الخطوط العريضة لذلك النظام عندما وصل إلى مرحلة النضج فى القرن الثانى عشر.

وأول ما نلاحظه على النظام الإقطاعى أنه يعبر عن التطرف فى إعتماد المجتمع على علاقة التبعية الشخصية التى ترتبط بحيازة الأرض. هذا مع ملاحظة أن العلاقات الإقطاعية بين الأفصال وسادتهم إنما هى روابط بين رجال أحرار بعضهم وبعض. فالفصل فى ظل النظام الإقطاعى رجل حر يتمتع بحرية كاملة - مهما كانت درجته فى سلم هذا النظام. وكل ماهنالك هو أنه ارتبط بعقد عرفى مع سيده الإقطاعى بحيث فرض عليه هذا الرباط مجموعة من الواجبات وحقق له فى مقابلها مجموعة أخرى من الحقوق[1].

ولم تلبث أحكام العرف الإقطاعى التى حددت العلاقات الشخصية بين الأفصال وسادتهم أن تبلورت فى شكل قانون ثابت محدد؛ وذلك فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر عندما أصبح النظام الإقطاعى بمثابة المحور الأساسى الذى دارت حول الحياة العامة فى غرب أوربا[2]. وكان أن أخذ يظهر هذا لقانون الإقطاعى تدريجياً فى كتابات كبار فقهاء الإقطاع مثال جلانفيل Glenvill وبراكتون bracton فى انجلترا، وبومانوار beaumanior فى فرنسا، وحنا إبلين فى مملكة بيت المقدس الصليبية، وعندئذ أصبحت القوانين الإقطاعية بمثابة المرجع الأول الذى اعتمد عليه المعاصرون فى حل مشاكلهم السياسية والاجتماعية[3].

وكانت أهم مشكلة فى القانون الإقطاعى حينئذ، هى مشكلة تعدد السادة لإقطاعيين للفصل الواحد. فعلى الرغم من أنه كان مفروضاً فى أوائل العصر

(1) Ganshof : op. cit., p p. XV—XVI.

(2) Cam Med. Hist., vol. 3., p. 458.

(3) Eyre : op. cit., p. 250.

الإقطاعى أن يكون للفصل سيد واحد ، إلا أن هذا الوضع لم يستمر طويلا لأن زواج رجل من إمرأة ورثت إقطاعا يؤدى إلى استحواذه على ذلك الإقطاع ، فيصبح فى هذه الحالة فصلا للسيد الذى تتبعه أرض الزوجة فضلا عن تبعيته الأولى لسيده الاصلى . كذلك إذا دخل ابن فى تبعية سيد إقطاعى آخر غير الذى يتبعه أبوه ، ثم مات الاب وورث الإبن إقطاعه . فإنه يصبح فصلا لسيدين فى وقت واحد[1] . هذا إلى أن كثيراً من السادة الإقطاعيين لجئوا إلى شراء صداقة جيرانهم ومعونتهم عن طريق منحهم إقطاعات ، فيصبح المقطع فى هذه الحالة فصلا لسيد جديد علاوة على سيده الاول . وهكذا صار معظم أصحاب الإقطاعات فى القرن الثانى عشر أفصالا لأكثر من سيد واحد ، حتى أن كونت شامبى كان فصلا لكل من ملك فرنسا ، ودوق برجنديا ، وامبراطور الدولة الرومانية المقدسة ، ورئيس أساقفة ريمس ، زيادة على عدد من كبار الأمراء الإقطاعيين[2] . ولا شك فى أن هذا التعقيد الذى أصاب العلاقات الإقطاعية أدى إلى كثير من الفوضى فى أوربا ، لاسيما عندما يجد أحد الأفصال أن اثنين من سادته الإقطاعيين التحما فى حرب أحدهما ضد الآخر ، مما يتطلب منه تقديم المساعدة إلى الطرفين المتنازعين جميعاً[3] . وللتخلص من هذا الوضع أصبح الفصل الإقطاعى لا يقدم ولاءه الشخصى إلا لسيد واحد يخصه بكل خدماته الشخصية ، فى حين يكتفى بتقديم بقية الالتزامات المادية — غير الشخصية — لبقية سادته الإقطاعيين ، إن وجدوا . وهكذا كان كونت أنجو - مثلا - فصلا لملك فرنسا وكونت بلوا blois ، ولكنه اختص الأول بولائه الشخصى ؛ فإذا اشتبك ملك فرنسا مع كونت بلوا فى حرب فإن كونت أنجو كان عليه أن يساعد ملك فرنسا مساعدة شخصية ، فى حين يكتفى بإرسال معونة مادية لكونت بلوا (٤).

---

(1) Painter : A Hist. of the Middle Ages., p. 113.
(2) Ibid.
(3) Ganshof : op. cit., p. 92—93.
(4) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p.p. 113—114.

كذلك يلاحظ على النظام الإقطاعى فى القرن الثانى عشر أنه أخذ يربط عناصر كل مملكة من ممالك غرب أوربا برباط تعاقدى تحت زعامة الملك باعتباره ممثلا لقمة الهرم الإقطاعى. ذلك أن الملوك — بغض النظر عن الحقوق الكثيرة التى تمتعوا بها — أخذوا يفرضون حقوقهم الإقطاعية تدريجياً على أفصالهم، ويتمسكون بهذه الحقوق، مما زاد من قوتهم ونفوذهم وأدى بالتالى إلى نشأة ما يعرف باسم «الملكيات الإقطاعية»[1].

وثمة ملاحظة أخرى على النظام الإقطاعى فى غرب أوربا، هى أن الكنيسة كان لها أثر واضح فى تطور هذا النظام، لاسيما فيما يتعلق بالإقلال من الحروب والمنازعات بين الأمراء الإقطاعيين، وتوجيه نشاط هؤلاء الأمراء وجهة أخرى تتفق وصالح المجتمع المسيحى. من ذلك ما نادت به الكنيسة من تحريم الحروب فى أوقات معينة أطلق عليها «هدنة الله Treve de Dieu»[2]. ويبدو أن رجال الكنيسة آمنوا عندئذ بأن هدفاً واحداً هو الذى يجب أن يستأثر بجهود أمراء أوربا وفرسانها، ولم يكن هذا الهدف سوى الحرب الصليبية ضد المسلمين فى الأندلس ثم فى بلاد الشام[3].

وأخيراً نلاحظ أن النظام الإقطاعى أدى إلى وجود وحدات إقتصادية تكتفى نفسها بنفسها. فالضيعة الإقطاعية كانت فى حد ذاتها وحدة مكتفية اكتفاء ذاتياً، الأمر الذى عاق تقدم الحياة الاقتصادية فى بلدان غرب أوربا(٤).

وبعد، فإنه من حق النظام الإقطاعى علينا أن نؤكد حقيقة هامة، هى أن هذا النظام لا يعنى بأى حال الفوضى أو التعنت الاستبدادى فى أوربا العصور الوسطى. فالنظام الإقطاعى كان قبل كل شىء نظاما تعاقديا قام على أساس ثابت من الحقوق والواجبات المتبادلة بين السيد وأفصاله. وإذا كان كثير من الكتاب قد فسروا النظام الإقطاعى على أنه اصلاح مرادف للانحلال السياسى ومناقض

---

(1) Eyre : op. cit,, p. 250.

(2) Fliche : L'Europe Occidentale, p.p. 184—189.

(3) Painter : Med. Society., p.p. 34 – 35.

(4) Eyre : op. cit. p., 251.

السلطة المركزية ، فإن هذا الحكم جائر وبعيد عن الحقيقة والتاريخ . حقيقة إن العصر الإقطاعي جاء مصحوبا بانحلال الامبراطورية الكارولنجية وما تفرع عنها من أقسام وممالك كبرى ، ولكن هذا الانحلال لم يكن مصدره النظام الإقطاعي نفسه . وليس ذنب النظام الإقطاعي أن الملك الفرنسي كان ضعيفاً بدرجة لم تمكنه من بسط نفوذه والتمسك بحقوقه حتى فى أراضيه الخاصة (الدومين)[1] . وربما كان أقرب إلى الحقيقة أن نقرر أن النظام الإقطاعي نشأ كحل أو كإجراء لمواجهة الفوضى والأخطار التي واجهت أوربا منذ القرن التاسع ؛ وبعبارة أخرى فإن هذا النظام كان الوسيلة الفعالة التي توصلت بها أوربا لإيجاد نوع من الحكم يفي بحاجات البلاد الحربية والإدارية والقضائية وسط الأخطار الجسيمة التي ألمت بالمجتمع الأوربي منذ القرن التاسع[2] وهنا نستطيع أن نقرر أن هذا النظام نجح فعلا فى مقاومة هذه الأخطار بقدر الإمكان وفى تهيئة الوسائل السلمية لحل المنازعات والخصومات . ذلك أن النظام الإقطاعي ـ كما سبق أن رأينا ـ كان له جانبه القضائي إلى جانب جوانبه الحربية والإقتصادية فقامت بتنفيذ القانون الإقطاعي محاكم الملوك ومحاكم السادة الإقطاعيين ، ونجحت هذه المحاكم فى إقرار العدالة بصورة واضحة وفى حل المشاكل الناشئة بين السيد وأفصاله أو بين الأفصال بعضهم وبعض[3] . أما المنازعات التي نشبت بين أفصال متعددين لأكثر من سيد واحد، فلم يكن هناك سبيل لحلها إلا المفاوضة أو الحرب . وهناك طريق آخر كثر الالتجاء إليه كوسيلة لحل الخلافات القائمة بين اثنين من أفصال السيد الواحد ، هو طريق المبارزة أو التقاتل دون تدخل من جانب السيد الإقطاعي ، إلا إذا تعرض أحدهما لخطر يخشى منه عدم تمكنه من النهوض بواجباته الإقطاعية .

أما القاعدة التي قام عليها بناء الهرم الإقطاعي فكانت طبقة الفلاحين التي

---

(1) Stephenson : Med. Hist. p. 252.
(2) Thompson : op. cit. vol. 2. d. 699.
(3) Eyre : op. p. 249.

ظلت تشق لتقدم ثمرة جهودها وكدها للاقطاعيين[1] . وعلى الرغم من أن الفلاح المزارع كان أقل تأثراً بتطور النظم الإقطاعية من الفارس المحارب ، إلا أن حياته هو الآخر تأثرت إلى حد كبير بنظام الضيعة (Manor) وهو النظام الذى تأثر بدوره تأثرا واضحاً بالأوضاع الإقطاعية[2] . وربما بدا ذلك فى وضوح بدراسة أحوال المجتمع الأوربى فى ظل النظام الإقطاعى .

---

(1) Stephenson : Med.. Hist p. 239.
(2) Eyre : op. cit. p. 251.

الباب الثالث

المجتمع الاوربى

فى ظل النظام الإقطاعى

انقسم المجتمع الأوربى فى العصور الوسطى إلى ثلاث طبقات : طبقة رجال الدين ، وطبقة المحاربين من النبلاء والفرسان ، وطبقة الفلاحين . أما الطبقتان الأولتان فكانتا تمثلان الهيئة الحاكمة من وجهة النظر السياسية ، والأرستقراطية السائدة من وجهة النظر الاجتماعية ، والفئة الثرية من وجهة النظر الاقتصادية ؛ فى حين كانت طبقة الفلاحين تمثل جموع الكادحين المغلوبين على أمرهم المحرومين من النفوذ والثروة وكان لكل طبقة من هذه الطبقات مكانتها ووظيفتها المعروفة فى المجتمع ، فرجال الدين كان عليهم أن يتعبدوا لله ويشبعوا حاجة الناس الروحية ، والنبلاء كان عليهم أن يحكموا ويحاربوا ، والفلاحون كان عليهم أن يعملوا ليسدوا الحاجات المادية للطبقتين السابقتين[1] . وقد سبق أن تعرضنا للوضع الاجتماعى لرجال الدين ، وبقى أن نتكلم عن النبلاء والفلاحين .

المجتمع الحربى والفروسية

يلمس الدارس لأحوال أوربا فى العصور الوسطى فجوة واسعة بين طبقتى الفرسان المحاربين والفلاحين المزارعين . ذلك أنه كان من الصعب النادر أن يستطيع رجل وضيع المولد أن يصبح صاحب إقطاع ولو كان حراً . وكان يحدث فى بعض الأحيان أن يحصل مزارع على ثروة كبيرة ولكنه يظل مع ذلك وضيعاً

---

(1) Thompson : op. cit. vol. 2, p. 721.

فى نظر الخاصة بحكم أصله ، ولا سيما أن الفواصل الاجتماعيـة وشرف المولد لم تمكن وحدها العقبات القائمة فى وجه العامة ، وإنما وجدت عقبة أخرى تمثلت فى التدريب الذى كان لا يستطيع الفلاحون أن يمروا به . فالمفروض فى أبناء النبلاء - إن لم ينخرطوا فى سلك الحياة الدينية - أن يتدربوا تدريباً عسكرياً منذ حداثتهم فيتعلمون ركوب الخيل واستخدام السلاح، حتى إذا ماشب الواحد منهم انخرط فى سلك بلاط أحد الأمراء الإقطاعيين كتابع صغير (Valet) أو سيد صغير (damoiseau) ليتعلم آداب السلوك فى المجتمع[1] . وفى بداية مرحلة الشباب يمكن أن يرتقى الفتى إلى مرتبة مساعد فارس ، وعندئذ يسمح له بالاشتراك فى المعارك مع الفرسان الذين يكبرونه سناً ليتعلم منهم فن الحرب . فإذا أثبت كفايته وصلاحيته ، احتفل فى سن العشرين أو الواحد والعشرين بتدشينه فارساً ؛ فيتم ذلك فى حفل كبير أصبح منذ النصف الأخير من القرن الحادى عشر بمثابة « تعميد » آخر للفارس يكتسب به مكانته فى المجتمع الإقطاعى[2] .

وكانت الفروسية تعبر عن مستوى معين من الأخلاق والسلوك يجب أن يتحلى بهما أفراد هذه الطبقة من المحاربين فى علاقتهم بعضهم مع بعض . فالفارس ينبغى أن يكون شجاعا إلى درجة المجازفة والتهور ، ويقاتل وفقا لقواعد خاصة دون أن يلجأ إلى الخديعة والأساليب الخسيسة للتغلب على خصمه . هذا بالاضافة إلى ما يجب أن يتحلى به الفارس من وفاء لأصدقائه وتبجيل للمرأة واحترام للعهد ، وإذا انتصر على خصمه عامله معاملة كريمة[3] . على أنه يلاحظ أن هذا السلوك اقتصر على معاملة الفرسان والنبلاء بعضهم لبعض ، وبعبارة أخرى فإنهم لم يشعروا بضرورة اتباع هذا الأسلوب المهذب نفسه تجاه غيرهم من أبناء الطبقات الدنيا[4] .

---

(1) Stephenson : Med. Feudalism, p.p. 45—46 & Cam. Hist. vol. 6, p. 802.

(2) Fliche : L'Europe Occidentale, p. 625

(3) Stephenson : Med Feudalism, p. 45.

(4) Stephenson : Med. Hirt. p.p. 239—240.

ويمكن أن نخرج من شعر الملاحم Epic Poetry وأغانى المآثر Chansons de geste بصورة واضحة عن حياة النبلاء الإقطاعيين وأحوالهم في العصور الوسطى . ومن أمثلة هذه الأشعار أغنية رولان التى كتبها قسيس نورمانى من وحى الحروب التى دارت بين المسلمين والمسيحيين فى أسبانيا فى أواخر القرن الحادى عشر[١] . وتدور قصة هذه الأغنية حول شخص رولان ـ كونت ماركيه بريتون ـ الذى خر صريعاً فى ممرات البرانس عند عودة شارلمان من حملته الأسبانية ، وما صحب هذه العودة من تعرض مؤخرة جيشه لهجمات جماعة الباسك ؛ وإن كانت الملحمة تصور المسلمين فى صورة الخصم لتبرز رولان فى هيئة البطل الصليبى المدافع عن المسيحية وكيانها[٢] . وترجع أهمية هذه الأنشودة التى ذاع صيتها من أيرلند حتى بيت المقدس إلى أنها تمدنا بكثير من المعرفة عن المثل الإقطاعية فى العصور الوسطى . ذلك أن الفكرة الأساسية التى سيطرت على أغنية رولان هى فكرة التبعية الإقطاعية ، وارتباط الفصل بسيده وإخلاصه له ، فيبدو رولان مخلصا لسيده شارلمان يحارب من أجله فى الوقت الذى يحارب أيضا من أجل نفسه ومن أجل الحصول على الشهرة والمغانم . وفى خلال حوادث القصة يبدو رولان قاسيا على خصومه ، شديد الرفق بأصدقائه[٣] .

على أن هناك مصدراً آخر هاماً يمدنا بقسط وافر من المعلومات عن الحياة الاجتماعية للطبقة الحربية فى مجتمع أوربا الإقطاعى . ونقصد بهذا المصدر مطرز بايو Bayeux المحفوظ فى متحف بايو حتى اليوم ، والذى صنع من أجل تحلية كتدرائية المدينة . ويبلغ عرض هذا المطرز عشرين بوصة وطوله أكثر من مائتين وثلاثين قدماً ، وهو على رسوم ملونة تصف الغزو النورمانى لإنجلترا فى القرن الحادى عشر . وترجع أهمية هذه الرسوم إلى أنها تعطينا صورة واقعية

(1) Pirenne ; Cohen, Focillon, La Civilisation Occidentale., p. 212.

(2) Painter : Med. Society., p. 41.

(3) Stephenson : Med. Feudalism., p.p. 50—51.

عن الحياة الاجتماعية فى القرن الحادى عشر، سواء فى الملابس أو النشاط الحربى أو العادات المنزلية[1].

أما عن الملبس فكان النبلاء والفرسان يرتدون عادة القميص والجوارب الطويلة ؛ الأولى عبارة عن صدار يربطه حزام من الوسط ، والثانية أشبه شىء بسراويل مشدودة على الساقين والفخذين بإحكام . وأحيانا فى حالات البرد أو الاحتفالات يرتدى الرجل معطفاً يربط من أعلاه حول الرقبة أو حول الكتف الأيمن حتى لا يعوق مقبض السيف . وكان الرجال يقصرون شعور رءوسهم ويحلقون ذقونهم أما المرأة فكانت ترتدى ثوبا بسيطا يمتد من أعلى الرقبة حتى الأرض ، وتربط شعرها بعصابة بعد تصفيفه . وكثيرا ما كان الرجال والنساء يلبسون عباءة فى الشتاء يطوى طرفها الأعلى فوق الرأس للوقاية من شدة البرد . ومن هذا يبدو أن ملابس طبقة المحاربين — حتى الأغنياء منهم — كانت بسيطة[2] .

أما رداء الحرب ، فكان أيضاً بعيداً عن التعقيد والتأنق ، فالفارس يكسو الجزء الأسفل من ساقيه بأربطة من القماش أو الجلد تمتد من الركبة إلى أسفل الساق لتقوم مقام الجرموق (الألشين أو التوزلك) فى الأزمنة الحديثة[3] . أما الجزء الأعلى من جسم الفارس فكانت تكسوه صدرة مزردة (Hauberk) تتألف من حلقات متداخلة من المعدن[4] . ويراعى فى هذه الصدرة أن تكون مشقوقة طوليا من أسفلها حتى لا تعوق الفارس عن امتطاء فرسه . وأخيراً كان يلبس الفارس على رأسه خوذة حديدية مخروطية الشكل يمتد مقدمها إلى أسفل ليحمى أنف الفارس . هذا كله عدا الدرع الذى يحمله الفارس فى ذراعه الأيسر ، وهو مستطيل الشكل ويبلغ طوله أربعة أقدام تقريباً .

---

(1) Stephenson : Med. Hist., p. 263.
(2) Stephenson : Ned. Feudalism, pp. 61—62.
(3) Thompson : op. cit., vol. 2, p. 714.
(4) Cam. Med. Hist. vol. 6. p. 808.

ومن الواضح أن الرداء السابق دفاعى ، الغرض منه حماية الفارس وصيانة جسده ، ولذلك كان لابد من أن يستكمل المحارب جهازه بعدة أسلحة هجومية يستخدمها فى مقاتلة خصومه . أما هذه الأسلحة فكان أهمها سيف صليبى المقبض مربوط بحزام على الجانب الأيسر ، ثم حربة يمسكها الفارس بيده اليمنى طولها ثمانية أقدام ، هذا عدا البلطة التى كثيراً ما استخدمها الفرسان ولاسيما فى انجلترا وفرانسا[1] . ولم يكن من الضرورى أن يتقيد الفارس بلبس الرداء السابق فى حله وترحاله بسبب ثقله ، ولذلك جرى العرف على أنه لايجوز مهاجمة فارس إلا بعد إعطائه فرصة ليرتدى رداءه الحربى[2] .

أما الفرس الذى يمتطيه الفارس فكان مطهماً مزوداً بالسرج والركاب واللجام . ولعله من الواضح أن الفرس كان يمثل الجهاز الأساسى للفارس وبدونه لايعتبر الفرد فارساً[3] ؛ كما أن المجتمع الإقطاعى ظل ينظر شذراً إلى المحارب الذى يقاتل راجلا[4] .

ولعل هذه الحقائق السابقة تساعدنا على فهم طبيعة الحروب الإقطاعية ، فالخدمة العسكرية كانت تتطلب من فارس العصور الوسطى نفقات باهظة ، إذ ينبغى أن يكون لديه طاقم كامل من الملابس الحربية الثقيلة ، وفرس مطهم ، وتابع أو مساعد يمطيه ، وعدد من الخدم ، فضلا عن قدر كاف من الطعام يكفى هذه المجموعة وحيواناتها طيلة مدة القتال . وهكذا هيأ هذا النظام للحاكم أو للسيد الإقطاعى جيشاً قوياً بأقل قدر من النفقات . أما روح النظام فكانت ضعيفة فى الحروب الإقطاعية ، إذ اعتقد كل فارس أنه زميل وحليف للقائد أكثر منه مرءوساً له[5] . هذا إلى أن الحرب من أجل السيد الإقطاعى كانت لاتمتع الفارس من الحرب من أجل نفسه . والواقع أن الحرب الإقطاعية كانت عبارة عن مناوشات بين فريقين ومحاولة لتدمير أراضى العدو ، أكثر منها حرباً منظمة

---

(1) Stephenson : Med. Feudalism, p.p 63—64.
(2) Painter : Med. Society, 32.
(3) Stephenson : Med. Feudalism, p. 41.
(4) Idem : p. 43.
(5) Stephenson : Med. Hist., p. 241.

بالمعنى الذى نعرفه . وقد دار الجزء الأكبر من هذه الحروب الإقطاعية فى الحصون أو حولها[١] .

ومن الواضح أن حياة السلم كانت تعنى البطالة بالنسبة لمحاربين محترفين لا عمل لهم إلا الحرب . لذلك ابتكر فرسان العصور الوسطى تقليد المبارزة لمقاومة الملل الذى قد يعتريهم فى حالة عدم وجود حرب حقيقية . وكانت هذه المبارزات تتم بطريقة تمثيلية استعراضية تستهدف إظهار أكبر قسط من المهارة بأقل قدر من الإصابات والدماء . ففى اليوم والوقت المحددين يلتقى فريقان من الفرسان ينتمون عادة إلى بيتين أو إقليمين متنافسين[٢] . وبعد ذلك تبدأ المبارزة بين الفريقين وفقاً لقواعد معلومة ثابتة ، حتى ينتهى الموقف بإعلان فوز أحدهما على الآخر . ويحصل الفارس الفائز فى هذه الحالة على نصر معنوى ومادى كبير لأنه علاوة على ما يصيبه من صيت ذائع وشرف عريض ، يستولى أيضاً على فرس خصمه وأسلحته أو على مبلغ من المال مقابل هذه الأشياء[٣] .

أما الحصون الإقطاعية فكانت فى أول الأمر بمثابة المعاقل التى يلوذ بها أهل المنطقة فراراً من هجمات الأعداء وبخاصة الفيكنج . ولكن هذه الحصون تطورت مع تطور النظم الإقطاعية حتى غدا الحصن الإقطاعى مقر السيد وحاميته ، كما أصبحت الحصون تشيد منذ نهاية القرن العاشر من الكتل الحجرية الضخمة لتستطيع الثبات فى وجه المهاجمين . وهكذا صارت الحصون الإقطاعية مسرحاً لجزء كبير من النشاط الاجتماعى لطبقة الفرسان فى العصور الوسطى ، إذ لم يعد الحصن معقلا فحسب بل أضحى المقر الطبيعى لإقامة الأمير الإقطاعى وأتباعه[٤] .

وكان الطابق الأسفل من الحصن أو القلعة الإقطاعية يحوى الآبار ومخازن الطعام والأسلحة والعدد الحربية الثقيلة اللازمة لمقاومة حصار طويل : والطابق الأعلى من القلعة مخصص لقذف السهام وغيرها على العدو المهاجم : فى حين

(1) Idem., p. 242.
(2) Painter : Med. Society. p. 28.
(3) Stephenson : Med. Ferdalism, p. 74.
(4) Evans : La Civilisation en Frence, p. 48.

استخدم الطابق الأوسط لإقامة السيد الإقطاعي وأسرته . وفي هذا الطابق الأوسط وجدت قاعة فسيحة وكنيسة صغيرة وعدد من الغرف المنفصلة[1] . أما الطعام فكان يطهى في مطابخ خارجية ثم يحمله الخدم مطهياً إلى الداخل . وهنا نشير إلى أن الأمير الإقطاعي كان يقضي وقت السلم عادة في التنقل بين ضياعه الواسعة المجهز كل منها بدوار (manor-house) مشيد من جذوع الأشجار أو الحجارة . وعلى الرغم من أن كل دوار كان مزوداً عادة بما يكفي من أثاث وحاجات أساسية ، إلا أن الأمير كان يجلب معه عند حضوره إلى إحدى ضياعه ، كثيراً من اللوازم الإضافية . هذا إلى أن كثيراً من السادة الإقطاعيين كانوا لا يمتلكون حصوناً ، ومن ثم اتخذوا الدوار مقراً دائماً لهم[2] .

ومهما يكن الأمر ، فإن مركز الحياة المنزلية عند النبلاء الإقطاعيين كان القاعة الكبيرة التي توجد في الحصن أو الدوار[3] . ومن الواضح أن هذه القاعة كانت جميلة ومريحة بالقدر الذي يتفق ومستويات العصور الوسطى ، ففيها شموع للاضاءة ومواقد مكشوفة للتدفئة ، وعلى حيطانها علقت بعض الأسلحة والأعلام ونحوها ، في حين فرشت أرضها بالحصر . وفي هذه القاعة كان يجلس السيد الإقطاعي ليتقبل فروض التبعية والخضوع من أتباعه ، أو ليعقد معهم مجلساً قضائياً أو غير قضائي[4] . أما سهراته فكان يقضيها في لعب الشطرنج والاستماع للرواة والقصاصين الذين يقومون بسرد بعض المنظومات القصصية القديمة أو التمثيليات الدينية[5] . وفي نهاية الليل يأوي السيد وأسرته إلى غرفهم المخصصة للنوم ، وعندئذ يحضر الخدم والحاشية وسائدهم المصنوعة من القش ليناموا في هذه القاعة حتى الصباح .

أما الطعام والشراب فكانا بعيدين عن الاعتدال . ومن المعروف أن الشراب المفضل في جنوب أوربا — حيث تكثر مزارع الكروم — هو النبيذ ،

---

(1) Stephenson : Med. Feudalism., p. 70.

(2) Fliche : L'Europe Occidentale, p. 57.

(3) Painter : Med. Society, p. 30.

(4) Evans : La Civilisation en France Au Moyen Age, p. 48.

(٥) محمد مصطفى زيادة . الإقطاع والعصور الوسطى بغرب أوربا ص ٣٢ — ٣٣

فى حين تسود الجعة فى الجهات الشمالية . وقد تألف طعام السيد الإقطاعى من لحوم الصيد - الغزال أو الخنزير البرى — مشوية ، وبجانبها لحوم الحيوانات المألوفة كالضأن ولحم البقر ، هذا عدا الطيور والفطائر والخضر والفاكهة[1] .
أما فى أيام الصيام — حيث المفروض أن تحتجب اللحوم عن مائدة الطعام - فكانت الصحون تكتظ بالأسماك والبيض . ومن الطبيعى أن يكون الخبز والجبن من الأصناف المألوفة ، وعلى العكس كانت الحلوى نادرة لأن أوربا لم تعرف قصب السكر حينئذ ، فاعتمدت فى تحلية الطعام على عسل النحل وحده . أما التوابل المستوردة من الشرق - كالفلفل - فكانت لا تتوافر إلا فى طعام كبار الأمراء[2] . والمرجح أن أمراء أوربا وفرسانها لم يعرفوا الكثير من آداب تناول الطعام فى تلك العصور .

وفيما عدا المبارزة ، اعتاد الأمراء أن يقتلوا الوقت فى أيام السلم بالتلهى بالصيد وغيره من وسائل التسلية . لذلك احتفظ الأمراء بعدد من طيور وحيوانات الصيد كما اعتادوا أن يصحبوا معهم نساءهم عند خروجهم للصيد .

أما إذا تطلبت الظروف أن يبقى السيد الإقطاعى داخل منزله أو قلعته فإنه فى هذه الحالة كان يقضى شطراً كبيراً من وقته فى معاقرة الخمر والمقامرة ولعب الشطرنج الذى عرفته أوربا عن طريق الحروب الصليبية . ومن الطبيعى ألا يكون لأفراد المجتمع الحربى من الإقطاعيين ولع بالقراءة والإطلاع ، بل إن أكثرهم جهلوا القراءة والكتابة واحتفظوا ببعض الكتبة الذين لايعرفون أكثر من المبادىء الأساسية لضبط حسابات المزارع والضياع الخاصة بالأمير[3] .

المجتمع الزراعى ونظام الضيعة :

ذكرنا أن المجتمع الإقطاعى قام حول ثلاث شخصيات هامة : رجل الدين

---

(1) Painter : Med. Society p. 30.
(2) Stephenson : Med. His. p. 267—368.
(3) Stephenson : Med. Hist., p.p. 269 – 270

المتعبد والفارس المحارب والفلاح المزارع . وعلى الرغم من أن الفلاح كان أقل تأثراً بتطور النظم الإقطاعية من الفارس ، إلا أن حياته تكيفت إلى حد كبير بتلك النظم وتطورها[1] .

وإذا كان النظام الإقطاعي هو الذي حدد وضع طبقة المحاربين ونظم حياتهم العامة ، فإن هناك نظام آخر هو النظام السنيورى أو نظام السيادة System Seignorial حدد الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية للفلاحين والعمال ، مع ملاحظة الرباط الوثيق الذى يربط النظامين ويصل بينهما ، وهو رباط الأرض[2] فالنظام السنيورى الخاص بالفلاحين وتنظيم العلاقة بينهم وبين الملاك الإقطاعيين لا يدخل فى صلب التنظيمات الإقطاعية وإنما يأتى على هامشها . ذلك أن النظام الإقطاعى قام على أساس العلاقة بين حر وحر وتبعية سيد لسيد آخر أقوى منه ، وذلك فى ظل إطار محكم من الحقوق والواجبات المتبادلة . أما النظام السنيورى ، فعلى العكس يمثل علاقة سيد حر يمتلك الأرض بمزارعين مستعبدين مرتبطين بالأرض[3] . فالعلاقة هنا بين سيد حر وقن خاضع مقيد بالأرض غير حر ، لا بين تابع حر ومتبوع حر[4] . أما لماذا ارتبط القن بالأرض ، فإنما كان من أجل القيام بخدمات معينة ودفع ضرائب معلومة للسيد الإقطاعى المالك . فإذا عجز القن عن الوفاء بهذه الخدمات والأموال — مهما كانت شاقة وباهظة — فإنه فى هذه الحالة يكون عرضة لأن يلفظه المجتمع الذى يعيش فيه عن طريق البيع أو الاستبدال أو الطرد . وكانت العقوبة الأخيرة أشدها جميعاً وأقساها لأن معنى طرد القن أنه سيصبح دون سيد يحميه مما يعرضه لأخطار بالغة فى عصر عرف بالفوضى وعدم الاستقرار[5] .

والواقع أن الفلاحين كانوا يمثلون أكثر عناصر السكان وأحطها قدراً فى

---

1) Eyre : op. cit., p. 251.
2) Painter : Med. Society, p. 43.
3) Pirenne, Cohen, Focillon : La Civilisation Occidentale au Moyen Age, p. 16.
4) Thompson op. cit. vol. 2, 722.
5) Idem, vol. 2, p, 726.

أوربا العصور الوسطى . ومع أن أفراد هذه الطبقة تشابهوا إلى حد كبير فى ظروفهم وأحوالهم إلا أنهم تفاوتوا إلى درجة ما فى أصولهم وفى مدى الحرية التى تمتعوا بها[١] . وتكونت طبقة الفلاحين فى أساسها من العبيد Slaves والأقنان Serfs الذين تقاربت ظروفهم جميعاً فاختلطوا وتداخلوا عن طريق ذوبان العبيد وانصهارهم وسط محيط الأقنان[٢] . ثم كانت فترة الظلام الذى سادت أوربا فى القرن التاسع نتيجة للحرب الأهلية من جهة والإغارات الخارجية العنيفة التى تعرض لها الغرب من جهة أخرى ؛ مما جعل الضعيف يبحث عن حماية القوى حتى ولو كلفه ذلك أن يضحى بحريته الشخصية فى سبيل سلامته ، وهذا ساعد على ظهور طبقة جديدة من الأقنان يرجع أفرادها إلى أصل حر . ولكن الظروف التى أحاطت بهم أجبرتهم على قبول ذلك الوضع الجديد . وقد سرد أحد كتاب العصور الوسطى الطرق المختلفة التى أصبح بها الحر عبداً فقال إن أولها استعباد الفرد عقاباً له لعدم تلبيته داعى الحرب ، وثانيها أن يهب الفرد نفسه للكنيسة أو للدير ليصبح عبداً مرتبطاً بهذه الهيئة الدينية . وثالثها البيع ، إذ تدفع الحاجة فرداً إلى أن يبيع نفسه لسيد غنى مقابل مبلغ من المال ، ورابعها أن يضطر الضعيف إلى التنازل عن حريته لسيد قوى يحميه من الأخطار التى تهدده[٣] . ومهما يكن الأمر ، فإن هذه الفئة الجديدة من الأقنان لم تلبث أن اختلطت بفئة العبيد القديمة لتنشأ منهما جميعاً طبقة واحدة من أهل الفلاحة لها وضع اجتماعى ثابت فى الحياة الأوربية[٤] .

وإذا كان النظام الإقطاعى لم يتحدد شكله ويتم تكوينه فى الغرب إلا فى القرنين التاسع والعاشر ، فإن الفضل يرجع أيضاً إلى هذين القرنين فى تحديد نظام الضيعة Manorial Regime أو النظام السنيورى . فنى القرنين التاسع والعاشر

---

1) Cam. Med. Hist. vol. 7, p. 719.
2) Heaten : Economic Hist. of Europe, p. 71.
3) Coulton. The Med. Scene, p. 26.
4) Cam. Med. Hist., vol. 7, p.p. 719—702

ازدادت أعداد من فقدوا حريتهم حتى دخلت قرى حرة بأكملها فى دائرة العبودية وأخذت ملكيات صغار المزارعين تتكتل فى أيدى كبار الإقطاعيين[١] . حقيقة إن النظام الضيعى نفسه قديم ، ترجع جذوره إلى أصول رومانية وجرمانية بل ربما كلتية أيضاً . ولكن الجديد هو أن أوربا العصور الوسطى اتخذت هذا النظام أساساً للحياة الاقتصادية فى الوقت الذى تلاشت أهمية المدن وضعفت التجارة . فإذا كان الرومان قد عرفوا نظام الضياع ، فإنهم عرفوه على أساس اعتماد هذه الضياع على التبادل التجارى مع المدن الزاهرة التى اشتهرت بها الحضارة الرومانية ، فتصدر الضياع إلى المدن إنتاجها الزراعى وتستورد منها إنتاجها الصناعى . أما فى أوربا العصور الوسطى ، فقد أصبحت الضيعة وحدة اقتصادية قائمة بذاتها لا تربطها روابط تجارية بغيرها ، وعلى أهلها أن يعتمدوا على سواعدهم فى كل ما يحتاجون إليه[٢] .

على أنه يجدر بنا أولا أن نتساءل عن ماهية الضيعة (Manor) التى نقصدها فى هذا البحث . هنا نستطيع القول بأن الضيعة كانت وحدة نظام الملكية الزراعية فى تلك العصور ، بالضبط كما كان الإقطاع وحدة النظام الإقطاعى ، بمعنى أن الإقطاع كان يمكن أن يتألف من عدة ضياع . وكانت الضيعة أشبه شىء بمملكة أو عالم صغير ، يحكمها سيد يتمتع بسلطة شبه مطلقة ، ويمتلك جميع مقومات الاكتفاء الذاتى ، بحيث يشبع إنتاج الضيعة السيد والمسودين جميعاً[٣] . فالضيعة فى أوربا الوسطى كانت تكفى نفسها بنفسها إلى حد كبير ، وتنتج جميع المواد الغذائية وغير الغذائية اللازمة لاستهلاك أهلها ، ما عدا بعض الكماليات كالتوابل التى يمكن لصاحب الضيعة أن يستوردها إذا أراد أن يستخدمها[٤] . أما الصوف فكانت النساء تقمن بصباغته وغزله فى فصل الشتاء فى حين قام الرجال بدبغ الجلود وصناعة النعال والسروج . وفيما عدا ذلك كان لكل ضيعة حدادها

---

1) Thompson : op. cit., vol. 2, p. 722.

2) Pirenne, Cohen, Focillon. op. cit, p.p. 12—13
Pirenne : Economic and Social Hist., p.p. 8—9.

3) Boissonnade. op. cit., p. 85.

4) Eyre : op. cit., p. 252.

ونجارها[١] . وبعبارة أخرى فإنه إذا كانت غالبية أقنان الضيعة قد اشتغلوا بفلاحة الأرض ، فإن هناك جزءاً من هؤلاء الأقنان اشتغلوا لسد حاجة الضيعة من مختلف المصنوعات اليدوية[٢] .

وهكذا ظلت الضيعة فى أوربا العصور الوسطى تتبع نظام الاكتفاء الذاتى من الناحية الاقتصادية ، بمعنى أنها ظلت - حتى القرن الثانى عشر على الأقل — فى غير حاجة ملحة إلى شىء من التبادل التجارى مع العالم الخارجى ، الأمر الذى ترتيب عليه عدم وجود أسواق كبرى للمنتجات القروية فى ذلك العصر[٣] . هذا مع ملاحظة أن الضيعة لم تكن وحدة اقتصادية فحسب ، بل كانت أيضاً وحدة اجتماعية ودينية ، فاشترك أهلها فى إحياء حفلاتهم وتزاوجوا - عادة - بعضهم من بعض ؛ كما كان لكل ضيعة كنيستها وقسيسها[٤] . وخلاصة القول أن الضيعة كانت الطريق الذى توصلت به الغالبية العظمى من أهالى غرب أوربا فى القرن الثانى عشر للحصول على لقمة العيش[٥] ، كما أن سياسة الاكتفاء الذاتى التى اتبعتها الضيعة تطلبت من أهلها أن ينصرف بعضهم إلى توفير مطالب الغذاء والكساء والمأوى ، فى حين انصرف البعض الآخر للنواحى الدفاعية والإدارية والروحية[٦] .

ولم يكن نظام الضيعة بسيطاً بالدرجة التى قد يتصورها البعض ، بل بلغ هذا النظام درجة من التعقيد يجعلنا نكتفى باستعراض معالمه الرئيسية . وهنا نلاحظ أنه إذا كانت الضيعة قد تألفت فى العادة من قرية وأراضيها ، إلا أننا نجد زمام القرية الواحدة — فى بعض الحالات — مقسما بين عدد من السادة الملاك ، وكل منهم يطلق على الجزء الخاص به اسم « ضيعة » ، كما نجد فى حالات أخرى تجمع بعض القرى المتقاربة لينشأ من تجمعها ضيعة واحدة . ولعل هذه الاستثناءات هى التى دفعت بعض الكتاب المحدثين إلى تفضيل اسم « القرية » للدلالة على

1) Coulton The Med. Scene., p.p. 32—33,
2) Boissonnade, op. cit. p. 179.
3) Painter : Med. Society ; p.p. 46—46.
4) Pirenne, Cohen, Focillon : op. cit., p. 59.
5) Eyre : op. cit., p. 252.
6) Cam. Med. Hist., vol. 3 ; p. 473.

الوحدة الاقتصادية والاجتماعية فى المجتمع الريفى فى أوربا العصور الوسطى ، بدلا من اسم « الضيعة »[1] . أما كولتون فيقول بأن القرية كانت الوحدة الإدارية والكنيسة فى حين كانت الضيعة الوحدة الاقتصادية . حقيقة إن الضيعة والقرية كثيراً مايستخدمان فى معنيين مترادفين ، ولكننا نجد فى حالات أخرى عديدة أن القرية ضمت داخل زمامها ضيعتين أو أكثر[2] .

وكانت هذه الضياع مملوكة بالواحدة أو بالجلة ، فامتلك الدير الفلانى عشرين ضيعة ، وامتلكت الأسقفية الفلانية أربعين ضيعة ، وامتلك الأمير الفلانى خمس ضيعات . وربما بعدت هذه الضياع — المملوكة لفرد واحد أو هيئة واحدة — بعضها عن بعض خمسين أو مائة ميل : مما يدل على أن نظام الضياع قام من الوجهة الاقتصادية على أساس مجتمعات قروية مبعثرة ترتبط بمالك معين ، وقد يبعد عنها فى كثير من الأحيان[3] . ومن الواضح أنه إذا كان المالك يمتلك ضيعة واحدة ، فإنه كان فى هذه الحالة يعيش فى دواره القائم بهذه الضيعة معتمدا على ما تدره ضيعته من إيراد وخيرات . أما إذا امتلك أكثر من ضيعة ، فإنه كان يختار إحداها لإقامته ، ويعين مشرفين أو وكلاء ينوبون عنه فى بقية الضياع . وفى معظم الحالات كان المشرف (bailiff) الذى ينوب عن صاحب الضيعة فى إدارتها يقيم فى دورها الرئيسى (maner-house) [4] .

وكان هذا الدوار يمثل قسطا وافراً من الثراء والترف بالنسبة لمستويات ذلك العصر . وجرت العادة أن تحيط به حديقة مسورة بها أشجار الفاكهة وخلايا النحل والمخازن التى يخزن فيها إنتاج الضيعة ، فضلا عن الآلات والعربات والعدد المستخدمة فى فلاحة أراضيها[5] . وعلى مقربة من الدوار قامت كنيسة محلية ملحق بها منزل قسيسها . وفى كثير من الأحيان كان الدوار والكنيسة هما المبنيان الوحيدان من الطوب فى الضيعة . أما الحقل الخاص بالقسيس فيكون

---

1) Painter : Med. Society ; p. 54.
2) Coulton : The Med. Scene, p. 24.
3) Gras : The Legacy of the Middle Ages, p. 435.
4) Cam. Med. Hist., vol. 7, p. 719.
5) Stephenson : Med. Hist. p. 259.

بعيدا عادة عن أراضى السيد التى يقوم الأقنان بفلاحتها ، وإن كان الأقنان هم الذين يقومون أيضاً ـ فى غالبية الأحيان ـ بفلاحة أرض القسيس[1] . ومن مجموع الضياع التى يمتلكها السيد الإقطاعي تألف ما يعرف باسم الدومين، الذى يمثل المصدر الحقيقى لقوته ونفوذه[2] .

أما الفلاحون فكانوا يعيشون فى أكواخ من جذوع الأشجار وفروعها، غطيت سقوفها وأرضيتها بالطين والقش دون أن تكون لها نوافذ . وامتازت هذه الأكواخ بالقذارة وحقارة أثاثها ، الذى تألف من سرير عبارة عن صندوق خشبي عليه وسادة محشوة بالقش وأوراق الأشجار الجافة ، ومنضدة صغيرة ، وبعض المقاعد الخشبية ذات ثلاثة الأرجل، وصندوق وقليل من الآنية الحديدية والفخارية[3] . ولم تستخدم أية وسيلة صناعية لإضاءة هذه الأكواخ ، لأن الشموع اقتصر استعمالها على الكنائس ودوار السيد صاحب الضيعة : هذا فضلا عن خطر الحريق فى قرية من هذا النوع القابل للاشتعال . وبالإضافة إلى ذلك فإن الفلاح لم يكن لديه ما يعمله بعد غروب الشمس ، فهو لا يعرف القراءة والكتابة ، وعليه أن ينهض صباحاً مع شروق الشمس ويأوى إلى فراشه مبكراً مع غروبها[4] . وعند طهى الطعام أثناء النهار ، كان الدخان يتصاعد من فتحة صغيرة فى سقف الكوخ ، ولكن المطر كثيراً ما صار يتسرب من هذه الفتحة ليجعل أرضية الكوخ فى حالة زلقة موحلة . أما فى الصيف فكان يتم طهى الطعام خارج الأكواخ فى مكان عام بالقرية مخصص لذلك ، حيث تعلق قدور الطهى فى قضبان عالية فوق النار . وكان الفلاح هو الذى يبنى كوخه ويصنع أثاثه فى حين تقوم زوجته وبناته بعمل الخبز والطعام وغزل الصوف وصناعة ما يتدثرون به من ثياب بحيث لم يكن فى حاجة إلى شراء شىء من غيره[5] .

---

1) Thompson ; op. cit. vol. 2. p.p.p 723—724.
2) Boissonnade ; op. cit, p. 85.
3) Idem ; p. 98.
4) Thompson ; op. cit., vol. 2, p. 723.
5) Boissonnade ; op. cit., p. 102.

وهكذا عاش الفلاحون فى أوربا العصور الوسطى فى ظروف صعبة غير صحية؛ مما أدى إلى انتشار كثير من الأوبئة والأمراض بين حين وآخر[1] .

وكانت الضيعة الواحدة تضم أنواعاً مختلفة من الأفراد على درجات متفاوتة من الحرية، واختلفت أعمالهم والواجبات المفروضة عليهم باختلاف درجاتهم. وباستثناء العبيد الذين قد يكونون بالضيعة ، والذين اقتصر عملهم على الخدمة المنزلية داخل دوار السيد الإقطاعى دون أن تكون لهم وظيفة خارجية ، حتى أخذوا ينقرضون من المجتمع الأوربى منذ وقت مبكر يرجع إلى أواخر القرن الثانى عشر[2] ، فإنه وجد داخل الضيعة أحياناً بعض الملاك الأحرار الذين يمتلكون مساحات من الأرض مقابل دفع رسوم معينة ، ولهم حرية بيعها أو شرائها[3] . وكان أهم ما ميز هؤلاء المزارعين الأحرار حقهم فى حمل السلاح، وفى تزويج بناتهم أو إلحاق أبنائهم بسلك الكهنوت دون التقيد بموافقة السيد الإقطاعى، زيادة على حريتهم فى بيع مواشيهم وفق ما تتطلبه مصالحهم الخاصة[4] . على أن معظم فلاحى الضيعة كانوا من الاقنان المرتبطين بالأرض ، والذين يولد الواحد منهم ليجد أباه مرتبطاً بأرض معينة فيرتبط هو الآخر بنفس الأرض ولا يستطيع تركها ، متحملا ما يفرض عليه عن أعباء ومهام شاقة[5] . ومهما اختلفت أصول هؤلاء الاقنان فإن تفاوت أنصبتهم من الحرية كان ضئيلا لأنهم كانوا جميعا مقيدين بقيود شديدة تجعلهم غير أحرار[6] . فالقن فى الضيعة كان يتحتم عليه حلق شعر رأسه، لأن الشعر القصير أو الطويل من مميزات الأحرار(٧) كما كان لا يستطيع أن يدعى حق الملكية الشخصية ، لأن كل ما يمتلكه يعتبر خاصاً بالسيد الإقطاعى صاحب الضيعة . ولكن يلاحظ فى الوقت نفسه أن

---

1) Eyre ; op. cit., p. 254.

2) Heaton ; Economic Hist., of Europe, p. 90.

3) Eyre ; op. cit., p. 258.

4) Heaton ; op. cit., p. 91.

5) Pirenne, Cohen, Focillon ; op. cit., p. 58.

6) Stephenson ; Med. p.p. 255—256.

على أنه من المهم أن نلاحظ أن الضيعة لم تكن مجرد مجموعة من الأكواخ يتوسطها دوار السيد الإقطاعى ، وتحيط بها الأراضى الزراعية والمراعى والغابات ، وإنما كانت الضيعة فى حقيقة أمرها اتحاداً أو هيئة متعاونة من الفلاحين تعمل سوياً فى فلاحة الأرض واستغلالها وسد كفايتهم من حاصلاتها . فزارعو الضيعة الواحدة كانوا يشتركون بعضهم مع بعض فى تحديد موعد حراثة الأرض وبذر البذر فيها وجمع المحصول منها بل فى تقرير أنواع المحصولات التى يزرعونها[1] . وبالإضافة إلى الأراضى الزراعية المقسمة إلى حصص بين الفلاحين وجدت أرض مشاعة تشمل مراعى لرعى الماشية ومروجا تهيأ لها طعاماً فى الشتاء ، فضلا عن الغابة التى يحصل منها أهل الضيعة على مايلزم لهم من أخشاب[2] . ولم تكن هذه الأرض المشاعة مقسمة إلى حصص مثل الأرض الزراعية ، وإنما كانت من الوجهة القانونية تابعة للسيد ، ومن ناحية العرف حقاً مشاعا لجميع أهل القرية[3] . ومع ذلك فقد وضعت عدة قيود تحدد أوقات الرعى ونوع الماشية وعددها ، بحيث تتمتع كل أسرة بنسبة مالها من أرض زراعية ، وذلك مراعاة للعدالة من ناحية وضماناً لحماية المرعى من سوء الاستهلاك من ناحية أخرى[4] . وثمة ملاحظة أخرى على توزيع أراضى الضيعة واستغلالها ، وهى أن السيد الإقطاعى كان لايقسم جميع أراضيها الزراعية بين الفلاحين إلا بعد أن يحتفظ لنفسه بمزرعة خاصة (demesne) تبلغ مساحتها عادة ثلث الأراضى الصالحة للزراعة فى الضيعة[5] ، وتمد السيد الإقطاعى بكل ما يحتاج إليه من ضروريات الحياة[6] .

أما الطريقة التى اتبعت فى فلاحة أرض الضيعة فتمثل دورة زراعية محكمة تعرف بالحقول الثلاثة « Three Fields » . ذلك أن جميع الأراضى الصالحة للزراعة فى الضيعة كانت تقسم إلى ثلاثة أقسام : قسم يزرع فى الربيع ، وقسم

1) Painter : Med. Society, p. 47.
2) Heaton : op. cit., p. 103—104.
ومحمد مصطفى زيادة : الإقطاع ص ١٠٥—١٠٩
3) Painter. Med. Society, p.p. 44—45.
4) Cam. Med. Hist. vol. 3, p. 474
5) Painter : Med. Society, p. 50.
6) Boissonnade : op. cit., p. 86—87.

يزرع فى الخريف ، والقسم الثالث يترك مراحاً بغير زرع . وفى كل سنة يحدث تبادل بين هذه الأقسام فأرض الخريف تترك فى العام التالى مراحة بغير زرع ، وأرض الربيع تزرع فى الخريف ، والأرض التى كانت مراحة فى العام السابق تزرع فى الربيع . وهكذا اتبعت أوربا العصور الوسطى نظام الدورة الثلاثية فى الزراعة لعدم إجهاد الأرض من ناحية والحصول على محصول طيب من ناحية أخرى[1] على أنه يبدو أن نظام الدورة الثلاثية هذا لم يستخدم فى أوربا العصور الوسطى إلا فى المناطق الخصبة الأكثر تقدما ؛ أما غيرها من المناطق فقد شاع فيها نظام الدورتين ، فتقسم الأرض إلى قسمين أحدهما يزرع والآخر يترك مراحا بالتناوب[2] .

وقد فرضت طبيعة نظام الضيعة روح التعاون على فلاحيها ، وبخاصة أيام الحرث والحصاد ، لأن الفلاح الواحد لم تكن لديه الإمكانيات المادية التى تمكنه من العمل بمفرده فى هذين الموسمين[3] فإذا فرض أنه امتلك محراثاً فإنه كان لا يمتلك الثيران اللازمة لسحبه ، ولاسيما أنه كان من العسير شق الأرض الصعبة بالمحراث البدائى المعروف حينئذ . هذا إلى أن الثيران التى عرفتها أوربا العصور الوسطى لم تكن سمانا قوية كالتى نعرفها اليوم وإنما كانت عجافا هزيلة ، بحيث أثارت تغذيتها بالكلأ والحشائش مشكلة دائمة فى ضيعة العصور الوسطى[4] . لذلك كانت تربط جميع ثيران الضيعة — وهى عشرون أو أكثر — فى المحراث لتعمل سويا فى حرث الأرض ، الأمر الذى تطلب من الفلاحين تعاوناً واشتراكاً فى حرث جميع أراضيهم[5] . وهذا التعاون نفسه كان مطلوباً أيضاً فى وقت الحصاد ، لأن الشيلم والحنطة والشوفان وغيرها كان لابد من تخزينها بسرعة عند تمام نضجها خوفا من تساقط حباتها وضياعها[6] . لذلك كان الحصاد موسم نشاط كبير ، إذ يشترك فى العمل بالحقول جميع من بالضيعة من رجال ونساء وأطفال ،

1) Heaton : op cit. p.p. 101—102
2) Painter : Med. Society, p. 44.
3) Pirenne, Cohen, Focillon : op. cit., p 61.
4) Painter : Med. Society ; p. 45.
5) Heaton : op. cit , p. 97
6) Thompson : op. cit ; vol. 1, p. 727.

حصة فلاحاً ليعمل فى مزرعة السيد عدداً من الأيام فى الأسبوع يتناسب مع حصته . هذا فضلا عن السخرة الفصلية «boon – work» التى تفرض على الفلاحين فى مواسم جمع المحصول وحصاده[1] . ومن الواضح أن هذه الخدمة الفصلية كانت مصدر متاعب للفلاحين لأنها تفرض عليهم فى الوقت الذى يكونون أحوج إلى ذلك الجهد والوقت لبذله فى جمع محصولاتهم الخاصة[2] . وهناك نوع آخر من السخرة كان يفرض على الأقنان عندما يطلب منهم إنشاء طريق أو حفر خندق أو إصلاح جسر ، إلى غير ذلك من الأعمال المرهقة ، التى كان السيد الإقطاعى يسخر فيها أقنان ضيعته .

أما المقررات فتشمل عدة مكوس وضرائب ، أولاها ضريبة الرأس ، (Census. chefage) التى يتعين على كل قن أن يدفعها سنوياً للسيد صاحب الضيعة إما نقداً أو عيناً من الزبد والشمع وغيرها . ويبدو أن هذه الضريبة كانت تافهة وبسيطة ، ولكن الغرض الأساسى منها هى أن تظل رمزاً للعبودية[3] . وهناك مكس آخر (Champart) تقرر على إنتاج الأرض والماشية ، ومقداره عشر ذلك الإنتاج . وكانت هذه الضريبة تتناول كل ما تخرجه الأرض من حبوب وخضر ، فضلا عن الماشية والدجاج والبط والاوز والبيض وغيرها[4] . وأخيراً تأتى مجموعة أخرى من الضرائب المتفرقة مثل ضريبة الولاية (Tialle) وضريبة « الجبن » التى يدفعها الأقنان مقابل السماح لهم برعى ماشيتهم فى مراعى الضيعة ، وضريبة الأسماك التى يدفعونها مقابل السماح لهم بالصيد فى البركة أو النهر . . . الخ[5] .

أما الاحتكارات فكانت عديدة ، ولابد للفلاحين من قبولها صاغرين . فالسيد صاحب الضيعة هو الذى يمتلك طاحونة وفرنا ومعصرة ، بل أحياناً البئر

1) Cam. Med. Hist., vol. 3, p. 476 & Eyre : op. cit. p. 253.
2) Heaton : op. cit., p. 93.
3) Pirenne, Cohen, Focillon : op. cit., p. 62.
4) Heaton : op. cit., p. 95.
5) Painter : Med. Society, p. 50.

حتى يتم تخزين الحبوب فى أسرع وقت ممكن . وهنا يصح أن نلاحظ أن هذا النظام الذى سارت عليه الضيعة الأوربية فى العصور الوسطى كان تعاونياً لاشيوعيا، لأنه بعد أن يتعاون جميع فلاحى الضيعة فى إعداد الأرض وزرعها وجمع المحصول كان هذا المحصول يقسم فى النهاية بنسبة الحصص التى فى حيازة كل أسرة من أسر الضيعة[1] .

أما الماشية الموجودة فى الضيعة من ثيران وخنازير وأغنام وغيرها ، فكانت المتقدمة منها فى السن تذبح قبل حلول الشتاء وتقدد لحومها وتملح ليرسل نصيب الأسد منها إلى دوار السيد المالك . كذلك كان يذبح ما لاتدعو الحاجة إلى بقائه من صغار الماشية فى الخريف فى حين تبقى البقية الباقية لتقضى فصل الشتاء على الدريس والحشائش المجففة التى كثيراً ما كانت تنفد قبل حلول الربيع ، فتسوء حالة الماشية حتى أنها لاتستطيع السير إلى المرعى فى أوائل الربيع التالى إلا فى صعوبة بالغة[2] .

أما عن العلاقة بين السيد الإقطاعى صاحب الضيعة والأقنان المشتغلين بفلاحة أرضها ، فقد حددتها — فى ظل النظام السنيورى أو نظام السيادة — مجموعة من الحقوق والواجبات التى ألقت العبء الأكبر من المغارم على كواهل الفلاحين[3] وقد اختلفت الواجبات المفروضة على الفلاحين تجاه سيدهم الإقطاعى من مكان إلى آخر نتيجة لاختلاف العادات والملابسات ، ولكنه يمكن مع ذلك تقسيمها إلى ثلاثة أقسام : الخدمات ، والمقررات ، والاحتكارات . أما الخدمات فكان أولها تسخير الأقنان فى فلاحة المزرعة الخاصة بالسيد الإقطاعى (demesne ، فيحرثونها ويبذرون بذورها له بالتناوب[4] . ويسمى هذا النوع من السخرة الخدمة الأسبوعية « week work » لأن المقصود بها أن يرسل صاحب كل

1) Stephenson : Med. Hist., p. 257.
2) Painter : Med. Society, p.p. 45–46.
3) Heaton : op. cit., p. 92.
4) Painter : Med. Society ; p. 50.

الوحيد فى الضيعة . وفى هذه الحالة يصبح كل قن ملزماً بإحضار غلته إلى طاحونة السيد لطحنها ثم يحمل خبزه إلى فرن السيد لخبزه ، وكرومه وزيتونه وتفاحه إلى معصرة السيد لعصرها . . . كل ذلك مقابل أجر معين يقدمه القن لسيده إما نقداً أو عيناً[1] . فإذا امتلك فلاح طاحونة يدوية أوغير ذلك من الأجهزة التى من حق السيد الإقطاعى وحده أن يحتكرها اعتبر ذلك جرماً خطيراً يحاكم عليه[2]

وفيما عدا الإلتزامات السابقة ، تعرض الأقنان لأعباء أخرى فى حالة الوفاة أو الزواج أو الوراثة أو انتقال حق التمتع بالأرض من فرد إلى آخر[3] . فالقن كان لابد له من الحصول على موافقة السيد صاحب الضيعة إذا أراد أن يتزوج ، فإذا اختار امرأة من نفس الدومين كانت المسألة سهلة وبسيطة ، أما إذا رغب فى الزواج من امرأة من دومين آخر ـ أى تنتمى إلى سيد آخر — فإن السيد الاول كان يخشى فى هذه الحالة أن يفقد القن ، ولذلك يعارض فى مشروع الزواج[4] . ولما كان من المستحيل منع زواج فرد من المرأة التى اختارها لنفسه ، فقد لجأ السادة الإقطاعيون فى القرن الحادى عشر إلى فرض مبلغ كبير من المال (Fromarriage Formarier) على القن الذى يطلب الزواج من خارج الدومين[5] . فإذا استطاع القن الوفاء بالمبلغ فإنه يصعب فى هذه الحالة أن يظل هو فى ضيعة وزوجته فى ضيعة أخرى . لاسيما أن الكنيسة نفسها عارضت مبدأ تمزيق الأسرة، ولذلك كانت الزوجة تنتقل إلى الضيعة التى يعيش فيها الزوج. مقابل بدل يرسله صاحب الضيعة الأخيرة إلى صاحب الضيعة التى أتت منها الزوجة أما إذا أراد القن تزويج إحدى بناته فكان عليه أن يدفع لسيده رسما معيناً (merchet)[6] .

---

1) Boissonnade : op. cit. p. 96.
2) Painter : Med. Society, p. 51.
3) Cam. Med. Hist ; vol. 7, p. 720.
4) Thompson : op. cit. vol. 2, p. 730.
5) Pirenne. Cohen, Focillon : op. cit., p. 61.
9) Eyre : op. Cit, 235. & Heaton : op. cit. p. 95.

وإذا كان السيد الإقطاعى يحصل على جميع الضرائب والمكوس السابقة من الأقنان باعتباره مالك الأرض وحاميها ، فإن هناك نوعا آخر من الحقوق القضائية حصل عليها بوصفه نائب الملك فى ضيعته[1] . ذلك أن صاحب الضيعة باشر جميع ما كان للملك من حقوق قضائية ، كما صارت محكمته تعالج - فى معظم الأحيان - مختلف أنواع القضايا ، وتوقع على المذنبين فيها شتى أصناف العقوبات بما فيها عقوبة الإعدام . . ومن الواضح أن هذه الحقوق القضائية عادت بفوائد جمة على السادة الإقطاعيين ، لأنهم كانوا يفرضون غرامات مالية على المذنبين فى كثير من القضايا الصغرى ، فى حين كان السيد يستولى على جميع ممتلكات الشخص الذى يحكم عليه بالإعدام . هذا بالإضافة إلى ما ترتب على مباشرة هذه الحقوق القضائية من ازدياد نفوذ السادة الإقطاعيين وسيطرتهم على الأقنان[2] .

ويلاحظ أن الأقنان كانوا لايمتلكون - فى ظل هذا النظام — شيئاً من الأرض التى يعملون عليها . وبالتالى ليس لهم حق النزول عنها بالبيع أو تقسيمها بين ورثتهم ، ومع ذلك فإن ارتباطهم بهذه الأرض كان مدى الحياة ، ثم صار وراثياً . وقد لجأ السادة الإقطاعيون - عند وفاة أحد الأقنان - إلى فرض ضريبة ميراث (Heriot) على أبنائه وورثته الذين سيحلون محله ويرثونه فى الانتفاع بالأرض، لا فى ملكيتها . وكانت هذه الضريبة غالباً فرسا أو ثوراً قويا اعترافا بما للسيد من حق فى المنقولات الزراعية الخاصة بالأرض[3] . هذا عدا ما كان للسيد من حق أن يرث جزءاً من تركة قنه المتوفى ، أو التركة كلها[4] .

• • •

وبعد ، فإنه يبدو مما سبق أن القن كان يحيا حياة شاقة مليئة بالمتاعب والآلام فى ظل نظام السيادة أو النظام السنيورى . حقيقة إن العائلة التى تمتعت بثلاثين فداناً - ومايتبعها من حصة فى الغابة والمرعى - استطاعت فى السنوات العادية أن

1) Pirenne, Cohen, Focillon : op. cit., p. 59.
2) Painter : Med. Society, p.p. 51—54.
3) Cam. Med. Hist. vol. 3, p. 478.
4) Pirenne, Cohen. Focillon : op. cit. p. 61.

تحيا حياة مستريحة ، ولكن الفجوة بينها وبين الجوع لم تكن واسعة ، بحيث كان مألوفاً أن يتضور الجميع جوعا فى سنى الشدة .

وكان طعام القن الاساسى يتألف من الخبز الأسمر والبيض وبعض الخضر العادية كاللفت والفول والبازلاء . وربما أسعدته الظروف فى إحدى المناسبات بأكل دجاجة أو غيرها من الطيور ، ولكنه كان لا يستطيع أن يتذوق اللحم والسمك إلا نادراً[١] . أما شرابه فكان النبيذ أو الجعة . ومع ذلك فإنه يبدو أن القن ظل قانعاً راضياً بحياته ، ولاسيما أن هذه الحياة ـ مع مافيها من ألوان البؤس ـ لم تخل من بعض ضروب الترويح والتنفيس . فإذا حضر إلى الضيعة أحد الحواة أو المهرجين ، استبقاه صاحبها ، وعندئذ يجتمع الفلاحون فى الدوار للمشاهدة والترويح عن أنفسهم[٢] وهنا نلاحظ أن البارون أو السيد الإقطاعى لم يختلف وقتذاك عن القن فى عقليته اختلافا واضحاً ، إذ كان مايدخل السرور إلى قلب أحدهما كفيلا بإدخال السرور إلى قلب الآخر[٣] .

والواقع أنه على الرغم من قسوة الوضع الذى عاش فيه القن ، إلا أنه ـ كما سبق أن أشرنا ـ لايمكن اعتباره عبداً من الناحية العملية ؛ لأن القانون حفظ له بعض الحقوق تجاه أرضه وتجاه سيده ، بحيث أنه لم يكن غريباً إذا شب خلاف بين قن وسيده أن تصدر المحكمة الإقطاعية حكمها فى صالح الأول[٤] . حقيقة إن القن بدا فى كثير من الحالات عاجزاً أمام استبداد سيده ، ولكنه استطاع أن يضمن لنفسه فى ظل هذا النظام ـ نظام السيادة (seignorial regime) - نوعا من الحماية لاسيما ضد الخطر الخارجى . وبعبارة أخرى فإن هذا النظام لم يكن جحيما لايطاق ، فقد فيه القن كل أمل فى الخلاص ؛ لأنه على الرغم من قسوته وشدته ترك بعض الثغرات والمخارج أمام القن ليحيا حياة أفضل[٥] .

---

1) Painter : Med. Society, p. 46.
2) Thompson : op. cit., vol. 2, p, 732.
(٣) محمد مصطفى زيادة : الإقطاع والعصور الوسطى بغرب أوربا ص٣٢.
4) Eyre : op. cit; p. 253.
5) Boissannade : op. cit., p. 143—144.

ثم كان أن أخذ نظـام الأقنان فى الانهيار نتيجة للتطورات الاقتصادية والاجتماعية التى بدأت تجتازها أوربا منذ أواخر القرن الحادى عشر[١] . وقد بدأت هذه التطورات فى الظهور قبيل الحروب الصليبية ، ولكن هذه الحروب عجلت بها نحو الامام ، حتى أن الحملة الصليبية الأولى وحدها فتحت الباب أمام عشرة آلاف قن تركوا أرضهم التى ارتبط بها آباؤهم وأجدادهم بحجة الاشتراك فى النشاط الصليبى. ثم كانت نشأة المدن وتطورها ، مما فتح باباً جديداً أمام الأقنان لهجرة الأرض والنزوح إلى المدن . ولم يلبث أن استكشف أصحاب الضياع أن نظام العبيد والأقنان غير اقتصادى[٢] ، وأنه من الأوفر لهم والأجدى عليهم استخدام عمال مأجورين من الأحرار فى فلاحة أرضهم لأن هؤلاء الأخيرين يعملون بعزيمة أقوى وروح أسمى ، وبالتالى يأتون بإنتاج أوفر[٣] . وهكذا أخذ كبار الملاك يحررون أقنانهم بالجملة وفق شروط خاصة تصدر بها براءة من المالك[٤] . وكان أن ظهرت فى القرن الثانى عشر حركة كبرى لإحياء الأرض البور وتطهيرها واستصلاحها (grands défrichments) نشأ عنها زيادة الإنتاج والدخل ، وفى الوقت نفسه تحسين أحوال المزارعين[٥] . ذلك أن كبار الأمراء والسادة الإقطاعيين اضطروا إلى عرض شروط مغرية على الفلاحين ليقوموا بإحياء هذه الأراضى وفلاحتها ، مما ساعد على هدم النظم القديمة تدريجياً[٦] . هذا إلى أن النشاط التجارى فى القرن الثانى عشر وماترتب عليه من التوسع فى استخدام النقود ، أدى تدريجياً إلى أن أخذ الفلاحون يدفعون ماعليهم من التزامات نقداً لاعيناً ، وإن ظلت بعض أسماء الضرائب والمكوس محتفظة بأسمائها القديمة[٧] وإذا كان نظام الأقنان قد ظل قائماً فى جميع أنحاء أوربا فى القرن الثالث عشر ، إلا إنه كان آخذا حينئذ فى الاحتضار السريع[٨] .

---

1) Pirenne, Cohen. Focillon : op. cit., p.p. 62—63.
2) Coulton: The Med. Scene ; p. 23.
3) Cam. Med. Hist., vol. 7, p p. 728—729.
4) Painter ; Med. Society, p p. 59 – 60.
5) Pirenne, Cohen, Focillon ; op. cit., p 65.
6) Painter; Med. Society, p.p. 57—58.
7) Idem, p. 59.
8) Cam Med. Hist. vol 7, p. 727.

مركز المرأة فى المجتمع :

أما عن مركز المرأة فى مجتمع أوربا العصور الوسطى فكان ثانوياً بحتاً . ويبدو أن المصالح العائلية أو المالية هى التى تحكمت دائماً فى اختيار الزوجة ، إذ كان يراعى فيها – بقدر الإمكان – أن تكون وريثة إقطاع أو على الأقل وريثة قدر كبير من الأرض . وبعد الزواج يصبح مطلوباً منها أن تضع مولوداً ذكراً ، فإن أخفقت فى هذه المهمة كان من السهل على زوجها غالباً أن يغرى الأسقف بفسخ الزواج[1] .

وقد فرض النظام الإقطاعى فى أوروبا العصور الوسطى على المرأة أن تكون دائماً تحت وصاية رجل ، أبوها فى أول الأمر ثم زوجها بعدذلك . أما الأرمل فتكون تحت وصاية سيدها أو أكبر أبنائها حقيقة أنه كان من حق المرأة أن ترث إقطاعا ، ولكنها لاتستطيع أن تباشر حقها فى حكمه إلا عن طريق زوجها . ولعله من الواضح – بعد عرضنا لقواعد النظام الإقطاعى ، تفسير هذه الظاهرة فى ضوء عجز المرأة عن القيام بأعباء الوظيفة الأساسية لطبقة الإقطاعيين، وهى الحرب[2] .

أما الكنيسة ، فأخذت فى العصور الوسطى موقفاً متناقضاً من المرأة ، إذا اعتبرتها من ناحية شريكة آدم التى حرضته على المعصية والخطيئة ، وهى لذلك لاتستحق إلا كل احتقار وامتهان ، كما نظرت إليها من ناحية أخرى على أنها تمثل مريم العذراء أم المسيح ، وهى لذلك جديرة بكل احترام وتقدير[3] . وإذا كانت النظرة الأولى جعلت الكنيسة تطالب رجالها بعدم الزواج على أساس أن المرأة عامل من عوامل الغواية ، فإن النظرة الثانية جعلتها تساعد فى نشر فكرة سمو المرأة[4] .

---

1) Stephenson ; Med. Hist., p. 268.
2) Painter ; Med. Society, p. 29.
3) Crump, Jacob : Legacy of tho Middle Ages. p. 402.
4) Coulton ; Life in the Middle Ages. vol. 4 p. 28.

على أن الفضل يرجع إلى الطبقة الارستقراطية فى تطور فكرة تبجيل المرأة فى العصور الوسطى ، إذ أصبح هذا التبجيل صفة من الصفات الأساسية التى يجب أن يتحلى بها الفارس ، حتى قال بعض الكتاب « إن الفارس نصير الله والمرأة »(١) . وتتضح هذه الفكرة واضحة فى أشعار التروبادور ، التى تظهر كيف كان جمال المرأة ورقتها وعقلها تستهوى قلب الرجل وحبه ؛ وأن الحب لم يستهدف شيئاً غير إدخال السرور على قلب محبوبته ، فلا يأبه بطعام أو شراب ولا يتأثر لحر أو برد فى سبيل الفوز بابتسامة رقيقة منها(٢) .

ومع ذلك فإنه من الملاحظ أن المرأة لم تتمتع بأى حق قبل زوجها ، حتى أن كتاب العصور الوسطى أيدوا حق الزوج فى ضرب زوجته وإيذائها إذا خالفته . وكل مافعلته الكنيسة إزاء هذا الوضع هو تحديد حجم العصا التى يصح للزوج أن يستخدمها فى ضرب زوجته (٣) .

ولكن على الرغم من أن المرأة كانت شريكا مغبوناً للرجل فى ظل النظام الإقطاعى ، إلا أنها احتلت المكانة التالية له مباشرة فى الحصن والضيعة . وبعبارة أخرى فإنها لم تتمتع بحقوق تجاه زوجها ولكنها تمتعت بكل ما لزوجها من حقوق تجاه غيرها(٤) . وهناك أمثلة كثيرة من العصور الوسطى لنساء حملن الرسالة أثناء غياب أزواجهن فى الحرب أو بعد وفاتهم ، فقمن بإدارة الضياع والدفاع عنها أو بجمع الأموال لفدية الزوج الأسير(٥) .

وإذا كانت سيدات الطبقة الارستقراطية والطبقة البورجوازية قد تمتعن بقسط من الراحة والتسلية ، فإن الفلاحات وزوجات الأقنان حرمن من هذه النعمة ، لأن قسوة الحياة كثيراً ما أجبرتهن على مشاركة أزواجهن فى الكفاح والعمل من أجل لقمة العيش . لذلك أسهمت الفلاحة بسهم وافر فى الحياة الأوربية فى العصور الوسطى ، وقامت فى داخل المنزل بكل ما احتاجت إليه الأسرة من

---

1) Crump, Jacob ; The Legacy of the Middle Ages, p. 405—406.
2) Painter ; Med. Society, p. 36.
3) Idem. p. 29.
4) Idem. p. 30.
5) Stephenson . Med. Hist. p. 268.

طعام وشراب وملبس ، فعملت فى جز أصواف الأغنام وغزلها ونسجها وتربية الدواجن ، وصناعة مستخرجات الألبان ؛ هذا كله زيادة على تربية أولادها . أما خارج المنزل فقد أسهمت فى بناء الأكواخ وقطع الأعشاب وجمع المحصول وتخزينه[١] . ومع ذلك فإن العرف الإقطاعى شمل زوجة القن بشىء من الرعاية إذ جرت العادة على إعفائها - وهى فى حالة الوضع - من ضريبة الدجاجة التى عليها أن تقدمها سنوياً قبل الصيام الكبير ، فضلا عن حصولها فى هذه الحالة على بعض المساعدات المادية[٢] .

أما فى المدن فقد اشتغلت المرأة بصناعة الجعة والنبيذ بالإضافة إلى غزل الأصواف . ويبدو أن هذه الحرف فتحت بابا للعمل أمام غير المتزوجات من الأرامل والعانسات ، على الرغم من حرص بعض النقابات على تحريم اشتغال النساء بأعمال معينة حتى لا ينافسن الرجال بسبب رخص أجورهن[٣] . وهناك فريق آخر من النساء أقبلن على الحياة الديرية وانخرطن فى سلكها لإشباع الناحية الدينية فى نفوسهن ، فضلا عن أن هذه الحياة هيأت لهن قسطاً من الثقافة الراقية والعمل المنتج[٤] .

1) Coulton ; Life in the Middle Ages, vol. 1. p. 217.
2) Crump. Jacob ; The Legacy of the Middle Ages ; p. 428.
3) Boissonnade ; op. cit., p. 221.
4) Coulton ; Life in the Middle Ages ; vol. 4 p.p. 522 & Crump, Jocob ; op. cit., p.p. 412—413.

الباب الرابع

المدن والتجارة

إحياء المدن والتجارة :

كانت المدن بمثابة المكان المختار الذى أخذ الأقنان ينزحون إليه عندما انحل النظام الزراعى القائم على أكتافهم . والواقع إن نشأة المدن فى العصور الوسطى جاءت ثورة بالغة الخطورة ، لا فى الميدانين السياسى والاقتصادى فحسب بل فى الميدان الاجتماعى أيضاً . ولم تكن هناك ثمة علاقة تربط المدينة الاوربية التى ظهرت فى العصور الوسطى بالمدن القديمة التى عرفها العصر الرومانى ؛ والتى بلغت أقصى درجات التقدم والنشاط فى القرنين الأول والثانى للميلاد(١) . ذلك أن المدن القديمة أصابها الذبول نتيجة الأخطار التى تعرضت لها الامبراطورية الرومانية ، فتناقصت مساحتها وقلت أهميتها ولم تعد منذ القرن الخامس مركزاً للنشاط الحيوى فى أوربا(٢) . وإذا كانت هذه المدن قد احتفظت بشىء من الأهمية فى العصور المظلمة ، فمرجع ذلك أنها أصبحت مراكز أسقفية ، وبعبارة أخرى فإن أهميتها أصبحت تنحصر فى الدور الذى قامت به فى التنظيم الكنسى بعد أن فقدت مكانتها فى التنظيم الإدارى(٣) . أما أهالى المدن الرومانية القديمة فقد أصبحوا أقناناً ، وإن استمر كثير منهم يعملون كعمال وصناع وبخاصة فى الأديرة . وهكذا لم تعد المدينة الرومانية التى قدر لها البقاء تحت نفوذ رجال الدين ، أكثر من مركز دينى ، لا تمتلك من آثار النشاط التجارى أو الصناعى إلا القدر الذى يكفى حاجة المؤسسات الدينية ورجال الدين وأتباعهم(٤) .

---

1) Painter ; Med. Society, p. 63.
2) Eyre ; op. cit. p. 256.
3) Cam. Med. Hist. vol. 6 p. 507.
4) Pirenne : Economic and Social Hist., of Med. Europe, p. 5.

ومن الثابت أن الإقتصاد الاوروبى اتخذ طابعاً زراعياً بحتاً منذ نهاية القرن الثامن ، فأصبحت الأرض المصدر الرئيسى للثروة ، واعتمدت جميع طبقات المجتمع على ماتدره الأرض من خيرات ، وبذلك أنعدمت التجارة أو كادت تنعدم ، وأصبحت الأرض وحدها هى الأساس الذى قام عليه بناء الحياتين الاقتصادية والاجتماعية فى أوربا[1] . أما النشاط التجارى الذى وجد فى أوربا بين القرنين الثامن والعاشر ، فقد اقتصر على التجارة المحلية الضيقة من جهة ، والعلاقات التجارية بين بعض المدن الإيطالية والدولة البيزنطية من جهة ثانية ، ثم على النشاط التجارى الذى قام به الفيكنج فى بحر الشمال والبحر البلطى وسهول روسيا من جهة ثالثة . وربما ساعد على انحطاط التجارة فى تلك الفترة موقف الكنيسة نفسها التى ظلت تنظر إلى الكسب التجارى على أنه غير حلال وأن الأرض الزراعية وحدها هى المورد الطيب الذى يجب أن يعيش عليه الإنسان[2] .

ثم كان أن ظهرت فى العصر الإقطاعى مجتمعات من الأقنان ، اختاروا العيش بجوار القصور والحصون والأديرة للاحتماء بها[3] . وقد أدت كثافة هذه المجتمعات فى بعض الجهات وتمتعها بالسلم والحماية ، إلى تمكينها من القيام بنشاط صناعى محدود ؛ حتى أن الأقنان الذين كانوا يعملون صيفاً فى فلاحة الأرض أخذوا يشغلون وقتهم فى الشتاء بالنجارة وصناعة الجلود أو الاوانى الفخارية يبيعوا إنتاجهم فى أقرب سوق محلى[4] . وهكذا بدأت هذه المجتمعات الجديدة تعتمد شيئاً فشيئاً على القرى والمناطق الريفية المجاورة فى الحصول على قوتها وفى تصريف إنتاجها الصناعى البسيط[5] . أما النشاط التجارى فإن الفضل فى إحيائه لا يرجع إلى هذه المجتمعات بقدر ما يرجع إلى التجار الجائلين وبخاصة اليهود ، الذين قاموا باستيراد السلع والبضائع لبيعها للنبلاء وأتباعهم[6] . وقد بلغ من

1) Pirenne, Cohen, Focillon ; op. cit. p. 10—12.
2) Idem; p. 29.
3) Pirenne ; Medieval Cities; p.p. 72—76.
4) Cam. Med. Hist. vol. 6, ps. 477, 514.
5) Pirenne ; Economic and Social Hist. p.p. 42—44
6) Cam. Med. Hist., vol. 6, p.p. 509—511.

سيطرة اليهود على التجارة الاوربية فى ذلك العهد المظلم من العصور الوسطى أن لفظ يهودى Judaeus أصبح مرادفاً للفظ تاجر mercator [١] . وكان هؤلاء التجار فى أول الأمر متنقلين لا يعرفون حياة الاستقرار فى منطقـــة بعينها ؛ ولكنهم أخذوا يستقرون تدريجياً بعد ذلك ليجعلوا من بيوتهم مخازن تجارية حقيقية [٢] .

ولم يلبث الأمراء المحليون أن سمحوا لهؤلاء التجار بالإقامة بجوار حصونهم نظراً للفائدة التى تعود عليهم من وراء فرض ضرائب على تجارتهم من ناحية وإثارة نوع من النشاط والحركة فى المنطقة من ناحية أخرى [٣] . وكان أن أقام التجار فى القرن الحادى عشر شبه حظائر مسورة متاخمة لحصون الأمراء ، تمتعوا فيها بقسط من الحرية الشخصية لم يتوافر للأقنان فى الضياع المجاورة [٤] . وهكذا أخذت هذه المجتمعات التجارية تتطور — سواء كانت مرتبطة بإحدى المدن الاسقفية أو خارج سور دير من الاديرة أو بالقرب من بعض الحصون الإقطاعية — لتنشأ منها مدن العصور الوسطى ، كما تطورت الحقوق المحدودة التى حصل عليها تجار تلك المجتمعات من الأسقف أو مقدم الدير أو السيد الإقطاعى لتصبح نواة للعهود والبراءات الإعفائية التى تمتعت بها المدن فيما بعد [٥] .

وإذا كانت الفترة الواقعة بين سنتى ٥٠٠ ، ١٠٠٠ تقريباً تمثل عهداً مظلماً فى تاريخ المدن الاوربية ، إذ اختفت فيها الحياة المدنية من أوربا وصحب ذلك ذبول التجارة والصناعة (٦) ، فإنه يمكن تلخيص العوامل الرئيسية التى أدت إلى مولد مدينة العصور الوسطى فى القرن الحادى عشر فى إحياء التجارة ، وظهور طبقة التجار وقيام المجتمعات التجارية البدائية التى سبقت الإشارة إليها [٧] .

---

1) Pirenne, Cohen, Foeillon ; op. cit. p. 15.
2) Idem., p.p. 40—41.
3) Painter : Med. Society., p.p. 72—73 & Cam. Med. Hist. vol. 6. p. 516.
4) Cam. Med. Hist., vol. 6, p. 477.
5) Pirenne ; Economic and Social Hist., p.p. 71—74.
6) Cam. Med. Hirst; vol. 5. p.p. 209—210
7) Cam. Med. Hist ; vol 6, p. 477.

ومعنى ذلك أن المدينة الأوربية مرت بأدوار شاقة قبل أن تصبح مركزاً تجارياً وصناعياً واضح المعالم ، لأنها ظلت آمداً طويلا تصور الطابع العام للمجتمع الزراعى الذى ساد العصور الوسطى[١] . هذا إلى أن سكانها ظلوا قلة صغيرة لا يتصورها العقل، حتى أن المدن الكبرى - مثل مينز و كولونيا فى ألمانيا، وميلان وبافيا فى إيطاليا وباريس وليون فى فرنسا - لم يزد سكان إحداها فى القرن الحادى عشر على بضعة آلاف نسمة على أقصى تقدير[٢] ولسنا فى حاجة إلى القول بأن العامل الجغرافى لعب دوراً هاما فى نشأة المدن وتطورها ، فبعضها مثل البندقية وبيزا استمدت أهميتها من كونها موانى تطل على البحر ؛ والبعض الآخر - مثل كريمونا - كانت ملتقى عدة روافد هامة لنهر معين ، ونوع ثالث - مثل فيرونا وسينا وبولونيا - كانت تتحكم فى ممرات أو طرق رئيسية . وهكذا[٣] هذا إلى أن الاقليم بأجمعه كانت له فى بعض الأحيان ظروفه التى ساعدت على نشأة المدن وازدهارها ، فإيطاليا تقع عند منتصف الطريق بين الشرق والقسطنطينية من جهة والغرب من جهة أخرى مما شجع مدنها على القيام بدور الوسيط التجارى بين الشرق والغرب . ومثل ذلك يقال عن فلاندرز وشامبنى فى الوساطة بين جنوب أوربا وشمالها[٤] .

ثم كان أن وجدت حالة من السلام والاستقرار فى القرن الحادى عشر مكنت التجار من مباشرة نشاطهم ، وبالتالى ساعدت على ازدهار المدن . هذا بالإضافة إلى ما كان من حركة الإصلاح الكنسية التى ترتبط فى التاريخ باسم دير كلونى ، وما ترتب على كل ذلك من إقبال على إزالة الغابات وتجفيف المستنقعات . وأخيراً جاءت الحروب الصليبية لتضيف عاملا قوياً إلى العوامل التى أدت إلى تحطيم نظام الضياع (Manorial—System) وتشجيع التجارة والصناعة ، بحيث لم تعد الأرض المصدر الوحيد للثروة[٥] .

---

1) Pirenne: Med. Cities, p.p. 60—76.
2) Boissonnade : op. cit., p. 203.
3) Cam. Med. Hist. vol 5; p. 208.
4) Idem; p.p. 208—209.
5) Pirenne, Cohen, Focillon : op. cit. p. 31 & Cam Med. Hist. vol. 5. p. 636.

وهنا نلاحظ أن التوسع الإسلامى فى حوض البحر المتوسط منذ القرن السابع حطم وحدة ذلك البحر وأضعف النشاط التجارى فيه ، ولكنه لم يقض على ذلك النشاط تماماً . ذلك أن فشل المسلمين فى الاستيلاء على القسطنطينية ترك الباب مفتوحاً أمام التبادل التجارى بين المدن الإيطالية - وبخاصة البندقية - من ناحية ، وأراضى الدولة البيزنطية من ناحية أخرى(١) . ومع هذا ، فإنه يمكن القول بأن النشاط التجارى فى غرب أوربا انحط إلى أسفل درجاته فى القرن العاشر ، وظل على ذلك حتى بدأت الحروب الصليبية فى نهاية القرن الحادى عشر ، لتضاعف من النشاط التجارى للمدن البحرية(٢) فظهرت أمالفى وجنوا وبيزا ومرسيليا وماربون وبرشلونه لتنافس البندقية فى ذلك النشاط . وكان البنادقة بوجه خاص يحملون إلى أسواق مصر والشرق الرقيق والجوارى من الصقالبة المجلوبين من شاطىء دالماشيا فضلا عن الأخشاب والحديد ، ويستوردون بدلا منها مختلف الحاصلات الشرقية(٣) .

وعندما تكدست البضائع المستوردة من الشرق فى تلك الموانى ، أخذت تشق سبيلها نحو وسط أوربا وغربها عن طريق السهل اللمباردى وممرات جبال الألب وطريق الراين ، مما أثار نشاطاً كبيراً فى المدن الواقعة على هذه الطرق . على أن هذا النشاط التجارى فى جنوب أوربا ووسطها صحبه نشاط مماثل فى شمالها ، حيث غدا إقليم فلاندرز فى القرن الثانى عشر ، مركزاً رئيسياً لهذا النشاط ، بفضل أنهاره وموانيه التى جعلته على اتصال بشمال أوربا ووسطها وجنوبها(٤) . ومن المعروف والمسلم به أن الدافع الرئيسى للنشاط التجارى يرجع إلى وجود مجتمعين أو أكثر ينتج كل منهما نوعاً خاصاً من المنتجات التى يحتاج إليها غيره ، مما يحتم على كل مجتمع مبادلة الفائض من إنتاجه بما هو فى حاجة إليه من إنتاج المجتمع الآخر(٥) . وفى ضوء هذا الإعتبار - زيادة على أهمية الموقع الجغرافى -

---

1) Pirenne, Cohen, Focillon : op. cit., p.p. 19—21.
2) Painter : Med. Society, ps. 64, 69,
3) Pirenne : Economic and Social Hist. p. 18.

(٤) أنظر Pirenne, Cohen, Focillon, op. cit., p. 36 & The Monk of St. Gall : The Life of Charlemagne, p. 122.
5) Painter : Med. Society, p. 66,

يمكننا أن نفسر انتعاش مدن لمبارديا وفلاندرز فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، إذ تقع الأولى بين الشرق والغرب ، فى حين تقع الثانية بين الشمال والجنوب[1] . وهكذا أخذت تزداد قوافل التجار المسافرين بطريق البر أو النهر أو البحر ، ولم يعد هؤلاء التجار من اليهود وحدهم ، وإنما شاركهم اللمبارديون والدكانيون والبنادقة والجنوية والفلمنكيون والبروفنساليون [2] . كذلك استتبع هذا النشاط التجارى كثرة المعارض والأسواق الكبيرة فى مختلف أنحاء أوربا ، بعد أن أضحت الأسواق المحلية الصغيرة لا يمكنها النهوض بمطالب المستهلكين والتجار .

ويحتل القرن الثالث عشر أهمية كبرى فى التاريخ التجارى ، لأن طرق التجارة القديمة استبدلت بها أخرى جديدة[3] . فاستيلاء الحملة الصليبية الرابعة على القسطنطينية سنة ١٢٠٤ عطل طريق القسطنطينية التجارى؛ كما أتاحت الحرب الصليبية ضد الهراطقة الألبيجنسيين فرصة لملوك فرنسا للحصول على منافذ تجارية جديدة على البحر المتوسط ، فدخلت مرسيليا وبرشونة فى دائرة النشاط التجارى مع الشرق أما فى شمال أوربا فإن الفرسان التيتون نهضوا بتجارة بروسيا ليتسع نطاقها شرقا على شاطىء البحر البلطى ، كما أسسوا موانى ليباو وميمل وريفال[4] ثم كان أن دمر المغول مدينة كييف سنة ١٢٤٠ وبالتالى قطعوا الطريق التجارى بين البحرين البلطى والأسود فأخذت نوفجرود فى أقصى الشمال تعمل على توطيد علاقاتها التجارية مع موانى استرافيا وشمال ألمانيا ، واستفادت فعلا من ذلك[5] ولم يقف تأثير المغول فى طرق التجارة عند هذا الحد ، بل إن استيلاءهم على العراق وبغداد سنة ١٢٥٨ أدى إلى تركيز التجارة بين الشرق والغرب فى طريق البحر الاحمر وموانى مصر المماليكية من ناحية ، وطريق طرابيزون من ناحية أخرى[6] . ومن الواضح أن هذه التغييرات وغيرها أثرت فى النشاط التجارى

---

1) Idem, p.p. 66—69.
2) Boissonade : op. cit., p.p' 162—163.
3) Cam. Med. Hist. vol. 6, p.p. 478—479.
4) Pirenne, Cohen, Focillon : op. cit., p.p. 128—129.
5) Rambaud : Hist. de la Rossie, p.p. 126—131.
6) Thompson : op. cit., vol. 2 p. 737.

المدن الأوربية الناشئة تأثيراً بالغاً ، حتى بلغت قيمة ما تستورده البندقية سنوياً من بضائع الشرق عن طريق دولة المماليك وحدها مليون دوكات[١] .

ويمكن القول بأن الفترة الواقعة بين سنة ١٠٧٥ — وهى السنة التى نجحت فيها ثورة كولونيا ضد أسقفها - ، وسنة ١١٨٣ - وهى السنة التى حلت فيها مدن الحلف اللمباردى على حقوقها فى الحكم الذاتى من الإمبراطور فردريك بربروسا - تصور دور البطولة فى تاريخ نشأة المدن فى أوربا العصور الوسطى[٢] . ولم تلبث أن أصبحت المدن الإيطالية بوجه خاص مثلا احتذته بقية المدن الاوربية فى بروفانس وحوض الراين وفلاندرز للحصول على سيادتها . وعلى ذلك فإن نشأة المدن جاءت بطيئة وتدريجية ، على الرغم مما نسمع به من ثورات قامت بها بعض المدن مثل ميلان وكامبراى وكولونيا وغيرها[٣] ، وبفضل هذه الخطوات التدريجية أخذت المدن تنتزع من سادتها الإقطاعيين اعترافات بحقوقها ، فازداد عدد البراءات والعهود الاعفائية التى حصلت عليها تدريجياً[٤] . ومع أن هذه البراءات اختلفت كثيراً فى تفاصيلها ، حتى أنه ليصعب العثور على براءتين متشابهتين لمدينتين مختلفتين ، إلا أنها اتفقت جميعاً فى روحها وفى خاتمتها التى تنص على حرية الارض التى قامت عليها المدينة وعلى أن كل من يعيش فى هذه المدينة سنة ويوماً واحداً يعتبر حراً[٥] . وهكذا أخذت قبضة الامراء تخف عن المدن فى النواحى الإدارية والقضائية والمالية ، وكلما تنازل أمير عن حق من حقوقه تلقفته المدينة فى صورة إعفاء ، حتى تكتمل جميع هذه الإعفاءات فى البراءة التى تعبر عن سلطة المدينة ودستورها والتى حرصت كل مدينة على حفظها فى أرشيفها .

على أنه يلاحظ أن هذه البراءة التى حصلت عليها المدينة بعد جهد شاق ، لم تكن امتيازاً عاماً تمتع به جميع سكانها ، وإنما قصدت بها فئة محدودة فقط

---

1) Boissonnade : op. cit p. 289.
2) Thompson : op. cit. ; vol. 2, p. 737.
3) Cam. Med. Hist vol. 4, p.p. 218—219.
4) Idem. : p. 281 & vol. 6, p. 59.
5) Painter : Med. Society, p. 72.

من هؤلاء السكان اختلفت باختلاف ظروف المدينة،فربما كانت مجموعة التجار أو الصناع أو غيرهم[1] . وكانت هذه الفئة المحدودة تمثل الهيئة الممتازة التى يختار منها محافظ المدينة وموظفوها ، والتى تتمتع بالإمتيازات المدنية كاملة .وفى بعض الاحيان لجأ أفراد هذه الأقلية الممتازة إلى التوسع فى منح الإمتيازات التى يتمتعون بها لغيرهم من سكان المدينة لاسيما القادرين الأثرياء ، فى حين ظلت بقية الطبقات محرومة من هذه الامتيازات ومن الاشتراك فى الحكم . وهكذا ظلت الغالبية تحيا حياة غير ديموقراطية عند الموازنة بينها وبين الهيئات الإقطاعية الممتازة[2] . ولعل هذه التفرقة السياسية والاقتصادية والاجتماعية بين سكان المدينة الواحدة هو السر فى اضطراب تاريخ المدن فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر ،إذ ظل الصراع مستمراً بين البورجوازية والطبقات الدنيا،وبين أصحاب العمل والطبقات الكادحة . ومن ذلك أن نقابات التجار والصناع التى بدأت فى شكل اتحادات بين أفراد أحرار متكافئين لم تلبث أن تحولت إلى هيئات احتكارية تتحكم فى رءوس الأموال، وفى الاسعار وفى تنظيم الاجور وساعات العمل[3] .

ولم تكن نشأة المدن فى أوربا العصور الوسطى ظاهرة محلية ، وإنما اتخذت هذه النشأة طابعاً عالمياً ، فبدأت واضحة فى لمبارديا وفلاندرز ، ثم أخذت تنتشر بسرعة فى بقية بلاد الغرب.ومن الطبيعى أن تختلف المدن فى تاريخ نشأتها، ولكنها اتفقت جميعاً فى العوامل والظروف الأساسية التى صحبت هذه النشأة وأدت إليها[4] . ففى جميع الحالات جاءت نشأة المدن نتيجة لانتعاش التجارة والصناعة. أما التباين بين المدن بعضها وبعض فرجعه اختلاف الظروف السياسية المحلية أو تباين الاوضاع الاقتصادية والجغرافية[5] . وهنا نلاحظ أن عنصر التقليد والمحاكاة كان قوياً واضحاً فى نشأة المدن ، فتستعير مدينة ناشئة دستور مدينة أخرى تكبرها عمراً وتأخذ عنها نظمها ، مما جعل المدن تتخذ شكل مجموعات

---

1) Pirenne, Cohen, Focillon, op. cit., p.p. 48—49.
2) Boissonnade : op. cit. p. 205.
3) Thompson : op. cit. vol., 2, p. 738.
4) Pirenne: Med. Cities, p. 74.
5) Cam. Med. Hist., vol. 5, p. 208.

أو عائلات تضم كل مجموعة أو عائلة المدن المتشابهة فى نظمها أو التى أخذت هذه النظم عن مصدر واحد[1] .

وكانت كل مدينة عندما يتم تأسيسها تحيط نفسها بسور يحدها ويحميها . ولم يلبث أن تطلب نمو المدينة واتساعها قيام ضواحى حولها تسكنها الطبقات الفقيرة ، حتى تزداد أهمية هذه الضواحى فيقام سور جديد خارجها بعد هدم السور الأول ، وتضم الفئات الجديدة من سكان الضواحى إلى صلب المدينة[2] . وفى خارج البوابة الرئيسية للمدينة كانت تقام المشانق العمومية لشنق من يستحق الإعدام . كذلك جرت العادة بحفر خندق عميق حول سور المدينة الخارجى ، وعلى هذا الخندق يقام جسر متحرك أمام البوابة ، يرفع ويدلى حسب الحاجة . وإذا كانت مداخل المدينة متسعة لتسمح للعربات المحملة بخيرات المناطق الريفية المجاورة بدخولها فى سهولة ، فإن شوارع المدينة الداخلية نفسها كانت ضيقة لا يزيد عرضها عن عشرة أقدام أحياناً ، كما امتازت بالقذارة نتيجة لإلقاء القمامة والفضلات من نوافذ المنازل ، دون اكتراث بمن فى الطريق من المارة[3] . ولما كانت هذه المدن تعتمد فى الغالب على مياه الآبار لا الأنهار ، فإن الأمراض كانت كثيرة الانتشار فيها ، ونسبة الوفيات عالية بين سكانها نظراً لسهولة تلوث مياه الآبار من جهة ، وإهمال العناية بالقواعد الصحية من جهة أخرى . فإذا ما أقبل الليل ، فإن الظلام الدامس كان يعم شوارع المدينة ، وعندئذ يكثر انتشار اللصوص وقطاع الطرق بحيث يصبح الخروج إلى الطريق العام ليلا أمراً محفوفاً بالمخاطر .

وكانت المدن الإيطالية من أولى المدن الأوربية التى قامت برصف طرقها ، ومنها انتقل هذا التقليد إلى غيرها من المدن ، وإن ظلت الغالبية العظمى لا تحاول رصف طرقها بسبب ارتفاع النفقات[4] . ولما كانت مساحة المدينة محدودة بأسوارها العالية ، فإن أراضى البناء داخلها صارت باهظة القيمة ، مما دفع الملاك إلى إنشاء المبانى العالية ذات الطوابق المتعددة ، والحصول على إيجارات مرتفعة

---

1) Thompson : op. cit.; vol 2. p. 739.

2) Pirenne. Cohen, Focillon : op. cit.: p. 51.

3) Painter : Med. Society; p. 82.

4) Ibid.

من السكان [1] . وقد لجأت حكومات المدن إلى تحديد ارتفاع المبانى لمنع ازدحام السكان من جهة ، وحتى لايصل أى مبنى إلى مستوى ارتفاع كتدرائية المدينة أو مبناها الحكومى من جهة أخرى . وكان يحدث فى بعض الأحيان أن يشترك عدة أفراد فى امتلاك مبنى أو منزل واحد بحيث ينفرد كل منهم بملكية عدة غرف فى المنزل . وهكذا يبدو أن أهم ماميز منازل المدن الأوربية فى العصور الوسطى هو اكتظاظها بالسكان ، حتى أن الغرفة الواحدة — مع ضيقها — كانت تضم أحياناً أكثر من ثلاثة أشخاص . أما سوق المدينة فكان فى ميدانها الرئيسى العام ، وهو الميدان الذى تطل عليه أيضاً كنيستها ومبناها الحكومى .

وقد رحبت المدن عادة بنزلاء جدد من الأقنان يسهمون فى توفير الأيدى العاملة اللازمة ، ويعيشون فى الضواحى القريبة خارج أسوارها . وشجع على هجرة الأقنان إلى المدن أن الفرد كان يتمتع بحريته كاملة داخلها ، فيتخلص من كل أثر للعبودية التى لازمته فى حياة الضيعة ، حتى قيل ، « إن جو المدينة يخلق الحرية [2] » . ولكن تساهل المدينة فى هذه الناحية كان لايعنى بأى حال تساهلها فى منح حقوق المواطنة لغير أهلها . فالأفراد الذين لاينتمون إلى المدينة يعتبرون أغراباً أو أجانب ، ليس من اليسير عليهم أن يصبحوا مواطنين فيها [3] وقد اشترطت معظم المدن على من يريد أن يتمتع فيها بحقوق المواطنة أن يعيش فيها مائة يوم ويوم وألا يدفع مبلغاً كبيراً من المال ، أو يشترى عقاراً فيها ضماناً لحسن نواياه ، وبعد ذلك يقسم على احترام نظم المدينة وقوانينها ، ويضمنه بعض المسئولين من أهل المدينة حتى لايخرق قوانينها [4] . وقبل هذا وذاك يجب أن يثبت أن حالته المالية مرضية وأنه مستعد لخدمة المدينة والدفاع عنها إذا حاق بها خطر . فإذا تم كل ذلك وحصل على حقوق المواطنة ، أصبح من حقه استخدام مراعى المدينة وصيد السمك فى مياهها ، كما تقوم المدينة من جانبها بحمايته وحماية

---

1) Thompson : op. cit. vol. 2p. 740.

2) Pirenne : Med. Cities ; p. 193.

3) Boissonnade : op. cit.; p. 201.

4) Idem ; p. 197.

تجارته من المنافسة الأجنبية ، وتسمح له بشراء لوازمه بسعر سوق المدينة . هذا كله بالإضافة إلى إعفائه من الخدمات الشخصية وتخويله حق المحاكمة أمام جماعة من زملائه المواطنين ، إذا حدث منه ما يستوجب ذلك .

وبعد ، فإنه يلاحظ أن مدن العصور الوسطى لم تكن بالإتساع والعظمة وكثرة السكان التي قد نتصورها . فبالرمو بلغ عدد سكانها نصف مليون في القرن الثاني عشر ، وفلورنسا بلغ سكانها مائة ألف في القرن الثالث عشر ، في حين زاد سكان البندقية قليلا عن مائة ألف ، ومثلها باريس وميلان[1] . على أن صغر مدن العصور الوسطى نسبياً لاينبغي أن يجعلنا نقلل من أهميتها السياسية والاقتصادية ، فقد سبق أن رأينا كيف كانت مدن العصبة الهانزية تنازل الملوك وتحتفظ بأسطول ضخم لمقاومة القرصنة في بحر الشمال[2] . أما البندقية فقد أضحت في أواخر العصور الوسطى أعظم قوة بحرية في أوربا ، وصار لها مستعمرات ومراكز وأحياء تجارية على البحر الأدرياتي وفي بلاد الشرق الأدنى . وحسبنا أن البندقية استطاعت أن تحارب بمفردها الإمبراطورية العثمانية (١٤٦٦ — ١٤٧٥) ؛ كما حاربت الامبراطورية الغربية وأسبانيا وفرنسا[3] .

أما في الناحية الاقتصادية فإن نشأة المدن في القرن الحادي عشر ، جاءت إنقلاباً اقتصادياً شاملا ، إذ جعلت المدينة من نفسها سوقاً مركزياً محلياً يتعارض مع الفكرة التي قامت عليها التكتلات الإقطاعية للضياع ، مما ترتب عليه انهيار نظام الاكتفاء الذاتي للضيعة وقيام العلاقات المتبادلة مع المدينة ، فيرسل إنتاج الريف إلى أقرب مدينة ليباع فيها بدلا من إرساله إلى مقر المالك الإقطاعي[4] هذا بالإضافة إلى أن اقتصاد المدن استتبع التوسع في نظام الأجر النقدي بدلا من نظام الخدمة الإقطاعية. حقيقة إن التقدم في استعمال النقود سار حثيثا ، بحيث لم يكن هناك حتى منتصف القرن الثالث عشر سوى القليل من النقود الفضية في

---

1) Idem, p. 203.
2) Eyre: op. cit., p. 727 & أنظر الجزء الاول من هذا الكتاب ص٦١٧
3) Lodge : The Close of the Middle Ages, pp. 512-513
4) Grass : The Legacy of the Middle Ages, p. 436.

غرب أوربا[١] ، ولكن الفضل يرجع إلى مدن العصور الوسطى فى ابتداع كثير من العملات الأوربية الحديثة مثل الجنيه والشلن والبنس . أما النقود الورقية - فى صورة تعهدات أو كمبيالات - فيرجع استخدامها فى المدن إلى القرن الثالث عشر ، حتى عودلت بالنقود المعدنية فى مدينة كومو حوالى سنة ١٢٥٠[٢] .

وقد امتازت مدن العصور الوسطى بنوع من التخصص التجارى أملته الملابسات والعوامل الجغرافية . فمدن العصبة الهانزية فى الشمال عرفت بتجارة الجلود والفراء والشمع والقمح ، وهى المنتجات الواردة من روسيا ، وبالحديد والنحاس والأخشاب والأسماك واللحوم المقـــددة ، وكلها من واردات سكندناوه[٣] . أما المدن الإيطالية فكان نشاطها الأساسى مركزاً فى حاصلات الشرق ، إذ قامت باستيراد التوابل والعاج والحراير والبخور والعطور والمصنوعات الزجاجية وغيرها لتصدرها إلى مختلف البلاد الاوربية[٤] . وأما مدن فلاندرز فكانت بحكم موقعها بين الشمال والجنوب تتجر فى حاصلات الجهتين بالإضافة إلى صناعة الاصواف وغزلها[٥] .

والخلاصة أن المدينة الاوربية فى العصور الوسطى أشتملت على مختلف العناصر الكفيلة بالتقدم ، والتى بشرت بما سوف يتمخض عنه المستقبل من آمال فى خلق نظام اقتصادى جديد ، وأهم هذه العناصر هى التنظيم التجارى والنمو الرأسمالى وحب المغامرة والبعد عن تزمت رجال الدين[٦] .

القومونات:

وثمة ظاهرة واضحة فى نشأة المدن ، هى تباينها فى مقدار ما حصلت عليه من حريات . فهناك فريق من المدن لم يكتف بالحريات العادية التى حصلت

1) Painter : Med. Society, p. 91
2) Gras : The Legacy of the Middle Ages, p. 441.
3) Pirenne, Cohen, Focillon, op. cit. p p. 130—131.
4) Pirenne : Economic and Social Hist., p.p. 143-145.
5) Pirenne, Cohen, Focillon : op. cit. p.p. 126—127.
6) Gras : The Legacy of the Middle Ages ; p. 460.

عليها بقية المدن ، وإنما استطاعت بفضل تضافر مختلف العناصر داخل المدينة أن تحصل على سلطة سياسية عظيمة ، وهذه المدن هى التى نعرفها باسم القومونات (Communes)(١). وقد ظهرت هذه القومونات أول الأمر فى إيطاليا ، وبصفة خاصة فى لمبارديا وتسكانيا ، فى الوقت الذى كانت السلطة السياسية فى المدن الإيطالية فى أيدى الأساقفة الذين اعتمد عليهم أباطرة الدولة المقدسة فى توطيد نفوذ الإمبراطورية . ولكن حدث قرب نهاية القرن الحادى عشر أن أخذت العناصر الأساسية من سكان هذه المدن تتبرم من حكم الاساقفة ، فاتفق التجار والصناع والنبلاء وغيرهم — فى بعض هذه المدن — على تأليف اتحاد أو تحالف (قومون Commune) الغرض منه تحطيم نفوذ أسقف المدينة(٢) . وكان أن ظهر عجز الاساقفة أمام ذلك التحالف المسلح بين مختلف العناصر التابعة لهم داخل المدينة وخارجها ؛ فسلموا لهم بمطالبهم ، وسمحوا لهم - مجبرين - بكل مايطمعون فيه من نفوذ سياسى. وبذلك ظهرت هذه القومونات فى صورة قوة سياسية عظمى فى إيطاليا . وقد رأينا أثناء الكلام عن النزاع بين البابوية والإمبراطورية كيف حاول الاباطرة إخضاع هذه القومونات فى شمال إيطاليا ، وكيف استماتت القومونات بدورها فى الدفاع عن حرياتها واستقلالها ؛ الأمر الذى أدى — فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر — إلى صراع طويل بين الأباطرة من جهة والقومونات الإيطالية من جهة أخرى(٣) . وكان أن خرجت القومونات ظافرة من هذا الصراع فى النهاية ، مما حقق لها استقلالا سياسياً تاماً(٤) ..

وقد أدى الاستقلال السياسى الذى أحرزته تلك المدن إلى تقدم سريع فى الميادين الاقتصادية والحضارية . ذلك أن أهل القومونات أخذوا يهجمون على أمراء المناطق المجاورة الذين لم يتضامنوا معهم وأجبروهم على الخضوع لسلطة القومون . وبعد ذلك بدأت المدن الكبرى تسعى لفرض سيطرتها على المدن

1) Cam. Med. Hist., vol. 5, p.p. 220—223.
2) Pirenne : Med. Cities, p.p. 177-178.
(٣) أنظر الجزء الأول من هذا الكتاب ص ٣٨٤ وما بعدها .
4) Eyre : op. cit. p.p. 645-336 & 165-1966.

الصغيرة المجاورة ، حتى انتهى الأمر أخيراً بأن دخلت القومونات فى صراع بعضها مع بعض سببه التنافس السياسى والاقتصادى[1] . هذا إلى أن بعض القومونات أخذت تعمل على تأمين نفسها وإقرار النظام فيها عن طريق تفويض شئون الحكم فيها لفئة من أفرادها الأقوياء ، مما أدى إلى قيام بعض الأسرات التى استبدت بالحكم والتى ارتبطت أسماؤها بأسماء المدن التى قامت فيها[2] .

على أن ظاهرة قيام القومونات لم تقتصر على تسكانيا ولمبارديا فى إيطاليا ، وإنما أخذت تمتد هذه الحركة منذ أواخر القرن الحادى عشر إلى فرنسا وفلاندرز ثم ألمانيا وانجلترا، حيث اجتمع فى كثير من هذه البلاد التجار والصناع والنبلاء ضد الأساقفة وانتزعوا منهم السلطة والنفوذ . وهكذا يمكن القول بأن العصر الذهبى للحركة القومونية فى غرب أوربا امتد بين سنتى ١١٠٠ ، ١٤٠٠[3] . وليس هناك من شك فى أن نجاح هذه الثورات ضد أساقفة المدن إنما يرجع إلى موقف الملوك والأمراء الإقطاعيين الذين رحبوا بإضعاف نفوذ الأساقفة السياسى.

ومع أن اصطلاح « قومون » يعنى المدينة التى ارتبطت عناصر سكانها فى حلف ، وحصلوا على استقلالهم عن طريق ثورة مسلحة[4] ، إلا أن المؤرخين درجوا على إطلاق هذا الاصطلاح على كافة المدن التى تمتعت بنفوذ سياسى واسع . وعلى هذا أننا نستطيع أن نحدد القومون بأنه المدينة ذات السلطة السياسية المستقلة ، بمعنى أن أهلها يختارون حكامهم وموظفيهم دون أن يكون هناك مندوب من قبل سيد أو حاكم خارجى يتحكم فيها . أما التزامات القومون نحو السلطة السياسية العليا فى الدولة — كالإمبراطور أو الملك — فكانت محددة بمبلغ معين من المال يدفع سنوياً وقسط معلوم من الخدمة العسكرية[5] .

---

1) Cam. Med. Hist., vol. 5. p. 224.
2) Stephenson : Med. Hist. p. 322.
3) Cam. Med. Hist. vol. 5, p. 624.
4) Painter : Med. Society, p. 74.
5) Cam. Med. Hist.; vol. 5, ps. 223. 234.

النقابات :

نصت البراءات التى حصلت عليها المدن على حق تجارها فى تأليف نقابات أو اتحادات ، فإذا لم تنص البراءة على ذلك فإن السبب يرجع قطعاً إلى قيام النقابة فعلا قبل حصول المدينة على براءتها ؛ لأن الذى كان يحدث فى كثير من الحالات هو أن يبدأ التجار بتأليف نقابة لهم لتقوم هذه النقابة بمفاوضة السيد الإقطاعى للحصول على براءة تضمن للمدينة حريتها(١) .

هكذا ارتبط تجار المدن فى العصور الوسطى فى هيئة نقابات الغرض منها حماية أنفسهم من اعتداء الأمراء ونهبهم من ناحية ورعاية مصالحهم فى الأسواق البعيدة من ناحية أخرى(٢) . ثم كان أن أخذت نقابات التجار هذه فى تنظيم شئون التجارة داخل المدينة ذاتها ، ففرضت على كل فرد خارج النقابة يريد مباشرة نشاط تجارى فى المدينة أن يخضع لتعاليم النقابة وأن يدفع رسما معينا مقابل السماح له بمباشرة نشاطه(٣) . كذلك حرصت نقابة التجار على حماية مستوى الإنتاج والبضائع والتمسك بمبادىء الكنيسة الخاصة بالأمانة وعدم الغش(٤) . وهكذا ظلت نقابات التجار تنظم الحياة التجارية فى العصور الوسطى طالما كانت هذه الحياة بسيطة وخالية من التعقيد ؛ فلما أخذت الأمور تتبدل ظهرت نقابات أصحاب الحرف ، الأمر الذى يعنى الفصل بين التجارة والصناعة(٥) .

وكان الغرض الأساسى من قيام النقابات الأخيرة هو رعاية المصالح الاقتصادية لأعضائها ، فلا يسمح لصانع أن يباشر حرفة فى مدينة إلا إذا كان عضواً فى النقابة التى تضم المشتغلين بهذه الحرفة ، كما حرصت النقابة على عدم استيراد بضائع تضر الإنتاج المحلى للمدينة . وهكذا كانت كل نقابة تحتكر سوق

---

1) Painter : Med. Society, p. 73.

2) Pirenne : Med. Cities ; p.p. 186-188.

3) Heaton : Economic Hist. of Europe ; p.p. 201-252.

4) Painter : Med. Society, p.p. 80-81

5) Gras : The Legacy of the Middle Ages, p. 445.

المدينة فى دائرة اختصاصها ، فى الوقت الذى تحرص على عدم قيام منافسة بين أعضائها[١] .

وقد قامت نقابات أصحاب الحرف على أساس اختيار الأعضاء وانتقائهم، فكان لا يسمح لفرد بعضويتها إلا بعد أن يقدم أدلة كافية على ولائه الدينى وإخلاصه السياسى ، فضلا عن مهارته الفنية . وكانت النقابة الواحدة تضم عدة فئات من الصبيان والعمال والأسطوات[٢] . أما الصبى فكان يدفع رسما ليقبل فى الحرفة ، ويتعهد بطاعة أستاذه وتنفيذ تعاليمه والحرص على مصالحه ورعاية أمواله وأسراره[٣] . وفى مقابل ذلك يمده الأسطى بالمسكن والملبس والمأكل . فلا يستطيع الصبى أن يبيت خارج منزل أستاذه الذى له حق الإشراف على سلوكه وأخلاقه ؛ زيادة على الإشراف المهنى . وبعد أن يقضى الصبى فى الحرفة مدة تتراوح بين عامين وسبعة ، يصبح عاملا يستطيع أن يشتغل مقابل أجر يومى زهيد[٤] . أما العامل فمن الممكن أن يصبح أستاذاً أو أسطى(٥) عندما يثبت إجادته لصنعته وتفوقه فيها ، كأن ينتج قطعة فنية تشهد على براعته ، وعندئذ يستطيع أن يشتغل لحسابه الخاص إذا توافر لديه رأس المال اللازم لذلك(٦) . على أن الرغبة فى الاحتكار والاستئثار بأرباح المهنة لم تلبث أن جعلت أعضاء النقابة الواحدة يحرصون على عدم إشراك منافس جديد معهم ، حتى جاء وقت أصبح من الصعب على العامل أن يصبح أسطى إلا إذا كان إبنا لأسطى أو زوجا لابنته(٧) . وهنا نلاحظ أن جميع الإنتاج الصناعى كان منزلياً ، بمعنى أن الصبى والعامل والأسطى كانوا يعملون جميعاً فى منزل الاخير أو فى دكان ملحق به ، ويبيع الأسطى إنتاجه من نافذة منزله أو فى سوق المدينة على أقصى تقدير[٨] .

---

1) Painter : Med. Society. p.p. 80-81

2) Boissonnade : op. cit. 212-214.

3) Heaton : op. cit., p. 205.

4) Painter : Med. Society ; pp. 81-82.

(٥) اسطاد كلمة فارسية معناها معلم عربت إلى أستاذ بمعنى معلم الثقافة واسطى بمعنى معلم الحرف

6) Stephenson : Med. Hist pp. 560-561.

7) Painter : Med. Society. p. 82.

8) Boissonnade : op. cit., p. 222.

ولم تلبث النقابات أن تكاثرت فى كل مدينة وتفرعت ، حتى شملت جميع الصناعات والحرف فوجدت نقابات لكل من القماشين والصيارفة والأطباء والقصابين وصناع الأحذية والسروجية ، فضلا عن الخبازين والزياتين والنجارين والحدادين وأصحاب الفنادق وغيرهم(١) . وبازدياد التخصص فى الصناعة أو التجارة ازداد عدد هذه النقابات ، مما أدى إلى كثير من الخلافات بين بعضها وبعض حول حدود كل منها وتخصصها(٢) . ومن الأمثلة المعروفة جيداً عن العصور الوسطى أنه حرم على صانع الأحذية أن يصلح حذاء مستعملا ، كما حرم على الإسكافى أن يصنع حذاء جديداً ، وذلك من باب احترام التخصص(٣) .

على أنه يلاحظ أن النقابات كانت أعظم من مجرد تنظيمات اقتصادية تستهدف الربح وترعى مصالح أعضائها ، إذ أنها حرصت دائماً على إتقان الصنعة ورفع مستواها بحيث أصبح من الممكن تحديد متوسط لأسعار الإنتاج تتفق مع مستوى ذلك الإنتاج(٤) . حتى طريقة البيع وتحديد المقاييس والمكاييل والموازين المستعملة حددتها النقابة بطريقة تضمن حقوق كل من البائع والمشترى . كذلك حرصت النقابة على أن يراعى أعضاؤها حقوق بعضهم بعضاً ، فحرمت على الاسطوات الاستغناء عن العمال وطردهم دون مبرر ، وفى الوقت نفسه أجبرت العمال على البقاء فى عملهم مدداً معينة يتفق عليها . هذا بالإضافة إلى ما لجأت إليه النقابات من تحديد تكاليف الإنتاج من جهة وأسعار البيع من جهة أخرى(٥) . ثم إن أهمية النقابة لم تقتصر على الجانب الاقتصادى فحسب ، وإنما بدت أيضاً واضحة فى الجانب الاجتماعى . فأعضاء النقابة الواحدة كانوا يشتركون جميعاً فى إحياء الأعياد العديدة فضلا عن الحفلات الخاصة بهم(٦) . كذلك قامت النقابة بخدمة أعضائها اجتماعياً عن طريق تحقيق نوع من التضامن الاجتماعى وتقديم المساعدة إلى من يصاب منهم بمرض أو عجز(٧) فإذا مات أحد أعضاء النقابة ، اشترك

1) Gras : the Legacy, p 445 & Cam. Med. Hist. vol. 5. p 237.
2) Boissonnade : op. cit; p. 215.
3) Graś : The Legacy, p. 446.
4) Boissannde : op. cit., p.p. 202-208.
5) Pirenne ; Economic and Social Hist., p. 286.
6) Boissonnade ; op. cit. p.p. 223-224.
7) Heaton : op. cit. pp. 208-209.

بقية الاعضاء فى تشييعه واهتموا بأمر أسرته وأولاده(١) أما فى الجانب السياسى فإن النقابات غدت على جانب كبير من النفوذ وبخاصة فى المدن الحرة حيث نجحت النقابات فعلا فى السيطرة على الأداة الحكومية ، بعد سلسلة من الثورات امتاز بها تاريخ المدن الأوربية وبخاصة فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر(٢) .

ولكن يبدو أن ازدياد نفوذ النقابات وسلطانها سرعان ما أدى بالتالى إلى التعسف فى استخدام ذلك النفوذ والسلطان(٣) . ذلك أن النقابات لجأت إلى حماية أعضائها من المنافسة عن طريق تحديد عدد الصبيان الذين يقبلون للإشتغال بالحرفة من جهة ، وعن طريق مطالبة السلطة الحاكمة فى المدينة بفرض ضرائب على البضائع الأجنبية المستوردة من الخارج من جهة أخرى(٤) . ولم يلبث أن ازداد تعسف النقابات ، حتى غدا من الصعب على العامل العادى أن يدخل دائرتها(٥) . وهكذا بعد أن كان العامل يعمل فى منزل الأسطى ، أصبح يتسلم المواد الخام اللازمة لعمله من رئيس النقابة ليصنعها فى منزله . وفى هذه الحالة أصبح العامل أكثر تعرضاً للبطالة ، فأنشأ يكدح حتى لايتعرض لقطع أجره أو لكى يحصل على أجر أعلى ، مما جعل العمال فى نهاية العصور الوسطى مجرد مجموعة من الأجراء لايفرق بينهم إلا نوع العمل . وإذا كان نظام النقابات قد حرص على الاحتفاظ بالحرفة بمستوى عال ، فإن هذا النظام كان له من جهة أخرى أثر واضح فى عرقلة التقدم الصناعى وتأخير تطوره لأن كل نقابة أشترطت على المشتغلين بالصنعة عدم استعمال آلة أو وسيلة جديدة لاتقرها النقابة ، مما قتل روح الابتكار والتجديد(٦) .

---

1) Painter ; Med Society, p. 83.
2) Taylor ; Med. Mind. vol. 1. pp. 341-342.
3) Heaton : op. cit., p. 204.
4) Painter : Med. Society ; pp. 80-81.
5) Boissonnade : op. cit., p. 201.
6) Pirenne : Economic and Social Hist. p 186

طرق النقل :

وقد اعترضت التجارة فى أوربا العصور الوسطى عقبات كأداء أهمها ضعف وسائل المواصلات وصعوبة انتقال التجار ونقل البضائع من مكان إلى آخر . ذلك أن الطرق العظيمة المرصوفة بالأحجار، التى أقام الرومان منها شبكة قوية ضخمة ربطت مراكز الإمبراطورية ومدنها بعضها ببعض لم تلبث أن اختفت وعفى عليها الزمن ؛ كما انهارت الجسور المقامة على الأنهار نتيجة للإهمال الذى تعرضت له كافة المرافق العامة عند انحطاط أحوال الإمبراطورية(١) . ولم تكن الطرق التى عرفتها أوربا العصور الوسطى أكثر من سبل بدائية غير ممهدة تكسوها الأتربة الكثيفة ، التى سرعان ما تتحول إلى أوحال عند هطول الأمطار ، زيادة على ما يعترضها من حفر خطيرة جعلت المشى فيها ليلا أمراً محفوفاً بالمخاطر(٢) . أما الجسور فغدت قليلة ونادرة ، الأمر الذى تطلب من المسافر فى كثير من الحالات أن يخوض فى الماء بنفسه أو يبحث عن معدية يعبر بها النهر . وفى هذه الظروف لم يجد تجار العصور الوسطى وسيلة لنقل بضائعهم سوى استخدام البغال والخيل، فى حين اضطر صغار التجار إلى حمل بضائعهم على ظهورهم والتنقل بها سيراً على الأقدام من مكان إلى آخر(٣) . أما العربات فبدأ استخدامها أول الأمر فى إيطاليا حيث حرصت المدن على تحسين الطرق والاحتفاظ بها فى مستوى مناسب . ثم لم يلبث أن بدأ استخدام نوع من العربات البدائية فى فرنسا وألمانيا ، وإن ظلت القاعدة المتبعة هى عدم استخدام العربات إلا فى نقل البضائع إلى الأسواق المحلية(٤) .

حقيقة إن هناك عدة محاولات بذلت فى الشطر الأخير من العصور الوسطى لصيانة الطرق والاحتفاظ بها فى مستوى يمكن معه استخدامها ، ومن ذلك

---

1) Boissonnade ; op. cit p 28
2) Pirenne : Economic and Social Hist., p 88
3) Heaton : op. cit., p 204
4) Painter : Med. Society, p.p 80—81

بما قامت به الهيئات الكنسية من جهود مبكرة لإصلاح الطرق وصيانتها[1] . ولكن ملاك الأراضى الذين تقع ضياعهم على الطرق العامة ، والذين كان من المفروض أن يتحملوا نصيبهم فى صيانة الطرق ، أو على الأقل يخصصوا جزءاً من الضريبة التى يجمعونها من العابرين لهذا الغرض، لم يحاولوا النهوض بواجبهم . وهكذا استمر الأمراء يجمعون ضريبة من المارين بحصونهم أو بأراضيهم[2] ، دون أن يكون لهذه الضرائب ثمرة سوى مضاعفة تكاليف السفر والنقل[3] ومع أن التاجر كان يضيف ضريبة الطرق هذه إلى أثمان بضاعته ، إلا أنها - مع ذلك عادت عليه بالغرامة. لأن ارتفاع ثمن البضائع من شأنه أن يقلل من فرص البيع

أما الكنيسة فكان إنشاء الطرق وصيانتها أمر على جانب عظيم من الأهمية بالنسبة لها(٤) ، حتى أعلنت أن رعاية الطرق تعتبر من أعمال البر والتقوى التى يجازى صاحبها عليها بحسن الثواب والغفران ، بالضبط كالإحسان والحج . لذلك وجدت من بين المنظمات الدينية فى العصور الوسطى منظمة عرفت باسم «إخوان الجسر Fratrespontis » الغرض منها المساهمة فى بناء الجسور على الأنهـــار وصيانتها(٥) . كذلك دأبت الحكومات الأوربية فى العصور الوسطى على تشجيع إنشاء الطرق وتأمينها . من ذلك ما حاوله هنرى الأول ملك انجلترا من إنشاء طرق عمومية واسعة بحيث يتسع عرضها لمرور عربتين متقابلتين، كما أصدر التعليمات بتطهير الأراضى الواقعة على جانبى الطرق المؤدية إلى الأسواق من الأشجار والأحراش حتى لا يتخذها قطاع الطرق والنهابة أوكاراً يختفون فيها . والواقع إن الطرق التجارية فى أوربا العصور الوسطى كثيراً ما تعرضت لنهب الأمراء والجند المأجورين والمجرمين العاديين، حتى وجد التجار أنه لابد لهم من الاعتماد على أنفسهم فى حماية أرواحهم وبضائعهم(٦) . لذلك كان التاجر الكبير

---

1) Boissonnade : op. cit. p 201
2) Painter : Med. Society. p 70
3) Pirenne : Economic and Social Hist, p 87
4) Painter: Med. Society p 70
5) Boissonnade : op. cit., p 164
6) Pirenne : Economic and Social Hist. p 93

يستأجر أحياناً بعض الحراس المسلحين لحراسة متاجره عند نقلها من مكان لآخر؛ وإن كان الغالب هو تجمع التجار عند سفرهم على هيئة قوافل لصد أى عدوان مشترك[١] . هذا فى الوقت الذى أخذت المدن ذات المصالح المشتركة ترتبط بعضها مع بعض فى هيئة أحلاف لحماية تجارها وبضائعها ، كما فعلت مدن العصبة الهانزية[٢] .

أما الفنادق فكانت فى أول الأمر نادرة وغير مأمونة ، مما جعل الكنيسة تؤدى خدمة هامة عن طريق إقامة مؤسسات لها فى المناطق المنعزلة ، لاسيما أن الأديرة كانت ترحب بكل من يمر بها ، دون تمييز بين فقير وغنى . وبانتعاش التجارة وكثرة الأسفار ازداد عدد الفنادق والخانات ، واعتاد التجار أن ينزلوا فيها أثناء أسفارهم ،

ولعل سوء أحوال الطرق البرية وصعوبة السير فيها ، كانت من العوامل القوية التى شجعت على تفضيل النقل النهرى ، بحيث أصبحت القوارب والنقالات النهرية على درجة من الكثرة استلزمت قيام موانى نهرية ونقابات لعمال النقل المائى فى كثير من مدن فرنسا وإيطاليا وألمانيا التى تقع على أنهارها الكبرى[٣] . ولكن النقل النهرى لم يسلم هو الآخر من عدة عقبات أهمها تجمد مياه الانهار فى فصل الشتاء ، وأخطار الفيضانات فى الربيع ، وقلة عمق مجارى الانهار[٤] . هذا بالإضافة إلى أن الطرق النهرية لم تسلم هى الاخرى من مكوس مثل المكوس المفروضة على الطرق البرية[٥] ، كما أن الامراء الذين حرصوا على جمع هذه المكوس لم يهتموا كذلك بالمحافظة على سلامة مجرى النهر وتأمينه ، الامر الذى دفع تجار المدن النهرية إلى تأليف اتحادات لجمع هذه الضرائب واستغلال حصيلتها فى تطهير مجارى الانهار وبناء أحواض للسفن(٦) .

---

1) Pirenne : Med. Cities. p.p. 120—121

2) Heaton : op. cit., p. 160 Cam. Med. Hist. vol. 5, p. 239.

3) Boissonnade : op. cit, p. 164.

4) Pirenne : Economic and Social Hist. p 90

5) Heaton : op. cit., p 159.

6) Pirenne : Economic and Social Hist., p 90

أما النقل البحرى ، فعلى الرغم مما اعترض سبيله هو الآخر من أخطار ، إلا أنه أحرز تقدماً كبيراً عن النقل البرى فى العصور الوسطى[1] . وكانت السفن فى أول الامر تلتزم السير قرب الشاطىء وعلى مرأى منه خوفا من الغرق من ناحية أو من أن تضل الطريق وسط البحر من ناحيـة أخرى . ولم يـكن ذلك إلا بعد أن شاع استخدام البوصلة فى القرن الرابع عشر — بعـــد أن عرفها الاوربيون عن العرب — عندما تجاسرت السفن على شق البحر فى شىء من الجرأة والاطمئنان[2] . وقد تبع ذلك تقدم المعلومات البحرية الخاصة بالمواقع الجغرافية واتجاه الرياح ، بالإضافة إلى التقدم الذى أحرزه فن بنـاء السفن وتصميمها . وهكذا تسمع عن سفن البندقية أن الواحدة منها كانت تحمل أيام الحروب الصليبية ما يقرب من ألف راكب ،وإن كان هؤلاء الركاب مكدسين بعضهم فوق بعض ، ويبدو أن سفن البحر المتوسط كانت أكبر حجما من السفن المستخدمة فى البحر البلطى أو بحر الشمال بسبب قلة عمق الموانى الشمالية . وهنـا نلاحظ أن السفن فى العصور الوسطى ظلت تسير بالمجداف والشراع[3] ، وإن كانت عملية التجديف هذه مرهقة وشاقة بحيث تطلبت تسخير العبيد الذين كانوا يربطون أحيانا بالسلاسل فى أماكنهم لمواصلة التجديف ليل نهار .

على أن البحار لم تخل هى الاخرى من قراصنـة يهددون السفن وينهبون ما بها من متاجر، الامر الذى أدى بالسفن التجارية إلى التجمع فى شكل أساطيل لترد أى عدوان . أو ربما قامت بحراستها فى بعض الاحيان سفن مسلحة[4] . وكانت هذه الاساطيل التجارية تقوم بسفريات موسمية ؛فى الوقت الذى يعتدل الجو وتهدأ البحار فى الربيع والصيف(٥) . ومع أن المدن البحرية عاشت دائماً فى خوف من تعدى القراصنة على سفنها ، إلا أنها لم تتورع عن تحريض القراصنة

---

1) Boissonnade . op. cit. p 173
2) Stephenson . Med. Hist. p. 227
3) Pirenne, Cohen, Focillon . op. cit. p 82
4) Pirenne . Economic and Social Hist., p 91
5) Boissonnade . op. cit. p 174

على مهاجمة سفن المدن الاخرى المنافسة لها ، مما أدى إلى كثير من الحروب التجارية بين المدن بعضها وبعض ، وهى الحروب التى اتخذت طابعاً عاما من القرصنة والسلب[1] . ولكن نمو التجارة ونشاط الحركة التجارية فى البحار أواخر العصور الوسطى تطلبت تطهير هذه البحار من القراصنة ، أو على الاقل تطهير الجهات التى اعتبرتها بعض المدن مناطق نفوذها[2]. فالبندقية مثلا اعتبرت البحر الادرياتى منطقة نفوذ لها، فقامت بتطهيره من القراصنة كما قامت مدن العصبة الهانزية بتطهير بحر الشمال والبحر البلطى . أما الصعوبة الاخرى التى اعترضت النقل البحرى فكانت تتمثل فى المبدأ السائد حينئذ وهو أنه إذا جنحت سفينة وألقى الموج بها أو ببضائعها على الشاطىء ، فإنها تصبح غنيمة لصاحب الارض التى جنحت السفينة عليها[3] . لذلك دأب الفلاحون وصيادو السمك - بتحريض من سادتهم الإقطاعيين — على وضع عقبات فى طريق السفن عند بعض الاماكن القريبة من الشاطىء لأصطياد سفن التجار . وعلى الرغم من القوانين المشددة التى وضعها بعض ملوك انجلترا - مثل هنرى الاول - لمنع هذا العبث ، إلا أنه كان من الصعب القضاء عليه قضاء تاماً .

ومهما يكن الامر ، فإن النقل البحرى - مع جميع هذه العقبات - امتاز عن غيره من طرق النقل التى عرفتها أوربا العصور الوسطى ، وذلك بعدم وجود مكوس أو ضرائب على السفن التى تعبر البحر، كما امتاز بعظم الحمولة التى تستطيع السفن البحرية نقلها ، مما أدى إلى ازدياد استخدام هذه الوسيلة من وسائل النقل .

وأخيراً نلاحظ أنه إذا كانت التجارة فى العصور الوسطى قد تعرضت لكثير من المكوس الداخلية التى عاقت سبيلها ، فإن عدم وجود رسوم جمركية على الحدود السياسية بين مختلف البلدان خفف من حدة البلاء . ولم يكن ذلك إلا فى القرن الخامس عشر عندما أخذت تظهر فى أوربا سياسة حماية الإنتاج المحلى وفرض رسوم جمركية على البضائع المستوردة من الخارج[4] .

---

1) Cam. Med. Hit., vol. 5, p.p. 240—241
2) Pirenne, Cohen, Focillon . op. cit., p 87
3) Boissonnade . op. cit., p 173
4) Pirenne . Economic and Social Hist. p 92

مواسم :

لم يقتصر النشاط التجارى فى أوربا العصور الوسطى على الأسواق المحلية - اليومية أو الاسبوعية - فى المدن والمناطق المجاورة، حيث كان يتم تبادل الإنتاج المحلى وبيعه . وإنما ظهر هذا واضحاً كذلك فى المعارض أو الأسواق الكبرى Fairs التى امتازت بها تلك العصور(١) .

والواقع أن أوربا لم تعرف فى العصور المظلمة أسواقا تجارية كبرى ؛ إذا استثنينا بعض الاسواق ذات الشهرة الدينية مثل سوق سانت دينس St.Denys - قرب باريس ؛ وهى التى كانت مثل أسواق الموالد فى البلاد الإسلامية - تجتذب إليها عدداً كبيراً من العملاء الذين يفدون إليها من مختلف البلاد المسيحية بقصد الزيارة والتبرك ثم البيع الشراء . وفيما عدا هذه الاسواق ذات الصبغة الدينية ،لم تعرف أوربا فى القرنين التاسع والعاشر سوى أسواق محلية أسبوعية يذهب إليها أهل المنطقة من الافنان والفلاحين لبيع بضع دجاجات أو بيضات أو قطع صغيرة من النسيج . ومن الواضح أن المعاملات التجارية التى كانت تتم فى تلك الاسواق ظلت على نطاق ضيق وفى حدود مبالغ صغيرة ولكفاية أغراض ومجتمعات محدودة(٢) .

على أن ازدياد النشاط التجارى منذ القرن الحادى عشر استلزم قيام أسواق كبرى فى جنوب أوربا وغربها للقيام بالعمليات التجارية الواسعة النطاق . ولا توجد ثمة علاقة تربط هذه الأسواق الكبرى (Fairs) بالأسواق المحلية الصغيرة (local markets) التى عرفتها أوربا من قبل . لأنه فى حين كانت الأخيرة تستهدف سد الحاجات اليومية البسيطة للمنطقة المجاورة ، إذا بالأولى على العكس عبارة عن اجتماعات دورية يلتقى فيها تجار محترفون لإتمام صفقات

---

1) Boissonnade op. cit. p. 170
2) Pirenne . Economic and Social Hist. p.p. 10—11

تجارية كبيرة — بالجملة غالباً — ؛ مع العمل على اجتذاب أكبر عدد ممكن من الناس وأعظم قدر مستطاع من البضائع ، بغض النظر عن احتياجات المنطقة المحلية التى يقام فيها السوق[1] .

وأبرز مثل لهذا النوع من الأسواق الكبرى التى عرفتها أوربا العصور الوسطى كانت سوق شامبنى ، وهو الإقليم الذى هيأه موقعه الجغرافى ليكون ملتقى تجار الجنوب بتجار الشمال[2] . وقد دأب أمراء شامبنى مدة ثلاثة قرون على العناية بالمصالح التجارية لإقليمهم نظراً للفوائد العظيمة التى عادت عليهم من وراء ذلك ، مما أكسب أسواق شامبنى شهرة واسعة[3] . والمعروف أن هذه السوق — وأمثالها — سارت وفق تنظيمات دقيقة أشرف على تنفيذها موظفو الكونت الذى يتبعه السوق ، كما روعى تسلسل مختلف أسواق الإقليم زمنيا ، بحيث تستغرق السنة بأكملها ولا يأتى إثنان منها فى وقت واحد . وكان التجار يحضرون قبل موعد السوق بأسبوع لإعداد بضائعهم وتنظيم عرضها . وفى المدة المحددة لعمل السوق ، كان يعلن عن فتح أبوابه صباح كل يوم وعن غلقها فى المساء عن طريق دق الأجراس ، ولا يجوز التعامل التجارى فى السوق إلا فى الفترة المحدودة بين دق الجرس فى الصباح والمساء . وفى الأيام العشرة الأولى من سوق شامبنى كان لا يسمح إلا ببيع الأصواف ، ثم تباع الجلود والفراء فى الأيام العشرة الثانية ، وفى العشرة الثالثة تباع البضائع التى توزن وتكال ؛ وأخيراً تترك خمسة أيام للتجار يجردون فيها بضائعهم ويتممون على حساباتهم ، ويدفعون ما عليهم من رسوم لموظفى الكونت ، مع مراعاة ختم العقود الهامة بخاتم السوق[4] . وبفحص هذه العقود يمكننا أن نأخذ فكرة عامة عن البضائع التى كانت تعرض فى السوق ، مثل الحرائر والتوابل المستوردة من الشرق ، والأصواف الآتية من فلاندرز وإيطاليا ، والأتيال الوافدة من بريتانى ، والفراء المحضرة من روسيا وسكندناوه ، والمنتجات الحديدية والجلدية المجلوبة من ألمانيا والنبيذ والخمور الواردة من فرنسا وأسبانيا[5] .

---

1) Idem, p.p. 97—98
2) Painter . Med. Society, p. 76.
3) Idem, p 77
4) Boissonnade . op. cit., p. 172
5) Painter . Med. Society. p 77

على أن أسواق شامبنى نزلت بها ضربتان أدتا إلى زعزعة مركزها ، الأولى عندما لجأ فيليب الرابع — فى سبيل السيطرة على فلاندرز — إلى فرض رسوم باهظة على البضائع الفلمنكية المخصصة لأسواق فلاندرز ، والثانية افتتاح البنادقة سنة ١٣١٧ لخط ملاحى جديد يتجه رأساً إلى إنجلترا وفلاندرز[١] . ومهما يكن الأمر فإن هذه الأسواق الكبرى تمتعت بمركز وامتيازات واسعة فى ظل القانون ، فكانت الأرض التى يقام عليها السوق تحظى بنواع من الضمان والسلام بحيث يتعرض من تحدثه نفسه بتعكير صفو هذا الجو السلمى لأشد أنواع العقوبات[٢] . أما التجار الذين يقصدون السوق فكانوا تحت حماية (conduit) الأمير الذى يقع السوق داخل منطقة نفوذه هذا عدا وجود مشرفين وملاحظين للأسواق (custodes nundinarum) يعملون على حفظ النظام فيها ويفصلون فى المنازعات التى تنشأ بين التجار ، ويحملون أختام السوق لختم المعاملات التى تتم بين التجار[٣] .

نشأة المصارف :

ولما كان كثير من الأمراء الإقطاعيين يتمتعون بحق سك العملة الخاصة بهم ، فإن الأسواق الأوربية وجدت نفسها فى حاجة إلى صيارفة يبدلون النقود للتجار ، كل بالعملة التى يطلبها والتى يستطيع أن يتعامل بها فى بلده . ويعتبر عمل هؤلاء الصيارفة النواة الأولى للنظام المصرفى الرأسمالى ، وذلك لأن الصراف فى العصور الوسطى كان يحتفظ عادة بصندق قوى متين يضع فيه نقوده ، مما جعل بقية الأفراد يلجئون إليه لإيداع أموالهم فى مأمن عنده[٤] . ولم تلبث أن استخدمت فى إيطاليا الحوالات والكمبيالات المالية كوسيلة لتجنب نقل المعادن النفيسة من ذهب وفضة ثم أخذ موظفو البابوية ينشرون هذا النظام فى مختلف أنحاء أوربا[٥] كذلك أخذ يظهر نظام الدفع أو الشيكات بحيث إذا كان لاثنين من التجار

(1 Heaton · op. cit., p. 170

2) Painter . Med. Society, p 77

3) Pirenne . Economic and Social Hist., p 99

4) Stephenson. Med. Hist. p 568

5) Cam. Med. Hist., vol. 5. p 240

ودائع مالية عند صراف واحد فإن أحدهما يستطيع دفع حساب الآخر بإرسال ورقة إلى الصراف يأمره بدفع المبلغ لوميله[1] . ولم تستخدم هذه الوسيلة فى المعاملات المالية داخل البلد الواحد ، وإنما استخدمت بين مختلف البلدان، حيث بدأ بها الداوية والاسبتارية فى القرن الثانى عشر ثم حاكاهم كثير من التجار فى القرن التالى[2] . وعندما استكشف الصراف أن الودائع التى لديه أكثر من حاجة عمله اليومى بدأ يفكر فى استغلالها فى الإقراض بفائدة ، مما جعل الصيارفة يقومون بوظيفة أخرى من وظائف البنوك . وهنا نلاحظ قاعدة عامة ، وهى أن صيارفة العصور الوسطى جمعوا بين مهنتى إقراض الاموال والتجارة . وكان ملوك أوربا وأمراؤها يعانون فى القرن الثانى عشر ضيقا ماليا شديداً . بسبب كثرة النفقات والمطالب ، فى الوقت الذى أخذت ثروة التجار تزداد ازديادا يسترعى الانتباه نتيجة لازدياد النشاط التجارى . لذلك لم يجد أفراد الطبقة الأرستقراطية وسيلة لسد مطالبهم سوى الاقتراض بفائدة من التجار وعندئذ لم يستطع الاخيرون رفض مطالب الحكام ورغباتهم مما شجع مبدأ القروض ذات الفائدة[3] .

والمعروف أن اليهود انفردوا أول الامر — فى أوربا العصور الوسطى — بإقراض الاموال بفوائد ، مما مكنهم من السيطرة على الحياة المالية فى أوربا ؛ لان الكنيسة حاربت أكل الربا الذى نهى عنه الإنجيل والمسيح(٤) . وهكذا

---

1) Pirenne, Cohen, Focillon . op. cit., ps 21, 107

2) Painter . Med. Society, p 91

3) Pirenne . Economic and Social Hist., p.p. 127—129

(٤) « إن أقرضت فضة لشعبى الفقير الذى عندك فلا تكن له كالمرابى ، لاتضعوا عليه ربا » (العهد القديم — سفر الخروج — الاصحاح الثانى والعشرون — ٢٥) كذلك « وإذا افتقر أخوك وقصرت يده عندك فاعضده غريباً أو مستوطناً يعيش معك ، لا تأخذ منه ربا ولا مرابحة بل اخش إلهك فيعيش أخوك معك ، فضتك لا تعطه بالربا ، وطعامك لاتعطه بالمرابحة . » (العهد القديم ـ سفر اللاويين ـ الاصحاح الخامس والعشرين ٣٥—٣٧) وكذلك « بل أحبوا أعداءكم واحسنوا وأقرضوا وأنتم لاترجون شيئاً » . (العهد الجديد — إنجيل لوقا — الإصحاح السادس — ٣٥)

شاءت الظروف أن تنافس اليهود فئة أخرى فى ميدان النشاط المالى فى أول الامر ولكن اتساع نطاق النشاط التجارى جعل من الممكن التهرب من تعاليم الكنيسة الخاصة بتحريم الفوائد المالية[1] ، كأن يتعهد المقترض بدفع ألف فلورين فى وقت محدود بدون فائدة ، ولكنه لا يتسلم من المقترض فعلا إلا تسعمائة فلورين ، وبذلك تكون فائدة القرض مائة فلورين لم تدون فى العقد[2] كذلك هناك وسيلة أخرى تحايل بها أحد التجار الإيطاليين فى أوائل القرن الثالث عشر ، عندما أقرض الحكومة الإنجليزية مبلغا من المال على أن تسدد الحكومة قيمة هذا المبلغ بالاصواف . وهنا روعى فى العقد أن تكون قيمة الاصواف التى تسلم للتاجر أكبر من قيمة المبلغ الذى دفعه للحكومة ، وبذلك حصل التاجر على فائدة القرض[3] .

وعن هذه الطرق استطاع الإيطاليون أن يشتغلوا بأعمال الصيرفة ليحلوا محل اليهود ، لاسيما بعد أن أخذ الناس يفرقون بين نسبة الفائدة المعتدله والربا الفاحش ، وبعد أن أتت ثورة الحروب الصليبية كذلك بكثير من التشريعات والقوانين التى تستهدف الحد من نشاط اليهود (٤) . ذلك أنه لم يتيسر للإيطاليين أن يحلوا محل اليهود إلا بعد أن أخذت الدول الاوربية مثل انجلترا وفرنسا ثم أسبانيا تضطهد اليهود وتطردهم بالجملة من بلادها لمسلكهم الاستغلالى المشين(٥) .

---

1) Cam. Med. Hist. vol. 6, pp. 491—492
2) Boissonnade . op. cit. p 166
3) Painter . Med. Society., p. 89
4) Heaton , op. cit., p. 184
5) Pirenne . Economic and Social Hist., p 134

وكان أن ظهرت عدة بيوت مالية كبيرة فى إيطاليا أهمها بنك القديس جورج فى جنوا الذى ربما كان أشهر البنوك الاوربية ، فى العصور الوسطى[١] على أن البابوية فضلت دائماً أن تعامل بنوك فلورنسا التى ظهر معظمها فى القرن الثالث عشر ، والتى تعتبر أول نماذج للبنوك الدولية ، إذا كان لبعضها فروع امتدت من انجلترا وفلاندرز غربا حتى أطراف البحر المتوسط شرقا ؛ كما قامت بتقديم استشاراتها المالية للملوك والبابوات[٢] .

1) Grass . The Legacy of the Middle Ages. p 442
2) Cam. med. Hist., vol. 6; p.p. 486—487

الباب الخامس

التعليم والمدارس والجامعات

التعلم في أوائل العصور الوسطى :

يحسن بنا أن نبدأ هذا الموضوع بالإشارة إلى حقيقة جديرة بالاهتمام ، وهى أن التعليم فى أوربا العصور الوسطى لم يقتصر على المؤسسات الاكاديمية المعروفة من مدارس وجامعات فحسب ؛ وإنما امتد بحيث أصبح بلاط كل أمير إقطاعى بمثابة مدرسة لتعليم صغار النبلاء ليكونوا فى المستقبل فرساناً صالحين مؤهلين خلقياً وحربياً . هذا إلى أن بيوت الاسطوات من أصحاب الحرف والتجار ، صارت هى الاخرى معاهد لتعليم الصبيان وتربيتهم وتهيئتهم للحياة العملية[1] . وليس هناك من شك فى أن هذه الاتجاهات وأشباهها أسهمت فى تربية نسبة محدودة من أبناء العالم الغربى فى عصر ضعف فيه التعليم العام وقل الإقبال عليه .

أما فيما يتعلق بهذا التعليم العام فيلاحظ أن العصور الوسطى ورثت النظم الرومانية، وذلك عن طريق المؤسسات الكنسية والديرية التى احتفظت بالطابع العام للتعليم القديم ، على الرغم من أن الكنيسة غيرت كثيراً فى أفق المعرفة القديمة ومادتها ، حتى قيل بأن نمو الكنيسة فى الغرب جاء مصحوباً بتدهور سريع فى الدراسات الكلاسيكية[2] . على أن الفجوة بين العصور القديمة والوسطى لم تكن متسعه فى نظم التعليم مثلما كان الحال فى مواد الدراسة ،فظلت المدارس على وضعها دون تغيير كبير فى نظمها وإن اختلفت فى مظهرها العام[3]

---

1) Painter. A Hist. of the Middle Ages, p 465.
2) Lane-Poole , Illustrations of the Med. Thought, p 5
3) Eyre, op, cit, p, 324

وكما أخذ التعليم الرومانى عن اليونان أخذ التعليم فى العصور الوسطى عن الرومان ، وبخاصة عن مدارس البلاغة الإمبراطورية[1] . ذلك أنه كانت هناك فى أوائل عصر الإمبراطورية الرومانية مرحلتان من المدارس تساعدهما الدولة فى المدن الكبرى ، كما كان هناك نظام لمنح الدرجات العلمية وتعيين المدرسين[2] أما المرحلة الأولى أو الإبتدائية من المدارس فكانت تلقن فيها القراءة والنحو والحساب والموسيقى ، فى حين اهتمت مدارس المرحلة الثانية أو العليا بالبلاغة والخطابة والأدب مع شىء من الدراسات القانونية والفلسفية[3] على أن مدارس البلاغة هذه لم تلبث أن اختفت فى القرن الخامس ، وإن ظلت المدارس العلمانية — التى سارت وفق الأسلوب الرومانى فى التربية — منتشرة فى أجزاء من غاليا وإيطاليا حتى نهاية القرن السادس ذلك أنه من المعروف أن العصر الذى أعقب غزوات البرابرة وسقوط الإمبراطورية فى الغرب كان أحلك العصور فى تاريخ أوربا الثقافى[4] . ومهما تكن أهمية الدور الذى قامت به الكنيسة فى الاحتفاظ بذلك الشعاع الخافت الذى ظل مضيئاً فى سماء غرب أوربا فى القرن السابع ، فمن الثابت أن كتب النحو التى اعتمد عليها طلاب ذلك العصر كانت كتابات دوناوس وسرفيوس وهما من علماء القرن الرابع وكلاهما وثنى ، فى حين ظل كتاب برسكيان عن « قواعد النحو » — الذى ألفه باللاتينية حوالى سنة ٥٠٠ فى ثمانية عشر جزءاً — يمثل المرجع الأول فى ذلك العلم[5] .

على أن أهم ما يميز ذلك العصر هو أن التعليم أخذ يخضع خضوعاً تاما لسيطرة الكنيسة ، نتيجة لانحلال السلطة العلمانية وازدياد نفوذ البرابرة فى المجتمع الغربى من جهة ، واتساع نفوذ الكنيسة تدريجياً من جهة أخرى . وهنا نلاحظ أن الكنيسة أقرت تدريس الفنون الحرة — التى كانت تلقن للتلاميذ فى المدارس

---

1) Cam, Med. Hist, vol, 5, p 765
2) Adamson , The Legacy of the Middle Ages, p 255
3) Thompson . op. cit, vol, 2, p 742
4) Rashdall , The Universities of Europe in the Middle-Ages. vol, 1, pp 26 – 27
5) Taylor , The Mediaeval Mind, vol, 2, p.p, 150-151

الوثنية — ولكن على أسس مسيحية، لأن الكنيسة وجدت هذه الفنون أساسية ولابد منها لفهم الكتاب المقدس نفسه[١] . وهكذا ظهر من النحويين المسيحيين مارتيانوس كابلا الذى كان أول من حدد الفنون السبعة الحرة بالنحو والبلاغة والمنطق والحساب والهندسة والفلك والموسيقى[٢] . ولعل نظره تحليلية يلقيها الباحث على هذه المجموعة من الدراسات تكشف له أنها تنقسم إلى قسمين : دراسات إنسانية ودراسات علمية. وقد أدرك الفيلسوف بيو بوس(٤٧٥-٥٢٤) هذا الفارق فقسمها إلى مجموعة ثلاثية تشمل النحو والبلاغة والمنطق . ومجموعة رباعية تشمل الحساب والهندسة والفلك والموسيقى[٣]. ثم كان أن أقر كاسيدور هذا التبويب ، وعن طريقه انتقل إلى المدارس الديرية ، مما جعل كاسيدور هذا صاحب أهمية كبيرة فى التعليم فى أوربا العصور الوسطى(٤) .

وقد ظلت المدارس فى الغرب حتى سنة ٦٠٠ تهيء تعليما ابتدائياً عاماً لإعداد الأفراد للحياة ، ولكنها لم تلبث أن تحولت كلية لإعداد رجال الدين للمستقبل . ويلاحظ أن الجرمان أظهروا نفوراً قوياً من التعليم ، حتى أن ثيودريك — ملك القوط الشرقيين — حرم إرسال أبناء القوط إلى المدارس محتجاً بأن الصغار الذين يشبون على الخوف من عصا المعلم لن تكون لديهم فى المستقبل الشجاعة الكافية لمواجهة السيوف والحراب[٥] . وهكذا لم يكد ينتهى القرن السابع إلا كان التعليم فى غرب أوربا قد أصبح دينياً بحتاً ، داخل مدارس ديرية وأسقفية ، واستمر الوضع على ذلك حتى القرن الثانى عشر(٦) . وهنا نشير إلى أن مدرسة القصر المشهورة فى الدولة الميروفنجية لم تكن مدرسة بالمعنى الذى نفهمه من هـــذا الاصطلاح ، وإنما كانت تقليداً لمدرسة تريف فى أواخر عصر الإمبراطورية الرومانية ، فكان الغرض منها تدريب الشباب حربياً وتعليمهم

---

1) Adamson : The Legacy, p 256
2) Eyre : op cit., p 258
3) Cam. Med. Hist. vol. 7, pp. 762
4) Eyre : op. cit. p. 324-325
5) Thompson : op. cit. vol. 2. p 743
6) Painter : A. Hist of the Middle Ages., p466

ركوب الخيل وحمل السلاح ، بالإضافة إلى بعض المعلومات اللازمة لمباشرة الوظائف العامة ، مثل مبادىء القانون المدنى والكنسى . وفى هذه المدرسة كان يتدرب غلمان البلاط الميروفنجى(١).

ومهما يكن الأمر ، فإننا نعود فنقول إن الانتقال من التعليم القديم إلى تعليم العصور الوسطى لايعنى تغييراً كبيراً فى طريقة التعليم بقدر ماكان هناك من تغيير فى روح التعليم ومواد الدراسة .وقد بدأت هذه الثورة حوالى سنة ٦٠٠ عندما ازداد نفوذ البابوية فى توجيه التعليم ورسم سياسته ، فأصبح التعليم منصباً على الإنجيل واللاهوت ،الأمر الذى جعل الدراسات الإنسانية تحاول فى مشقة بالغة الاحتفاظ بكيانها ضد الخطر الذى أخذ يهددها لعدة قرون(٢). ذلك أن المدارس الأسقفية والديرية غدت لاتهتم إلا بتدريب اللاهوت والموسيقى الدينية والكتاب المقدس وسير القديسين المليئة بالمعجزات والخرافات ، بحيث أصبح التعليم لا يستهدف غرضاً إلا إعداد النشء ليصبحوا من رجال الدين(٣) . بل إن البابا جريجورى العظيم (٥٩٠ — ٦٠٤) اشتهر بكراهيته للأسلوب البلاغى الكلاسيكى وتفضيله اللاتينية الدارجة ، بالإضافة إلى اعتقاده الراسخ فى عدم جدوى كافة الدراسات التى لا تساعد فى فهم العقيدة المسيحية(٤)

وهكذا لم يقدر البقاء للدراسات الراقية والثقافة الإنسانية — بما فيها معرفة اللغة اليونانية — إلا فى أيرلندا(٥) ، التى انبثق نور المعرفة من أديرتها إلى كالدونيا (سكتلند) ونورثمبرلاند ، ثم بقية أنحاء انجلترا(٦) . ولم يلبث أن امتد بريق هذه الحركة العلمية إلى صلب القارة عن طريق المؤسسات والأديرة الأيرلندية

---

1) Davis : Charlem agne, p 168
2) Taylor : The Med. Mind. vol. 7. p 318
3) Painter : A. Hist. of the Middle Ages, p 466
4) Cam. Med. Hist., vol. 3, p 487
5) Idem, p 501
6) Poole : Ielustrations of the Hist. oi Med. Thought. pp. 8-10

التي قامت في غاليا الفرنجية وألمانيا ولمبارديا ، وبصفة خاصة دير سانت جال ودير بوبيو[١] . وكان من المحتمل أن تقضي الحركة البندكتية على هذا الإشعاع العلمي لولا جهود القديس بونيفيس (ت ٧٥٥) وزملائه من رجال البعثات التبشيرية التي غادرت إنجلترا إلى القارة[٢] . حقيقة إن الهدف الأساسي لرجال هذه البعثات التبشيرية كان نشر الديانة المسيحية الكاثوليكية ، ولكن هذا الهدف كان لا يمكن أن يتحقق دون أن يحصل رجال الدين على قسط من الثقافة اللاتينية ، حيث أن اللاتينية كانت لغة الكنيسة الغربية[٣] . وهكذا فإن الفضل يرجع إلى الأديرة التي أسسها القديس بونيفيس في فولدا وهرسفلد ، وإلى المدارس الأسقفية والديرية التي أحياها ذلك القديس ، في إنقاذ الحياة العلمية في العصور المظلمة ، وفي تمهيد الطريق لما قام به شارلمان من إصلاح المدارس وإثارة الحركة الفكرية الكبرى التي تعرف باسم النهضة الكارولنجية[٤] .

شارلمان والعناية بالتعليم

اهتم شارلمان بنشر التعليم ورفع مستواه والإكثار من المدارس ، فكتب إلى رؤساء الأديرة والأساقفة يشكو من جهل رجال الدين وكثرة الأخطاء المتواترة في المخطوطات الدينية ، بل في الإنجيل نفسه ؛ ويأمرهم بالعناية بالمدارس والتعليم لإصلاح هذه الأوضاع[٥] . وقد استعان شارلمان في هذه الحركة الواسعة بخلاصة المواهب التي أنجبتها إنجلترا وأسبانيا وإيطاليا ، مثل بولينوس النحوي — وهو من أكويليا — وبطرس البيزي وبولس الشماس من لمبارديا ، وثيودليف من أسبانيا ؛ وعلى رأس هؤلاء جميعاً ألكوين الذي وفد من يورك والذي كان أبرز أعلام النهضة الكارولنجية[٦] . وكان ألكوين هذا بمثابة « وزير التعليم »

1) Thompson : op. cit., vol. 2, p 747
2) Eyre : op. cit. p 240
3) Taylor : op. cit. vol. 1, pp. 198-200
4) Cam. Med. Hist. vol. 5, p 772
5) Lavisse : op. cit : Tom 2, pivrel, p.p. 342—343.
6) Foligno : Latin Thought : p 68 .

فى عهد شارلمان، زيادة على كونه معلماً خاصاً لأمراء القصر بل الإمبراطور نفسه[1]. ولم تلبث أن أصبحت مدرسة تورز — بفضل إشراف ألكوين وتوجيهه — مركز الثورة الثقافية فى الإمبراطورية الكارولنجية . فى هذه المدرسة لم يقف نشاط ألكوين عند العناية بالخط وتجميله فحسب[2] ، وإنما امتد إلى مراجعة الكتب الدينية وتصحيحها ثم توزيعها بعد ذلك على الأديرة لنسخها فى صورتها الجديدة[3] .

حقيقة إن الغرض الرئيسى الذى دفع شارلمان إلى هذه الحركة كان دينياً يستهدف تصحيح الإنجيل وكتب الصلوات وغيرها من الكتب الدينية المتداولة[4] ، ولكن الحركة امتدت حتى شملت أيضاً حفظ التراث اللاتينى الكلاسيكى ورعاية المخطوطات القديمة ؛ حتى أن أقدم ما لدينا من المخطوطات يرجع تاريخ إعادة نسخها إلى العصر الكارولنجى ، باستثناء بعض الكتابات القليلة التى عثر عليها رجال النهضة الإيطالية فى القرن الخامس عشر والتى نسخت قبل العصر الكارولنجى .

أما مدرسة القصر التى عرفها بلاط الملوك الميروفنجيين من قبل ، فقد نظمها شارلمان فى بلاطه بمدينة آخن على أسس جديدة . ذلك أنه جعل منها مجمعا للعلماء والأدباء ، فضلا عن صفتها الأساسية كمدرسة لإعداد جيل من الناشئين لخدمة الملوك ومعاونتهم[5] . وخير شاهد على الروح الجديدة التى نفخها شارلمان فى هذه المدرسة ، تلك الأسماء التى تسمى بها أعضاؤها والتى أرادوا أن يتشبهوا فيها بالسلف من أعلام الحكمة والأدب؛ فشارلمان داود ، وألكوين فلاكوس وانجلبرت هومر ... وقد أظهر الإمبراطور شارلمان شغفاً كبيراً بجميع نواحى

---

1) Rashdall : op. cit. vol. 1, p 28
2) Cam Med. Hist. ; vol, 3; p 517
3) Guizot : Hist. de la Civilisation en France. Tom 9. pp. 199-201
4) Thompson : op. cit., vol. 2. p 745
5) Eyre : op. cit., p 325

المعرفة لا سيما الفلك ، كما كان يتكلم اللاتينية ويقرؤها على الرغم من قلة درايته بالكتابة[1] .

وهكذا انتشرت المدارس الأسقفية والديرية فى جميع أنحاء إمبراطورية الفرنجة ، كما قدر لبعض هذه المدارس البقاء والإستمرار فى تأدية رسالتها بعد سقوط هذه الإمبراطورية مثل ، مدارس ريمس وليون وفريير وكورف وفولدا وباقيا[2] وكان نظام التعليم الرسمى فى الامبراطورية الكارولنجية يشمل الأولاد من الأحداث دون البنات . وإن وجدت بعض أمثلة لنساء متعلمات فى أوربا القرن التاسع . وهنا نلاحظ أن بعض المعاصرين حبذوا فى العصور الوسطى تعليم بنات النبلاء القراءة ، لما فى ذلك من توسيع الأفق وإنارة الفكر ، ولكنهم عارضوا مبدأ تعليمهن الكتابة حتى لا يستخدمنها فى تحرير رسائل غرامية[3] .

ومهما يكن الأمر فقد كان التعليم فى ذلك العصر عاما ، فلم يقتصر على رجال الدين وحدهم كما يتضح ذلك من منشور أصدره ثيودلف — أسقف أورليان — لأتباعه من رجال أسقفيته ، يحثهم فيه على تعليم الأهالى بصفة عامة ، سواء فى المدن أو فى الريف[4] . وهناك مرسوم آخر صدر سنة ٨٠٢ ينص على أن « يبعث كل فرد إبنه لتعلم القراءة والكتابة بشرط أن يبقى هذا الإبن فى المدرسة حتى يكتمل تعليمه » . أما المرسوم الصادر سنة ٨٠٥ فينص على أهمية الحساب « الذى يجب أن يتعلمه كل فرد على الوجه الصحيح » . ويبدو أن الحساب والفلك كانت لهما أهمية خاصة فى ذلك العصر لمعرفة تداول الايام والاعياد الدينية . ولكن من الواضح أنه كان عسيرا أن يتقدم علم الحساب بالطريقة اللازمة لإجراء العمليات الحسابية من جمع وطرح وضرب . . . بالاعداد الرومانية التى لم يعرف غرب أوربا غيرها حينئذ ، لأن الاعداد

---

1) Taylor : op. cit. : p 214
2) Eyre : op. cit, p 811
3) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p 466
4) Guisot : op. cit., Tome. 2, p. p. 212—216

الهندية واستخدام الصفر فى الحساب ، لم تعرفهما أوربا إلا عن طريق العرب فى القرن الثانى عشر[١] .

وعلى الرغم من أن ثيودلف — أسقف أورليان — كان يحلم بنوع من التعليم أوسع أفقا عندما كتب إلى رجال أسقفيته يحثهم على تعليم الصغار بدون أجر مكتفين بما يقدمه الخيرون من منح اختيارية ، إلا أن التعليم ظل فى العصر الكارولنجى يستهدف تدريب رجال الدين وإعدادهم ليكونوا قساوسة أو رهابنا صالحين[٢] . وهكذا أصبحت لكل دير وكل كتدرائية مدرستها الخاصة بتعليم صغار رجال الدين . وهنا يلاحظ أن هذه الحركة العلمية الضخمة لم تدثر بسرعة عقب وفاة شارلمان ، إذ انعقد مجمع كنسى سنة ٨٢٩ حث لويس التقى على أن يحذو حذو أبيه فى تشجيع المدارس والتعليم . هذا إلى أن البابا أيوجين الثانى أمر سنة ٨٢٦ بضرورة وجود مدرسة على الأقل فى كل أسقفية[٣] . هذا وإن كان المرسوم الذى أصدره هذا البابا تبدو فيه التفرقة واضحة بين الفنون الحرة (artes liberales) — وهى العلوم الدنيوية ، وبين العلوم الدينية والنظريات اللاهوتية (sancta dogmata) . ولعل خير ما فعله الإمبراطور لوثر الأول هو أنه أمر سنة ٨٥٥ بتأسيس تسعة مدارس مركزية فى بافيا وإفريا Evrea وتورين وكريمونا وفلورنسا وفورمو وفيرونا وفيكنزا وفورم[٤] .

أما عن نظام التعليم حينذاك — فى القرن التاسع — فكان ينقسم إلى ثلاث مراحل ، الأولى بمثابة مرحلة ابتدائية أو أولية ، وفيها تدرس القراءة والكتابة ومبادىء اللاتينية الدارجة مع بعض دراسات سطحية فى أصول الدين والكتاب المقدس . ويبدو أن هذه المرحلة كانت إلزامية للمقبلين على الإنتظام فى سلك الكهنوت ، كما كانت مباحة لغيرهم من العلمانيين وإن كان إقبال هؤلاء الأخيرين عليها ضعيفاً . أما المرحلة الثانية ، فتشمل موادها الفنون السبعة الحرة بمجموعتيها

---

1) Thompson : op. cit., vol. 2, p. 726.

2) Cam. Med. Hist., vol. 5 pp. 774-775

3) Poole. Illustrations, p 21

4) Thompson. op. cit., vol. 2, 4. p 745

الثلاثية والرباعية ، وكانت مواد المجموعة الثلاثية تسمى عقلية فى حين سميت مواد المجموعة الرباعية وجودية لتناولها حقائق بعيدة عن العقل . وأخيرا تأتى المرحلة الثالثة ، وهى خاصة بتعليم اللاهوت والكتب المدرسية فى ضوء آراء آباء الكنيسة ، ولا سيما القديس أوغسطين .

ويلاحظ أنه لم يوجد توافق أو انسجام بين مراحل التعليم الثلاث السابقة ، سواء من حيث تعاقبها أو علاقتها بعضها ببعض ، وإنما كثيراً ما كانت هذه المراحل تتداخل بعضها فى بعض أو تتباعد بعضهـا عن بعض وفق الظروف والأحوال .

المدارس الديرية :

ولم تلبث حركة الإحياء الكارولنجية أن استنفدت قوتها سنة ٨٧٧ ، أى عند وفاة شارل الأصلع ، وإن كان أثرها قد ظل باقيا لم يندرس . وفى وسط المحنة التى تعرضت لها الإمبراطورية الكارولنجية فى القرن التاسع نتيجة للأخطار الخارجية من ناحية والإنحلال الداخلى من ناحية أخرى ، قامت المدارس الديرية — فيما بين سنتى ٨٠٠ر ١١٠٠ — برسالتها كاملة : إذ أضحت المراكز الأساسية لحفظ الحضارة الغربية ، كما تخرج فى مدارسها عدد كبير من رجال المعرفة المبرزين[١] . لذلك اختار بعض المؤرخين والكتاب أن يطلقوا اسم « العصر البندكتى » على الفترة الواقعة بين وفاة شارلمان والقرن الحادى عشر ، على أساس أن هذه الفترة تمثل العصر الذى أضحى زمام التعليم فى أوربا بأيدى رهبان الأديرة[٢] .

ذلك أن مدارس الأديرة قامت بدور أكثر أهمية من مدارس الكتدرائيات فى تلك الفترة ، كما أن الأديرة فتحت أبوابها لطلاب العلم — من غير الديريين —

---

1) Eyre . op. cit., p. 326
2) Rashdall : op. cit., vol. 1, p 29

لأول مرة فى تاريخها . ومنذ بداية القرن التاسع أصبح لكل دير من الأديرة المعروفة مدرستان منفصلتان ،إحداهما للنظاميين المنقطعين للعبادة من أهل الدير (oblati)، والأخرى للخارجيين [١] .

ويبدو أن تيار النشاط العلمى فى أوربا بدأ يتحول — منذ أواخر القرن التاسع — من غاليا إلى ألمانيا ، التى أخذت تفيض حيوية فى عهد حكامها من ملوك الأسرة السكسونية . وقد نتج عن ذلك قيام نهضة فى ألمانيا فى القرن العاشر تعرف بالنهضة السكسونية أو النهضة الأوتية، نسبة إلى الإمبراطور أوتو الأول أو العظيم (٩٣٦ — ٩٧٣)[٢] . على أن هذه النهضة الأوتية كانت أضعف أثرا وأضيق دائرة من النهضة الكارولنجية السابقة لها ، هذا وإن تناولت هى الأخرى النواحى الأدبية والفنية والتعليمية ، فضلا عن العناية بالنحو اللاتينى بوجه خاص ، لأن معرفة قواعد النحو تتوقف عليها دراسة الكتاب المقدس دراسة صحيحة[٣] .

وكانت أبرز مدارس ألمانيا فى تلك الحقبة مدرسة دير سانت جال حيث ظل تراث الحركة الفكرية الإيرلندية قوياً[٤] .ونخرج من دراسة نظم هذه المدرسة وأشباهها من المدارس الديرية المعاصرة بأن التعليم فيها ظل دينيا فى أسلوبه وأهدافه بحيث لم يكن هناك نظام تعليمى ثابت للعلمانيين الذين ظل معظمهم جاهلا لا يعرف القراءة والكتابة[٥] . كذلك يلاحظ أن التدريس فى هذه المدارس اعتمد على الطريقة الشفوية بسبب ندرة الكتب وارتفاع أثمانها وكثرة الأخطاء فى المخطوطات الرخيصة . ولم يكن ذلك إلا فى أواخر العصور الوسطى عندما ازدادت الكتب وكثرت المخطوطات بأيدى التلاميذ فاخذ المدرسون يعدلون

---

1) Idem . p 29
2) Thompson : op. cit., vol. 2, p. 746
3) Taylor . op. cit., vol. 2, p.p. 361-362
4) Coulton . Life in the Middle Ages. vol, 2, p.p. 113-114
5) Eyre op. cit.' p 326

عن الإملاء ليشرحوا ما بأيدى التلاميذ من نصوص[1] . كذلك يلاحظ أن التعليم امتاز فى المدارس الديرية بالصرامة والحزم والقسوة فى سبيل المحافظة على النظام ، فضلا عن ضعف المستوى العامى للمعلمين[2] .

ونستطيع أن نقف على ما كان تلاقيه صغار التلاميذ فى تلك العصور من متاعب وآلام بقراءة فقرة مما كتبه جيوبرت النوجنى (Gubert de Nogent) المتوفى سنة ١١٢٤ ، إذ يترجم لحياته فيحكى كيف أنه كان يساق صباح كل يوم — وهو طفل فى التاسعة من عمره — إلى مدرسة الدير ، ليتلقى تعليمه على يد كاتب جاهل يتصف بالقسوة والعنف ، لم يتعلم نفسه النحو إلا فى الكبر . ثم يستطرد جيوبرت ذاكرا أنه لم يتمتع بيوم واحد عطلة ، حتى أيام الآحاد والأعياد كان يذهب فيها إلى المدرسة حيث يكلف كثيراً من الواجبات الشاقة[3] . أما أستاذه فيصفه بعدم المقدرة فى الشعر والنثر ، وأنه كان لا يجيد شيئاً سوى توجيه اللكمات والألفاظ القاسية إليه وإلى زملائه ، فى الوقت الذى كان يفرض على تلاميذه حفظ ما لا يستطيع هو تدريسه ! ثم يعيب جيوبرت على ذلك المدرس أن يطالب من عقل التلميذ الصغير استيعاب ما لا يستطيع هو توصيله إلى ذلك العقل ، لأنه لا يوجد شىء فى الحيـــاة أصعب من حفظ مالا يستطيع الفرد أن يفهمه . وأخيراً يعلق على ذلك بأنه يجب ألا نجبر الصغار على حفظ أشياء نعتقد نحن أنها حقائق مسلم بها دون أن نعيها ونجعلهم يفهمونها أولا . . . وهكذا تمدنا آراء جيوبرت بصورة واضحة عن فلسفة التربيـة فى أوربا العصور الوسطى ، وهى صورة قد لا يعرفها كثير من مؤرخى علم التربية فى العصور الحديثة[4] .

---

1) Adamson . The Legacy, p 278

2) Coulton . Life in the Middle Ages. vol. 2, p.p 113-114

3) Thompson . op. cit, vol. 2, p 758

4) Ibid.

المدارس الاسقفية أو الكندرائية:

كان الاسقف فى أول الأمر يتولى رآسة المدرسة التابعة لأسقفيته ، ولكن ازدياد أعباء الأساقفة جعلتهم يتركون الشئون التعليمية داخل أسقفياتهم لفرد خاص (scolasticus. archiscola) . ولم يسمح لأى فرد آخر أن يفتح مدرسة داخل حدود الاسقفية أو يباشر تدريس الفنون الحرة دون تصريح من هذا الموظف ، وإلا تعرض للمحاكمة[1] .

ومن الواضح أن المدارس الاسقفية ضعفت فيها الرقابة والشدة فى معاملة التلاميذ عن المدارس الديرية ، الامر الذى جعل الاولى مسرحا لكثير من المتاعب من جانب التلاميذ المشاكسين . على أن هذه المدارس الاسقفية التى قلت فيها الرقابة على التلاميذ ، هى المدارس نفسها التى قدر لها البقاء والاستمرار لتزدهر فى أوائل القرن الثانى عشر ، فى الوقت الذى أخذ نجم المدارس الديرية فى الافول البطىء[2] . وليس معنى ذلك أننا نقلل من فضل الاديرة ومدارسها ، إذ يكفى أن معظم المتنورين من رجال الدين فى ذلك العصر تلقوا تعليمهم فى الاديرة ، زيادة على أن المدارس الاسقفية نفسها استمدت معلميها وأساتذتها من الاديرة[3] . وكل ما هنالك هو أن المنظمات الديرية الجديدة — لاسيما الكلونية والسترشيانية — شغلتها المسائل المتعلقة بالإصلاح وسياسة العصر عن الإهتمام بالنشاط التعليمى ، فى حين استمرت الاديرة البندكتية فى ألمانيا تواصل نشاطها التعليمى .

وقد أخذت المجامع الكنسية فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر تنادى بإنشاء مدارس فى كل كتدرائية حتى ظهر عدد كبير من هذه المدارس[4] .

---

1) Adamson . The Legacy of the Middle Ages . pp. 256-257
2) Thompson . op. cit. , p 749
3) Rashdall . op. cit., vol. 1, p 29
4) Painter . A Hist. of the Middle Ages p 467

وكانت تلك المدارس تدور حول مركز الأسقف الذى عين للإشراف على تلاميذ المدرسة موظفاً لقب بأستاذ المدرسة Magister scholarum ؛ وإن كان أمين السكتدرائية Chancellor هو الذى تولى فى بعض الحالات — مثل مدرسة كتدرائية باريس — الإشراف على المدرسة(١) .

ولم تلبث أن تزعمت المدارس الكتدرائية — وبخاصة فى فرنسا — النشاط الفكرى فى غرب أوربا عند بداية القرن الثانى عشر ؛ وظهر من هذه المدارس — مثل ريمس وشارتر — ما أصبح أماً لمجموعة من كبار المفكرين الذين لمعت أسماؤهم فى مختلف ميادين المعرفة وبخاصة فى العلوم والآداب ؛ هذا فى الوقت الذى لم تبق من مدارس الأديرة ذات الشهرة سوى قلة محدودة(٢) . وهنا ينبغى أن نلاحظ دائماً أن تلك المدارس الكتدائية لم تختلف عن المدارس الديرية فى طابعها الدينى وأهدافها الكنسية ، الأمر الذى كان له أعمق الأثر فى تشكيل الحركة الفكرية التى جاءت مصحوبة بظهور الجامعات الأوربية فى القرن الثانى عشر(٣) . كذلك اهتمت المدارس الكتدرائية بدراسة النحو اهتماما بالغاً ، واتخذت هذه الدراسة شكل تلقين للمبادىء والقواعد النحوية ، ثم إعطاء تطبيقات عملية عليها ، زيادة على دراسة نماذج من الشعر والنثر وامتحان الطلاب فيها . أما العلوم الأخرى فقد حظيت أيضاً بقسط وافر من عناية المدارس الكتدرائية فى العصور الوسطى ، وفى مقدمة هذه العلوم اللاهوت والفلسفة والقانون(٤) .

والواقع أن أوربا شهدت نهضة فكرية عظيمة فى القرن الثانى عشر ، ساعد عليها الإنتعاش الإقتصادى والإستقرار الإجتماعى والسياسى ، وازدياد اتصال الأوربيين بالثقافة الإسلامية عن طريق الأندلس وصقلية والشام(٥) . وقد ترتب

---

1) Eyre . op. cit. p 325
2) Idem p 269
3) Rashdall . op. cit., p. vol. 1 pp. 29-30
4) Painter . A Hist. of the Middle Ages, p 468
(٥) أنظر كتاب النهضات الاوربية للمؤلف ص ١٠٠ — ١٠٢ وكذلك :
Cam. Med. Hist., vol. 6, pp. 559-560

على هذه الحركة الحضارية اتساع نطاق المعرفة في غرب أوربا بحيث لم تعد تتسع لها المدارس الأسقفية أو الديرية بنظمها التي كانت عليها في أوائل القرن الثاني عشر ، مما تطلب قيام نظام جديد للتعليم العالي يفي بحاجات العلوم الجديدة وطلاب هذه العلوم . ولم يمكن ذلك إلا بنشأة الجامعات التي تعتبر في نظر بعض المؤرخين أعظم ماقدمته العصور الوسطى للعصور الحديثة[1] .

الجامعات :

ظهرت أولى الجامعات الأوربية في القرن الثاني عشر في بولونيا بإيطاليا ، وفي باريس بفرنسا ، وقد تفرعت عن الاولى بقية الجامعات الاوربية في حوض البحر المتوسط ، في حين تفرعت عن الثانية جامعات شمال أوربا وغربها التي ظهرت أواخر العصور الوسطى . والمعروف أن لفظ رابطة أو جامعة (Universitas) لم يعن في الاصل أكثر من مجموعة من الاساتذة أو الطلاب اجتمعوا في صعيد واحد لمباشرة النشاط الثقافي[2] . على أن الطلاب خطوا خطوة السبق في بولونيا عندما نظموا أنفسهم في هيئة نقابة أطلقوا عليها لفظ « جامعة » ، وانقسموا إلى فريقين كبيرين : الطلاب الوافدون من إيطاليا والبلاد الواقعة جنوبي جبال الالب (Cismontane) والطلاب الوافدون من الجهات الواقعة شمالي جبال الالب (Ultramontane)[3] ولم تلبث أن انقسمت كل مجموعة من هاتين المجموعتين إلى شعب صغيرة أو أروقة ضمت كل منها الطلبة الوافدين من بلد واحد أو مدينة واحدة ، كطلاب لمبارديا أو تسكانيا أو البندقية أو روما أو بافاريا أو سوابيا . واختار أبناء كل بلد من هؤلاء مشيراً أو مراقباً (Conciliorius) ، على أن يجتمع هؤلاء المشيرون سويا لاختيار رئيس أو مدير للجامعة (Rector) من بينهم . وهكذا لم يكن الاساتذة أعضاء في جامعة بولونيا ، ولم يكن لهم نصيب في إدارتها وإنما ظلوا بمثابة

---

1) Eyre . op. cit , p.328

2) Rashdall . op. cit. vol. 1, pp. 4-6

مستخدمين تدفع لهم نقابة الطلبة أجورهم وفقاً لعدد الدروس التي يدرسها كل منهم وعدد طلبته [١]. حقيقة إن هيئة التدريس سرعان ما ألفت نقابة خاصة بها ، ولكن السيادة ظلت لنقابات الطلبة فى جامعة بولونيا ، حتى أن هـذه النقابات الاخيرة كانت تفرض على الاسـاتذة قيوداً وغرامات إذا خالفوا القواعد العامة التى وضعتها[٢] .

أما فى باريس فاتخذ التنظيم اتجاها عكسيا لما كان عليه الحال في بولونيا ، إذ بدأ الاساتذة بتكوين رابطة أو جامعة(Univaritas) ، فى حين انقسم الطلبه إلى أربع مجموعات أو أروقة حسب الشعوب التى ينتمون إليها ، لكل مجموعة وكيل أو قائم بأعمالها(Procare!or) . وكان هؤلاء الوكلاء أو رؤساء الاروقه يختارون الرئيس أو المدير الأعلى للجامعة(Rector) الذى كان بطريقة آلية رئيس أساقفة باريس لأن جامعة باريس نشأت وتدرجت من مدرستها الاسقفية[٣] . أما إدارة جامعة باريس فكانت فى أيدى الاساتذة لا فى أيدى الطلبة ، كما كان الحال فى بولونيا[٤] .وربما رجع السبب فى ذلك إلى الفارق العام بين مستوى أعمار الطلبة فى الجامعتين ، فمدرسة باريس الاسقفية — وهى التى أصبحت جامعة باريس فيما بعد — كان يمكن أن يلتحق بها الطلبة الاحداث فى سن الرابعة عشر بل الثانية عشر فى حين كان الطلبة فى بولونيا أكبر سناً وأتم نضجاً لأن الدراسة الاساسة فيها كانت قانونية ، ومن ثم أقبل عليها عدد كبير من الناضجين ورجال الاعمال[٥] . هذا إلى أن جو القومونات اللمباردية المشبع بالحرية والبعيد عن القيود — التى أحاطت بالجو الاسقفى الذى ولدت فيه جامعة باريس — كان له أثر واضح فى هذا التطور . ومهما كان الامر ، فإنه يمكن القول بأن بولونيا وباريس هما الأصل الذى تفرعت عنه بقيه الجامعات الاوربية واستقت منه نظمها وقواعدها ، فكانت باريس نموذجاً للجامعات

1) Eyre . op. cit, p 330
2) Painter . Hist. of the Midde Ages, p. 470
3) Haskins . The Rise of Universities‘ pp. 21-22
4) Cam. Med. Hist. vol. 6, p 561
5) Eyre . op. cit, pp. 329-330

التى قامت على أساس رابطة الأساتذة فى شمال أوربا ، فى حين كانت بولونيا أساساً للجامعات التى قامت على أساس رابطة الطلبة فى جنوبها(١) .

وكان الاصطلاح الذى أطلق فى أول الأمر على ما نعرفه اليوم باسم الجامعة هو (Studium generale) بمعنى المكان الذى يتلاقى فيه الطلبة الوافدون من جميع الجهات ، لا — كما يظن البعض خطأ — المكان الذى تدرس فيه جميع المواد(٢) . ولم يصبح هذا الاصطلاح شائعاً إلا فى أوائل القرن الثالث عشر ، عندما أصبح يمتاز بثلاثة خصائص أساسية ، أولها أنه يعبر عن البقعة أو المدرسة التى تستقبل الطلبة من جميع الجهات ، وثانيها أنه كانت تلقن به دراسات عليا على أن تكون من بينها إحدى مواد التخصص على الأقل ، كاللاهوت أو القانون أو الطب ، وثالثها أن هذه الدراسات العليا قام بتدريسها عدد من الأساتذة الكفاءة المتخصصين(٣) . وعلى هذه الأسس السابقة وجدت عند أوائل القرن الثالث عشر جامعة فى باريس اشتهرت باللاهوت ، وأخرى فى بولونيا اشتهرت بالقانون : وثالثة فى سالرنو اشتهرت بالطب .

وهنا نلاحظ أن نفوذ الكنيسة كان عاملا أساسياً فى التنظيم الشكلى للجامعات لأن الكنيسة كانت المنبع الوحيد للتعليم فى أوربا العصور الوسطى . هذا إلى أن حركة التعليم الجديدة نبتت فى المدارس الأسقفية ، ومن ثم كان طبيعياً أن تتحكم الكنيسة — وهى أعظم قوة تحكمت فى جميع مرافق الحياة فى أوربا العصور الوسطى — فى توجيه هذا التعليم الجديد والسيطرة عليه(٤) . وقد أدركت الكنيسة أن فى خروج هــذه الحركة التعليمية الجديدة من قبضتها ، تعريضاً لسلطانها وتعاليمها للخطر والنقد ، وسط الجو العلمى الجديد المشبع بحرية التفكير والتعبير . ولما كان من الصعب على الكنيسة قمع هذه الحركة الجديدة أو كبتها ، فلا أقل إذا من توجيهها وتنظيمها فى الصورة التى تكفل عدم التعرض لأوضاع الكنيسة

---

1) Haskins : The Rise of Universities, p. 5

2) Eyre . op. cit. p 328

3) Rashdall . op. cit, vol. 1, p 7

4) Thompson . op. cit. vol. 2, pp. 765-766

ونظمها وآرائها القائمة [١] . وأول مظاهر تدخل الكنيسة فى شئون هذه الهيئات الجامعية الناشئة هو تمسك البابوية بمبدأ موافقة الأسقف على الطلبة الذين يتقدمون للحصول على درجة الدكتوراه فى القانون من بولونيا . أما باريس فقد ظهر هذا التدخل فى التوحيد بين وظيفتى رئيس الجامعة ورئيس أساقفة باريس ، بمعنى أن الأخير أضحى مشرفا على شئون الجامعة [٢] . ولكن على الرغم من كل ذلك فإن الجامعات الناشئة استطاعت بوجه عام أن تحظى بقدر كبير من الحرية الأكاديمية ، إذا استثنينا جامعة باريس التى ظلت أقل من غيرها حرية لأنها سرعان ماغدت مركزاً لدراسة اللاهوت والقانون الكنسى [٣] .

أما فيما يختص بمواد الدراسة ونظمها وحياة الطلاب فى جامعات العصور الوسطى الناشئة ، فيلاحظ أن الجامعة المثالية كان لابد لها من أن تحوى أقساما للفنون الحرة ، واللاهوت ، والقانون بشطريه الرومانى والكنسى ، والطب . ولكن الواقع هو أنه لم توجد جامعة فى ذلك الدور الأول من تاريخ الجامعات فى العصور الوسطى استوفت كل هذه الأقسام . والذى حدث بالضبط هو أن كل جامعة تخصصت فى ميدان أو أكثر من ميادين المعرفة ، فاشتهرت باريس بالفلسفة ، واللاهوت والقانون الكنسى والآداب ، وتخصصت بولونيا فى القانون الرومانى ،وعرفت سالرنو بالتفوق فى دراسة الطب وهكذا [٤] .

وقد امتد نفوذ أمين الكتدرائية (Chancellor) فى باريس حتى تضمن الموافقة على اختيار المرشحين لوظائف التدريس(٥) . وهكذا أصبح نفوذ أمين الكتدرائية من جهة ، وحق حصول المدرس القدير على ترخيص بالتدريس من جهة أخرى ، هما الدعامتان اللتان قام عليهما النظام الفرنسى للجامعات [٦] .

---

1) Pirenne, Cohen, Focillon : op. cit. p. 557
2) Painter . A Hist. of the Middle Ages, p. 470
3) Rashdall . op. cit. vol. 1 pp. 321-324
4) Idem. pp. 17-18
5) Eyre . op. cit. p 330
6) Rashdall : op. cit. vol 1, p. 282

على أن المتتبع لنشأة جامعة باريس ، يلحظ أن هذا التطور جاء مصحوباً بصراع بين الطلبة وأمين الكتدرائية . ذلك أن الطالب الذى استكمل دراسته وتأهل للتدريس كان لابد له من الحصول على درجة الأستاذية أو الماجستير . ولكن أمين الكتدرائية لم يكن له حق فى رفض الترخيص لأحد الأساتذة الذين يحملون الدرجة السابقة بالتدريس فحسب ، بل كان له فى أول الأمر حق حرمانه من هذه الدرجة التى حصل عليها ، مستغلا فى ذلك سلطته الدينية ونفوذه الكنسى [١] . والغريب أنه على الرغم من هذه السلطات الواسعة التى تمتع بها أمين الكتدرائية إلا أنه لم يكن عضواً فى نقابة أساتذة الجامعة [٢] . هذا إلى أن أساتذة الجامعة كانوا يستطيعون رفض الاعتراف بترشيح أحد الأفراد ليكون عضواً جديداً فى هيئة التدريس ، وعن هذا الطريق تمتعوا بسلطة تعادل ما كان لأمين الكتدرائية من سلطة فى منح الليسانس (liceoce) أو الترخيص بالتدريس [٣] .

أما عن مناهج الدراسة فى الجامعات الأوربية الناشئة فقد قامت فى أول الأمر على أساس المجموعة الرباعية من الفنون السبعة الحرة . ولكنها أخذت تنمو وتتعدل بسرعة نتيجة للمعلومات الغزيرة التى تدفقت على غرب أوربا منذ القرن الثانى عشر [٤] . وقد ظفر القانون والطب والفلسفة واللاهوت بالقسط الأكبر من اهتمام المعاصرين ، وإن كانت بقية العلوم لم تحرم من ذلك الاهتمام . فالحساب الذى كان لايزال علماً غامضاً حظى بعناية كبرى ، والهندسة عولجت على أنها تضم فى رحابها مجموعة أخرى من العلوم أهمها الجغرافيا التى بلغت درجة كبيرة من التقدم نتيجة للحروب الصليبية واتساع التجارة . كذلك ازدادت العناية بالعلوم الطبيعية ولاسيما علم الحيوان . وإذا كانت هذه العلوم قد ظلت أمداً طويلا تشوبها الأوهام وتسيطر عليها المعتقدات الدينية ، إلا أن الجامعات الناشئة لم تلبث أن نبتت الروح الجديدة التى ترمى إلى البحث والإستقصاء لمعرفة

---

1) Idem, p. 304

2) Eyre . op, cit. p. 330

3) Rashdall . op· cit. vol 1, p. 284

4) Eyre : op. cit. p. 332

حقيقة الكون والكائنات (١) . أما فى اللاهوت فكان منهج الدراسة طويلا وبخاصة فى جامعة باريس ، حيث كانت مواد هذا المنهج مستمدة من الكتاب المقدس ومن كتاب « الأحكام » الذى وضعه بطرس لمبادر فى علم اللاهوت(٢) .

أما الدرجات العلمية فكانت ثلاثاً : البكالوريوس والليسانس والأستاذية ، فكان يكفى أن يدرس الطالب كتابين فى النحو وخمسة فى المنطق ليحصل على درجة البكالوريوس بعد أن يؤدى امتحاناً أمام ثلاثة أو أربعة أساتذة ، فإذا نجح نوقش علناً برآسة أستاذه ثم يمنح درجة البكالوريوس فى الفنون الحرة (Baccalalariandorum Bachelor of Arts)(٣) ، وتعطيه هذه الدرجة الحق فى أن يكون معيداً . وبعد هذه المرحلة يستطيع الطالب أن يقضى نحواً من سنتين فى قراءة بعض المتون وشرحها ، حتى إذا أتم ذلك بنجاح حصل على إجازة التدريس (licentia docendi, lisence) وهى كما يتضح من إسمها ترخيص (ليسانس) يعطيه حق مباشرة مهنة التدريس(٤) . أما درجة الأستاذية (Magister artium) فكانت تتطلب دراسة تقرب من خمس أو ست سنوات، وبعد ذلك لا يحصل الطالب على هذه الدرجة إلا بعد أن يلقى درساً تجريبياً أمام لجنة من الممتحنين . وكانت درجة الأستاذية فى الآداب مرادفة ومعادلة لدرجة الدكتوراه فى الفروع الأخرى (٥) . ولم يكن من الضرورى أن يحصل الطالب

---

1) Thompson . op. cit. vol. 2, p. 767

2) Haskins . The Rise of Universities, p. 47

3) Rashdall . op. cit, vol, 2, pp, 450-456

(٤) يلاحظ عدم الخلط بين مدلول هذه الشهادات فى جامعات أوربا العصور الوسطى وبين ما تدل عليه الآن فى جامعاتنا ، فدرجة البكالوريوس BA تساوى درجة الليسانس فى كلياتنا النظرية ، ودرجة الليسانس كانت عبارة عن إجازة تعطى صاحبها حق مزاولة مهنة التدريس ، وهى أقرب فى عرفنا إلى ما نسمية تجاوزاً درجة الماجستير . أما درجة الأستاذية فى الآداب — وهى المفروض أن تسمى ما جستير M.A — فهى مرادفة بالضبط لدرجة الدكتوراه ، وبها كانت تكتمل الصفة العلمية لأستاذ الآداب فى العصور الوسطى .

(أنظر Rashdall, op. cit. vol, I.p.p, 452-478 ، وكذلك كتاب الجامعات الأوربية فى العصور الوسطى ، للمؤلف) .

5) Cam. Med. Hist, vol, 6, p 564

على درجة الأستاذية للتحضير لدرجة الدكتوراه فى القانون الكنسى أو المدنى . ولكنها كانت أساسية للتحضير لدرجة الدكتوراه فى الطب أو اللاهوت (١) . ومهما يكن الأمر فإن درجة الأستاذية أو درجة الدكتوراه كانت لاتمنح لمن سنه دون الخامسة والثلاثين على أن يؤدى الطالب امتحانين للحصول على هذه الدرجة ، أحدهما خاص ، والآخر عام علنى ، وبعد ذلك يمنح الدرجة فى الكتدرائية (٢) .

وكانت طريقه التعليم شفوية ؛ وعلى هيئة محاضرات يلقيها الأساتذة تتخللها مناقشات فيما بينهم وبين الطلاب . ولم يكن للجامعات فى أول الامر مبان مستقلة خاصة بها ، فاستخدمت فى إلقاء المحاضرات بعض الغرف الملحقة بالكتدرائية وهى غرف عارية باردة ، ليس فيها أثاث سوى مكتب الأستاذ (٣) . أما الطلبة فكانوا فى أول الامر — قبل إعداد مقاعد لهم — يجلسون على الأرض ، وأحيانا فوق وسائدة محشوة بالقش (٤) . وقد توقف نجاح الطالب فى دراسته إلى حد كبير على قوة ذاكرته ومقدرته على الإحتفاظ فى ذهنه بما يلقيه الأستاذ من معلومات . ذلك أن الورق الذى عرفه الغرب بعد ذلك عن طريق العرب ، لم يكن قد عم استعماله بعد ، فى الوقت الذى كانت الرقائق الجلدية المستخدمة فى الكتابة باهظة الثمن بحيث لايستطيع معظم الطلاب شراءها (٥) . وفى بعض الاحيان دفعت الضرورة بعض الطلبة الذين يدرسون على أستاذ واحد إلى الإشتراك سويا فى شراء رق جلدى لتدوين المحاضرات عليه . وفى نهاية المحاضرة يجتمعون سويا فى مكان ما ، ويدلى كل منهم بما تعيه ذاكرته مما سرده الاستاذ ، وعندئذ تنشأ بينهم مناقشات طويلة حول تحديد ماذكره الاستاذ ومالم يذكره ، وعندما تتم مجموعة المحاضرات تصبح ملكا لهم جميعا يتبادلونها للاستذكار (٦) .

---

1) Painter , A Hist, of the Middle Ages, p 478
2) Thompson , op, cit, vol, 2, pp, 767-768
3) Cam, Med, Hist, vol, 6, p 570
4) Haskins , The Rise of Universities, pp, 62-63
5) Rashdall , op, cit, vol, 1, p, 424
6) Thompson , op, cit, vol, 1, p, 768

ولم تخل جامعات العصور الوسطى ـ كما هو الحال اليوم فى جامعاتنا الحديثة من بعض الطلاب المستهترين الذين يندسون وسط جموع المجتهدين ، حتى وصف بعض المعاصرين إحدى فرق الجامعة بأن طلابها يصلحون لأن يكونوا خبازين لاطلاب علم ! والواقع أنه كانت ثمة مشكلة خطيرة فى توفير العناية المادية والرقابة الخلقية على تلك المئات بل الالوف من الطلاب . وقد واجهت هذه المشكلة الجامعة والكنيسة والسلطة الحاكمة فى المدينة لأن الطلاب كانوا صغار السن يفيضون شبابا ويعيشون بعيدين عن بيوتهم دون وجـــود سلطة تكبح جماحهم [1] . وبالإضافة إلى ارتفاع تكاليف الحياة الجامعية عندئذ ، مما أدى بكثير من الطلبة إلى العيش على قليل من الزاد فى مساكن حقيرة [2] ، فإن عوامل الإغراء كانت كثيرة ، من حانات وأماكن للدعارة ، وإختلاط بقطاع الطرق وغيرهم من أهل السوء ، مما أدى إلى إنحراف كثير من الطلبة عن جادة الصواب [3] ولم يظهر حل لهذه المشاكل المتباينة إلا قرب منتصف القرن الثالث عشر عندما ظهرت المجمعات أو الكليات المنزلية (collges) . وكان المقصود بهـــذه المجمعات والكليات فى أول الأمر أن تكون منازل ينزل فى كل منها عدد من الطلاب ـــ وبخاصة الفقراء ـــ لمساعدتهم على عيشة أفضل وحتى يكونوا تحت رقابة تشرف عليهم [4] . وقد ظهرت هذه المؤسسات لأول مرة فى باريس عندما أخذ بعض الخيرين يألمون لما يعانيه الطلبة الفقراء من متاعب وآلام ، فأسس روبرت السوربونى (Robert de Sorbon) — وهو تاجر وافر الثراء — بيتاً فى باريس سنة (١٢٥٨ لإيواء عدد من الطلبة الفقراء وإطعامهم مقابل أجر اسمى زهيد ، مما خلد اسمه فى باريس حتى اليوم [5] . ولم يكن ينتهى القرن الخامس عشر حتى كان فى باريس أكثر من خمسمائة مؤسسة اجتماعية من هذا النوع تتمتع بأوقاف واسعة من الأراضى والعقار . أما فى انجلترا فقد أنشأ

---

1) Haskins, The Rise of Universities, pp, 83–85
2) Coulton , Life in the Middle Ages, vol, 3 p 118
3) Painter , A Hist. of the Middle Ages, p 475
4) Eyre , op. cit, p 333
5) Rashdalt , op, cit, vol,1. pp, 500–507, & Cam, Med, Hist, vol, 6, p 574

والترمرتون (Walter of Merton) أسقف روشستر مؤسسة مرتون فى اكسفورد ، كما أسس حنا باليول John Balliol — أحد الأمر الأثرياء فى فى شمال إنجلترا — مؤسسة باليول [١] .

ولم يكن ذلك إلا فى عصر متأخر عندما أطلق هذا الإصطلاح (Colleges) على المعاهد والكليات العلمية التى تفرعت عن الجامعة الواحدة لتتخذ لنفسها طابعا علميا خاصا بها . وقد زال نظام الكليات هذا من جامعات القارة الأوربية منذ أيام الثورة الفرنسية ، ماعدا إنجلترا التى مازالت تحتفظ به حتى أن جامعة اكسفورد لها ثلاث وعشرين كلية ، فى حين تحتفظ جامعة كمبردج بتسع عشرة كلية معظمها يرجع أصله إلى العصور الوسطى . وكانت هذه الكليات تعتمد على المنح التى تتلقاها من أغنياء رجال الدين والنبلاء والتجار [٢] .

ولم تلبث الجامعات أن انتشرت فى أوربا مستمدة نظمها من جامعة باريس فى الغرب وجامعة بولونيا فى الجنوب . ففى انجلترا ظهرت جامعة اكسفورد فى القرن الثانى عشر ، وإن كانت لم تتخذ صفتها الرسمية إلا حوالى سنة ١٢٠٠ . وكانت اكسفورد فى الواقع وليدة جامعة باريس لأن مؤسسيها كانوا من الطلبة والأساتذة الذين درسوا فى باريس ، والذين أمرهم هنرى الثانى ملك إنجلترا بالعودة إلى بلادهم سنة ١١٦٧ عندما ساءت العلاقات بينهم وبين لويس السابع ملك فرنسا وتعذر على الطلبة الإنجليز الاستمرار فى دراستهم بفرنسا [٣] . أما كمبردج فقد تأسست سنة ١٢٠٩ عن طريق هجرة بعض طلاب وأساتـــذة اكسفورد إليها [٤] ، الأمر الذى جعل بعض الكتاب يشبهون انتشار الجامعات فى العصور الوسطى بتكوين خلايا النحل الجديدة ، إذ يكفى أن يهاجر بعض الأساتذة والطلبة من جامعة قديمة إلى مكان جديد ليضعوا أساس جامعة أخرى جديدة [٥] .

---

1) Painter , A Hist, of the Middle Ages, pp, 474-465
2) Thompson , op, cit, vol, 2, p, 769
3) Painter , A Hist, of the Middle Ages, p, 471
4) Rashdall . op, cit, vol, 3. pp, 33-34
5) Cam. Med, Hist. vol, 5, p, 593

وهكذا شهدت أوربا فى القرن الثالث عشر والرابع عشر مولد كثير من الجامعات الجديدة . فنى سنة ١٢٢٢ هاجر بعض رجال جامعة بولونيا إلى بادوا ليضعوا أساس جامعة جديدة ، وفى سنة ١٢٢٤ وضع فردريك الثانى أساس جامعة نابلى — وهى أول جامعة يقيمها أحد ملوك أوربا أو حكامها ، وبعد ذلك بست سنوات أسس البابا جامعة فى تولوز لتكون سنداً للبابوية فى مكافحة الهرطقة الألبيجنسية [1] . أما سالرنو فكانت مدرسة ذات شهرة قديمة فى العصور الوسطى فى ميدان الطب فتحولت إلى جامعة طبية عظيمة فى القرن الثانى عشر ، حتى استكملت طابعها فى القرن الثالث عشر [2] وفى أسبانيا ظهرت جامعة شلمنقة Salamanca قبل سنة ١٢٣٠ . أما أولى الجامعات التى ظهرت شمالى الألب فكانت جامعة براغ فى بوهيميا التى أسسها شارل الرابع سنة ١٣٤٧ . وفى سنة ١٣٨٥ قامت جامعة هيدلبرج وهى أولى الجامعات الألمانية (٣) وإذا كانت معظم هذه الجامعات قد اختلفت بعضها عن بعض فى نواحى متعددة ، إلا أنها اتفقت فى الطريق الطويل الذى سارت فيه نحو التحرر من كافة القيود ، حتى حققت استقلالها عن السلطات الكنسية والعلمانية جميعاً . ولم يلبث أن أحرز مديرو الجامعات نفوذاً إدارياً واسعا ، وتحايلوا فى تحقيق ذلك بالثورة حيناو بالاستمالة بالبابوية ضد الحكام العلمانيين ، أو بهؤلاء الحكام ضـــد رجال الدين أحياناً أخرى [4] .

* * *

وبعد ، فإننا مها كتبنا عن أهمية نشأة الجامعات وعن الأثر العام الذى تركته فى تطور المجتمع الأوربى منذ القرن الثانى عشر . فإننا لن نستطيع أن نوفى الموضوع حقه فى هذا العرض الموجز .وقد ذكر أحد كتاب العصور الوسطى أن القوى الثلاث التى هيمنت على المجتمع المسيحى ووهبته الحياة والقوة كانت

---

1) Painter , A Hist. of the Middle Ages. p 472
2) Haskins , The Rise of Universities, pp, 9-10
3) Eyre : op, cit, p 333
4) Painter , A Hist, of the Middle Ages p. 472.

الكنيسة ، والإمبراطورية ، والجامعة . ولم تكن الجامعة فى نظره أقل أهمية عن الكنيسة والإمبراطورية ، لأنه كما كانت للكنيسة زعامتها ممثلة فى البابوية وروما ، وكما كانت للسلطة العلمانية زعامتها ممثلة فى الإمبراطورية الرومانية ، فكذلك كانت جميع جداول المعرفة التى تروى الكنيسة العالمية تنبع من الجامعات الكبرى ، وبخاصة جامعة باريس [١] . والواقع أن هذا الكاتب لم يكن مبالغاً إذا نظرنا إلى الجامعات على أنها تمثل محاولة لتحقيق حياة مثالية ، أو على الأقل تحقيق جانب من جوانب هذه الحياة المثالية [٢] .

ونكتفى هنا بالإشارة إلى أن الجامعات الناشئة احتضنت العلوم والمعارف الواسعة التى أتت بها النهضة الأوربية فى القرن الثانى عشر ، الأمر الذى جعل الجامعات مركزاً لثورة فكرية ضخمة ازدادت قوتها منــــذ القرن الثالث عشر [٣] ، وحسب الجامعات أنها هيئات علمية استهدفت المعرفة لذاتها ، ولتسخيرها فى خدمة العالم الكبير ، كما أن التنظيم الجامعى كان عالمياً لا قومياً ، فقصد الجامعة طلاب العلم من مختلف البلاد والأنحاء ، حتى أصبح من الأمور المألوفة أن ينتقل طالب العلم من بلد إلى آخر ليسمع من هذا أو ذاك من الأساتذة المشهورين [٤] وهكذا أصبح تاريخ الجامعات فى العصور الوسطى ليس إلا تاريخاً للحياة الفكرية بأوسع معانيها ، من نواحى الأدب والفلسفة واللاهوت والقانون والطب والعلوم والرياضيات [٥] . وكانت الثورة الفكرية التى تمخضت عنها الجامعات أوضح ما تكون فى الجانب الفلسفى ، إذ أفاقت أوربا لتجد نفسها أمام منهل فياض من فلسفة أرسطو الجديدة التى وردت عن طريق العرب ؛ لأنه من الثابت أن الغرب اللاتينى لم يعرف آراء أرسطو الميتافيزيقية إلا عن طريق ترجمة شروح الفيلسوف الأندلسى العظيم ابن رشد (١١٩٨) [٦] .

---

(1) Rashdall , op, cit, vol, 1. p. 2
(2) Idem, vol,1, p 3
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 6, p. 599
(4) Eyre, op, cit, p.p, 332-334
(5) Rashdall , op, cit, vol, 1, p.p, 3-4
(6) Idem vol 1, p.p. 351-370

وقد اعتقدت الكنيسة أنها بإشرافها على الجامعات الناشئة — وبخاصة جامعة باريس — ضمنت لنفسها السيطرة على الحياة الفكرية ، وحصرت هذه الحياة فى دائرة محدودة لا تتعارض مع تعاليمها . ولكن وصول فلسفة أرسطو الجديدة إلى غرب أوربا أحدث انفجارا ذا دوى شديد ، فأقبل طلاب العلم على هذه الفلسفة بنهم بالغ ، غير عابثين بمدى مسايرتها لتعاليم الكنيسة ، حتى أصبح من الحكم السائدة قول أحد المعاصرين « إنك تستطيع أن تكسب الجولة إذا أثبت أن أرسطو فى جانبك »[1] لذلك هبت الكنيسة للدفاع عن كيانها ، فعقد مجمع دينى إقليمى فى باريس سنة ١٢١٠ حرم تدريس بعض تعاليم أرسطو ومؤلفاته وهدد من يخالف هذا القرار بتوقيع قرار الحرمان ضده[2] . ومن الواضح أن هذا التحريم شمل كذلك شروح ابن رشد لفلسفة أرسطو ، وهى الشروح التى جاءت صادقة التعبير قوية الأثر ، مما أثار الكنيسة ضد أرسطو وابن رشد جميعاً . وقد أبيح تدريس جدل أرسطو بعد ذلك بخمس سنوات — أى سنة ١٢١٥ — ولكن تكرر تحريم تدريس الميتافيزيقا ، زيادة على كل ما يمت إلى الرشدية والرشديين[3] ثم حدث سنة ١٢٣١ أن أصدر البابا جريجورى التاسع أمراً جديدا بتحريم فلسفة أرسطو فى جامعة باريس حتى يتم تهذيبها من كل ما يتعارض وتعاليم الكنيسة[4] . على أن النصر النهائى كان للحركة الجامعية الجديدة وما أثارته من جنوح نحو حرية الفكر . ذلك أن رجال الجامعات الناشئة لم يستطيعوا أن يمتثلوا لأوامر رجال الدين ، ويتخلوا عن فلسفة أرسطو بعد أن تذوقوا جانباً من هذه الفلسفة وأدركوا أهميتها الغذائية للفكر . وهكذا استمر العلماء والطلبة يتداولون آراء أرسطو خفية فيما بينهم ، حتى أن المنطق الجديد لأرسطو كان يدرس فى صورة تامة وكاملة لطلبة الدراسات العليا بجامعة باريس سنة ١٢٥٥[5] .

---

(1) Harris , Duns Scotus, vol, 1, p, 204
(2) Idem. vol . 1, p. 356
(3) Haskins : The Rise of Universities. pp. 73-74
(4) Rashdall : op, cit, vol, 1, p, 357
(5) Idem, vol, 1, p.p, 354—358

أما اللاهوت فإن أهميته أخذت تضعف فى الجامعات الأوربية تدريجيا نتيجة لاهتمام هذه الجامعات بتدريس القانون الرومانى . والواقع أن النهضة القانونية التى تزعمتها جامعة بولونيا ، والتى امتدت إلى كثير من جامعات أوربا لم تترك متسعا من الوقت والجهد للاهتمام باللاهوت . إلى درجة أن كثيرا من الجامعات ذات الأهمية أحجمت عن تدريس اللاهوت كلية واكتفت بإنشاء كلية للقانون المدنى [١] . وهنا أيضا تدخلت الكنيسة وحاولت أن تحمى اللاهوت والقانون الكنسى عن طريق الحد من سطوة القانون الرومانى والإقلال من أهميته ، فصدر قرار مجمع ريمس سنة ١١٣١ بتحريم دراسة القانون المدنى على رجال الدين . ثم تجدد هذا التحريم بقرار آخر أصدره البابا اسكندر الثالث سنة ١١٨٠ [٢] . وفى القرن الثالث عشر أصدر البابا هونريوس الثالث مرسوما بابويا سنة ١٢١٩ حرم فيه تعليم القانون الرومانى أو تعلمه ؛ خاصة فى باريس والمناطق المجاورة .ويعبر البابا فى هذا المرسوم عن أسفه لأن كثيرا من رجال الدين أقبلوا على دراسة القانون الرومانى (٣) . على أن هذه المراسيم كلها ، وكذلك المرسوم الذى أصدره البابا أنوسنت الرابع سنة ١٢٥٤ لم يكن لها أى أثر فعال فى إحياء دراسة اللاهوت أو إضعاف شأن القانون الرومانى ، حتى أن جامعات بأكملها — مثــل جامعة أورليان — قامت على أساس الدراسات القانونية (٤) .

---

1) Cam. Med. Hist. vol. 6· p.573

(2) Thompson : op. cit. vol. 2, p,774

(3) Rashdall : op. vol· p, 1, p, 332

(4) Cam. Med. Hist. vol. 6, pp, 577

الباب السادس

الفلسفة

نظرت المسيحية – عند ظهورها – إلى الفلسفة اليونانية نظرة ملؤها الشك وعدم الثقة ، لأنها اعتبرت هذه الفلسفة مظهراً من مظاهر التفكير الوثنى[1] . وإذا كانت المسيحية اعتقدت أن هذا النوع من التفكير من شأنه أن يعمى بصيرة الإنسان ، فإنها تمسكت بأن المعرفة الحقيقية ينبغى ألا تستمد إلا من الكتاب المقدس وآراء آباء الكنيسة[2] . على أن هذا الموقف العنيد الذى وقفته المسيحية من الفلسفة القديمة كان لا يمكن أن يدوم ويستمر ، بعد أن وجدت الكنيسة نفسها فى حاجة إلى دعائم فلسفية تدافع بها عن كيانها ضد خصومها العديدين . وهكذا أخذ المدافعون عن كيان المسيحية فى القرن الثانى – مثل جستين الشهيد Justin Martyr وتاتيان Tatian وأثيناجوراس Athenagoras يحبذون الاعتماد على آراء أفلاطون – بصفة خاصة – لإثبات آراء الكنيسة المتعلقة بوجود الله[3] .

ولم تلبث أن ظهرت أولى المحاولات لإيجاد فلسفة مسيحية منظمة فى الإسكندرية فى القرن الثالث ، على أيدى كليمنت (١٥٠ – ٢١٥) وأوريجن (١٨٥ – ٢٥٤)، اللذين حاولا إثبات تعاليم المسيحية ونشر هذه التعاليم عن طريق الحوار والجدل ، معتمدين فى طريقتهم هذه على أسس مستقاة من الفلسفة الأفلاطونية ونخص بالذكر أوريجن Origen – أشهر آباء الكنيسة اليونانيين، الذى قاربت آراؤه الفلسفية آراء فلاسفة الأفلاطونية الحديثة ، حتى قال عنه فرفريوس الصورى Prophyry (٢٣٢ – ٣٠٤) إنه مسيحى فى أسلوب حياته ولكنه

---

1) Cam. Med. Hist., vol. 5, pp. 781—782

2) Eyre : op. cit. p 803

3) Gilson : La Philosophie au Moyen Ages, pp. 16—32

يوناني في تفكيره[1] . ذلك أن أوريجن عاش في الإسكندرية في وقت كانت هذه المدينة مركزاً للعلم والعلماء الذين يعملون على التوفيق بين مختلف المذاهب التي اجتمعت في صعيد واحد[2] . ونعني بهذه المذاهب الفلسفة اليونانية والمانوية والفيثاغورية الجديدة والمسيحية ، فضلا عن عقائد قدماء المصريين والمذاهب الشرقية الواردة من الهند وفارس . وعلى الرغم من الاعتراف بأوريجن أبا من آباء الكنيسة ، إلا أن تشبعه بالفلسفة اليونانية أدى إلى اتهامه بالهرطقة التي أدانته بها مجمع القسطنطينية في القرن السادس على أن تيار الأفلاطونية استمر في تدفقه وتأثيره على الفكر المسيحي في القرن الرابع ، ولم يلبث هذا التيار أن انتقل إلى الغرب عن طريق جريجوري أسقف نيسا Gregory of Nyssa (ت ٤٠٠ تقريباً) فالقديس أمبروز أسقف نيسا (ت ٣٩٧)[3] .

ديونيسيوس الاريوباغي :

ثم كان أن أسهم الشرق — عند نهاية القرن الخامس — بخطوة أخرى هامة لتطعيم الفكر المسيحي بآراء الأفلاطونية الحديثة ، وذلك عن طريق كتابات ديونيسيوس الأريوباغي Dionysius the Areopagite[4] . حقيقة إن هذه الكتابات لم تكن إلا صورة مقنعة لفلسفة أبرقلوس (برقليس Proclus) الإلهية ولكن صدورها عن رجل له مكانته في العالم المسيحي - مثل ديونيسيوس الأريوباغي — جعل المعاصرين يتقبلونها في شيء من السهولة على أنها لا تتعارض مع أصول الدين[5] . والفكرة الأساسية في هذه الكتابات هي أن عالم المخلوقات — من الملائكة فنازلا — يمثل سلماً منتظماً تعبر كل درجة من درجاته عن إحدى خصائص الله وصفاته . وهي الأصل الروحي لهذا العالم ، ومن هنا

---

1) Eyre : op. cit., p. 804
2) Taylor op. cit. vol. 1, p 51
3) Foligno : Latin Though during the Middle Ages p 42
(٤) المقصود بالأريوباغي أنه كان قاضيا بمحكمة آثينا العليا.
5) Gilson : op. cit. p 80

وجدت نظريتان في اللاهوت الأولى إيجابية ثبوتية والثانية سلبية(١) . فاللاهوت الإيجابي حاول أن يفهم طبيعة الله في ضوء الإستدلال بالأمثلة المستقاة من المخلوقات ، بمعنى أن صفات الكمال الموجودة في المخلوقات مستمدة من أصول تتمثل بصورة أعظم في الله تعالى . أما اللاهوت السلبي فيبدأ من الله الخالق . ويقول إن كل الصفات التي تختص بها المخلوقات تمتاز بالبعد عن الكمال ، وعلى ذلك لا يمكن الوقوف على حقيقة الله إلا بإبعاد كل صفات المخلوقات عنه(٢) . ومن لاهوت ديونيسيوس الإيجابي استمدت الكنيسة في العصور الوسطى نظرية درجات الملائكة التسع ، لأنه أول من أفرد للملائكة كتاباً خاصاً جمع فيه أسماء طوائفهم الواردة في الكتب المقدسة ورتبها في درجات أو مراتب . وتقوم نظرته إلى الملائكة على أنهم يمتازون بالعقل والبساطة وعدم المادية ، أي عدم وجود خصائص مادية لهم . أما منهجه في اللاهوت السلبي فقد أدى إلى ظهور اللاهوت الصوفي La theologie mystique الذي كان له أثر بالغ على الفكر الغربي في العصور الوسطى(٣) . ومعنى اللاهوت الصوفي العلم بالله وبالأمور الإلهية علماً ذوقياً أو تجريبياً شعورياً ممنوحاً من الله(٤) .

القديس أوغسطين

على أن الشريان الرئيسي الذي وصلت عن طريقه فلسفة أفلاطون إلى الغرب المسيحي في العصور الوسطى كان يتمثل في شخص القديس أوغسطين (٣٥٤ — ٤٣٠)(٥) ذلك أن أوغسطين كان قد تأثر — قبل اعتناقه المسيحية — بالمبادىء الأفلاطونية التي أطلع عليها في بعض كتابات شيشيرون وأفلوطين ، ومن ثم اتخذ هذه المبادىء نقطة البدء عندما شرع يفكر في وضع فلسفة دينية(٦) .

---

1) Idem, p 81

2) Eyre : op. cit. pp 805—806

3) Gilson : op. cit. p 81

(٤) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط ص ٥٥ .

5) Brehier : La Philosophie du Moyen Age, p 15

6) Taylor : op. cit. vol. 1, p 55

ويعتبر القديس أوغسطين مصدر الفلسفة التي بلغت ذروتها فيما بعد على أيدى ديكارت ، والتي تقوم على أساس الإيمان بوجود الفكر ،فأنا أستطيع أن أشك في كل شيء إلا في وجودي لأنني أفكر ، وما دمت أفكر فأنا موجود(١) . فالعقل البشرى إذن حقيقة قائمة لا شك فيها،ويقوم هذا العقل على أساس ثالوث من المعرفة والادراك والإرادة ، وهي الأركان الثلاثة التي تلقى ضوءاً ساطعاً على الحقيقة(٢) والمعرفة بما تنطوى عليه من قوة لاستيعاب الماضي والتأمل فيه والإحساس بالمستقبل ، تثير مشكلة الخلود والزمن والعلاقة بين الماضي والحاضر من جهة والخلود والبقاء من جهة أخرى : وهي المشكلة التي شغلت حيزاً كبيراً من فلسفة أفلاطون . أما الإدراك فيثير مشكلة أخرى رسمها أفلاطون وهي مشكلة التعلم. فهل الظاهرة العلمية التي ندعوها تعلما حقيقة جديدة ؟ لأنها إذا كانت حقيقة فلا يمكن أن تكون جديدة ، بحكم أنها حقيقة قبل أن يعلمها أى إنسان وستظل حقيقة حتى لو نسيها كل إنسان وقد قال القديس أوغسطين بأن الحقيقة لها صفة الخلود ، ولذلك فهي توجد وتكمن في العقل الأسمى الخالد ؛ وعندما أتعلم حقيقة من إنسان فإن ذلك يرجع إلى وجود اتصال مباشر بين إدراكي وبين ذلك العقل الخالد ، فالمعلم الحقيقي هو الله(٣) ؛ والمسيح — وهو كلمة الله معلم جميع العلوم والفنون magister ad omnia ،ومعرفة العلوم الطبيعية لا تقل عن معرفة حقائق الدين في أنها تنير عقل الفرد .

أما الأهمية العظمى لآراء القديس أوغسطين عن الإرادة فأمر معروف . فالمذهب الإرادى Voluntarism في الفلسفة المسيحية ، وعلاج مشكلة الشر يرجعان جميعهما إلى القديس أوغسطين . وقد قام مبدأ أوغسطين على أساس حرية الإرادة الإنسانية Liberum arbitrium وعلى أساس تمسك المسيحية بقدر الإله العليم ومحاولة التوفيق بين الله تعالى وقدرته المطلقة من ناحية وبين الشر القائم

---

1) Eyre : op. cit., p 807

2) De Wulf : Hist. de la Philosophie Med. T. 1, p 111

3) Gilson : op. cit. pp. 131—133

فى العالم من ناحية أخرى(١) . وهذا حل أوغسطين هذه المشكلة عن طريق التفرقة بين « الطبيعة » التى زود بها الله الفرد ، وإرادة هذا الفرد . فطبيعة المخلوقات كلهم — حتى الشيطان — طيبة وخيرة ، ولكن إرادتهم فقط هى التى يمكن أن تكون شريرة . وإذا كان الإنسان قد خلق مزوداً بالقدرة على اختيار الشر فإن ذلك ليس فى ذاته شراً ، لأن الإنسان الذى لايستطيع عمل الشر مختاراً وبمحض إرادته لا يمكنه فى الوقت نفسه أن يعمل الخير مختاراً وبمحض إرادته(٢) ثم إن الإنسان نفسه هو الذى يختار أن يفعل الشر متعمداً ، وليس الخالق هو الذى يدفعه إلى هذا الإختيار . وعلى ذلك فان جميع الشرور إما أن تأتى عن إختيار آثم (malum — culpe) أو إضطرار آثم (malum — poenae) ، وهذا الإضطرار لايأتى أبداً إلا نتيجة للاثم . وهكذا وضع أوغسطين أساس مذهب القضاء والقدر predestinationism الذى ظهر فى اللاهوت الغربى بعد ذلك ، ومذهب حرية الإرادة الذى ظهر فى الفلسفة الخلقية فى العصور التالية(٣) .

وخلاصة القول أن القديس أوغسطين فاق غيره من آباء الكنيسة الغربيين فى تأثره بالروح الفلسفية للأفلاطونيين ، كما فاقهم فى تأثيره فى العقلية الأوربية بقية العصور الوسطى ، حتى فى الوقت الذى بلغ نفوذ فلسفة أرسطو أشده(٤) .

بيوثيوس

ثم كان أن ظهر فى القرن السادس أحد كبار فلاسفة العصور الوسطى ، وهو بيوثيوس Boethius (٤٧٥ — ٥٢٤) الذى كان رومانيا انحدر من أسرة شريفة كما امتاز بسعة الإطلاع ، مما أكسبه مكانة رفيعة أوصلته إلى منصب الوزارة لثيودريك ملك القوط الشرقيين فى إيطاليا . على أن ثيودريك لم يلبث أن اتهمه

---

1) Eyre : op. cit p 809
2) De Wulf : op. cit. T. 1, p 118
3) Eyre : op. cit. p 809
4) Harris : The Legacy of the Middle Ages, p 228

بالخيانة فغدر به وأعدمه فى قسوة بالغة ، وعندئذ اعتبر بيوثيوس شهيداً لأن قاتله ثيودريك كان أريوسى العقيدة[1] . وقد ألف بيوثيوس قبل إعدامه — وهو سجين فى بافيا — رسالة فريدة ، أسلوبها مزيج من النثر والشعر ، أسماها «سلوى الفلسفة» ، أصبحت من أشهر الكتب فى العصور الوسطى[2] . ذلك أن شهرة هذا الكتاب غلبت على بقية مؤلفات بيوثيوس ، لاسيما الرسائل التى كتبها فى اللاهوت والتى لخص فيها مبادىء الثالوث المقدس وتجسد الأقنوم الثانى[3]

وتتفق مبادىء بيوثيوس مع الخطوط العريضة لعلم الأخلاق الأفلاطونى واللاهوتى الطبيعى . ذلك أنه استلهم العزاء من الفلسفة التى توجه إليه اللوم بسبب قبوله الوظائف التى تولاها والتى تذكره بأن المصائب التى أخذت تترى عليه لا يمكن أن تصرفه عن الثقة بالله والإرتباط به . وبعد ذلك يثبت بأمثلة مستمدة من فلسفة أفلاطون ، أن الله أسمى قوة فى الكون ، وأنه الخير المحض ، وأن عنايته الإلهية لا تسمح بأن يحل الأذى بالشخص التقى المستقيم ، وأن الألم المؤقت إنما هو ابتلاء للأخيار وعقاب للأشرار[4] .

هذا ، وقد أحرز كتاب بيوثيوس مكانته العظيمة نتيجة لإختصاره وبساطته فى عرض المبادىء الأفلاطونية ، بالإضافة إلى طلاوة أسلوبه وسحر بيانه . ومع ذلك فإنه لا يمكن القول بان بيوثيوس صاحب مذهب محدود فى الفلسفة ، وإنما جمع كثيراً من الآراء الفلسفية فى كتابه السابق ، فضلا عن ترجمة بعض مؤلفات فلاسفة اليونان إلى اللاتينية[5] .

الفلسفة المدرسية Scholasticism

أخذ النشاط يعود إلى الحياة الفكرية فى أوربا عقب الفترة المظلمة التى بدأت بغزوات البرابرة وانتهت بتتويج شارلمان امبراطوراً سنة ٨٠٠ ويطلق اسم التفكير

---

1) Foligno : Latin Thought. p 50
2) Cam. Med. Hist. vol. 3 p 485
3) Brehier : op. cit. pp. 10-11
4) Gilson : op. cit. pp. 145-146
5) Foligno : Latin Thought : pp. 50—51 & Cam. Med. Hist. vol. 3, p 485

المدرسي على الحياة الفكرية التي سادت أوربا منذ ذلك الوقت حتى ظهور العلوم الطبيعية الحديثة حوالى القرن السادس عشر ، بمعنى أن النظريات المتداولة طوال هذه القرون الثمانية كانت عبارة عن الفلسفة التي تلقن في « مدارس » التعليم العالي(١) . ومن أولى هذه المدارس مدرسة القصر التي أولاها شارلمان كثيراً من رعايته ، هذا وإن كانت المدارس الديرية والأسقفية — التي سبقت الإشارة إليها — أعم أثراً وأوسع نفوذاً . فالمدرسية لاتعني سوى مجموعة من النظريات المختلفة والآراء المتضاربة التي سادت الحياة الفكرية في أوربا بين سنتي ٨٠٠ ، ١٦٠٠ تقريباً(٢) . أما العامل المشترك بين هذه النظريات فلا يبدو في موضوعها بقدر مايبدو في الإتجاه الفكري الذي يحدد قالب المشكلة الفلسفية .

والمعروف أن مفكري العصور الوسطى أعتبروا واجبهم الأول إحياء النظرة التركيبية (Synthetic vision) التي نظر بها القدماء إلى العالم على أنه وحدة منظمة متجانسة . وبصرف النظر عن الترجمة اللاتينية لبعض رسائل أرسطو في المنطق ، فإن الفضل في إحياء النظرة السابقة يرجع إلى مؤلفات أوغسطين وبيوثيوس ، والترجمة اللاتينية لمؤلف أفلاطون « طيماوس Timaeus »(٣) . ثم كان أن غلب نفوذ الأفلاطونية الحديثة على النظرة العامة التي حاول مفكرو العصور الوسطى إلقاءها على الكون . ولم يكن ذلك إلا في القرن الثاني عشر عندما ازداد سلطان أرسطو على الفكر الغربي ، حتى حل أخيراً محل أفلاطون في القرن الثالث عشر(٤) . وبالإضافة إلى ذلك فإن العصور الوسطى تقبلت النظرات المسيحية والتعاليم اللاهوتية لاسيما فيما يتعلق بالله والعلاقة بينه وبين المخلوقات . وهكذا وجد مفكرو العصور الوسطى أنفسهم أمام موقف جديد ، وهو نفوذ الفلسفة الأرسطية إلى عالم الفكر إلى جانب تعاليم المسيحية ، الأمر الذي استدعى التوفيق بين الجانبين . نظراً لما هناك من تعارض واضح بين قول أرسطو بقدم

---

1) Eyre : op. cit. pp. 810—811
2) Taylor : The Med. Mind. vol. 1, pp. 313—317
3) Gilson : op. cit. 117
4) De Wulf : op. cit. T. 1, pp. 26—27

العالم وقول المسيحية بالخلق[١] . فالفلسفة المدرسية مهما اختلفت ميادينها كانت كلها ميتافيزيقية حاولت أن تحل المسائل المنطقية والأخلاقية والنفسية على أسس من الحقائق الثابتة . كذلك امتازت الفلسفة المدرسية بأنها عقلية ، تبدأ دائماً بالبحث عن المبادىء أو الأسس ، فإذا تم العثور على هذه المبادىء أمكن تحقيق التوافق والترابط المنطقى[٢] .

يوحنا سكوت اريجينا :

ومن أبرز المفكرين المدرسين فى القرن التاسع يوحنا سكوت إريجينا Johannes scotus Eriugena (ت ٨٧٧) ، الذى كان من مواليد أيرلندا ، ثم تلقى تعليمه بمدرسة القصر على عهد شارل الأصلع[٣] . ويحتل حنا سكوت مكانة فريدة فى الفكر الغربى فى العصور الوسطى بوصفه آخر آباء الكنيسة من ناحية وأول المدرسيين من ناحية أخرى[٤] . ومع أنه كان مسيحيا فى عقيدته ، إلا أنه ظل من الناحية العملية يتبع مذهب الأفلاطونية الحديثة، مما جعل المجامع الدينية المعاصرة سنة ٨٥٥ ، وسنة ٨٥٩ تأمر بإحراق كتاباته[٥] . أما فلسفته فتقوم فى جوهرها على أساس التوفيق بين الدين والفلسفة ، لأنه لافارق عنده بينهما ؛ ولذلك قال عبارته الشهيرة « الفلسفة الحقة هى الدين الحق ، والدين الحق هو الفلسفة الحقة »[٦] . وقد شرح سكوت فلسفته هذه فى كتابه عن « قسمة الطبيعة de divisone naturae » ، أى نظام الوجود ؛ وهى دراسة بديعة فى أسلوب الأفلاطونية الحديثة يوضح فيها تدرج الحقيقة من الأقنوم الثانى الخالد إلى أبسط المخلوقات السريعة الزوال[٧] . ذلك أنه قسم الطبيعة — وهى الحقيقة — إلى

---

1) Harris : The Legacy. pp. 228—229
2) Eyre : op. cit. 811—812
3) Cam. Med. Hist. vol. 3, p. 524
4) Harris : The Legacy of the Middle Ages, p 229
5) Taylor : The Med. Mind. vol. 1, pp. 229—230
(٦) يوسف كرم تاريخ الفلسفة الأوربية فى العصر الوسيط ـ ص ٧٣
7) Brehier : La Philosophie au Moyen Age, pp. 51—52

أربعة أنواع ، قسم يخلق ولايخلق وقسم يخلق ويخلق ، وقسم يخلق ولايخلق ، وقسم لايخلق ولايخلق . ويبدو أن آراء أريجينا وفلسفته كانت أعمق من أن تستوعبها عقلية المعاصرين في القرن التاسع ، فاعتبرت ضرباً من الهرطقة وأعدمت[١] على أنه من الثابت أن سكوت لم يرم إلى اتجاهات هرطقية في اللاهوت كما أنه لم يكن مستتراً في تفكيره الحر . هذا إلى أن حطه من قيمة سلطة الكنيسة بالنسبة للعقل كمصدر للمعرفة ، أمر لايتعلق إلا بسلطة آباء الكنيسة في تفسير الوحي ، ولم يستهدف بأي حال الحط من شأن الوحي نفسه الذي سلم به سكوت تسليما تاماً[٢] . ولكن من الواضح أن هذا التفكير يتعارض في اتجاهه مع المسيحية في عدة نواح بطريقة لاشعورية ، لأن تعظيمه للاهوت السلبي على حساب الإيجابي من شأنه أن يؤدي إلى اللاأدرية المطلقة نفسها التي انتهت إليها الأفلاطونية الحديثة[٣] . هذا إلى أن عدم اعترافه بأن الشر مهما يكن نوعه ليست له حقيقة واقعة ، يتناقض تماما مع ما اتصفت به المسيحية من غيرة خلقية . وهكذا نجد فلسفة يوحنا سكوت — إذا أمعنا النظر فيها — تنتهي إلى الربط بين المذهب الطبيعي العملي واللاأدرية الميتافيزيقيه المطلقة . ولعل أهمية هذه الفلسفة من الناحية التاريخية هي أنها توضح كيف ظلت نظرة الأفلاطونية الحديثة إلى العالم تتحور تحوراً عميقاً في التفكير الفلسفي المسيحي ، الأمر الذي جعل يوحنا سكوت مؤسس الفلسفة المدرسية كما يعتبر — بحق — أبا للمذهب العقلي(٤) .

مشكلة الكليات :

وقد شهد القرن التاسع بداية نقاش فلسفي طويل نشأ من عبارة وردت في مدخل فرفريوس (Prophyry) إلى مقولات أرسطو عن طبيعة الكليات[٥] وكان محور هذه المشكلة هو : هل أسماء الأنواع مثل إنسان وحصان مجرد ألفاظ

---

1) Harris : The Legacy of the Middle Age, pp. 230—234
2) Cam. Med. Hist., vol. 5 pp. 786—787
3) Giison : op. cit. pp. 205—206
4) De Wulf : op. cit. T. 1, pp. 129-131
5) Rashdall . op. cit., vol. 1. p 40

لا وجود لها بالفعل ، أو أنها تعبر عن أنواع موجودة فعلا ؟ وإذا كان لها وجود فعلى ، فهل هذه الأنواع توجد فعلا فى أفرادها (هذا الإنسان وهذا الحصان) أو أن لها وجوداً منفصلا قائماً بذاته(١) ؟ وبعبارة أخرى عندما ما نتحدث عن الإنسانية فهل نعنى شيئاً معيناً بالذات واحداً ومشتركاً بين جميع المخلوقات البشرية ؛ أو أنه مجرد لفظ عام مطلق لا يعنى شيئاً مفردا محددا ؟(٢) .

وقد مهدت هذه المشكلة فيما بعد إلى إنقسام فى الرأى بين الفلاسفة ، فقال الإسميون أن الأنواع ليست إلا مجرد أصوات (morae voces) أو أسماء مجردة لا تعنى حقائق معينة ترتبط بها ، فى حين قال الحقيقيون أن هذه الأسماء تعنى حقائق معينة قائمة فعلا(٣) . وكانت الغلبة فى القرن التاسع للرأى الأخير « الحقيقى » ، فقال أصحاب هذا الرأى أن الأنواع والأجناس التى تقسم إليها محتويات الكون فى أذهاننا ليست تقسيمات من صنع العقل البشرى ، وإنما الله هو الذى وضع هذه التقسيمات وفق طبيعة الأشياء ؛ وعلى ذلك فهى تدل على حقائق ثابتة تكمن خلف كل منها(٤) .

القرن العاشر — البابا سلفستر الثانى

اتصف القرن العاشر بضعف الحياة الفكرية نتيجة لإضطراب أحوال أوربا السياسية . وكان من أبرز مفكرى هذا القرن البابا سلفستر الثانى (٩٩٩-١٠٠٣) الذى أسماه بعض المعاصرين « البابا الفيلسوف »(٥) . والواقع أنه لم يكن فيلسوفا كبيراً ، ولم يعلن رأيه بصراحة فى أهم مشاكل العصر الفلسفية وهى مشكلة الكليات : ولكنه مع ذلك كان رجلا مستنيراً مجدداً . وخير ما يدل على انحطاط المستوى الفكرى فى ذلك العصر هو أن معرفة ذلك البابا بعلوم المجموعة الرباعية

---

1) Eyre , op. cit., p. 313
2) Harris . The Legacy of the Middle Ages, p. 234.
3) De Wulf , op. cit. T. 1, pp. 93—94
4) Idem. p. 99
5) Cam. Med. Hist., vol. 3, p 536

من الفنون الحرة (وهى الحساب والهندسة والموسيقى والفلك) أدت إلى اتهامه بالسحر والشعوذة(١) .

القرن الحادى عشر :

أما القرن الحادى عشر ، فكان عصر نشاط فكرى توجه أحد كبار فلاسفة العصور الوسطى — وهو القديس أنسلم[٢] . وإلى هذا العصر ترجع نشأة الرغبة فى الجدل المنطقى الصورى العديم الجدوى ، الذى ينسب إلى المدرسيين بوجه عام .

وأول مثل لدينا للمتهمين بهذا النوع من الجدل الصورى هو بريجاريوس التورى (ت١٠٠٨) Berengarius of Tours الذى اهتم بمعالجة الدين بالجدل؛ فأنكر مبدأ التجسد والإستحالة على أساس أن العرض لايمكن أن يقوم فى غياب الذات[٣] . فإذا كان العرض ملازما للذات فإنه فيما يتعلق بالقربان الأقدس ظلت ذات الخبز باقية تنضاف إليها صورة جسد السيد المسيح . ومثل ذلك يقال فى الخمر بالإضافة إلى دم المسيح ، لأن ذات الخبز والخمر تبقيان بعد التشكريس[٤] . ومن الطبيعى أن مثل هذه الآراء لابد أن يكون لها رد فعل قوى عند رجال اللاهوت الذين ردوا عليها بأن الأعراض قد تبقى مفارقة للذات بالقدرة الإلهية . كذلك رد القديس بطرس داميان St Peter Damian (١٠٠٧ — ١٠٧٢) مطالباً بعدم تطبيق أساليب العلم البشرى ومناهجه على الكتاب المقدس ومايشمله من آراء دينية[٥] .

---

1) Taylor : op. cit. vol. 1, p.p. 283—286
2) Cam. Med. Hist. vol. 5, p 793
3) Eyre : op. cit. p 814
4) Gilson : op. cit. p 234
5) Eyre : op. cit. p 815

المذهب الاسمى — روسلينوس :

احتل المذهب الإسمى فى المنطق مكانة بارزة فى التفكير الفلسفى فى القرن الحادى عشر ؛ وكان أبرز المفكرين الذين ناصروا هذا المذهب حينئذ روسلينوس Roscellinus (١٠٥٠ — ١١٢٠) الذى يحتل مكانة هامة عند بداية هذا الدور الكبير من أدوار الفلسفة المدرسية ، فضلا عن أنه حدد نقطة البدء لما يمكن أن نسميه « اللاهوت المدرسى » [1] .

ويبنى الإسميون رأيهم على أساس مبدأ أرسطو الخاص بأن الحقيقة الكاملة تتمثل فى الجزئيات ، وأن الكليات ليست إلا ألفاظاً وكلمات لاتعنى شيئاً . فلا يمكن أن نتصور إنسانية دون أن نعنى إنساناً معينا ، ولا بياضا دون أن نعنى شيئاً أبيض ، ولاحكمة دون أن نعنى نفساً معينة حكيمة [2] . وهنا جاء روسلينوس ليطبق هذا المبدأ الإسمى على اللاهوت فى تفسير عقيدة الثالوث المقدس ، فقال: كما أن الأفراد - وهى الجزئيات - موجودة فى أنواع المخلوقات (الأنواع هى الكليات) ، فإن الأقانيم (٣) هى الموجودة فى الله . فالله فيه من الجواهر بقدر مافيه من الأقانيم « بحيث نستطيع القول بثلاثة آلهة لو أن العرف يسمح بذلك » (٤) .

ولذلك اتهم مجمع سواسون الدينى روسلينوس بالهرطقة سنة ١٠٩٣ وأدانه بتهمة القول بثلاثة آلهة Tritheiusm .

---

1) Rashall op. cit. vol. 1, p. 41

2) De Wulf, op. cit. Tome 1, pp. 103—104

(٣) لله عز وجل جوهر وصفات . والصفات هى الأقانيم ، وهى ثلاثة : الخير ، والعقل والروح الكونية .

4) Brehier op. cit. p 131

القديس أنسلم :

أما القديس أنسلم فكان أبرز شخصية بين مفكرى القرن الحادى عشر . ذلك أن مذهبه قام على أساس الجمع بين العقل والإيمان (la raison et la foi) أو تعقل الإيمان . ويبدو أن أنسلم رأى أن يحارب الآراء الهرطقية بنفس أسلحتها فعمل على استغلال الفلسفة لشرح عقائد المسيحية ، والربط بين مختلف أطراف تراث الكنيسة الغربية (١) .

والواقع أنه بنى فلسفته على أساس التراث الفكرى للقديس أوغسطين وأفلاطون ؛ بل أنه أعلن فى مقدمة كتابه « مناجاة النفس » أنه تلميذ أوغسطين وأنه يسير وفق آرائه . وكان يرى أن الخطوة الأولى التى على المفكر المسيحى أن يخطوها هى الإيمان ، لأن الإيمان شرط التعقل ، وعلى ذلك لا ينبغى أن يخضع الإيمان للعقل وإنما العقل هو الذى يجب أن يخضع للإيمان Credo ut in telligam [٢] .

على أن أهم ما أسهم به أنسلم فى بناء المدرسية الأوغسطينية هى الأدلة التى ساقها على وجود الله [٣] . حقيقة إن الأدلة التى أتى بها أنسلم هى أدلة القديس أوغسطين نفسها ، ولكن أنسلم صورها فى صورة أكثر دقة ، فأقامها على أساس نظرية الأفلاطونية الحديثة التى تقول بأن الوجود عبارة عن سلم مسلسل منتظم ، وكل ما تمثل من كمال فى درجة من درجات هذا السلم فهو مستمد من مشاركته فى مطلق ذلك الكمال (٤) ثم حاول أنسلم أن يثبت وجود الله بأدلة مأخوذة من نواح ثلاث ، تتشابه فيها الأشياء ولكن تشابهها يتفاوت مما يؤدى بنا إلى علة أولى . أما هذه النواحى فهى الصفات مثل الجمال والعلم ، ثم المادية

---

1) Harris : The Legacy, p 235
2) Gilson : op. cit., p 241
3) Brehier : op. cit. p 122
4) Gilson : op. cit., p 243

التى تتفاوت فيها الأشياء أيضاً ، فالنبات أرقى من الجماد ، والحيوان أرقى من النبات ، والإنسان أرقى من الحيوان ، وأخيراً الوجود الذى يتبع التفاوت فيه التفاوت فى الماهية ، فليس وجود الإنسان كوجود الحيوان مثلا (١) .

أما نصيب أنسلم الشخصى الذى أسهم به فى التفكير الفلسفى دون أن يستمده من غيره ، فهو الدليل الوجودى (ontologique) . ويقوم هذا الدليل على أساس أن إنكار أى شخص لوجود الله ليس إلا اعترافا منه بوجود شىء عظيم فى ذهنه يستحق الإنكار (٢) . وهذا الشىء العظيم الذى لا يمكن تصور أعظم منه فى العقل ، لابد أن يكون موجوداً فى الواقع لأن ما لايتصور أعظم منه لا يمكن أن يوجد فى العقل فقط ، لأنه فى هذه الحالة يصبح فى الاستطاعة تصور موجود مثله متحققاً فى الواقع ومن ثم يكن أعظم منه . وعلى ذلك فإن الإنسان يناقض نفسه إذا قال بأن الله تعالى — وهو كائن لا يمكن تصور أعظم منه — غير موجود ، وبعبارة أخرى فإن الله لابد أن يكون موجوداً فعلا (٣)

وقد اعترض أحد المعاصرين — وهو جونيلو Gauuilon — الراهب بدير مارموتية Marmoutiers على رأى أنسلم ، فقال بأن الله تعالى ليس موضوع إدراك مباشر ، وهو يختلف عن الموجودات التى نقصد بها أشياء معينة نراها أو نتصور صورتها . وعلى ذلك لايجوز أن نتخذ تعريف اسم الله مقدمة للتدليل على وجوده (٤) . ولكن انسلم رد على هذا المعترض قائلا « إرجع إلى إيمانك وعندئذ تدرك أنك تعقل الله أنه الموجود الذى لايتصور أعظم منه » . وهكذا نعود فنقول إن الإيمان هو أساس التعقل فى فلسفة أنسلم (٥) :

1) Eyre : op. cit. p. 816
2) De Wulf : Tomel, pp. 115—117
3) Taylor : op. cit. vol. 1, p. 279
4) Ibid.
5) Brehier : op. cit. pp. 124—125

القرن الثانى عشر : مدرسة شارتر :

أما القرن الثانى عشر فقد شهد فى غرب أوربا نشاطاً فكرياً غزيراً . ويرجع الفضل فى جزء كبير منه إلى مدرسة شارتر بفرنسا . وقد ظهر طابع الفلسفة الأفلاطونية فى هذه المدرسة فى مؤلفات تيرى رئيس مدرسة شارتر (ت ١١٥٥) الذى شرح سفر التكوين فى ضوء المعانى الأفلاطونيـــة التى وردت فى محاورة طيماوس (١) .

على أن بطرس أبيلار Pierre Abelard (١٠٧٩ — ١١٤٢) كان بدون شك أشهر رجال الجدل فى القرن الثانى عشر وألمع معلمى عصره ، بحيث أنه ترك — عن طريق تلاميذه — أثراً عميقاً فى الدراسات الفلسفية واللاهوتية بقية العصور الوسطى ، فضلا عن أن تطور اللاهوت المدرسى بلغ ذروته على يديه (٢) والواقع أنه لم يكن — كما دعاه البعض — أبا الفلسفة المدرسية ، إذ ربما كان القديس أنسلم — إن لم يكن يوحنا سكوت اريجينا — أحق بهذا اللقب : ولكن كتابه « نعم ولا Sic et Non » يعتبر نموذجا احتذاه من خلفه من اللاهوتيين والفلاسفة ، فاستخدموا الجدل فى دحض آراء المعارضين (٣) ويعرض أبيلار فى هذا الكتاب نحواً من مائة وخمسين مسألة لاهوتية ، يبحثها بطريقة جدلية أكثر منها موضوعية ، معتمداً فى هذا البحث على أدلة فلسفية ، ولكن دون أن يجرؤ على أن يقطع فيها برأى حاسم (٤) . أما مسألة الكليات فقد اتخذ فيها رأياً وسطاً عندما قال أن الألفاظ كلية لأننا نقصد بها دلالة كلية ، ولكن للأنواع والأجناس مقابلا فى الخارج ، وهذا المقابل هو « طبيعة الجزئى » مجردة من الأعراض ، مع تشابه الطبيعة فى الجزئيات الحاصلة عليها . فالأنواع والأجناس ذاتية فى

---

1) Gilson : op. cit. pp 268—272

2) Rashdall . op. cit., vol. 1, p 43

3) Cam. Med. Hist, vol. 5 p 799

(٤) يوسف كرم . تاريخ الفلسفة الأوربية فى العصر الوسيط ٢٠٥ .

الجزئيات مجردة فى العقل (١) . وفيما عدا ذلك ، فإن أهم ماأسهم به أبيلار جاء فى ميدان الأخلاق ، إذا وضع كتاب « اعرف نفسك » الغرض منه كشف الأخلاق المسيحية بالعقل عن طريق حوار بين فيلسوف ومسيحى ، وبفضل هذا الكتاب اعتبر ابيلار مؤسس علم الأخلاق فى العصور الوسطى (٢) .

أما حنا سالسبورى (١١١٠ — ١١٨٠) فكانت فلسفته عملية معتدلة تقوم على أساس فلسفة شيشيرون. وقد أخذ حنا سالسبورى عن شيشيرون الشك المعتدل القائم على التمييز بين ما يعلم ومالا يعلم (٣). ومن مؤلفاته كتاب « مذهب الفلاسفة » الذى يصور المدارس الفلسفية فى عصره بعد أن يعرض لتاريخ الفلسفة عند اليونان والرومان ، وكتاب آخر فى المنطق، وثالث فى السياسة ونظم الحكم Policraticus (٤) .

وإلى جانب القسط الكبير الذى أسهم به الفلاسفة السابقون وغيرهم فى علاج المسائل اللاهوتية ، وجدت جماعة أخرى من المفكرين غلب عليهم الطابع اللاهوتى فى تفكيرهم ، حتى أننا نعتبرهم لاهوتيين أكثر منهم فلاسفة . والواقع أن العلاقة بين الفلسفة واللاهوت بدت فى ذلك العصر أشد ماتكون وضوحاً ، بعد أن أصبحت مدارس اللاهوت لا تتأثر بالمشاكل الفلسفية فحسب ، بل أيضاً بأساليب الفلسفة وطريقتها فى التفكير (٥) . وعلى رأس هؤلاء اللاهوتيين كان القديس برنارد (١٠٩١ — ١١٥٣) الذى أعلن أن الفلسفة الوحيدة التى يصح أن يشتغل بها المفكر المسيحى هى « معرفة المسيح المصلوب » . على أن القديس برنارد لم يتطرف فى مهاجمة الفلاسفة والجدليين ، كما فعل غيره من رجال الدين المتزمتين ، وإنما كان معتدلا فى موقفه منهم ، وبذلك ترك أثراً عميقاً فى التصوف النظرى (٦) .

---

1) Harris . The Legacy, p236
2) De Wulf . op. cit. T. 1, p 155
3) Cam. Med. Hist., vol. 5, pp. 806—807
4) Gilson . op. cit. p 274—277
5) Rashdall . op. cit. vol. 1, p 44
6) Eyre . op. cit. p 819

أما هيو — أستاذ دير سانت فكتور (١٠٩٦ — ١١٤١) فكان أقوى منه أثراً فى فلسفة التصوف . وقد أقام هيو فلسفته فى التصوف على أساس نظرية المعرفة ، فقسم المعرفة الإنسانية إلى ثلاث درجات ، الدرجة الأولى معرفة العالم المحسوس بالحس والخيال والتجريد ويسميها عين الجسم (oculus carnis) والدرجة الثانية معرفة النفس لذاتها ويسميها عين العقل (oculus rationis)، والدرجة الثالثة معرفة الله ويسميها عين المشاهدة (oculus contemplationis)(١)

القرن الثالث عشر — ازدهار الفلسفة المدرسية :

يعتبر القرن الثالث عشر العصر الذهبى للفلسفة المدرسية والدراسات اللاهوتية جميعاً فى العصور الوسطى . ذلك أنه ظهرت حقائق أدت إلى تغيير وجه الحياة العلمية فى القرن الثالث عشر، أهمها إحياء فلسفة أرسطو الطبيعية والميتافيزيقية ، وقيام الجامعات الأوربية وبخاصة جامعة باريس ، ثم إتصال الفلسفة الغربية بالفلسفة الشرقية الإسلامية واليونانية والاسرائيلية(٢) .

أما أحياء تراث أرسطو الفلسفى ، فيلاحظ أن العالم المسيحى الغربى لم يعرف فى الشطر الأول من العصور الوسطى شيئاً من أبحاث أرسطو عدا منطقة الصورى. ولعل عدم الاهتمام بالطبيعة ، والذى بدا واضحاً من المفكرين الغربيين مثل القديس أنسلم ، ليس مرجعه استغراقهم فى اللاهوت فحسب ، بل جهل هؤلاء المفكرين بالدراسات القديمة التى توضح لهم أهمية الميدان الطبيعى المحسوس كحقل خصب للتفكير والإستقصاء (٣). على أنه فى الوقت الذى كان نصيب الدراسات الأرسطية فى غرب أوربا الإهمال والنسيان ، إذ بهذه الدراسات تحظى بتشجيع مفكرى المسلمين وعنايتهم ، وهم الذين توصلوا إلى مؤلفات أرسطو عن طريق ترجمتها عن السريانية (٤) وهكذا ظهرت دراسات أرسطية إسلامية ، يشوبها

1) Brehier op. cit. p 189
2) De Wulf . op. cit. 221
3) Eyre : op. cit. p. 820
4) Cam. Med. Hist. vol. 5 p 811

كثير من عناصر الأفلاطونية الحديثة ، وتزعم هذه الدراسات عدد كبير من فلاسفة المسلمين مثل ابن سينا (٩٨٠ — ١٠٣٧) فى المشرق وابن رشد (١١٢٦ — ١١٩٣) فى الأندلس ؛ كما أسهم فى هذه الحركة بعض اليهود مثل موسى بن ميمون (١١٣٥ — ١٢٠٤) (١) . وسرعان ما وقفت أوربا على الدراسات العربية — وبالتالى الأرسطية — نتيجة للاتصالات بين المسلمين والمسيحيين فى عصر الحروب الصليبية،فاشتدت حركة الترجمة عن العربية إلى اللاتينية.وعن طريق هذه الحركة - فضلا عن الترجمة عن اليونانية مباشرة - تعرف غرب أوربا على دراسات أرسطو الذى علم الغرب أن الطبيعة المحسوسة تقدم حقلا أوسع من اللاهوت غير المحسوس (٢) .

على أن الأرسطية - كما بدت فى شروح ابن سينا وابن رشد - اتخذت صورة يمكن تسميتها وحدة الطبيعة أو الوجود، وهى صورة لم تترك سوى مجال ضيق لتعاليم المسيحية الخاصة بوجود الله والخلق والحياة الأخرى والحساب. وهكذا أصبحت المشكلة الكبرى أمام مفكرى القرن الثالث عشر فى غرب أوربا هى هل يجوز تدريس هذه العلوم الفلسفية والآراء الجديدة جنباً إلى جنب مع الدراسات اللاهوتية فى معهد واحد (٣) ؟؟ ولم تلبث هذه المشكلة أن تبلورت فى جامعة باريس ، تلك الجامعة التى حظيت برعاية البابا انوسنت الثالث لتكون مركزاً عالمياً لتدريب رجال الدين وتعليمهم وهنا أثار الإشكال السابق عدداً كبيراً من الصعوبات ، فهل يجوز تدريس الميتافيزيقا والعلوم الفلسفية فى الجامعة إطلاقا (٤) ، وإذا جاز ذلك فهل تستقل كلية الآداب بتدريس هذه الدراسات أم يتم ذلك التدريس تحت إشراف رجال اللاهوت ؟ وأخيراً هل يجوز لرجال المنظمات الدينية الكبرى فى القرن الثالث عشر — وهما منظمة الدومينيكان ومنظمة الفرانسسكان— أن يقوموا بالتدريس فى الجامعات (٥) ؟.

1) Taylor . op. cit. vol. 2, p. 420
2) Haskins. The Renaissance of the Twelfth Century, p.p. 287-293
3) Eyre . op. cit. pp. 820—821
4) Cam. Med. Hist., vol. 5 pp. 817-816
5) Eyre . op. cit. pp. 820—821

وهنا نجد ـ فيما يتعلق بجامعة باريس بالذات ـ ، أن صبغتها الكنسية الأولى وعلاقتها بالبابوية ، جعلتها تخضع ـ إلى درجة ما ـ لكلمة البابوية التى أفزعتها آراء أرسطو والشروح التى وضعها فلاسفة المسلمين لهذه الآراء ، فأصدر مجمع باريس الكنسى سنة ١٢١٠ قراراً بتحريم كتابات أرسطو وشروحها (١) . وقد تقرر هذا التحريم بعد ذلك عدة مرات ، ولكنه لم يجد فى صرف الأحرار من المفكرين عن دراسة كتب أرسطو ، فأخذت هذه الكتب تنتشر فى فرنسا وانجلترا وألمانيا ، فضلا عن أسبانيا ؛ حتى سمح البابا أوربان الخامس سنة ١٣٦٦ بأن يمتحن طلاب ليسانس الآداب فى جميع كتب أرسطو دون استثناء . أما الصراع العنيف بين رجال المنظمات الدينية والأساتذة العلمانيين حول الاستئثار بالتدريس فى الجامعة (جامعة باريس) ، فقد انتهى بانتصار الفريق الأول ، حتى أننا نجد أبرز أساتذة القرن الثالث عشر ــ مثل بونافنتورا وروجر بيكون والقديس توما ودونس سكوت ــ ينتمون جميعاً إلى جماعة الفرانسسكان أو الدومينيكان (٢) .

والواقع ، أنه إذا نظرنا إلى النشاط الفلسفى فى القرن الثالث عشر فإنه يمكننا التمييز بين أربعة تيارات اختلف بعضها عن بعض فى مسلكها تجاه الأرسطية . فهناك أولا أقلية من الرشديين أبرزهم سيجر البرابنتى ، وهم الذين تقبلوا تعاليم أرسطو كما صورها العرب وشرحوها دون تحفظ ؛ وبعد ذلك يأتى فريق الأوغسطينيين الذين تشبعوا بأكبر قدر ممكن من الأرسطية مع التمسك بتعاليم أوغسطين وآرائه ومن ورائها الفلسفة الأفلاطونية ، وأبرز مفكرى هذا الفريق القديس بونافنتورا ، ثم يأتى ثالثاً فريق من المفكرين ظهر فى اكسفورد من الأوغسطينيين الفرانسسكان ، وهؤلاء لم يعطوا الميتافيزيقا قدراً من عنايتهم مثلما أعطوا العلوم الطبيعية التجريبية والرياضيات ، وعلى رأس هذا الفريق يأتى روجر بيكون . وأخيراً يأتى فريق الأرسطيين الدومينيكان ، وهم الذين تمسكوا

---

1) Rashdall . op. cit. p. 356

2) De Wulf. op. cit. Tome 1, 236—237

وانظر كذلك كتاب الجامعات الأوروبية فى العصور الوسطى للمؤلف .

بفلسفة أرسطو الأصلية واتخذوها أساساً لتعاليمهم وهاجموا آراء الشراح والمفسرين الذين شرحوا هذه الفلسفة وفسروها . وأبرز مفكرى هذا الفريق القديس توما الأكوينى [1] . وسنتناول كل فريق من هذه المذاهب الأربعة بكلمة قصيرة.

(ا) أما الرشديون الذين تزعمهم سيجر البرابنتى (١٢٣٥ - ١٢٨٤) فى القرن الثالث عشر ، فكانوا يرون فى تعاليم أرسطو — كما شرحها ابن رشد — علما قائما بذاته وفنا مثاليا يجب أن يدرس كما هو ، دون مراعاة لما بينه وبين الدين من خلاف . وهكذا يبدو أن هؤلاء الرشديين اعتمدوا على شروح ابن رشد واعتبروها خير صورة لفلسفة أرسطو ، وبذلك أثاروا حركة عرفت بالرشدية اللاتينية (٢) . وكان سيجر زعيم هذه الطائفة يتصور العلاقة بين الإيمان والعقل تصوراً خاصاً جديداً ، إذ أنه لم يضعهما فى مستوى واحد حتى يختار بينهما . ولكنه حول التعارض بين العقل والإيمان إلى تمايز بين نظام طبيعى منسوج ونظام فائق للطبيعة ناسخ [3] . ذلك أنه قال أن الإيمان يكشف لنا عن نظام فائق للطبيعة أراده الله لنا وأعلنه علينا ، فنحن نتقبله إلى جانب مايعقله العقل. أما العقل الطبيعى فلا يعلم سوى النظام الطبيعى الذى من الممكن أن يكون حقاً لو لم يستبدل به الله النظام الفائق للطبيعة (٤). ثم يقول أنه إذا أعلن الوحى أموراً لاتستنبط بالأدلة الطبيعية فليس للفلسفة أن تعرض للمعجزات وإنما الطبيعيات تبحثها بحثاً طبيعياً . وهكذا جاءت آراء سيجر خطراً على الجهود التى بذلها المدرسيون للتوفيق بين العقل والدين [5] .

(ب) وأما الأوغسطينيون فقد تمسكوا بآراء القديس أوغسطين وبفلسفة أفلاطون من خلفها . ويبدو الفارق واضحاً بين آراء هذا الفريق وفلسفة الدومينيكان فى أربع نواحى ، أولها فى نظرية المعرفة إذ يقول الأوغسطينيون بأن للنفس عقلين ، عقل أدنى تتجه به نحو المحسوسات وعقل أعلى تتجه به نحو ذاتها ونحو

---

1) Eyre . op. cit. pp 821—822
2) Brehier . op. cit. pp. 272—277
3) Cam. Med. Hist., vol. 5 p 821
4) De Wulf . op. cit. T. 2, pp. 95—99
(٥) يوسف كرم تاريخ الفلسفة الأوربية فى العصر الوسيط ص ٢٠٩ـ٢١١.

الله . وثانيها قول الأوغسطينيين بأن المخلوق يتركب من هيولى وصورة. وثالثها قولهم بأن المخلوق من صور متعددة بتعدد الكمالات. ورابعها إصرار الأوغسطينيين على علاقة الروح والجسد (١) .

وكانت نظرة القديس بونافنتورا St. Bonaventura (١٢٢١ - ١٢٧٤) زعيم الأوغسطينيين إلى الفلسفة تتفق مع نظرة القديس أوغسطين ، إذ كان يرى أن الإنسان خلق ليعرف الله ويحبه ويجد سعادته فى هذا الطريق - طريق الله . وهكذا اعتبر مهمة الفلسفة مقتصرة على معاونة اللاهوت ، لأن الفلسفة الحقة تدور حول الله فى حين يجب أن يتجه اللاهوت ، اتجاها صوفيا بحتا . وقد صنف بونافنتورا مؤلفات عديدة فى الفلسفة واللاهوت والتصوف ، تدور موضوعاتها حول شرح آرائه السابقة ، والتى يعتبر أهمها نظريته فى المعرفة ووجود عقلين للنفس (٢) .

(ج) وأما فرانسسكان اكسفورد Oxford Franciscans فقد وجهوا اهتمامهم نحو الرياضيات والعلوم الطبيعية ، وبذلك أدوا إلى أوربا خدمة جليلة ، إذ ترتب على اتجاههم وجهودهم مولد العلوم الطبيعية الحديثة (٣) . وأبرز فلاسفة هذا الفريق هما جروستست Grossetest (١١٧٥ - ١٢٥٣) ثم تلميذه روجر بيكون Roger Bacon (١٢١٠ - ١٢٩٢) . وكان جروستست أستاذاً بجامعة اكسفورد ثم مديراً لها ، كما ترجم وشرح وألف كثيراً من الكتب(٤) أما مذهبه فكان أقرب إلى آراء القديس أوغسطين ، ولكنه فى الناحية العلمية اتجه اتجاهاً تجريبياً فاستخدم الأسلوب الرياضى فى التدليل ، واعتقد أن الرياضيات وحدها تفسر الظواهر الطبيعية . ويبدو أن جروستست أخذ هذا الاتجاه عن العالم العربى الحسن بن الهيثم الذى كان كتابه « المناظر » بمثابة الدستور العلمى لأساتذة اكسفورد (٥) .

---

1) Eyre . op. cit., p 823
2) Gilson . op. cit., pp 439—451
3) Eyre . op. cit. p 826
4) Taylor . op. cit , vol. 2 p.p. 146—147
5) Brehier . op cit. pp. 272—277

أما روجر بيكون فكان أوغسطينيا أيضاً ، جعل للاهوت المقام الأول ، وميز بين الدين والعلم فى تفكيره وكتاباته. ويبدو أن بيكون استفاد كثيراً من المؤلفات الإسلامية وبخاصة مؤلفات ابن سينا والحسن بن الهيثم. على أن أهم ما أخذه بيكون عن علماء المسلمين كان الاهتمام بالمنهج التجريبي فى البحث، والإيمان بأهمية هذا المنهج ، حتى أنه قسم وسائل المعرفة إلى ثلاث هى النقل والاستدلال والتجربة(Per auctoritatum et rationem et experientam) وقال إن النقل والاستدلال لا يؤديان إلى معرفة حقه ما لم تثبت التجربة صحة ما يأتيان (١) . أما فوائد التجربة فهى تأكيد النتائج التى نصل إليها بالاستدلال ، كما تؤدى التجربة إلى حقائق جديدة توصلنا إلى علم جديد قائم بذاتـــه هو العلم التجريبى Scienta experimentails الذى يمكننا من السيطرة على الطبيعة(٢) ، وإذا كان روجر بيكون هو أول من استخدم اصطلاح « العلم التجريبى » السابق . فإنه يوضح لنا أن التجارب العلمية التى يعتمد عليها ذلك تمتاز باعتمادها على الأجهزة والآلات المختلفة (٣) .

(د) وأخيراً يأتى فريق الارسطيين الدومينيكان الذين عملوا على إقامة دعائم فلسفة متسقة على أساس التعاليم الأرسطية ، ولكنها تتفق مع أحكام الدين والعقيدة (٤) . وقد قام اثنان من فلاسفة هذا الفريق بإقامة ذلك البناء الفلسفى ، هما البرت الكبير « ١٢٠٦ — ١٢٨٠ » وتلميذه القديس توما الأكوينى (١٢٢٥ — ١٢٧٤) . وهكذا يمكن القول بأن ألبرت وتوما قد نصرا تعاليم أرسطو ، مع ملاحظة أن الفضل يرجع إليهما فى التفرقة لأول مرة بشكل واضح بين الفلسفة واللاهوت . فمن الممكن أن تكون من اتباعهما فى الفلسفة دون أن تكون مسيحياً ، كما أنه من الممكن أن تكون مسيحياً مثلهما دون أن تتبعهما فى آرائهما الفلسفية . وعن طريق هذه التفرقة قدم هذان الفيلسوفان خدمة جليلة

---

1) De Wulf . op. cit. Tome 2, pp. 134—135
2) Cam Med. Hist., vol. 2, pp. 825—826
3) Eyre . op. cit. 827
4) Taylor . op. cit. p. vol. 452

للباحث العلمى إذ أعطياه براءة تحرره من سيطرة اللاهوت عليه وتحكمه فيه . وبذلك أصبح للباحث حرية تامة فى التنقل خلال أرجاء العالم الطبيعى دون أن تكون للسلطة الدينية حق التدخل فى عمله (١) .

البرت الكبير :

أما البرت الكبير فأهم ما يميز فلسفته ظاهرة الإصرار على التفرقة بين الفلسفة واللاهوت — وهى التفرقة التى تعتبر بداية مرحلة جديدة فى تاريخ الفكر الغربى ، لأنها جاءت فى الواقع تمييزاً بين دعاوى ينهض عليها الدليل ويوجد ما يثبتها عمليا ، ودعاوى أخرى لا تسندها أدلة واضحة سوى « هكذا ورد فى الكتاب المقدس » أو « هكذا قال آباء الكنيسة » (٢) .

وليس معنى ذلك أن ألبرت حاول أن يقلل من شأن اللاهوت ، فقد كان قديساً وراهباً فى منظمة الدومينيكان ، ثم أستاذ اللاهوت فى جامعة باريس وأخيراً أسقفا على كولونيا ، كما ألف كثيراً من التصانيف اللاهوتية والفلسفية والعلمية ورجع إلى الأفلاطونية كما رجع إلى الأرسطية (٣) . ولكنه عرف الأرسطية على حقيقتها ، وعرضها على معاصريه عرضا غير مغرض ، فقال إن أرسطو هو المصدر الأول فى معرفتنا للطبيعيات لأنه عرف الطبيعة أكثر من غيره ، وبذلك استطاع ألبرت أن يقدم فلسفة أرسطو - لأول مرة - فى ثوب مسيحى (٤) . وهنا يتمالك ألبرت شجاعته فيصرح بأن مبادىء اللاهوت لا تتفق مع الفلسفة لأن الأول يقوم على الوحى فى حين تقوم الفلسفة على العقل ، ولكنه مع ذلك يوصى باستخدام الفلسفة فى اللاهوت لحل مشاكله (٥) . على أنه يؤخذ عليه أنه لم ينته فى آرائه إلى مذهب مستقل مترابط ، وأنه استوعب المذاهب الفلسفية دون أن يخرج منها برأى خاص ، الأمر الذى جعل تلاميذه ينقسمون من بعده إلى فريقين

---

1) Gilson . op. cit. p 503
2) Eyre . op. cit, pp. 828—829
3) Cam. Med. Hist. vol. 5, pp. 824
(٤) يوسف كرم . تاريخ الفلسفة الأوربية فى العصر الوسيط ١٦١ — ١٦٨ .
5) Brehier . op. cit. p 300

فريق سار فى ركاب الأفلاطونية الحديثة وفريق سار فى ركاب الارسطية [١]، والفريق الأخير أقوى أثراً وأشد ظهوراً وكان رأسه توما الأكوينى صاحب أروع المذاهب العقلية فى العصور الوسطى.

القديس توما الاكوينى :

أما توما الأكوينى «١٢٢٥ - ١٢٧٤» فكان هو الآخر من الرهبان الدومينيكان، تتلمذ على يد البرت الكبير ثم صار أستاذاً بجامعة باريس وقد دون كثيراً من الشروح والمؤلفات الفلسفية، حاول فيها أن يقدم فلسفة أرسطو إلى معاصريه فى صورة براقة مغرية الأمر الذى أوقعه فى صراع مع الاغسطينيين من ناحية ومع الرشديين من ناحية أخرى. وهنا نلاحظ أن توما الأكوينى اعتمد فى آرائه الفلسفية الخالصة على طريقة ابن رشد فى شرح فلسفة أرسطو، فى حين ألف فى الجانب اللاهوتى عدة مؤلفات بلغت شأواً بعيداً فى مهارة البناء وسمو الصياغة والطريقة [٢].

وقد امتازت فلسفته بالتفرقة الواضحة بين العلم واللاهوت، فقال إن الفلسفة لا يمكن أن تقدم أدلة قاطعة لإثبات مبـــادىء المسيحية لأن العقل البشرى يتقبل هذه المبادىء، ولاعتقاده فقط أنها من لدن الله، وأقصى مايمكن أن تقوم به الفلسفة هو تفنيد مزاعم ضعاف العقيدة والمتشككين فى الدين [٣]. على أن ثمة عنصراً مشتركا بين الفلسفة واللاهوت هو أننا لانتظر من العالم أن يؤمن بعقائد اللاهوت التى تسندها السلطة المقدسة دون أن يقيم الأدلة الفلسفية على وجود الله وماهيته وقدرته [٤]. وهنا يسوق القديس توما خمسة أدلة على وجود الله، مستمداً منطق تفكيره من فلسفة أرسطو بوجه خاص: وأول هذه الأدلة فكرة المحرك الذى لايتحرك فكل مايتحرك يحركه شىء سواه، ولما كان التسلسل

---

(١) يوسف كرم تاريخ الفلسفة الأوروبية ص ١٦١ — ١٦٨.

2) Rashadall . op. cit. vol. 1, p 365

3) Eyre . op. cit. p 330

4) De Wulf . op. cit. Tome 2, p 13

اللانهائى مستحيلا ، فانا سنصل فى النهاية إلى شىء يحرك بقية الأشياء دون أن يتحرك هو ، وهذا الشىء هو الله . والدليل الثانى يقوم على أساس العلة الأولى ، إذ لا يمكن أن تكون جميع الموجودات فاعلة لنفسها ، بل لابد أن يكون لكل شىء علة أوجدته ، ولما كان التسلسل اللانهائى مستحيلا فلابد من وجود علة خالقة أولى ، هى الله [1] . أما الدليل الثالث فهو ضرورة وجود مصدر أساسى لكل الموجودات هو الله ، وواضح أن هذا الدليل يكاد يكون الدليل نفسه السابق له . ويعتمد الدليل الرابع على تفاوت الموجودات فى الصفات والكمالات ، والتفاوت لا يأتى إلا نتيجة للاضافة إلى ماهو غاية فى صفة معينة ، وعلى ذلك لابد من وجود شىء تام الكمال هو غاية الكمالات التى تصدر كلها عنه ، وهذا الشىء هو الله . وأخيراً يعتمد الدليل الخامس على أن كل الموجودات ـ حتى التى لا حياة فيها ـ تعمل لتحقيق غاية معينة ، مما يدل على أنها لا تعمل عرضا بل قصدا مدفوعة بقوة كائن سواها خارج عنها ؛ وهذه القوة هى قوة الله [2] .

ومن الواضح أن الأدلة السابقة تقوم على أساس الوصول إلى علة الموجودات الطبيعية ، لأن القديس توما يرى أن الإيمان يتوقف على معرفة الطبيعة ، الأمر الذى استوجب إطلاق اسم « اللاهوت الطبيعى Natural Theology» على هذا القسم من فلسفته (٣) . وبعد ذلك يتعرض القديس توما لماهية الله تعالى فيرى أن الله جوهر نفسه لأنه كائن غير مركب لافرق فيه بين جوهر ووجود ، وهو كامل من جميع النواحى ، والأشياء التى تشبهه فى بعض النواحى لاتشبهه فى البعض الآخر ، وهو إرادة وإرادته هى جوهره ، ويمتاز الله بالقدرة والعناية والعقل والفضائل التأملية والعملية جميعاً [4] . ثم يتناول القديس توما مشكلة الخلق والعلاقة

---

1) Gilson . op. cit. p 581

(٢) برتراندرسل: تاريخ الفلسفة الغربية ج ٢ ص ٢٣٨ ـ ٢٣٩ ، يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الأوربية ص ١٧٤ — ١٧٧ .

3) Eyre . op. cit., p 830

(٤) برتراندرسل: تاريخ الفلسفة الغربية ج ٢ ص ٢٣٩ — ٢٤٣ ، يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الأوربية ص ١٨٧ — ١٨٢ .

بين الخالق والمخلوق ، فيقول إن الموجودات — خلا الله — مخلوقة لأن الله خلق العالم من العدم . وأرقى المخلوقات هم الملائكة وهي مخلوقات روحية كثيرة العدد ، يبلغون كمالهم العقلي بفيض إلهي . أما الإنسان فيلي الملائكة في المرتبة ، وبعبارة أخرى يحتل الإنسان مكانة وسطى بين الملائكة والأعجام . والإنسان مؤلف من روح جسد ، والروح هي النفس الخالدة التي تدرك الأشياء بقوة العقل ، والعقل جزء من روح كل فرد من الأفراد [١] . وهنا يعرض القديس توما لمشكلة الكليات عندما يبحث في العقل ، فيتفق مع أرسطو في أن الكليات لا وجود لها خارج الروح ، ولكن العقل حين يعقل الكليات فهو يعقل أشياء موجودة خارج الروح [٢] . أما فلسفة توما الأخلاقية فقد حاول فيها أيضاً التوفيق بين فلسفة أرسطو وآراء المسيحية ، مما جعل الطريقة التي عالج بها المشاكل الأخلاقية فريدة في نوعها بين أبحاث الفلاسفة المدرسين [٣] . وتقوم فلسفة توما الأخلاقية على أساس أن الشر غير مقصود لأن الكائنات كلها ترمي إلى التشبه بالله في الخير . كذلك يقول توما إن سعادة البشر الكاملة تقوم على التأمل في الله ، لا على اللذائذ الدنيوية ، لأن الله هو الغاية القصوى . والعقل الطبيعي هو مجموع القواعد الخلقية التي تقر الخير وتنبذ الشر (٤) .

وإذا كان القديس توما قد وجه كل اهتمامه نحو الدراسات المتعلقة بالله والإنسان ، فإنه قنع فيما عدا ذلك من دراسات طبيعية بالمناهج التي وضعها الأرسطيون في الطبيعية وعلم الكون (الكسمولوجيا Cosmology) وعلم الأحياء، ولعل هذا هو السبب في إهمال آراء توما في هذه العلوم فيما بعد عندما تقدمت العلوم الطبيعية واتخذت أساساً للمعرفة الحقيقية . ولكن القديس توما لم يتبع أستاذه أرسطو في العلوم السابقة اتباعا أعمى ، وإنما كان في بعض النواحي — لاسيما فيما يتعلق بالفلك — يضيف إلى نتائج أرسطو أنه لايستطيع تأكيدها أو التسليم بها [٥] .

---

1) Gilson . op. cit., pp. 530-537

(٢) برتراندرسل تاريخ الفلسفة الغربية ٢ص٢٤٣.

3) Harris : The Legacy . p. 245

4) De Wulf . op. cit.,' Tome 2. p. 24

5) Eyre: op. cit., pp. 835—836

على أن هذه الأرسطية الجديدة أو التوماوية « Thomism » لم تسلم من معارضة بعض المعاصرين الذين ساءتهم جرأة توما فى الخروج على آراء السلف ، وبخاصة القديس أوغسطين . هذا إلى أن سياسته فى فصل الفلسفة عن اللاهوت جعلت الأولى تبدو قائمة بذاتها دون أن تفقد شيئاً من خصائصها ، فى حين اضطر اللاهوت إلى أن يتجه وجهة معينة جديدة[١] . لذلك غضب رجال اللاهوت واضطر أسقف باريس سنة ١٢٧٧ إلى تحريم دراسة عدد كبير من المسائل الفلسفية منها بعض المبادىء الأرسطية والتوماوية[٢] . وفى نفس السنة السابقة أصدر رئيس أساقفة كانتربورى بانجلترا أيضاً قراراً بتحريم تدريس بعض المبادىء التوماوية فى أكسفورد ، وتكرر هذا التحريم سنة ١٢٨٤ ثم سنة ١٢٨٦ . على أن البابوية لم تلبث أن وقفت موقفاً مغايراً من تعاليم توما وآرائه حتى انتهى الأمر بإعلانه قديساً سنة ١٣٢٣ [٣] .

يوحنا دونس سكوت :

وكانت نتيجة ما أثير حول فلسفة توما أن انقسم الفلاسفة من بعده إلى فريقين : التوماويين - ومعظمهم من الدومينيكان، وأتباع بونافنتورا ومعظمهم من الفرنسسكان[٤] . وكان أبرز الفلاسفة عند نهاية القرن الثالث عشر من الفريق الأخير ، هو يوحنا دونس سكوت « ١٢٦٦ — ١٣٠٨ » Johannes Duns Scotus الذى يشبه القديس توما فى تمسكه بنظرية أرسطو فى المعرفة ، ولكنه كان أوغسطينياً ينتمى إلى بونافنتورا . لذلك حاول أن يرفع من شأن اللاهوت ويجعل منه علماً عملياً يهدف إلى تدبير أفعالنا أكثر منه إلى تعريفنا حقائق معينة[٥] . وبذلك ابتعد يوحنا دونس عن آراء توما الأكوينى ، بل أنه قلب نظرية توما

---

(١) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الاوربية ص ٢٠٣ .

2) Cam. Med. Hist., vol. 5, p 822

3) Bréhier : op. cit. pp 341—343

4) Eyre : op. cit : p 836

(٥) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الاوربية ص ٢٣٤ .

فى المعرفة رأساً على عقب بقوله إن المفكر المسيحى يجب أن يصدر فكره عن الإيمان وأن يجعل من الوحى محوراً لمذهبه . وهكذا يمضى يوحنا سكوت فى تعقب آراء القديس توما لمعارضتها دون أن يدرك حقيقتها[1] ، فهو فى البرهان على وجود الله يبدأ بفكرة مطلق الإمكان : وهى الفكرة التى تؤدى بنا إلى علة أولى ممكنة ، والعلة الأولى الممكنة موجودة ضرورة ، وبذلك نصل إلى أن الله موجود لامتناه . ومن هنا يستطيع الميتافيزيقى — وموضوعه الوجود من حيث هو كذلك — البرهنة على وجود الله دون الالتجاء إلى برهان المحرك الأول الذى قال به القديس توما[2] . كذلك يرفض دونس سكوت ماقاله القديس توما فى الصفات الإلهية من أن هذه الصفات متمايزة تمايزاً ذهنياً . بل أنه يعترف من جهة أخرى بأننا لانستطيع أن نجعل بين الصفات تمايزاً عينياً فندخل الكثرة على الذات الإلهية[3] . لذلك يبتدع تمييزاً يحسبه وسطا هو « التمييز الفعلى الصورى من جهة الشىء » ؛ ولكن فاته أن التمييز الفعلى من جهة الشىء هو فى الواقع تمييز عينى ، فكيف يكون صوريا فى الوقت نفسه[4] ؟ . أما فى الإرادة فهو مثل جميع الأوغسطينيين يقدم الإرادة على العقل لأنها تأمر العقل وتوجهه[5] ؛ كما يرى فى خلق العالم أن العالم حادث ولايمكن افتراض القدم ، وبذلك وضع ماجاء به الوحى من خلق العالم موضع الإلزام وأعطى اللاوجود وجوداً سابقاً ؛ بعكس ما قال به القديس توما من إرتباط الخليقة بعلتها بغض النظر عن الزمان[6] .

وهكذا يبدو من آراء دونس سكوت أن فلسفته امتازت — على الرغم مما فيها من عناصر إنشائية — بطابع عام من النقد والهدم[7] . فغرضه الأساسى

---

1) De Wulf : op. cit., Tome 2, p 66

2) Idem : p 72

3) Gilson : op. cit , pp 598 —599

(٤) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الأوربية ص ٢٢٩ .

5) Harris : The Legacy of the Middle Ages. p 248

6) Eyre : op. cit., p 837

7) Harris : The Legacy ; p. 248

كان مناقضة آراء القديس توما من جهة وتوسيع نطاق اللاهوت من جهة أخرى، ولكنه فى جميع ذلك لم يحقق أغراضه ولم يوفق فى فلسفته ؛ الأمر الذى جعل منه بداية للانحلال الذى تعرضت له الفلسفة المدرسية بعد مابلغته هذه الفلسفة من رقى وتقدم فى القرن الثالث عشر[1] .

القرن الرابع عشر — انحلال الفلسفة المدرسية :

إذا كان القرن الثالث عشر يمثل — كما سبق أن ذكرنا — العصر الذهبى للفلسفة المدرسية ، عندما اتجهت هذه الفلسفة نحو التقريب بين العقل والدين ؛ فإن الحال اختلف بالنسبة للقرن الرابع عشر[2] . وقد سبق أن رأينا كيف أخذ الاتجاه ضد العقل يقوى منذ أواخر القرن الثالث عشر على يد يوحنا دونس سكوت ؛ وكان الغرض من ذلك الاتجاه الرفع من شأن الدين واللاهوت . وقد قضى هذا الاتجاه على جهود مفكرى القرن الثالث عشر وهدد بالفصل بين العقل والدين ، مما جعل القرن الرابع عشر يبدو سلبياً بل هداماً ، هذا على الرغم مما شهده هذا القرن من تقدم فى العلوم الطبيعية[3]

ومن أبرز مفكرى القرن الرابع عشر الذين أخذوا يتشككون فى أهمية العقل ويتمسكون بالدين وأحكامه ، وليم الأوكامى (١٣٠٠ — ١٣٥٠) William of Okham ، وهو من فرانسسكان أكسفورد . وكثير ممن لا يعرفون وليم الأوكامى لا يجهلون الركن الأساسى من تفكيره لأن جون لوك وخلفاءه من الحسيين استمدوا منه نظريته فى المعرفة[4] ، وهى النظرية التى تعتبر محور تشكك أوكام فى الفلسفة والعلم . ذلك أنه يرى أن المعرفة العقلية التجريدية واقعة على معان مجردة ، وهذه المعانى عبارة عن إدراكات غامضة تعبر عن الجزئيات

---

1) Brehier : op. cit., p 391
2) De Wulf : op. cit., Tom 2 p 154
3) Eyre : op. cit., p 638
4) Ibid.

تمهيداً عاماً غير محدد(١) . فالألفاظ الدالة على معان — مثل إنسان — تدل على أشياء غير واضحة ، فى حين أن الألفاظ الدالة على جزئيات - مثل سقراط — تدل على الأشياء نفسها ولكن بوضوح . وبعبارة أخرى فإن الاسم - لا المعنى — هو موضوع العلم ، على أساس أن هذا الإسم يرمز إلى الجزئيات(٢) . ومن هنا سمى مذهب أوكام بالاسمية ، وأعتبره الاسميون فى القرن الخامس عشر مؤسس مدرستهم(٣) . . . وإذا كان بعض النقاد يرى أن أوكام أفسد الفلسفة المدرسية بعد أن جرد المعنى من قيمته الموضوعية ، وأنه تورط فى أغلاط ومغالطات من السهل كشفها بالرجوع إلى مؤلفات أرسطو والقديس توما(٤) ؛ إلا أن البعض الآخر من الباحثين المحدثين يعارضون هذا الحكم على أوكام ويرون أنه كان مهتما باستعادة الصواب إلى فلسفة أرسطو بعد أن ينقيها من مؤثرات أوغسطين والعرب ، وأن شرح النقاد لأوكام قد أفسدته رغبتهم فى إيجاد حالة من التدرج بين الفلسفة المدرسية والفلسفة الحديثة(٥) .

* * *

ومهما يكن من أمر ، فإن وليم الأوكامى يعتبر آخر أعلام الفلاسفة المدرسيين(٦) وسرعان ما اتضح فى نهاية القرن الرابع عشر أن جميع الظروف مهيأة للانتقال إلى مرحلة جديدة فى الفلسفة . ولم تلبث هذه الظروف من ناحية والحوادث التاريخية التى امتاز بها القرنان الخامس عشر والسادس عشر من ناحية أخرى ، أن أدت جميعها إلى دخول الفلسفة فى دور آخر عظيم بدأ حوالى سنة ١٩٠٠(٧) .

---

1) Gilson : op. cit., pp 641—642

(٢) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الأوربية ص ٢٣٦ـ٢٣٧ .

(٣) برتراند رسل : تاريخ الفلسفة الغربية ج٢ ص٢٦٤

(٤) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الأوربية ص ٢٤١ .

(٥) برتراند رسل : تاريخ الفلسفة الغربية ، ج٢ ص ٢٦٣ـ ٢٦٤.

6) Gilson : op. cit. p. 655

7) Eyre : op. cit. p. 843

الباب السابع

الفكر السياسي والنشاط التشريعي

مميزات الفكر السياسي في العصور الوسطى

امتاز الفكر السياسي في أوربا العصور الوسطى بطابعه العالمي ، إذ يدور هذا الفكر حول محور رئيسي هو قيام عالم واحد يمثل في جانبه الدنيوي تراث الإمبراطورية الرومانية وسلطانها ، وفي جانبه الروحي تقاليد المسيحية وكنيستها[1] وبعبارة أخرى فإن هذا الفكر قام على أساس وجود إمبراطورية وكنيسة ، أو إمبراطور وبابا ليرعى الأول الأمور الدنيوية في حين يرعى الآخر المصالح الروحية[2] .

فالمفكرون السياسيون في العصور الوسطى لم يؤمنوا بأن الإمبراطورية الرومانية زالت بانقراض الوثنية ، بل أعتبروها قائمة في ظل المسيحية ، كما يبدو ذلك بوضوح في تفكير دانتي الذي لم يعترف بوجود فجوة بين الإمبراطورية الرومانية القديمة وإمبراطورية العصور الوسطى ، وقال بأن أحداث القرن الخامس لم تؤثر مطلقاً في تطور الإمبراطورية الرومانية واستمرارها[3] . حقيقة إن الإمبراطورية انتقلت إلى الشرق ، أو — حسب تعريفه — اتجه النسر شرقاً نحو العالم اليوناني (Se fece Greco) ، ولكن المهم هو أنه ظل محلقاً في الفضاء مستمراً في طيرانه دون أن يتوقف . وكان الرومان في نظر دانتي هم شعب الله

---

1) Bowle : Western Political Thought ; p 180

2) Hearnshaw : The Social and Political Ideas of some Great Med. Thinkers ; p 12

3) Carlyle : The Political Theory in the West : vol. 3 : p. 170

المختار المفضل (populo Sauto) ، كما أنه اعتبر إمبراطورية الغرب ـ عندما تم إحياؤها ـ وريثة التراث الرومانى القديم[1] . وفى كل هذه عبر دانتى عن وجهة نظر العصور الوسطى تعبيراً أميناً صادقاً ، مما جعل وجهة النظر هذه تبدو فى صورة محاولة لربط الآراء السياسية المتعلقة بالإمبراطورية الرومانية بتعاليم المسيحية الخلقية[2] .

وهكذا ظلت نظرية الغربيين إلى العالم طوال العصور الوسطى على أنه مجتمع سياسى دينى تستند وحدته النهائية إلى قوة الله وإرادته ، وهذا العالم الذى يضم جميع الناس يقوم من أجل هدف مشترك ويحكم وفق قانون واحد يمثل فى جانبه الدنيوى التقاليد الرومانية وفى جانبه الروحى تقاليد المسيحية[3] . وإذا كان قد حدث خلاف بين المفكرين فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر حول هذه النظرية فإن الخلاف لم يكن حول صحتها لأن الجميع آمنوا بها ، وإنما كان حول طريقة تطبيقها وضبط السلطتين الزمنية والروحية داخل نطاق مجتمع واحد هو مجتمع المسيحية السياسى(٤) .

وعندما ازداد الفكر عمقاً فى العصور الوسطى ، أخذ المفكرون يتساءلون عن الأساس الفكرى للمجتمع ، وعندئذ توصلوا إلى نتائج كان لها أبعد الأثر فى الفكر السياسى. الواقع أنهم لم يكونوا مبتكرين فى النتائج التى توصلوا إليها ، لأنهم نادوا بما سبق أن قال به أرسطو من أن سبب قيام المجتمع هو أن الإنسان اجتماعى بالطبع[5] . وبعبارة أخرى فإن مفكرى العصور الوسطى اتبعوا قول أستاذهم أرسطو فى أن الفرد لا يمكن أن يستسيغ الحياة الانفرادية بعيداً عن بنى جنسه لأنه فى هذه الحالة إما أن يكون حيواناً دون مستوى البشر أو

---

1) Bowle : Western Political Thought ; p 235

2) Eyre : op. cit., p. 278

3) Hearnshaw : The Social and Political Ideas : p 12

4) Gierke : Political Theories of the Middle Ages : pp. 9—10

٥) Bowle : op. cit., p.62

ملا كما أسمى من مستوى البشر[1] . وهكذا قال القديس أوغسطين أن الطبيعة الإنسانية اجتماعية ، كما تمسك بقية مفكرى العصور الوسطى بأن الأساس الأول للمجتمع هو طبيعة الإنسان نفسها . وقد وضعوا هذه القاعدة فى قالب على ، فقالوا إن الغرض من النظم الاجتماعية هو تنفيذ القانون الطبيعى ومن هذا يبدو أن النظرية السياسية قامت فى أوربا العصور الوسطى على أساس تصور قانون طبيعى ودولة طبيعية[2] .

على أن لفظ « الطبيعة » استخدم فى الفكر السياسى للدلالة على معان متناقضة مختلطة . فهذا اللفظ استخدم فى أول الأمر للتعبير عن الأوضاع البدائية ، ومن ثم أصبحت الحالة الطبيعية يقصد بها إما حالة الكمال التى تمتاز بالبساطة والبعد عن التعقيد أو حالة الهمجية الأولى وعدم النظام هذا فضلا عن استخدام لفظ « الطبيعى » فى الفكر السياسى بمعنى السوى أو العادى ، وعلى ذلك فإن طبيعة الإنسان لا تتمثل فى حالته البدائية وإنما فى الحالة التى يصبح عليها إذا تم نضجه[3] . وتبعاً لوجهة النظر هذه ، لا يكون هناك داع لربط « الحالة الطبيعية » بالزمن، وإنما هى حالة مثالية يجب أن يجاهد الإنسان فى سبيل الوصول إليها . وإذا كان الأمر كذلك فإن القانون الطبيعى يصبح فى هذه الحالة مجموعة مبادىء من السلوك الطيب التى يتحلى بها البشر — من الجانب المثالى — لتصبح هذه المبادىء أساس الأخلاق . وهذا المعنى الأخير « للطبيعة » هو المعنى نفسه الذى قصده جمهرة المفكرين بوجه عام فى العصور الوسطى ، فهم عندما يتحدثون عن « قانون الطبيعة » إنما يقصدون مجموعة ضخمة من المبادىء الخلقية التى يجب أن يتحلى بها الإنسان ليصل إلى مرتبة الكمال البشرى[4] . ويتبع ذلك أن المجتمع الذى يقوم على أساس القانون الطبيعى كان له — عند هؤلاء المفكرين — هدف خلق

1) Poole : Med. Thought : p 214

2) Eyre : op. cit., p. 279

3) Jacob : The Legacy of the Middle Ages, p 510

4) Gierke : op cit., p p. 74—75

محدود . ومن الواضح أن مفكرى العصور الوسطى استمدوا هذه الأفكار من آراء الرواقيين من جهة ومشرعى الرومان فى أواخر عصور الحضارة القديمة من جهة أخرى[١] . وقد أدت جميع هذه الآراء إلى الاعتراف بالقانون الطبيعى الذى يشمل مبادىء الأخلاق المتفق عليها فى جميع أنحاء العالم المتحضر والملائمة لجميع البشر ، وبذلك تختلف عن القوانين الوضعية المحلية الخاصة بأمم معينة ، وتسمو عليها[٢] .

على أن هناك ظاهرة ، كان لهـا أثر كبير فى الفكر السياسى فى العصور الوسطى ، تتمثل فى التباين الذى أثير بين القانون الطبيعى والقانون الوضعى وبعبارة أخرى فإنه كان لابد من التفرقة بين القوانين والنظم التى قامت على أساس الطبيعة ، وتلك التى قامت على أساس العرف والتقاليد[٣] . فالأولى لها قيمة خلقية جوهرية جديرة بالأهمية ، فى حين كانت الأخرى لا تقوم إلا على أساس قواعد تجريبية ربما أدت إلى غرض نافع فى بعض الحالات ، ولكن ينقصها الطابع الخلقى الشامل الذى يميز القانون الطبيعى. وقد عبر مفكرو العصور الوسطى عن هذا التباين تعبيراً لا هوتياً .فقال القديس خريستوم (فم الذهب) « عندما أتحدث عن الطبيعة فأنا أعنى الله لأنه هو الذى أبدع العالم[٤] » . وهكذا اتضح للمفكرين أن هناك فجوة واسعة بين الحالة الثانية للإنسان كما تصورها الطبيعة ، وبين النظم السياسية القائمة فعلا على أساس القوانين الوضعية ، لأنه بدا من المستحيل التوفيق بين عادات الإنسان وقوانينه الضرورية وبين الفكر الإلهى الذى نبت منه القانون الطبيعى. فى ظل القانون الطبيعى ينبغى ألا تكون هناك حكومة ، ولا حكام أو محكومين ، لأن جميع الناس أحرار وسواسية ؛ وبالتالى لا ينبغى أن يكون هناك عبيد أو أرقاء ، ولا يصح أن يبقى أى أثر للملكية الفردية ، لأن الناس الأحرار المتساويين لهم أن يتمتعوا بكل ماخلقه الله على قدم المساواة .

---

1) Bowle : op. cit., pp 82-84
2) Carlyle : op. cit., vol. 1, pp 5—6
3) Gierke : op. cit., pp 76—78
4) Eyre : op. cit., pp 280—281

ولكن من الواضح أن تطبيق هذه الآراء يؤدى إلى حالة من الفوضى والاضطراب لأن المجتمع لا يمكن أن يستغنى عن حكومة أو ملكية فردية ، كما أن عنصر الرق كان ركناً أساسياً فى بناء المجتمع الأوربى فى العصور الوسطى[1]. لذلك أتى المفكرون السياسيون بنظرية تردى الإنسان وسقوطه ، فقالوا إنه كان من الممكن أن يكتفى المجتمع بهذه المبادىء الأساسية من القانون الطبيعى وذلك قبل أن يضل الإنسان سواء السبيل. أما وقد سقط الإنسان وتردى فى الخطيئة فقد أصبح من الضرورى وجود قوانين وضعية تتمشى مع الوضع الجديد الذى تردى إليه الإنسان[2]. وعلى هذا الأساس نظر المفكرون فى العصور الوسطى إلى القوانين الوضعية على أنه ينقصها السمو والكمال الذين يتصف بهما القانون الطبيعى : ومع ذلك فإنه لا بد من هذه القوانين الوضعية لوقف الشرور وعلاج المثالب التى لازمت الإنسان منذ أن تردى فى الخطيئة[3] .

وهنا نعود فنؤكد أن هذه التفرقة بين القانون الطبيعى والقوانين الوضعية إنما هى الواقع تقرير للفكرة الكلاسيكية ، ولكن فى صيغة لا هوتية . وقد عبر عن هذه الفكرة فى القرن السابع القديس إيسيدور (٥٦٠ — ٦٣٦) حين قال «إن جميع القوانين إما إلهية أو بشرية ،فالقوانين الإلهية تعتمد على الطبيعية فى حين تعتمد البشرية على العرف ، وبالتالى فإن هذه القوانين الأخيرة يختلف بعضها عن بعض لأنها تتباين بتباين الأمم »(٤) . أما فى القرن الثانى عشر فقد كتب جراشيان قائلا « هناك قوتان تحكمان البشر ، هما قوة القانون الطبيعى وقوة العادات والتقاليد . والقانون الطبيعى هو ما نصت عليه التشريعات السماوية والإنجيل ، من أنه يتعين على كل إنسان أن يسلك تجاه غيره المسلك نفسه الذى يرتضيه لنفسه[5] » .

---

1) Hearnshaw : The Social and Political Ideas, p 18
2) Carlyle : op. cit., vol. 1 pp 144—146
3) Eyre : op. cit., p 281
4) Carlyle : op. cit., vol. 1, pp 106—108
(5) Taylor : op, cit' vol. 2, pp. 297—298.

وخلاصة القول إن مفكري العصور الوسطى بدءوا تفسيرهم الفكرى للنظم الاجتماعية والسياسية على أساس ثلاثة مبادىء وضعوها نصب أعينهم دائما الأول: هو تصورهم للقانون الطبيعي على أنه يعبر عن أقصى حالات السمو البشرى . وأن هذا القانون مستمد من الفكر الإلهي ليكون مصدراً للأخلاق . والثانى : هو الاعتقاد بأن القوانين الوضعية ونظم الدول العلمانية قامت من وجهة النظر المثالية على أساس القانون الطبيعي، ولكنها تختلف اختلافا جوهريا عن القانون الطبيعي فى تباينها بين مكان وآخر وفى أنها راعت العادات والتقاليد التى جاءت نتيجة حتمية للحد من آثام الإنسان[1] . والثالث :هو وجود فرق واضح ثابت بين القانون الطبيعي والقوانين الوضعية ، كما ظهر ذلك بجلاء فى جميع المناقشات والأبحاث التى دارت حول النظم السياسية ، وعما إذا كانت هذه النظم طبيعية تتفق مع المبادىء العامة للأخلاق أو عرفية جاءت نتيجة لخطأ الإنسان وكوسيلة لعلاج هذا الخطأ وإقرار الأمن والسلام[2] .

وفى ضوء هذا التباين بين القانون الطبيعي والقوانين الوضعية ، عالج مفكرو العصور الوسطى ثلاث مشاكل كبرى هى الرق والملكية والدولة .

الرق :

أما مسألة الرق فتمثل لنوآ عسراً فى الفكر السياسى منذ أيام اليونان ، عندما نوقشت هذه المسألة فى ضوء الفروق التى سبق أن أشرنا إليها . وقد وصل أرسطو إلى نتيجة هامة بخصوص الرق ، فقال إنه أمر طبيعي لأن بعض الناس يصلحون بفضل طبيعتهم لأن يكونوا عبيداً ولا شىء غير ذلك[3] . أما مفكرو العصور الوسطى — وقد سبقهم فى ذلك الرواقيون إلى حد ما — فاتخذوا رأياً فى الرق معارضاً لرأى أرسطو على طول الخط . ذلك أنهم نظروا إلى المسألة من

---

(1) Eyre : op. cit. p. 281.

(2) Idem' p.282.

(3) Carlyle: op. cit. vol. 1, p 7

وجهة نظر تعاليم المسيحية التى تقول بأن الناس جميعاً متساوون أمام الله وأن روح العبد تعادل تماماً فى أهميتها روح السيد الحر[1] . على أننا نجد من ناحية أخرى أن الرق ظل قائماً — فى صورة أو أخرى — فى أوربا العصور الوسطى ، ومع أن المفكرين رفضوا الإعتراف بأنه وضع طبيعى إلا أنهم التمسوا له مبرراً عرفياً فى بعض الحالات . وهكذا نظر هؤلاء المفكرون إلى الرق على أنه ظهر نتيجة الخطيئة والشر ، ولكنهم اعتبروه نظاماً تقليدياً لابد منه لوقف بعض الإتجاهات الآثمة فى المجتمع البشرى[2] . فالعصور الوسطى لم تحكم على الرق مطلقاً بالبطلان أو عدم الصلاحية ، ولكنها أنكرت وجود « الرق الطبيعى » وتمسكت بأنه يجب على السيد أن يسلك دائماً مسلكا طيباً تجاه عبده[3] . وبعبارة أخرى فإن العصور الوسطى اعتبرت الرق مسألة عادة وعرف لابد منهما لتصريف أمور المجتمع مع الإعتراف بعدم سلامة هذا الوضع .

الملكية الفردية

أما المسألة السياسية الثانية التى عالجها مفكرو العصور الوسطى فى ضوء الخلاف بين القانون الطبيعى والقوانين الوضعية فهى مسألة الملكية . وفى هذه المسألة أيضاً ورثت العصور الوسطى وجهة النظر القديمة التى قال بها الرواقيون والتى نادت بأن القانون الطبيعى لا يعترف بالملكية فردية . فجميع الأشياء — من الناحية المثالية — يمتلكها جميع الناس من أجل منفعتهم المشتركة العامة[4] ولكن فلاسفة العصور الوسطى ومشرعيها كان عليهم — كما هو الحال فى مسألة الرق — أن يواجهوا حقائق الحياة القائمة ومطالبها العملية ، ومن هنا اعترفوا بقيام الملكية الفردية فى كل مكان على أساس أن القوانين الوضعية تبرر بقاءها

---

1) Cam. Med. Hist. vol. 6, pp, 613—614
2) Poole . Med. Thought p 214
3) Carlyle . op. cit., vol. 1, p 123
4) Gierke . op. cit., p. 80 & Carlyle . op. cit. vol., 1 pp. 43—44

وقد اتخذت مشكلة الملكية قالباً هاماً فى العصور المسيحية ، نتيجة الطابع الروحى الذى امتاز به الدين السماوى الجديد[1] . وهنا اكتشف بعض الكتاب فى أوائل العصر المسيحى آثاراً لنظرية الإشتراكية المتطرفة فى الإنجيل[2] . ولكن مفكرى العصور الوسطى لم يأخذوا مطلقاً بهذه النظرية وإنما حكموا التباين بين الطبيعة والعرف ، فقالوا إن جميع الممتلكات وفقاً للقانون الطبيعى - وهو القانون الإلهى — تعتبر ملكا لله الذى وهبها عباده جميعاً للانتفاع بها[3]. ولكن عندما تردى الإنسان فى الخطيئة ، أدى حرصه وبخله إلى استحالة بقاء هذا الوضع الخاص بشيوع الملكية ، ومن ثم أصبحت الملكية الفردية أمراً ضروريا لمواجهة جشع الإنسان من ناحية ولضبط هذا الجانب غير الطيب من تصرفاته من ناحية أخرى[4] . وعلى ذلك فإن الملكية الفردية جاءت نتيجة العرف واعتمدت فى بقائها على القوانين الوضعية . وعلى الرغم من أنها لاتمت إلى النظم الطبيعية أو إلى التشريعات السماوية بصلة ، فإنه يجب إحترامها كعلاج للخطأ الذى تردى فيه الإنسان .

وكان لنظرية الملكية الفردية هذه — مع ما اتصفت به من طابع نظرى - نتائج عملية هامة ميزت وجهة نظر العصور الوسطى ، عن غيرها من وجهات النظر التى عالجت هذه النظرية منذ عصر الفيلسوف لوك (١٦٣٢ - ١٧٠٤) . فنظرية العصور الوسطى فى الملكية اعتمدت قبل كل شىء على القوانين البشرية الوضعية وعلى ذلك فإن ما يعطيه القانون الوضعى للانسان يمكن أن يسترده القانون نفسه دون أن يكون فى ذلك مساً بالعدالة[5] . لذلك قال مفكرو العصور الوسطى بأن الفرد ليس له الحق فى التمسك بملكية خاصة قبل الحكومة الزمنية التى يعيش فى ظلها . كذلك قال مفكرو العصور الوسطى بأنه لما كان المبرر الرئيسى لقيام الملكية الفردية هو أن هذه الملكية جاءت وليدة الخطيئة

1) Eyre, op. cit., p 283

(٢) « وجميع الذين آمنوا كانوا معا ، وكان عندهم كل شىء مشتركا ، والأملاك والمقتنيات كانوا يبيعونها ويقسمونها بين الجميع كما يكون لكل واحد احتياج » .
(العهد الجديد — سفر أعمال الرسل ، الاصحاح الثانى ، ٤٤ — ٤٥) .

3) Cam. Med. Hist. vol, 6 p: 614

4) Caryle . op. cit., vol. 2, pp. 137—138

5) Eyre . op. cit., p 283

البشرية حتى أصبح بقاؤها ضرورياً لعلاج هذه الخطيئة ومقاومة الجشع الإنسانى، فإن هذه الملكية يجب ألا تستخدم إلا داخل نطاق الغرض من قيامها . وهنا يقرر القديس أوغسطين بأن الفرد الذى لا يحسن استخدام أملاكه يفقد حقه فى الاحتفاظ بهذه الأملاك[1] . وبناء على هذه الآراء السابقة لم يعترف مفكرو العصور الوسطى بمبدأ الملكية المطلقة بالمعنى الحديث الذى نفهمه. فالقديس توما الأكوينى يقول إن الملكية الفردية ليس معناها امتلاك الأشياء وحيازتها فحسب ، بل أيضاً حسن استخدام هذه الممتلكات والتصرف فيها . فالفرد ليس له حق إلا فى امتلاك الضروريات التى يحتاج إليها ، وكل ماعدا ذلك يجب أن يكرسه للصالح العام . ومعنى ذلك أن دفع الصدقات لم يكن ضرباً من الإحسان فى نظر مفكرى العصور الوسطى ، وإنما كان فرضاً حقاً على القادرين[2] .

وخلاصة القول إن الفارق بين النظرية الحديثة ونظرية العصور الوسطى عن الملكية ، هو أنه فى حين نميل نحن إلى الاعتقاد بأن الملكية الفردية تخول لنا حقاً مطلقاً على الأشياء المملوكة ؛ إذا بوجهة نظر العصور الوسطى تتجه نحو اعتبار الملكية الفردية نوعاً من الأمانة أو العهدة التى حصل عليها الفرد بتخويل من العرف .

الدولة :

أما المسألة السياسية الثالثة التى عالجها مفكرو العصور الوسطى فى ضوء الاعتبارات السابقة ، وبخاصة التفرقة بين القانون الطبيعى والقوانين الوضعية ، فكانت مشكلة قيام الدولة العلمانية أو الوحدة السياسية . وقد بلغت هذه المشكلة درجة كبيرة من الخطورة فى أوائل العصور الوسطى ، عندما كان يخشى أن يستغل بعض دعاة المسيحية تعاليم الدين الجديد فى اتجاه غير اجتماعى[3] . وعلى الرغم من أن هذه الخطورة لم تتم ، إلا أنها تركت أثراً واضحاً فى الفكر السياسى للعصور

---

1) Carlyle . op. cit., vol. 1, pp. 140—142

2) Eyre . op. cit., p 284

3) Gierke . op. cit., pp. 2—4

الوسطى بل إنها ظهرت جلية فى كتاب « مدينة الله Civitas Dei » القديس أوغسطين وهو الكتاب الذى فاق أثره أى كتاب آخر فى سياسة العصور الوسطى.[1]

وتتمثل الفكرة الأساسية التى يدور حولها هذا الكتاب فى المقارنة بين مدينة الله — وهى التى تضم مجموعه المؤمنين الأبرار من عباد الله - ومدينة الأرض (Civitas terrana)[2] . وهنا نشير إلى أن الخلاف مازال قائماً حول مايقصده القديس أوغسطين بمدينة الأرض ، وعما إذا كان المقصود بهذه المدينة الإمبراطورية الرومانية فى العصر الوثنى بالذات أو غيرها[3] . ولكن الثابت هو أنه يقصد بوجه عام ما يمكن أن نسميه الوحدة السياسية أو الدولة ، التى يصر القديس أوغسطين فى أكثر من موضع على وصفها بأنها تمثل روح الشر والإثم[4] . ذلك أن « مدينة الأرض » نشأت من شهوة الإنسان ورغبته الجامحة فى السيطرة والتحكم (libido dominandi) كما أن بقاءها مبنى على أسس من سفك الدماء والحرب والسلب والعنف .

ولم يكن القديس أوغسطين وحده هو الذى عبر عن هذا الشعور العدائى نحو الوحدة السياسية أو الدولة فى العصور الوسطى ، إذ لم يلبث البابا جريجورى السابع بعد ذلك بستة قرون أن أظهر هذا الشعور نفسه وأخذ يتساءل « من منا يجهل أن الملوك والحكام استمدوا أصلهم من أناس لايعرفون الله ، وأنهم يستجيبون لإغراء الشيطان فيحكمون شهوتهم العمياء فى السيطرة على إخوانهم من البشر ! » كذلك نجد هذا الرأى نفسه يردده بعد ذلك البابا أنوسنت الثالث ، ثم ظهر فى الموسوم البابوى الشهير الذى أصدره البابا بونيفيس الثامن[5] .

---

1) Poole . Medieval Thought p 43
2) Cam. Med. Hist. vol. 6., p 607
3) Hearnshaw . Some Great Political Idealists of the Christian Era, pp. 17—18
4) Jacob . The Legecy of the Middle Ages. pp. 512—513
5) Eyre . op. cit., p 285

ومع أن هذا الحكم الجائر على الدولة العلمانية ترك أثراً واضحاً فى الفكر السياسى للعصور الوسطى، إلا أننا لا يصح أن نتخذه نموذجاً لتعاليم تلك العصور لأن الكتاب أنفسهم الذين تطرفوا فى وجهه النظر السابقة ، لم ينكروا فى بعض المواضع مبررات قيام الدولة [١] . ذلك أن مفكرى العصور الوسطى بوجه عام اعتبروا الوحدة السياسية وليدة الإثم ، ولكنهم لم يقروا بأن الدولة آثمة على طول الخط . وهنا نجدهم مرة أخرى يستغلون الفرق بين النظام الطبيعى والنظم الوضعية ، فقالوا إن القانون الطبيعى يقضى بالمساواة التامة بين جميع الناس أمام الله ، وأنه ليس لفرد - بحكم الطبيعة - أن يدعى السيطرة على أقرانه من البشر [٢] . ولكن نتج عن الخطيئة التى تردى فيها الإنسان أن ظهرت فى الدنيا نزعة نحو العنف ورغبة فى السيطرة ، الأمر الذى أدى إلى تحكم بعض الناس فى غيرهم . على أن هذا لم يكن - فى نظر مفكرى العصور الوسطى - إلا جانباً واحداً من المشكلة . ذلك أن الحكومة العلمانية - على الرغم من التسليم بأنها جاءت وليدة الإثم - أصبح بقاؤها ضرورياً لعلاج الشرور التى فاضت بها الحياة الدنيا [٣] .

فالحكومة الدنيوية إذاً جاءت عن طريق الخطأ ، ولكنها أصبحت العلاج الإلهى للأخطاء البشرية ، ومن ثم وجب احترامها وطاعتها [٤] ويبدو هذا الرأى واضحاً فى كتاب دانتى عن الملكية (De Monarchia) ، فهو يسلم بأن الحكومة الدنيوية آثمة فى تكوينها ونشأتها ، ولكنه يعترف بأن السلام لا يمكن أن يسود الحياة العملية إلا بقيام سلطة قاهرة تمنع العنف وتقر العدالة [٥] .

---

1) Hearnshaw . The Socialand Political Ideas; p 20
2) Carlyle . op. cit. vol. 1 pp. 126—128
3) Idem p 130
4) Idem, vol. 2, pp. 146—147
5) Hearnshaw . The Social and Plilitical Ideas, p 1268
Bowle : op. cit. pp. 233—236

وخلاصة القول ، أن الرأى السائد فى العصور الوسطى بخصوص هذا الموضوع هو أن الدولة العلمانية نبتت أصولها من أوضاع آثمة ، لأنها لاتقوم على أساس المساواة الطبيعية بين الناس ، ولكن بقاء هذه الدولة أمر ضرورى لعلاج ماتفيض به الحياة من آثام . والدولة فى علاجها لهذه الآثام تعتمد على الله ولذلك يجب أن تحظى بالاحترام والطاعة من جميع المسيحيين المخلصين [1].

• • •

وقد ظهر أثر المبادىء والآراء السابقة بوضوح فى تطور الفكر السياسى فى غرب أوربا فى العصور الوسطى . من ذلك أن القول بأن الحكومة الزمنية ـ مع كونها غير طبيعية ـ إلا أن لها وظيفة دينية مقدسة فى علاج الآثام والشرور ، هذا القول أدى مباشرة إلى نظرية حق الملوك الإلهى أو المقدس[2]. حقيقة أن هناك عوامل أخرى كثيرة أسهمت فى بناء هذه النظرية ونموها ، لاسيما قول الفريق الإمبراطورى ـ أثناء النزاع مع البابوية ـ بأن الإمبراطور يستمد سلطته من الله مباشرة . ولكن الفكرة التى قامت عليها نظرية حق الملوك الإلهى تكمن بوجه عام فى رأى العصور الوسطى فى الدولة الزمنية . فالعصور الوسطى نظرت دائماً إلى الحاكم العلمانى على أنه أداة الله فى القضاء على العنف والشر [3]

على أنه إذا كانت العصور الوسطى قد قالت بأن الحاكم العلمانى ـ سواء كان ملكا أو امبراطوراً ـ يتقلد منصبه بمقتضى حق إلهى ، إلا أن هذه العصور لم تقر مطلقا مبدأ عدم مسئولية الحكام العلمانيين عن أفعالهم ، لأن هذا المبدأ لم يكن إلا فكرة قديمة أحياها ملوك القرن السابع عشر [4] . والواقع إن التنكر لمبدأ عدم مسئولية الحكام العلمانيين يعتبر تطبيقاً جديداً لنظرية العصور الوسطى عن الحكومة الدنيوية [5] . فمفكرو العصور الوسطى اعتبروا الملكية

---

1) Eyre . op. cit., p 268
2) Hearnshaw . The Social and Political Idea, p 21
3) Gierke . op. cit., pp. 30—32
4) Eyre . op. cit. p. 286
5) Cam. Med. Hist., vol. 8. p 642

ـ وما يرتبط بها من حكومة زمنية ـ ليست إلا وظيفة وأمانة ، وأنه يتحتم على صاحب هذه الوظيفة الوفاء بالتزامات ثابتة معينة [١] . وقد أدت هذه النظرية فى النهاية إلى القول بأنه لما كانت الدولة العلمانية وحاكمها قد جاءا نتيجة للاثم وعلاجا له ، فإن الحكمة من بقائهما أصبحت رعاية مصالح الأفراد الذين تألفت منهم هذه الدولة ، وليس للحاكم أن يفرض على هؤلاء الأفراد التزامات غير مشروطة [٢] . ومن الواضح أن هذه الفكرة ـ التى تختلف عن كثير من النظريات السياسية القديمة والحديثة إزاء الدولة ـ تمثل رأيا خطيرا على جانب كبير من الأهمية . ذلك أنها تحدد العلاقة بين الحاكم والمحكوم فى ضوء مجموعة من الحقوق والواجبات المتبادلة [٣] . وهنا يلخص القديس توما الأكوينى أهم مظهر للنظرية السياسية فى العصور الوسطى فيقول « إن المملكة ليست ملكا للملك ، وإنما الملك ملك للمملكة » .

Regnum non est Propter regem sed rex Propter regum

ويفسر ذلك بأن الله أقام ملوك الأرض لا لتحقيق مكاسبهم الخاصة ، وإنما لتحقيق الصالح العام . ثم يضيف القديس توما إلى ما سبق ، قوله بأن القانون المدنى يجب أن يستهدف الصالح العام ، وإلا فقد صفته الإلزامية كقانون [٤] .

بل إن بعض مفكرى العصور الوسطى لم يترددوا فى نقد نظرية الملكية المطلقة ، فحنا السالسبورى يفرق بين الملك والطاغية أو الدكتاتور ، ويقول إن الأول يخضع للقانون فى حين يتجاهله الثانى . ولما كانت الملكية نظاما إلهيا مقدسا فإن إساءة الملك استخدام سلطته تعتبر خيانة فى حق الله ؛ وهنا يوصى حنا السسبورى باستخدام السيف لمعاقبة الملك المستبد على هذه الخيانة . كذلك

---

1) Gierke . op. cit. p 31
2) Cam. Med. Hist., vol. 8, p 642
3) Gierke . op. cit. p 34
4) Hearnshaw : The Social and Political Ideas, p 96 & Bowle : op. cit. p 208

يقرر أن قتل الطاغية فى هذه الحالة ليس أمراً مسموحا به فحسب ، بل يعتبر هذا الإجراء « حقا وعدالة aequum et justum[1] » .

والواقع أن الطغاة المستبدين احتلوا أسفل درك فى التفكير السياسى فى العصور الوسطى ، حتى أن دانتى أفرد لهم فى الجحيم نهرا خاصا يغلى بالدماء ليعذبوا فيه. أما القديس توما الأكوينى فقد أصر دائماً على أن مقاومة الطاغى ليست حقا للمحكومين بل واجبا عليهم [2] . وهكذا يبدو أن العصور الوسطى فى غرب أوربا لم تقر مطلقا فكرة عدم مسئولية الحكام ، كما قالت بأن التعسف يضيع حقوق الحكام ، لأن القانون الطبيعى يجب أن يظل فوق الدولة وقوانينها الوضعية . وهذه الآراء هى التى تمثل فى مجموعها فكرة العصور الوسطى عن الحرية [3] .

ومن الواضح أن القول بأن سلطة الملك يجب أن تقوم على أساس مراعاة الصالح العام لرعاياه ، وأن لهؤلاء الرعايا الحق فى عصيان الملك إذا أخل بالمبادىء التى تبرر قيامه فى منصبه ، هذه الآراء لا يفصل بينها وبين مبدأ سيادة الشعب سوى خطوة قصيرة . هذا إلى أن مبدأ المساواة الطبيعية بين الناس أمام الله ، يحمل فى طياته كثيرا من دلائل الديمقراطية ومبادئها [4] . ويتضح هذا الرأى فى ضوء التأكيدات الكثيرة التى صدرت عن مفكرى العصور الوسطى بأن الملك خاضع لقوانين الجماعة التى يحكمها ، أو كما قال القديس أمبروز من أن الملك مقيد بقوانينه [5] وفى القرن الثانى عشر فرق حنا السالسبورى بين الملك والطاغية على هذا الأساس (٦) ، كما تبنى هذه الفكرة المشرعون الإقطاعيون فى القرن

---

1) Carlyle : op. cit., vol. 3, pp. 143—145
2) Poole : Med. Thought, pp. 210—216
3) Eyre : op. cit. p 287
4) Gierke : op. cit. pp. 3?—38
5) Carlyle : op. cit., vol. 1, pp. 163—164
6) Hearnshaw : The Social and Political Ideas, p 78

الثالث عشر ، مثل بورمانوار Beaumanoir الذى قال بأن ملك فرنسا مقيد بتقاليد شعبه [1] ومثل حنا الآبلينى Jeand'Ibbelin الذى أكد هذا المبدأ نفسه فى دستوره الخاص بمملكة بيت المقدس اللاتينية ، ومثل المشرع الإنجليزى براكتون Bracton الذى عبر عن الفكرة السابقة فى قالب تهكمى لطيف فقال بأن الملك « لا يصح أن يكون دون أى شىء آخر ، عدا الله والقانون » [2] .

فمفكرو العصور الوسطى اعتبروا السلطة هبة من الله وهبها عباده ، وهؤلاء الأخيرون أنابوا عنهم ملكا لمباشرة هذه السلطة ، لذلك تجب عليهم طاعة الملك مادام يباشر سلطته على الوجه السليم . ومن هذه الفكرة تستطيع أن نلتمس جذور نظرية العقد الإجتماعى التى نادى بها بعض المفكرين الأوروبيين فيما بعد [3] بل إن هذه النظرية ظهرت واضحة فى القرن الثانى عشر فى مؤلفات مانجولد Manegold الذى استخدم فعلا لفظ « عقد Pactum » فى تفسير العلاقة بين الحكام والمحكومين [4] .

ومهما يكن الأمر ، فإن فكرة تحديد سلطة الحكومة من جهة وفكرة المساواة الأصلية الطبيعية بين جميع الأفراد والطوائف من جهة أخرى ، هما بلا شك أهم ما تمخض عنه الفكر السياسى فى أوربا العصور الوسطى .

القانون الرومانى :

فإذا انتقلنا إلى دراسة القانون الرومانى فإننا نجد أنفسنا أيضاً مضطرين إلى الرجوع إلى العصر الرومانى نفسه لنتتبع جذور النشاط التشريعى فى أوربا

---

1) Bowle : op. ct., p 185
2) Eyre : op. cit., p 288
3) Grieke : op. cit. p 88
4) Carlyle : op. cit., vol. 3, pp. 166—169

العصور الوسطى [1] . ذلك أن القانون الأساسى للجمهورية الرومانية كان عبارة عن نظام تقليدى خاص بالمواطنين الرومان الذين يتمتعون بالجنسية الرومانية وحدهم . ولكن عندما أصبحت روما عاصمة البحر المتوسط ، اضطرت المحاكم الرومانية أن تكمل القانون المدنى الخاص بالمواطنين الرومان (ius-civile) بقانون آخر عام أكثر شمولا ومرونة ، ولا يختص بالمواطنين الرومان وحدهم (ius gentium) [2] . وقد روعى فى هذا القانون الأخير أن يتناول العلاقات بين أهالى جميع بلاد الإمبراطورية ، ومن ثم احتوى كثيراً من التشريعات والنصوص القانونية العامة التى تشمل الحجج والشركات والزواج والوراثة وغيرها . ولما كان هذا القانون أوسع أفقاً وأكثر شمولا من قانون المواطنين الأول ، فإنه أخذ يؤثر فيه تأثيراً سريعاً . وسرعان ما تداخل القانونان بعضهما فى بعض نتيجة للتوسع فى منح الجنسية الرومانية لأهالى الولايات الرومانية من ناحية ولانتشار آراء الرواقيين ذات الصبغة العالمية من ناحية أخرى [3] . والمعروف أن الفلسفة الرواقية نادت بأن توجيهات العقل تؤلف قانوناً طبيعياً (ius naturale) يربط جميع الناس برباط خلق متين ، وبالتالى يسمو على التشريعات المحلية التى تسنها كل دولة [4] .

وهناك ثمة تطور طرأ على القانون الرومانى عند ما حاول دقلديانوس إصلاح مرافق الإمبراطورية وإنقاذها من الهوة التى انزلقت إليها ، فجعل إرادة الإمبراطور ممثلة فى مراسيمه — هى الإرادة العليا التى يجب أن تسمو على جميع ما عداها من تشريعات وقوانين . وهكذا أصبح القضاة خدام الإمبراطور — لا العدالة — فيجب أن يلبوا أولا بالأوامر الإمبراطورية ويحرصوا على تنفيذها فى

---

1) Cam. Med. Aist., vol. 5 p 698

2) Cam. Med. Hist., voi. 5, pp. 700 & Stephenson. . Med. Hist. p 13

3) Eyre . op. cit. p 41

4) Idem, pp. 13—14

أحكامهم ، ثم بعد ذلك يأتى دور التشريعات المدنية وأقوال الفقهاء والمشرعين ومع ذلك فإن هذا التطور لم يقض على قواعد القانون الرومانى الراسخة ، فاستمرت الإجراءات القضائية تسير وفق الأسس السابقة [1] .

وسرعان ما أدت كثرة الأوامر والمراسيم الإمبراطوريه وتعارضها ، إلى نوع من الفوضى فى شئون القضاء والتشريع ، الأمر الذى تطلب جمع المراسيم الإمبراطورية الصادرة منذ عهد الإمبراطور قسطنطين وتبويبها ، وهى المجموعة التى تمت فى عهد الإمبراطور ثيودسيوس الثانى سنة ٤٣٨ ونسبت إليه [2] . وكان التشريع العلمى المنظم قد اختفى تقريباً منذ أخذ العالم الرومانى ينحدر فى طريق التدهور ، فسادت أوربا عند مستهل العصور الوسطى قوانين عرفية ترجع إلى عادات الشعوب الجرمانية المختلفة التى غزت العالم الرومانى وسرعان ما تأثر كثير من هذه الشعوب الجرمانية — لاسيما القوط — بمجموعة القوانين الرومانية التى جمعها ثيودسيوس الثانى . الأمر الذى ساعد على بقاء بصيص من الحضارة الرومانية فى غرب أوربا فى العصور المظلمة التى أعقبت سقوط الإمبراطورية الغربية [3] . هذا وإن كان من الثابت أن غزوات البرابرة فى القرن الخامس لم تقتلع جذور القانون الرومانى من غاليا وإيطاليا وأسبانيا [4] .

على أن أهم عمل قانونى شهدته أوربا العصور الوسطى ارتبط باسم جستنيان إمبراطور الدولة الشرقية (٥٢٧ — ٥٦٥) . والحق إن ما قام به هذا الإمبراطور من جمع القانون الرومانى وتبويبه وتنظيمه ، حقق لاسمه الخلود على صفحات التاريخ . وكانت المحاكم الرومانية فى ذلك الوقت — فى القرن السادس — تستمد على مجموعتين قانونيتين : مجموعة تشمل الأوامر والتشريعات التى سنها

---

1) Stephenson . Med. Hist. p 36
2) Thompson . op. cit ; vol. 1, p 94
3) Cam. Med. Hist. vol. 2 pp. 55—56
4) Meynall . The Legacy of the Middle Ages, p. 364

الأباطرة ، وأخرى تشمل كتابات المشرعين والفقهاء من رجال القانون [1] .
وكانت آخر محاولة بذلت لجمع تشريعات الأباطره وتنظيمها هى المحاولة التى
انتهت بإخراج مجموعة ثيودسيوس الثانى كما سبق . ومع ذلك فإن هذه المراسيم
الإمبراطورية ظلت مفككة متناثرة ينقصها الكثير من التنظيم والإنسجام .
أما كتابات فقهاء الرومان وأقوالهم فقد أوشكت أن تندثر وتضيع نتيجة
لإهمالها وتشتتها وصعوبة الرجوع إليها فى مكان واحد ، الأمر الذى هدد بحرمان
الأجيال التالية من أعظم نواحى التراث الفكرى الرومانى [2] . لذلك فكر
جستنيان فى جمع مختلف أطراف القوانين والتشريعات السابقة — إمبراطورية
وغير امبراطورية - مما كان له أثر بالغ فى مستقبل القانون الرومانى بوجه خاص
وتاريخ العصور الوسطى بوجه عام [3] .

ولم يكد جستنيان يلى عرش الإمبراطورية البيزنطية حتى عين تربونيان
على رأس لجنة من رجال القانون لجمع الدساتير الإمبراطورية ونشرها ، فأتمت
اللجنة عملها فى أقل من عامين وصدرت المجموعة الإمبراطورية التى نسبت إلى
جستنيان (Cedex Justinianus)[4] . وتشمل هذه المجموعة — التى صدرت
سنة ٥٢٩ — أكثر من أربعة آلاف وستمائة وخمسين مرسوما أو تشريعاً
إمبراطورياً ، بعضها أصدره جستنيان والباقى أصدره أسلافه من الأباطرة [5] .
ولما كان الإمبراطور جستنيان قد استمر فى إصدار كثير من التشريعات والأوامر
الإمبراطورية بين حين وآخر ، فإن هذه الأوامر المستحدثة أطلق عليها اسم
المتجددات أو القوانين الجديدة (Novellae Constitiones)[6] . ثم كان أن

---

1) Eyre . op. cit. p 40
2) Cam. Med. Hist. vol. 5 pp. 702—703
3) Painter . A Hist. of the Middle Ages, p 8
Cam. Med. Hist. vol. 2 p 59
5) Vasiliev : Hist. de l'Empire Byzantin. Tome 1, p. 189—190
6) Cam. Med. Hist. vol. 2, p 62

زاد جستنيان عدد أعضاء اللجنة التشريعية الأولى ، وعهد إليها بمهمة أصعب هى جمع وتبويب تراث المشرعين ورجال القانون الرومان . وأخيراً تمخض هذا المجهود الضخم سنة ٥٣٣ عن صدور الموسوعة (Digesta) وهى تجمع خلاصة ما كتبه فقهاء العصر العلمى (١٣٠ ق م - ١٨٤ م) ، وتقع فى خمسين كتاباً ، ينقسم كل منها إلى فقرات ، على رأس كل فقرة بيان باسم الفقيه الذى أخذت عنه وعنوان الكتاب وموضوعه[1] . وبذلك حافظت هذه الموسوعة على أسلوب كبار فقهاء العصر العلمى أمثال بولس وألبيان وغيرهما[2] على أن هذه الموسوعة كانت أضخم من أن يستطيع الرجوع إليها طلاب القانون فى سهولة ، ولذلك أصدر جستنيان موجزاً يسهل على الطلاب استخدامه ، وسمى هذا الموجز (القواعد Institiones) .

ومن مجموعة الدساتير الإمبراطورية والموسوعة وموجز القوانين ، نتج ما عرف باسم « مجموعة القانون المدنى Corpus Juris Civilis » . ولسنا فى حاجة إلى التدليل على أهمية هذه المجموعة ـ وبصفة خاصة الموسوعة ـ التى لولاها لضاعت جهود فقهاء الرومان ولأصبح من الصعب بل المستحيل الوقوف على دراساتهم القانونية[3] . أما وقد حفظت الموسوعة هذه الدراسات والتشريعات التى أنجبتها عبقرية الرومان فقد أصبح من الممكن استغلالها فى القيام بنهضة قانونية فى أوربا متى سمحت الظروف بذلك . ولم يكن من المنتظر أن تشهد أوربا مثل هذه النهضة فى الظروف العسيرة التى مرت بها فى الفترة المظلمة الممتدة حتى القرن الحادى عشر ؛ وإن كان من الثابت وجود مدارس قانونية حينئذ فى روما وبافيا ورافنا[4] . ومهما كان الأمر فإن جانباً كبيراً من جوانب النهضة الأوربية التى

---

1) Idem, p 60

2) Haskins . The Renaissance of the Tewlfth Century, pp. 196 –197

3) Vasiliev . op. cit., Tome 1, p 192

4) Vinogradoff . Roman Law in Med. Europe, pp. 38—43

سطعت فى القرن الثانى عشر تمثلا فى العناية بالدراسات القانونية وإحياء التشريعات الرومانية التى أمكن الوقوف عليها من مجموعة جستنيان . ومن الثابت أن رائد هذه النهضة القانونية فى القرن الثانى عشر كان إرنريوس الذى تمتع برعاية ماتيلدا أميرة تسكانيا[1] ، والذى جعل من مدينة بولونا الإيطالية مركزاً لمدرسة قانونية عظيمة ناصرت البابوية ونافست مدرسة رافنا ربيبة الإمبراطورية[2] . وقد بدأ إرنريوس بدراسة مجموعة جستنيان ، ثم اتخذها محوراً لتدريس القانون فى بولونا بطريقة منظمة ، معتمداً فى ذلك على المناقشة والبحث زيادة على الشرح ، مما يعتبر بداية لنهضة قانونية فعلية[3] .

ويطلق لقب الشراح « Glossators » على خلفاء إرنريوس لمدة قرن أو أكثر من الزمان . ذلك أنه لم يكد ينتصف القرن الثانى عشر حتى ظهر بعض تلاميذ إرنريوس الذين برزوا فى العلوم القانونية ، مثل بلجاروس ومارتين وهوجو ويعقوب ؛ وهم الذين أطلق عليهم اسم الدكاترة الأربعة . ويبدو من الوثائق المعاصرة أن هؤلاء الأساتذة الأربعة حصلوا على شهرة واسعة كمستشارين الإمبراطور فردريك بربروسا فى مجمع رونساجليا Roncaglia سنة ١١٥٨[4] . أما السبب فى إطلاق اسم « الشراح » على خلفاء إرنريوس من أعلام القانون ، فهو أنهم وجهوا جهودهم نحو شرح القانون وعمل تفسيرات وشروحات (glosses) لمواده[5] وامتازت هذه الشروح فى أول الأمر بالإيجاز المطلق ، حتى أنها لم تتجاوز كلمات قليلة بين الأسطر وفقاً للطريقة الشائعة حينئذ فى شرح نصوص الإنجيل . ولكن بتعاقب الشراح ازدادت التفسيرات والتعليقات حتى خرجت من بين الأسطر فامتدت إلى الهوامش الجانبية ، بل لقد فاقت فى بعض

---

1) Rashdall . op. cit., vol. 1, p 115
2) Vinogradoff . op. cit. p 36
3) Rashdall . op. cit. vol. 1, p 367
4) Meynail : the Le gacy, p. 367.
5) Cam. Med. Hist. vol. 2, pp 736 – 737

الأحيان حجم النص الأصلى[1] . وأخيراً ضاقت الهوامش عن الشروح والتفسيرات ، فاستلزم الأمر تخصيص كتب خاصة لشرح النصوص القانونية ؛ ومن هذه الكتب ماتناولت كتاباً بالتحليل العام ـ وسمى هذا النوع المجمل Summa ، ومنها ما اهتم بالمبادىء العامة التى تستق من كتاب أو نص ، وسمى هذا النوع المبادىء Brocarda [2] .

وهكذا لم تقف جهود شراح بولونا عند تهذيب النصوص القديمة وتحديد معانيها ، وإنما تعدت ذلك إلى تحليل المواد القانونية وشرحها على أساس مناقشتها وتنفيذها فى ضوء الأسلوب المنطقى الذى ازدهر فى القرن الثالث عشر[3] . وقد ساعد على ظهور هذه النهضة القانونية فى الشطر الأخير من العصور الوسطى ازدهار التجارة ، وحاجة النشاط التجارى إلى دراية بالأصول القانونية من ناحية ، وتفكك النظام الإقطاعى وقيام الملكيات القوية التى ألفت نفسها فى حاجة إلى قوانين أوسع أفقاً من القوانين المحلية من جهة أخرى . هذا كله بالإضافة إلى ماكان هناك من نزاع بين البابوية والإمبراطورية ، وحاجة كل فريق إلى دعم مركزه عن طريق الحجج والأسانيد القانونية . ولم يلبث أن امتد الاهتمام بالدراسات القانونية من بولونا وإيطاليا إلى بقية البلدان الاوربية ، حيث اهتمت الجامعات الناشئة بدراسة القانون اهتماماً متفاوت الدرجات حسب الظروف التى أحاطت بكل منها[4] .

القانون الرومانى :

وفيما عدا القانون الرومانى ، شهدت العصور الوسطى تقدماً كبيراً فى القانون الكنسى ، وهو القانون الذى ترجع مبادئه الأولى إلى عصر الإمبراطورية[5] .

1) Vinogradoff . op. cit. pp 46—47
2) Haskins . The Renaissance, p 204
3) Meynail . The Legacy of the Middle Ages, pp 369—370
4) Vinogradoff . op. cit. pp 59—131
5) Cam. Med. Hist., vol. 5, p 705

والمقصود بالقانون الكنسى (canon law) القانون الدينى الذى أخذت به الكنيسة الغربية ذات النفوذ الواسع فى أوربا العصور الوسطى . فإذا كانت الدولة فى حاجة إلى قانون لتنظيم مواقفها المختلفة ، فإن الكنيسة الغربية فى العصور الوسطى لم تكن أقل حاجة من الدولة إلى قانون خاص بها ، لاسيما بعد أن صارت الكنيسة قوة عالمية تجاوزت حدودها كافة الحدود السياسية ، وتمتعت بكل ما للدولة من مقومات . ويكفى أن الكنيسة الغربية كان لها رئيسها الأعلى وهو البابا ، ولها أراضيها الواسعة ، ورعاياها من جمهور المسيحيين فى مختلف البلدان الغربية ، كما كانت لها أحكامها وقوانينها ومحاكمها بل سجونها[1] . وهكذا تمتع رجال الكنيسة بسلطة قضائية واسعة وصارت دور القضاء الكنسية تباشر نفوذاً واسعاً فى غرب أوربا ، فى وقت غدت المحكمة البابوية بمثابة محكمة استئناف عليا ، تستأنف أمامها القضايا من مختلف بلدان غرب أوربا وعندئذ يكون مصيرها إما النقض أو الإبرام[2] .

على أن هذا النشاط القضائى الذى باشرته الكنيسة استلزم وجود عدد كبير من المتخصصين فى أحكام القضاء الكنسى من جهة ، كما استلزم تنظيم القانون الكنسى وتبويبه ليسهل الرجوع إليه وتداوله من جهة أخرى . ولو ان جاء ، وقت فى العصور الوسطى صارت القوانين الكنسية تعانى كثيراً من مظاهر الارتباط والتناقض . والمعروف أن القانون الكنسى يستمد أحكامه من الكتاب المقدس وأقوال القديسين ، زيادة على قرارات المجامع الدينية والمراسيم البابوية[3] . وكان لابد من ترتيب هذه المادة وتنظيمها ، ولكن لم تبذل محاولات جدية فى هذا الصدد حتى كان القرن الحادى عشر ، وعندئذ ظهرت عدة محاولات قام بها برخارد أسقف وورمز (Burchard of Worms) ، وانسلم أسقف لوكا

1) Haskins . The Renaissance, pp 213—214

2) Ullmann . Growth of Papal Govermment, pp. 359—381

3) Stephenson . Med. Hist. p 340 & Cam. Med. Hist.

(Anslem of Lucca) وإيفو Ivo أسقف شارتر[1] . على أنه لايوجد شك فى أن أهم محاولة شهدتها العصور الوسطى لتنظيم القانون الكنسى كانت تلك التى قام بها جراشيان (Gratian) فى القرن الثانى عشر، وهو الذى نجح فى فصل اللاهوت عن القانون الكنسى ثم تنظيم هذا القانون وترتيبه[2] . وقد وضع جراشيان مجموعة للقانون الكنسى نسبت إليه وانقسمت إلى ثلاثة أقسام . القسم الأول يتألف من مائة باب وباب تعالج مصادر القانون الكنسى ، والقسم الثانى يشمل نحواً من ست وثلاثين قضية مختارة مع مناقشةهذه القضايا فىضوء القانون الكنسى ، وأخيراً يشمل القسم الثالث خمسة أبواب فى العبادة والطقوس الكنسية[3] . وسرعان ما أحرز عمل جراشيان أهمية كبرى حتى جعلته الكنيسةفى مقدمة مجموعة القانون الكنسى (Corpus Juris Canonici) التى قامت بجمعها. وهنانلاحظ أن البابويةاختارت لمجموعة القوانين الكنسية اسما مطابقاً لإسم مجموعة جستنيان فى القانون المدنى Corpus juris Civilis) مما يدل على أن القانون الكنسى اقتفى أثر القانون الرومانى فى تطوره[4] . والواقع أن العلاقة بين القانون الكنسى والقانون المدنى الرومانى كانت قوية واضحة ، كما بدت فى ثلاث نواح هامة . أولها أن القانون الرومانى كان مصدراً قوياً استقى منه القانون الكنسى ، وثانيها أن القانون الكنسى اقتفى أثر القانون الرومانى فى تطوره وترسم خطاه فى دراسته ، وثالثها أن القانون الكنسى جاء بمثابةرد فعل قوى للقانون الرومانى حتى يكون للبابوية سند قوى يستند إليه كما استندت الإمبراطورية إلى القانون المدنى[5] .

---

1) Eyre : od. cit,, p 275
2) Gabriel le Bras : The Legacy of the Middle Ages; p 326
3) Haskins : The Renaissance, p 215
4) Stephenson : op. cit. vol. 1, p 341
5) Rashdall op. cit. vol. 1, p. 134

ومن البابوات الذين عنوا عناية فائقة بتنظيم القانون الكنسى وتبويبه البابا اسكندر الثالث (١١٥٩ — ١١٨١) والبابا لوكيوس الثالث (١١٨١ - ١١٨٥) والبابا جريجورى التاسع (١٢٢٧ — ١٢٤١)[1] . وهكذا تم تنظيم القانون فأصبح مادة قائمة بذاتها تدرس فى الجامعات الأوربية الناشئة إلى جانب القانون الرومانى . هذا إلى أن البابوية رأت فى انتشار القانون الكنسى توسيعاً لنفوذها وتقوية لسلطانها وأدركت أن هذا القانون يجد منافساً خطيراً فى القانون الرومانى — الذى يجد دائما سلطة الإمبراطورية والأباطرة — لذلك لجأت البابوية سنة ١٢٠٩ إلى تحريم دراسة القانون الرومانى على رجال الدين فى جامعة باريس .

وخلاصة القول إن العصور الوسطى شهدت نشاطاً كبيراً فى ميدان القانون والتشريع ، وهو نشاط أخذ فى الازدياد كلما اقتربت تلك العصور من نهايتها نتيجة لازدياد النشاط السياسى والاجتماعى والاقتصادى فى القارة الأوربية .

---

1) Cam. Med. Hist, vol. 5, pp. 713—714.

الباب الثامن

العلوم

ظلت الفكرة سائدة حتى القرن التاسع عشر بأن العلوم — بمعناها البحث الحديث — لم تكن معروفة فى أوربا العصور الوسطى . ومن الواضح أن هذه الفكرة تحوى كثيراً من الخطأ والمبالغة ، لأن العصور الوسطى بوجه عام عرفت العلوم والدراسات العلمية بنسبة تفاوتت بتفاوت النشاط الفكرى الذى شهدته تلك العصور[1] .

والواقع أنه يمكن تقسيم تاريخ العلوم فى العصور الوسطى إلى ثلاث مراحل : المرحلة الأولى أو المظلمة وتشمل الفترة بين سنتى ٤٠٠ ، ٩٠٠ ومهمتها إيصال بقايا تراث الفكر القديم إلى العصور التاليه : والمرحلة الثانية وتشمل الفترة بين سنتى ٩٠٠ ، ١٢٠٠ وهى التى شهدت تدفق العلوم والمعارف العربية على غرب أوربا . وأخيراً تاتى المرحلة الثالثة الممتدة حتى نهاية العصور الوسطى وتمثل عصر ازدهار الدراسات العلمية ، وهو الازدهار الذى أدى إلى النهضة العلمية فى العصور الحديثة[2] .

الدور الأول : التطور العلمى فى فجر العصور الوسطى

يبدو أن الجانب الذى وصل إلى العصور الوسطى من التراث العلمى للعصور القديمة لم يكن عظيما فى كمه أو موضوعه ، لأن الرومان كانوا قوماً عمليين لم يهتموا كثيراً بما خلفه اليونان من تراث علمى ؛ فاكتفوا بمختصرات أبحاث

1) Hearnshaw : Med. Contributions to Modern Civilzation. p 106.

2) Idem. pp. 114—115

اليونان وأهملوا أصول هذه الأبحاث التى ظلت مجهولة فى غرب أوربا حتى القرن الثانى عشر ، عندما عرفها الغربيون عن العرب . ومع ذلك فإن بعض المختصرات والكتيبات اليونانية حظيت بأهمية كبيرة فى غرب أوربا فى العصور الوسطى ، مثل كتابات جالن Galen فى الطب التى ظلت متداولة حتى عرفت مؤلفاته كاملة فى مدرسة سالرنو فى القرن الحادى عشر ؛ وذلك عن طريق ترجمة هذه المؤلفات عن التراجم العربية التى نقلت عن الأصل اليونانى[1] . أما فى الرياضيات ، فقد شغف الرومان بالمساحة والتخطيط ، حتى صرفهم اهتمامهم بهذه الناحية عن الرياضيات البحتة . وقد قام منلاوس السكندرى Menelaos of Alexandria ببعض أبحاث فلكية فى روما سنة ٩٨ ، كما ألف بحثاً فى حساب الأوتار وآخر فى الكرويات ، ولكن قدر لهذه الأبحاث التى وضعها منلاوس أن تظل فى طى النسيان حتى القرن الثانى عشر عندما عرفها عرب أوربا لأول مرة فى العصور الوسطى[2]

ويبدو أن هيمنة الكنيسة واللاهوت فى العصور الوسطى كانت من العوامل الأساسية التى أدت إلى عدم ترك مجال للدراسات العلمية ، لأن العقيدة المسيحية ـ كما قال المعاصرون — تقوم على أساس الإيمان فى حين يعتمد العلم على التعقل[3] . ويكفى أن يطلع الفرد على كتابات مفكرى العصور الوسطى — مثل القديس أوغسطين — ليدرك مدى التأخر العلمى الذى كانت عليه بلاد الغرب المسيحية . هذا إلى أن إصرار الكنيسة على توجيه الناس نحو الحياة الباطنية أعمى أنظار المعاصرين عن العالم الطبيعى المحيط بهم . فالقديس أوغسطين (٣٥٤ — ٤٣٠) يبدى دهشته من أن الناس يذهبون بتفكيرهم بعيداً للتأمل فى ارتفاع الجبال أو دراسة مدارات الكواكب ويهملون التأمل فى أنفسهم . بل إن القديس أوغسطين نفسه يهزأ من فكرة كروية الأرض التى عرفها اليونان قبل ذلك

1) Dampier : A Hist. of Science, pp. 61—62
2) Thompson : op. cit., vol. 2 p 777
3) Cam. Med. Hist ; vol. 8, p 661

بقرون ، ويصرح بأن فكرة التقاطريين ـ الذين يحيون فى الجهة المقابلة من سطح الأرض ـ إنما هى فكرة خاطئة هرطقية [1] . وإلى جانب هذا الانحطاط فى التفكير العلمى ، انتشر الاعتقاد فى الخرافات والمعجزات بين أهالى أوربا العصور الوسطى، حتى قضى السحر على البقية الباقية من المعرفة العلمية [2] . على أنه ليس معنى ذلك أن التفكير العلمى انعدم تماما فى تلك الفترة المظلمة من أوائل العصور الوسطى ؛ إذ وجد من المفكرين من أعطى الدراسات العلمية قسطاً من عنايته . فالفيلسوف المعروف بيوثيوس (٤٨٠ - ٥٢٤) دون عدة رسائل عظيمة ونافعة ، أحداها فى علم الحساب (De institutione arithmetica) والثانية فى الموسيقى (De institutine musica) والثالثة فى علم الهندسة (Geometrica) [3] . كذلك زود مارتيانوس كابلا (ت ٥٠٠) غرب أوربا بدائرة معارف كاملة فى تسعة كتب تناولت الحساب والهندسة والفلك والموسيقى، زيادة على النحو والجدل والبلاغة وغيرها . ويبدو أن الفلك والرياضيات بوجه خاص احتلت مكانة خاصة عند المعاصرين لأهميتها فى تحديد الأعياد الدينية .

ولم تكن الدولة البيزنطية فى حال أحسن من الغرب من حيث التقدم العلمى ذلك أن الإمبراطور جستنيان أغلق مدارس أثينا سنة ٥٢٩ ، وبذلك انطفأت شعلة علوم اليونان وفلسفتهم فى هذا الركن الشرقى من أوربا ، وفر إلى البلاط الفارسى جمع من علماء تلك المدارس ؛ مما جعل عاصمة الفرس أعظم مركز ثقافى فى ذلك العصر ، وازدهرت فيها الرياضيات والعلوم الطبيعية والفلسفة بعد أن التقت فيها علوم اليونان بعلوم الهند [5] .

---

1) Thorndike : A Hist of Magic and Experimental Science, vol. 1, p.p 504—522

2) Coulton : Life in the Middle Ages, vol 1 ; p.p 41 — 44

3) Hearnshaw : Med. Contributions to Modern Civiliza tion p 11

4) Cam. Med. Hist. vol. 3, p 535

5) Vasiliev : op. cit. Tome 1, p 198

ثم كان أن ظهر الإسلام وقامت الدولة الإسلامية ، فأدى فتح العرب لفارس والشام ومصر إلى انتقال التراث العلمي الذى خلفه اليونان والفرس والهندوس إليهم ؛ وأصبحت بغداد مركزاً لنهضة علمية كبرى فى الوقت نفسه التى قامت النهضة الكارولنجية فى غرب أوربا . على أنه يلاحظ أن هذه النهضة الأخيرة كانت تعليمية اهتمت بإحياء الآداب دون أن يكون للعلوم نصيب منها [1] .
وتتمثل أقصى ما وصلت إليه المعرفة العلمية فى غرب أوربا فيما بين القرنين السابع والتاسع فى موسوعة ايسيدور القشتالى (ت ٦٣٦) ومؤلفات بدى (ت ٧٣٥) ومعجم سالومونيس Glossae Salomonis الذى وضع فى دير سانت جال ونسب إلى سالومونيس الثالث رئيس أساقفة كونستانس . وجميع هذه المؤلفات الثلاثة السابقة استلهمت مادتها واستمدت معلوماتها من كتاب التاريخ الطبيعى لمؤلفه بلينى العالم الرومانى القديم [2] .

الدور الثانى : وصول علوم العرب إلى غرب أوربا

وإذا كانت العلوم قد اضمحلت فى غرب أوربا فى أوائل العصور الوسطى، فإنها ازدهرت فى الشرق الإسلامى . ولم يكن كل العلماء الذين أنجبتهم الحضارة الإسلامية من العرب ، لأن كثيراً منهم كانوا فرساً أو يهوداً مستعربين؛ ولكنهم درسوا وكتبوا باللغة العربية التى أضحت اللغة العالمية السائدة من حدود الهند والصين شرقاً إلى أسبانيا غرباً [3] . وقد امتازت هذه النهضة الإسلامية من أول الأمر بطابعها العالمى ، مما جعل الفرق واضحاً بينها وبين النهضة الكارولنجية من جهة والنهضة البيزنطية فى القرن التاسع من جهة أخرى [4] ذلك أن الظروف الجغرافية والتاريخية شاءت أن تجعل الدول الإسلامية ملتقى التيارات الفكرية اليونانية والفارسية والهندية. وليس هذا هو موضع الغرابة وإنما الملاحظ هو أن

---

1) Thompson : op. cit. vol. 2, p 777
2) Hearnshaw : Med. Contributions, p 118
3) Dampier : op. cit. p 82
4) Eyre : op. cit. pp. 294—295

الرياضيات الهندية تقدمت وتطورت مستقلة بعيدة عن نفوذ الرياضيات اليونانية حتى التقى التياران معا فى كنف المدارس الإسلامية وبين رجالها [1] .

ويضيق بنا المقام عن ذكر أسماء علماء العرب المبرزين فيا بين سنتى ٧٥٠ — ١١٠٠ ؛ وماقام به هؤلاء العلماء من أعمال تركت أثرا بارزا فى تاريخ الحضارة ، ولكننا نكتفى بالإشارة إلى بعضهم . فمن هؤلاء العلماء جابر بن حيان الكوفى فى القرن الثامن الذى اشتغل بالكيمياء وألف فيها موسوعة كبيرة ضمنها وصف كثير من المركبات الكيميائية التى لم تكن معروفة من قبل، مثل حامض النيتريك (ماء الفضة) والبوتاس وروح النشادر وغيرها ، كما وصف كثيراً من العمليات الكيميائية مثل التقطير والترشيح والتصعيد والتبلور [2] . وبعـــد ذلك يأتى الخوارزمى فى القرن التاسع . وهو الرجل الذى نبغ فى الرياضيات والفلك والجغرافيا ، ومزج الرياضيات اليونانية بالهندية ،ووضع قواعد علم الجبر وصنف فيه . ثم يأتى البتانى المتوفى سنة ٩٢٩ وهو من أعلام الفلكيين بفضل ماتوصل إليه من نتائج بارزة جديدة فى علم الفلك [3] . أما الرازى (ت ٩٢٣) فكان من أشهر أطباء العرب وألف كثيرا من المراجع الكبيرة فى الطب ، وشاركه فى هذا الميدان العلمى ابن سينا (ت ١٠٣٧) الذى كان أشهر أطباء المسلمين على الإطلاق ، حتى أن كتابه « القانون » يعتبر أكبر دائرة معارف طبية عرفها الشرق والغرب جميعاً فى العصور الوسطى [4] . أما الحسن بن الهيثم (ت ١٠٢٠) فكان من أشهر العلماء فى الطبيعة فاشتغل بالعدسات والبصريات وكتب فى الضوء والمرايا رسائل عديدة ، اعتمد عليها واستفاد منها بعد ذلك بقرنين روجر

---

1) **Dampier : op. cit. p 100**

2) **Cam. Med. Hist. vol. 8. p 667**

3) **Delambre : Hist. de l'astronomie du Moyen Ages, pp 10—60**

4) **Cam. Med. Hist , vol. 4, p 297**

يسكون فى الغرب [1] . وأخيراً نختتم هذه السلسلة من مشاهير علماء الإسلام بالإشارة إلى عمر الخيام — أبرز الرياضيين فى الربع الأول من القرن الثانى عشر . على أن الحياة الفكرية والعلمية فى العالم الإسلامى أخذت تستنفد قوتها تدريجياً منذ ذلك الحين بعد أن حمل المسلمون لواء المعرفة فى العالم — شرقيه وغربيه ـ عدة قرون ، توصلوا فيها إلى معارف ونتائج جديدة ، لم يعرفها معاصروهم من الأمم إلا عنهم ، الأمر الذى جعل الحضارة الإسلامية — باعتراف الغربيين ـ أعظم حضارة شهدها العالم عن الإطلاق فى العصور الوسطى [2] .

ذلك أن العرب استخدموا نظام الأعداد الهندى واستخدموا الصفر فى الحساب [3] ، وكشفوا عن أصول الجبر وأضافوا إليها حتى خلقوا منها علما حقيقياً طبقوه على الهندسة . أما فى الهندسة وحساب المثلثات ، فإنهم لم يقفوا عند معلومات اليونان التى توصل إليها إقليدس وغيره ، وإنما حددوا وأضافوا إضافات جديدة لم يعرفها غيرهم من قبل ، فأدخلوا المماس إلى علم حساب المثلثات وأقاموا الجيوب مقام الأوتار وحلوا المعادلات المكعبة وتعمقوا فى أبحاث المخروطات ، كما تقدموا بالميكانيكا ووصفوا كثيرا من آلاتهم فى كتبهم . وفى الفلك انتشرت المراصد العربية فى جميع بلدان المشرق والمغرب [4] ، واستطاع علماء المسلمين تعيين انحراف سمت الشمس تعييناً دقيقاً وحددوا طول السنة الشمسية بالضبط ، ووضعوا جداول لأمكنة الجداول السيارة ، وتوصلوا إلى نظرية دوران الأرض ، واستخدموا الاسطرلاب والبوصلة ، كما صححوا كثيراً من الأخطاء التى وقع فيها من سبقهم ولا سيما ما يتعلق بتقدير بطلميوس السكندرى لعرض البحر المتوسط [5] ، أما فى الطبيعة فقد توصل المسلمون إلى نتائج فائقة فى العدسات والبصريات والمرايا

---

1) Dampier : op. cit. p 101
2) Thompson : op. cit. vol. 2. pp. 778—779
3) Ball : A Short Account of the Hist. of Mathematics, p 156
4) Cam. Med. Hist. vol. 4, pp. 298—299
5) Delambre : op. cit. pp. 10—60

الكرية ، وأجروا تجارب لإيجاد العلاقة بين وزن الهواء وكثافته ، كما عالجوا النظريات المتعلقة بالجاذبية ومركز الثقل [1] . كذلك فى الكيمياء توصلوا إلى كثير من العناصر وحاولوا تحليلها أو تركيبها ، واستخدموا فى تجاربهم أجهزة لم تكن معروفة من قبل ، كما استخدموا القوة الناجمة عن انفجار البارود فى دفع قذائف إلى مسافات بعيدة . وأخيراً خطا المسلمون بالطب خطوات واسعة فشخصوا كثيراً من الأمراض المستعصية ، واستغلوا معلوماتهم فى الكيمياء لإيجاد علاج لها ، كما ألفوا كثيرا من المراجع الجامعة فى وصف الأمراض وطرق علاجها وخصائص الأدوية [2] .

ولا يتسع هذا البحث للافاضة فى أهمية النتائج العلمية التى توصل إليها العرب فى الوقت الذى كانت أوربا تتخبط فى ظلمات الجهل . ولكن المهم هو أن هذه العلوم والنتائج التى توصل إليها المسلمون أخذت تنتقل إلى غرب أوربا قبل أن يبدأ نجم الحضارة الإسلامية فى الأفول [3] . أما المعابر الرئيسية التى انتقلت منها هذه الحضارة الإسلامية إلى الغرب الاوربى فكانت أسبانيا ثم صقلية ثم المشرق حسب ترتيب أهميتها [4] . وعلى الرغم من أن المسلمين كان لهم مركزان ثقافيان كبيران فى الغرب هما الأندلس وصقلية ، إلا أن الاتصالات الثقافية بين الغرب المسيحى من جهة والدراسات العربية من جهة أخرى ظلت محدودة حتى أواخر القرن الحادى عشر . ولعل من أسباب ذلك صعوبة تعلم اللغة العربية ، حتى ظهر فريق من الأوربيين أدركوا أهمية هذه الدراسات وأقبلوا على ترجمتها إلى اللاتينية فى حماسة ومثابرة [5] : وأول هؤلاء المترجمين الاوربيين كان قنسطنطين الإفريقى (Constantinus Africanus) ، وهو من مواليد قرطاجة ، رحل إلى الشرق حتى انتهى به المقام سنة ١٠٥٦ فى دير مونت كاسينو

---

1) Singer : From Magic to Science, p 90
2) Browne :Arabian Medicine, pp. 55—73
3) Cam. Med. Hist., vol. 8; p 667
4) Hearnshaw : Med. Contributions, p 123
5) Hearnshaw · Med. Contributions, p 123

حيث انتظم به راهباً إلى أن توفى سنة ١٠٨٧ وقد قام قسطنطين هذا بترجمة بعض المؤلفات العربية أهمها الكتاب الذى ألفه على بن العباس فى القرن العاشر فى الطب[1] ، هذا فضلا عن بعض التراجم العربية لكثير من المؤلفات اليونانية القديمة مما ترك أثراً عميقاً فى دراسة العلوم فى جنوب إيطاليا ، حتى أن مدرسة الطب فى سالرنو تدين بنشأتها إلى تراجم قنسطنطين الإفريقى . كذلك ظهر فى دير ريشنو Reichenau — وهو أحد الأديرة البندكتية فى سويسرا — راهب اسمه هرمان الكسيح (Hermann the Cripple) (١٠١٣ — ١٠٥٤) ، كتب أبحاثاً هامة فى الرياضيات والفلك استعان بها خلفاؤه فى القرن التالى . وإذا كانت معرفة هرمان هذا باللغة العربية موضع شك كبير — ولاسيما أن عاهته حالت دون سفره إلى أسبانيا أو غيرها من مواطن الدراسات العربية — إلا أن كتاباته تعبر عن كثير من التيارات والمؤثرات العربية ، مما يرجح وصول هذه المؤثرات إليه عن طريق رجال العلم المتنقلين فى ذلك العصر [2] .

ثم كان أن اشتد تيار حركة الترجمة عن العربية فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر . ففى صقلية وجنوب إيطاليا ترجم ايوجنيوس البالرمى (Eugenius of Palermo) كتاب المرئيات لبطليموس السكندرى عن العربية سنة ١١٥٠ وأعقب ذلك ترجمة مؤلفات أخرى لبطليموس السكندرى وبخاصة فى الفلك والرياضيات عن العربية . واشتهر من المترجمين الصقليين عندئذ فرج بن سالم اليهودى (ت ١٢٨٥) [3] .

على أن أسبانيا كانت الملتقى الطبيعى للغتين العربية واللاتينية ، بعد أن ازدهرت فيها الحضارة الإسلامية وازدحمت مدنها بالمؤلفات العربية فى العلوم والفلسفة وغيرهما. ثم كان أن ساعد سقوط طليطلة فى أيدى المسيحيين سنة ١٠٨٥ على اتجاه كثير من طلاب المعرفة إليها للتزود من الدراسات العربية الإسلامية ،

---

1) Rashdall : op cit., vol. 1, p 81

2) Hearnshow : Med. Contributions, p. 120

3) Singer : op. cit. p. 81.

سواء كانت خالصة أو مترجمة عن اليونانية ، حتى أصبحت طليطلة بالذات المركز الرئيسى لحركة الترجمة عن العربية [1] . ومن هؤلاء الذين قصدوا أسبانيا فى ذلك العصر للوقوف على المعارف العربية وترجمتها إلى اللاتينية أديلارد الباثى وهرمان وجيرارد الكريمونى وروبرت الشسترى وغيرهم [2] . هذا فضلا عن اليهود والمستعربين الأسبان الذين عكفوا على ترجمه المؤلفات العربية مثل دومونيقوس جونديسالفى Domisicus Gondisalvi وبطرس ألفونسى Petrus Alfonsi وحنا الأشبيلى John of Seville وغيرهم. وإلى ريموند رئيس أساقفة طليطلة يرجع الفضل فى انتعاش حركة الترجمة عن العربية ، إذا أنشأ مكتبا لترجمة أمهات الكتب التى زخرت بها طليطلة فى النصف الأول من القرن الثانى عشر [3] .

وقد ترتب على هذه الحركة ثورة علمية وفكرية شاملة فى غرب أوروبا . ذلك أن المعارف الجديدة التى نقلت من العربية إلى اللاتينية جعلت الأوربيين يفيقون من الظلمة والجهالة التى عاشوا فيها قرونا طويلة ويقبلون على الدراسات العلمية الجديدة فى شغف ونهم . ففى الحساب عرفت أوربا نظام الأعداد الهندى عن العرب، وهو النظام الذى تتغير فيه قيمة الرقم بتغير وضعه من خانة الآحاد إلى العشرات أو المئات . . . . وبذلك أخذت أوربا تنبذ نظام الأرقام الرومانية العقيم الذى وقف عقبة كئودا فى سبيل تقدم العمليات الحسابية [4] . وقد نسب الأوربيون هذا النظام العددى الجديد إلى الخوارزمى العالم الرياضى الشهير الذى ترجمت بعض أبحاثه إلى اللاتينية فى القرن الثانى عشر [5] . ويرجح أن البابا سلفستر الثانى (ت ١٠٠٣) — الذى قضى بعض السنوات فى شمال أسبانيا — كان من أوائل الأوربيين الذين نقلوا نظام الأعداد العربى إلى الغرب، هـــذا بالإضافة إلى ماقام به ذلك البابا من تشجيع ترجمة بعض المؤلفات العربية التى

---

1) Hearnshaw : Med. Contributions, p. 123

2) Singer : From Magic to Science, p. 80

3) Rashdall : op. cit.; vol. 1 p 353

4) Eyre : op. cit., p 298

5) Ball : op. cit. p 156

توضح وظيفة الاسطرلاب [1] أما الصفر فلم تعرف أوربا استعماله إلا عن طريق العرب فى القرن الثانى عشر ، حتى قال بعض الكتاب المحدثين أن فكرة الصفر تعتبر أعظم هدية قدمها المسلمون إلى غرب أوربا [2]. ونستطيع نحن أن ندرك أهمية الصفر فى علم الحساب إذا تصورنا كيف يكون الحساب بلا صفر. وفى سنة ١١٤٥ ترجم روبرت الشسترى كتاب الخوارزمى فى الجبر إلى اللاتينية ، وبذلك عرف الغرب الأوربى علما جديدا لأول مرة . أما فى الهندسة وحساب المثلثات فقد ترجم كثير من المؤلفات العربية إلى اللاتينية ، وبخاصة جداول حساب المثلثات التى وضعها الخوارزمى والتى ترجمها أدلارد الباثى [3] . وفى الفلك ترجم الأوربيون كتاب « الزيج الصابى » للبتانى عدة مرات إلى اللاتينية فازدادت معرفة الغربيين بهذا العلم . أما فى الطبيعة ، فقد ترجمت بعض مؤلفات الحسن بن الهيثم (ت ١٠٢٠) والخازن البصرى (ت ١٠٢٨) إلى اللاتينية ، وعن هذه المؤلفات استقى روبرت جروسقست Robert Grosseteste وروجر بيكون وغيرهما معلوماتهم . كذلك ترجم الأوربيون مؤلفات جابر بن حيان الكوفى فى الكيمياء ، كما ترجموا بعض مؤلفات الرازى وابن سينا فى الطب [4] .

الدور الثالث : ازدهار العلوم فى غرب أوربا :

ويبدو أن وصول هذه المعارف العلمية الجديدة إلى غرب أوربا أثار فزع الكنيسة التى خشيت أن ينشأ عن الاهتمام بها إضعاف شأن اللاهوت وإهماله [5] على أن الكنيسة كانت لاتستطيع منع تداول هذه المعلومات ودراستها . ومن ثم لجأت إلى التوفيق بينها وبين اللاهوت حتى لاينتهى الأمر إلى زعزعة الثقة فى تعاليم الكنيسة [6] . ومع أن العصور الوسطى لم تعرف خطاً فاصلا — كالذى

1) Hearnshaw : Med. Contributions, p 120

2) Eyr : op. cit., p 229

3) Ball : op. cit., p 165

4) Hearnshaw : Med. Contributions, p 127

5) Coulton : Life in the Middle Ages, vol. 2 pp. 52-62

6) Taylor : Med. Mind, vol. 2 ; pp. 432--436

نعرفه اليوم — بين ميدان الدين وميدان العلم ؛ إلا أننا يمكننا تقسيم المجتهدين في القرن الثالث عشر إلى فريق حصر اهتمامه الرئيسى فى اللاهوت والعقيدة وفريق آخر اتجه نحو العلوم [١] . وعلى رأس الفريق الأول كان اسكندر الهاليسى (Alexander of Hales) والقديس توما الأكوينى ، فى حين برز من الفريق الثانى روبرت جروستست أسقف لنكولن (ت ١٢٥٣) ، وميخائيل سكوت الذى تمتع برعاية الإمبراطور فردريك الثانى وألبرت الكبير (Albertus Magnus) (ت ١٢٨٠) ، وعلى رأس هؤلاء جميعا يأتى روجر بيكون (ت ١٢٩٤) [٢] وهنا تسترعى نظرنا ظاهرتان واضحتان ، الأولى أن معظم هؤلاء الأعلام من المهتمين بالعلوم الجديـــدة كانوا من الإنجليز - مثل أديلارد الباثى وروبرت الشسترى ودانيل المورلى (Daniel of Morley) وجروستست وروجر بيكون ، فى حين كان ميخائيل سكوت اسكتلنديا من أصل أيرلندى . أما الظاهرة الثانية فهى أن معظم هؤلاء الأعلام كانوا من منظمة الدومينيكان أو منظمة الفرانسسكان ، وإن كان الفارق واضحا بين هاتين المنظمتين الدينيتين . فبينما كان علماء الدومينيكان يغلب عليهم طابع المحافظة فى الناحية الفكرية ، والرغبة فى التوفيق بين العلوم القديمة والجديدة للمحافظة على كيان التقاليد والدين ؛ إذا بالفرانسسكان يغلب عليهم طابع التطرف والمغالاة ونقد القديم والثورة عليه [٣] .

على أن قصور عقلية العصور الوسطى فى مجال التفسير العلمى حال دون إدراك وحدة الطبيعة ، فالإنسان فى العصور الوسطى اعتقد أن كل شىء له قيمة وأهمية منفصلة عن قيمة أى شىء آخر وأهميته . وكان روجر بيكون هو الذى أدرك أكثر من غيره أن الظواهر الطبيعية جميعها مترافقة ومتآلفة ، وهو التآلف الذى يؤدى إلى وحدة الطبيعة ، فقال بأن الطبيعيات والكيمياء والفلك والرياضيات تؤدى إلى وظائف مختلفة لشىء واحد هو الطبيعة . هذا مع الاعتراف بأن بيكون آمن بكثير من الآراء والمعتقدات التى سادت عصره وأهمها أن الغرض الأساسى من

1) De Wulf : op. cit. pp. 256—259
2) Dampier : A Hist. of Science, p. 91
3) Thompson . op. cit. vol. 2, p. 735

الدراسات العلمية والفلسفية هو خدمة اللاهوت [1] . ويبدو أن بيكون استقى الإلهام الأول لأفكاره من جروستست الذى أخضع الطبيعيات والكيمياء والفزيولوجيا وغيرها لهندسة الكون. فجميع المظاهر الطبيعية فى نظر جروستست كان يمكن إرجاعها إلى خطوط وزوايا ومسطحات ، والدائرة هى الشكل التام لأن الضوء ينتشر على شكل دائرى [2] .

أما النتائج التى توصل إليها بيكون ـ رائد البحث العلمى بمعناه الحديث فيمكن تلخيصها فيما يلى : اولا أنه حاول وضع نظام للمعرفة الطبيعية يفوق المستوى الذى كان قائماً فى عصره ويعتمد قبل كل شىء على المشاهدة والتجربة؛ وثانيا أنه أدرك أهمية معرفة اللغات الأجنبية والقديمة فحاول أن يتعلم اليونانية والعبرية على أسس علمية وكذلك العربية . وثالثاً : أنه طبق أسلوبه التجريبى فى الوصول إلى نتائج هامة فى البصريات والعدسات والفلك والجغرافية والرياضيات وغيرها [3] . وهكذا استطاع بيكون أن يتنبأ بإمكان الوصول إلى اختراع سفن تسير بآلات دون حاجة إلى مجداف أو شرع ، وطائرات يحرك الإنسان أجنحتها كما يفعل الطير ، ومفرقعات ملتهبة تبيد الجيوش ، وروافع ضخمة لرفع الأثقال ، وعقاقير سامة تبيد الحشرات والهوام ، ومصابيح تضىء دون أن ينفذ وقودها .. إلى غير ذلك من الاختراعات التى توصل إليها الإنسان فعلا فيما بعد والتى تثبت أن بيكون رسم للعالم الحديث الطريق الذى سار فيه [4] .

ومن هذا يبدو أن علماء الغرب فى العصور الوسطى لم ينقصهم النشاط الفكرى وإنما أعوزهم التنظيم العلمى. فعلماء العصور الوسطى كانوا أقل جهلا مما نتصور ، فلم يوجد منهم من اعتقد أن الأرض مسطحة، كما عرفوا سبب خسوف الشمس، فى حين قضى أحدهم ـ وهو أديلارد الباثى ـ عامين فى دراسة ظاهرة المد

---

1) Dampier ; op. cit. p 100
2) Thorndike ; Hist. of Magic ; vol. 2; pp. 436—456
3) Hearnshaw ; Med. Contributions, pp. 142—143
4) Thorndike ; op. cit. vol. 2, pp. 654—655

والجزر وتوصل إلى نظرية معقولة لهذه الظاهرة ، كما قال بمبدأ خلود المادة وعدم فنائها ، وإن لم يستطع إثبات هذا المبدأ لعدم توافر المعامل والأجهزة أمامه [١] أما نظريات البصريات والعدسات فقد استقاها علماء الغرب من العرب ، فأفاض روجر بيكون فى وصف العدسات وأهميتها فى تكبير الكتابة ورؤية مالا يمكن رؤيته بالعين المجردة . هذا فى حين قضى دونس سكوت Duns Scotus شتاء فى باريس فى حساب الاعتدالين مستعيناً بالرياضيات العربية واليونانية [٢] .

ومعنى ذلك أن العالم الحديث يدين للعصور الوسطى بكثير من قواعد التقدم العلمى . فالقرن الثالث عشر كان لا يقل عن عصر النهضة الإيطالية فى سرعة التقدم العلمى . وقد بلغت المعرفة فى القرن الثالث عشر درجة من الغزارة والتنوع واجتذاب اهتمام الناس ، بحيث أصبح من المتعذر الاكتفاء بمؤلفات بلينى وايسيدور . وهنا ظهرت مجموعة من مؤلفى الموسوعات العلمية الضخمة مثل اسكندر نكام Alexander Meckham (١١٥٧ — ١٢١٧) الذى كتب فى « طبيعة الأشياء » [٣] ، وبارتلميو انجليكوس Bartholomew Anglicus الذى ألف فى « خصائص الأشياء » . وفيما عدا هذين الانجليزيين ظهر فنسان الفرنسى Vincent de Beauvais (ت ١٢٦٤) الذى كتب ثلاثة مؤلفات هى « مرآة الطبيعة » و « مرآة العقيدة » و « مرآة التاريخ [٤] » .

ولا يفوتنا فى ختام هذا العرض السريع للتطور العلمى فى العصور الوسطى أن نشير إلى الإمبراطور فردريك الثانى (١١٩٤ - ١٢٥٠) الذى كان أكبر راع للعلم والعلماء فى عصره . [٥] وليس هذا مجال الكلام عن شخصية فردريك الغريبة ذات الجوانب المتعددة ، وإنما نكتفى بالإشارة إلى أنه أولع بالبحث عن كل أمر غريب الوقوف على حقيقته ، كما شغف بمختلف الدراسات اللغوية والفلسفية والرياضية والعلمية . . . (٦) وقد انتهز فردريك فرصة حضوره إلى

1) Thompson : op. cit. vol. 2, p 786
2) Ibid.
3) Gilson ; op. cit. pp. 326—327
4) Idem, 402
5) Kantorowicz ; Frederick the Second, pp. 334—336
6) Haskins ; Studies in Med. Culture. p. 124

الشرق المشاركة فى النشاط الصليبي وأخذ يبحث فى المسائل المتعلقة بالهندسة والفلك والمنطق والبصريات. أما اهتمامه بالطب ووظائف الأعضاء فكان عظيما. وقد حظى برعاية الإمبراطور فردريك الثانى عدد كبير من العلماء أشهرهم ميخائيل سكوت الذى دخل بلاط الإمبراطور حوالى سنة ١٢٢٧ وكتب له عدة أبحاث فى العلوم الطبيعية والمنطق والفلك والميتافيزيقا والكيمياء (١) . كذلك اتصل ليوناردو البيزى ـ أشهر علماء الرياضة فى عصره ـ ببلاط الإمبراطور فردريك وحل عدة مشاكل رياضية فى حضرة الإمبراطور ، كما ألف له بعض المصنفات الرياضيه (٢) . وقد اعتاد فردريك الثانى أن ينعم بجوائز سخية على كل عالم يقدم إليه شيئاً جديداً يسترعى انتباهه فى ميدان العلم ، مما جعل منه أكبر راع للدراسات العلمية فى عصره (٣) .

* * *

وهكذا شهدت العصور الوسطى نشاطاً علمياً غزيراً استمر منذ ظهور المسيحية حتى القرن السادس عشر . والواقع أنه يمكن اختيار سنة ١٤٥٣ لتكون حداً فاصلا بين النشاط العلمى فى العصور الوسطى والحديثة ، إذ ظهر فى تلك السنة بحثان علميان قاما على أساس الطريقة العلمية التجريبية بحيث يبدوان أقرب إلى طريقة التفكير الحديثة منهما إلى طريقة العصور الوسطى. أما البحث الأول فقد كتبه رجل بلجيكى اسمه أندرياس فساليوس Andreas Vesalius ويتناول البحث فى تركيب الجسد الإنسانى وبنائه (De Fabrica Corporis Humani) ؛ فى حين كتب البحث الثانى رجل بولندى اسمه نيقولا كوبرنيقوس (Nicholas Copernicus) ويتناول فيه حركة الأجرام السماوية ودورانها ؛ (De revolulionilus orbium Coelestium) (٤) .

1) Thorndike ; op. cit. vol., 2, pp. 316—317
2) Ktantorowicz ; Fredrick the Second, pp. 341—342
3) Thompson ; op. cit. vol. 2, pp. 787—790
4) Hearnshaw ; Med. Contributions, pp. 111—112

الباب التاسع

الآداب

التطور الأدبي واللغوي في فجر العصور الوسطى :

لم تقتصر مظاهر ضعف الإمبراطورية الرومانية وانحلالها على ما أصابها من تدهور إدارى واقتصادى واجتماعى ، وإنما انعكست صورة هذا الانحلال أيضاً فى انحطاط اللغة اللاتينية وغروب شمس الأدب الكلاسيكى القديم(١) . على أنه ربما كان فى إطلاق لفظ «انحطاط» على التغيير الذى اعترى اللغة والأدب عند نهاية الصورة القديمة شيء من التطرف أو البعد عن الواقع ، إذا نظرنا إلى هذه التغييرات على أنها جانب من التطور العام الذى مرت به أوربا لتتلائم اتجاهات العصور الوسطى وحضارتها . فهذه التغييرات إذا يمكن اعتبارها تعويضاً عن الخسائر التى ألمت بالحضارة القديمة ، أو بعبارة أخرى يمكن اعتبارها محاولة لإحلال شيء جديد محل آخر قديم مفقود (٢) .

والواقع أن اللغة اللاتينية تعرضت لتغييرات ضخمة فى مدى القرنين ونصف القرن الواقعة بين تاكيتوس (٥٥ — ١٢٠) وأوغسطين (٣٥٤ - ٤٣٠) . ذلك أن انتشار المسيحية فى الغرب خلال تلك الفترة لم ينشأ عنه إدخال ألفاظ جديدة من أصل يونانى فحسب ، بل أدى أيضاً إلى استحداث كلمات جديدة وابتكار تعبيرات لم تكن معروفة من قبل لتلائم الآراء والمعتقدات والطقوس الدينية التى أتت بها المسيحية . وقد نجم عن هذا التطور تغيير عظيم أصاب اللغة اللاتينية نتيجة لتطرق كثير من الألفاظ العامية والدارجة إلى اللغة الفصحى من جهة ولاستحداث كثير من التعبيرات والكلمات الجديدة من جهة أخرى (٣) . ويبدو هذا الفارق واضحاً عند المقارنة بين اللغة اللاتينية الفصحى كما كتبها شيشرون ، واللغة اللاتينية الجديدة أو الدارجة التى استخدمها كتاب

---

1) Poole ; Med. Thought, p. 6
2) Taylor ; The Med. Mind, pp. 10-12
3) Foligno ; Latin Thought, p 22

العصر المسيحى منذ ترتوليان ، حوالى سنة ٢٠٠م فصاعدا » . وهكذا انتهى عصر البلاغة والبيان الذى امتاز فيه الأسلوب اللاتينى باختيار اللفظ وانسجام العبارة واتزان الجملة ، وحل عصر جديد انسابت فيه الكلمات وفقا لانسياب الأفكار دون عناية باختيار اللفظ أو العمل على تحقيق نوع من الانسجام بين مختلف العبارات [١] . من ذلك أن الفعل لم يعد يأت فى نهاية الجملة ليختتمها ـ كما هو الحال فى اللاتينية الكلاسيكية ، وإنما صار يأتى حيثما شاء له الفكر دون مراعاة لأصول الأسلوب . كذلك استخدمت كثرة من الألفاظ للتعبير عن معان لم يستعملها فيها مطلقاً كتاب العصر الكلاسيكى ، بل كان من الصعب فهمها على هؤلاء الكتاب . أما قواعد النحو الكلاسيكية ، فلم تعد تحظى بعناية كتاب العصر المسيحى الجديد الذين أضروا بها وخرجوا عليها ، بحيث لم يكد يحل القرن الثالث إلا كان هناك نوع من اللاتينية العامية تشبه إلى حد كبير اللاتينية التى سادت غرب أوربا بعد ذلك بثلاثة قرون ـ إذا استثنينا الألفاظ الدخيلة التى أتت عن طريق الجرمان . وهذه اللاتينية العامية أو الدارجة [٢] هى التى أصبحت فيما بعد أما للغات الرومانية فى أوربا ، وهى اللغات المشتقة عن أصل رومانى لاتينى كالفرنسية والإيطالية والأسبانية والبرتغالية. هذا وإن كانت اللغة الجرمانية التى احتفظت بسيطرتها على الجهات الشمالية من أوربا ـ قد أسهمت هى الأخرى بألفاظ عديدة فى اللغات الرومانسية ، وذلك عن طريق احتلال الفرنجة لغاليا والقوط الغربيين لأسبانيا واللمبارديين لإيطاليا [٣] .

وثمة مظهر آخر من مظاهر التأخر الذى أصاب أوربا فى ذلك العصر يتمثل فى تدهور مستوى الخط والكتابة فى المخطوطات أو الوثائق الحكومية المعاصرة . ففى العصور القديمة كانت الكتب تدون على مجاميع من أوراق البردى أطلق عليها اسم volumina ، ولكنها منذ القرن الأول الميلادى أصبحت تدون على صفحات من الرقائق الجلدية مقطوعة على هيئة مربعات قائمة الزوايا وأطلق

1) Thompson ; op. cit. vol. 2, p 794

(٢) عرفت هذه اللاتينية عادة باسم Lingua vulrgaris أو Lingua rustica أو Lingua plebeia، وكلها مترادفات بمعنى اللغة العامية أو الدارجة أو الشعبية.

3) Taylor ; op. cit. vol. 2, pp. 2 0—252

عليها الجاميع أو الكتب المربعة Codices Quadrati . ومعظم المخطوطات التى ترجع إلى العصر الميروفنجى أو القوطى من هذا النوع . أما الخط فكان على ثلاثة أنواع هى الحروف الكبيرة majuscule؛ والحروف البوصية « uncial » والحروف الصغيرة minuscule ولم يلبث أن أدى انتشار الجهل إلى فساد الخط وتعذر قراءته ، فوقع الكتاب فى أخطاء عديدة ، مما أفسد الكتابة إفساداً يبدو بوضوح فى الترجمة اللاتينية للأناجيل فى ذلك العصر[1] .

أما دعائم هذا الأدب اللاتينى الجديد فقد أرسى قواعدها فى ميدان النثر القديس جيروم فى ترجمته اللاتينية للأناجيل Vulgate والقديس أوغسطين فى كتاباته اللاهوتية ، لاسيما « مدينة الله » و « الاعترافات »[2] . ذلك أن ترجمة الأناجيل اللاتينية لم تؤثر شكليا فى أدب العصور الوسطى لعدة قرون فحسب ، بل أثرت أيضاً فى تفكير تلك العصور . ويكفى للتدليل على ذلك أن اللاهوت وعلم الكنسيات ecclesiology والقوانين والتشريعات ، والتاريخ ، تأثرت كلها إلى حد واضح بترجمة الأناجيل اللاتينية . فبعض النظم الكنسية — مثل ضريبة العشور — مأخوذة عن الكتاب المقدس . كما أن الملكيات البربرية التى قامت فى أوربا العصور الوسطى أخذت بمبادىء الحكومة الثيوقراطية التى وردت عنها أكثر من إشارة فى العهد القديم بوجه خاص (٣) . أما القديس أوغسطين فقد وضع فى كتابه « مدينة الله » فلسفة سياسية لأوربا العصور الوسطى ظلت قائمة حتى القرن الثالث عشر[4] . وتدور هذه الفلسفة حول محور واحد هو أن الكنيسة من عمل الله وأن لها وظيفة مقدسة تبرر سيادتها على السلطة الزمنية ، فى حين أن الدولة من عمل الإنسان ، ولذلك فهى تتصف بالنقص والشر ولابد من خضوعها لنفوذ الكنيسة . وتختلف « الاعترافات » فى طابعها عن « مدينة

1) Thompson ; vol. 2, 794—795

2) Taylor ; The Med. Mind, vol. 2, p. 180

(٣) «لأنه يولد لنا ولد ويعطى ابنا وتكون الرياسة على كتفه، ويدعى إسمه عجيباً مشيراً إلها قديراً أباً أبدياً رئيس السلام » .

« سفر أشعياء الإصحاح التاسع ، ٦ »

4) Gilson ; op. cit., p 127

الله ، لأنها عبارة عن ترجمة شخصية روحية تفيض بالوجد والتقوى فى قالب فلسفى يتسم بطابع الأفلاطونية الحديثة [1] .

وفى هذا الأدب الجديد امتزجت الوثنية بالمسيحية ، والدين بالدنيا ، والقديم بالجديد ، مما كان له أبعد الأثر فى النواحى الحضارية والتاريخية . ولم يكد يحل القرن الرابع إلا كان هذا الاتجاه الأدبى الجديد قد شق طريقه حتى تم له الانتصار فى القرن السادس عندما ظهر بوضوح فى ميدان النثر والشعر [2] .

أما الشعر المسيحى فقد أصبح يعتمد على أوزان إيقاعية ، وتخلى عن المقاييس الكلاسيكية المعروفة ، الأمر الذى جعل الترانيم والأناشيد الكنسية تمتاز بنوع من الوقع الموسيقى ساعد على انتشارها وبالتالى على انتشار المسيحية بين البدائية [3] . وكان أول من برز من شعراء المسيحية هو الشاعر كومودیان Commodian الذى عاش قرب منتصف القرن الثالث ، ثم ظهرت بعد ذلك ترانيم القديس امبروز والأشعار الدينية التى نظمها برودنتيوس : وقد امتاز شعر برودنتيوس هذا ـ وهو شاعر أسبانى « ٣٤٨-٤٠٥ » بروحه العالمية التى تهز المشاعر وتبعث على الأمل وتحث على التواضع (٤) . على أن أبدع شعراء المسيحية الأوائل كان القديس بولينوس النولاوى St. Paulinus of Nola « ٣٥٣ - ٤٣١ » وهو مواطن من غاليا قضى حياته قسيساً متواضعاً فى كنيسة سانت فيلكس بنولا فى جنوب إيطاليا . وقد ظهرت فى أشعاره تلك القوة التى قضت من عضد الحكام المضطهدين المسيحية وأتباعها ، وبثت روحاً قوية فى المسيحية وأنصارها (٥).

ولم تكن جميع الأشعار التى نظمها الشعراء المسيحيون دينية فى موضوعها

---

1) Eyre ; op. cit. p 806
2) Thompson ; op ; cit. vol, 2, 796
3) Taylor ; op. cit. vol. 2, pp. 216-217
4) Waddell : Med. Latin Lyrics, p. 297
5) Idem ; pp. 291-296.

إذ وجد عدد كبير من شعراء القرنين الخامس والسادس كانوا مسيحيين بحكم المولد ، ولكنهم ظلوا وثنيين فى تفكيرهم وتقاليدهم . ومن الغريب أن هذا النوع من الشعراء كانوا جميعهم من غاليا التى ظلت تحتفظ بقسط قوى واضح من التقاليد الكلاسيكية ، على الرغم من خضوعها لسيطرة الفرنجة والقوط الغربيين والبرجنديين (١) . ومن أمثلة هذا النوع من الشعراء أوزونيوس Ausonius فى القرن الرابع « ٣١٠ - ٣٩٥ » الذى امتازت جميع أشعاره بمذاق كلاسيكى وثنى (٢) وفى القرن الخامس ظهر سيدنيوس أبوليناريس Sodonius Apollinairis الذى عرف بصدق إيمانه حتى تولى منصب أسقف كليرمونت . وعلى الرغم من ذلك فقد اعتاد أن يكتب فى أوقات فراغه رسائل جميلة لأصدقائه تفيض بالاتجاهات الكلاسيكية ، كما خلف مجموعة من الأشعار تعبر عن التقاليد الكلاسيكية والوثنية وإن امتازت بروحها المسيحية الصادقة . ومثل هذا القول ينطبق أيضاً على فورتناتوس Fortunatus « ٥٣٠ - ٦٠٣ » ، وهو شاعر من شعراء العصر الميروفنجى قضى حياته فى غاليا يعمل فى بلاط بعض ملوك الفرنجة (٣) .

أما عن النثر فى تلك الحقبة ، فقد ظهرت مجموعة من الكتاب الذين عالجوا التاريخ والفلسفة والسياسة وغيرها . وأبرز هؤلاء الكتاب سلبكيوس سفروس Sulpicius Severus الذى كان قانونياً غلبت عليه روح الرهبانية : فكتب زلفاً عن حياة القديس مارتن التورى — الذى عرفه شخصياً — وكان لهذا الكتاب أثر كبير فى انتشار الديرية بالغرب ، فضلا عما امتاز به من أسلوب لاتينى صحيح (٤) . أما جريجورى التورى Gregory of Tours فامتازت كتابته بعدم وجود أى أثر فيها للتقاليد الكلاسيكية والوثنية ؛ فهو يمثل العصور الوسطى تمثيلا صادقاً فى اللغة والروح . وقد كتب كتاباً عن « تاريخ ملوك الفرنجة » يعتبر مصدرنا

1) Paris : Litterature Francaise, pp. 22-26
2) Waddell : op. cit. p. 291
3) Idem, p. 300
4) Thompson : op. cit., vol. 2, p. 798

الأساسى عن تاريخ غاليا فى ذلك العصر ، ويمتاز بأسلوبه اللاتينى الدارج وملاحظاته الطريفة ومعلوماته النافعة[١] .

وعلى العكس من غاليا ، أفتقرت إيطاليا فى القرن الخامس إلى كتاب ملحوظين ، سواء أكانوا مسيحيين أو وثنيين . وربما كان عدم الاستقرار الذى ساد إيطاليا فى ذلك القرن مسئولا عن انهيار الإنتاج الأدبى . أما فى القرن السادس — عندما أستقرت أوضاع البلاد تحت حكم الملك ثيودريك القوطى ـ فقد أخذ الوضع يتغير فى إيطاليا . وكان أكبر كتاب ذلك العصر الفيلسوف بيوثيوس (٤٧٠ - ٥٢٥) الذى يعتبر أبرز أدباء الغرب المسيحى بأكمله ، لا إيطاليا وحدها[٢] . ففيه أجتمعت أجمل خصائص التراث الكلاسيكى والتقاليد الوثنية مع مثالية المسيحية وفلسفتها الأفلاطونية . ذلك أنه تهيأت لبيوثيوس عدة صفات جعلت منه شخصية بارزة فى عصره ، إذ كان من رجال الدولة المبرزين ، كما أنه انحدر من أعرق البيوت الرومانية فى إيطاليا ، هذا زيادة على أنه آمن بالمسيحية إيماناً صادقاً عميقاً . وقد قدم إلى الفكر الغربى خدمة جليلة بترجمة منطق أرسطو إلى اللاتينية ، فضلا عن الأبحاث الخاصة التى كتبها فى الحساب والهندسة والموسيقى . على أن أعظم ماقدمه للفكر الغربى كان كتابه « سلوى الفلسفة » الذى كتبه وهو فى سجنه . ويشبه هذا الكتاب اعترافات القديس أوغسطين فى أن المؤلف ترجم لنفسه ترجمة روحية فى ضوء الفلسفة المسيحية[٣] .

أما كاسيدروس (Cassiodorus) وزير ثيودريك فكان كاتباً من طراز آخر . إذ ألقت رسائله التى كتبها ضوءاً ساطعاً على أحوال إيطاليا السياسية والحضارية فى عهد القوط الشرقيين[٤] . وقد ألف كاسيدورس كتاباً فى تاريخ القوط ، ولكنه فقد ولم يصلنا وكان من المحتمل أن يمدنا بمعلومات قيمة عن تاريخ إيطاليا فى القرن السادس ، مثل المعلومات التى أمدنا بها جريجورى التورى

1) Paris : op. cit. p. 27
2) Foligno : op. cit., p. 50
3) Brehier : op. cit. p.p. 10-13
4) Taylor : op. cit. vol. 1, p. 92-97

عن تاريخ ايطاليا فى العصر نفسه . وعلى الرغم من أن كاسيدورس لم يكتب شيئاً يمكن اعتباره أدبا خالصاً ، وأنه لم يكن فيلسوفا أو شاعراً ، إلا أن أثره فى ادب العصور الوسطى لا يمكن إغفاله ، لأنه حاول أن يثبت فائدة العلوم الدنيوية وأهميتها[1] . كما أنه قام بتأسيس دير فيفاريوم فى أواخر أيامه ومنح مكتبته الخاصة لذلك الدير ، فضلا عن مثابرته على البحث والكتابة؛ كما سن سنة طيبة للأديرة والديريين فى المحافظة على التراث الكلاسيكى وفى محاولة تأليف كتب جديدة .

والواقع أنه لم يصلنا من إيطاليا فى العصر القوطى إلا إنتاج مؤرخ واحد هو جوردين Jordanes — صاحب كتاب « تاريخ القوط » . وأهمية هذا المؤلف هو أنه أول كاتب من البرابرة يصلنا إنتاجه . ولذلك امتاز أسلوبه اللاتينى بالخشونة والضعف ؛ ولكنه - لأول مرة - يدخل الأساطير والقصص الخرافية الجرمانية فى الأدب الغربى .

أما أسبانيا فقد أنجبت إلى جانب الشاعر برودنت كاتبا مبرزاً — هو أرزيوس Orosius - الذى كان تلميذاً للقديس أوغسطين والذى وضع مؤلفاً عنوانه « سبع رسائل تاريخية للرد على الوثنيين » . وقد حاول فى هذا المؤلف أن يدلل بأمثلة من التاريخ على أن متاعب الإنسانية وسقوط الإمبراطوريات ليس شيئاً جديداً ، وأنه من التعسف أن ينسب المعاصرون المصائب التى حلت بأوربا حينئذ إلى المسيحيين ودياناتهم . وعلى الرغم من أن هذا الكتاب لا يعتبر تاريخاً حقيقياً إلا فى الجزء الأخير منه فقط ، الذى ينتهى بحوادث سنة ٤١٧ ، والذى تنحصر أهميته التاريخية فى علاج الأحداث المعاصرة ، إلا أنه حصل على شهرة واسعة فى العصور الوسطى . وفى الوقت الذى بلغت قوة القوط الغربيين ذروتها

---

1) Poole : Mep Thought. p. 6

فى أسبانيا ، ظهر إيسيدور أسقف أشبيلية (ت ٦٣٦) الذى امتاز بأسلوبه الخصب البارع[1] .

على أن معين الغرب أخذ ينضب فى الفترة الواقعة بين القرنين الرابع والسادس ، بحيث لم يبق من التراث الكلاسيكى إلا بصيص خافت من النور عند نهاية القرن السادس ، كما أعترف بذلك جريجورى التورى نفسه . وفى الوقت الذى كان جريجورى التورى يكتب تاريخه فى غاليا (٥٣٨ — ٥٩٤) ، أخذ البابا جريجورى الأول أو العظيم (٥٩٠ — ٦٠٤) يوجه كل جهوده وإمكانيات منصبه نحو الوعظ والإرشاد وحياة القديسين والأبحاث اللاهوتية ، صارفا بصره ـ وأبصار من حوله ـ عن الكلاسيكيات[2] . ذلك أن هذا البابا كان معادياً للتراث الكلاسيكى الذى أوشك أن يزول فى ذلك الوقت لولا جهود الرهبان الإيرلنديين فى حفظ هذا التراث[3] . وقد بدأ غروب الأدب الكلاسيكى سنة ٥٢٩ على وجه التحديد ، وهى السنة التى أغلق فيها جستنيان مدارس آثينا الفلسفية القديمة ، كما أسس فيها القديس بندكت ديره المعروف فى مونت كاسينو[4] . ومنذ ذلك الوقت أخذ نجم الدراسات الكلاسيكية فى الأفول سريعاً من غرب أوربا .

ولكن شاء حسن حظ الحضارة الأوربية أن يحظى الأدب اللاتينى الكلاسيكى فى ذلك العصر ببعض المريدين والأنصار على الرغم من روح العداء التى أحاطت به من كل جانب . ذلك أنه لا يوجد شك فى أن الكنيسة ودت حينئذ لو انهار بناء الأدب الكلاسيكى بأكمله لأنه وثنى الأصل ؛ بل وجد فعلا من زعماء الكنيسة — مثل جريجورى العظيم — من كان يرجو أن تمكنه الظروف من تحقيق ذلك . ولكن إعجاب المعاصرين بسحر الأدب الكلاسيكى سمو مستواه ، ساعد على حفظ ذلك التراث من الضياع[5] . هذا إلى أن الطبقة

1) Cam. Med. Hist.; vol. 3, p. 501
2) Vasiliev : op. cit., Tome 1, p. 198
3) Thompson : op. cit. vol. 8, p. 600
4) Hall : Introduction to the Study of Classical Texts. pp. 68-71
5) Cam. Med. Hist. vol. ٤: pp. 501-506

المثقفة فى المجتمع الأوربى رغبت فى حماية التراث الرومانى القومى من جهل البرابرة الذين تدفقوا على غرب أوربا وهددوا حضارته بالضياع فى القرنين الخامس والسادس . ويبدو أن هذه الرغبة فى إنقاذ ما يمكن إنقاذه من تراث الماضى حركت مشاعر المثقفين من المسيحيين والوثنيين على حد سواء ، حتى استطاع رجال كاسيدورس وإيسيدور أن يعقدوا اتفاقية ضمنية بين الكنيسة والآداب الدنيوية[1] .

وفى الوقت الذى أصيب الأدب اللاتينى بفتور فى القرن السابع وأوائل الثامن ظهرت نهضة عظيمة فى أيرلند تزعمتها الكنيسة والأديرة الايرلندية ، وقدر لها أن تحفظ الكثير من مظاهر التراث الأدبى الكلاسيكى من الضياع[2] . وهكذا استطاعت أيرلند أن تحمل مصباح المعرفة فى ذلك العصر المظلم الذى انتشرت فيه الفوضى ومظاهر عدم الاستقرار فى بلاد غرب أوربا[3] . وسرعان ما أدى حب الأيرلنديين للهجرة إلى انتشار نهضتهم وذيوعها فى البلاد المجاورة ، لاسيما بعد أن أسسوا أديرة شهيرة فى صلب القارة ظلت محور النشاط الفكرى عدة قرون . وقد بلغت هذه الحركة ذروتها فى القرن الثامن على عصر بدى (٦٧٥ - ٧٣٥) وهو الأديب الفذ الذى يمثل عصراً أكتملت فيه صورة الأدب اللاتينى فى العصور الوسطى[4] . ولم تمض أيام على وفاة بدى حتى ولد ألكوين (٧٣٥ - ٨٠٤) الذى يعتبر حلقة الوصل بين النشاط الفكرى فى أيرلند وبريطانيا من ناحية وغاليا وبقية الغرب من ناحية أخرى ؛ والذى كان أبرز أعلام النهضة الكبيرة التى تعهدها شارلمان بالرعاية فى أواخر القرن الثامن .

النهضة الكارولنجية :

والواقع أن الفضل يرجع إلى النهضة الكارولنجية فى إنقاذ الأدب اللاتينى من الهوة السحيقة التى تردى فيها فى القرن السابع ، كما أنها منحته قوة دافعة ظهر

---

1) Poole : op. cit., p. 8
2) Eyre : op. cit. vol. 2, p. 368
3) Thompson. op. cit vol. 2, p. 801
4) Waddell : The Wandering scholars, p. 39

أثرها بعد ذلك في النهضة الاوتية أو السكسونية في ألمانيا وفي المدارس الديرية العظمى التي ازدهرت في القرنين التاسع والعاشر . وهنا نسجل أن الانحلال السياسي الذي تعرض له غرب أوربا في القرن التاسع لم يصحبه - لحسن الحظ - تدهور في الدراسات الأدبية ، الأمر الذي جعل القرنين التاسع والعاشر يحتفظان بمستوى ثقافي لائق في الدراسات الأدبية كالتاريخ والشعر [١] .

وقد جمع شارلمان حوله - في بلاطه بمدينة آخن (اكس لاشابل) - أبرز علماء عصره الذين اجتذبهم من بلاد أوربا مثل ألكوين من إنجلترا وبولس اللمباردي وبطرس البيزي وثيودلف الأورلياني ورابان مور مقدم دير فولدا ؛ هذا فضلا عن سكرتيره اينهارت ومساعده إنجلبرت [٢] . وامتازت النهضة الكارولنجية باتساع أفقها وصبغتها التعليمية ، وتغلب الطابع الديني عليها ، واحتل التاريخ والتدوين التاريخي ركناً هاماً من هذه النهضة ، فكتب بولس اللمباردي « تاريخ اللمبارديين » ، كما كتب اينهارت « تاريخ حياة شارلمان » ويعتبر الأخير من أهم كتب التراجم في العصور الوسطى على الرغم من تقيد المؤلف بمنهج المؤرخ الروماني سيتونيوس Suetonius (٦٩ - ١٤١) في تراجمه لأباطرة الرومان [٣] . وقد أصبحت هذه الترجمة التي وضعها إينهارت لحياة شارلمان مثلا يحتذى في الكتابات التاريخية المعاصرة ، حتى أن ثلاثة من الكتاب قاموا بوضع تراجم لحياة لويس التقي ، ابن شارلمان وخليفته [٤] .

وهناك جانب آخر من الكتابات التاريخية هو الحوليات التي مهدت في العصر الكارولنجي لمولد نوع جديد من التدوين التاريخي ، قدر له أن يظل قائماً حتى نهاية العصور الوسطى . ذلك أن هذه الحوليات لم تكن مجرد وقائع وصفية ، وإنما كانت — كما يبدو من اسمها (annals) - سرداً لأهم أحداث السنوات المتعاقبة ، كل سنة على حدة . وقد نشأ هذا النوع من التدوين التاريخي لأول

---

1) Cam. Med. Hist. vol. 3, p. 517
2) Lavisse : op. cit. Tome 2, Livre 1, p. 347
3) Thompson : op. cit. vol. 2, p. 802
4) Taylor : op. cit. vol. 1, pp. 294-295.

مرة فى الغرب فى نور ثمبرلاند بانجلترا حيث جرت العادة فى الأديرة بتدوين الحوادث الكبيرة أولا فأولا . ومن المحتمل أن يكون ألكوين هو الذى نقل هذا الأسلوب إلى غاليا ، حيث آمن شارلمان بأهميته فأمر الأديرة باتباعه فى تدوين حوادثها[١] . وكانت هذه الحوليات صغيرة ، قليلة الأهمية فى الأديرة الصغيرة إذ أنها لم تتعدد ذكر الأحداث المحلية ؛ ولكنها صارت فى الأديرة الكبيرة — مثل دير لورخ lorsch ودير سانت برتن St. Bértin — على جانب كبير من الأهمية وغزارة المادة التاريخية . وإلى جانب هذه الحوليات الديرية ، وجد نوع آخر عرف باسم الحيوليات الملكية (Annales Royales) التى دونت تحت إشراف رجال البلاط ، وتناولت تاريخ الكارولنجيين منذ تقسيم شارل مارتل لملكته بين أبنائه . كذلك لم تهمل الكتابات التاريخية فى عصر الكارولنجى سير القديسين ؛ هذا زيادة على الكتب التاريخية المتعددة التى تناولت أخبار الحروب والحوادث مثل كتاب « تاريخ الحروب لية » لمؤلفه نيثارد Nithard فى القرن التاسع[٢] .

وإذا كان الشعر قد فاق النثر فى العصر الكارولنجى فإن هذا التفوق لم يكن فى الجودة بقدر ما كان فى الكثرة ، لأن الاتجاه الـ غلب استعمال الشعر فى مختلف شئون الحياة ، حتى أن معظم الأدباء المعاصرين - مثل بولس وألكوين وانجلبرت وثيودلف - قرضوا الشعر . كذلك خلف لنا ذلك العصر نحو سبعين أو ثمانين قطعة شعرية من أغانى المآثر — Chansons de Geste - التى تناول بعضها أعمال شارلمان أو أحداثا هامة تمت فى عهده[٣]. على أن الطابع الغالب على الشعر الكارولنجى كان دينياً لأن معظم ناظميه كانوا من رجال الكنيسة . زيادة على أن شعراء ذلك العصر استلهموا أشعارهم من شعراء المسيحية مثل برودنتوس وفورتناتوس[٤] . وكان أبرز شاعرين فى العصر الكارولنجى

---

1) Thompson : op. cit, vol. 2, p. 802
2) Caylor: op. cit, vol. 1, pp. 234-235.
3) Cam. Med. Hist. vol. 6, pp. 816-824
4) Paris : op. cit, pp. 48-50.

على الاطلاق — سواء فى الشعر الدينى أو الدنيوى — هما والفرد سترابو Walafrid Strabo (٨٠٩ - ٨٤٩) أحد رهبان دير ريخنو ؛ وسدوليوس سكوت Sedulius Scotus (٨٤٨ - ٨٧٤) ، وهو راهب أيرلندى استقر فى لييج . وقد كتب الأول فى شعر الحكمة والشعر الغنائى ورسائل دينية منظومة ، كما خلف قطعة رائعة عنوانها « وصف الحديقة hortulus » وصف فيها حديقة دير ريخنو [1] . أما الثانى فقد ألف باقة من الأغانى الجميلة (Carmina) امتاز بعضها بدقة النظم — مثل « الحوار بين الوردة والزنبقة » — والبعض الآخر من أغانى الشراب التى تجلت فيها شخصية ذلك الراهب الأيرلندى المرحة على أن أهم ما قام به سدوليوس سكوت ، كان ترجمة بعض أجزاء من الإنجيل فى قالب شعرى ؛ ومازالت بعض هذه الأشعار الدينية تستخدم فى ترانيم الكنيسة حتى اليوم [2] . ومهما كان الأمر فإنه يؤخذ على شعر العصر الكارولنجى بعده عن الحياة العامة ، وضعف الصلة التى تربطه بالحياة الشعبية ، هذا بالرغم من وفرة هذا الشعر وغزارته [3] .

ولعل خير ما يصور لنا مدى العناية بالأدب الكلاسيكى فى القرن التاسع هو أن عدد ما وصل إلينا من المخطوطات الكلاسيكية — التى يرجع أصلها إلى العصور القديمة والتى أعيد نسخها فى القـــرن التاسع — بلغ سبعا وثلاثين وثلثمائة — مخطوط ، فى حين أنه لم يصل إلينا من هذا النوع من مخطوطات القرن العاشر سوى مائة وخمسة عشر مخطوطاً ، ومن القرن الحادى عشر سوى ستة وخمسين مخطوطا [4] . وكان رائد هذه الحركة العظيمة هو ألكوين الذى أخذ يعمل فى جد ونشاط لتصحيح المخطوطات القديمة وتنظيمها وإعادة نسخها مصححة وذلك بعد أن تعرضت تلك المخطوطات فى الفترة الواقعة بين القرنين السادس والثامن للاهمال والتحريف والضياع [5] . ويعتبر أهم ماقام به ألكوين فى هذا

---

1) Waddell : The Wandering Scholars, p. 32
2) Waddell : Med. Latin Lyrics, pp. 319-320
3) Haskins : The Renaissance of the Twelfth Century, p. 158
4) Thompson : op. cit., vol. 2 p. 202
5) Guizot : Hist. de la Civilisation en France Tome 2, p. 18?

الباب مراجعة الترجمة اللاتينية للكتاب المقدس مراجعة دقيقة شاملة . أما سرفاتوس لوبوس Servatus Lupus – مقدم دير فريير – فكان أعظم المهتمين بالآداب الكلاسيكية اللاتينية فى القرن التاسع ، كما أن رسائله التى كتبها فى الموضوع ألقت ضوءاً ساطعاً على هذه الآداب[1] .

وفى وسط هذه التيارات الكنسية والكلاسيكية ، ظل الأدب الجرمانى القومى يحاول أن يشق لنفسه طريقاً ولو ضيقاً . ومن المعروف أن شارلمان كان جرمانيا بحكم أصله وطبيعته ، ولذلك لا نعجب إذا حرص على الاحتفاظ بمجموعة من الأغانى والأشعار الجرمانية ، كما حاول أن يجمع قواعد اللغة الجرمانية ، بل أطلق على الرياح والأشهر أسماء جرمانية[2] . أما الأغانى الجرمانية ، فكانت حينئذ عبارة عن مجموعة من أناشيد الحب والحرب والمغامرة ، ولكن الكنيسة اعتبرت هذه الأغانى صورة من صور الوثنية ، فوقفت منها موقفاً معاديا ، حتى أحرقها لويس التقى – خليفة شارلمان – وبذلك حرمنا من هذا المصدر القيم للآداب الجرمانية وأصولها اللغوية .

القرن العاشر :

وربما بدا من كلامنا السابق عن النهضة الكارولنجية أن هذه النهضة اقتصرت على غاليا وجزء من ألمانيا ، وهى الجهات التى كانت تمثل قلب الإمبراطورية الفرنجية ولكن حدث فى القرن العاشر . عندما نهضت ألمانيا فى ظل الأسرة السكسونية أن انتقلت النهضة الأدبية إلى شمال ألمانيا حيث ازدهرت فى أديرتها[3] . ذلك أن الإمبراطور أوتو العظيم لم يعمل على اقتفاء أثر شارلمان فى الجانب السياسى فحسب بل أيضاً فى الجانب الحضارى ، مما أدى إلى ازدهار الثقافة فى

---

1) Thompson: op. cit. vol. 2, p. 802.

2) Taylor : op. cit. vol. 2, p. 249.

3) Poole : Med. Thoughts, p. 72

ألمانيا . وكان رائد تلك الحركة الفكرية برونو Bruno رئيس أساقفة كولونيا، الذى أظهر اهتماماً بالغاً بتشجيع العلم والثقافة . كما دفعه شغفه بعلوم القدماء إلى تعلم اللغة اليونانية من الرهبان الأيرلنديين فى ألمانيا[1] . وهكذا تمخضت النهضة الأوتية أو السكسونية - عن بضعة أعلام مثل ويدوكند Widukind مقدم ديركورف وأمهر كتاب التاريخ فى ألمانيا ، وهورتسويثا Hortswitha التى دونت مجموعة من القصص الدرامية فى أسلوب لاتينى على درجة كبيرة من الجودة والنقاوة جعلت علماء النهضة الإيطالية فى القرن الخامس عشر يشكون فى صحة نسبة هذا الإنتاج إليها[2] .

أما إيطاليا التى لم يبرز فيها كاتب ملحوظ فى القرن التاسع — باستثناء أنسطيوس الكتبى الذى كان متعالما أكثر منه عالماً ؛ فقد شهدت فى القرن العاشر موهبة فذة فى شخص ليتوبراند أسقف كريمونا ، الذى بلغ من إجادته لليونانية أن اختاره الإمبراطور أوتو الأول مبعوثاً إلى القسطنطينية ،وقد ترك ليتوبراند هذا عدة أبحاث بعضها فى وصف الحياة والعادات فى الدولة البيزنطية ، والبعض الآخر عبارة عن خليط بين المعلومات التاريخية والجدل والهجاء والدعابات الفكاهية[3] . والواقع أن ليتوبراند كان أبرز أديب مثقف فى عصره ، وقد اشتهر بتعليقاته اللاذعة مثل قوله بأن الإيطاليين « مغرمون دائماً بحب سيدين (يقصد البابا والإمبراطور)،وهم لا يتظاهرون بحب أحدهما إلا لأنهم يكرهون الآخر »[4] .

أما فرنسا فكانت فقيرة فى الإنتاج الأدبى فى القرن العاشر ، ولم يبرز فيها سوى مؤرخين أحدهما فلودورد Flodoard صاحب حوليات ريمس (٩٢٢ - ٩٦٦) ، والثانى ريتشر Richer مؤلف « أربع رسائل فى التاريخ » . وقد

1) Waddell : The Wandering Scholars, p. 66
2) Foligno : Latin Thought, pp. 92-93
3) Taylor : op. cit. vol. 1 p. 257-258
4) Thompson : op. cit. vol. 2, p. 803

امتاز الأول بالأمانة والدقة فى كتابته، فى حين حاول الثانى أن يؤرخ لانقلاب سنة ٩٨٧ الذى أدى إلى قيام أسرة كابية ، كما استعمل خليطا من الإصطلاحات والألفاظ الفنية والحربية والإدارية ، مما جعل أسلوبه اللاتينى من الصعوبة بمكان[1] .

القرن الحادى عشر

أما القرن الحادى عشر فقد شهد تطورات سياسية خطيرة فى أوربا . مثل انتشار حركة الإصلاح الكلونية والنزاع حول التقليد العلمانى بين البابويه والإمبراطورية ، وازدياد نفوذ البابوية فى السياسة الأوربية ، وغزو النورمان لصقلية وجنوب إيطاليا فضلا عن غزوهم لانجلترا ، والحروب الصليبية . . . ويبدو أن هذه الأحداث العظيمة كان لها أثرها فى صرف أنظار المعاصرين عن الأدب والنشاط الأدبى ، بحيث لم يخلف لنا ذلك القرن شيئاً يستحق الذكر سوى ماتركه فى ميدان الدراسات التاريخية[2] . أما أبرز المؤرخين فى ذلك العصر فهو آدم البرمنى Adam of Bremen الذى ألف كتاباً عنوانه « أعمال رؤساء أساقفة هامبورج » . ويحوى هذا الكتاب معلومات تاريخية هامة عن شمال ألمانيا ، وبصفة خاصة العناصر السلافية الرابضة على نهر الإلب . كذلك ألف آدم كتاباً آخر تناول فيه أحوال سكندناوة وأيسلند وجرينلند فى تلك العصور ، وهو يعتبر مصدراً أساسياً لأحوال هذه البلاد حينذاك من النواحى التاريخية والجغرافية والبشرية والاقتصادية[3] . وفى عهد الإمبراطور هنرى الرابع كتب راهب اسمه برونو كتاباً عنوانه « تاريخ ثورة سكسونيا » ، وهو يمتاز بالدقة والأمانة . كذلك دونت فى ألمانيا فى القرن الحادى عشر عدة تراجم عامة تناولت بوجه خاص حياة مشاهير الأساقفة . أما فرنسا وإيطاليا فقد ظهرت

---

1) Waddell : The Wandering Scholars. p.s 68,73

2) Thompson : op. cit. vol. 2, p. 804

3) Beazley : The Dawn of Modern Geography. vol. P. 9.

فيهما وقتئذ بعض الكتابات التاريخية التى تناولت حياة كبار الشخصيات المعاصرة - مثل ماتيلدا أميرة تسكانيا، أو الأحداث الهامة - مثل غزو النورمان لجنوب إيطاليا - ، أو أخبار بعض كبار الأمراء الإقطاعيين فى فرنسا مثل أمراء بيت أنجو[1] .

القرن الثانى عشر :

على أن أحداث القرن الثانى عشر ، وما ترتب عليها من يقظة شعوب غرب أوربا من جهة ، وزيادة الاتصال مع المسلمين فى الشرق والغرب من جهة أخرى أدت إلى إثارة نهضة كبيرة فى مدارس غرب أوربا[2] .

وقد احتل النشاط الأدبى والدراسات الإنسانية جانباً أساسياً من تلك النهضة الفكرية والعلمية الجديدة التى أخذت تظهر منذ نهاية القرن الحادي عشر تتبلور فى القرن الثانى عشر . وهكذا تم إحياء الأدب اللاتينى الكلاسيكي على الرغم من الفتور الذى أصاب دراسته فى القرن العاشر[3] ، وسارت العناية بالدراسات الأدبية الكلاسيكية جنباً إلى جنب مع المعارف الجديدة فى العلوم والرياضيات والفلسفة والطب والقانون وغيرها. وقد بدأت حركة إحياء الأدب الكلاسيكى - كما هو الحال فى البحث العلمى - على يد جربرت الريمسى Gerbert of Reims ثم انتقلت من ريمس إلى شارتر على يد تلميذه الأسقف فلبرت Fulbert[4] وكان هلدبرت Hildbert أسقف تورز شاعراً لاتينياً موهوبا ، بلغ من سلامة أسلوبه وجمال تعبيره أن علماء النهضة الإيطالية شكوا فى صحة نسبة أشعاره إليه، حتى قال بعضهم بأن هذه الأشعار لا بد أن تكون نماذج من الشعر الكلاسيكى

---

1) Thompson : op. cit. vol. 2, pp. 804-805
2) Eyre: op. cit; p. 269-270
3) Haskins : The Renaissance of the Twelfth Century, p, 115.
4) Poole : op. cit. p. 96

استكشفت فى القرن الحادى عشر[1] ، وحقيقة إنه وجد فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر بعض ذوى الآفاق الضيقة من رجال الدين حاولوا اقتفاء سياسة البابا جريجورى العظيم فى أواخر القرن السادس، فنادوا بمحاربة الأدب الكلاسيكى وإعدامه بحجة أنه مظهر من مظاهر الوثنية ، ولكن هؤلاء كانوا قلة ولم يصبحوا خطراً حقيقياً على الأدب الكلاسيكى[2] . أما الخطر الذى هدد الأدب الكلاسيكى فى القرن الثانى عشر فقد أتى نتيجة لمنافسة منطق أرسطو والاتجاه العملى الجديد فى الحياة الفكرية ، مما لم يترك مجالا واسعاً للدراسات الأدبية الكلاسيكية[3] . ومع أن إحياء الدراسات الكلاسيكية كان أضعف مظاهر نهضة القرن الثانى عشر ، إلا أن ذلك الإحياء لم يذهب كلية تحت ضغط الفلسفة والعلوم الجديدة ، فقد ظهرت كتابات لاتينية تسترعى الانتباه مثل رسائل أبيلار وأشعار هلدبير ومؤلفات حنا سالسبورى ، وكلها تستحق الإعجاب والتقدير[4] .

أما مراكز العناية بالدراسات الكلاسيكية فكانت الأديرة البندكتية بحكم أقدميتها وانتقال تراث النهضة الكارولنجية إليها من ناحية وبحكم أنها لم تشارك المنظمات الديرية الجديدة فى الاهتمام بالحركات المتعلقة بإصلاح الكنيسة ولم تقحم نفسها فى التيارات السياسية المعاصرة من ناحية أخرى . وهكذا ظلت الأديرة البندكتية بمثابة المستودع الأساسى للدراسات الكلاسيكية ، حتى ورثتها المدارس الأسقفية فى هذه المهمة ، وأصبحت الأخيرة مركزاً للدراسات الكلاسيكية وغير الكلاسيكية من العلوم الجديدة[5] .

وقد احتل إنشاء الرسائل Epistolary Composition المكانة الأولى فى ميدان البلاغة فى ذلك العصر ، عندما ازدهر فن كتابة الرسائل فى بولونيا ـ أعظم

---

1) Pirenne, Cohen, Focillon: op. cit., p. 206
2) Haskins : The Renaissance of the Twelfth Century, pp. 96-98
3) Ibid.
4) Thompson : op. cit., vol. 2 p. 809
5) Rashdall : Med. Universities, vol. 1, pp. 43-44

مدارس القانون فى العصور الوسطى — ثم انتقل بعد ذلك إلى فرنسا حيث وجد بيئة صالحة فى مدرسة أورليان . وتمثل الرسائل التى كتبت حينئذ فى تورز وأورليان نوعاً راقياً من النثر اللاتينى البليغ ، وبخاصة تلك التى ترجع إلى عهد فيلب أغسطس (١١٨٠ — ١٢٢٣) والتى تناولت محاورات خيالية بين الشتاء والربيع ، وبين الروح والجسد ، وبين الإنسان والشيطان . . ولا تقتصر أهمية هذه الرسائل على ما بلغته من مستوى رفيع فى البلاغة ، بل ترجع هذه الأهمية أيضاً إلى ما تلقيه من ضوء ساطع على أوضاع العصر الذى دونت فيه[1] .

أما الشعر اللاتينى فقد بلغ فى القرن الثانى عشر درجة كبيرة من الرقى والكثرة والتنوع . ويبدو أن هذا الشعر تأثر إلى حد واضح بالشعر الكلاسيكى من ناحية ، وبالطابع الدينى من ناحية أخرى . فالأثر الكلاسيكى يبدو واضحا فى أشعار هلدبير (ت ١١٢٣) ، وبخاصة القصيدتين اللتين نظمهما عن روما وأبدى فيهما أسفه لزوال مجدها القديم ، كما أضفى عليها آيات التبجيل فى عصره لقيام البابوية فيها[2] . أما الطابع الدينى فيبدو فى أشعار أبيلار وماربود ، فضلا عن كثير من الأشعار الدينية التى تناولت قصصاً من الإنجيل وسير القديسين وغيرها من الموضوعات الدينية . ويحتل هؤلاء الشعراء الثلاثة مكانة كبيرة فى ميدان النشاط الأدبى فى القرن الثانى عشر ، إذ يعتبر هلدبير أعظم شعراء عصره وعالج معظم فنون الشعر كالرثاء والمديح والموضوعات الدينية والخلقية . أما أبيلار (١٠٧٩ — ١١٤٢) فكان شاعراً مجيداً إلى جانب كونه من رجال الدين الذين اشتغلوا بالفلسفة ؛ وقد نظم كثيراً من الأشعار الدينية فضلا عن بعض الأناشيد التى تدل على عقلية ممتازة[3] . وأخيراً يأتى ماربود **Marbode** (١٠٣٥ — ١١٢٣) الذى تنسب إليه بعض الأشعار الدينية بالإضافة إلى أشعار أخرى تمجد الشباب والحب والنساء[4] .

---

1) Haskins : The Renaissance, pp. 142-148
2) Pirenne, Cohen, Focillon : op. cit. p. 206
3) Waddell : Med. Latin Lyrics, pp. 126-169 & 336.
4) Pirenne, Cohen, Focillon, : op. cit. p. 206.

ومن الواضح أن أخصب أنواع الشعر فى العصور الوسطى كانت الترانيم والأغانى . أما الترانيم الدينية فقد امتاز أسلوبها بالتفخيم وانتقاء الألفاظ الكفيلة بأن تضفى رداء من المهابة والجلالة على الحياة الدينية ، فى حين دار معظم موضوعات هذه الترانيم حول القصة الأزلية المتعلقة بالله والإنسان كما جاءت فى العهدين القديم والجديد[1] . وأما الشعر الغنائى فقد ظهر منه نوع يعبر عن العواطف الإنسانية وروح حب الطبيعة والتعلق بجمالها . وقد أطلق على هذا النوع من الشعر اللاتينى الغنائى اسم الشعر الجلياردى Goliardic Lgric Poetry نسبة إلى شخصية غامضة مجهولة اسمها جولياس « Golias » اعتقد المعاصرون أنها مصدر الإلهام الروحى للشعراء الجلياردیین[2] ومهما يكن الأمر فإن هذا الشعر امتاز بطابعه الدنيوى وروحه الفكاهية الخفيفة التى غلبت عليها الرغبة فى الاستمتاع بلذات الحياة من شباب وخمر ونساء[3] . ولما كان الشعر الجلياردى يتعارض مع آراء الكنيسة ورجال الدين تعارضاً حاداً ، فإن الشعراء الجلياردیین وقفوا موقفاً عدائياً من رجال الدين — كبيرهم وصغيرهم — واتخذوهم موضوعا لسخريتهم ونقدهم اللاذع ؛ حتى المسيح والبابوية وفروض الدين لم تسلم من تهكمهم وهزلهم : الأمر الذى سبب فزعا كبيراً للكنيسة فعقدت عدة مجامع دينية لتحريم هذا النوع من الشعر وإنزال اللعنة بأصحابه[4]. وكان هذا التطاول على الكنيسة ورجالها ومحاولة النيل منها وهدم نظمها ، من العوامل التى جعلت رجال حركة الإصلاح الدينى فى القرن السادس عشر يعتمدون على الأشعار الجلياردية فى إثبات مفاسد نظام الكنيسة الكاثوليكية[5] .

ويبدو أن معظم الشعراء الجلياردیین كانوا من طلبة العلم الجائلين الذين أخذوا يتنقلون فى ذلك العصر من مدرسة إلى أخرى ومن بلد إلى آخر ، يرددون

---

1) Paris : Litterature Francaise au Moyen Ages, p. 145.
2) Thompson, vol. 2, p. 807.
3) Symonds : Wine, Women and Songs, p. 191 & Haskins : The Renaissance p. 187.
4) Waddell : Wandering Scholars, pp. 260 - 268.
5) Symonds ; Wine, Women and Songs, p. 7.

شعرهم الفكاهى ويجدون فيه بعض السلوى عن متاعب الحياة ومشاقها[١] . وقد حفظ لنا التاريخ اسمين من أعلام الشعر الجلياردى نسبت إليهما كثير من المقطوعات الشعرية الخفيفة . أما الأول فهو هيو الأورليانى (١٠٩٠ - ١١٥٠) الذى تعلم فى باريس ثم علم فيها ، حتى انتقل إلى شمال فرنسا بعد أن فقد ثروته ومنصبه فأخذ يخفف عن نفسه بهذا النوع من الشعر الفكاهى الذى تجلت فيه شخصيته ومواهبه . وقد ساعد على نبوغه فى الشعر تعمقه فى الدراسات الكلاسيكية وإحاطته بأوزان الشعر اللاتينى الكلاسيكى[٢] . وأما الشاعر الثانى من أعلام الشعر الجلياردى فنجهل اسمه الحقيقى ، وإن كان من الثابت أنه خلف جولياس فى زعامة هذه المدرسة الشعرية الفكاهية ، حتى أطلق عليه فى المراجع لقب الشاعر الأول أو أمير الشعراء Archipoeta (ت ١١٦٥) [٣] . وكل مانعرفه عنه هو أنه كان معاصراً لفردريك بربروسا واشتغل فى بلاطه ، كما امتازت أشعاره بالإحكام والتنوع وخفة الروح[٤] .

الآداب الشعبية والمحلية :

على أننا إذا كنا فى كلامنا عن الأدب الغربى فى العصور الوسطى قد التزمنا جانب الأدب اللاتينى ، بحكم بقاء اللاتينية لغة الكنيسة والمتعلمين ، فليس معنى ذلك أن عامة الناس لم يكن لهم أدب شعبى خاص بهم[٥] . ذلك أن طبقة العامة فى غرب أوربا لم تعرف اللاتينية الفصحى ، وإنما عرفت اللغة التى توارثها الناس عن أجدادهم - سواء كانت هذه اللغة لاتينية دارجة أم جرمانية . هذا مع ملاحظة أن اللغات الوطنية المحلية (vernacular) لم تنهض لتعبر عن النشاط الأدبى قبل القرن الحادى عشر[٦] . وحتى قيام اللغات المحلية بهذه المهمة كان لعامة الناس -

---

1) Pirenne, Cohen, Focillon : op. cit., p. 207.
2) Haskins : The Renaissance, 179.
3) Waddell : Med. Latin Lyrics, pp. 338-340.
4) Haskins : The Renaissance, p. 181.
5) Paris : Litterature Francaise au Moyen Age, pp. 2-3.
6) Thompson : op. cit. vol. 2, p. 309.

من سلالة العناصر الجرمانية والكلتية ـ آدابها الشعبية ، ولكنها كانت آداباً غير مكتوبة ، تتألف من أغان وقصص وأساطير يتناقلها الناس شفاها ويتوارثها الخلف عن السلف . والواقع أنه مهما يلغ بدائية شعب أو قوم ، فإن لكل شعب مقدرته على التعبير التصويرى الذى قد يبدو لنا تافهاً وبسيطاً ولكنه لايخلو من جمال فطرى[١] .

ويلحظ المتتبع للأدب الغربى فى النصف الأخير من القرن الثانى عشر أن هذا الأدب لم يعد لاتينياً خالصاً . ذلك أن تيار اللغات المحلية أو الوطنية ـ أخذ يقوى ويشتد فى ذلك العصر ، تمهيداً لظهور اللغات الحديثة الخاصة بمختلف بلدان غرب أوربا ، الأمر الذى يجعل من النصف الأخير من القرن الثانى عشر مرحلة انتقال من الأدب اللاتينى الخالص إلى الآداب الوطنية الناشئة[٢] .

ويمكن تقسيم المصادر التى نبعت منها الآداب المحلية فى العصور الوسطى إلى ستة ، هى التراث الكلاسيكى القديم ، والإنجيل ، والجرمان ، والكلت ، والفيكنج ، والمسلمون ومن شابههم من العناصر الشرقية . ومع أن هذه المجارى الفكرية المنفصلة تداخلت على مر الزمان وامتزجت تياراتها إلى حد كبير ، بحيث تشابهت الموضوعات والبواعث فيها جميعاً . إلا أن الخلافات والفروق ظلت واضحة فيما بينها . ذلك أن الأصول الأولى للتيارات السابقة استمرت محتفظة بخصائصها من جيل إلى آخر ، دون أن تمتزج بغيرها من الآراء إلا امتزاجا سطحيا طفيفا لا يغير من حقيقتها أو جوهرها[٣] .

ومن الواضح أن التراث الكلاسيكى ـ اليونانى واللاتينى — كان أقدم منبع للآداب الوطنية فى أوربا العصور الوسطى ، إذ ظلت الأساطير والقصص والروايات التاريخية القديمة متداولة فى غرب أوربا . وبظهور المسيحية وانتشار تعاليم

1) Waddell : Poetry in the Dark Ages: p. 7.
2) Pirenne, Cohen : Focillon: op. cit., pp. 204-205.
3) Thompson : op. cit., vol. 2, p. 810.

الكنيسة فى مختلف أنحاء غرب أوربا أصبح الكتاب المقدس يمثل مصدراً جديداً للاهتمام الأدبى ، حتى صار كل حدث ورد فى ذلك الكتاب موضوعا لتعبير أدبى - منظوما او منثوراً[1] . على أن الجرمان الذين غزت قبائلهم غرب أوربا فى العصور الوسطى ، كانت لهم أغانيهم الحربية الحماسية ، وأبطالهم الذين صارت أعمالهم وبطولاتهم محور كثير من القصص المعاصر . وقد سجل مؤرخو العصور الوسطى الذين عالجوا تاريخ الشعوب الجرمانية - مثل جوردان Jordanes صاحب تاريخ القوط ، وجريجورى التورى مؤلف تاريخ الفرنجة ، وبولس اللمباردى مدون تاريخ اللمبارديين - كثيراً من أساطير البطولة التى ترتبط بتاريخ هذه الشعوب المبكر ، لأنهم لم يجدوا مصدراً آخر - عدا هذه الأساطير - يستقون منه معلوماتهم عن نشأة الشعوب الجرمانية . كذلك كشفت الأبحاث التى تمت فى القرن الأخير النقاب عن مدى ما تمتعت به الشعوب الجرمانية من تقدم أدبى بعد الوقوف على كثير من الآثار - النثرية والشعرية - عند الفيكنج وبخاصة فى أيسلند والنرويج[2] . ومهما يكن الأمر ، فإن أهم الميادين التى ظهرت فيها الآداب الوطنية الناشئة فى أواخر العصور الوسطى ، كانت أشعار الملاحم من جهة وأشعار التروبادور من جهة أخرى ، مما جعل لهذين النوعين أهمية خاصة تتطلب معالجة كل منها على حدة .

الملاحم :

كان الرأى السائد حتى زمن قريب هو أن الملاحم التى عرفتها العصور الوسطى جاءت وليدة نمو أدبى بطىء ؛ وأن الملحمة - على الصورة التى نعرفها - كانت فى القرنين التاسع والعاشر نوعا من الأغانى والقصص الشعرية ، حتى قامت الحروب الصليبية وعندئذ ظهرت مجموعة من الكتاب جمعت هـــذه القصص والأغانى وحولتها إلى ملاحم مترابطة . على أنه ثبت خطأ هذا الرأى ، واتضح أن ملاحم أوربا العصور الوسطى جاءت عملا ابتكاريا مبتدعا ، وليست تحويرا أو جمعا

1) Taylor : op. cit., vol. 2, p. 200.

2) Cam. Med. Hist. vol. 6, p. 887 & Thompson : op. cit., vol. 2, pp. 811—812.

لإنتاج سابق . وهذه الحقيقة على جانب عظيم من الأهمية ، لأنها تثبت لنا أنه عند حلول القرن الثانى عشر كانت اللغات الوطنية المحلية قد بلغت درجة من النضج سمحت لها بالتعبير عن المعارف والمشاعر - من حب وكراهية وخوف وأمل ويأس - فى صورة قصص إمتاز بالحيوية والخصب[1] .

وأكبر مجموعة من شعر الملاحم فى العصور الوسطى هى المجموعة التى أنتجتها فرنسا ، والتى تمتاز بأهميتها البالغة للمؤرخ والأديب واللغوى . ذلك أن هذه المجموعة تعتبر خير مرآة انعكست فيها صورة المجتمع الإقطاعى وحياة الفرسان والمجتمع الدينى. وكان شارلمان أهم شخصية اتخذتها أشعار الملاحم موضوعا لهم، فاحتل مكانة بارزة فى أغانى المآثر Chansons de geste التى دونت باللغة الوطنية والتى أخذت تنتشر انتشارا واسعاً فى عصر الحروب الصليبية[2] وفى ذلك العصر بالذات ظهرت فى الأدب الشعبى الاسطورة القائلة بزيارة شارلمان لبيت المقدس ، وهى زيارة صورتها الاسطورة فى قالب سلمى[3] . أما أغنية رولان Chanson de Roland فقد ظهرت لأول مرة على عصر الحملة الصليبية الأولى وأظهرت شارلمان فى ثوب الصليبى الذى قام بحرب دينية مقدسة ضد مسلمى الأندلس [4] . وقد دونت أغنية رولان باللغة الفرنسية الناشئة فى أسلوب جميل يجمع بين البلاغة وقوة التأثير ، وعما مكن رجال الدين من استغلالها فى الدعوة للحروب الصليبية فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر [5] .

ويبدو أن كثيراً من أغانى المآثر كان الغرض منها تشجيع المعاصرين على الحج وزيارة الأماكن المقدسة فى كومبوستلا وروما وفلسطين ,كما يبدو أن نسبة كبيرة من هذه الأغانى كتبها بعض رجال الدين . وبعبارة أخرى فإن هذه

---

1) Pirenne Cohen, Focillon : op. cit., pp. 243—244.

2) Taylor : op. cit., vol. 1, pp. 574—575.

3) Lanson : Hist. de la Litterature Francaise ; pp. 23-25.

4) Cam. Med. Hist: vol. 6, pp. 816-817.

5) Paris : Litterature Francaise ; p. 71.

الأغانى كانت نوعا من الدعاية الدينية فى العصور الوسطى اتخذت شكل ملاحم [١] .

وهناك مجموعة أخرى من أشعار الملاحم المنظومة باللغات الوطنية الناشئة ، تحتل مكانة خاصة فى الأدب الأوربى الوسيط ، هى المعروفة بأشعار الملك آرثر. وقد ظهرت هذه الأشعار حوالى سنة ١٢٠٠ . مما جعلها تصور المجتمع الإقطاعى بعد أن هذبته آداب الفروسية وتقاليدها [٢] . وتبدو الفروسية فى هذه الأشعار أقرب إلى أن تكون وظيفة مقدسة تباركها الكنيسة ، وإذ يحتفل برفع الفرد إلى مرتبة الفروسية وتدشينه دينياً ؛ فيقضى الليلة السابقة لتدشينه بجوار مذبح الكنيسة لتطهير نفسه مما علق بها من آثام ، ثم يغتسل بماء طهور وفقاً للطقوس الدينية ، وأخيراً تنتهى هذه الإجراءات بالصلاة من أجل العذراء . وهكذا صارت هذه المجموعة الشعرية من روايات الملك آرثر مصدراً لمزيد من القصص الخيالى الذى انتشر فى كثير من بلدان أوربا العصور الوسطى [٣] ،

وأخيراً نلاحظ أن جميع بلدان الغرب شهدت منذ سقوط الامبراطورية الرومانية جماعة من الرواة والمنشدين والحواة والمشعوذين . اختلفت ألسنتهم وتباينت تسمياتهم [٤] ؛ ولكن جمعت بينهم حرفتهم ، إذ دأبوا يتنقلون بين الضياع والحصون والأديرة والأسواق وطرق الحجاج ليتعيشوا من إنشاد أغانيهم الشعبية وعرض ألعابهم (٥) . وقد شابهت هذه الفئة من الناس المنبوذين أو الغجر ، حتى أنهم عرفوا بسوء الخلق وانحطاط المستوى الاجتماعى والخلقى ، مما جعل الكنيسة فى العصور الوسطى تصدر عدة تشريعات ضدهم [٦] . كذلك شابه أولئك المنشدون

1) Pirenne, Cphen, Socillon : op. cit., pp. 211-216.
2) Linson Hist de la Litterature Francaise, p. 86.
3) Pirenne, Cohen, Focillon: op. cit, pp. 216 - 217.
(٤) أطلق على هؤلاء الرواة أسماء كثيرة عرفوا بها فى العصور الوسطى منها :
Mimi, Gleemen, Minstresls, histriones, Jongleurs.
5) Paris : Litterature Francaise, p. 80,162
6) Thompson : op. cit., vol. 2. p. 820.

الشعراء الجليارديين فى خفة روحهم وأغانيهم ، مع الفارق الأساسى وهو أن شعر الجليارديين جاء لاتينيا لأن معظم هؤلاء الشعراء كانوا من الطلبة الجائلين أو القساوسة الهاربيـــين أو الرهبان الشاردين ، وكلهم يعرفون اللاتينية ويتغنون بها (١) .

التروبادور والشعر الغنائى :

وفى ختام كلامنا عن الشعر الغربى فى العصور الوسطى ، يصح أن نشير إلى أن الشعر الغنائى المنظوم باللغات الوطنية ترجع نشأته الحقيقية إلى جنوب فرنسا ، أو إقليم بروفنسال على وجه التحديد (٢) . ومع أن هذا الشعر البروفنسالى يدين بقسط مما للشعر اللاتينى الذى عرفته العصور الوسطى ، إلا أن الأبحاث الحديثة أثبتت تأثر الشعر البروفنسالى بالموشحات الأندلسية العربية ، التى تمتاز بخفة أوزانها ورقتها وخيالها فضلا عن موضوعاتها التى تدور حول الغزل العفيف والحب العذرى (٣) . وقد عرف الشعراء الذين تغنوا بهذا النوع من الشعر البروفنسالى باسم « التروبادور » ، وهو لفظ لا يستبعد أن يكون تحريفا لعبارة « طرب دور » — أى « دور طرب » بالعربية مع تقديم الصفة على الموصوف كما هو الحال فى معظم اللغات الاوربية (٤) . وأول من نعرفه من شعراء التروبادور هو وليم التاسع أمير أكوتين (١٠٨٧ — ١١٢٧) ، وهو الذى عرف بالمرح وحب الموسيقى والغناء . وسرعان ما تكاثر شعراء التروبادور وأخذوا يتجولون من مكان إلى آخر وقد حمل كل منهم قيثارته ليغنى أشعاره على أنغامها (٥) وتحت رعاية خلفاء وليم التاسع ، ترجم بعض الأدباء فى النصف الأخير ، من القرن الثانى عشر قصيدة « فن الحب Ars Amatoria للشاعر اللاتينى أوفيد (٤٣ق م — ١٦ م) ، وهى القصيدة التى أصبحت بمثابة إنجيل شعراء التروبادور (٦) .

---

1) Waddell : The Wandering Scholars, pp. 171-178.
2) Lanson : Hist. de la litterature Francaise ; p 86.
3) Pirenne ; Cohen ; Focillon : op. cit., pp. 216-217.
(٤) أنظر أحمد أمين : ظهر الإسلام ، الجزء الثالث .
5) Paris : Litterature Francaise, p. 162.
6) Thompson . op. cit., vol. 2, p. 820.

ولم يلبث ذلك الشعر البروفنسالى أو التروبادورى أن انتشر فى جميع أنحاء أوربا . مثل أغانى المآثر والملاحم وقصص الملك آرثر . وهنا أيضاً أصبح لهذا اللون من الشعر أثره الفعال فى رفع مستوى فرسان أوربا وتعليمهم أساليب التغنى بالغزل العفيف [١] . وقد اتضح بالبحث أن غزل الفروسية الذى انتشر بعد ذلك فى ألمانيا تأثر إلى درجة كبيرة باشعار التروبادور التى نشأت فى جنوب فرنسا [٢] .

ويبدو أن المعاصرين وجدوا فى الأدب الوطنى المحلى مخرجا من سيطرة اللاهوت والعلوم المدرسية . حقيقة أن العنصر الدينى كان بارزا واسع الانتشار فى ذلك النوع أيضاً من الأدب الوطنى ، ولكن هذا العنصر الدينى كان ممثلا فقط بالقدر الذى يناسب العلمانيين لا رجال الكهنوت . وخير دليل على ذلك أن هذه الآداب الوطنية الناشئة حظيت برعاية الملوك والأمراء المعاصرين مثل هنرى الثانى بانجلترا [٣] ، وهنرى الأسد بسكسونيا ، وأمراء شامبنى وغيرهم من الأمراء الذين زخر بلاطهم بالشعراء والمؤرخين وكانت هذه الرعاية التى حظى بها الأدب والأدباء من الملوك والحكام شيئا جديداً على الحياة الأوربية فى العصور الوسطى ، وظل أثرها ، قويا حتى القرن الثامن عشر . أما فى القرن الثالث عشر فإن أبرز الحكام تشجيعاً للأدب — فضلا عن العلم — كان الإمبراطور فردريك الثانى ، الذى جمع حوله العلماء والأدباء ، كما حضرت مجموعة من شعراء التروبادور حفل تتويجه فى روما سنة ١٢٢٠ [٤] .

الشعر القصصى والتمثيلى :

وقد عرفت أوربا العصور الوسطى نوعا آخر من الشعر القصصى أطلق عليه

---

1) Lanson: Hist.] de la Litteratnre Francaise, p. 87.

2) Draper : A Hist. of Intellectual Development of Europe, vol. 2, pp. 33—34.

(3 Stupps: Seventeen Lectures on Med. and Med. Hist pp. 137—143.

4) Kantorowicz : Trederick the Second, pp. 324.

اسم fabliaux ، امتازت قصصه بأنها قصيرة ، تغلب عليها روح الفكاهة والبعد عن التكلف فى الاسلوب [١] . وانتشر هذا النوع من الأشعار فيما بين القرنين الثانى عشر والرابع عشر ، لكنه ظل دائما يعبر عن الذوق الشعبى والبورجوازى ، بمعنى أنه كان يمثل أدب الأسواق والعامة بعكس الحال مع أغانى المآثر والملاحم التى ظلت تمثل أدب الحصون والارستقراطية الحربية فى مجتمع العصور الوسطى [٢] .

أما التمثيليات الدينية فى العصور الوسطى فقد ولدت داخل الكنيسة ، واستمدت مسرحها وموضوعاتها ومناظرها وأسلوبها من وحى الكنيسة ؛ وقام بأدوارها قسيسون ورهبان ؛ وبذلك لم يبق إلا المشاهدون والمستمعون فقط الذين كانوا من العلمانيين . وقد أطلق على هذه التمثيليات الدينية اسم تمثيليات المعجزات ، ويرجح معظم الباحثين أن هذا النوع من التمثيليات لم يكن له وجود فى العصور الوسطى قبل القرن الحادى عشر (٣) . ولما كانت هذه التمثيليات قد ظهرت فى وقت اشتد ساعد اللغات الوطنية كالإيطالية والفرنسية والبروفنسالية والاسبانية ، فإن هذه التمثيليات الدينية أخذت تعمل — عن طريق غير مباشر — على إدخال كثير من ألفاظ اللغات الوطنية فى لغة الكنيسة اللاتينية [٤] . وسرعان ماتطور الأمر حتى أصبحت هذه التمثيليات تبدأ بافتتاحية لاتينية ثم تستأنف باللغة الوطنية السائدة ، ثم صارت التمثيلية كلها تتم باللغة الوطنية . وأخيراً انتهى التطور بالإقلاع عن الموضوعات الدينية واختيار موضوعات دنيوية بحتة لتكون محوراً لهذه التمثيليات ، وبذلك انفصلت التمثيلية عن الكنيسة وأصبحت انتاجا علمانيا دنيويا (٥) .

---

1) Lanson: Hist. de Litterature Francaise, pp. 103—104.
2) Paris: Litterature Francaise ; pp. 127—129
3) Haskins: The Renaissance, pp. 170—174·
4) Thompson: op. cit. vol. 2 pp. 823—825·
5) Pirenne, Cohen, Focillon, op. cit., pp. 408—412.

إيطاليا ودانتي :

أما إيطاليا بالذات فلم تظهر فيها أية عبقرية أدبية مبتكرة في العصور الوسطى قبل القرن الثالث عشر . حقيقة إن الإيطاليين شاركوا بقية شعوب أوربا العصور الوسطى في إنتاجهم الأدبي ، ولكنهم لم ينتجوا قطعة أدبية ممتازة ، ولم تتمخض قريحة أحدهم عن ملحمة خاصة يفخرون بها في ذلك الشطر الأول من العصور الوسطى (١) . ويعلل بعض الباحثين هذا النضوب الأدبي في إيطاليا بأن جهود الشعب الإيطالي انصرفت إلى ناحيتين من نواحي النزاع السياسي ، أولاهما النزاع بين البابوية والإمبراطورية ، والأخرى جهاد المدن اللمباردية في سبيل استقلالها . ويبدو أن هذه الأحداث — التي كانت إيطاليا مسرحها الرئيسي — أعمت أنظار الإيطاليين عن الآداب والفنون واللاهوت ، في حين انصرف المبرزون إلى الدراسات القانونية والنشاط السياسي (٢) . وكانت اللغة الإيطالية قد أخذت تنهض وتبرز شيئا فشيئا شأنها شأن بقية اللغات الوطنية الناشئة ، حتى أصبحت قبل مولد دانتي صالحة للتعبير الأدبي شعراً ونثراً ، لاسيما في صقلية وجنوب إيطاليا . وقد حبا الامبراطور فردريك الثاني هذه اللغة الناشئة بعطفه ورعايته ، فجمع في بلاطه جمعا من شعرائها (٣) . وتستطيع هذه المجموعة من الشعراء الإيطاليين — التي بلغت نحو الثلاثين في بلاط فردريك الثاني — أن تفخر بأمرين : أولهما أنهم كانوا أول من استعمل الإيطالية في الكتابة ، وثانيهما أنهم كانوا أول من ابتكر ذلك النوع من القصائد المعروفة باسم السونت (Sonnet) (٤) .

---

1) Thompson : op. cit., vol. 2. p. 818.

2) Symonds: Italién Literature; p. 10.

3) Foligno: Epochs of Italien Literature; P. 6 & Kantorowicz: op. cit. p. 325.

(٤) السونت نوع من القصائد يغلب عليها الطابع الغزلي تنظم على هيئة مجموعات ، تتألف القصيدة من ١٤ بيتا أو ١٢ بيتاً حسب اختلاف العصور . وتمتاز بوزنها الخاص الذي يتطلب ترتيب الأبيات وفق نظام خاص أيضا : فالمجموعة المؤلفة من أربعة أبيات ينتهي البيت الأول منها بحرف مثلا ثم البيتان الثاني والثالث بحرف ثم الرابع بحرف وهكذا .

ثم كان أن ظهرت على مسرح الأدب عبقرية فذة أنجبتها إيطاليا فى ختام العصور الوسطى . ونقصد بهذه العبقرية دانتى (١٢٧٥ — ١٣٢١) الذى كتب عدة أشعار شهيرة ، اولها عن الحياة الجديدة Vita Nouva التى استلهمها من حبه لسيدة (Bêatrice ت ١٢٩٠) لم يستطع أن يتزوج منها ولم تخاطبه سوى مرة واحدة ولكن حبها ظل عالقاً فى قلبه [1] . كذلك كتب دانتى دفاعا عن اللغة الوطنية (De Vulgari Eloquentia) وهو دفاع مكتوب باللاتينية ليتمكن المثقفون من قراءاته ، ذكر فيه اقتراحاته للنهوض باللغة الإيطالية الجديدة والتوحيد بين لهجاتها لتصبح أداة فعالة فى التعبير الأدبى [2] . أما رسالة دانتى عن الملكية (De Monarchia) فكانت باللاتينية أيضاً وتناولت طبيعية الدولة . على أن أبرز إنتاج دانتى كان الكوميديا الإلهية أو المقدسة . وهى أشبه بدائرة معارف نظمها بالإيطالية وتخيل فيها رحلة إلى العالم الآخر ، فى أسلوب يمتاز بالروعة وجمال التصوير . ولا تقتصر أهمية هذه الكوميديا على أنها أول إنتاج كامل ضخم بالإيطالية الصحيحة فحسب ، بل ترجع أهميتها أيضاً إلى الآراء القوية الجريئة والمعانى العميقة التى عبرعنها دانتى فى إنتاجه [3] .

---

1) Pirenne, Cohen, Focillon; P. 338

2) Foligno: Epochs of Italian Literature. p 10.

3) Pirenne, Cohen, Focillon : op. cit., 336—351.

الباب العاشر

الفنـــون

تشمل الفنون بمعناها الواسع كل ما تمخضت عنه العبقرية البشرية من إنتاج فكرى ويدوى ، فالجراحة فن والشعر فن والموسيقى ... ولكن من الممكن أن نحدد أفق هذا الاصطلاح ليقتصر على ما يتفتق عنه العقل البشرى من إنتاج راق يجمع بين قوة الابتكار وجمال الخيال من ناحية ، والمهارة اليدوية من ناحية أخرى. وفى هذه الحالة تضيق دائرة الفنون لتقتصر على العمارة والتصوير والنحت — وهى المجموعة التى يطلق عليها اسم الفنون الكبرى ؛ ثم المصنوعات اليدوية الصغيرة التى تتطلب دقة فائقة وعبقرية راقية وخيالا واسعاً — وهى التى يطلق عليها اسم الفنون الصغرى [1] .

وأول ما نلاحظه على فنون أوربا العصور الوسطى هو أنها كانت تعبيراً روحياً ، بحيث جاءت هذه الفنون مرآة صادقة انعكست فيها الحماسة لمبادىء الكنيسة . لذلك لا نكون مبالغين إذا قلنا إن كل ما اشتمل عليه الفن الأوربى فى العصور الوسطى من رمزية وجمال ومثالية ، إنما يستهدف غاية واحـــدة هى إرضاء الشعور الدينى . وهكذا جاء هذا الفن آية صادقة عبرت تعبيراً أميناً عن أثر العقيدة المسيحية وعصور الإيمان ، وهى العصور التى امتازت بسمو العامل الدينى والباعث الروحى على غيرها من قيم الحياة[2] .

على أن المتتبع لتاريخ الفنون يلمس ثلاثة عوامل قوية ظلت تؤثر دائماً فى الطابع الفنى وتكيف هذا الطابع تكييفاً خاصاً . أما هذه العوامل فهى تقاليد

---

1) Thompson. op. cit. vol. 2, p. 828.
2) Pirenne, Cohen, Focillon: op. cit. pp. 419—420.

الشعب وتراثه العنصرى ، وظروف البيئة التى ينبت فيها الفن والتى تتحكم فى صياغته وتشكيله ، ثم عامل الزمن والتطور (١) . وبتأثير هذه العوامل فى الفن الأوربى فى العصور الوسطى انقسم ذلك الفن إلى طرق وألوان مما أوجد فناً بيزنطياً وفناً رومانسكيا وفناً أيرلندياً . . . هذا وإن اتفقت هذه الطرق جميعها فى صدق تعبيرها عن البواعث الدينية الكنسية .

فن العمارة

كان عدد الكنائس - قبل أن يعترف الامبراطور قنسطنطين بالمسيحية - قليلا ، مما لم يترك مجالا واسعاً للتعبير عن الفن المسيحى . لذلك لم يظهر الفن المسيحى فى تلك المرحلة من فجر العصور الوسطى إلا فى المقابر ذات القباب ؛ وهى المقابر التى شيدت من الآجر وكسيت جدرانها من الداخل بطبقة من الطلاء سجلت عليها تصاوير استمدت موضوعاتها من القصص الدينية وصور القديسين (٢) ، فضلا عن بعض الإشارات والرموز الدينية مثل الصليب والسمكة والمصباح والنخلة (٣) . . . أما اجتماعات المسيحيين فى تلك المرحلة فمن المرجح أنها كانت تتم فى بعض الدور الخاصة أو فى بعض المعابد الوثنية ، لأنهم لم يجرءوا على إقامة كنائس خاصة بهم . على أن صدور مرسوم ميلان سنة ٣١٣ ، وما أعقبه من انتشار المسيحية انتشاراً آمناً ، أدى إلى مولد فن جديد مثلما أدى إلى ظهور أدب جديد . وكان مولد هذا الفن فى القرون الرابع والخامس والسادس (٤) .

والواقع أن المسيحية ألفت نفسها — عند اعتراف قنسطنطين بها — فى حاجة إلى مبان عامة تتخذ مراكز علنية للديانة الجديدة وإحياء طقوسها الروحية . وهنا لم يكن أمام المسيحيين سوى أحد طريقين : إما الحصول على مبان قديمة من معابد الوثنية المتداعية - عن طريق الهبة أو الشراء - لتحويلها إلى كنائس

1) Cam. Med. Hist., vol. 3, pp. 539—540.
2) Cam. Med. Hist., vol. 1, p. 509.
3) Mâle: Hist Général de l,Art, Tome 1, pp. 255-266.
4) Simpson: A Hist. of Architectural Development, vol. I' p. 168

وإما تشييد مباني جديدة لهذا الغرض . ولم يكن منتظراً أن تمتاز هذه المباني الكنسية الأولى بروح الإبتكار والتجديد، لذلك جاءت تقليداً وتطبيقاً للطرز المعمارية السائدة حينئذ[1] . والواقع أنه يمكن تقسيم الكنائس في عصور المسيحية الأولى إلى قسمين وذلك من حيث تصميمها . الأول يشمل الكنائس ذات التصميم المركزي الدائري ، والثاني يشمل الكنائس المستطيلة الشكل أو البازيليكا basilica ويبدو أن هذا التقسيم يرجع إلى ظروف التقاليد والتراث من ناحية ، والبيئة من ناحية أخرى ، لأن النوع الأول من الكنائس كان شرقياً يونانيا ، في حين كان النوع الثاني غربيا رومانيا[2] . على أن هذا التقسيم الفني بين الشرق والغرب لم يكن فاصلا ودقيقاً ، إذ وجدت في بعض بلاد الشرق البيزنطي كنائس على الطراز البازيليكي في حين لاتزال إيطاليا بوجه خاص تحتفظ ببعض كنائس دائرية التصميم[3] ؛ هذا وإن كان المهندسون الرومان قد لجئوا إلى تمييز هذه المباني الشرقية الأخيرة بعمل قباب لها . ومهما يكن الأمر ، فإن الكنائس المستديرة — ذات القباب أو بدونها — صارت نواة فن العمارة البيزنطي ، في حين صارت المباني المستطيلة البازيليكية عماد فن بناء الكنائس والكتدرائيات في الغرب[4] .

فن العمارة البيزنطي :

أما الطراز البيزنطي في بناء الكنائس فقد أخذ في أول الأمر عن النمطين اليوناني والروماني ، ثم تأثر بعد ذلك بالفنون الشرقية التي وجدت في آسيا الصغرى وفارس . وتمتاز الكنائس البيزنطية بأنها مربعة الشكل ، بخلاف الكنائس البازيليكية المستطيلة ، كما تمتاز بالقباب نصف الدائرية التي تعتبر من أهم مميزات الطراز البيزنطي[5] . على أنه إذا كان أيوان الكنيسة البيزنطية مربع الشكل ،

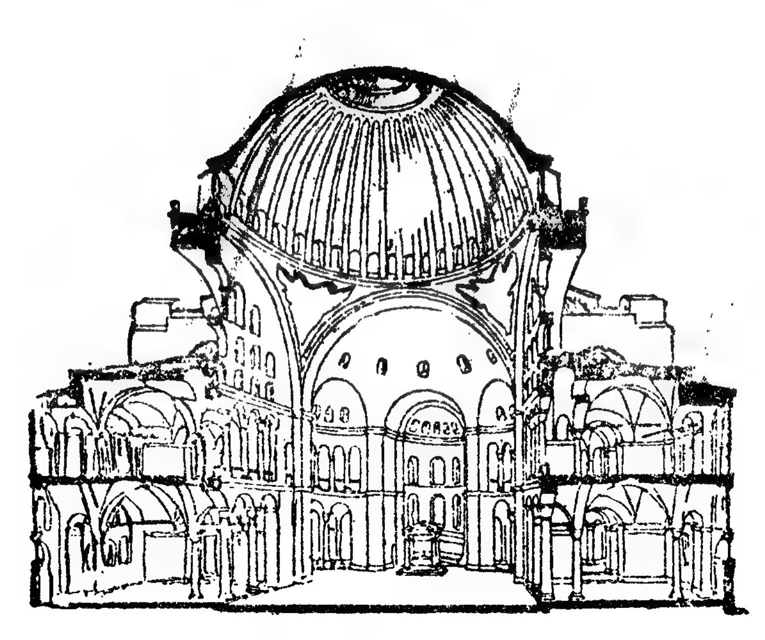
1) Morey: Med. Art, p. 21.
2) Lethaby: Med. Art, pp. 12—13.
3) Cam. Med. Hist, vol. 3, p. 542.
4) Thompson: op. cit., vol 2, p 8:0.
5) Simpson: A Hist. of Architectnral Development, vol. 1. p. 214.

إلا أنه روعى أن يكون لذلك المربع ذراعان جانبيان قصيران ليتخذ الشكل العام للكنيسة هيئة صليب. أما عقود الكنيسة البيزنطية فكانت مقوسة أو على هيئة نعل الفرس. ويبدو أنه كان من الصعب الحصول على الأحجار اللازمة لبناء الكنائس فى القسطنطينية، بدليل أن معظم الكنائس البيزنطية شيدت من الآجر، ثم كسيت جدرانها من الداخل بأعمال الفسيفساء والرخام المنقوش على هيئة صورة رمزيه القديسين والعذراء والمسيح[1]. أما أعمدة الكنائس البيزنطية فقد أخذت أشكالها عن الطراز الرومانى مع تجديد هيئة تيجانها بحيث صارت فى معظمها مستمدة من أشكال الوحدات الهندسية والنباتية والحيوانية، مثل الصلبان وأوراق الأشجار والطيور وغيرها. والواقع أن زخرفة الكنائس فى الشرق البيزنطى بلغت درجة أرقى كثيراً مما كانت عليه فى الغرب، وظل الأمر على ذلك حتى ظهور الفن الرومانسكى فى غرب أوربا فى القرن الحادى عشر[2].

وتعتبر كنيسة القديسة أيا صوفيا — التى تم بناؤها على عهد جستنيان سنة ٥٣٧ — أعظم مثل للكنائس البيزنطية. وهذه الكنيسة مشيدة من الآجر، وخط مسقطها الأفقى على هيئة صليب يونانى متساوى الأذرع تقريباً، إذ يبلغ طول أحدهما ثمانين متراً والآخر خمسة وسبعين متراً[3]. وعند تقاطع الذراعين توجد قبة يبلغ ارتفاع قمتها عن سطح الأرض ستين متراً تقريباً. ويتخلل محيط هذه القبة أربعون نافذة مرتبة مرصوصة وفق نظام هندسى بديع، يكفل دخول قدر كاف من الضوء إلى داخل الكنيسة[4]. على أنه إذا كانت جدران الكنيسة مشيدة من الآجر، إلا أنها مغطاة من الداخل بالرخام والفسيفساء المختلف الألوان كما امتاز داخل الكنيسة بالأعمدة الكثيرة والنقوش الجميلة. وقد أعيد بناء قبة هذه الكنيسة بعد أن دمرها زلزال سنة ٥٥٨، وظلت قائمة حتى فتح العثمانيون

---

1) Morey: Med. Art, p. 96.
2) Thompson: op. cit., vol. 2, p. 832.
3) Cam. Med. Hist., vol. 6, p. 543—546.
4) Lethaby: Med. Art, p. 34



مسقط رأسى فى كنيسة أيا صوفيا

القسطنطينية سنة ١٤٥٣ حولوها إلى مسجد وأضافوا إلى بنائها أربع مآذن ، كما أدخلوا عليها بعض التعديلات لتناسب الوضع الجديد[1] . والواقع أن كنيسة أيا صوفيا تعتبر بفنها الرائع وجمال هندستها وزخارفها إحدى العجائب ، مما جعل الروس ـ عقب انتشار المسيحية فى بلادهم ـ يحاولون محاكاتها ، فشيدوا كنيسة فى كييف على نمطها .

الكنائس البازيليكية :

وسواء كانت البازيليكا المسيحية ترجع فى أصلها وتصميمها إلى القاعات الرومانية القديمة التى استعملها الرومان دوراً للقضاء ، أو ترجع إلى بيوت الرومان الخاصة التى تقاربها فى التصميم ، فإن المهم هو اتخاذ البازيليكا دارا للعبادة المسيحية ترتب عليه إدخال بعض تعديلات معمارية هامة عليها . وهكذا أصبحت الكنيسة البازيليكية تتكون من إيوان (أ) مستطيل (nave) على جانبيه

1) Stephenson : Med. Hist: p. 124.

جناحان (ب) موازيان له aisles يفصل كل منهما عن الإيوان الأوسط صف أو صفان من العمد ، مع مراعاة أن يكون سقف هذين الجناحين أقل ارتفاعاً من سقف الإيوان الأوسط . وقد أتاح ارتفاع الإيوان عن الجناحين الجانبيين فرصة عمل صفين من النوافذ فى أعلى جانبيه ينفذ منها الضوء إلى الإيوان ، فى حين تظل الأجنحة الجانبية ضعيفة الإضاءة[1] . وإذا كانت الكنيسة البازيليكية على هيئة مستطيل ، فإنه روعى أن يكون الضلعان القصيران لهذا المستطيل جهتى الشرق والغرب ، على أن يبرز الضلع الشرقى إلى الجانبين قليلا ليكون بمثابة جناح عرضى (transept) خاص بالقساوسة ، وبذلك يتخذ الشكل العام للكنيسة هيئة حرف (T) وبوسط هذا الجناح العرضى توجد حنية الكنيسة أو محرابها (ح) (apse) على شكل نصف دائرة . أما الضلع الآخر الغربى المواجه للضلع الشرقى فكان به باب الكنيسة (د) . وكان كرسى الاسقف يوضع فى حنية الكنيسة وعلى جانبيه مقاعد آباء الكنيسة ورجالها[2] . وفى الجزء الواقع بين مكان الأسقف وجمهور المصلين فى الإيوان يوجد المذبح الذى كان يشيد فى العادة فوق قبر القديس أو الشهيد الذى شيدت الكنيسة باسمه

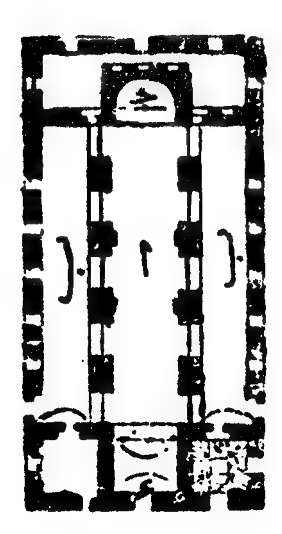
هــذا ويلاحظ أن سقف الكنيسة البازيليكية كان يصنع عادة من الخشب المموه بالذهب فى حين كسيت أرضيتها بالرخام المقسم إلى أشكال هندسية[3] .

فن العمارة فى الغرب فى العصور الوسطى (٥٠٠ — ١٠٠٠) :

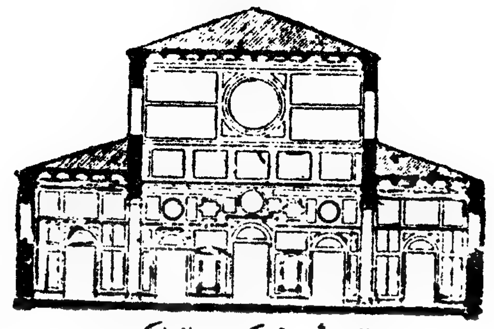
لا توجد لدينا معلومات كافية عن أحوال الكنائس فى غرب أوربا قبل عصر شارلمان ، اللهم سوى ما ذكره بعض المؤرخين - مثل جريجورى التورى - من إشارات عابرة . ثم كان أن ظهرت النهضة الكارولنجية التى تبناها شارلمان والتى

---

1) Mâle: Hist. Générale de l'Art, Tome I, pp. 261—262.
2) Simpson: op. cit., vol. I, pp. 175—178.
3) Briggs, Architecture, pp. 52—53.



قطاع أفقى فى كنيسة بازيليكيه

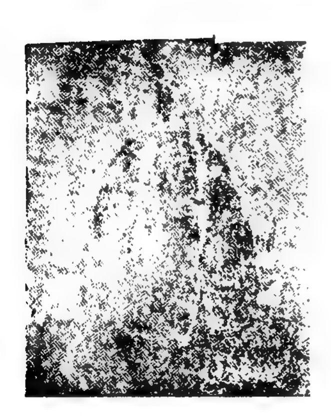


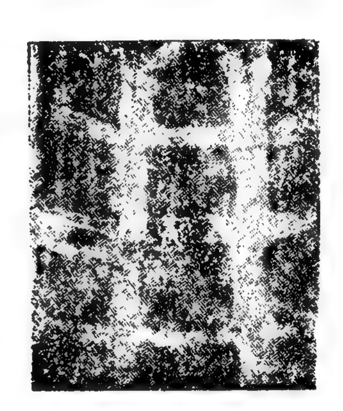
قطاع رأسى فى كنيسه بازيليكيه

امتدت حتى شملت الفنون .. والحق إن شارلمان كان بناء كبيراً ، فبنى كثيراً من الكنائس ، وتعهد القديم منها بالإصلاح ، كما اهتم بزخرفة قصوره المفضلة تلك القائمة فى آخن (اكس لاشابل) وانجلهايم [1] . وقد استعان شارلمان فى هذه النهضة الفنية ببعض الفنانين الانجليز والايرلنديين ، مما أدى إلى انتقال كثير من المؤثرات الفنية من إنجلترا وأيرلند إلى الدولة الكارولنجية ، لاسيما

1) Lethaby :Med· Art: p. 90

فيما يتعلق بزخرفة أغلفة الكتب والمجلدات بوجه خاص [١] . هذا إلى أن غزو شارلمان لشمال إيطاليا ترتب عليه انتقال المؤثرات الفنية البيزنطية هي الأخرى إلى غرب أوربا عن طريق إيطاليا . وهكذا جاء قصر آخن الذى شيده شارلمان تحفة فنية، بأعمدته الرخامية التى جاءبها من رافنا ، فى حين امتازت الكتدرائية التى بناها شارلمان بجوار قصره السابق بأبوابها البرونزية التى أبدع الفنانون الايطاليون فى زخرفتها . وهنا نلاحظ أن هذه النهضة الفنية التى ثبتها شارلمان كانت رومانية فى طابعها العام مع ظهور بعض المؤثرات الشرقية والبيزنطية. أما الأثر الجرمانى فكان ضعيفا وغير واضح [٢] .





قصر أخن من الداخل والخارج

وعلى الرغم من أن الفن الغربى مستمد من إيطاليا ، إلا أن الحياة الفنية فى غرب أوربا نشطت فى القرنين التاسع والعاشر فى المناطق الواقعة شمالى الألب أكثر منها فى إيطاليا نفسها [٣] : وقد وجد من البابوات فى هذين القرنين - مثل ليو الثالث - من أظهروا اهتماماً كبيراً ببناء الكنائس ، ولكن تأخر هندسة العمارة حال دون القيام بمشروعات معمارية ضخمة . وكانت المواد الخام اللازمة لبناء هذه الكنائس — مثل الأحجار والأعمدة الرخامية — تنتزع غالباً من

1) Morey: Med. Art; pp. 167—198.
2) Thompson: op. Cit., vol. 2, pp. 835—836.
3) Cam. Med. Hist. vol. 3. pp. 5?3—555

الآثار الرومانية القديمة التى كان بعضها فى روما نفسها ، مما عاد بخسارة فادحه على علمى التاريخ والآثار [١] . ولكن يلاحظ أن الدمار الذى تعرض له غرب أوربا فى القرن التاسع نتيجة للحروب الأهلية والإغارات التى قام بها الفيكنج والمجريون أدت إلى تدمير كثير من مظاهر النهضة الكارولنجية وآثارها للفنية، بحيث لم يبق منها سوى القليل فى ألمانيا فى القرن العاشر [٢] .

ثم كان أن أخذت الأوضاع تستقر فى غرب أوربا فى القرن الحادى عشر ، وهو القرن الذى امتاز بمولد حركة إحياء الدراسات الإنسانية وحركة الإصلاح الديرى وازدياد النشاط الدينى . الذى تمثل فى الإقبال على الحج وزيادة الأماكن المقدسة فضلا عن الحروب الصليبيه ضد المسلمين فى الاندلس ثم فى المشرق . ولما كانت العلاقة قويه دائماً بين الحياة الفنية من جهة والتيارات الاجتماعية والدينية من جهة أخرى ، فإن ذلك القرن لم يكن أقل بروزاً فى ميدان الفن فى أوربا العصور الوسطى [٣] .

والواقع أن الحاجة أضحت ماسة إلى كنائس قوية كبيرة بعد أن اتضح أن الكنائس البازيلكية ذات الأسقف الخشبية سريعة الفناء ومعرضة للاحتراق بين حين وآخر . لذلك أدت الحماسة الدينية التى ظهرت فى القرن الحادى عشر من ناحية وتوافر الإمكانيات والاستقرار من ناحية أخرى ، إلى ابتكار طراز جديد ، يعبر عنه باسم « الفن الرومانسكى » ؛ ويمكن وصفه بأنه من رومانى مسيحى [٤] .

الطراز الرومانسكى :

ظهر الفن الرومانسكى نتيجة لتداخل عوامل مختلفة — شرقية بيزنطية ، وبربرية جرمانية ، ودينية كنسية — فضلا عن الأساس الرومانى الغربى [٥]

---

1) Thompson: op. cit., vol. 2. pp. 837.
2) Morey: Med. Art, pp. 207—214.
3) Pirenne, Cohen, Focillon,: op. cit., pp.460—462.
4) Cam. Med. Hist. 3, p. 556.
5) Cam. Med. Hist., vol. 3, pp. 553-557.

وإذا كان القرن الحادى عشر قد شهد مولد الطراز الرومانسكى فى أوربا . إلا أن عمر هذا الطراز تفاوت باختلاف البلاد الاوربية ، فأخذ يختفى من إيطاليا فى بداية القرن الثالث عشر ، واستمر فى ألمانيا حتى نهاية ذلك القرن ، فى حين بدأ ينكمش فى فرنسا منذ منتصف القرن الثانى عشر . أما فى انجلترا فقد أدخله النورمان عند غزوهم لها فى القرن الحادى عشر واستمر سائداً فيها حتى حل محله الفن القوطى فى القرن الثالث عشر [1] . وكذلك فى أسبانيا أدخله الفرنسيون فى القرن الثانى عشر وظل قائماً حتى حل محله الفن القوطى فى القرن التالى .

وأهم ما فى البناء الرومانسكى أنه أحل الأحجار محل الاخشاب فى عمل الأسقف . مما استلزم تقوية جدران الكنيسة عن طريق مضاعفة سمكها . الامر الذى تعذر معه إيجاد فتحات كثيرة فى الجدران بسبب سمكها من ناحية وحتى لاتضعف عن حمل السقف من ناحية أخرى [2] . وفيما عدا هذه الخصائص ، فإن من الصعب إعطاء وصف جامع للعمارة الرومانسكية ، نظراً لاختلاف هذا الطراز من بلد إلى آخر فى الخصائص ، مما يجعل موضوع دراسة الفن الرومانسكى بصورة صحيحة أمراً يتطلب دراسة خاصة بكل بلد من بلدان الغرب الاوربى [3] .

ومع ذلك فإنه يمكن وصف الكنيسة الرومانسكية بوجه عام بأن داخلها كان أقل اتساعاً وجدرانها أقل ارتفاعاً من الكنيسة البازيلكية التى عرفت فى أوائل العصر المسيحى . وقد احتفظت الكنيسة الرومانسكية بتقسيمها الداخلى إلى إيوان وجناحين موازيين له . ولكن هذه الاجنحة الجانبية كانت دائماً أضيق عرضاً من إيوان الكنيسة الاوسط . أما عن مواد البناء فقد استخدمت فى الكنيسة الرومانسكية الاخشاب والآجر والحجارة . وإن كانت الاخيرة أكثرها شيوعاً [4] . وإذا كانت الكنيسة البازيليكية فى العصر السابق قد

---

1) Briggs: op. cit. pp. 69—70.
2) Mâle: Hist. Général de l'Art, Tome 1, pp. 294-295.
3) Idem, pp. 296—307.
4) Pirenne, Cohen, Focillon: op. cit. p. 468.

اتخذ شكل حرف (T) – كما سبق أن أشرنا — فإن الكنيسة الرومانسكية حولت هذا الشكل إلى هيئة صليب . ويبدو أن الحاجة العملية هى التى دفعت إلى اتخاذ هذا الشكل الجديد ، وذلك لبناء غرفة إضافية تمثل رأس الصليب ، ويتخذها القساوسة لاستعمالهم الخاص . ولم يلبث هذا التغيير أن أدى إلى تطور آخر ، هو إنشاء خورس أو مكان خاص بجوقه المرنمين (Choir) أمام حنية الكنيسة ، يفصله عن بقية الإيوان حاجز قليل الارتفاع وبجواره منبر لتلاوة الكتاب المقدس ورسائل الرسل [١] . أما الأبراج التى كانت فى الكنيسة البازيليكية مبانى منفصلة عن صلب الكنيسة . فقد غدت فى البناء الرومانسكى جزءاً أساسياً من مبنى الكنيسة الرئيسى . هذا فى الوقت الذى تحولت هذه الأبراج من الشكل المستدير إلى الشكل المربع [٢] .

كذلك روعى فى تصميم الكنيسة الرومانسكية أن يكون الجزء الأوسط من المبنى الذى يمثل إيوان الكنيسة أكثر ارتفاعاً ليسمح بدخول قدر كاف من الضوء ، زيادة على الضوء الذى يدخل عن طريق النوافذ المقامة على امتداد الأجنحة الجانبية . أما الأسقف فى الطراز الرومانسكى فهى منحنية ونصف أسطوانية ومكونة من كتل حجرية صغيرة . والمعروف أن الأسقف المسطحة لاتلقى وزناً ثقيلا على الجدران الجانبية ، بعكس الأسقف المنحدرة والاسطوانية التى تسبب ضغطاً شديداً على الجدران ، الأمر الذى استدعى إقامة أعمدة مربعة على الجوانب لتحمل ضغط السقف ، كما روعى عدم الإكثار من النوافذ الجانبية فى الجدران حتى لاتضعف هذه الجدران عن حمل السقف [٣] .

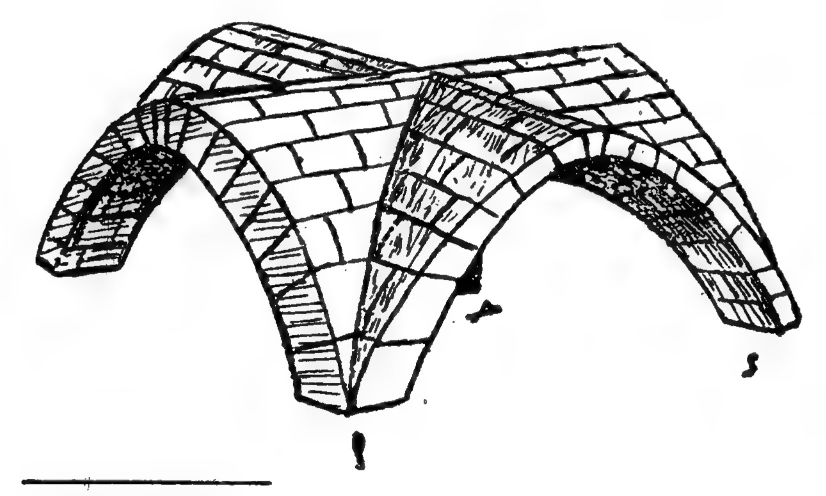
ويبدو أن إقامة القباب والأقواس كانت أعظم مشكلة واجهت المهندسين المعماريين فى العصور الوسطى . ذلك أن الغرض الأول من إقامة هذه الأقواس

---

1) Cam. Med. Hist, vol. 3, p. 593.
2) Thompson: op. cit., vol.2, p. 811.
3) Male: Hist. Générale de l'Art, Tome I, pp. 294-295.

لم يكن بمجرد الزينة والزخرف وإكساب المبنى شيئاً من الجمال والرونق — كما قد يتصور البعض — وإنما أقيم القوس فى المبنى ليحل أشكالا ويقوم بوظيفة هندسية خاصة يتوقف عليها فهم طبيعية العمارة الرومانسكية ثم القوطية من بعدها [١] .

فالسقف المقوس أو المدبب يمثل خير أنواع الأسقف نظراً لتعرض السقف المسطح للتلف نتيجة لتراكم الأمطار عليه . ولما كانت هندسة العمارة لم تتقدم فى أوائل العصور الوسطى بالدرجة التى تمكن من عمل أسقف من الحجارة ، فإن هـــذه الأسقف كانت تصنع وقتئذ من الخشب على شكل منحدر . على أن هذا الاتجاه الذى قصد به تلافى ضرر مياه الأمطار ، عرض كثيراً من الكنائس - قبل ظهور الطراز الرومانسكى - للحريق والانهيار [٢] ، وظل الأمر على ذاك حتى استعان المهندسون — فى الطراز الرومانسكى — بالأقواس فى حل الإشكال وبناء أسقف غير مسطحة من الحجارة [٣] . وهكذا كانت إقامة سقف الكنيسة على شكل



1) Morey: Med. Art. pp. 261-263.
3) Lethaby : Med. Art, pp. 221-263.

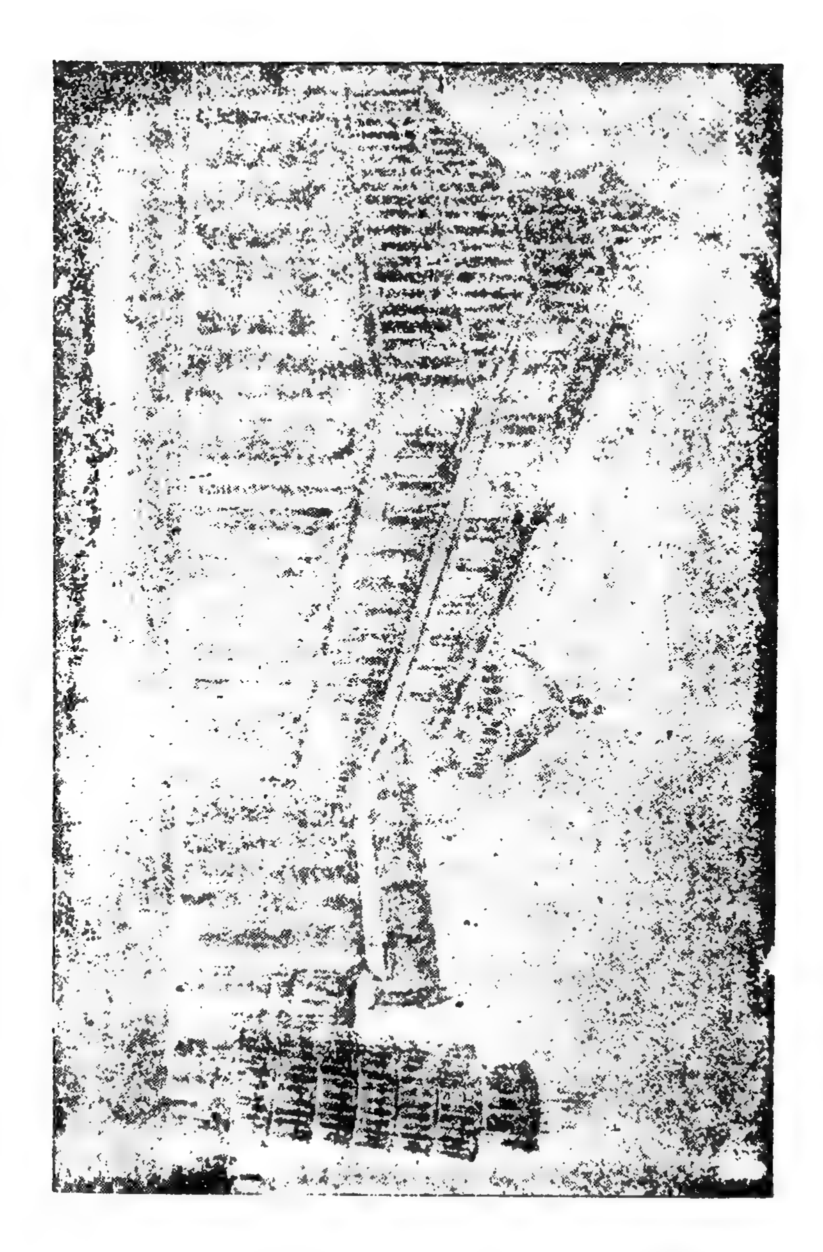
(٣) احترقت كنيسة انجرز سنه ١٠٠٠ ثم سنة ١٠٣٢ ، وكنيسة أوكسر سنة ١٠٢٥ ثم سنة ١٠٦٥ ، وكنيسة بوفية سنة ٩٢٢ ثم سنة ١٠١٨ ، وكامبراى سنة ١٠٢٧ ، وشالون على المارن سنة ٩٣١ ثم سنة ٩٦٣ ، وشرتر سنة ٩٦٢ ثم سنة ١٠٠٩ ثم سنة ١١٩٤ ، وليا سنة ١٠٦٩ ، وبواتية سنة ١٠١٨ ، وروان سنة ١٠١٩ وستراسبورج سنة ١٠٠٢ ، ولورز سنة ١٠٢٧ فى حين احترقت كنيسة فردن ثلاثة مرات .

أقواس نصف أسطوانية تحملها أعمدة ، هى الغاية التى عمل المهندسون طويلاً فى سبيل الوصول إليها ، فلما توصلوا إليها أدت إلى تغيير الطابع العام لهندسة الكنائس ، وأصبحت العمارة فناً وعلماً يقوم على قواعد رياضية دقيقة[1] .
أما النظرية التى قامت عليها إقامة السقف على أقواس فتتلخص فى تقسيم مساحة المبنى إلى مربعات ، كل مربع منها يتألف من منحنيين متقاطعين تقاطعاً عمودياً بحيث يقع ثقلهما على الأعمدة عند زوايا المربع (ا ، ب ، حـ ، د) . وهكذا يخرج الشكل النهائى على هيئة أربعة أقواس (ا ب ، ب حـ ، حـ د ، د ا) . تستطيع أن تحمل فوقها سقفاً تساوى مساحته مساحة المربع المحصور بين الأعمدة الأربعة[2] .

ولسنا فى حاجة بعد ذلك إلى القول بأن العمارة الرومانسكية أحدثت ثورة فى فن بناء الكنائس ، إذ ترتب عليها قيام نوع جديد من الطرز المعمارية حل محل الكنائس البازيليكية القديمة . وأشهر كنائس الطراز الرومانسكى فى إيطاليا كنيسة بيزا التى افتتحت سنة ١١١٨ والتى اشتهرت ببرجها المائل وواجهتها المقنطرة وفخامتها من الداخل[3] . أما ألمانيا فكانت البلد الذى بلغت فيه الكنائس الرومانسكية أقصى درجات الكمال ، كما يتضح ذلك من كتدرائيـة بامبرج Bamberg التى أقامها الإمبراطور هنرى الثانى (١٠٠٢ — ١٠٢٤) ، وكتدرائية سبير Speyer التى شيدها الإمبراطور هنرى الرابع (١٠٩٣ — ١١٠٥) ولعل أهم ما امتاز به هذا الطراز من الكنائس الألمانية هو أنه صمم غالباً بحيث يكون للكنيسة محرابان أحدهما شرقى والآخر غربى ، وبذلك أصبح باب الكنيسة فى أحد الجانبين الشمالى أو الجنوبى . هذا بالإضافة إلى إقامة مجموعة من ثلاثة أبراج عند كل طرف من أطراف مبنى الكنيسة[4] . أما كنائس فرنسا الرومانسكية فقد احتفظت بمبدأ المحراب الواحد مع توسيع ذلك المحراب بإضافة بعض ملحقات إليه[5] .

---

1) Thompson : op. cit. vol. 2. p. 842.
2) Stephenson : Med. Hist. p. 374.
3) Morey : Med. Art. p. 222.
4) Male : Hist. Générale de l'Art, Tome 1, p. 303.
5) Lethaby : Med. Art, p. 97.



كنيسة بيزا وبرجها المائل

على أن عظمة الفن الرومانسكى لم تبد فى الجانب المعمارى فحسب ، بل بدت واضحة أيضاً فى الزخارف الجميلة التى استخدمت فيها الفسيفساء والنقوش الجصية لتصوير بعض المناظر والرموز الدينية . كذلك حليت قواعد الأعمدة وتيجانها بأشكال تمثل الوحوش أو ورقة الأكنث ، فى حين صنعت نوافذ الكنائس من الزجاج المعشق بالرصاص ليتيح قدراً كافيا من الضوء ينفذ إلى داخل الكنيسة .

أما عن المبانى غير الدينية فى ذلك العصر فلا نعرف عنها سوى النذر اليسير لأن أعظم المبانى وأضخمها كانت دينية من جهة ، ولأن الكتاب الذين وصفوا هذه المبانى كانوا من رجال الكنيسة من جهة أخرى . على أنه لا يوجد لدينا من الأدلة ما يمنعنا من الاعتقاد بأن ملوك وأمراء القرنين الحادى عشر والثانى عشر اعتنوا ببناء قصورهم وحصونهم الإقطاعية، وزخرفوها بأنواع الزخارف التى سادت حينذاك . وتدل بقايا الحصون التى ترجع إلى ذلك العصر على أنها كانت تزخرف من الداخل بالرسوم والزخارف الجصية ، ومن الخارج بالتماثيل والنقوش الجميلة[٢] .

الفن القوطى :

وإذا كان الطراز الرومانسكى قد نجح فى حل مشكلة الأسقف الجانبية عن طريق حملها على أعمدة وأقواس نصف دائرية ، فإن مشكلة رفع سقف إيوان الكنيسة ظلت قائمة بدون حل ، حتى توصل الطراز القوطى إلى حل لها فى نهاية القرن الثانى عشر عن طريق حملها على أكتاف معلقة[٣] . والواقع أن الفن القوطى يمثل مظهراً عظيما من مظاهر النهضة الأوربية فى القرن الثانى عشر ، كما يعبر عن الحماسة الدينية التى سادت أوربا فى ذلك العصر[٤] . ذلك أن انتعاش المدن وازدياد نشاطها الاقتصادى فى ذلك القرن ، وظهور النقابات التى عملت

1) Thompson : op. cit. vol. 2, p. 843.
2) Male: Hist. Générale de l'Art, Tome 1, p. 308
3) Pirenne, Cohen, Focillon: op. cit., p. 525.
4) Cam. Med. Hist. vol. 6, pp. 771-772.

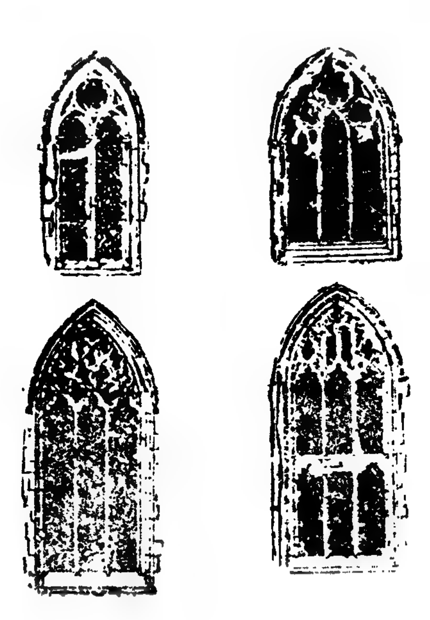
على تحسين مستوى الحرف والصناعات ، أدى إلى جعل هـــذه المدن مسرحا لنشاط فنى كبير تمخض عن نشأة كتدرائيات تجمع بين الجدة والعظمة والروعة

ومن الواضح أن الفن القوطى نشأ عند نهاية القرن الثانى عشر لمداواة العيوب التى اتصف بها الفن الرومانسكى . ذلك أن طراز العمارة الأخيرة كانت به عدة عيوب أساسية أهمها سمك الجدران وعدم مرونة الاقواس ؛ وعدم استكمال تكوين القباب ، وثقل الضغط على الأعمدة والدعائم الداخلية[١] هذا إلى أن سمك الجدران وعظم الثقل المطلوب منهـا حمله ، حال دون شق نوافذ كافية فيها مما جعل داخل الكنيسة الرومانسكية معتما تنقصه الإضاءة اللازمة . وهكذا ظهرت الحاجة إلى طراز جديد يتلافى العيوب السابقة بقدر الإمكان ، حتى دفعت هذه الحاجة المهندسين إلى ابتكار الطراز القوطى . وفى هذا الطراز الجديد عمل المهندسون على تلافى العيوب السابقة . فأنشئوا الدعائم أو المساند المعلقة (Flying buttresses) ،وهى أكتاف تستند إلى الجدران بقصد إلقاء ثقل البناء على الجدران الخارجية بدلا من الأعمدة الداخلية[٢] . وفى سبيل تحقيق هذه الأغراض لم يهمل المهندسون أمر العناية بجمال الكنيسة القوطية من الداخل والخارج ، حتى جاءت الكتدرائية المشيدة وفق هذا الطراز آية فنية تعبر تعبيرا صادقا عن قوة العامل الروحى وأثره[٣] .

على أن أعظم ما امتاز به الطراز القوطى كان القوس المدبب ، ويمتاز هذا القوس المدبب عن القوس نصف الدائرى بأن أى جزء من أجزائه لا يمثل خطاً أفقيا يخشى ألا يتحمل الثقل الذى يقع فوقه مما يؤدى بعد ذلك إلى انهيار القوس وما يحمله من بناء[٤] . فإذا كان القوس نصف الدائرى لم يتوصل إلى حل النظرية

1) Morey: Med. Hist. Art, p. 256.
2) Thompson: op. cit. vol. 2, p. 846.
3) Lethaby: Med. Art. pp. 119–119. & Cam. Med. Hist. vol. 6, p. 764.
4) Bailey: The Art and Religion, pp. 86–88.
5) Male- Hist. Générale de l'Art, Tome I, pp. 321.

المعروفة فى هندسة العمارة — وهى أن الضغط الجانبى للبناء يتناسب تناسبا مطردا مع ارتفاع البناء — فإن الحل جاء سهلا فى حالة الأقواس المدببة . وبعبارة أخرى فإن الطراز القوطى وجـد حلا لهذه المشكلة عن طريق عمل الأقواس والعقود والحنيات المدببة ، وهى التى يكون ثقلها على الجدران رأسيا لا أفقيا كما هو الوضع فى حالة الأقواس نصف الدائرية التى عرفها الطراز الرومانسكى(١) . وإذا كان السقف يعتمد على عقود مرتفعة مدببة، فإن هذا من شأنه أن يوجد حلا لمشكلة النوافذ والإضاءة ، لأن السقف العالى المرتفع يتيح



الفرصة لعمل نوافذ عالية طويلة ، هذا فى الوقت الذى لا يخشى على الجدران الرقيقة من كثرة فتحات النوافذ فيها لأن هذه الجدران لا تتحمل سوى نسبة ضئيلة من ثقل البناء(٢) .

1) Briggs: op. cit., pp. 91-92.

2) Pirenne, Cohen, Focillon, pp. 529-531.

وهكذا يبدو — إذا وازنا بين كنيسة رومانسكية وأخرى قوطية — أن الأولى تبدو قليلة الإرتفاع ثقيلة البناء ، سميكة الجدران ،فى حين تمتاز الأخرى بعظم ارتفاعها وخفة بنائها ورقة جدرانها[1] . وإذا كانت المساحة الداخلية للكنيسة الرومانسكية قليلة بالنسبة لسمك جدرانها وضخامة أعمدتها فإن المساحة الداخلية للكنيسة القوطية تبدو فسيحة واسعة[2] . وبينما الكنيسة الرومانسكية تنقصها الإضاءة الكافية فى الداخل بسبب قلة النوافذ وصغر مساحتها ، إذا بالكنيسة القوطية تمتاز بنوافذها العديدة المتراصة الطويلة ، التى تسمح للضوء بالدخول بقدر كاف إلى إيوان الكنيسة،حتى عبر عن ذلك بعض الكتاب بقوله « إن الكتدرائية القوطية بناء سقفه من الحجر وجدرانه من الزجاج[3] ، هذا إلى أن الكنيسة الرومانسكية تتصف بعقودها نصف الدائرية وسقوفها نصف الإسطوانية ، فى حين تمتاز القوطية بعقودها وأسقفها المدببة[4] .

أما الواجهات الخارجية للكنائس القوطية فامتازت بالأبراج العالية ذات الأطراف المدببة والشرفات والكرانيش وصفوف النوافذ المتراصة . والتى لم يراع التناظر بينها فى كثير من الأحيان.وامتازت النوافذ القوطية بجمال أشكالها وزجاجها الموخرف المعشق بالرصاص ، والذى كان يعبر فى كثير من الأحيان عن مناظر أو قصص دينية[5] . كذلك حرص المهندسون على عمل نافذة مستديرة فى واجهة الكنيسة القوطية . وتنبعث من مركز هذه النافذة نحو محيطها خطوط مستقيمة تجعل النافذة تبدو كزهرة جميلة أما داخل الكنيسة القوطية فكان مقسما إلى أقسام طولية يفصلها بعضها عن بعض صفوف من الأعمدة التى تستخدم فى حمل

---

1) Cam. Med. Hist. vol. 6, pp. 764-765.

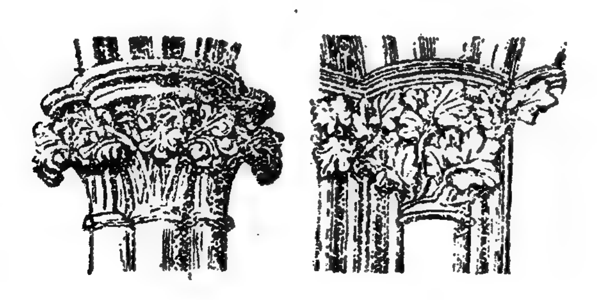
2) Ibid.

3) Thompson: op. cit. vol. 2, p. 847.

4) Male: Hist. Générale de l'Art, Tome 1, pp. 322 -323.

5) Lethaby: Med. Art, pp. 130-133.

السقف. واختلفت أشكال هذه الأعمدة، فكان منها ما هو عادى، ومنها ما هو لولبي، ومنها ما هو على هيئة مجموعة من الأعمدة الملتفة حول بعضها البعض. كذلك امتازت تيجان الأعمدة القوطية بأن أغلبها كان على شكل ناقوس منكس تكسوه بعض الزخارف المؤلفة من أوراق النبات وأغصان الشجر. أما القواعد



نماذج لتيجان أعمدة قوطية

السفلى التى ترتكز عليها الأعمدة، فقد امتازت هى الأخرى بجمال النقش والتصميم [1].

على أنه إذا كانت الخصائص السابقة تمثل المميزات العامة للطراز القوطى، إلا أنه من الثابت أن هذا الطراز اكتسب طابعاً خاصاً فى كل بلد من بلدان غرب أوربا وفقا لعوامل البيئة والتقاليد. وقد أجمع الباحثون على أن نشأة الفن القوطى ترتبط بفرنسا مثلما ارتبطت نشأة الفن الرومانسكى بإيطاليا. وكان تصميم معظم الكنائس القوطية فى فرنسا على شكل حرف (H) مع العناية بتجميل تلك الكنائس من الداخل والخارج. كذلك روعى عمل كرانيش وأفاريز خارجية للكنائس فى الأجزاء الجنوبية من فرنسا حيث الشمس ساطعة لتهيئة قدر كاف من الظل [2]. وتعتبر كتدرائية نوتردام وكتدرائية أميان خير ما يمثل

1) Male: Hist. Générale de l'Art, Tome 1, pp. 326 -327.

2) Pirenne, Cohen, Focillon, pp. 432-436.

هذا الطراز فى فرنسا . أما انجلترا فامتازت كنائسها القوطية بالإنسجام بين نسبها الهندسية وعدم الاسراف فى استخدام الزخارف . وربما يرجع السبب فى هذه الظاهرة الأخيرة إلى أن كثرة الغيوم والسحب تطلبت الإكثار من اتساع النوافذ، مما لم يترك قدراً كافية من الجدران لهذه الزخارف[1] . هذا إلى أنه روعى فى أسقف الكنائس بانجلترا شدة الإنحدار لكثرة الأمطار . وأشهر الكنائس القوطية بانجلترا كتدرائية كانتربورى التى شيدت فى النصف الأخير من القرن الثانى عشر، ثم تلتها كتدرائيات ويلز واكستر وغيرها؛ وكلها تمتاز بجمال أعمدتها وروعة زخارفها وجمال تيجان أعمدتها التى اقتبست وحداتها من الطبيعة[2]

وإذا كان الطراز القوطى قد ظهر فى ألمانيا فى وقت متأخر عنه فى فرنسا وانجلترا، إذ لم تظهر أولى الكنائس القوطية فى ألمانيا إلا فى القرن الثالث عشر ، إلا أن هذا الطراز سرعان ما وجد تربة خصبة فى ألمانيا ، فاستعملت الأحجار فى بناء الكنائس الجميلة فى مختلف المدن الألمانية مثل كولونيا وماليورج وستراسبورج وغيرها[3] وقد تفنن المهندسون الألمان فى زخرفة قواعد الأعمدة ، وفى استخدام الزجاج المؤلف بالرصاص فى النوافذ ، محاكين فى ذلك النمط الفرنسى[4] أما إيطاليا فكانت أقل البلدان الأوربية تحمساً للطراز القوطى . وربما كان السبب

1) Cam. Med. Hist. vol. 6, pp. 766-767.
2) Briggs: op. cit. pp. 85-105.
3) Cam. Med. Hist. vol. 6, p. 770.
4) Lethaby: Med. Art. p. 260.

فى ذلك هو تعلق الإيطاليين دائماً بتراث الماضى وتقاليد أجدادهم الرومان[1] .
ومع ذلك فقد تسرب الطراز القوطى إلى شمال إيطاليا فى القرن الثالث عشر .
وظهرت نماذج جميلة له بعد ذلك فى سينا وبولونيا وفلورنسا وبيزا والبندقية
وميلان . وهنا نلاحظ أن الإيطاليين لم يهتموا بفن الزجاج المؤلف بالرصاص
اهتمامهم بالتصوير والزخرفة على الجص (الفرسكو)[2] .

* * *

ومهما يكن الأمر ، فإن طراز العمارة القوطى ظل هو الطراز السائد فى
غرب أوربا حتى القرن السادس عشر ، هذا على الرغم من ظهور حركة النهضة
الإيطالية ، وهى الحركة التى نادت بالعودة إلى الفنون والطرز الكلاسيكية
ونبذ فنون العصور الوسطى البربرية . ولعل هذا الشعور من جانب فنانى النهضة
هو الذى دفع فاسارى (١٥٢٢ — ١٥٧٤) تلميذ ميخائيل أنجلو إلى إطلاق
اسم « القوطى » على هذا الطراز الذى يمثل أقصى مابلغته الحياة الفنية فى غرب
أوربا العصور الوسطى من كمال وإبداع . ومن الواضح أن فاسارى لم يقصد
بهذه التسمية التى استحدثها — والتى صارت علما لهذا الفن — سوى التحقير
والازدراء ، والإشارة إلى أن هذا الفن يعبر عن روح البرابرة وهمجيتهم[3] .

فن التصوير والزخرفة

إذا كان فن العمارة فى أوربا العصور الوسطى قد ارتبط إلى درجة كبيرة
بالمؤسسات الدينية — من كنائس وكتدرائيات وأديرة — فإن فن التصوير هو
الآخر اتخذ طابعا دينياً ، وذلك لنفور الكنيسة ورجالها من صور الوثنية التى
تحبب الناس فى الحياة الدنيا ولذائذها ، وهو اتجاه يتعارض مع دعوة الكنيسة
نحو التقشف والبساطة والزهد[4] .

1) Cam. Med. Hist. vol. p. 767-768.
2) Lethaby: op. cit. pp 201-214.
3) Cam. Med. Hist. vol. 6, p. 771.
4) Bailey: The Art, and Religion, pp. 45-46.

على أنه من الملاحظ أننا لا نجد أثراً للرقى والسمو الفنى حتى فى الصور الدينية التى ظهرت فى العصور الوسطى . فالمقابر ذات القبـــاب — فى فجر العصور الوسطى — كانت تغطى أسقفها وجدرانها ببعض رسوم هندسية أو صور لطيور وحيوانات تغلب عليها البساطة ، ومعظم ألوانها مزيج بين الأحمر والأخضر[1] .
أما الصور البيزنطية فكانت فى كثير من الحالات أقرب إلى الجمود والبعد عن الحركة والحيوية والطبيعة ولعل خير ما فى هذه الصور ألوانها الزاهية والانسجام والتوافق بين هذه الألوان فى الرسم . وتعتبر أعمال الفسيفساء أبرز ناحية فى فن التصوير البيزنطى ، وبخاصة ما تم من تلك الأعمال فى كنيسة القديسة صوفيا ، حيث تبدو صورة المسيح على أرضية مذهبة وقد التف حوله الحواريون فى ملابسهم البيضاء ، فى حين وقفت مريم العذراء على مقربة منهم فى رداء أزرق سماوى[2] . وفيما عدا صور الفسيفساء التى رسمت على جدران الكنائس وفوق مذابحها ، فإننا نجد بقية الصور البيزنطية لا تختلف بعضها عن بعض كثيراً فى طابعها العام ، من حيث الجمود والخلو من الحياة[3] .

أما الفن الرومانسكى فقد امتاز بالزخارف الجصية « الفرسكو » فضلا عن أعمال الفسيفساء . على أننا نلاحظ فى هذا الفن قلة صور الأحياء واتجاه الزخرفة فى أول الأمر نحو الأشكال الهندسية والوحدات النباتية[4] ، وإذا كانت صور الأحياء قد أخذت تتكاثر نوعا ما بعد مدة من نشأة هـذا الفن ، فإن الفضل يرجع فى ذلك إلى الفرنسيين بوجه خاص ، الذين أكثروا من صور الحيوانات والطيور والأشكال الآدمية إلى جانب الصلبان والزخارف النباتية والرموز الدينية . كذلك شغف الإيطاليون بصفة خاصة باستخدام الرموز المسيحية فى الفن

1) Cam. Med. Hist. vol. 1, p. 600.
2) Lethaby: Med. Art, p. 54.
3) Simpson: op. cit. vol. 1, pp. 219-220.
4) Male: Hist. Générale de l'Art, Tome 1, pp. 315-317.

الرومانسكى ، فاستبدلوا بصور المسيح والقديسين رموزا خاصة كالعصفور والشجرة والسمكة . أما الحلزون المتصل الذى لا تبدو له بداية أو نهايه فقد عبروا به عن الخلود[1] .

وإذا كانت الكنائس الرومانسكية قليلة الضوء — بسبب قلة النوافذ — مما أضفى على الصور الموجودة داخل الكنيسة مسحة قاتمة جافة ، فإن اتساع النوافذ وكثرتها فى الطراز القوطى لم يترك متسعاً للتصوير على الجدران . لذلك اتخذ الفن القوطى من زجاج النوافذ مسرحا للتصوير ، فبلغت الرسوم على الزجاج المؤلف بالرصاص درجة رائعة من الجمال فى الكنائس القوطية ، وذلك بفضل ألوانها المركبة المنسجمة ومناظرها الخلابة[2] .وكثيراً ما استغلت هذه الرسومات على زجاج النوافذ فى التعبير عن مناظر دينية أو أفكار مستمدة من الإنجيل ، حتى ليبدو أن الكنيسة استغلت قوة تأثير الفن على عقول رعاياها غير المتعلمين « فجعلت من الكتدرائية كتابا من الحجر يطالعه الناس فيقفون على كثير من القصص الدينى الذى يزيدهم ولاء وخشوعا »[3] . وفيما عدا هذه المناظر الدينية اشتهر الطراز القوطى باستخدام الوحدات النباتية كأوراق النبات والأزهار فى الزخرفة ، مما جعل الفنان يزداد قربا من الطبيعة وحيويتها[4] .

فإذا تركنا الكنائس وزخارفها ، فإننا نجد فن التصوير — من زخرفة ورسم — يظهر بوضوح فى ميدان آخر هو المخطوطات والكتب. ولا توجد لدينا معلومات كافية عن نشأة هذا النوع من أنواع التصوير فى أوائل العصر المسيحى ولكننا نلمس بعد ذلك مركزين مهمين لهذا الفن ، أحدهما فى الشرق البيزنطى

---

1) Pirenne, Cohen, Focillon: op. cit., pp. 515-523.

2) Lethaby: Med. Art, pp. 132-135.

3) Male: Religious Art, pp. 95-96.

4) Cam. Med. Hist. vol. 8, pp. 727-728.



نموذج لزخارف نافذة قوطية من الزجاج المعشق بالرصاص

والآخر فى أيرلند[1] . ويبدو أن نشأة هذا الفن فى الشرق البيزنطى جاءت بدافع

1) **Thompson**: op. cit. vol. 2, 851.

الرغبة فى تصوير المناظر التى توجد داخل الكنائس مصغرة على رقائق الكتب . أما فى أيرلند فقد اختلف الوضع إذ اقتصر الأمر على تزيين الكتب برموز ورسومات غير واضحة[1] . ثم كان أن انتقل فن تزيين الكتب من أيرلند والشرق البيزنطى إلى انجلترا وغاليا الفرنجية ، فظهر فى الكتب الانجلوسكسونية هذان الطابعان من زخرفة الكتب . ومن انجلترا انتقل هذا الفن إلى القارة حيث جاءت مخطوطات غاليا وألمانيا خير مثل لما بلغه فن تصوير الكتب فى عصر النهضة الكارولنجية[2] .

فن النحت

أما فن النحت فقد سار هو الآخر فى ركاب المسيحية، فحل المسيح والعذراء فى العصر المسيحى محل زيوس وجوبيتر وأبولو وغيرهم من آلهة الوثنية[3] وقد أجمع الباحثون على أن انتشار المسيحية أدى إلى تأخر فن النحت عما كان عليه فى العصور القديمة ، وذلك لكره هذه الديانة السماوية لأوثان العهد البائد[4] : حتى أن بعض الباحثين يميلون إلى القول بان فن النحت لم يولد من جديد فى أوربا العصور الوسطى إلا فى القرن الحادى عشر[5]

وقد أدت الحركة اللا أيقونية فى الدولة البيزنطية إلى محاربة نحت الأيقونات والصور الإنسانية ، ومن ثم اتجه الفن البيزنطى فى النحت نحو الاقتصار على عمل الأشكال الهندسية والواحدات النباتية . وهناك نوع من أنواع النحت كان شرقياً بحتا ولم يعرفه الغرب إلا عن طريق الدولة البيزنطية ، هو النحت فى العاج . ولم يلبث أن انتشر هذا النوع من النحت فى عصر النهضتين الكارولنجية والأوتية ، بحيث خلف لنا ذلك العصر أمثلة رائعة لتماثيل منحوتة من العاج فى غرب أوربا[6] .

---

1) Cam. Med. Hist. vol. 2, p. 566.
2) Morey: Med. Art, pp. 196-206.
3) Cam. Med. Hist. vol. 1, pp. 601-602.
4) Vitry: The Legacy of the Middle Ages, p. 69.
5) Male: Religious Art, p. 17.
6) Lethaby: Med: Art, pp. 159-160.

أما النحت فى الفن الرومانسكى فقد اتضح فى عدة ميادين ، أهمها تيجان الأعمدة التى نحتت بدقة وعناية لتصور أوراق النبات والأزهار وغيرها . وقد ظهرت التماثيل الخرافية والمضحكة فى الفن الرومانسكى فى شمال إيطاليا . ووضعت هذه التماثيل عند قواعد الأعمدة ، كما حفرت بعض مناظر تمثل صوراً من الحياة اليومية كالصيد . أما ألمانيا فقد شاع استعمال الآجر فيها فى العصر الرومانسكى ، ومن ثم قلت التماثيل المحفورة فى الحجر . وفى فرنسا استعملت التماثيل عند أبواب الكنائس ، كما استعمل الحفر فى زخرفة تيجان الأعمدة وواجهات الأبنية(١) ويلاحظ على تماثيل العصر الرومانسكى بوجه عام خلوها من عنصر الحيوية والحركة ، واتصافها بالجمود ، هذا على الرغم مما فيها من قوة ومهارة .

والواقع أن روح الحيوية والدقة فى محاكاة الطبيعة لم تبدأ فى الظهور فى أوربا العصور الوسطى إلا فى الفن القوطى . حقيقة إن فنانى العصر القوطى الأول ظلوا يرسفون فى كثير من القيود التى لم يتحرروا منها إلا فى عصر النهضة الإيطالية ، ولكننا مع ذلك لانستطيع أن ننكر أن الفن القوطى بذل جهداً كبيراً فى العمل على محاكاة الطبيعة(٢) . وهكذا جاءت الكنيسة القوطية بمثابة معرض كبير ، بفضل ما بذله النحاتون من جهود فى نقش مختلف المشاهد الدينية وغير الدينية ، مثل تماثيل القديسين وحشوات الحفر المأخوذة من الوحدات النباتية ، والتماثيل الخرافية المبتكرة كالغول والعنقاء(٣) . وفى كل هذه النواحى حاول الفنانون محاكاة الطبيعة والتخلص — بقدر الإمكان — من التقاليد البالية التى قيدت فن النحت فى العصور السابقة(٤) .

أما خارج الكنيسة القوطية فقد امتاز بالزخارف المحفورة فى الحجر ، والتى تقسم واجهتها إلى أقسام رأسية تبدو واضحة على الجدران والأبواب والأبراج

---

1) Male: Hist. Generale de l'Art, Tome 1, pp. 309 –314.

2) Morey: Med. Art, p. 275.

3) Cam. Med. Hist. vol. 8, pp. 722-725.

4) Vitry: The Legacy of the Middle Ages, p. 193.

والعقود العمياء. هذا فى الوقت الذى روعى أن تمثل الميازيب الحجرية أشكالا خيالية لبعض الحيوانات والطيور الممسوخة[1] .

* * *

وبعد، فإننا فى كلامنا عن الحياة الفنية فى العصور الوسطى اعتمدنا على المشاهدة وعلى الآثار المادية التى خلفتها لنا تلك العصور[2] . ذلك أن الكتاب المعاصرين وجهوا عنايتهم نحو التطورات السياسية والدينية وأهملوا ماعداها من تطورات فنية. وهكذا نجد أنفسنا فى كثير من الحالات لا نملك سلاحا سوى الاستنتاج، وذلك عندما نريد الوقوف على الطريقة التى كان يتم بها تشييد هذه المبانى الضخمة، وعلى حياة العمال والفنانين والمهندسين والأدوات والآلات التى استعملوها فى إنجاز أعمالهم، أو الطريقة التى تعلموا بها حرفهم حتى أجادوها.

من ذلك أنه لا يوجد هناك شك فى أن الصناع والفنانين فى أوربا العصور الوسطى استخدموا الآلات والأدوات نفسها التى كانت تستعمل فى العصر الرومانى القديم، وأنهم لم يتلقوا أصول فنهم فى مدرسة خاصة أو كتب معينة، وإنما تلقوها فى ميدان الحياة العملية. ولما كانت إقامة كنائس ضخمة أو حصون منيعة أمراً لا يمكن أن يتم بطريقة ارتجالية، فإنه من الثابت وجود مهندسين فنيين وضعوا التصميمات الخاصة بمثل هذه المبانى العظيمة وأشرفوا على تنفيذها[3] . وفى هذه الحالة لم تهتم المصادر والوثائق المعاصرة بذكر أسماء أولئك المهندسين، اهتمامها بتخليد إسم السيد الذى استأجرهم وعهد إليهم بالقيام بذلك العمل الهندسى. ولم يحفظ لنا التاريخ سوى أسماء نادرة من مهندسى العصور الوسطى مثل فيلارد دى هونيكورت (Villard de Honnecourt) الذى ترك كتابا به بعض ملاحظات قيمة فريدة فى بابها. ومن هذه الملاحظات نفهم أنه هو الذى وضع تصميم كتدرائية كامبراى Cambrai ، وأنه أشرف على بناء عدة كتدرائيات

---

1) Male: Hist. Generale de l'Art, Tome 1, pp. 341 –347.

2) Coulton: Life in the Middle Ages; vol. 2. p. 10.

3) Havery: The Goteic World; pp. 14-16.

أخرى عظيمة ، حتى كانت سنة ١٢٥٠ عندما عهدت إليه ملكة هنغاريا بالإشراف على بناء بعض الكنائس فى بلادها. وقد ترك فيلارد كتابا يحوى بعض التصميمات والرسوم الهندسية ، ليهتدى به من يريد أن يخلفه فى مهنته . وإذا كان هذا هو الكتاب الوحيد الذى وصل إلينا من المصادر الهندسية التى وضعها مهندسو القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، إلا أنه يثبت لنا أن العلاقة بين الهندسة والفن كانت قوية فى أوربا العصور الوسطى ، بل ربما كانت أقوى مما هى عليه الآن[1] .

1) Stephenson: Med. History. pp. 387-396.

القسم الثالث

فضل العرب على الحضارة الأوربية(1)

---

(1) استخدمنا لفظ العرب والحضارة العربية في هذا الباب للتعبير عن التيارات الحضارية الكبرى التي ظهرت في الدولة العربية الإسلامية في العصور الوسطى . وليس من الضروري أن يكون جميع أعلام هذه الحركة من أصل عربي أو تجري في عروقهم دماء عربية؛ إذ من الملاحظ أن كثيرين منهم يرجعون إلى أصول فارسية أو تركية أو غيرها من الجنسيات التي حكمها العرب فاستعربت . ولكن المهم هو أن هؤلاء الأعلام نضجوا ونبغوا وأنتجوا في رعاية الحكم العربي وفي ظل الدولة العربية الإسلامية فضلا عن أنهم دونوا ثمرة خبرتهم وخلاصة فكرهم باللغة العربية ؛ فهم لذلك ليسوا إلا نتاجا للحضارة العربية ومظهراً قوياً من مظاهرها .

من الثابت أن العرب الذين اندفعوا من شبه جزيرتهم فى القرن السابع الميلادى ليشيدوا دولة واسعة أمتدت من المحيط الهندى وحدود الصين شرقا إلى المحيط الأطلسى وحدود فرنسا غرباً : لم يكونوا مثل غيرهم من الشعوب الهمجية التى انسابت من جوف القارة الآسيوية فى العصور الوسطى ، والتى لا ترتبط أسماؤها فى التاريخ إلا بالغزو والنهب والوحشية وإقامة إمبراطوريات على أسس من العنف وسفك الدماء ولو كان العرب كالمغول الذين أمتدت إمبراطوريتهم من أواسط آسيا حتى أواسط أوربا ، أو كالأتراك العثمانيين الذين شملت دولتهم معظم الشرق الأدنى وشرق أوربا ووسطها حتى فينـــا : لحرمت أوربا من ذلك المنبع العذب الذى غذاها بنور العلم والمعرفة فى وقت كانت أحوج ما تكون إلى ذلك العلم وتلك المعرفة . ولكن العرب لم يفعلوا مثل المغول فيتخلصون من الكتب بحرقها ورميها فى الأنهار، ولم يفعلوا مثل الأتراك العثمانيين الذين عملوا على إطفاء شعلة العلم فى البلاد التى توسعوا فيها ووجهوا كل جهودهم نحو امتصاص أموالها وإهمال مرافقها الحضارية، وإنما سارت الحضارة فى ركاب العرب أينما اتجهوا وصاحبتهم حيثما حلوا ورب بلاد فى الشرق والغرب وصلت فى العصور الوسطى إلى حال يرثى له من الجهل والتأخر ، فاستحالت بعد فتح العرب لها واستقرارهم فيها إلى مراكز حضارية يشع منها نور العلم وبريق المعرفة لينير جوانبها، بل جوانب البلاد الأخرى المجاورة وغير المجاورة .

ولم يقتصر أثر العرب الحضارى على الشرق ، وإنما كان تأثيرهم فى الغرب لا يقل خطورة وأهمية . وهنا نلاحظ أن أثر العرب فى الشرق ظهر واضحا فى الدين واللغة والفنون ، فى حين كان أثرهم فى الغرب الأوربى يكون معدوما فى ناحية الدين ، وضعيفا فى ناحيتى اللغة والفن ، وقويا فى النواحى العلمية والأدبية والخلقية[1] . ومهما كان الأمر فقد نجح العرب — كما يقول سديو — « نجاحا باهرا فى القيام بدور الوسيط بين مختلف الشعوب من الفرات حتى جبل طارق . وساعدهم على ذلك ما امتازوا به من نشاط ليس له مثيل وتسامح عظيم ، لاسيما تجاه اليهود . . . »[2]

---

(1) لوبون : حضارة العرب ص ٥٨٦ .

2) Sedillot: Hist. Generale des Arabes, Tome 2; p.p. 3-4.

ويمكننا أن نتتبع جذور الاتصال الحضارى والفكرى بين العرب وغرب أوربا منذ أواخر القرن العاشر الميلادى ، إذ تشهد بعض الكتابات الأوربية التى ترجع إلى ذلك الوقت على أن جربرت — الذى أصبح فيما بعد البابا سلفستر الثانى (٩٩٩ — ١٠٠٣) — درس بعض مؤلفات العرب فى علم الفلك وفى القرن الحادى عشر عرف طلاب العلم فى غرب أوربا بعض المصطلحات العربية مثل الاسطرلاب وأسماء النجوم ومجاميعها . هذا إلى ما نسمعه عن قنسطنطين الأفريقى الذى درس بعض الكتب العربية فى الطب وعمل على ترجمتها إلى اللاتينية[1] . ومهما كان من أمر هذه الاتصالات الفكرية بين غرب أوربا والعالم العربى فى تلك المرحلة المبكرة ، فإن العلاقات بين الطرفين لم تقو وتشتد وتصبح ذات بال فى التطور الحضـــارى لغرب أوربا إلا فى القرن الثانى عشر — أى منذ عصر الحروب الصليبية — وإن كانت هـذه الحروب نفسها ضعيفة الأثر فى الاتصال الفكرى بين العالمين الشرقى العربى والغربى الأوربى(٢) .

معابر الحضارة العربية :

أما المعابر التى سلكتها الحضارة العربية فى وصولها إلى غرب أوربا فكانت ثلاثة : هى بلاد الشام وما أرتبط بمسرحها من حروب صليبية ، وصقليـة ، والأندلس ؛مرتبة ترتيبا تصاعديا حسب أهميتها .ويبدو أن كتاب القرن التاسع عشرلم يحسنوا التقدير . مما بالغوا فى أهمية الحروب الصليبية وبلاد الشام كطريق نفذت منه الثقافة العربية إلى الغرب . فالصليبيون قصدوا بلاد الشـام للحرب لا لطلب العلم ، وامتازت حياتهم فى تلك البلاد بما تتصف به حياة الجنود عادة من خشونة ، فلاهم لهم إلا تحصين موقعهم والدفاع عن كيانهم والإبقـاء على معاقلهم التى أقاموها فى الشام وسط محيط إسلامى واسع.ولم تخف وطأة الحرب بينهم وبين المسلمين إلا بطردهم نهائيا من الشام سنة ١٢٩١ . وإذا حدث قبل هذا

---

1) Eyre: European Civilisation; Vol. 3.: p. 259.

(2) Haskins : The Renaissance, p. 282.

التاريخ أن توقفت الحرب بين الفريقين فترات قليلة من الزمن ، فإنها كانت توقف لتستأنف بعد قليل . وهكذا لم تتح للصليبيين فى الشرق حياة الاستقرار الضرورية لمباشرة النشاط الفكرى والحضارى ، ولم تتح لهم فرصة الاتصال السلمى بالعرب بالقدر الذى اتيحت به لأخوانهم الأوربيين فى صقلية والأندلس حقيقة إن الصليبيين استطاعوا تأسيس عدة إمارات قوية بالشام ، كما أسسوا مملكة بيت المقدس الشهيرة. ولكن جميع هذه الوحدات الصليبية لم تكن سوى معاقل أو ثكنات حربية متناثرة وسط محيط من الأعداء ، فخيم عليها جو من الرعب والفزع لا تستقيم معه بأى حال حياة علمية مثمرة . ويتساءل باركر أنه حتى لو توافرت مقومات الحياة العلمية للصليبيين الذين أقاموا بالشام فأين لهم بالعلوم التى يأخذون عنها[1] ؟ ذلك أن عصر الحروب الصليبيه بالذات امتاز بنوع من النضوب الفكرى فى بلاد المشرق الإسلامى ، فقل الاقبال على الفلسفة وفاة ابن سينا سنة ١٠٣٧ والغزالى سنة ١١١١ ؛ بل إن الخليفة العباسى فى بغداد أمر سنة ١١٥٠ (٥٤٥ هـ) باحراق الكتب الفلسفية ومن بينها مؤلفات ابن سينا نفسه . فهل كان ينتظر فى مثل هذه الظروف أن يستطيع رسل الغرب الاستفادة من المسلمين وعلومهم ؟

على أنه ينبغى — انصافا للحقيقة — أن نشير إلى أن الحروب الصليبية صحبها بعض النشاط الحضارى والفكرى . ذلك أنه وجد من الغربيين الذين استقروا فى الأراضى المقدسة من كتب فى التاريخ مثل وليم الصورى ، أو فى القانون مثل حنا الإبلينى John of Ibelin وفيلب نافارى ؛ وإن كانت هذه الكتابات لا تنم عن أية تأثيرات عربية . ومن الناحية اللغوية انسابت بعض الكلمات والمصطلحات العربية فى اللغات الغربية ، وإن كانت هناك صعوبة فيلولوجية فى تحقيق نسبة استعارة هذه الألفاظ ، لأن الأرض المقدسة لم تكن وحدها المكان الذى اتصل فيه الغرب الأوربى بالشرق العربى . كذلك أثرت الحروب الصليبية فى تطور فن الحرب عند الغربيين ، لا سيما فيما يتعلق ببناء القلاع ذات الحوائط المزدوجة ، كما سيلى فيما بعد . هذا بالإضافة إلى ما أدت

---

(١) باركر : تراث الإسلام ص ١٠٦ .

إليه الحروب الصليبية من تقدم حركات الحصار واستعمال المجانيق والكباش الهامة . واستخدام الدروع للفرسان وخيولهم ، وإرسال الرسائل الحربية عن طريق الحمام الزاجل . ومن المحتمل أن يكون الشرق الإسلامي إبان الحروب الصليبية هو المصدر الذي أخذ عنه الغرب الأوربي ألعاب المبارزة ، التي تشبه كثيراً ألعاب الجريد (التحطيب) عند الشرقيين . كذلك نلاحظ كثرة استعمال الشارات والرنوك في الغرب الأوربي نتيجة للاتصال بالعرب في الشام[1] . وليس هذا مجال الكلام عما أثارته الحروب الصليبية من نشاط تجاري بين الشرق والغرب ، وأثر هذا في أحوال أوربا السياسية والاقتصادية والاجتماعية . وإنما نكتفي هنا بالإشارة إلى المؤثرات العربية في الحياة الأوربية العامة نتيجة لنمو التبادل التجاري ، فنلاحظ انتقال نباتات وحاصلات وأشجار جديدة من شرق البحر المتوسط إلى غربه — مثل السمسم والأرز والليمون والبطيخ والثوم — وانتشار كثير من العقاقير والأصباغ والتوابل الشرقية في الغرب ، هذا زيادة على إستعمال الأقمشة والملابس التي نسبت إلى البلاد العربيـــة واحتفظت بأسمائها العربية في اللغات الأوربية .

أما المعبر الثـاني الذي انتقلت عنه علوم العرب إلى الغرب فكان جزيرة صقلية ، حيث صار للحضارة العربية شأن كبير في العصور الوسطى . ذلك أن العرب عندما ثبتوا أقدامهم في صقلية في القرن التاسع الميلادي اهتموا بالزراعة ، فحفروا الترع والقنوات ، وأنشأوا المجاري المعقودة التي كانت مجهولة قبلهم ، كما أدخلوا زراعة القطن وقصب السكر . وفي الصناعة استغلوا ثروة الجزيرة الطبيعية ، فاستخرجوا منها الفضة والحديد والنحاس والكبريت . وأدخلوا فيها صناعة الحرير . أما تجارة صقلية فقد اتسع نطاقها في أيام العرب ، بعد أن بلغت الحضيض في العصر السابق مباشرة . ولم يبق الآن في صقلية من مباني العرب سوى القليل النادر ، ولكنها تشهد جميعاً بالروعة والجمال الأخاذ . وحسبنا ما ذكره الإدريسي في وصف بالرمو على عهد روجر الثاني — أي بعد زوال حكم العرب بقليل — إذ شاد بقصورها ودورها ومنتزهاتها . وهكذا يبدو لنا الفارق عظيما إذا قارنا

---

(١) بيكر : تراث الإسلام ص ١١٥ .

بين أحوال صقلية من النواحى الثقافية والعمرانية والاقتصادية والاجتماعية عند بداية احتلال العرب لها ، وبين أحوالها عند نهاية سيطرتهم عليها . على أن الحضارة العربية لم تنته بانتهاء حكم المسلمين للجزيرة ، وإنما وجدت هذه الحضارة فى ملوك النورمان خير مشجع لها . ومن الواضح أن سبب حماية ملوك النورمان لعرب صقلية هو أنهم لمسوا تقدمهم فى الفنون والعلوم والصناعات ، وادركوا أن تشجيع الجالية العربية فى الجزيرة سيعود عليهم بفوائد عظيمة . لذلك شمل روجر الأول ١٠٦١ - ١١٠١ العرب برعايته ، وأحسن المحافظة عليهم وحمايتهم ، بل كتب مراسيمه بالعربية إلى جانب اللاتينية واليونانية(١) . وامتازت النقود التى سكها هذا الملك بأن نصفها جاء مكتوبا عليه بالعربية والنصف الآخر باللاتينية واليونانية : كما أن بعض نقوده أشتمل على رموز الإسلام والبعض الآخر على شعار المسيحية . وقد سار خلفاء روجر على سنته فاستعان روجر الثانى (١١٢٩ - ١١٥٤) بعلماء من العرب ؛ كما درس وليم الثانى (١١٦٦ — ١١٨٤) اللغة العربية ورجع إلى مستشاريه من العرب فى أهم شئونه . ويوجد فى نورمبرج رداء من الحرير اعتاد أن يلبسه ملوك صقلية ، وهو مطرز بكتابات عربية كوفية الخط ، يرجع تاريخها إلى سنة ١١٣٣ . كذلك اتخذ ملوك النورمان بصقلية لأنفسهم حراسا من العرب ارتدوا زيا اختلف عن زى حراسهم من النورمان (٢) . وليس هناك من شك فى أن الشعر العربى كان يمارس فى بلاط ملوك صقلية النورمان ، ولكننا لم نسمع عن المدرسة الصقلية فى الشعر إلا على عصر الامبراطور فردريك الثانى فى القرن الثانى عشر ، وهو الامبراطور الذى اسماه بعض الكتاب «نصف شرقى Semi Oriental» (٣) ، نظرا لما أحاط به نفسه من مظاهر شرقية عربية حتى قيل أنه تعلم العربية وأحاط نفسه بالعلماء والراقصات والمغنيات العربيات وشجع ترجمة الكتب العربية كما شجع الجغرافيين والفلكيين والأدباء العرب (٤) . ويقول المستشرق الكبير أمارى Amari أنه لو زادت معرفتنا بالشعر الشعبى العربى

---

1) Cam. Med Hist. Vol. 5; p 204.
2) Idem; pp. 206-207.
3) Ernsi Kantorrowicz : Frederick the Second (trans. by Lorimer).
4) Cam. Med. Hist: Vol. 5, p. 206. و السلوك ج ١ ق ١ ص ٢٣٢

فى صقلية ، لأصبح من المحتمل أن نكشف عن صلات وثيقة بينه وبين الشعر الإيطالى القديم الذى نشأ فى أواخر العصور الوسطى . كذلك يقول إن الباعث على ممارسة الشعر باللغة العامية فى صقلية هو علم أهلها بأخبار العرب وشعرائهم، وما كانوا يلقونه من تشجيع من الأمراء المسلمين . يؤيد هذا الرأى أن الشعر الشعبى المبكر فى إيطاليا يتفق فى أوزانه مع الشعر الشعبى فى أسبانيا ، مما يدل على أن المؤثر واحد فى الحالتين [١] .

ومهما كان من أهمية الدور الذى أسهمت به كل من بلاد الشام وصقلية فى تغذية غرب أوربا بأصول الحضارة العربية ، فإن الفضل الأكبر يرجع بلا شك إلى عرب أسبانيا فى تقديم خلاصة الفكر العربى فى العلوم والآداب والفلسفة إلى غرب أوربا ؛ فضلا عن تعريف الأوربيين بكثير من تراث اليونان القديم الذى زال من الوجود ولم يبق إلا فى التراجم العربية .

وكانت أسبانيا عندما فتحها العرب فى أوائل القرن الثامن لاتختلف عن بقية بلاد غرب أوربا المعاصرة ، من حيث انتشار الجهل والتأخر والفوضى بسبب النزاع الاجتماعى والفتن الداخلية . ولعل أكبر مظاهر هذا الانحلال والانقسام أن أحد كبار الأمراء اشترك مع رئيس أساقفة أشبيليه فى مساعدة العرب على فتح اسبانيا . ولكن العرب بعد أن فتحوا البلاد نقلوها إلى مرحلة استقرار وإنشاء فاتجهوا نحو إحياء الأرض الميته وتعمير المدن الخربة وتنشيط التجارة الراكدة وانعاش الصناعة المتأخرة ، حتى أصبح الأندلس فى ظل الخلافة الأموية أغنى البلاد الأوربية وأكثرها ازدحاما بالسكان [٢] . ثم اختار العرب أن يوطدوا سلطانهم فى أسبانيا عن طريق العلم ، فانصرفوا نحو العناية بالآداب والعلوم والفنون ؛ وعندئذ لم يقنعوا بما وصل إليه إخوانهم فى المشرق من تقدم، بل زادوا على ذلك وابتكروا وجددوا مما أتاح لأوربا موردا عذبا استساغت شرابه فظلت تنهل منه منذ أواخر القرن الحادى عشر حتى النهضة الإيطاليه فى القرن الخامس عشر [٣] . ولم يدخر الأندلسيون وسعا فى الحصول على علوم الشرق

---

(١) جب : تراث الإسلام ص ١٧٤ .

2) Cam. Med. Hist. Vol. 3; p. 432.

3) Idem; p. 435.

الاسلامي عن ثلاثة طرق ، هي إما استدعاء علماء المشرق مثل أبي علي القالي إلى الأندلس ؛ وإما سفر بعثات من عرب الأندلس إلى المشرق للتزود بالعلوم والمعرفة ثم العودة إلى الأندلس لنشر ماجمعوه من المعارف ومن أمثلة هؤلاء يحيي الليثي ؛ وإما عن طريق جمع الكتب التي هي أهم وسائل النشاط العلمي : حتى قيل إن الخليفة الحكم الثاني « استجلب من بغداد ومصر وغيرهما من ديار المشرق والمغرب عيون التآليف والمصنفات العربية في العلوم القديمة والحديثة... فكثر تحرك الناس في زمانه إلى قراءة كتب الأوائل وتعلم مذاهبهم حتى بلغت مكتبته الآلاف من الكتب » .[1]

ولم يلبث أن اشتد اعجاب الأسبان بثقافة العرب وحضارتهم ، كما يتضح مما ذكره ألفارو الكاتب المسيحي المتعصب في القرن التاسع الميلادي ؛ إذ كتب يقول « إن اخواني المسيحيين يدرسون كتب فقهاء المسلمين وفلاسفتهم ، لا لتفنيدها بل لتعلم أسلوب عربي بليغ . واأسفاه إنني لا أجد اليوم علمانيا يقبل على قراءة الكتب الدينية أو الانجيل ؛ بل إن الشباب المسيحي الذين يمتازون بمواهبهم الفائقة أصبحوا لا يعرفون علما ولا أدبا ولا لغة إلا العربية ! ذلك أنهم يقبلون على كتب العرب في نهم وشغف ، ويجمعون منها مكتبات ضخمة تكلفهم الأموال الطائلة في الوقت الذي يحتقرون الكتب المسيحية وينبذونها ..! »[2] .

وقد بلغت الحضارة العربية ذروتها بالأندلس في النصف الثاني من القرن العاشر ، عندما أصبحت قرطبة — عاصمة الخلفاء الأمويين — من أعظم مدن العالم ، وبها مايزيد على مائتي ألف منزل يسكنها مليون نسمة . ويكفيها فخراً في ذلك العصر أن أهلها كانوا يستطيعون المشي في شوارعها بعد غروب الشمس في ضوء المصابيح العامة ، في حين ظلت مدينة لندن سبعة قرون بعد ذلك لا يوجد في طرقاتها مصباح عام واحد يضيء ليلا[3] . وهكذا استمر شعاع الحضارة العربية

(١) أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢٢ — ٢٣ .

(٢) جوستاف جرونباوم : حضارة الإسلام ص ٨١ — ٨٢ .

3) **Draper : A History of Intellectual Development of Europe; Vol. 2: p. 29.**

مضيئاً فى الأندلس — وبخاصة فى الميادين الثقافية والاقتصادية والفنية — حتى امتد ليضىء غرب أوربا فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ومابعدهما[١].

وساعد على قيام هذه النهضة العظيمة بالاندلس سياسة التسامح التى اتبعها العرب تجاه أهل الذمة من مسيحيين ويهود ، فأقبل المستعربون الأسبان على استعمال اللغة العربية ، بل فضلوها على اللاتينية ، كما تتلمذ كثير من اليهود على أساتذتهم العرب ، مما أوجد مدرسة كبيرة من غير المسلمين استطاع أن يقوم أفرادها بدور السفراء بين حضارة العرب وأهالى غرب أوربا المتلهفين على الاستفادة من هذه الحضارة[٢]. وشارك اليهود بصفة خاصة — فى الحياة الثقافية بالاندلس مشاركة فعالة فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، بما ترجموه من كتب عربية كثيرة ؛ مع ملاحظة أن نشاط يهود أسبانيا فى ذلك العصر كان جزءاً لايتجزأ من نشاط العرب الحضارى[٣]. وعندما سقطت طليطلة فى أيدى المسيحيين سنة ١٠٨٥ ازداد تدفق طلاب العلم من مختلف بلاد غرب أوربا على أسبانيا للاستزادة من الدراسات الإسلامية ، فنشطت حركة الترجمة عن العربية نشاطا منقطع النظير ، واستمرت حتى القرن الخامس عشر ، فترجم كثير من مؤلفات العرب فى مختلف العلوم والفنون ، كما ترجمت عن العربية بعض مؤلفات اليونانيين مثل كتب جالينوس وبقراط وأفلاطون وأرسطو وإقليدس وغيرهم. وقد وجد من حكام أسبانيا المسيحيين من قدروا الثقافة العربية الإسلامية ، ومن هؤلاء ألفونس الخامس ملك قشتالة وليون (١٢٥٢ — ١٢٨٤) الملقب بالحكيم .

وإذ ظن بعض المسيحيين المتعصبين — مثل رئيس الأساقفة أكزيمنيس الذى أحرق ثمانين ألف كتاب من كتب العرب بعد طردهم من أسبانيا — أنهم

---

1) Barker; The European Inheritance; Vol. 1; p. 377.

2) Cam Med. Hist. ; Vol. 3; p. 435.

(٣) إسرائيل ولفنسن : موسى بن ميمون ، حياته ومصنفاته . كذلك أنظر مقدمة الكتاب للمرحوم الأستاذ مصطفى عبد الرازق .

يستطيعون محو آثار الحضارة العربية بالأندلس ، فإن هؤلاء فاتهم أن ماتركه العرب من طرق معبدة وقصور مرفوعة ، ومشاف وفنادق مبعوثة ؛ كل ذلك كان كفيلا بتخليد اسم العرب ، حتى قال لوبون إنه لايوجد فى أسبانيا المعاصرة من أعمال الرى سوى ما أتمه العرب [١] .

وبعد ، فإننا نختتم كلامنا عن المعابر التى انتقلت عنها حضارة العرب إلى الغرب فى العصور الوسطى ، بالإشارة إلى أن المعابر الثلاثة السابقة كانت أهم طرق الانتقال لا كلها . ذلك أنه لم تكن هناك خطة منظمة لترجمة معارف العرب ونقلها إلى اللاتينية فى العصور الوسطى ، وإنما استيقظ الأوربيون من من سباتهم الطويل فى تلك العصور ليجدوا أنفسهم أمام معين لاينضب من المؤلفات العربية فى شتى العلوم والفنون ، فأقبلوا يرتشفون من ذلك المعين بأية طريقة ومن أى مكان يعثرون فيه على ضالتهم . وهكذا نسمع أن أديلاردالباثى قام برحلة طويلة طلبا للعلم ، فطاف بمصر والشام وأسبانيا ، ودرس على العرب علمى الفلك والهندسة . ومثله ليوناردوفيبوناتشى Leanardo Fibonacci الذى عاصر فردريك الثانى (١٢١٢ — ١٢٥٠) وطاف بمصر والشام حيث تعلم أصول علم الجبر من العرب ، وكان أول عالم مسيحى اشتغل به .

والواقع أنه جاء وقت على غرب أوربا فى العصور الوسطى . ضاق فيه الناس بتزمت الكنيسة التى حصرت تفكيرهم داخل دائرة ضيقة ؛ فأصبحوا يتطلعون إلى حياة علمية وفكرية أخصب وأكثر تنوعاً . وفى الوقت الذى قيدت الكنيسة تفكير الأهالى فى غرب أوربا وألزمتهم بحصر نشاطهم الفكرى داخل حدود معينة ؛ كان مفكرو العرب وعلى رأسهم ابن رشد يضربون مثلا فريداً فى حرية الفكر [٢] . وكان أن ولى الأوربيون وجوههم شطر حضارة العرب . وانصرفوا إلى دراسة علومهم فى شراهة بالغة وحماسة كبيرة ؛ مما ترك آثاراً واضحة فى الفكر الأوربى . ولا أدل على عظم أثر العرب فى الحضارة الأوربية من إلقاء نظرة سريعة على أهم مظاهر هذه الحضارة فى النواحى الفكرية والأدبية والفنية ، ومدى تأثرها بحضارة العرب .

---

(١) لوبون . الحضارة العربية ص ٢٩٤ .

2) Singer: From Magic to Science; p. 89.

الأدب :

تأثر الأدب الأوربي في العصور الوسطى وبداية الحديثة تأثراً واضحاً بموضوعات الأدب العربي . ذلك أن الأوربيين في تلك العصور لم يجدوا مايشفي غليلهم في الآداب المعاصرة الجدبة التي أعوزها الخيال الخصب ، فاتجهوا شطر الأدب العربي المعروف بالخصوبة والابداع . ويقول جب « إن خيرما أسدته الآداب الإسلامية لآداب أوربا أنها أثرت بثقافتها وفكرها العربي في شعر العصور الوسطى ونثرها »[1]. وقد ظهرت نزعة جديدة في الأدب الأوربي في شعر التروبادور ، مماجعل الكثيرين يظنون أن هذه الظاهرة جاءت عن طريق الاقتباس من الأدب العربي الذي امتاز بالرومانتيكية البالغة في الغزل الرقيق والرثاء الباكي ونحو ذلك [2]. والمعروف أن الأندلس امتاز بنوع خاص من الشعر الرقيق بداواضحاً في صورة الموشحات والأزجال. ويمتاز هذا اللون من فنون الشعر العربي بصدق تمثيله لنفسية الإنسان وخواطره ، ولم يظهر إلا بعد أن مهدله شعراء العرب في الجاهلية والإسلام بشعرهم الغزلي الرقيق الذي أشادوا فيه بالمرأة وتفننوا في وصف جمالها ومحاسنها . ومهما اختلفت الروايات حول هذا النوع من الشعر ، فالذي يهمنا هو أن جميع هذه الروايات أجمعت على أن هذا الفن أينع وكثر في الأندلس دون سائر الاقطار العربية [3] . وهنا نجد لوناً مشابهاً لهذا الشعر الأندلسي الخفيف يظهر في شمال أسبانيا وإقليم بروفانس بجنوب فرنسا ، وذلك منذ أواخر القرن الحادي عشر ، ثم شق طريقه إلى مختلف الدول الأوربية وبخاصة إيطاليا . بل إن بعض العلماء أثبتوا أن غزل الفروسية الذي انتشر بعد ذلك بقية العصور الوسطى في ألمانيا متأثر إلى حد كبير بأشعار التروبادور التي تغنى بها فرسان فرنسا [4] . وقد وجد من الباحثين عند

(١) جب : تراث الإسلام ص١٨٩ — ١٩٠ .
(٢) أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٣٠٨ .
(٣) جورج يعقوب : أثر الشرق في الغرب ص ٨٦ .

4) Draper: A History of Intellectual Developoment of Europe: Vol. 2; pp. 33–34.

منتصف القرن التاسع عشر من قال بأن أشعار التروبادور التى ظهرت فى بروفانس فى أواخر القرن الحادى عشر ليست مأخوذة من الشعر العربى الأندلسى ، وأنها جاءت نتيجة لتطور طبيعى فى الشعر الفرنسى القديم . ولكن هذا الرأى الذى أملته روح التعصب والوطنية وجد من يرد عليه من باحثى الغرب . فالجدة فى أشعار التروبادور ليست فى موضوعات هذه الأشعار ، وإنما فى طريقة صياغتها. ذلك أن العشق الذى يعبر عنه ذلك الشعر يمتاز بالصّقل وقوة الخيال، فضلا عن عفته حتى أنه وجد مثله الأعلى فى الزوجة الوفية المثالية ، وهذه كلها أمور لم تعرفها أوربا فى العصور الوسطى التى انتهكت المرأة وأذلتها ، والتى أحاطت فيها الكنيسة المرأة بنطاق من العذرية حال دون التغزل فيها والاشادة بها [١].

من هذا يبدو أن الخصائص التى امتاز بها شعر التروبادور جعلته يقوم على تقاليد أدبية ثابتة لا يوجد لها نظير فى الشعر الأوربى السابق . ولا يمكن أن تتحقق أواخر القرن الحادى عشر — على الأقل — إلا فى أشعار أسبانيا العربية . وإذا كانت هناك صعوبة فى تفسير الطريقة والأداة التى انتقل بها الشعر العربى الأندلسى إلى إقليم بروفانس فإن هذه الصعوبة يمكن تفسيرها على أساس جهود المسيحيين الأسبان الذين استعربوا وخضعوا العرب ، وبالتالى قاموا بدور هام فى نقل بذور الثقافة العربية إلى البلاد المسيحية المجاورة من جهة الشمال[٢] .

وإن موازنة سريعة بين الأزجال التى كتبها الشاعر الأندلسى ابن قزمان فى أوائل القرن الثانى عشر ، وبين أشعار التروبادور فى اقليم بروفانس ، لتوضح لنا أن الأخيرة صيغ معظمها فى الأوزان نفسها التى صيغت فيها أشعار ابن قزمان هذا فضلا عن وجود وجه آخر يغلب الرأى القائل بأن أشعار التروبادور مأخوذة من الشعر الأندلسى . فإذا كان الزجل الأندلسى قد استند إلى موسيقى يوقع عليها ، فإن شعراء التروبادور فى بروفانس أخذوا يوقعون أشعارهم على آلات موسيقية ويتجولون بها قاصدين بيوت الحكام والأمراء . وهذه الأدلة التى تشير إلى أن شعر التروبادور إنما جاء وليدا لمؤثرات عربية أندلسية ، جعلت بعض الباحثين يؤيدون الرأى القائل بأن لفظ تروبادور نفسه ليس إلا تحريفاً

---

(١) جب : تراث الإسلام ص ١٠٦ — ١٦٦ .

2) Cam. Med. Hist. Vol. 3; p. 438.

اللفظ العربى « هور طرب » لا سيما وأن لغة بروفانس — شأنها شأن كثير من اللغات الأوربية ، تقدم الصفة على الموصوف والمضاف إليه على المضاف ، فقالوا « طرب دور » التى حرفت إلى تروبادور[1] .

وثمة ظاهرة جديدة بالملاحظة فى الشعر الساطنى الأوربى الذى ظهر خلال الشطر الأخير من العصور الوسطى ، هى العناية بالقافية . والمعروف أن الشعر الأوربى الكلاسيكى لم يهتم بالقافية ، ولم يعطها عناية تذكر فى مختلف أدواره ، بخلاف الوضع فى الشعر العربى الذى يرتكز على القافية ويعتبرها منذ نشأته ركنا من أهم أركانه . وهذه الظاهرة جعلت كثيرا من الباحثين والمستشرقين يعتقدون أن القافية جاءت أوربا عن طريق الشعر العربى[2] . ولعل هذا الرأى هو الذى دفع بعض المتعصبين من رجال الغرب إلى محاربة القافية فى الشعر ، بحجة أنها لم ترد فى الشعر الكلاسيكى . ولكن ذلك لم يمنع المنصفين من المستشرقين — مثل جورج يعقوب — إلى القول بأن القافيـة هى التى خلقت ذلك الأثر القوى فى شعر جوته الوجدانى ، وإليها يرجع الفضل فى هذه الموسيقى الجميلة التى يحسها القارىء لشعر بلاتن ونثر ستفن جورج وغيرهما من أعلام الأدب فى أوربا[3] .

هذا من ناحية الشعر . أما الأثر العربى فى النثر الأوربى فليس فيه مجال للشك . فاهتمام الأوربيين بالدراسات والكتب العربية العلمية صحبه اهتمام آخر بالمؤلفات الأدبية عند العرب ، وبصفة خاصة القصص الخرافيـة ذات المغزى الأخلاقى أو التى تتخذ الحيوان موضوعا لها . وهذا اللون من الأدب شرقى عرفه الشعر العربى قبـل أن يظهر فى الأدب الأوربى بقرون طويلة ، كما هو واضح فى لاميـة الشنفرى . وكان الأدب الأسبانى هو أول ما تأثر بالأدب العربى ، فنقل بطرس ألفونس اليهودى من العربية إلى الأسبانية مجموعة قصص هندية ، هى التى عرفت باسم « التعليم الكنسية Disciplina Clericalis . وفى سنة ١٢٥١ ترجمت من العربية إلى الأسبانية أيضا مجموعة القصص الهندية المعروفة

---

(٢) أحمد أمين : ظهر الإسلام — الجزء الثالث .

(٣) لوبون : حضارة العرب ص ٤٧٣ .

(١) جورج يعقوب : أثر الشرق ص ٨٤ .

باسم « كليلة ودمنة » . وأعقب ذلك بقليل ترجمة قصص الحكماء السبعة أو السندباد سنة ١٢٥٣ ، ثم كثرت بعد ذلك تراجم الحكم والقصص الخلقية . وانتشرت فى أوربا بوجه عام . وقد استمرت روح الأدب العربى فى الأندلس بعد جلاء العرب عنه ، ويقول جب إنه قل من يستطيع أن ينكر أن ما تمتاز به آداب الجنوب الأوربى من انبساط وخيال خصب يرجع إلى تأثر تلك الآداب بالمؤثرات العربية ، كما يرجع إلى ماخلفته الثقافة العربية من آثار فى أهل الأندلس[1] .

وقد لاحظ الباحثون أوجه شبه واضحة بين القصص العربى الخيالى وبين بعض القصص التى عرفتها أوربا فى العصور الوسطى . مثل قصة إيزولد ذات اليد البيضاء (Isolde Blanchemain) وقصة فلورا والزهرة البيضاء (Floire et Blanche Fleure) . وتتضح الروح العربية فى القصة الأخيرة بوجه خاص ، وهى شديدة الشبه بالقصة الشائعة « القاسم ونيقولت Aucassin te Nicoletts » التى لا يرقى الشك إلى أصلها العربى ، كما هو واضح من اسم بطلها « القاسم » . ولا عجب ، فالعرب — كما يقول لوبون — هم الذين ابتدعوا روايات الفروسية فى الأدب[2] . وهكذا استطاع الأدب العربى أن يؤثر تأثيرا واضحا فى القصص الأوربى ، ليس فقط فى العصور الوسطى ، بل الحديثة . فالروح الأندلسية تبدو واضحة فى قصة أمادس دى جولا Amadis de Gaula التى كتبها عدة قصاص فى القرن الخامس عشر كما تبدو فى غيرها من القصص الأوربى الذى وضع فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، والمهم فى أمر هذه القصص أنها تعبر فى مجموعها عن صدى الثقافة العربية الاسلامية فى الفكر الأوربى ، وهو الصدى الذى كان نذيرا بانقلاب هام فى تاريخ الأدب الغربى الحديث ، لأنه أدى إلى مولد القصة الحديثة Novel . وحسبنا أن سرفانتيس Cervantes (١٥٤٧ — ١٦١٦) الكاتب الاسبانى المعاصر لشكسبير — وهو يعتبر من أعظم كتاب القصة العالميين — تأثر بالثقافة

---

(١) جب تراث الإسلام ص ١٩٢ .

(٢) لوبون : حضارة العرب ص ٤٧٤ .

العربية الأندلسية ، كما يبدو ذلك بوضوح فى قصته (Don Quixoto) التى تعتبر من خير ما أنتجته العقلية الأوربية فى ميدان الأدب[١] . هذا عدا الاقبال العظيم الذى لقيته قصص ألف ليلة وليلة من الجمهور الأوربى منذ أن ترجمت سنة ١٧٠٤ ؛ حتى ظهر لها فى القرن الثامن عشر وحده أكثر من ثلاثين طبعة ، ونشرت منذ ذلك الوقت أكثر من ثلثمائة مرة بمختلف اللغات الغربية . وإلى هذه القصص يرجع الفضل فى إثارة روح المغامرة فى الأوربيين ، تلك الروح التى لا بد منها لكل أدب شعبى ، حتى اعترف الأستاذ جب بأنه لولا قصص ألف ليلة وليلة لما عرف الأوربيون قصة روبنسن كروزو ، أو قصة رحلات جلفر Gullivérs Travels[٢] . ويضيف جورج يعقوب أن قصة روبنسن كروزو مأخوذة عن قصة حى بن يقظان التى كتبها فيلسوف الأندلس ابن طفيل، والتى ترجمت إلى اللاتينية ١٦٧١ ، وإلى الانجليزية سنة ١٧٠٨[٣] .

ويرجح البعض أن المقامات العربية أثرت هى الأخرى فى الأدب الأوربى فى العصور الوسطى ومستهل الحديثة . والمعروف أن هذه المقامات تتألف من قصص متفرقة بطلها شخص يستغل خفة روحه وسعة حيلته فى كسب قوته . واشهر هذه المقامات مقامات الحريرى ومقامات بديع الزمان الهمذانى . وقد وجد شبيها لها فى بعض الروايات الأسبانية التى تدور حول حياة المشردين والصعاليك والتى أحرزت إقبالا كبيرا فى القرن السابع عشر . وهذه قصة الفارس ثيفار El Cavallero Cifar تضم إلى جانب روحها الشرقية حادثة من الحوادث التى اقترن أسمها فى الرواية العربية باسم جحا[٤] .

وأخيراً نختتم كلامنا عن أثر الأدب العربى فى الآداب الأوربية بالإشارة إلى أن اللغة العربية نفسها كان لها هى الأخرى أثر عميق فى اللغات الأوربية . فعدد الألفاظ العربية فى اللغتين الأسبانيـة والبرتغالية أضخم من أن يتصوره

---

(١) جب : تراث الإسلام ص ١٩٤ .
(٢) المرجع السابق ص ٢٠٢ .
(٣) جورج يعقوب : أثر الاسلام ص ٨٦ .
(٤) جب . تراث الإسلام ص ١٨٨ .

العقل . وقد عمل دوزى معجما للالفاظ ذات الأصل العربي الشائعة في هاتين اللغتين ، ورغم ضخامة هذا المعجم فإنه يعترف بأن هناك ألفاظا أخرى كثيرة يمكن أن تضاف إليه[1] . كذلك تركتب اللغة العربية أثراً واضحاً في فرنسا ـ لا سيا الجهات الجنوبية ـ حتى أن اللهجات السائدة في أوفرن Auvergne وليموزان Limousin محشورة بالكلمات العربية ، كما أن أسماء الأعلام فيهما ذات مسحة عربية واضحة[2] . أما اللغة الإنجليزية وفيها وحدها ما يقرب من ألف كلمة مشتقة عن لأصل عربي ، منها حوالي مائتين وكلمتين كلمة من الكلمات الشائعة الكثيرة الاستخدام في الحياة اليومية[3] . وقد قسم تايلور هذه الكلمات تقسيماً موضوعياً ، فمنها ما هو خاص بأسماء الحيوانات والطيور ، ومنها ما يرتبط بالفلك والكمياء والنبات أو بالأقمشة والملابس ، أو المأكل والمشرب ، هذا عدا الاصطلاحات المتعلقة بالطب والجراحة والموسيقى والحروب[4] . ويبدو ان الجامعات الأوربية الناشئة أحست باهمية اللغة العربية كلغة للعلم والمعرفة ، فحرص بعضها على إدخال دراسة اللغة العربية فيها منذ القرن الثالث عشر[5] .

الفلسفة :

أما عن أثر المسلمين فى التفكير الفلسفى لأوربا فكان عظيما ، حتى قال ترند إن أعظم ما خلفه المسلمون للفكر الأوربى هو أعمال فلاسفتهم[6] . والمعروف أن المشرق الإسلامى شهد نشاط بعض كبار الفلاسفة مثل الفارابى (ت ٨٥٠) والكندى (ت ٨٧٣) وابن سينا (ت ١٠٣٧)[7] ، ولكن تأثير الفلسفة الإسلامية على الفكر الأوربى الغربى كان مركزه أسبانيا ، لأن أوربا لم تعرف

1) Dozy: Glossaire des mots Espagnols et Portugais derives de l'Arabe.

(٢) لوبون ـ حضارة العرب ص ٤٦٦ .

3) Walt Taylòr: Arabic Words in English; p. 567.

4) Idem pp. 569-583

5) Rashdall : op cit.; Vol. 2; pp. 90-91.

(٦) ترند . تراث الإسلام ص ٥٥ .

7) Cam. Med. Hist.; Vol. 4; p. 295.

فلاسفة المشرق إلا عن طريق الأندلس ، حيث أشرف ريموند أسقف طليطلة على ترجمة أعمال الفارابي وابن سينا والغزالي وغيرهم[1] . وهنا نشير إلى أن الصلات الفكرية والعلمية ظلت قوية بين المشرق والمغرب الاسلاميين ، رغم ما حدث بينهما من شقاق سياسي . ولاشك في أن وحدة اللغة والدين في جميع أنحاء العالم الاسلامي ساعدت على نشاط التبادل الفكرى وانتقال العلماء والكتب بين المشرق والمغرب وقد لخص الأستاذ أحمد أمين العوامل التي أعانت أهل الأندلس على التفلسف في انتقال بعض البغداديين إلى الأندلس ، وتعليم أهله ما وصل إليه أهل المشرق من تفكير ،وفي نشاط أهل الأندلس في نقل الكتب إلى بلادهم ومنها كتب فلسفية كثيرة ترجمت عن اليونانية ،ثم في تحسن العلاقات أحيانا بين خلفاء بنى أمية الأندلسيين وبين أباطرة القسطنطينية فكان الأخيرون يهدون إلى خلفاء الأندلس بعض الكتب اليونانية في الفلسفة والعلوم . ومن ذلك ما قيل من أن امبراطور القسطنطينية أهدى عبد الرحمن الناصر سنة ٣٣٨هـ (٩٤٩ م) هدايا عظيمة منها كتاب ديسقوريدس باليونانية . فسأل الخليفة عبد الرحمن الامبراطور أن يبعث إليه رجلا يتكلم اليونانية ليعلم عبدا له ، فبعث إليه الامبراطور راهبا يسمى نيقولا وصل قرطبة سنة ٣٤٠ هـ (٩٥١م) حيث حظى عند عبد الرحمن الناصر[2] .

وهكذا لم ينفرد المشرق الاسلامي وحده بالعناية بعلوم اليونان ، وإنما شاركه في ذلك المغرب أيضاً ؛ هذا في الوقت الذى انقطعت الصلة بين الغرب اللاتيني وعلوم اليونان ، مما جعل العرب أصحاب فضل عظيم في المحافظة على كتب أرسطو بل في تعريف الأوربيين ببعض هذه الكتب[3] . فاتصال العقلية الأوربية الغربية بالفكر العربي هو الذى أثار حماسة الأوربيين لدراسة الفلسفة اليونانية وهنا يتساءل الأستاذ جيوم : إذا لم يكن التأثير الأول الفعال عربيا فكيف نفسر اختلاط اسم أرسطو بالتعاليم المنسوبة إلى ابن رشد أجيالا طويلة[4] ؟ والواقع — كما قال روجر بيكون — هو أن معظم فلسفة أرسطو

1) Pirenne: La Civilisation Occidentale; p. 226.

(٢) أحمد أمين . ظهر الإسلام ج ٢ ص ٢٣٢ — ٢٣٤ .

3) Rashdall :lop. cit.; Vol. I; p. 353.

(٤) جيوم : تراث الإسلام ص ٢٤ .

ظلت عديمة الأثر في الغرب لضياع المخطوطات التي حوت هذه الفلسفة، أو بدرتها وصعوبة تذوقها حتى ظهر فلاسفة المسلمين فقاموا بنقل فلسفة أرسطو وشرحها وعرضها على الناس عرضا شاملا .

وإذا كان المشرق الإسلامي امتاز بفلاسفته العظماء الذين سبق أن ذكرناهم، فإن الأندلس كان له أيضاً فلاسفته الذين ضربوا الرقم القياسي في حرية التفكير وتركوا أبعد الأثر في الفكر الأوربي. وأهم فلاسفة الأندلس ثلاثة هم ابن باجه وابن طفيل وابن رشد ؛ وهؤلاء جميعاً كان تأثيرهم في غرب أوربا أكثر منه في العالم الإسلامي[1] . ويهمنا ابن رشد بالذات بوصفه أكبر شارح لفلسفة أرسطو ذلك أنه أعجب بأرسطو إعجابا شديداً جعله يضع ثلاثة شروح على فلسفته . وفي ذلك يقول رينان « ألقى أرسطو على كتاب الكون نظرة صائبة ففسره وشرح غامضة ، ثم جاء ابن رشد فألقى على فلسفة أرسطو نظرة خارقة ففسرها وشرح غامضها » .[2] ويكفي ابن رشد جرأة أنه أطلق لتفكيره العنان فضرب مثلا فريداً في حرية الفكر، ولم يبال بتهم الزندقة والكفر والإلحاد التي وجهت إليه ، وإنما أعلن آراءه في صراحة تامة حتى اعتبره الغربيون أكبر مثل لحرية الفكر[3] . وإذا كان بعض الفلاسفة المسلمين كابن سينا ، وغير المسلمين كابن ميمون ، عملوا على تقريب وجهات النظر بين آراء أرسطو من ناحية والمبادىء الدينية السماوية من ناحية أخرى ، فإن ابن رشد رفض أن يحيد عن طريقته من أجل ذلك الغرض واختار أن يعبر عن آراء أرسطو تعبيراً صادقاً ؛ فقال بأن العقل العام المطلق أبدي قابل للانفصال عن الجسم ، وأنكر الخلود والبعث ، وصرح بأن على المرء ألا ينتظر ثواباً أو عقاباً غير ما يلقاه في الحياة الدنيا . كذلك تعرض ابن رشد للفلسفة الخلقية والاجتماعية فأعلن كرهه للاستبداد

---

1) Cam. Med. Hist.: Vol. 4; p. 286.

2) Renan: Averroes et Averroisme: p. 12.

(٣) ابن رشد . كتاب الكليات ص ١١ — ١٧ .

ورأى عدم وجود خلاف بين الرجال والنساء فى الطبع وإنما الاختلاف بينهما فى الكم[١] . .

وقد نادى بعض الباحثين بان ابن رشد لم يبتكر شيئاً فى فلسفته ، وأن هذه الفلسفة بصفة عامة إنما هى فلسفة أسلافه ومعاصريه من العرب أمثال الكندى والفارابى وابن سينا وابن باجه؛ وكلها تعالم فلسفة أرسطو ، ولكن الواقع هو أن ابن رشد أضاف إليها نظريات من الافلاطونية الحديثة فضلا عن شروح فلاسفة العرب . وفاق ابن رشد الجميع فى دقة النقد وشدة التعمق وقوة الأدلة ، فجاء شرحه أوفى شروح العصور الوسطى ، حتى قيل أنه إذا اعتبر أرسطو الفيلسوف الأكبر فإن ابن رشد هو الشارح الأعظم[٢] . بل إن جوستاف لوبون يرى أن ابن رشد سبق أرسطو فى بعض الأحيان وأن فلسفته لاتزال مقبولة . أما جيوم فقال عن ابن رشد أنه ينتسب إلى أوربا والفكر الغربى أكثر من انتسابه إلى الشرق والفكر الإسلامى .

ومهما كان الأمر ، فمن الواضح أن آراء ابن رشد السابقة خالفت تعاليم الكنيسة ، ولذلك أحدثت هياجا عاما فى غرب أوربا . وسرعان ما ظهرت نقمة الكنيسة على أرسطو وابن رشد جميعاً ، فأصدرت عدة قرارات فى القرن الثالث عشر بتحريم تعليم آرائهما وتبادلها ، مع توقيع قرار الحرمان ضدّ كل من يردد فلسفة هذا أو ذاك[٣] . على أن هذا الحظر لم يحل دون انتشار فلسفة ابن رشد وآرائه فى البلاد الغربية فاستمرت تدرس فى الجامعات الأوربية فى القرن الثالث عشر ، وظل تاثيرها متغلغلا وبخاصة فى إيطاليا حتى القرن السادس عشر[٤] . ويكفى أن دانتى وضع ابن رشد فى قائمة الفلاسفة العظام الذين يفخر بهم التاريخ[٥] .

---

(١) ابن رشد. كتاب الكليات ص ١١ — ١٧ .

Renan: op cit ; pp. 69-162.

2) Rashdall: op cit; Vol 1; p. 369.

3) Cam. Med Hist.; Vol. 6 ; pp. 712-714.

4) Renan: op. cit.; pp. 220-316.

5) Dampier : op. cit. ; p. 40.

ويبدو أثر فلسفة ابن رشد واضحا فى خروج كثير من الغربيين على تعاليم الكنيسة وتمسكهم بمبدأ حرية الفكر وتحكيم العقل على أساس المشاهدة والتجربة وقد ظهر أثر آراء ابن رشد واضحا فى فلسفة القديس توما الاكوينى (١٢٢٥ — ١٢٧٤) ، حتى أن الفصول التى كتبها توما فى العقل والعقيدة وعجز العقل عن إدراك الاسرار الإلهية ، ليست إلا مقابلا لما كتبه ابن رشد فى باب « فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة » . هذا إلى أن كلا منهما سلك طريقا واحداً فى معالجة وجود الله ووحدته . وقد بلغ من تأثر توما بفلسفة ابن رشد ، أن كتاب « الخلاصة Summa » لتوما يحوى بعض مذاهب اسلامية الأصل بما يثبت أن الأثر الذى تركه ابن رشد فى عقلية الغرب لم يكن مجرد شرح لكتابات أرسطو ، وإنما كان أبعد وأعمق من ذلك بكثير[1] .

الرياضيات .

أما فى الرياضيات فنجد أثر العرب واضحا سواء فى الحساب أو الهندسة أو الجبر أو حساب المثلثات أو الميكانيكا أو الفلك[2] . والمعروف أن المسلمين بنوا معارفهم فى الرياضيات على أساس من علوم اليونان والهنود ، ثم تقدموا بهذه العلوم وخطوا بها خطوات واسعة نحو الأمام حتى ظهر منهم فى المشرق علماء مبرزون فى العلوم الرياضية مثل الخوارزمى (٨٣٥ — ٨٤٤) وثابت بن قره (ت ٩٠١) والبتانى (ت ٩٢٩) والخازن البصرى (ولد حوالى ٩٦٠) وعمر ابن ابراهيم الخيام (ت ١١٣٢)[3] . أما فى المغرب الاسلامى فقد ظهر مسلمة المجريطى إمام الرياضيين بالاندلس (ت ١٠٠٧) والذى كان من تلاميذه ابن السمح (ت ١٠٣٤) وابن الصفار والكرمانى وأمية ابن أبى الصلت وغيرهم[4] .

---

1) Renan: op. cit; pp. 237-246.

2) Draper: A History of Intellectual Development of Europe Vol. 2; p. 93.

3) Ball: op. cit. ; pp. 155-163.

(٤) أحمد أمين . ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢٧٠ — ٢٧٣ .

وتقدم المسلمون بالحساب خطوات واسعة، فاضافوا إلى معلومات اليونانيين كثيرا من النظريات التى لم تعرفها أوربا من قبل ، كما علموا الأوربيين نظام الأعداد الهندى الذى يمثل ثورة شاملة فى علم الحساب[١] . ويتضح لنا تسهيل هذا النظام العددى للعمليات الحسابية إذا قارنا بينه وبين النظام العددى الرومانى . فنظام الأعداد الجديدة الذى عرفته أوربا عن العرب ، يمكن فيه أن تتغير قيمة الرقم الواحد حسب وضعه فى خانة الآحاد أو العشرات أو الألوف أو الملايين، فى حين أن قيمة الرقم لا تتغير فى النظام الرومانى بتغير خانته ، فرقم خمسة (٥) مثلا لا يمكن أن يعنى خمسين أو خمسمائة أو خمسة آلاف[٢] . وهكذا إذ أردنا أن نكتب عدداً مثل ٣٨٣ بالأرقام اللاتينية — التى لم تعرف أوربا غيرها فى العصور الوسطى — فانه يكتب على هذا الوضع CCCLXXXIII[٣]. ونستطيع أن نتصور مدى التعقيد الذى يصيب العمليات الحسابية من جمع وطرح وضرب وقسمة عند استخدام هذا النظام العددى الرومانى ؛ فما بالنا بالأعداد الكبيرة التى تعبر عن الآلاف والملايين أو فى الجداول الرياضية والمعادلات .

حقيقة أن الأعداد الجديدة المستخدمة حاليا فى الغرب ليست من اختراع العرب ، إذ من المرجح أنها هندية الأصل ، كما أشار العرب أنفسهم وكما يتضح من طريقة كتابتها من اليسار إلى اليمين ، بعكس الطريقة المتبعة فى كتابة معظم اللغات السامية وهى من اليمين إلى اليسار . ولكن يكفى العرب فضـــلا أنهم أوصلوا هذه الطريقة الجديدة إلى أوربا وريحوا الأوربيين من تعقيد النظام العددى الرومانى العقيم ، وبذلك سهلوا العمليات الحسابية وساعدوا على تقدم الرياضيات[٤] .

وقد كتب البيرونى رسالة هامة فى الأعداد ونسبها أسماها « راشيكات

---

1) Cam. Med. Hist.; Vol; IV; p. 298.

2) Eyre: op. cit. ; Vol. 3; p. 298.

(٣) الأرقام الرومانية هى I = ١ ، V = ٥ ، X = ١٠ ، L = ٥٠ ،
C = ١٠٠ ، D = ٥٠٠ ، M = ١٠٠٠

4) Dampier: op. cit.; p. 89.

الهند »[١] ، كما شرح اليعقوبى فى تاريخه نظام الأعداد الجديد الذى أخذه العرب عن الهنود فقال « ... ووضع التسعة الأحرف الهندية التى يخرج منها جميع الحساب الذى لا يدرك معرفتنا ، وهى ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ٠ فالأول منها واحد وهو عشرة ومائة وهو ألف ومائة ألف وهو ألف ألف .. وعلى هذا الحساب يجرى التسعة أحرف فصاعدا . غير أن بيت الواحد معروف من العشرة وكذلك بيت العشرة معروف من المائة وكذلك كل بيت . وإذا خلا بيت منها يجعل فيه الصفر ويكون الصفر دارة صغيرة » .

وهنا نجد اليعقوبى يشير إلى رمز حسابى جديد هو الصفر ، الذى يعتبر من أخطر المبادىء التى اهتدى إليها العقل البشرى فى الرياضيات . ولم يعرف الغرب استعمال الصفر إلا عن طريق العرب فى القرن الثانى عشر ، حتى قال أير أن فكرة الصفر تعتبر من أعظم الهدايا العلمية التى قدمها المسلمون إلى غرب أوربا[٢] . وكان العرب قد استخدموا لفظ (صفر) للدلالة على (لا شىء) منذ العصر الجاهلى ، كما يبدو فى البيت التالى الذى جاء فى قصيدة لحاتم[٣] :

ترى إن ما أهلكت لم يك ضربى   وإن يدى مما بخلت به صفر

وفى القرن الثامن الميلادى استخدم المسلمون الصفر فى الحساب ، فرسموه على هيئة حلقة ، كما ذكر اليعقوبى فى النص السابق . كذلك ذكر محمد بن أحمد فى (مفاتيح العلوم) أنه إذا لم يظهر فى العمليات الحسابية رقم مكان العشرات وجب أن توضع دائرة صغيرة لمساواة الصفوف . ثم شرح الخوارزمى كيفية استعمال الأعداد الجديدة ، بما فيها الصفر ، فى بحث له ترجمه الأوربيون إلى اللاتينية فى الربع الأول من القرن الثانى عشر تحت اسم (Algoritmi de numero Indorum) أى الخوارزمى عن أرقام الهنود[٤] . وهكذا اشتق

---

(١) رسائل البيرونى ؛ الرسالة الرابعة .

2) Eyre : op. cit. ; Vol. 3; p. 299.

(٣) جورج يعقوب . أثر الشرق ص ٢٤ .

4) Cam Med. Hist.; Vol. V; p. 298 & Ball : op. cit ; p. 156.

اللفظ الأوربى Ciuher عن (صفر) بالعربية ، وهو يعنى أيضاً فى اللغات الأوربية (لا شىء أو عديم القيمة)، فاستخدم مارتن لوثر هذا اللفظ للتعبير عن ضعف الأساقفة أمام البابا فقال أنهم كالأصفار . وفى القرن السادس عشر استخدم اللفظ الأوربى السابق للدلالة على الكتابة الغامضة أو الشفرة Chiffre، فى حين استخدم لفظ Zero بمعنى لا شىء .

وهكذا تلقى غرب أوربا نظام الأعداد الجديد مقرونا باسم الخوارزمى ، وسرعان ما حور اسم الخوارزمى فى اللغة اللاتينية — وهو Algoritmi إلى Algorismus ، ثم اختصر بعد ذلك إلى Augrim ، حتى أصبح هذا اللفظ الأخير علما لنظام الأعداد العشرى الجديد ويدل كل ذلك على أن الغربيين تعلموا الحساب الحديث عن كتاب الخوارزمى السابق ،وعن الكتب الأخرى التى أخذت عنه ، مثل كتاب Carmen de Algorismo الذى وضعه اسكندر دى فيلادى Alexander de villaDie حوالى سنة ١٢٢٠ ،وكتاب Algorismus vulgaris الذى وضعه حنا الهالفكسى John of Halifax حوالى سنة ١٢٥٠ . وكل من هذين الكتابين الأخيرين مبنى إلى حد كبير على كتاب محمد بن موسى الخوارزمى فى الحساب ، كما أن كلاهما استمر مرجعا لتلقين الحساب فى غرب أوربا عدة قرون . وما زالت اللغة الإنجليزية حتى اليوم تستخدم لفظ الجورزم Algorithm وهو تحريف لاسم الخوارزمى — للتعبير عن الطريقة الوضعية فى حل المسائل[١] .

ولم يقتصر فضل العرب على أوربا فى ميدان الرياضيات على علم الحساب ، وإنما امتد إلى بقية العلوم الرياضية ؛ وعلى رأسها علم الجبر الذى لا يزال محتفظا باسمه العربى فى كافة اللغات الأوربية (Algepra, Algebre) ، بعد أن أخذه الأوربيون عن العرب[٢] . وإذا كان بعض الباحثين يميل إلى الاعتقاد بان العرب ليسوا هم الذين وضعوا أصول علم الجبر ، وأن هذه الأصول عرفت منذ أيام

---

(١) أنظر مقدمة (كتاب الجبر والمقابلة للخوارزمى) . نشر الكتاب ووضع المقدمة الأستاذان على مصطفى مشرفة ومحمد مرسى احمد .

2) Eyre : op. cit.; p. 299.

ديوفانتوس Diophantus وهو عالم يونانى عاش فى القرن الثالث ، إلا أنه يكفى العرب فخراً أنهم اكتشفوا أصول علم الجبر وأضافوا إليها وحولوها تحويلا تاما وخلقوا منها علما حقيقياً بمعنى الكلمة ، ثم طبقوا هذا العلم على الهندسة[1] وقد بلغ من اهتمام العرب بعلم الجبر أن الخليفة المأمون كلف محمد بن موسى الخوارزمى بوضع كتاب فى هذا العلم ، وهو الكتاب الذى نقله إلى اللاتينية روبرت الشسترى Ropert of Chester سنة ١١٤٥ ، وبذلك قدم علما جديدا إلى أوربا ، إذا ظل هذا الكتاب مستعملا فى المدارس والجامعات الأوربية حتى القرن السادس عشر[2] . ومن علماء العرب الذين كتبوا فى الجبر أيضاً أبو بكر محمد بن حسن الكرخى المتوفى بين سنتى ١٠١٩ ، ١٠٢٩ ، ويعتبر من أكبر علماء العرب الذين شهدتهم بغداد على عهد أبى غالب محمد بن خلف الملقب فخر الملك وزير بهاء بن عضد الدولة بن بويه .ومن أجله صنف الكرخى كتابين « الفخرى فى الجبر والمقابلة »[3] وكتاب « الكافى فى الحساب » . والكتاب الأول أكثر أهمية ، ويلى فى أهميته الكتاب الذى وضعه عمر بن إبراهيم الخيام (١٠٤٥ — ١١١٣) فى علم الجبر[4] .

أما فى الهندسة وعلم المثلثات فقد ترجم العرب كتاب إقليدس فى الهندسة ، وهى الترجمة العربية التى نقلها الأوربيون إلى اللاتينية فى القرن الثانى عشر . كذلك تراجم الطوسى(ت ١٢٧٤) كتاب المعطيات لاقليدس ، وهو فى هندسة الأشكال الكروية[5] ولكن العرب لم يقتصروا على معلومات اليونان فى الهندسة وحساب المثلثات ، وإنما جددوا وأضافوا إضافات جديدة لم تعرف من قبلهم .فهم الذين أدخلوا المماس إلى علم حساب المثلثات ،وكان لهذه الخطورة أهمية عظمى فى الرياضيات ، حتى اعتبرها علماء الرياضة ثورة علمية خطيرة .

---

1) Woepcke: Extrait du Fakhri (Traite d'Algebre) pp. 3-5.
2) Cam. Med. Hist. Vol.4; p. 298.
3) Woepcke: op. cit.
4) Enc. Isl. art.: al-Karkhi.
5) Sedillot: op. cit. ; Tome 2; pp. 41-52.

كذلك أقام العرب الجيوب مقام الأوتار ،وحلوا المعادلات المكعبة ، وتعمقوا فى أبحاث المخروطات ، ولا شك فى أن هذه المعلومات الجديدة هى التى جعلت العلوم الرياضية تتبوأ أهميتها فى الحياة . ومن أبرز العلماء المسلمين الذين كتبوا فى الهندسة وحساب المثلثات الخوارزمى، وثابت ابن قرة ، والبتانى ، والخازن البصرى ، وابن الهيثم ، والبيرونى . وارتقى أبو عبد الله البتانى (٨٥٠ — ٩٢٩) — المعروف عند الأوربيين باسم Albategnus — بعلم حساب المثلثات إلى أبعد مبادئه التى كان عليها أيام بطليموس السكندرى ، وذلك حين استبدل المثلثات بالمربعات فى حل المسائل ، واستبدل جيب الزاوية بالقوس . وهو الذى صاغ فى حساب المثلثات النسب بالصورة التى نستخدمها الآن[١] . أما رسالة ابن الهيثم فى حساب المثلثات فتسمى « شكل بنى موسى »، وهو يعلل هذه التسمية « بأن الأشكال التى قدمها بنو موسى ببراهين ، كتاب المخروطات وهو الشكل الأخير من مقدماتهم »[٢] أما البيرونى فكتب رسالة فى استخراج الأوتار فى الدائرة[٣] . ومعظم هذه المؤلفات العربية قام الأوربيون بترجمتها إلى اللاتينية منذ القرن الثانى عشر ، ونخص بالذكر أديلارد الباثى الذى ترجم جداول حساب المثلثات للخوارزمى سنة ١١٢٦ كما ترجم غيرها من مؤلفات الهندسة[٤] .

أما معلومات العرب فى الميكانيكا فكانت واسعة وعظيمة ، تدل عليها بقايا آلاتهم ووصفهم لها فى الكتب . وهنا أيضاً اهتم العرب بترجمة كتابات اليونانيين ، واستمر هذا الاهتمام حتى القرن الثالث عشر عندما نجد الطوسى يترجم كتاب « الكرة المتحركة » لأوطولوقس Autolycus [٥] ولكن العرب زادوا على هذه المعلومات ، حتى يرى بعض العلماء الأوربيين أنهم اخترعوا رقاص الساعة واستعملوا البندول فى قياس الوقت[٦] . ومعنى ذلك

(١) ول ديورانت . قصة الحضارة ، الجزء الثانى من المجلد الرابع ، ص ١٨١ — ١٨٢ .
(٢) مجموعة رسائل ابن الهيثم — رسالة شكل بنى موسى ، ص ٢ .
(٣) رسائل البيرونى — الرسالة الأولى .

4) Ball: op. cit.; p. 165.

(٥) رسائل الطوسى (الرسائل الثالثة) .

6) Draper: op. cit.; Vol. 2; p. 47.

أنهم عرفوا الساعات ذات الأثقال التي تختلف كثيرا عن الساعات المائية ، كما يتضح من وصف ساعة المسجد الأموي التي ورد ذكرها في كثير من المراجع[١] .

وخلاصة القول أن العرب قطعوا شوطا بعيدا في الرياضيات فاستفادت أوربا منهم فائدة عظيمة في هذا الميدان . وإن المتأمل في كتاب من كتب العرب الرياضية ليأخذه العجب بما وصل إليه رياضيو العرب من اتساع المعرفة ودقة البحث . فهذا الخوارزمي يتعرض لشرح المعادلات ذات الحدين والثلاثة حدود شرحا علميا وافيا ثم يتناول الجذور ، وكيفية استخراج مساحة الأشكال الهندسية المختلفة كالمربع والمثلث والمعين والدائرة . وبعد ذلك ينتقل إلى مسائل حسابية معقدة ويحدد طرق حلها في دقة ومهارة تثير الدهشة . . . ألخ[٢] .

الفلك :

لا شك في أن تقدم العرب في العلوم الرياضية ساعد على تفوقهم في علم الفلك الذي عنوا به هو الآخر عناية كبيرة ، تدل عليها المراصد العديدة التي انتشرت في مختلف البلاد الإسلامية من أواسط آسيا حتى المحيط الأطلسي ، وأهمها مراصد سمرقند ودمشق والقاهرة وفاس وطليطلة وقرطبة[٣] . وقد نبغ من فلكي المسلمين كثيرون مثل محمد البتاني (٨٥٨ — ٩٢٩) الذي صحح بعض الأخطاء التي وقع فيها بطليموس السكندري ووصل إلى نتائج جديدة في المباحث الفلكية فصلها دلامبر[٤] ، ومحمد الفرغاني الذي عاش في القرن العاشر وقام بأبحاث في تحديد طول السنة تحديدا مضبوطا ، وأطوال الليل والنهار وحركات

(١) لوبون . حضارة العرب ص ٥٠١ .
(٢) الخوارزمي . كتاب الجبر والمعادلة .
3) Cam. Med. Hist.; Vol. 4: pp. 298-299.
4) Delambre: Hist. de l'astronomie du Moyen Age; pp. 10-60.

الكواكب والنجوم[1] . وابن يونس المصرى الذى عاصر الخليفة الحاكم الفاطمى (٩٩٦—١٠٢١) وقام بأبحاث فى خسوف الشمس وتعيين الإعتدال الشمسى وتحديد خطوط الطول[2] ، وأبو الوفا الذى عاصر ابن يونس ووضع جداول فلكية دقيقة[3] ،والبيرونى الذى كتب فى القرن الحادى عشر رسالتين فى الفلك ، هما « إفراد المقال فى أمر الظلال » و « تمهيد المستقر لمعنى الممر(٤) » ، على أن أهم مؤلفات الفلكيين السابقين هو كتاب « الزيج الصابئ » للبتانى ، الذى كان له أثر كبير فى علم الفلك ، لا فى المشرق الإسلامى فحسب ، بل أيضاً فى غرب أوربا فى العصور الوسطى ومستهل الحديثة . وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللاتينية أكثر من مرة فى القرن الثانى عشر ، كما أمر الفونس العاشر ملك قشتالة بترجمته من العربية إلى الأسبانية فى القرن الثالث عشر ؛ ثم نشر فى أوربا عدة مرات فى القرنين السادس عشر والسابع عشر وما بعدهما[5] .والواقع إن المتأمل فى هذا الكتاب يجده دائرة معارف ضخمة حدد فيها البتانى تقسيم دائرة الفلك وارتفاع القطب الشمالى ، ومعرفة زيادة النهار ، ومعرفة سمت الارتفاع والظل من دائرة الأفق ، ومعرفة عروض البلدان ، ومعرفة ارتفاع الشمس وقت انتصاف النهار ، ومعرفة ارتفاع الكواكب ، وطول السنة الشمسية وأفلاك القمر والكواكب ، ومعرفة كسوف الشمس ومطالع البروج . . . كل ذلك جاء فى دائرة معارف البتانى مزودا بالجداول التوضيحية الوافية[6] .

ونستطيع من الكتابات العربية الكثيرة فى علم الفلك أن نقف على النتائج الباهرة التى توصل إليها علماء المسلمين فى ذلك العلم. ذلك أنهم استطاعوا تعيين انحراف سمت الشمس تعيناً دقيقاً حددوه بثلاث وعشرين درجة وثلاث وثلاثين

---

1) Idem; pp. 63-75.

2) Idem; pp. 76-154.

3) Idem; pp. 156-153.

(٤) مجموعة رسائل البيرونى ؛ الرسالتان الثانية والثالثة .

5) Enc. Isl. art. al-Battani.

(٦) البتانى . الزيج الصابئ — الجزء الثالث (طبعة روما) .

دقيقة واثنتين وخمسين ثانية ، وهو تقريبا الرقم نفسه الذى توصل إليه العلماء المحدثون ، واستطاع العرب بفضل تحقيقهم للاعتدال الشمسى قياس طول السنة الشمسية بالضبط[1] . كذلك وضع فلكيو العرب جداول لأمكنة الكواكب السيارة وتوصلوا إلى أن حركات هذه الكواكب على شكل بيضى كما توصلوا إلى نظرية دوران الأرض . واستعمل العرب الاسطرلاب الذى لم يعرفه الأوربيون فى العصور الوسطى إلا على أيدى أساتذتهم العرب[2] . ويوجد من الاسطرلاب العربى نماذج جميلة فى مختلف متاحف أوربا ،وهو يتألف من قرص معدنى مقسم إلى درجات ، ويدور على هذا القرص مؤشر ذو ثقبين فى طرفيه ، ويعلق الاسطرلاب من حلقته رأسياً مع توجيه المؤشر نحو الشمس . وعندما تمر أشعة الشمس من هذين الثقبين يقرأ ارتفاع الكوكب من الحد الذى يقف عليه المؤشر . وقد ظلت قيمة الاسطرلاب عظيمة للملاحين أيضاً حتى حلت محله مخترعات حديثة فى القرن السابع عشر[3] .

هذا عن المعلومات والنتائج التى توصل إليها العرب فى علم الفلك . وبوصول هذه المعلومات إلى أوربا أخذ اهتمام الأوربيين يزداد بذلك معلم[4] . ومازال علم الفلك حتى اليوم ملىء بالاصطلاحات العربية وأسماء الابراج والكواكب والنجوم التى أخذها الأوربيون من العربية كما هى دون تحريف ، مثل الطرف Altaref ، وكرسى الجوزاء Gursa ، والكف Caph ، والأرنب Arneb والعرقوب Arkab ، والسمت Azimuth ، وادحى النعام Azha ، والبطين Botein وزبانى العقرب Zubeh Hakrabi ، والوزن Wezn ، وصدر الدجاجة Sadr ، وسعد السعود Sadalsud والزورق Zaurek ،وقرن الثور Taurri ، والراعى Errai ... الخ .

---

1) Idem; p. 40.

2) Eyre: op. cit.; Vol. 3; p. 299.

(٣) كريسى : تراث الإسلام ص٢٢ .

4) Singer: op. cit.; p. 84.

الجغرافيا :

أما فى علم الجغرافيا ، فإن فضل العرب على أوربا يبدو واضحا ، تشهد عليه مؤلفات العرب الجغرافية ، وما جاء فيها من معلومات ترجم بعضها إلى اللاتينية فى العصور الوسطى . هذا إلى أن أوربا مدينة للعرب بحفظ معلومات اليونان الجغرافية ، وهى المعلومات التى لم يعرفها الأوربيون إلا من الكتب العربية فى أواخر العصور الوسطى[1] . ولكن إذا كان العرب اعتمدوا على معلومات اليونان فى أول أمرهم ، إلا أنهم لم يلبثوا — كعادتهم — أن فاقوا أساتذتهم ، فصححوا ما وقع فيه جغرافيو اليونان من أخطاء ، وأضافوا من تجاربهم الشىء الكثير إلى محصول المعرفة الجغرافية . وساعد العرب على ذلك ما هو معروف عنهم من حب للسياحة والرحلات ، فجابوا البلاد من شرق آسيا إلى مجاهل أفريقية ، وأقاموا علاقات تجارية مع بلاد لم يسمع الأوربيون بها فى العصور الوسطى أو شكوا فى وجودها . ويطول بنا الأمر لو حاولنا الكلام عن كل واحد من الرحالة المسلمين فى العصور الوسطى ، مثل المسعودى وابن حوقل والبيرونى وابن بطوطة والإدريسى ، هذا عدا غيرهم من جغرافيى العرب مثل النضر البصرى والاصطخرى والمقدسى والقزوينى وياقوت الحموى . ولكن يكفى القول بأن كل واحد من هؤلاء الأعلام أسهم بنصيب وافر فى بناء علم الجغرافيا وفى زيادة محصول المعلومات الجغرافية .

ويظهر لنا تقدم العرب فى ذلك العلم بالمقارنة بين أماكن المدن التى عينها اليونان وتلك التى عينها العرب . فنى الوقت الذى نجد تقدير العرب يطابق الحقيقة أو يقرب منها ولا يختلف عنها إلا فى بضع دقائق ، إذا بالخطأ يبلغ فى تقدير اليونان درجات كثيرة ؛ حتى أن خطأ بطليموس السكندرى فى تقدير طول البحر المتوسط بلغ أربعمائة فرسخ[2] . لذلك لا نعجب إذا وجدنا كتب العرب

---

1) Toylor: Geography in the Twentieth Century; p. 32.
2) Sedillot: op. cit.; Tome II, pp. 52-65

فى علم الجغرافيا ظلت أساسا لدراسة ذلك العلم فى أوربا عدة قرون . ونخص بالذكر كتاب الشريف الأدريسى المسمى « نزهة المشتاق فى ذكر الامصار والأقطار والبلدان والجزر والمدائن والآفاق » . وهو مزود بأكثر من أربعين خريطة ،وترجم إلى اللاتينية حيث اعتمد عليه الأوربيون أكثر من ثلاثة قرون. والإدريسى هذا هو الذى كلفه روجر الثانى ملك صقلية بوضع خريطة جامعة، أثبتت أن معلومات العرب الجغرافية أوسع مما كان يظن .

ويقال إن فاسكودى جاما درس الخرائط التى وضعها العرب للبحار ،وأعجب بها إلى حد كبير[1] . كذلك جاء فى دائرة المعارف الفرنسية أن كولمبس اطلع على كتب كثيرة فى الجغرافيا والرحلات — منها كتب العرب — وذلك قبل قيامه برحلته التى أدت به إلى كشف أمريكا . ولعل هذا يتصل بمـا ذكره الإدريسى عن الإخوة المغررين الذى خرجوا من لشبونة واتجهوا فى المحيط الأطلسى غربا حتى اكتشفوا أكثر من جزيرة ، ومعنى ذلك أن العرب — فضلا عن جهودهم التى استفاد منها كولمبس — حاولوا عبور المحيط الأطلسى والوصول إلى العالم الجديد قبل كولمبس بكثير[2] .

وهكذا يبدو لنا فضل العرب على علم الجغرافيا ، وعلى تزويد أوربا بقسط وفير من الدراسات الجغرافية التى لم تعرفها فى العصور الوسطى . وتبدو هذه الحقيقة واضحة ثابتة ، وإن تعمد بعض الأوربيين إغفالها والإقلال من شأنها . وهنا نشير إلى العبارة التى ذكرها لوبون من أنه «لولا حقد الأوربيين الموروث على الإسلام لتعذر إيضاح السبب فى انكار عالم جغرافى كبير مثل فيفان دى سانت مارتن Vivien de Saint—Martin لفضل العرب على الجغرافيا[3] » .

ومن المفيد أن نشير إلى أن الذى ساعد العرب على القيام برحلاتهم العلمية

1) Taylor: Geography in the Twentieth Century; p. 31.

(٢) احمد امين . ظهر الإسلام ج ٣ س ٢٩٣ — ٢٩٤ .

(٣) جوستاف لوبون . حضارة العرب ص ٤١٩ .

والتجارية الواسعة هو معرفتهم بالبوصلة ؛ واستخدامها فى أسفارهم . وإذا كان من الثابت أن البوصلة اختراع صينى، إلا أن فضل العرب فى استخدامها يبدو فى ناحيتين الأولى أنهم كانوا من أول من استخدم البوصلة على نطاق واسع فى الملاحة . والثانية أنهم هم الذين نقلوا ذلك الاختراع إلى أوربا وعلموا الاوربيين استعمال البوصلة . ذلك أن الصينيين كانوا ضعافا فى الملاحة ، ولم نسمع عن قيامهم برحلات بحرية بعيدة عن شواطىء بلادهم ، ولذلك لم يستخدموا البوصلة فى البحر ، وذلك بخلاف العرب الذين أثبتوا أنهم ملاحون مهرة . فأسرعوا إلى التفكير فى استخدام البوصلة فى الملاحة . ويقول المستشرق جورج يعقوب أن العرب فى أول معرفتهم بالبوصلة استخدموا قطعة مجوفة من الحديد الممغطس على شكل سمكة . وضعوها فى طبق به ماء لتطفو على سطحه وتتجه اتجاها شماليا جنوبيا[1] .

وقد أثبتت الأبحاث الحديثة أن الفكرة التى تنسب اختراع البوصلة فى أوربا إلى رجل إيطالى فى القرن الرابع عشر اسمه « فلافيو » إنما هى فكرة خاطئة : لأنه من الثابت أن أوربا عرفت البوصلة فى القرن الثالث عشر أو فى أواخر القرن الثانى عشر ، وأنها عرفتها عن طريق العرب الذين استعملوها قبل ذلك وذكرها الإدريسى فى مؤلفاته ويكفى أن البوصلة احتفظت باسمها العربى فى كثير من اللغات الاوربيــــة ، فهى بالإيطالية (bossola) وبالفرنسية (boussole) .

وهكذا تمكن العرب من ارتياد البحار فى جرأة ومهارة فائقة ، حتى ملكوا فى أيديهم زمام التجارة بين الشرق والغرب . وسرعان ما أدى نشاطهم التجارى إلى إبتكارهم بعض النظم المالية والتجارية التى عرفتها أوربا منهم . وقد أثبت العالم جرسهوف أن أول من عرف نظام الحوالات المالية هم العرب ، وعنهم أخذتها أوربا فى القرن العاشر عن طريق أسبانيا وإيطاليا . ومع هذه المستحدثات

---

(١) جورج يعقوب مآثر الشرق ص ٢٩ .

انتقلت أيضاً الكلمات والاصطلاحات اللازمة لها من العرب إلى الأوربيين . فلفظ (Aval) ليس إلا كلمة (حوالة) العربية .ولفظ (شيك) فارسى الأصل كثيراً ما استعمله الفردوسى وانتقل من العرب إلى أوربا[1] . هذا فضلا عن كثير من المصطلحات البحرية والتجارية التى انتقلت إلى اللغات الأوربية ينطقها العربى . فمن المصطلحات التجارية bazaar من بازار، dinar من دينار، tariff من تعريفة ، douanne من ديوان. ومن المصطلحات البحرية admiral من أمير البحر ، Tare من طرح السفينة ، arsenal من دار الصناعة ، felouque من الفلك ، Calfate من الجلفطة . . . الخ .

الطبيعة :

أما فى علم الطبيعة ، فقد ضاعت معظم مؤلفات العر الهامة ، ولم يبق منها سوى القليل . على أنه يمكننا من هذا القليل أن نقف على ى تقدم العرب فى الطبيعة وما أفادته أوربا من هذا التقدم .

ومن علماء المسلمين المشهورين البيرونى (٩٧٣ — ١٠٤٨) الذى كان عالما فى الطبيعيات ، فضلا عن شهرته فى الفلسفة والتاريخ والجغرافيا والرحلات والرياضيات والفلك . وقد عين الكثافة النوعية لثمانية عشر نوعا من أنواع الحجارة الكريمة ، ووضع القاعدة التى تنص على أن الكثافة النوعية للجسم تتناسب مع حجم الماء الذى يزيحه . وشرح أسباب خروج الماء من العيون الطبيعة والآبار الارتوازية فى ضوء نظرية الأوانى المستطرقة .

على أن أشهر علماء العرب فى علم الطبيعة هو الحسن بن الهيثم (٩٦٥-١٠٣٠) الذى اشتغل بالعدسات والبصريات؛ وكتب عدة رسائل فى أضواء الكواكب، وفى الضوء ، وفى المرايا المحترقة بالقطوع ،وفى المرايا المحرقة بالدائرة ،وفى ضوء

---

(١) جورج يعقوب . اثر الشرق ص ٥٢ .

القمر[1] . وكان لكتابات ابن الهيثم تأثير كبير على علماء الغرب الناشئين لاسيما روجر بيكون[2] .

وهناك أيضاً الخازن البصرى (٩٦٥ — ١٠٣٨) الذى كتب أبحاثا رائعة فى المرايا وأنواعها وحرارتها ومحل الصور الظاهرة فيها ، وفى انحراف الأشياء وتجسيمها ظاهريا ، كما أوجد حلا لبعض مسائل فى الضوء مثل : إذا علم موضع نقطة مضيئة ، ووضع العين . فكيف نجد على المرايا السكرية النقطة التى تتجمع فيها الأشعة بعد انعكاسها ؟ كذلك أجرى الخازن تجارب لإيجاد العلاقة بين وزن الهواء وكثافته ، وأوضح أن المادة يختلف وزنها فى الهواء الكثيف عنه فى الهواء الخفيف الأقل كثافة لاختلاف الضغط ، كما عالج النظريات المتعلقة بالجاذبية ومركز الثقل[3] .

وقد ترجمت كتابات الخازن البصرى إلى اللاتينية ثم إلى الإيطالية فى وقت مبكر ، واستعان بها رجال العلم فى أوربا . وإذا كان روبرت جروستست Robert Grosseteste (١١٧٥ — ١٢٥٣) أسقف لنكولن يعتبر أول مثل بارز لعلماء الطبيعة فى غرب أوربا فى أوائل القرن الثالث عشر ، نظراً لما كتبه عن البصريات والعدسات والمرايا ، فإن جروستست — باعتراف الباحثين الأوربيين — استقى معلوماته من ترجمة لاتينية لكتاب الخازن البصرى . فمن الخازن البصرى أخذ علماء أوربا مثل جروستست ومعاصره بول وتلو Pole Witolo (١٢٧٠) ، وعن هذين الأخيرين أخذ روجر بيكون . فالخازن البصرى كان الأستاذ الأكبر لكثير من العلماء الأوربيين فى العصور الوسطى ومستهل الحديثة[4] .

وعاصر الخازن البصرى ابن سينا (٩٨٠ — ١٠٣٧) الذى قام بدراسات

---

(١) انظر مجموعة رسائل ابن الهيثم .

2) Dampier: op. cit ; p 39

3) Draper: op. cit.; Vol. 2; pp. 45-46

4) Singer : From Magic to Science: p 90

جديدة فى الحركة والطاقة والفراغ والضوء والحرارة والكثافة النوعية . وله رسالة فى المعادن بقيت فى القرن الثالث عشر أهم مصادر طبقات الأرض عند الاوربيين ، إذ تناول فيها تكوين الجبال فقال إنها تنشأ من سببين مختلفين ، فقد تكون نتيجة اضطرابات فى القشرة الأرضية أو لفعل المياه الجارية . والحق إن كتاب (شفاء النفس) لابن سينا جاء موسوعة علمية ضخمة فى ثمانية عشر مجلداً فى العلوم الرياضية والطبيعية والدينية ؛ فضلا عن الاقتصاد والسياسة والموسيقى .

الكيمياء

ظل علم الكيمياء عند العرب مشوبا ببعض الأوهام والخرافات كالبحث عن أكسير الحياة الذى يشفى من جميع الأمراض[1] ... كذلك اعتقد علماء الكيمياء من العرب أن جميع المعادن تتكون من عناصر واحدة ولا يختلف بعضها عن بعض إلا باختلاف تلك العناصر فى تركيبها ، وأنه فى حالة تحليل تلك العناصر وإعادة تركيبها على نسب مختلفة تنتج معادن أخرى ثمينة كالذهب والفضة[2] . وبلغ من تسلط هذه الفكرة على عقول العرب أن عرف بعضهم علم الكيمياء بأنه « العلم الذى يشمل الأصول والقواعد التى يمكن بها تحويل مختلف المواد إلى ذهب وفضة »[3] . ومهما كان فى هذه النظرية من خطأ ، فإن السعى وراء تحقيق تلك الغاية أدى إلى الكشف عن حقائق علمية بالغة الأهمية . هذا مع ملاحظة أن العرب فى توصلهم إلى هذه الحقائق لم يكونوا مدينين بشىء إلى علوم اليونان ، الذى لم يعرفوا معظم ما توصل إليه العرب من مواد وتجارب كيميائية هامة . ويكفى العرب أنهم حللوا كثيراً من المواد تحليلا كيميائياً ، وميزوا بين القلويات والأحماض ، وشرحوا كثيراً من التفاعلات الكيميائية وتأثير المواد المختلفة . ولعل كل ذلك دفع أحد علماء المحدثين إلى القول « يكاد

---

1) Dampier: op. cit. p 38

2) Ibid.

(٣) ابو يحيى زكريا محمد : اللؤلؤ النظيم ص ١٤ .

المسلمون يكونون هم الذين ابتدعوا الكيمياء بوصفها علماً من العلوم ، لأنهم أدخلوا الملاحظة الدقيقة والتجارب العلمية والعناية برصد نتائجها، في حين اقتصر اليونانيين على الخبرة الصناعية والفروض الغامضة »[1] .

ومن علماء العرب البارزين في الكيمياء جابر بن حيان الكوفي الذي عاش في القرن الثامن الميلادي . وأهم مؤلفاته كتب الاستمام الذي ترجم إلى اللغة الفرنسية سنة ١٦٧٢ مما يدل على استمرار نفوذه العلمي في أوربا حتى القرن السابع عشر . والواقع أن كتابات جابر بن حيان تؤلف موسوعة كبيرة في علم الكيمياء ، تضم ما وصل إليه هذا العلم على عصره من تقدم ، سواء في وصف المركبات الكيميائية التي لم تكن معروفة من قبل — مثل ماء الفضة (حامض النيتريك)وماء الذهب والبوتاس وروح النوشادر وملحه ونترات الفضة والسليماني والراسب الأحمر والكربونات ، أم في وصف العمليات الكيميائية كالتقطير والترشيح والتصعيد والتبلور والتذويب والتحويل . ومنذ وقت مبكر وجدت كتابات كثيرة في الكيمياء ترجمها الأوربيون إلى اللاتينية ونسبوها إلى اسم معين واحد هو « جابر Caber »[2] .

أما الرازي المتوفى سنة ٩٤٠ فهو أول من وصف حامض الكبريتيك (زيت الزاج) والكحول . فقال أن الأول يستخرج بتقطير كبريت الحديد ، والثاني يستخرج بتقطير المواد اللبية أو السكرية المختمرة . وهكذا أخذ علماء العرب يرقون بعلم الكيمياء ، حتى قال لوبون أنه لولا ما وصل إليه العرب من نتائج واكتشافات، لما استطاع لافوازيه — أبو الكيمياء الحديثة — أن ينتهي إلى اكتشافاته[3] . ويتضح فضل العرب على علم الكيمياء من كثرة الأسماء العربية التي اقتبستها اللغات الأوربية في ذلك العلم ، فالكيمياء أصبحت Alchimie بالفرنسية و Chemistry بالانجليزية ، والكحول أصبح Alcool

---

(١) ديورانت : قصة الحضارة — الجزء الثاني من المجلد الرابع ص ١٨٧ .

2) Dampier: op. cit; p 38

(٣) لوبون : حضارة العرب ص ٥٠٣ .

بالفرنسية و Alcohol بالانجليزية ، والقلويات أصبحت Alcali والانبيق Alambic . . الخ .

ويرتبط بتقدم العرب فى علم الكيمياء توصلهم إلى استغلال القوة الناجمة عن انفجار البارود . حقيقة إن المركبات المحرقة كانت معروفة من قبل ، واستعملها البيزنطيون فى رد الأسطول الإسلامى الذى هاجم القسطنطينية فى أوائل القرن الثامن ، ولكن هذه المركبات المحرقة التى عرفت باسم النار الإغريقية لم تكن تصلح إلا فى إشعال الحرائق، ولم تكن قابلة للانفجار ، ولم يتولد عنها قوة قاذفة كالمواد المتفجرة . لذلك لم يقنع العرب بمعرفة النار الإغريقية ، وماذالوا يجدون حتى توصلوا إلى استخدام قوة البارود فى رمى القذائف إلى مدى بعيد .

وقد أثبت العلماء أن الصينيين هم أول من اكتشف ملح البارود (نترات البوتاسيوم) ، واستخدموه فى النار الصناعية . ولكن العرب هم الذين استخدموا قوة البارود الدافعة ، وهم بذلك أول من اخترع الأسلحة النارية ، وجاء فى المراجع العربية وصف طريقة استخدام ملح البارود فى الغرض السابق ، وتتلخص هذه الطريقة فى أن تؤخذ عشرة دراهم من ملح البارود ودرهمان من الفحم ودرهم ونصف درهم من الكبريت ، وتسحق جميعاً حتى تصبح كالغبار ويملأ منها ثلث المدفع فقط خوفاً من انفجاره، وتدك فيه بعد أن يضاف إليها إما بندق وإما نبل، ثم تشعل الذخيرة . وفى الكتاب الذى ألفه حسن الرماح فى الربع الأخير من القرن الثالث عشر ، نجد معلومات كثيرة عن الأسلحة النارية وملح البارود . وفى هذا الكتاب أيضاً توجد أول إشارة إلى القنبلة أو الطوربيد ، فيقول عنها إنها « بيضة تخرج وتحرق »[1] . كذلك يفهم من بعض كتابات العرب الأخرى أنهم استعملوا المدافع النارية منذ أوائل القرن الثالث عشر ؛ من ذلك ما ذكره ابن خلدون فى وصف إستيلاء السلطان أبو يوسف على سجلماسة سنة ١٢٧٣ ، إذ « نصب عليها آلات الحصار من المجانيق والعرادات وهندام النفط القاذف بحصى الحديد ، ينبعث من خزانة أمام النار الموقود فى البارود ، بقوة غريبة ترد الأفعال إلى قوة باريها » .

---

(١) جورج يعقوب . اثر الشرق ص ٣٣ .

وسرعان ما تعلم الأوربيون ذلك الاكتشاف الجديد من العرب ، فكتب مرقص جريكوس بيانا بمسحوق ملح البارود والكبريت والفحم ، وكان ذلك تحت تأثير العرب فى القرن الثالث . وعندما هاجم ألفونس الحادى عشر مدينة الجزيرة سنة ١٣٤٢ ، استعمل العرب الأسلحة النارية فى الدفاع عن المدينة . وحضر ذلك الحصار كونت دربى Derby وكونت سالسبورى Salisbury من الإنجليز ، فشاهدا نتائج استخدام البارود ، وأسرعا إلى نقل ذلك الاختراع إلى بلادهم حيث استخدمه الإنجليز بعد أربع سنوات فى معركة كريسى[1] .

ولا تخفى علينا أهمية البارود فى تاريخ العالم وحضارته ، لأن هذه المادة المفرقعة — التى اكتشف العرب أثرها — لم تؤد إلى إحداث ثورة فى أساليب الحرب وفنونها فحسب ، بل ساعدت أيضاً على إتمام كثير من المشروعات العمرانية الجبارة كشق الطرق والممرات بين الجبال وتفتيت الصخور وغير ذلك

الطب :

جاء فى رسائل إخوان الصفا — وهى دائرة معارف ضخمة يفخر بها الفكر العربى — « إعلم يا أخى أن مداواة العلل الحالة بالأجسام ، والعلم بذلك ، من أجل المعلومات الطبيعية والمعارف الجسمانية ، كما قال النبى (ص) العلم علمان علم الأديان وعلم الأبدان[2] » .

والواقع إن العرب آمنو بأهمية الطب ، وعنوا بهذا العلم عناية فائقة حتى بلغ عدد المتخصصين والمؤلفين من أطباء العرب درجة من الكثرة جعلت ابن أبى أصيبعة يخصص لهم مجلدا من كتابه « عيون الأنباء فى طبقات الأطباء » . وفى هذا العلم بدأ العرب بترجمة كتب اليونان الطبية مثل جالينوس وهيبوقراط

---

(١) كانت موقعة كريسى • اوغسطس ١٣٤٦ • من المواقع الحاسمة التى انتصر فيها الانجليز على خصومهم الفرنسيين فى حرب المائة عام . انظر كتاب • سعيد عاشور . اوربا العصور الوسطى ج ١ ص ٤٠٩ .

(٢) رسائل اخوان الصفا ج ٤ ص ٣٦٠ . طبعة القاهرة ١٩٢٧ .

وبولس الأيجينى وغيرهم[1] . ولكن العرب لم يكتفوا بما رأوه فى تلك المؤلفات من معلومات ، وإنما عدلوها وأضافوا إليها وكتبوا أبوابا جديدة فى الطب والصيدلة لم يسبقهم إليها إنسان. هذا فى الوقت الذى كادت تنعدم معلومات الأوربيين فى الطب بسبب الجهل وتزمت رجال الدين فى العصور الوسطى ، حتى اعتبروا المرض نوعا من الجزاء أو العقاب الإلهى لا يصلح للإنسان أن يعالج أو يبرأ منه ، فإذا انتابت أحدهم حمى هرع إلى أقرب دير أو كنيسة حيث يختفى على مقربة منها منتظراً حدوث معجزة تشفيه[2]. وقد روى أسامه بن منقذ أكثر من قصة فى عصر الحروب الصليبية توضح الفارق الكبير بين مستوى الأطباء المسلمين ، وما كان عليه الفرنجة من جهل بأبسط المبادىء الطبية[3].

من أطباء العرب المشهورين يوحنا بن ماسوية (٧٧٧—٨٥٧) الذى درس التشريح بتقطيع أجسام القردة ، وحنين بن اسحق صاحب كتاب «العشر مقالات فى العين» وهو أقدم مرجع منظم فى طب العيون ، وعلى بن عيسى أبرز أطباء العيون المسلمين صاحب كتاب «تذكرة الكحالين» ، وهو الكتاب الذى ظل يدرس فى أوربا حتى القرن الثامن عشر أما الرازى (ت ٩٢٢) فكان من أشهر أطباء العرب ، إذ ظلت كتبه فى الحميات ذات البثور كالحصبة والجدرى من المراجع الأساسية التى اعتمد عليها الأطباء فى غرب أوربا زمنا طويلا ، كما أن كتابه فى أمراض الأطفال يعتبر الأول من نوعه . ويلاحظ فى كتبه سعة الاطلاع فى علم التشريح ، واستخدامه وسائل جديدة فى العلاج أخذ بها الطب الحديث ، إذ طبق معلوماته فى الكيمياء على الطب والصيدلة وتوصل من ذلك إلى نتائج باهرة[4]. وأشهر كتب الرازى كتابه «الحاوى» وكتابه «المنصورى» ، وقد تناول فيهما موضوعات التشريح والأمزجة والأغذية والأدوية ونظام السفر ، والجراحة ، والأمراض والحمى . والحق إن الرازى كان بإجماع الآراء أعظم أطباء الطب السريرى (السكلينيكى) فى العصور الوسطى .

---

1) Cam. Med. Hist. Vol. 4; p. 297 & Browne : Arebian Medicine, pp. 24-28.
2) Draper : op. cit. Vol. 2; p 38
3) Browne: Arabian Medicine; pp. 69-73
4) Dampier: op. cit.; p° 39.

وعاصر الرازى فى القرن العاشر الميلادى على بن العباس صاحب كتاب « الملكى » [1] . وامتاز هذا الكتاب بان على بن العباس اعتمد فيه على مشاهداته العملية فى المستشفيات ، لا على دراسة الكتب النظرية ، ومن ثم تمكن من اكتشاف أخطاء خطيرة لأطباء اليونان مثل بقراط وجالينوس وبولس الايجينى [2] .

أما ابن سينا (ت ١٠٣٧) فهو أشهر أطباء العرب على وجه الإطلاق وأبعدهم أثراً . ذلك أنه ترك تسعة وتسعون مؤلفاً فى مختلف فروع المعرفة ، أشهرها كتاب « القانون » الذى اعتبره الاوربيون خير ما أنتجته القريحة العربية الإسلامية [3] . أما المؤلف الطبى الثانى لابن سينا ، وهو كتاب « الأدوية القلبية » ، فلم ينشر بعد وتوجد منه نسخة فى مكتبة المتحف البريطانى [4] . والواقع إن كتاب « القانون » يعتبر دائرة معارف طبية بكل معانى الكلمة . فهو فى التشريح لم يترك عضوا من أعضاء الجسم حتى تشريح الأسنان وعظام الفكين ، وفى كلامه عن الاعصاب والعضل يتناول أعصاب الوجه والجبهة والمقلة والجفن والخد والشفة واللسان . . . فضلا عن أعصاب النخاع والصدر . وهكذا يكاد القارىء لكتاب ابن سينا يظن أن ناحية من نواحى الطب الحديث لم تفته . وقد قسم ابن سينا مؤلفه هذا إلى خمسة كتب ، الكتاب الاول فى علم الطب ويشمل أربعة فنون ، هى حد الطب وموضوعاته من الامور الطبيعية ؛ وذكر الأمراض والأسباب والأغراض الكلية ، وحفظ الصحة وبيان وحدة المعالجات بحسب الأمراض الكلية [5] . والكتاب الثانى فى الأدوية [6] . والثالث فى الأمراض الجزوية

---

1) Sedillot: op. cit.: Tome 2, p 11

2) Browne: op. cit.; p 55

3) Cam. Med. Hist.; Vol. 4: p. 297 & Sedillot: Tome 2, p 78 & Dampier: op. cit. p 39

4) Browne: op. cit.; p 61

(٥) ابن سينا القانون ، ج ١ س ١ — ١١١ .

(٦) المرجع السابق س ١١٤ — ٢٨٠ .

الواقعة بأعضاء الإنسان من الرأس إلى القدم . . . »[١] ، والكتاب الرابع فى « الأمراض الجزوية التى إذا وقعت لم تختص بعضو . . . »[٢] ، والكتاب الخامس فى الأمراض المركبة[٣] .

كذلك عرف أطباء العرب الأمراض النفسية ووصفوا لها أكثر من علاج وفسروا كثيرا منها فى ضوء العامل الجنسى ، وذلك قبل أن يولد فرويد بمئات السنين . وقد جاء فى رسائل إخوان الصفا « إعلم أن لمرض النفوس علاجات وطباً تداوى به ، كما أن لمرض الأجساد طباً يعالج به وعقاقير يداوى بها »[٤] . ويروى المؤرخون كيف نجح جبريل بن بختيشوع — طبيب هارون الرشيد — فى علاج جارية من الشلل الهستيرى ، بأن تظاهر فجأة بأنه سيخلع عنها ملابسها أمام الناس ، فانتفضت الجارية لهذه الصدمة المفاجئة ومدت يدها لتمسك طرف ثوبها ، فشفيت مما كان بها من شلل !

أما فى الجراحة فمن أشهر جراحى العرب أبو القاسم القرطبى (ت١١٠٧) الذى اخترع كثيرا من العمليات الجراحية الدقيقة فى العيون والأسنان والولادة . وأهمها جميعاً سحق الحصاة فى المثانة واستخراجها [٥] . وأشار أبو القاسم باستخدام مساعدات وممرضات من النساء فى حالة إجراء عملية جراحية لامرأة لأن ذلك أدعى إلى الطمأنينة والرقة [٦] .

ويطول بنا الشرح لو تعرضنا بالتفصيل لبقية كتابات العرب فى الطب مثل مؤلفات ابن زهر وابن رشد وابن البيطار . . . الخ ولكن تكفى الإشارة إلى

(١) المرجع السابق ص ٢٨١ — ٤٩٦ .
(٢) المرجع السابق ج٣ ص ١ — ١٧٢ .
(٣) المرجع السابق ج ٣ ص ١٧٣ — ٢٦٨
(٤) رسائل إخوان الصفا ج ٤ ص ٤١ . طبعة القاهرة ١٩٢٨ .
5) Sedillot; op. cit. Tome, 2, p 78
6) Draper: op. cit. ; Vol. 2. p 38

الأثر العظيم الذى تركته تلك المؤلفات فى أوربا . فكتب الرازى ترجمت إلى اللاتينية ثم طبعت عدة مرات فى أوربا سنة ١٥٠٩، ١٥٢٨، ١٧٤٥ ، وكتاب الملكى لعلى بن العباس ترجم إلى اللغة اللاتينية سنة ١١٢٧ ، ثم طبع فى مدينة ليون سنة ١٥٢٣ ، وحصلت منه أوربا على فوائد عظيمة حيث ظل مستعملا حتى غلبت عليه كتابات ابن سينا[1]. أما كتابات ابن سينا فى الطب فقد ترجمت إلى كثير من لغات العالم ، وظلت مرجعاً وأساساً للدراسات الطبية فى جامعات فرنسا حتى القرن السابع عشر . ويبدو من مناهج جامعة لوفان سنة ١٦١٧ أن دراسة الطب فيها اعتمدت عندئذ على كتب الرازى وابن سينا [2]. . ولا عجب ، فقد وافق البابا كلمنت الخامس سنة ١٣٠٩ على أن تكون كتابات ابن سينا والرازى ضمن الكتب التى يجب أن يمتحن فيها الطالب إجباريا للحصول على إجازة الطب من جامعة مونتبليه [3]. أما فى الجراحة فيشهد الكتاب المحدثون أن نهضة هذا العلم فى غرب أوربا قامت على أساس كتابات أبى القاسم [4]. كذلك ذكر لوبون أن كتب أبى القاسم «كانت المصدر العام الذى استقى منه جميع من ظهر من الجراحين بعد القرن الرابع عشر» [5]

وإذا كانت مدرسة سالرنو قد أصبحت أول جامعة للطب فى أوربا ، فإن الفضل يرجع إلى الطب العربى فيما أحرزته تلك المدرسة من شهرة . ذلك أن النورمان عندما استولوا على صقلية وجنوب إيطاليا فى أواخر القرن الحادى عشر أحاطوا مدرسة سالرنو بما أحاطوا به بقية المؤسسات والدراسات العربية من رعاية وتشجيع . وكان قنسطنطين الإفريقى رئيساً لتلك المدرسة فترجم كثيراً

---

1) Cam. Med. Hist.: Vol. 4; p. 297 & Browne: oe. cit p 53

2) Eyre : Vol. 3; p 303

3) Rashdall: op. cit,; Vol. 2, p 127

4) Browne: op. cit.; Yol. 3; p. 303.

(٥) لوبون . حضارة العرب ص ٥١٩ .

من الكتابات الطبية العربية . كذلك يرجع الفضل إلى فرج بن سالم اليهودى — الذى ترجم كتاب الحاوى للرازى سنة ١٢٧٩ — فى إمداد أوربا بقسط وافر من طب العرب [1] .

وقد عنى العرب بمشافيهم عناية فائقة ، كما يبدو فى كتابات ابن بطوطة المقريزى وغيرهما . ومن يتأمل هذه الكتابات يخرج بصورة واضحة عن أن مشافى العرب لم تقل فى الاستعداد والنظام والعناية عن المستشفيات الحديثة ، كما أنها فتحت أبوابها لجميع الناس على حدسواء [2] . وكان العرب قبل إقامة مشفى جديد يدققون فى اختيار المكان الصحى المناسب ، كما يتضح ذلك مما فعله الرازى عندما عهد إليه إقامة مارستان فى أحد أحياء بغداد ؛ إذ علق بعض قطع لحم من ذبيحة واحدة فى مختلف أحياء المدينة ؛ وقال إن أصلح حى لإقامة المارستان هو الذى يتأخر فيه فساد قطعة اللحم المعلقة عن الأحياء الأخرى . ولم يكن هذا هو كل شىء ، وإنما أخذ الأوربيون عن العرب فكرة إلحاق كليات الطب بالمستشفيات حتى تكون دراسة الطلبة عملية واقعية ، بحيث لايصرح لأحد مباشرة مهنة الطب إلا بتصريح من الدولة .

وقد أنشأ أول مارستان فى العالم العربى على أيام هارون الرشيد فى بغداد ، ثم أخذت المستشفيات تنتشر بعد ذلك فى جميع أرجاء الدولة الإسلامية . ومن أعظم البيمارستانات التى شهدها العالم الإسلامى بيمارستان دمشق الذى شيد سنة ٧٠٦ . وقد نظم على بن عيسى الوزير — الطبيب — هيئة من الأطباء الموظفين — للطواف فى مختلف أرجاء الدولة وعلاج المرضى (سنة ٩٣١) ، كما خصص بعض الأطباء للتردد على السجون كل يوم وعلاج نزلائها .

أما فى الصيدلة ، فيدين العلم الحديث للعرب باستعمال عقاقير وأدوية كثيرة

---

1) Browne: op. cit.; p 68

2) Idem; p 101

كالراوند والكافور والكحول والقرنفل والمر والعنبر ، وغيرها من الأشربة والمراهم . وقد أجرى العرب تجارب عديدة على الحيوانات للوقوف على أثر بعض العقاقير لاسيما أثر المخدرات والأفيون فى تسكين الألم [1]. أما البنج الذى يظن أنه اختراع حديث ، فقد عرفه العرب فى العمليات الجراحية باستخدام الزؤان حتى يفقد المريض حواسه [2]. ومن خير الكتب التى دونها العرب فى الصيدلة والأدوية كتاب « جامع المفردات » لابن البيطار (١١٩٧—١٢٤٨). وقد جاء فى مقدمته أن « الغرض الأول بهذا الكتاب استيعاب القول فى الأدوية المفردة والأغذية المستعملة على الدوام والاستمرار عند الاحتياج [3] . . . » كذلك ذكر ابن رشد الأدوية اللازمة لعلاج مختلف الأمراض وأثرها ، سواء الأعشاب أم السوائل أم البقول أم الفواكه أم الأدوية المعدنية ، كما تناول قوانين تركيب الأدوية والانفعالات التى تحدثها بالجسم [4]. ولم يقتصر ابن رشد فى علاجه على الأدوية السابقة وإنما تكلم عن الرياضة والتدليك والنوم وكيفية رياضة الشيوخ [5] . . . وكان المسلمون أول من أنشأ مخازن للأدوية أو صيدليات ، وأول من أقام مدرسة للصيدلة ، كما كانوا شديدى التحمس فى دعوتهم إلى الاستحمام وخاصة عند الإصابة بالحميات وإلى استخدام حمام البخار .

والملاحظ أن أطباء العرب لم يقتصروا فى معالجة مواضيع الطب والصيدلة على وصف الأمراض وعلاجها ، وإنما وصفوا الغذاء بأنواعه المختلفة ووضحوا منافع كل نوع ومضاره ، والحالات التى يحسن فيها الإقلال أو الاكثار منه . فالرازى فى كتاب « منافع الأغذيه ودفع مضارها » يذكر كثيراً من ألوان

---

1) Eyret op. cet. Vol. 3; p 328

(٢) لوبون : حضارة العرب ص ١٨ ٥ .

3) Ibn al-Baitar, Tome 1; p 2

(٤) ابن رشد : الكليات ص١١٣ — ١٦٢ .

(٥) المرجع السابق ص ١٦٩ — ١٨٢.

الطعام وطرق عملها ومزايا أو مضار كل لون[1] . وابن سينا ينصح بتعديل الطعام في كميته بحيث لا يزيد أو لا يقل عن اللازم ، وفي كيفيته بأن لا يكون أحر أو أبرد، أو أيبس أو أرطب مما يجب ويحذر من تناول أغذية سريعة الهضم بعد أخرى بطيئة الهضم مباشرة كما يحذر من تناول أغذية غير منسجمة في وجبة واحدة أو وقت متقارب ، مما يسبب عفونة وعسر هضم » [2] . وينصح ابن سينا بعدم دخول الحمام دفعة واحدة والجسم مجهد ، أو الخروج منه دفعة واحدة ، نظراً لما تسببه الحالتان من نوازل [3] ، كذلك يرى عدم الإفراط في شرب الماء أثناء الطعام ، نظراً لما يسببه ذلك من عسر الهضم وتخفيف عصارة الكبد والعصارات المعدية [4] ، إلى غير ذلك من المبادىء التي ينادي بها اليوم كل طبيب في الغرب والشرق .

* * *

وبعد ، فمن الواضح أن هذا التراث العربي العظيم في مختلف العلوم التي تعرضنا لها ، كان له أثر كبير في الحياة العلمية الأوربية وفي جامعات أوربا التي نشأت منذ أواخر القرن الثاني عشر . وقد بلغ من أثر الثقافة العربية في الحياة الفكرية الأوربية ، أن أخذ الأوربيون منذ القرن الثالث عشر يربطون بين العلم ومعرفة العربية ، حتى قال روجر بيكون (١٢١٥ — ١٢٩٢) «إن الفلسفة مستمدة من العربية ، وعلى هذا الأساس لا يستطيع الشخص اللاتيني أن يفهم فلسفة العلم إلا إذا عرف اللغة التي نقلت عنها » . وهكذا أصبحت معرفة العربية شرطاً أساسياً يجب أن يتوافر في الأوربي المثقف ، مما جعل بعض الجامعات الأوربية في العصور الوسطى تعنى باللغة العربية عناية فائقة ، بوصفها لغة العلم والمعرفة . ولا مبالغة في ذلك ، فإن كثيراً من كتب العرب ومؤلفاتهم ظلت موضع ثقة الأوربيين العلمية حتى القرن السابع عشر بل التاسع عشر . فإذا كانت آراء ابن

---

(١) الرازي : كتاب منافع الأغذية ودفع مضارها ص ٧ — ٤١ .

(٢) ابن سينا : دفع المضار الكلية ص ٥ — ٦ .

(٣) المرجع السابق ص ٣٥ .

(٤) المرجع السابق ص ٤٦ — ٤٧ .

رشد وشروحه صارت المحور الذى دار حول تدريس الفلسفة فى فرنسا منذ القرن الثالث عشر ، وأقر ذلك لويس الحادى عشر عندما نظم التعليم فى بلاده فى أواخر القرن الخامس عشر ؛ فإن لوبون يقول إن أساتذة جامعة مونتبليه لم يكفوا عن شرح كتابات ابن سينا فى الطب إلا منذ خمسين سنة فقط[١] ؛ ومازالت جامعة باريس تحتفظ فى كليه الطب بصورتين كبيرتين ملونتين إحداهما للرازى والأخرى لابن سينا . ولم يكن نفوذ العرب فى الجامعات الإيطالية — وبخاصة جامعة بادوا — أقل منه فى فرنسا إذ أصبح للدراسات العربية شأن كبير فيها ، مما جعل بترارك (١٣٠٤ — ١٣٧٤) يفزع محتجاً على مواطنيه : «ياللعجب! استطاع شيشيرون أن ينبغ فى الخطابة بعد ديموستين Demothéne[٢] واستطاع فرجيل أن ينبغ فى قرض الشعر بعد هومر ؛ فهل قدر علينا ألا نكتب بعد العرب ؟ لقد أدركنا الإغريق وجميع الشعوب وسبقناها فى بعض الأحيان ماعدا العرب . فياللحماقة وياللجهل ويالعبقرية الإيطالية الخامدة!»[٣].

الجامعات :

ولكن إذا كان هذا هو أثر الدراسات العربية فى النشاط العلمى بالجامعات الأوربية فى العصور الوسطى ، فهل تأثرت هذه الجامعات فى نشأتها ونظمها بزميلاتها الإسلامية ؟ وإلى اى مدى كان هذا التأثر ؟

الواقع إن العالم الإسلامى عرف الجامعات والحياة الجامعية والنظم المرتبطة بها قبل الغرب الأوربى بمئات السنين . ومن أمثلة الجامعات الإسلامية الشهيرة الجامعة الأزهرية التى أسست فى القرن العاشر الميلادى ، والمدرسة النظامية التى أسسها فى بغداد نظام الملك وزير السلطان السلجوقى ألب أرسلان فى القرن الحادى عشر . وغير ذلك من الجامعات العديدة التى انتشرت فى العالم الإسلامى شرقية

---

(١) لوبون : حضارة العرب ص ٥١٨ .

(٢) من أشهر خطباء أثينا (٣٨٤ — ٣٢٢ ق. م)

(٣) لوبون : حضارة العرب ص ٥٩١ .

وغربية ولدينا صورة رائعة للتنظيم الجامعي في البلاد الإسلامية ، ... فيما ذكره المؤرخون عن المدرسة المستنصرية التي أسست في بغداد سنة ١٢٣٤ ، والتي امتازت بفخامة مبانيها واتساع أروقتها وغنى مكتبتها بالمؤلفات التي تناولت مختلف ضروب المعرفة[1]. وقد رتبت الكتب في تلك المكتبة بحيث يسهل الرجوع إليها لقراءتها أو نسخها ؛ ولم تضن إدارة المكتبة على الطلبة بما احتاجوا إليه من أوراق وأقلام ومسارج للاضاءة ، كما زودت المكتبة بصهاريج خاصة لتبريد مياه الشرب ، وساعة مائية عند مدخل البهو الكبير . كذلك شهدت هذه المدرسة نوعا من الحياة الجامعية لم تعرفها الجامعات الاوربية إلا في العصور الحديثة ، فكان للاساتذة والطلبة مرتبات شهرية ثابتة ، وللمدرسة مطبخ يمدهم بجرايات يومية من الخبز واللحم وغيرها من ألوان الطعام . وملحق بالمدرسة حمام للطلاب ومشفى أو بيمارستان له طبيب خاص يحضر كل صباح ليطمئن على الطلبة ويصف للمرضى ما يلزمهم من دواء بعد خصيصا لذلك المشفى . وهكذا يبدو أن الجامعات الاسلامية العربية عرفت منذ أمد بعيد قسطا من نظم المدن الجامعية التي لم تعرفها أوربا إلا بعد عصور طويلة .

وبمقارنة النظم التي اتبعت في الجامعات الاسلامية في العصور الوسطى، بنظم الجامعات الأوربية التي نشأت بعدها ، نجد أوجه شبه واضحه لا يمكن أن تكون كلها وليدة المصادفة . فالمواد التي كانت تدرس في الجامعات الاسلامية منذ القرنين العاشر والحادي عشر ، تشبه تلك التي أصبحت موضع اهتمام الطلبة الغربيين منذ أواخر القرن الثاني عشر . وطبيعة الدراسة المنظمة ، العلاقة بين الأستاذ وتلميذه، والهبات المالية ، وشتى نواحي النشاط في الحياة الجامعية كانت بدون شك متشابهة إلى حد كبير سواء في بغداد أم في اكسفورد[2].

من ذلك أن نظام المعيدين الذين عرفته الجامعات الأوربية في العصور الوسطى، ومازال معمولا به في العصور الحديثة ، عرفه العرب من قبل في مدارسهم وجامعاتهم،

---

(١) أسس هذه المدرسة الخليفة المستنصر بالله أبو جعفر المنصور المتوفى سنة ٤٦٠ هـ (١٠٦٢ م) .

(٢) جيوم : تراث الإسلام ص ٢٣٦ .

فأنشأوا يعينون معيدا لكل مدرس ليعيد على الطلبة ما ألقاه عليهم المدرس حتى يفهموه ويحسنوه، كما يشرح لهم ما يحتاج إلى الشرح[1]. وإذا كانت المراجع العربية قد أجمعت على أن وظيفة التدريس في إحدى الجامعات أو المدارس العربية ظلت جليلة القدر، يخلع السلطان على صاحبها، كما يكتب له توقيعا من ديوان الانشاء يختلف باختلاف المادة التي يدرسها المدرس[2]؛ فإن الكتاب الأوربيين أجمعوا على أن أهم ما امتازت به الجامعات الأوربية الناشئة في العصور الوسطى أن مركز الأستاذ في الجامعة كان له نفوذه ومكانته وقوته[3]. وإذا كانت شهرة الأستاذ في الجامعات الأوربية الناشئة هي العامل الأساسي في اجتذاب الطلاب من الأقطار البعيدة إلى الجامعة[4]، حتى أصبح من الأمور المألوفة في الحياة العلمية في أوربا أن يرحل الطالب من جامعة إلى أخرى ومن بلد إلى آخر ليأخذ العلم على مشاهير أساتذة عصره[5]، فإن هذا يطابق ما حدث في العالم الاسلامي من تنقل الطلبة من بلد إلى آخر سعيا وراء أستاذ مشهور أو محدث ذائع الصيت، حتى قال السيوطي عن نفسه «أخذت العلم عن ستمائة شخص»[6]، كما أخذ السخاوي العلم عن أكثر من أربعمائة نفس[7].

ومن المعروف عن نظم التعليم الإسلامية أن الطالب كان إذا أتم دراسته وتأهل للفتيا والتدريس، أجازه أستاذه ذلك وكتب له إجازة يذكر فيها اسم الطالب وشيخه ومذهبه وتاريخ الإجازة[8]. وهذا يشبه إلى حد كبير ما استنته الجامعات الأوربية التي نشأت في أواخر القرن الثاني عشر من وضع نظام يكفل للطالب الحصول

---

(١) الذهبي . تاريخ الإسلام ج ٣٢ ص ١٦٤، المقريزي : السلوك ج١ ص ٧٠٠ .

(٢) السخاوي : التبر المسبوك ص ٢٠٢ ، والقلقشندي : صبح الأعشى ج ١١ ص ٢٤٦ .

3) Eyre: op. cit. vol. 3; p 3284

4) Rashdall: op. cit. vol. 1; p 279

5) Eyre: op. cit. Vol. 3; Vp334

(٦) الشعراني : ذيل لواقح الأنوار ص ٣ ب .

(٧) العيدروسي : النور السافر ص ١٦ — ١٧

(٨) القلقشندي : صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣١٢ — ٣٢٦ .

على شهادة أو ترخيص بالتدريس (Licentia docendi) بعد أن يجتاز إمتحانا[1] . وثمة نوع آخر من الإجازات العلمية عرفه المسلمون هو الاجازة بعراضه الكتب، فيحفظ الطالب كتابا فى أى فرع من فروع المعرفة ، ثم يعرضه على أحد مشايخ عصره ، فيفتح الشيخ الكتاب ويستقرأ الطالب فى عدة أماكن مختلفة، فإذا مضى فيها من غير توقف أو تلعثم كتب له شهادة بذلك « عرض على فلان »[2] . . . » والغريب أن هذا النوع من الإجازات عرفه الغرب أيضا ، فكان الطالب يمتحن فى كتاب يختاره ليمنح إجازة البكالوريا ويصبح معيدا (Bachel r)[3] . وهذا اللفظ الاخير لم تهتد القواميس الأوربية الحديثة إلى تا د مرض لاصله ، لذلك يظن جيوم أن كلمة (بكالوريا) ليست إلا تحريفاً لعـ ، (حق الرواية) أى حق التعليم بتخويل من الغير . وقد ورد هذا اللفظ الا بى لأول مرة فى أغنية رولان ، ولذلك لايستبعد أن يكون واضع الأغنية؟ ر اللفظ من المسلمين عند الاتصال بهم فى الأندلس[4] .

وهكذا يبدو لنا من الامثلة السابقة فضل العرب فى اسـ داث كثير من التنظيمات والتقاليد التى عرفتها الجامعات الأوربية فيما بعد ولايزال بعضها معمولاً به حتى اليوم . وإن التشابه الشديد بين نظم الجامعات الأوربية وشقيقاتها العربية التى سبقتها زمنيا فى العصور الوسطى ليؤيد الظن بان الأولى أخذت عن الثانية . ويعترف جيوم بأن الصلات بين الجامعات العربية والأوربية فى العصور الوسطى أوثق مما يظن ، ولكنه يضيف أن القول بأن الجامعات الأوربية تأسست على نمط الجامعات الإسلامية تنقصه الأدلة والبراهين القاطعة[5] ونحن لانتمسك بان جميع أوجه التشابه بين الجامعات الأوربية والإسلامية مرجعه إلى أن الأولى أخذت عن الثانية ، لأنه من المحتمل أن يكون هذا التشابه استلزمته طبيعة الحياة

---

1) Rashdall: op. cit.; Vol. 1; pp. 21-23 & 221-231

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٢٧ .

3) Rashdall: op. cit.; Vol 2; p 127

(٤) جيوم : تراث الإسلام ص ٣٣٨ .

(٥) جيوم : تراث الإسلام ص ٣٣٨ .

العلمية والتنظيمات الجامعية فى العصور الوسطى . من ذلك أنه يصعب القول بان طلبة الجامعات الأوربية الناشئة فى القرن الثانى عشر — مثل جامعة بولونيا انتظموا على هيئة جاليات تضم كل منها الطلبة الأغراب الوافدين من بلد واحد[1]، لأنهم أخذوا هذه الفكرة عن الجامعات الإسلامية كاروقه الأزهر مثلا . ذلك أن وجود أعداد غفيرة من طلبة العلم المغتربين فى صعيد واحد لابد وأن يؤدى إلى نوع من الترابط بين أبناء البلد الواحد ، دون حاجه إلى أخذ هذه الفكرة عن الغير .

ومع ذلك ، فإن هذا لايحول دون اعتقادنا فى أن الجامعات الاوربية تاثرت — فى صورة أو أخرى — بنظم الجامعات الإسلامية، لاسيما أنه لايوجد ثمة مبرر يحول دن وقوع هذا التاثير . فإذا كان الطلبة الغربيون تدفقوا على الاندلس فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر لنقل علوم العرب ، وإذا كانت طبيعة المحاكاة دفعت الإنجليز الذين شاهدوا استخدام العرب للبارود فى أسبانيا إلى نقل الاختراع إلى بلادهم ، فما المانع الذى حال دون الاخذ بنظم الجامعات الإسلامية، وقد شاهد منها الاوربيون فى الاندلس نماذج زاهرة ، هذا فضلا عن الاوربيين الذين قصدوا بلاد المشرق الإسلامى طلبا للعلم ، مثل أديلارد الباثى ومن بعده ليوناردو فيبوناتشى Leonardo Fibonacci ، وهناك فى مصر والشام رأوا أمثلة الجامعات عربية عظيمة .

الفنون :

أما عن أثر الفنون الإسلامية فى الحضارة الاوربية فينقسم كلامنا فيه إلى عدة فروع تتناول الصناعة والزخرفة والعمارة .

وقبل أن نتناول كلا من هذه النواحى السابقة يجب أن نعترف بحقيقة واضحة . هى أن العرب فى الجاهلية لم يكن لهم فن قومى ذو طابع خاص. ولكن الدولة العربية لم تلبث أن اتسعت وشملت بلاداً كثيرة ، كان لبعضها فنونها وحضاراتها الخاصة بها ، وهنا استفاد العرب من ذلك التراث الضخم الخاص،

1) Rashdall: op. cit.; Vol. 1; pp. 148-149

بالشعوب الخاضعة لهم ، فتعلموا مختلف الصناعات والحرف والفنون وأجادوها وهذبوها . ثم نقلوها إلى أوربا لتستفيد منها (١) . وليس معنى هذا أن العرب لم يكونوا أصحاب فن مبتكر لأنهم أقاموا فنونهم الاولى على أسس اقتبسوها من أمم سبقتهم كالبيزنطيين والفرس . فكل أمة فى التاريخ استفادت من جهود السابقين لها ، وإلا لما تقدمت الحضارة العالمية ولأصبح لزاماً على كل جيل أن يبدأ البناء من أساسه . وإنما تتجلى مهارة الشعوب وحساسيتها الفنية فى مقدرتها على هضم ماتوصلت إليه من عناصر فنيه لتخلق منها فنا جديدا يلائم روح الشعب وطبيعته . وفى هذه الناحية فاق العرب كل من سبقهم من الامم ، وظهرت قوتهم الإبداعية فى مختلف الفنون (٢) . وهكذا استطاع العرب أن يغذوا أوربا بإنتاج مبتكر ، وصناعات جديدة ، وفنون كانت ومازالت موضع إكبار الاوربيين ومثار إعجابهم .

وفى الصناعة تجلت مهارة العرب واضحه فى كثير من الصناعات ، مثل صناعة النسيج والجلود والورق والخزف والزجاج . أما النسيج فقد نبغ المسلمون فى صنع أنواع مختلفة منه ، وأقبلت أوربا فى العصور الوسطى على المنسوجات العربية إقبالا يتجلى فى أسماء الأقمشة العربية التى مازال بعضها مستعملا حتى يومنا هذا . فقماش الفستيان Fustian منسوب إلى الفسطاط . وقماش الدمسقى Damasks منسوب إلى دمشق ، وقماش الموسلين Muslin منسوب إلى الموصل ، وقماش جرينادين Jrenadines منسوب إلى غرناطة (Grenade, Grenada) ، وقماش التابى Tabis منسوب إلى حى العتابية ببغداد ، الذى اشتهر بصناعة هذا النوع من القماش ، ومنه انتقل إلى أسبانيا وفرنسا وإيطاليا .

وقد حرف الإيطاليون اسم بغداد إلى Baldacco ثم أطلقوا هذا الإسم الأخير على الحراير الفاخرة المستوردة عن طريق العرب ، كما أطلقوه على المظلة الحريرية التى كانت تعلق على المذبح فى كثير من الكنائس وصارت تسمى Baldacchino . كذلك بلغ من الإقبال على الحراير العربية أن وجد فى كنيسة

---

(١) كريستى : تراث الإسلام ص١١ — ١٢ .

(١) لوبون . حضارة العرب ص ٥٢٨ — ٥٣٠ .

كانتربورى عدة حقائب حريرية صغيرة من صنع العرب ، استعملت فى حفظ الأختام الرسمية ويرجع تاريخها إلى أواخر القرن الثالث عشر . هذا مع ملاحظة أن تحريم لبس الحرير على الرجال فى الإسلام ، أدى إلى ظهور أنواع عديدة من الأقمشة الحريرية المخلوطة [١] .

وعندما وجد الأوربيون فى أواخر العصور الوسطى ومستبل الحديثة أن المنسوجات العربية صادفت رواجاً كبيراً فى بلادهم ، واشتد الطلب عليها فى الأسواق أدركوا الأهمية الاقتصادية لصناعة النسيج ، وبدأوا ينافسون العرب فى صناعتهم وتجارتهم [٢] .

أما عن الجلود فقد اشتهرت قرطبة بصناعتها ودبغها حتى أطلق الأوربيون على النوع الممتاز من الجلود اسم الجلد القرطبى Cordovan وفيما عدا المصنوعات العادية المعروفة استغل العرب الجلود فى تغليف الكتب ، ونبغوا فى ذلك نبوغاً أدهش الأوربيين المعاصرين ، فأحرزت مرات — بصفة خاصة — شهرة ذائعة الصيت فى فن تجليد الكتب . وقد عجز الأوربيون عن تقليد هذه الصناعة فى أول الامر ، ثم اكتفوا فى عصر النهضة الإيطالية بعمل نوع من التجليد قريب من الإنتاج العربى وإن لم يبلغ مستواه .

ولم يهمل العرب الصناعات المعدنية ، فاستغلوا مناجم النحاس والزئبق والحديد والفضة والذهب : وأتقنوا فن تسقية الفولاذ وصناعة السيوف والسلاح التى اشتهرت بها طليطلة ، وصناعة مفاتيح الابواب التى شكلوا أسنانها أحياناً وفق بعض الكلمات والأحرف الكوفية . كذلك نبغ صناع المسلمين فى صناعة الحلى الذهبية لتحلية مقابض السيوف والنقش عليها . ويرجح لوبون أن يكون الاوربيون قد اقتبسوا صناعة الحلى المنقوشة من تلك السلع العربية التى دخلت أوربا عن طريق التجارة أو التى جلبها معهم الصليبيون عند عودتهم من الشرق [٣] .

---

(١) جورج يعقوب . أثر الشرق ص ٥٥ .
(٢) كريسى : تراث الإسلام ص ٦١ ، ٦٦ .
(٣) لوبون : حضارة العرب ص ٥٨٣ .

ويضيف كريستى أنه عندما ازدهرت التجارة بين الشرق والغرب أقبل الأمراء الايطاليون إقبالا منقطع النظير على التحف والحلى العربية ، فاتخذ عمال أولئك الامراء من المصنوعات العربية نماذج يحاكونها فى الجودة والاتقان . وقد ضاعف ذلك من الأثر الذى تركته صناعة المعادن الشرقية فى الصناع الإيطاليين، حتى نشأت فى البندقية مدرسة شرقية مهمتها التوفيق بين الصناعة والزخرفة الإسلامية من ناحية والذوق الإيطالى فى عصر النهضة من ناحية أخرى[1]. ومما يوضح أثر الصناعة الاسلامية فى الغرب أن علماء المدرسة الألمانية توصلوا أخيرا إلى أن الحلى والزخارف التى عثر عليها فى بلاد الشمال — مثل السويد والنرويج والدانمرك — عليها مسحة شرقيه اسلامية ، مما يثبت أن متاجر المسلمين فى العصور اوسطى وصلت إلى تلك الجهات النائية عن طريق الفولجا . ويؤيد هذا الرأى مئات القطع من النقود العربية التى وجدت فى المدن الواقعة على بحر البلطيق وخليج فنلند مثل نوفجرود وشلوزبج وجزيرة جوتلاند Gotland وجزيرة ألاند Aland من جزر البحر البلطى

وإذا كانت الطباعة أهم حدث عرفته الإنسانية فى تاريخها الثقافى ، فإن الوصول إلى هذا الاختراع كان متعذراً ومستحيلا بدون صناعة الورق. ولا ندعى هنا أن العرب كانوا اول من صنع الورق ؛ فإن هذا شرف من حق الصينيين وحدهم أن يفخروا به بعد أن ثبت أنهم أول من صنع الورق من شرانق الحرير . وإنما يرجع فضل العرب فى هذه الصناعة إلى أنهم استطاعوا أن يستبدلوا الحرير فى صناعة الورق بمواد أخرى أكثر توافراً وأيسر منالا ، وبذلك تمكنوا من إنتاج الورق بكثرة ووفرة . كما نشروا استعماله لافى الشرق فقط بل فى الغرب أيضاً ، حيث لم يعرف الأوربيون حتى القرن الثانى عشر سوى الرقائق الجلدية فى الكتابة .

وقد استخدم الورق فى بلاد الصين سنة ١٠٥ ثم ظهر فى مكة سنة ٧٠٧، وفى مصر سنة ٨٠٠، وفى أسبانيا سنة ٩٥٠، وفى القسطنطينية سنة ١١٠٠ ، وفى

---

(١) كريستى : تراث الإسلام ص ٣٢ — ٣٣ .

صقلية سنة ١١٠٢، وفى إيطاليا سنة ١١٥٤، وفى ألمانيا سنة ١٢٢٨، وفى انجلترا سنة ١٣٠٩ [١]. وأشار كل من الثعالبى والقزوينى إلى أن صناعة الورق امتدت من الصين إلى سمرقند، حتى إذا مافتح المسلمون سمر قند سنة ٧١٢، عملوا على استخراج رقائق رفيعة من الكتان والنباتات ذات الألياف لتحل محل رقائق الجلد فى الكتابة. كذلك ذكر ابن خلدون أن الفضل بن يحيى تعرف على صناعة الورق أثناء ولايته على خراسان، ومن ثم أدخل صناعته فى بغداد على أيام هارون الرشيد فى أواخر القرن الثامن الميلادى، فانشأ أول مصنع للورق فى البلاد الإسلامية سنة ٧٩٤ فى بغداد. هذا وإن كانت أقدم وثيقة عربية وصلت إلينا على الورق ترجع إلى القرن التاسع، أو على وجه التحديد إلى سنة ٨٦٦ [٢].

وقد عثر على مخطوطة فى مكتبة الأسكوريال ترجع إلى سنة ... ممية هذه الوثيقة ترجع إلى أنها تثبت أن العرب هم أول من صنع ال... ن القطن، وبلغوا فى ذلك شأوامكنهم فى نهاية الأمر من صنع الورق من الأسمال القطنية، فضلا عن القنب والكتان [٣]. ومن بغداد انتشرت صناعة الورق فى العالم الإسلامى — مشرقة ومغربة وقد حاز مصنع شاطبة العربى شهرة واسعة فى صناعة الورق الجيد حتى امتدحه الإدريسى فى القرن الثانى عشر.

وعندما عرف الأوربيون الورق عن العرب فى القرن الثانى عشر، أطلقوا عليه اسم « الصحائف الدمشقية » Charta Damoscena نظراً لأن دمشق كانت سوقا رئيسياً لتجارة الورق فى ذلك العصر [٤]. أما أسبانيافقد أطلق عليه رقائق القماش Pergameno de paano تمييزاً له عن الرقائق الجلدية التى لم يعرف الأوربيون غيرها فى العصور الوسطى. وظل هذا الإسم ملازماً للورق فى أسبانيا حتى ظهر فى قوانين ألفونس العاشر (الحكيم) سنة ١٢٦٣.

(١) ديورانت : قصة الحضارة ؛ الجزء الثانى من المجلد الرابع ص ١٧٠.

2) Thompson: An introduction to Greek and Latin Palaeography; p. 35

3) Ibid.

4) Idem; p. 34

وكانت أولى المصانع التي أقامها العرب لصناعة الورق في الأراضي الأوربية في صقلية وأسبانيا ومن الأولى انتقلت صناعة الورق إلى إيطاليا ، ومن الثانية انتقلت صناعته إلى غرب أوربا وعندما تعلم الأوربيون صناعة الورق ،أحلوه في الكتابة محل الرقائق الجلدية الباهظة التكاليف ، والتي كانت — بسبب ارتفاع أثمانها — كثيراً مايعاد استعمالها أكثر من مرة بعد إزالة ما عليها من كتابة . وقد ثبت أن الرهبان الأوربيين كثيراً ما لجأوا في العصور الوسطى إلى محو كتابات قيمة من تراث اليونان والرومان ليكتبوا محلها على الرقائق مواعظ أو كتابات دينية . وهكذا أدى العرب خدمة جليلة لأوربا وللحضارة ، لأنهم علموا الغربيين طريقة أسهل وأفضل في الكتابة . ويشهد على أثر العرب في هذه الناحية ، كثرة المصطلحات العربية المتعلقة بالورق وصناعته ،والتي مازال بعضها مستعملا بنطقه العربي في اللغات الأوربية مثل لفظ رزمة (Rama) .

أما صناعة الفخار وما يرتبط بها من القيشاني والخزف ، فقد تفوق العرب فيها تفوقاً ظاهراً . وما زال يوجد حتى اليوم في أسبانيا والبرتغال أنواع مختلفة ونماذج رائعة من تربيعات القيشاني التي خلفها المسلمون ولم يجد المسيحيون حرجا في استخدام ذلك القيشاني المصنوع بأيد عربية في تزيين كنائسهم وقصورهم .

وقد أدى تحريم الإسلام تناول الطعام في أوان مصنوعة من المعادن الثمينة ، إلى تفوق المسلمين في صناعة نوع من الخزف اللامع ذي البريق المعدني Lustered Pottery . ولم توفق أوربا حتى اليوم في تقليد هذا النوع من الخزف العربي الذي مازالت بقاياه التي صنعها المسلمون في العصور الوسطى تفوق بكثير تلك التي تصنعها أوربا اليوم (١) .وفي هذا الخزف ترسم الزخرفة بطلاء معدني على سطح لامع ، ثم تثبت بتعريضها لنار هادئة بطريقة تكسبها بريقا معدنيا يختلف لونها بين أحمر نحاسي وأصفر ضارب للخضرة (٢) وترجع صناعة العرب لهذا النوع

---

(١) جورج يعقوب : أثر الشرق ص ٥٥ .

(١) كريسق : تراث الاسلام ص ٤٧ — ٤٨ .

من الخزف في أسبانيا إلى القرن العاشر الميلادى، حيث قامت مصانع تذيع إنتاجها لجميع انحاء العالم المعروف عندئذ. وقد اعتاد العرب أن ينقشوا على هذه الأوانى الخزفية بعض زخارف بالخط الكوفى مثل كلمة (عافية) التى جرت العادة بكتابتها على الأوانى المخصصة لحفظ الادوية . ثم ابتكر صناع الفخار فى بلنسية أنواعا أخرى من زخرفة النبات ، هذا فضلا عن الرنوك التى اتخذت فى نهاية الأمر للزخرفة [1]. وتدل هذه الرنوك على أنه جاء وقت أصبح فيه العرب يصنعون الأوانى الخزفية بناءا على توصية المشترين ، فيضعون عليها شاراتهم والرنوك الخاصة بهم . كذلك يفهم من هذه الرنوك أن مصانع أسبانيا الإسلامية صنعت أوانى خزفية خصيصا للبابوات والكرادلة والأسر النبيلة فى أسبانيا والبرتغال وفرنسا وغيرها من البلاد الأوربية . ويبدو أن آنية الخزف العربية أثارت غيرة فى نفوس الإيطاليين ، فحاولوا محاكاتها حتى نجحوا فى القرن السادس عشر فى صناعة نوع من الخزف ذى البريق المعدنى ، أطلق عليه اسم (ماجوليك) نسبة إلى جزيرة ميورقة التى قام بها مصنع عربى هام لذلك النوع من الخزف ، وهذه النسبة دليل على أن الإيطاليين استمدوا طرقهم فى صناعته من العرب [2] . وما زالت المتاحف الاوربية تحوى كثيراً من الأوانى الخزفية التى صنعت تقليدا لأوانى عرب الأندلس ، ونستدل على هذا التقليد بما عليها من كتابات عربية محرفة ، قد نشأ هذا التحريف من أن صانعى الخزف الاوربيين اتخذوا من زخارف الاوانى العربية نماذج يحاكونها ، دون فهم ماعليها من كتابات، فشوهوا الكتابات العربية لجهلهم بها . ولم ينكر الأوربيون أعجابهم بالصناعة العربية وتقليدها ، إذ يروى عن الكاردينال اكسيمنزا أنه قال عن الصناع المسلمين فى الاندلس « ينقصهم إيماننا ، وتنقصنا صناعاتهم » [3].

كذلك تقدم العرب فى صناعة الزجاج تقدما كبيرا ، نشهد عليه أوانيهم الزجاجية المذهبة أو المطلية بالميناء. والمعروف أن بلاد الشام اشتهرت منذ العصور

---

(١) ترند : تراث الإسلام ص ٢٧ .

(٢) لوبون : حضارة العرب ص ٥٤٥

(٣) زكى محمد حسن : فنون الإسلام ص ٦٦٣ .

القديمة بصناعة الزجاج لوفرة المواد اللازمة لهذه الصناعة بها فلما دخلت في نطاق الإسلام استطاع العرب أن يبتدعوا طرازا خاصا بهم في زخرفة الزجاج، وأصبح للزجاج العربي قدر كبير في بلاد أوربا المسيحية. وقد أجهد الصناع الاوربيون أنفسهم في محاكاة الانتاج العربي، حتى يرى كثير من الباحثين أن مورانو والبندقية مدينتان اصطنعتا الزجاج العربي بطرقهما. ولكن إذا كان صانعو الزجاج من البنادقة وجهوا كل عنايتهم نحو محاكاة الأساليب العربية حتى أجادوا فنهم، إلا أن إنتاجهم لا يمكن أن يرقى إلى مستوى النماذج الشرقية التي أخذت عنها في جمال شكلها ودقة صنعها وسلامة ذوقها.

فإذا انتقلنا إلى جانب آخر من جوانب النشاط الفني وهو الرسم والزخرفة، لوجدنا أن الديانة الإسلامية تمنع الرسم والتصوير وصنع التماثيل بالنسبة للافراد؛ مما دفع العرب إلى توجيه ميولهم الفنية في الرسم والزخرفة نحو الزجاج والقيشاني، والنسيج والكتب والمباني وغيرها [١]، مستعملين في ذلك عبارات من الخط الكوفي الجميل أو وحدات من الأشكال الهندسية المسجمة أو زخارف من النبات وأوراق الشجر [٢].

والخط العربي بصفة خاصة شأن كبير في الزخرفة، وذلك لأنه صالح للزينة بطبيعته، قابل للانسجام مع النقوش العربية. وفي ذلك يقول العالم الأثري المرحوم الدكتور زكي محمد حسن «إن معظم الكتابات التي نراها على العمائر والتحف الإسلامية لا يقصد بها تسجيل أسم صاحب التحفة أو مشيد البناء، أو تاريخه، أو التبرك ببعض الآيات القرآنية أو العبارات الدعائية فحسب، بل قصد بها أن تكون عنصرا زخرفيا بذاتها». وهكذا ألف الأوربيون شكل الخط العربي بالتدريج مع جهلهم بقراءته، وأكثر العبارات التي استعملها فنانو العرب في الزخرفة الخطية مستمدة من القرآن، وبخاصة عبارة «بسم الله الرحمن الرحيم» وعبارة «لا إله إلا الله محمد رسول الله».

---

(٢) زكي محمد حسن: فنون الإسلام ص ٢٣٦.

(٣) انظر مجموعة الزخارف العربية التي صورها بورجوان:

Bourgain : Les Arts Arabes

وكذلك المجموعة الكبيرة التي جمعها وشرحها المرحوم الأستاذ الدكتور زكي محمد حسن في انتاجه الأخير الضخم (أطلس الفنون الزخرفية والتصاوير الإسلامية).

وقد ذكر كريستى دليلين على اعجاب الاوربيين بالزخارف الخطية العربية مع جهلهم بمعناها ، أولهما قطعة من العملة سكها أوفا Offa ملك مرسية (٧٥٧ — ٧٦٦) وهى محفـــوظة بالمتحف البريطانى وعليها اسم الملك باللاتينية (Offa Rex) وحوله كتابة عربية منقولة نقلا دقيقا رغم أنها تحوى عبارات دينية إسلامية . أما المثل الثانى فهو صليب أيرلندى مطلى بالبرونز البراق يرجع عهده إلى القرن التاسع الميلادى . وكتبت فى وسطه عبارة البسملة بالخط الكوفى [1]. كذلك أشار الباحثون إلى أمثلة كثيرة لكتابات عربية أعجب الأوربيون بشنها الزخرفى ونقلوها دون فهم لتزيين القصور والكنائس ، من ذلك كتابة عربية حول رأس السيد المسيح المصور فوق الأبواب التى أنشأها البابا أيوجنيوس الرابع (١٤٣١ — ١٤٤٧) فى كنيسة القديس بطرس ، وخطوط أخرى كوفية على قميصى القديس بطرس والقديس بولس . ويأسف جوستاف لوبون لعدم ترجمة كل هذه الكتابات حتى الآن ، ويقول — متهكما — لعل العبارة العربية التى استعملها الصناع الاوربيون فى الزخرفة حول رأس المسيح هى عبارة « لا إله الا الله محمد رسول الله »[2] ومهما كان الأمر ، فإنه من الواضح أن استعمال الحروف العربية فى أغراض الزخرفة من الاشياء التى أخذها الغرب الأوربى عن العرب ، وكانت ذات مسحة عربية بحته .

وهكذا أخذ استعمال الحروف العربية والزخارف الإسلامية يزداد انتشارا فى صناعات أوربا المسيحية . وزاد من هذا الانتشار كثرة إعتماد أوربا على الصنائع المزخرفة الواردة من البلاد العربية كالأقمشة الحريرية والأوانى الخزفية والمصابيح النحاسية ، مما فتح الطريق أمام الفن العربى ليغزو أوربا .

كذلك أوحى الصناع والفنانون العرب إلى صناع الغرب بطريقة جديدة فى زخرفة جلود الكتب . وكان المجلدون الاوربيون يزخرفون جلود الكتب بطبع رسوم عليها مستعينين بمكابس معدنية ، فتنتج فى ذلك زخارف بارزة تتخللها

---

(١) كريستى : تراث الإسلام ص ١٧ — ١٨ .

(٢) لوبون : حضارة العرب ص ٥٥٦ — ٧٥٥ .

أجزاء منخفضة . أما الصناع المسلمون فقد أخذوا يزينون الرسوم المطبوعة بملء الأجزاء المنخفضة بطبقات مذهبة [1] وسرعان ما انتقلت هذه الطريقة إلى أوربا عن طريق البندقية ، حتى أصبحت فى القرن السادس عشر شائعة بين الأوربيين والشرقيين على السواء . وعلى الرغم من الطرق الآلية حلت اليوم محل الطرق اليدوية فى تجليد الكتب إلا أن الأوربيين مازالوا يزخرفون الكتب بوسائل كان للصناع المسلمين فضل إبلاغها درجة الكمال . هذا إلا أن الرسوم البديعة الرخاميه الشكل التى نرى كثيرا منها على غلف الورق فى الكتب وعلى حافات الكتب المجلدة فى أوربا فى القرن الثامن عشر ، كلها مأخوذة من مصادر شرقية [2] .

أما زخرفة المبانى ، فإن إسم أرابسك Arabesque الذى أطلق على الزخارف التقليدية التى تبدو بارزة بروزا بسيطا ، والتى عرفت فى إنجلترا منذ عصر الملكة الباصبات ؛ يدل هذا الإسم على أن الغرب مدين بهذه الزخارف للعرب . وهناك نوع آخر من زخارف المبانى عرفته القاهرة ، وانتشرت فيها ، دون غيرها من البلدان : ونعنى بهذه الزخرفة تخطيط واجهات المبانى تخطيطا أفقيا عن طريق إستعمال طبقة من أحجار قاتمة تتبعها طبقة أخرى من أحجار زاهية ، وهكذا . ومن المرجح أن الواجهات المخططة فى المبانى الرخامية فى بيزا وجنوا وفلورنسا وغيرها من المدن الإيطالية ، إنما اقتبست فكرتها من القاهرة التى كانت تربطها بالإيطاليين علاقات تجارية وثيقة فى العصور الوسطى [3] . ثم إن الغربيين أخذوا أيضا عن العرب استخدام الزخارف الصغيرة البارزة الموجودة فى العمائر القوطية ، وكذلك الزخارف الحجرية التى تملأ بها النوافذ فى تلك العمارة ليركب بينها الزجاج . وربما كانت هذه الزخارف الأخيرة مأخوذة عما بالمساجد من نوافذ مثقبة حجرية أو جصية .

ويقول كريستى : إن أوربا ظلت نحو ألف سنة تنظر إلى الفن الإسلامى ، على أنه أعجوبة نادرة . وكثير من الأوربيين مازالوا يحرصون على اقتناء التحف

---

(١) زكى محمد حسن . أطلس الفنون الزخرفية والتصاوير الإسلامية ، ص ٢٨٢ وما بعدها ، فنون الإسلام ص ١٥٧ .

(٢) كريستى . تراث الإسلام ص ٩١ .

(٣) مارتن برجز : تراث الإسلام ص ١٥٤ — ١٥٥

الشرقية والإسلامية ، التى أصبحت من لوازم الترف ومظاهر الأبهة ، منذ عصر النهضة الإيطالية. وفى ذلك العصر بالذات أخذ الأوربيون يدرسون بعناية أصول الزخرفة الإسلامية وقوانينها ، وبدأوا يطبقون هذه القوانين بروح جديدة فى تحف أوربية خالصة . وفى القرن السادس عشر عاد التأثير الشرقى فى الرسوم ينتشر بطريقة جديدة عن طريق كتب النماذج التى كثرت نتيجة لاختراع الطباعة « وهكذا قدر للفن الإسلامى أن ينعش فن الغرب بين حين وآخر ويستمد من ذلك المعين الذى اعتبره الأوربيون منهلا دائماً للغرب ، أكثر منه إرثاً خلفه الإسلام[1] ».

أما العمارة فبلغ فيها الفن العربى أسمى درجات الرقى والروعة . وليس هذا مجال وصف المساجد والقبور العربية فى المشرق والمغرب الإسلاميين ، وما بدا فيها من مهارة فنية تشهد على تقدم العرب فى فن المعمار ؛ وإنما نكتفى هنا بإشارة عاجلة إلى المؤثرات المعمارية العربية فى المبانى الأوربية :

وقد أجمع الباحثون على أن أعظم ما ابتكرته قرطبة فى فن العمارة هو طريقة عمل الأقبية التى تقوم على عقود متقاطعة وأضلاع ظاهرة . وهذه الطريقة تحل المعضلة الأساسية فى العمارة ، وهى عمل الأسقف ، وذلك الطريقة نفسها التى اتبعت فى العمارة القوطية فى أوربا بعد ذلك بقرنين من الزمن[2] . ويقول المستشرق جورج يعقوب إن كل العوامل التى خلقت الفن القوطى شرقية ، وصلت أوربا عن طريق المسلمين . فالعقود المدببة التى استخدمها الفن القوطى فى القرن الثانى عشر بدلا من العقود المستديرة ، كانت معرفة قبل ذلك فى الشرق الإسلامى . وقد ظهر العقد المدبب فى مقياس الروضة ، ثم فى مسجد أخيضر فى العراق الذى يرجع إلى أواخر القرن الثامن ، ثم فى جامع ابن طولون الذى شيد فى القرن التاسع الميلادى . وقد دفع ذلك بعض الباحثين إلى أن يؤكدوا استعمال المسلمين للقوس المدبب فى مبانيهم منذ القرن السابع[3] . كذلك

---

(١) كرونبق : تراث الإسلام ص ٩٦ — ٩٩ .

(٢) ترلند : تراث الإسلام ص ٢٤ .

3) Cam. Med. Hist.: Vol. 3; p 565

استخدم الطراز القومى المشربيات والشرفات ، وهذه تجدها فى سور جامع أحمد بن طولون الخارجى ، الذى يمتاز بشرفات زخرفية يمكن اعتبارها أول نموذج للاسوار ذات النوافذ والشرفات نراها بعد ذلك منتشرة فى الطراز القوطى فى أوربا . ويقول برجز : إن ظاهرة الشرفات الزخرفية والخرمة أتت إلى القاهرة من العراق ، وانتقلت بعد ذلك إلى إيطاليا حيث أصبحت من مظاهر العمارة القوطية فى أوربا [١] .

أما ظاهرة تحلية الأعمدة فى المبانى القوطية بتيجان على هيئة ناقوس ، فقد سبق الشرق الإسلامى الغرب أيضا فى إبتكارها ، إذ نجد مسجد سامرآ الذى يرجع إلى أواسط القرن التاسع الميلادى ، حليت أعمدته بتيجان على هيئة ناقوس مما يرجح انتقال هذه الظاهرة عن العرب إلى غرب أوربا [٢] . هذا إلى أن العرب الأوربى أخذ عن العرب استخدام العقود ذات الفصوص المتعددة ، والعمد المندمجة فى أركان الدعائم ، وهى ظاهرة إسلامية ترجع إلى القرن الثامن أو التاسع . ولعل هذه المؤثرات العربية كلها التى تظهر واضحة فى طراز العمارة القوطى هى التى جعلت المهندس الإنجليزى الشهير رن Wren يطلق على هذا الطراز اسم « الفن العربى » [٣] .

ويبدو أن مآذن المساجد — وبخاصة مساجد القاهرة فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر — كان لها تأثير واضح فى أبراج النواقيس فى كنائس إيطاليا فى عصر النهضة ؛ وهى التى نقل عنها رن (ت ١٧٢٣) ماصممه من أبراج عند ترميم ثم إعادة بناء كتدرائية القديس بولس فى لندن . وقد هدمت مآذن المساجد القديمة فى الأندلس ولم يبق منها سوى برج واحد فى أشبيلية يرجع إلى القرن الثانى عشر ، ولكن الباحثين استطاعوا معرفة أشكالها بالإستناد إلى أشكال أبراج كنائس طليطلة ، التى روعى فيها محاكاة مآذن المساجد العربية . ولو أقام العرب فى بلاد الأندلس مآذن مماثلة لمآذنهم فى القاهرة لكان

---

(١) مارتن برجز : تراث الإسلام ص ١٣٠—١٥٨ .

(٢) المرجع السابق ص ١٣٢ .

3) Lethaby : The Legacy of The middle ages, p,61

نصارى الأسبان قد قلدوها حتما [1] » . وفى أرغونة نجد أبراج الكنائس منفصلة عنها انفصال المـآذن عن المساجد فى العمارة الإسلامية أما الظاهرة التى نلاحظها فى مساجد القاهرة ، وهى عمل شرفات على شكل أسنان المنشار ، فمن المعقول أن يكون تأثر بها قصر الدوج بالبندقية وغيره من القصور المشابهة [2] .

أما فى فن العمارة الحربى فيلاحظ أن الصليبيين أخذوا عن العرب كثيرا من فنون التحصين وعمل الاستحكامات عن طريق محاكاة القلاع الإسلامية التى شاهدوا منها نماذج عديدة فى بلاد الشام ومصر . وقد أشرنا من قبل إلى انتقال نظام المشربيات من المبانى العربية إلى أوربا ، حيث ظهرت فى الطراز القوطى . وهنا نضيف أن هذه المشربيات لم يستخدمها العرب فى المبانى المدنية فحسب ، بل فى القلاع الحربية وفى أسوار المدن كوسيلة من وسائل الدفاع . وهذه المشربيات عبارة عن دعائم يتقارب بعضها من بعض ، وتحمل فوقها حواجز بارزة ، وبين كل دعامتين فتحة مقفولة بباب مستور يمكن أن تصوب السهام منه إلى رؤوس المحاصرين الذين يحاولون أن يحفروا تحت الجدران أو يشعلوا تحتها النيران ، كما يمكن من هذه المشربيات أن يصب الزيت والماء المغليان على رؤوس المحاصرين [3] . وهناك مثلان للمشربيات فوق باب النصر (١٠٨٧) أحد أبواب القاهرة وهما أقدم بنحو قرن من أية مشربية عرفت فى أوربا . ذلك أن أقدم أمثلة لدينا لهذه الظاهرة المعمارية فى أوربا ، نجدها فى شاتو جيار Chateau Gaillard (سنة ١١٨٤) وشاتيون Chatillon (سنة ١١٨٦) ونورويتش Norwich (سنة ١١٨٧) وروتشستر (سنة ١١٩٣) وبمقارنة

---

(١) لوبون : حضارة العرب ص ٥٦٢ .

(٢) مارتن برجز : تراث الإسلام ص ١٤٦ .

(٣) زكى محمد حسن : فنون الإسلام ص ٦٦١ .

التواريخ السابقة يبدو جليا أن الصليبيين اقتبسوا فكرة هذه الظاهرة المعارية عن العرب ، ولا يمكن أن يكون العكس صحيحا .

وثمة ظاهرة أخرى فى فن العمارة الحربى استعارها الغرب عن المسلمين فى مصر وبلاد الشام إبان عصر الحروب الصليبية ، وهى جعل المدخل الحربى من باب القلعة إلى داخلها متعرجا أو على شكل زاوية قائمة ، حتى لا يتمكن العدو إذا وصل قرب الباب من رؤية الفناء الداخلى للحصن أو يصوب سهامه إلى من فيه[1] ولم يعرف الرومان أو البيزنطيون هذا النوع من المداخل الملتوية ، وإنما كانت تشيد عدة أبواب متتالية على خط عمودى واحد يفصل كل باب عن الآخر فضاء وتدل الأبحاث الحديثة على أن العرب كانوا أول من استعمل المداخل الملتوية فى بغداد فى القرن الثامن الميلادى ، ثم بدت ظاهرة واضحة جلية فى قلعة صلاح الدين بالقاهرة (سنة ١١٧٦) ، وبعد ذلك فى قلعة حلب. وعندما انتقلت ظاهرة المدخل الملتوى إلى قلاع أوربا ، ظهرت بوضوح فى قلعة بوماريس Beaumaris فى إنجلترا وفى قلعة كاركاسون فى فرنسا[2] .

وهكذا يبدو لنا أثر العرب فى الفنون الأوربية واضحاً جليا ، ليس فقط فى البلاد التى أقام بها المسلمون مثل صقلية وأسبانيا ، وإنما أيضاً فى غيرها من البلاد الأوربية مثل إيطاليا وفرنسا وإنجلترا . ففى إيطاليا تتضح كثير من مظاهر المعمار العربى فى مبانى أمالفى وسالرنو والبندقية . وفى فرنسا نجد كثير من الكنائس والحصون تأثرت فى تصميمها وزخرفتها بالفنون العربية ، حتى أن باب كنيسة بوى Puy تكسوه كتابات عربيه واضحة . وفى إنجلترا توجد أمثلة نادرة من الزخارف العربية ، وظهرت هذه الزخارف بوضوح فى كنيسة نورثمبتن Northampton ، وفى غيرها من الكنائس والحصون . وهنا يصح أن نشير

---

(١) زكى محمد حسن : فنون الإسلام ص ٦٦١ .

(٢) ماونتن برجز : تراث الإسلام ص ١٣٧ - ١٤٠ .

إلى أن الأوربيين فى العصور الوسطى استخدموا كثيراً من المعماريين العرب منذ عصر شالمان ، مما ساعد على نقل الفنون العربية إلى الغرب الاوربى .

الموسيقى :

وهناك جانب آخر من الفنون الحسية كان للعرب فيه فضل كبير على الغرب الأوربى ، ونعنى به الموسيقى . حقيقة أن الفارق كبير اليوم بين الموسيقى العربية والموسيقى الغربية ، ولكن هذا الفارق — الذى هو نتيجة طبيعة لاستعداد الشعوب وإختلاف طبائعها وتاريخها — لا يحول دون الإعتراف بأثر العرب فى الموسيقى الغربية وتطورها . ويقول ترند إن نظرية الموسيقى الاوربية تأثرت — كغيرها من نواحى المعرفة فى العصور الوسطى — بالمؤلفين المسلمين . كذلك يقول ولز إن الغرب لم يعرف أى نوع من أنواع الإنسجام الموسيقى فى العصور الوسطى حتى زمن الحروب الصليبية ، عندما قويت الصلات بين أوربا والبلاد الإسلامية . ومنذ ذلك الوقت أخذ يظهر فى الموسيقى الغربية نوع من التوزيع الغنائى وإنسجام الألحان ، فضلا عن تطور تدوين النوتة الموسيقيه ، حتى أصبح من الممكن تسجيل الأصوات المتباينة والتعبير عنها . ولا شك فى أن الفضل فى ذلك التطور الذى أصابته الموسيقى الغربية منذ القرن الثانى عشر — عندما انتشر التوزيع الغنائى والإنسجام الموسيقى (الهارموتى) — إنما مرده إلى تأثير العرب وجهودهم .

وقد ترجم العرب بعض أبحاث اليونانيين فى الموسيقى ، فيما بين القرنين الثامن والحادى عشر ، كما أضاف العرب كثيراً من الكتابات المبتكرة فى ذلك الفن [١] . ويعبر يونج Young عن هذه الإضافات التى ابتكرها العرب بأنها

---

(١) ترند : تراث الاسلام ص ٣٤ .

« خلقت لنا ثروة عظيمة فى نوعها ومقدارها[١] » . ومن أهم علماء العرب الذين كتبوا فى الموسيقى الكندى (ت ٨٧٣) والفارابى (ت ٩٥٠) وابن سينا (ت ١٠٣٧) وعبد المؤمن (ت ١٢٩٤). أما الكندى فكتب عدة رسائل فى الموسيقى ، منها رسالة فى ترتيب النغم ؛ ورسالة فى الإيقاع ، ورسالة فى المدخل إلى صنعة الموسيقى . . ولم يتبق من كتاباته فى الموسيقى سوى ثلاث رسائل أو أربع[٢] . وأما الفارابى فكان أعظمهم جميعاً ، واعترف ارته فى فن الموسيقى كتاب الشرق والغرب جميعاً ففى الشرق استدعاه سيف ا لة الحدانى للاقامة فى حلب حيث جذبت شهرته الطلاب من كل مكان ، فأ ا عليه ليحاضرهم فى فن الموسيقى فى الحدائق وبين الأزهار والأشجار . وفى رب ذاع صيته حيث عرف باسم Alpharbius . ومن كتاباته « كتاب سيقى الكبير » و « كلام فى الموسيقى » ، « كتاب فى إحصاء الإيقاع » . لم يبق سوى الجزء الأول من مؤلفه الأول[٣] . كذلك أسهم ابن سينا بقسط وافر فى تقدم علم الموسيقى ، وله ثلاث رسائل فى الموسيقى ، أهمها وردت فى كتاب «الشفا»[٤] . أما عبد المؤمن فقد ألف « بهجة العيون » ، كما أن السلم الموسيقى الذى وضعه يعتبر أكمل سلم ظهر باعتراف باحثى الغرب . والحق إن عبد المؤمن كان مؤسس المدرسة الموسيقية فى بغداد ، كما كان أعظم الموسيقيين النظريين بعد الفارابى[٥] .

وقد ازدهرت الموسيقى العربية بالأندلس . فوفد الطلاب الأوربيون إلى قرطبة حيث ترجموا كتابات العرب فى علم الموسيقى إلى اللاتينية . كذلك

---

(١) محمد خلف الله أحمد الثقافة الاسلامية والحياة المعاصرة .

2) Farmer: A History of Arabian Music; pp. 127-128

3) Idem; pp. 157-177

4) Idem; pp. 218-220

5) Enc. Isl. arc. Musiki & Farmer : op. cit; p 200

استخدام حكام قشتاله وأرغونه المسيحيون موسيقيين من العرب . ولا يزال الشرقيون حتى اليوم يروى الموسيقى الأسبانية أقرب إليهم من بقية ألوان الموسيقى الأوربية[1] . وكثير من الآلات الموسيقية الحديثة لم تكن معروفة فى أوربا ، وإنما عرفها الأوربيون عن طريق مسلمى أسبانيا مما دفع أو دنجتون شيخ الموسيقيين الأورربيين فى القرن الثالث عشر — إلى تمجيد الموسيقيين العرب فى حماسة بالغة[2] .

وخير شاهد لدينا على أثر العرب فى الموسيقى الغربية ، ذلك العدد الوافر من المصطلحات والأسماء الموسيقية التى نقلها الغرب بألفاظها العربية إلى لغاته ؛ فلفظ Lute مأخوذ من عود ، guitar مأخوذ من قيثارة ، Rebec أو Ribible مأخوذ من رباب ، Naker من النقارة ، و kanoon مأخوذ من القانون Timpal مأخوذ من الطبل . . . الخ[3] .

المعنويات والأخلاق :

وبعد ، فإن هذه العجالة لا تشمل سوى بعض أفضال العرب على أوربا والحضارة الأوربية . ويقال جيوم « سوف نرى عندما تخرج إلى النور الكنوز المودعة فى دور الكتب الأوربية أن تأثير العرب الخالد فى العصور الوسطى كان أجل شأناً وأكبر خطراً مما عرفناه حتى اليوم »[4] . والواقع أننا — حتى قبل دراسة هذه الكنوز المخبوءة التى أشار إليها جيوم — نجد آثار العرب أعظم من أن تقدر أو يحاط بها ؛ ليس فقط فى ميادين الآداب والعلوم والفنون التى تعرضنا

---

(١) أحمد أمين ظهر الإسلام جـ٢ ص٣٠١ .

(٢) ترنيد : تراث الإسلام ص٣٥ .

3) Farmer: op. cit.; pp. 208-210

(٤) جيوم : تراث الإسلام ص ٣٢٣ .

لها فى إيجاز ، بل أيضاً فى غيرها من ميادين الحضارة ومختلف نواحى الحياة العامة والاقتصادية والاجتماعية . . وفوق هذا وذاك نجد تأثير العرب قوياً على أوربا فى المعنويات والمثل العليا والأخلاق .

ويكفى أن العرب علموا الأوربيين أجل الصفات الإنسانية التى يجب ان يتحلى بها البشر ، وهى صفة التسامح الدينى [1] . وقد بلغ من تسامح العرب فى أسبانيا أنهم سمحوا لأساقفة المسيحيين بعقد مؤتمراتهم ومجامعهم الدينية ، مثل مجمع أشبيلية الذى عقد سنة ٧٨٢ ومجمع قرطبة الذى عقد سنة ٨٥٢ . هذا إلى أن أسبانيا العربية كانت البلد الأوربى الوحيد فى العصور الوسطى الذى تمتع فيه اليهود بحقوقهم كاملة كما تمتعوا برعاية الدولة لهم .

وكان للمرأة فى ظل الأمويين بالأندلس نصيب من الحرية وحـــظ من الاعتبار لم يعرفه العالم عندئذ ، لا فى الشرق ولا فى الغرب [2] .هذا عدا ما امتاز به العرب من صفات الفروسية وأخلاقها الكريمة التى اقتبسها الأوربيون بعد ذلك من العرب [3] . وكان للفروسية العربية شروطها ، فلا يكون المرء فارساً إلا إذا تحلى بخصال عشر هى « التقوى ، والشجاعة ، ورقة الشمائل ، والقريحة الشعرية ، والفصاحة ، والقوة ، والمهارة فى ركوب الخيل ، والقدرة على استعمال السيف ، والرمح ، والنشاب » . ويمـكننا أن نتصور الفارق العظيم بين هذه المبادىء التى اتخذها العرب شعاراً للفروسية ، وبين الفروسية كما تصورها الغربيون فى القرن الحادى عشر ممثلة فى شخص السيد القمبياطور El-Gamdeador [4] ؛

1) Cam. Med. Hist.; Vol. 4; p 287

(٢) ترند: تراث الإسلام ص ١٦ .

3) Eileen Power: The Legacy of lhe Middle Ages; p 407.

(٤) اسمه الحقيقى Diah 1 de Bivar ؛ وترجع أهميته فى الأدب إلى القصص الذى دار حول أعماله فى الصراع بين العرب والمسيحين فى أسبانيا فى القرن الحادى عشر . ويميل بعض الباحثين إلى القول بأن شخصية كانت خرافية . وسواء كانت القصص المنسوبة إليه حقيقية أو من نسج الخيال ، فالذى يهمنا هو أنها تصور مثل البطولة والفروسية عند الأوربيين فى ذلك العصر . أنظر :

Dozy: Recherches sur l'histoire et la Litterature de l'Espagne; Tome 2; pp 6-233

الذى تفيض سيرته بحوادث النهب والسرقة والغدر ونقض العهد وقد حدث أن دخل مدينة بالقسية صلحاً ، فلم يحجم عن شى أميرة المدينة العجوز على النار ليكرهها على كشف ما كان يظن وجوده فى قصرها من كنوز [1] . وشتان بين هذا السلوك ، ومسلك والى قرطبه عندما حاصر طليطله سنة ١١٣٩ ، فأرسلت إليه الملكة بيرانجيز التى كانت بالمدينة تبلغه أنه ليس من الشجاعة والشرف وكرم الأخلاق أن يقوم بطل فارس بحصار امرأة ، فارتد القائد العربى عندما سمع ذلك وأبى أن يتم عمله الحربى ضد المدينة .

والواقع أن هذه الأخلاق الكريمة التى عرف بها العرب من أمانه وكرم وإخلاص ووفاء ورحمة — هى التى شجعت ملوك قشتاله وناربون وأرغونه ، وغيرهم من الحكام المسيحيين على الذهاب آمنين إلى قرطبة العربية ليعالجهم أطباؤها المشهورون [2] . وهكذا لا يتمالك باحث أوربى منصف — مثل جوستاف لوبون — نفسه ، فيعترف فى صراحة بتأثير العرب الواضح فى الأخلاق والطبائع الأوربية ، قائلا « تخلص النصارى من همجيتهم بفضل اتصالهم بالعرب واقتباسهم منهم الطبائع النبيلة ومبادىء فروسيتهم التى منها مراعاة النساء والشيوخ والأولاد وإحترام العهود والوفاء بالوعود [3] » . وهو هنا يشير إلى العبارة التى ذكرها بارثلمى سانت هيلير حيث قال « لقد هذبت طبائع أمرائنا الإقطاعيين الخشنة فى العصور الوسطى بفضل علاقتهم بالعرب وتقليدهم لها ، فتعلم أشرافنا وفرساننا رقة العواطف ولين الطبائع وحسن الأخلاق دون أن يفقدوا شيئاً من شجاعتهم . وإننى أشك فى أن النصرانية وحدها كانت تستطيع أن تأتى مثل ذلك التأثير ، مهما يبالغ فى إكرامها [4] » .

---

1) Idem: p. XXVII & Cam. Med. Hist. Vol. 4; p 287

(٢) لوبون : حضارة العرب ص ٢٩٦ — ٣٠٠ .

(٣) المرجع السابق ص ٥٩٧ .

4) Barthelmy Saint Hilaire: Mahomet et le Coran, Paris 1865

ثم يعقب لوبون على ذلك متسائلا « لماذا إذا ينكر علماء الوقت الحاضر — الذين يضعون مبدأ حرية الفكر فوق كل إعتبار ديني — تأثير العرب ؟ إنني لا أرى سوى جواب واحد عن هذا السؤال ، وهو أن استقلالنا الفكري لم يكن في غير الظواهر ، وأننا لسنا أحرار الفكر في بعض الموضوعات ويتراءى لبعض الفضلاء أنه من العار أن تكون أوربا مدنية في خروجها من دور الهمجية للعرب (الكفار) ، ولكن من الصعب أن يحجب مثل هذا العار الوهمي وجه الحقائق[1] » .

(١) لوبون حضارة العرب ص ٥٩٩ .



الفهرست

الصفحة

الصفحة

القسم الثانى

الصفحة

صفحة

صفحة

صفحة

القسم الثالث

فضل العرب على الحضارة الأوربية ٤٦٥

